

الطبعة الشرعية الوحيدة بمصر

تَهْنِئَاتٌ وَمَدَاحُ السَّالِكِينَ

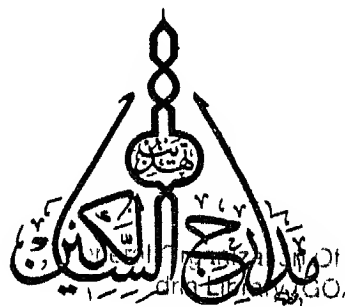
كتبه

الإمام ابن لقيم الجوزية

هذبه

عبد المنعم صالح العلي الغزي







حقوق الطبع محفوظة

1417 هـ - 1997 م

☐ الكتاب تهذيب مدارج السالكين

☐ الكاتب . الإمام / ابن القيم الحنابلة

تهذيب / عبد المنعم صالح العلي العزى

☐ الطبعة : الأولى الشرعية في مصر 1997 م .

☐ الناشر دار الشير للثقافة والعلوم - ططا

☐ التوزيع دار الشير - ططا - أمام كلية التربية الرعية

322404 فاكس 331800 - 228277

☐ التجهيز الفني . شركة الدي للتجهيزات الفنية - الحلة الكبرى ص 265

☐ الإيداع القانوني . 97/2118

☐ الترقيم الدولي I S B N 977 - 278 - 043 - 7

نَهْذِيْبُ مَدَانِجِ السَّالِكِيْنَ

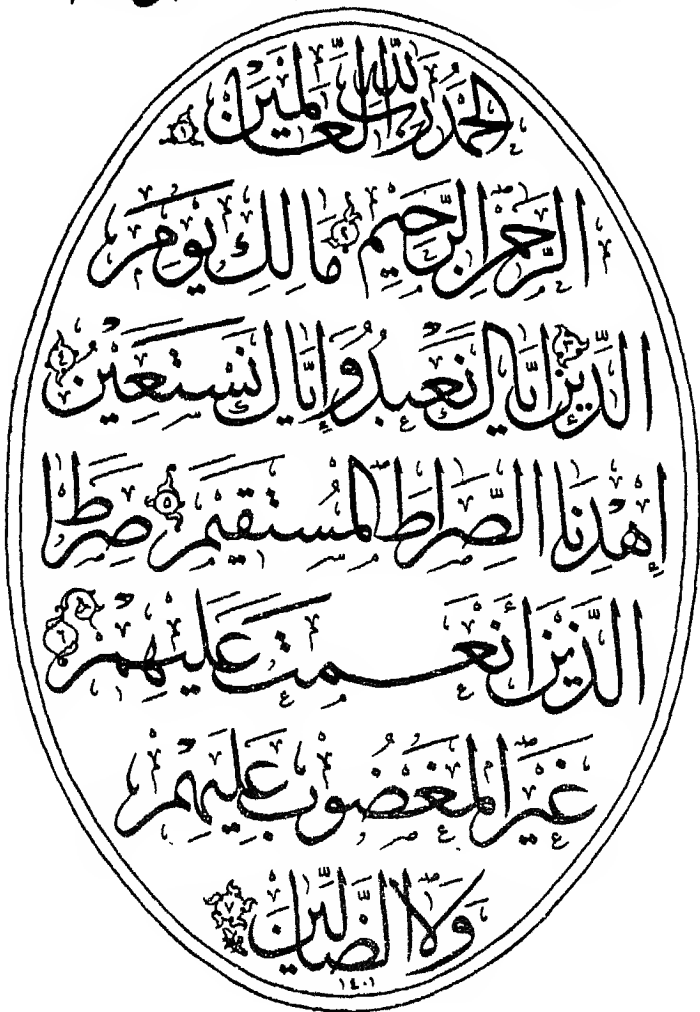
كتبه
الإمام ابن لقِيم الجوزية

هذبه
عبد المنعم صالح العلي العزى

الطبعة السريعة الوصية بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مَقَالَتُهُ . . هَذَا الْكَلَامُ

الحمد لله رب العالمين، الذي ميّز طريق الهداية عن مناهات الغواية، وبَيَّن محاسن الاخلاق الايمانية، وجعلها مدارج صاعدة الى جناته، مفتوحة امام اولي الهمة من العابدين.
ثم الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد أفضل وأزكى من حرص على هذه الاخلاق، فكان اسرع السالكين، وأول الواصلين.

ورضى الله تعالى عن صحابته الطاهرين اجمعين، الذين اتبعوا النور، وامثلوا الأمر، وعافوا سهاج الدنيا، وتجردوا للعبادة والجهاد، حتى صاروا خير مثال للتربية الكريمة النبوية، وعلى تابعيهم باحسان، ومن تبعهم من أخيار القرون الاولى، ومن سار على نهجهم واقتدى بهديهم، من السلف الصالح ومن لحق بهم غلًى من المصير، من الفقهاء الزهاد، والدعاة العالمين، والقادة المشيرين.

وفي رجال الاسلام اليوم بركة، ولهم مِثْلُ نَحْيَةٍ ودعاء.

وبعد :

فان الصحوة الاسلامية الحاضرة التي واكّبت انتشارها مقدّم القرن الهجري المبارك الجديد تُعتبر من اهم أحداث التاريخ الاسلامي المعاصر، وفي سعتها واندفاعتها ما يتيح للحريص على إبرار معالم ماضي الاسلام ان يجعلها تنويجاً ونهاية لسلسلة المفاهيم التي قدمتها الدعوة الاسلامية في القرون الرابع عشر، كما ان في مضاع عزيمة رحالها ووعيهم لضرورة الجد في استدراك النقص ما يتيح من باب آخر للمتفائل ان يعدّها أول تبشير الحقائق التي تؤكد وتحزم باذن الله تعالى بأن المستقبل لهذا الدين القيم في القرن الخامس عشر.

وصحوة هذا شأنها في تجميل التراث السالف وتقريب المستقبل الباسم من حقها علينا أن سادر لرعايتها وإيمانها وتحتن عمليتها الترموية التي يُفترض فيها أن ترتقي بمستويات اهلها، وتأخذ منهم مزيداً من العطاء والبذل، وتضرم في اخذتهم لهيباً من الحماسة والشجاعة، مثلما تمنحهم بقاء العقيدة، تارجاعها الى حادها السلفي الاصيل من غير بدعة، وجمال الاخلاق، بإحياء سمت المروءة ومكارم الاعمال القلبية بلا تكلف، ووضوح الفقه، باسناد الى صحاح المصنوع ومقالات جمهور الفقهاء دوفا شذوذ، وشمول الوعي، بإحلال تناسب في الفن العملي مع أعراف المجتمعات الحاضرة وابعادها المدنية.

ولقد كان من احتشادنا في ذلك - اختيار كتاب «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد

وإياك نستعين» والقيام بهذه، وتقديمه الى شباب الاسلام، عنواناً للمساهمة في هذه التنمية العملية التربوية، ورديفاً لتهديب شرح العقيدة الطحاوية.

ولا يعمد القيم «المدارج» حق معرفتها إلا من درج، وكتاب الامام ابن القيم هذا عمل بهذه، غزير المنفعة، بليغ العبارة، وفيه من دقة استخراج المعاني الايمانية ولطف الاشارات القلبية ما ليس في غيره، حتى ان المكتابات الاخرى لابن القيم لا تستطيع أن تُنافس نفسه فيه، وكأنني به قد كُتِبَ واعتكف له في أبهى أيامه وأثناء وصوله الى ذروة صفاء حياته، فان كل مصلح او مؤلف او شاعر يرتفع في حياته مرة الى هلو قد لا يتكرر والمدارج إنتاج تأملات تلك الايام العوالي في حياة ابن القيم، حتى انه هو نفسه لم يستطع الحفاظ على هذا المستوى يوم اختصر المدارج في المختصر الذي سماه: «طريق المجرتين»، وشقان ما بين الاسلوبين والروحين.

● منازل سير وميزان اعتدال

والاصل الذي حَكَم ترتيب كلام ابن القيم هو كتاب «منازل السائرين» لشيخ الاسلام ابي اسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الانصاري المروني الحنبلي الصوفي المتوفى سنة ٤٨١ هـ، فقد قسم طريق سير المؤمن الى الله تعالى الى مائة منزل، هي مثل محطات التزود في اي طريق طويل، او هي منازل طبقية ودرجات صعود ومدارج انطلاق، تتوالى في تتابع، وجعل لكل منزلة مفهوماً وحداً يليق لعامة المسلمين، وآخر خاصة للمؤمنين، ثم خاصة الخاصة، مما اضطره الى كثير من التكلف المعنوي واللفظي الذي تأباه طبيعة السكينة الايمانية.

ولم تكن متابعة ابن القيم للشيخ المروني هدفاً له، ولا هي من اهدافنا، ولكنه وجد بعض المبتدعة يُزَوِّجون لاختطأ وقع فيها المروني، وشطحات واوهام جَنَحَ اليها بسبب مشربه الصوفي، رغم اتباعه لعقيدة وفقه وطريقة سلوك الامام احمد بن حنبل على وجه الاجمال، فردَّ ابن القيم هذه الاختطأ، وأوضح الاوهام، وأداه رَدَّه وإيضاحه الى استطراد ملي بالمخاطبات القلبية كانت انفع وأهم من الرد، وهذه الاستطرادات هي مبتغانا، لقيمتها التربوية، وهي التي أبقي عليها هذا التهذيب.

كان المروني من أجل أئمة السلف، ولكن الله ابي ان تكون العصمة لأحد.

قال ابن القيم:

(صاحب المنازل رحمه الله كان شديد الإثبات للاسماء والصفات، مضاداً للجهمية من كل وجه، وله كتاب «الفاروق»: استوعب فيه احاديث الصفات وآثارها، ولم يُسبق الى

مسله، وكتاب «ذم الكلام وأهله»: طريقته فيه أحسن طريقة، وكتاب لطيف في أصول الدين يسلك فيه طريقة أهل الإثبات ويقرها، وله مع الجهمية المقامات المشهودة، وشواهد يقتله الله السلطان مراراً عديدة، والله يصمه منهم، ورموه بالتشبيه والتجسيم، على عادة بهت الجهمية والمعتزلة لأهل السنة والحديث، الذين لم يتحيزوا إلى مقالة غير مادّة عليه الكتاب والسنة^(١).
وأكد ابن القيم أنه (بريء مما رماه به أعداؤه الجهمية من التشبيه والتمثيل، على عادتهم في رمي أهل الحديث)^(٢) (وهو بريء منهم عقلاً ودينًا وحالاً ومعرفة)^(٣). وفي بعض كلام المروزي ما (يدل على رسوخ الشيخ في العلم، ووقوفه مع أهل السنة، وفقهه في هذا الشأن)^(٤).
وينال انصاف ابن القيم أعجابنا واحترامنا، إذ كان صاحب ميزان اعتدال بقله شديد الحرص على انتفاع المسلمين من احسان المحسن الذي يحتلط صوابه باخطاء، وهو يرى ان ما وقع فيه المروزي من مجانبية الصواب انما هو (من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات، ويستغفرها كمال الصدق، وصحة المعاملة، وقوة الاخلاص، وتحرير التوحيد، ولم تضمن العصمة لشريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(٥).

وتشفع سيرة المروزي له شفاعة قوية، وتنتصب مواقفه قرينة ترجح حسن الظن به، وتعمل على الاعتقاد بأنه ضحية التأويل فيما اخطأ فيه، وقد كان شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: عمله خير من علمه).

قال ابن القيم: (وصدق رحمه الله، فسيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد أهل البدع، لا يشق له فيها غبار، وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله، وأبى الله ان يكسوتوب العصمة لغیر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم)^(٦).
ومن الخير ان يظل القارئ في عافية من تعكير يولده ذكر هفوات الشيخ المروزي، ويكفيه ان يتابع ابن القيم في انصافه والعمل بقاعدة الموازنة بين صواب رجال الاسلام واخطائهم، وعلمهم واعمالهم. ثم اولى له ان يدعو للمروزي مع ابن القيم فيقول: (الله يشكر لشيخ الاسلام سعيه، و يعلي درجته، ويميزه افضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه في عمل كرامته)^(٧).

● منهج هذا التهذيب

وقد حرصنا في هذا التهذيب على تخلص كتاب المدارج من جميع سلبياته التي كانت تقطع

(١) إلى (٧): مدارج السالكين ١/٢٦٣، ٢/٨٧، ١/٥٠، ٣/٢١٨، ٢/٣٩، ٣/٣٩٤، ٢/٥٢.

على القارىء استرساله واندماجه القلبي مع المعاني الواعظة، فان اخطاه الهروي ومحاولة ابرار
المبتدعة لها قد اضطر ابن القيم الى ان يطيل النفس في مواضع كثيرة في فضح عقيدة وشدة
الوجود الزائفة، وإلى ان يبين تهافت من يرى نفي الاسباب، وقد حرصنا على حذف كل ذلك
إلا نزرأ يسيراً، لقلة حاجة المسلمين اليوم الى التفقه في الرد عليها، تبعاً لضيق دائرة ذكرها،
وانقراض هذا النوع من المبتدعة تقريباً من اغلب بلاد الاسلام، وبرز بدع من جنس آخر،
وسيطل كتاب (المدارج) الاصل مُنتصباً كالمناريين من يحتاج الى أن يرد اهل وحدة الوجود
ونفاة الاسباب، إن ذنن منهم أحد.

وما حذفته أيضاً: الكثير من كلام الهروي التكلف، لا مجرد عباراته الخاطئة، وقد رأيت أن
أدمج كلماته القليلة مع كلمات ابن القيم من دون حصرها بقوس، حتى عاد لايميزها القارىء،
إلا في مواضع قليلة، وربما غيّرت بعض الفاظه الى الاوضح، وانما فعلت ذلك اجتهداً، طلباً
لتسام الاسترسال وقطعاً للتقطيع والاستئناف، ولم أجد في ذلك بأساً كبيراً، إذ أن بإمكان من
يحتاج تمييز كلمات الهروي ان يراجع الاصل غير المهذب ليحدها كاملة مفصلة.

وبنفس المقياس عاملت الحواشي التي اضافها الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله خلال
تحقيقه للكتاب، فقد حذف الكثير منها، إما لتكرار المعنى، وإما لخشونة الفاظه وشدة تقده،
وأبقيت على بعضها النافع والضروري، ولكن رفعتها عن الهامش ووضعتها في مواضع لاثقة بين
كلمات ابن القيم نفسه من دون فصل، ولتمييزها طبعناها بحرف أصغر من الحرف الذي طبع
به عموم الكتاب.

والغيت أيضاً: الاستطرادات الفقهية التي لجأ اليها ابن القيم ان لم يكن ذكرها ضرورياً،
وهي تستطيل الى عشر صفحات أحياناً، وهذه الاستطرادات مليئة بالمنافع وغزيرة الفوائد،
ولكنها ليست من أصل موضوع الكتاب.

وكذلك كان حذف الاستطرادات اللغوية، والشواهد الشعرية، والالفاظ الغريبة التي لم
تُعَد متداولة، والاصطلاحات الصوفية الغامضة، والاحاديث الضعيفة، والآثار الاسرائيلية،
والاقوال المنسوبة الى زهاد مجروحين، والمعاني المكررة، والمنازل التي ظن الهروي انها من
منازل الايمان ولكنها مبرجحة ولا تشهد لما التصوص أو آداب السلف.

وكنت احذف أحياناً اسطرراً لمجرد طلب الاختصار في مواضع التحويل، وجملاً أحس
بذوقي وتجربتي صواب رفعها والاستغناء عنها، وإيائاً من قطع شرعية نظمها ابن القيم نفسه،
لضعف ملكته في باب الشعر وبرودة أكثر ما أورده.

والسلبية الوحيدة التي لم استطع التخلص منها: ما في الشرح من اضطراب ابن القيم لمجاراة
اسي اسماعيل الهروي في استعمال اصطلاحات المتصوفة المهمة، كالكسالك، والمُريد، والحال.

والمقام، وغير ذلك، ولم أر في الابقاء عليها شيئاً من الخرج، طالما لا يقرن بهذه الاصطلاحات المعنى الخاطيء، فإن هذا الكتاب كتاب سُفِّي على نهج اهل الحديث، ربطت معانيه باصطلاحات يمكننا ان نفهم من مطلق معانيها المعنى الصحيح الذي لا يتركه النص وإن أراد بها البعض معنى خاصاً.

و يلحق بهذا التسلب: عدم تحقيقنا للكمية الباقية من الاحاديث النبوية الكريمة او نسبتها الى روايتها، اذ حال دون ذلك عامل السرعة في اخراج الكتاب، مراعاة لفوائد اقتضت التعجيل، وإن كان يشفع لنا في ذلك ان معظم هذه الاحاديث هي احاديث صحيحة مشهورة يجدها المتبحر بسهولة في الصحيحين والسنن الاربعة ومسند أحمد، وقد أشار ابن القيم الى صحتها او حسنها في مواضع كثيرة.

وعقابل هذا الحذف: أنشأتُ وأضفتُ جميع العناوين الثانوية الجزئية المميزة بدائرة صغيرة سوداء بين الفقرات، واخترت لها أجل العبارات التي تناسب السياق، وهي اضافة اراها مهمة، تزيد الوضوح، وتبرز المعاني، وتؤسس للقارىء انتباهاً متواصلاً. وقد ساعد على نيل هذا الوضوح ايضاً بعض تقديم وتأخير لجأت اليه، ومناقشات من موضع الى موضع، ومن جزء الى جزء، تجمعت المعاني المتماثلة في مكان واحد، ثم زاد الوضوح بإظهار متناسق لبيدات الفصول والنمازل، وترقيمها، وتجويد ترتيبها.

وهكذا فاني اظن ان كتاب «مدارج السالكين» الصعب المُقَطَّع قد أصبح بهذا التهذيب والترتيب كتاباً بسيطاً سلساً قريباً من الجميع، وصار أهلاً أن أقدمه وأرشحه كمنهج متكامل لمادة الاخلاق الاسلامية، ومنهج اضافي لمادة العقيدة، يُعتمد تدريسه في كليات الشريعة والمعاهد الدينية، وفي جميع مدارس وزارات التربية. كما انه يعتبر مورداً رئيساً ورافداً ثرياً يعين الواعظ، ويخيطب الجمعة، وامام المسجد، ويصلح ان يوضع منهجاً تأديبياً لعموم شباب الدعوة الاسلامية، وهو الآن، بصورته المهدبة هذه، من خير ما يُقرأ على الاصحاب والجلساء في مجالس التَّسَمُّر العاتمة في بيوت اهل الثُّبُل في الحواضر، او في دواوين الضيافة عند رؤساء البوادي والارياف، ووصيتي لدعاة الاسلام خاصة ان يقرأوه مرة، بعد مرة، بعد مرة، وأن يحفظوا اللهم من سطره وشواهد من الآيات والاحاديث، فانهم — إن فعلوا ذلك —: ارتقوا الى ارفع درجات للقدرة على الوعظ والخطابة والتبليغ والتأثير والافناع.

● لذة الفصاحة العربية

وقد تكون ترجمة هذا الكتاب الى اللغات الاخرى جد مفيدة، لتبليغ من لا يحسن العربية

هذه المعاني الاساسية المهمة، ولكن التذاذهم بها سوف لا يرقى الى مثل لذة القارىء العربي، إذ هيئات ثم هيئات ان تُنقل هذه البلاغة الفذة المقتسة من مشكاة البيان العربي القرآنى الى لغة اخرى دون ان تفقد رونقها، فان الهروي متفنن في الفاظه، كما ان ابن القيم كان في اقصى انفساسه الايماني حين كتب هذا الشرح، فجاءت عباراته سهلة جميلة ذات طلاوة تمتنع على الترجمة من غير نقصان بهاائها. وتكرر هذه الظاهرة في كتب كثيرة، وهي تهيب بالمسلمين غير العرب أن يتعلموا العربية بانقاد ليتسنى لهم فهم معنى "ونيل لذة ما لهم بحائزين له ولا بنائليها من خلالها الترجمات قط.

● اعتراض ... ولكن

وقد يعترض البعض فينتقد هذه الخطة التي اتبعتها في هذا التهذيب لهذا الكتاب القيم، ويأتني المعترض بشواهد من اعراف الناس في الاختصار، او ينطلق من منطق حماسه في التصدي للمبتدعة، إلا ان تجربتي في التربية لا تترك لي مجالاً اتنازل فيه عن الاعتقاد بأن هذا المقدار الذي اخترته من الكتاب، بهذا الترتيب والاحراج، هو انفع لطلاب الاسلام من المتن الكامل اضعافاً مضاعفة، وان عدد الذين سيفهمونه منهم هم اضعاف عدد الذين يفهمون الاصل، مع زيادة لذة واندماج مع هذه الاسطر الباقية، في استرسال هادئ يلين القلوب لم يكسوا بواحديه لما كان هذا الكلام مختلطاً بالنقاش مع الفلاسفة والمبتدعة، او لما كان الكلام مُقَطَّعاً بالتفريع، والاستطراد الجانبي، والهوامش، والفصل بين كلام الهروي والشرح.

اما لم استصوب أن تغف اعراف المؤلفين حائلاً دون جعل تهذيب المدارح وثيقة تربوية سليمة في يد الشباب المسلم، فان الذين يهذبون الكتب يحرصون على جميع المعاني في الأصل، ولكن في عبارات موجزة، ولسنا نريد ذلك، بل غايته اعانة شباب الاسلام على تركية قلوبهم وتعميرها بأخلاق الايمان، دون إقلاقها بذكر البدع والرد عليها، فان اكثر هذه البدع اليوم تكاد ان لاتجد لها معتقداً، الا قلة ينحسرون انفسهم في دوائر ضيقة، وفي بعض البلاد دون بعض، مما سؤف لنا ان ندرج سماع الشباب في عافية من هذا التخليط الذي فضحه ابن القيم، وأن ترك افندتهم مناسبة مع حلاوة التذكير، دونما نقاش يصحبه التذكير. فمن وافقنا في طريقنا الشبهية هذه: كانت موافقة قرينة على مقارنة تجربته التربوية لتجاربنا، ومن أبى وأنكر علينا ما حذفناه وبذله: دعونا الى ان يعتبر «تهذيب مدارج السالكين» مؤلفاً جديداً كان

المدارج مصدره الوحيد، ولانحب ان تحول الشكليات دون تعميم الفوائد، وليس المهم أن نحفظ فخرنا لابن القيم، لتعير عباراته، ولا سيما للهروي، لنبقى على استقلال الفاظه، فان ذلك محفوظ لهما في طبعة المدارج الكاملة، ولكن المهم ان نضع خلاصة ترموية بين يدي المربي والتلميذ معاً، تعين على ترقيق قلوبهم، وتركبة نفوسهم، ولو أنني كنت صنعت هذا الذي صنعتُه تجاه كتاب مخطوط لم يُنشر من قبل لجار هذا الاعتراض عليا، ولكنني لم أزد على ان اخترت منهجاً من أصل مطبوع متداول يسهل على طالب نصوصه الكاملة ان يظفر به.

● سَلَفِي وَصُوفِي معاً

وكان هذا الكتاب سيكون حامياً ان شاء الله ، تجتمع عليه قلوب اصحاب المشارب المختلفة من المسلمين، فانه مجموعة قِمان وتقريرات سَلَفِيَّة، مشروحة مؤداة بِلُغَةٍ صُوفِيَّة. ولا تعجل فتتذكر علينا أن له سُلْخه من هذه اللغة الصوفية، فإِن القارئ ب روية وإيمان لهذا الكتاب النفيس سيُدرِك — كما ادركنا — انه من ارقى ما دونته المدرسة السلفية، وانه لا يمكن تأدية نفس ما أذاه ابن القيم فيه اذا عَرَّينا اسلوبه عن هذه الاصطلاحات الصوفية، ولذلك لم نجد في الابقاء على مجاراته لاسلوب شيخ الاسلام الهروي ضيراً، طالما ان ابن القيم كان موفقاً في هذا الكتاب كما هو موفق في جميع كتاباته لبيان خطئ البدع والتمثيل والتأويل والتعطيل.

وممكنني شعوري في النهاية بأن فضل الله تعالى عليّ كبير حين المني ان أجعل لاحواني دعاة الاسلام وعموم العابدين شغل خير تهذيب المدارج والاشراف على طبعه، والترويج له، والحث على مطالعته، منذ سنوات من قبل طبعه، فمألت أوقاتهم بالضع وخواطر الجدل، وروقتُ السننهم على التلفظ بالاقوال اللطاف والرقاق الواعظة، فصيّتُ على وساوس السوء الثغرات التي تليح منها، وغرّلت الماظ الشيطان ان تتحرك بها اللسنة، وتلك نعمة يجب عليّ شكرها، وحسنة وُفِّقْتُ لها يحق لي أن أملاً قلبي سروراً بها، وانا أرجو كل منته من هذا التهذيب ان يطيل الاستغفار لي، ثمناً لتمهيدي درب فراره الى اله عز وجل، وأل يشكر لورارة العدل والشؤون الاسلامية والاقواق بدولة الامارات العربية المتحدة حُسن احتفالها بمقدم القرن الهجري المبارك الخامس عشر، وحرصها على المشاركة في تمهيد الطريق للسالكين من خلال المساهمة بتبلي الطبعة الاولى من هذه التوطئة لمدارج الايمان.

وكذلك هو الطريق الأعلى دائماً، يوصلنا اليه التواضع، والسجود، ونخفض الجناح،
والإخبات.
وفي كل آخر يلبق استئناف الحمد لرب رؤوف رحيم .

عبد المنعم صالح العلي العزّي
خبير البحوث الإسلامية
بوزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
بدولة الامارات العربية المتحدة
محرم الحرام ١٤٠٢ هـ

مُنْتَبِهَاتُ الْمُفْتَتَى الشيخ محمد صالح المنجد

الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين. والعاقبة للمتقين. ولا عدوان إلا على الظالمين. وصلّى الله وسلّم وبارك على خاتم المرسلين، وإمام المهتدين، من اصطفاه الله ربنا، فأرسله رحمة للعالمين، وأحسن قدوة للمتقين. عبدالله ورسوله محمد، وعلى آله أجمعين. وجعلنا من آله وحزبه المفلحين في الدنيا و يوم الدين.

وبعد، فهذا كتاب «مدارج السالكين» تأليف شيخ الإسلام والمسلمين، القائم ببيان الحق ونصر الدين. الذاب — بما أوتى من قوة — عن سنة سيد المرسلين، الطاعن بستان قلعه الحاد في نحور المبتدعين، القاطع بسيف حقه البتار أعناق المخرفين، ترجمان القرآن. ذي الفنون البديعة الحسان. اللهم من ربه القيام بالهدى والبيان، المؤيد من الله بواضح الحجة وناصح البرهان أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، المعروف بمواقفه الخالدة:

الزُّبَيْرِيُّ الْجَوْشَنِيُّ

عفر الله لنا وله وللمؤمنين، واسكنه فسيح جنّته. وألحقنا به على صادق الإيمان حاول فيه — رحمه الله ورضى عنه — أن يجعل من كتاب «منازل السائرين» لأبي إسماعيل — عبد الله بن محمد بن علي الهروي الحنبلّي، المتوفى في سنة ٤٨١ هجرية — منارا يهدي إلى الرشاد، ودليلا الى صراط الله المستقيم.

وإنما يقوم هذا الإسلام على العبودية التامة بكل خصائصها للجميع، وأن تكون في كل مواضعها صادقة، بكل ذل وحجب، واستسلام وإذعان وانقياد، وطاعة تامة لله رب العالمين. الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. و (ليس كمثله شيء. وهو السميع البصير) لا تجهل ولا تغفل ولا تنسى. ولا تقول على الله وفي الله، إلا ما قال الله. وقال رسوله. تشكر نعمة الله على الجميع في الإنسانية السمعية البصيرة العاقلة المميزة الكريمة. وفي هدى الفطرة وهدى الرسالة وتحمس أشد الحرص على إعطاء كل ذي حق حقه. مؤمنة بأن الله ماحلق

السموات والأرض وما بينهما باطلا. وإنما خلق كل شيء بالحق الثابت الذي لا يتغير بهرى الإنسان وجهله، وباطل أمانيه، قاله ربنا هو الحق، ووعد الحق وقوله الحق، وكتبه الحق، وقضاه الحق.

• • •

ودين الجاهلية، دين شياطين الإنس والجن، دين أعداء الله وأعداء رسله. وأعداء أنفسهم: يطرد كذلك. ومحاول أن يغلب ويتمكن (لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لأنهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم. ولا تجد أكثرهم شاكرين) ويروج هذا الدين ويقوم على سوقه ويشد كلما تكاثفت ظلمات الجاهلية التقليدية. وكلما انتشر عفن الإعراض والعصى عن آثار أسماء الله وصفاته في الأنفس والآفاق. وعن سنن الله وآياته في الأنفس والآفاق. وعن كتبه وفيهما وتدبرها، وعن هدى رسله. فيضل الناس حيثذ طريق الرش والخبز، ويمعوا عن الحقائق الثابتة في السموات والأرض، وفي أنفسهم. ويشقون بضرهم وراء عدوهم الشيطان في كل واد من أودية الهلكة. معرضين غافلين ناسين لآيات الله — في الأنفس والآفاق — التي تذكهم بأسمائه وصفاته (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا. ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم مشرتني أعمى، وقد كنت بصيرا؟ قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه. ولعذاب الآخرة أشد وأبقى).

• • •

ومن أضمن النظر والفكر في آيات الله الكونية. وآياته القرآنية. وتأمل وتدبر صادقا مخلصاً — بما أتاه الله من أسباب العلم والهدى في سمعه وبصره وعقله هو — في آي القرآن وقصصه وتذكيره ووعيده ونذره وعبره. وألقى السمع وهو شهيد. فإنه ينكشف له تمام الانكشاف: أن كل ما تشقى به البشرية اليوم — وفي كل عصر — من الكفر، والفسوق، والعصيان. إنما تولد كله بحذاقيره من طريق التقليد الأعمى، الذي زينه وأوحى به أعداء الرسل من شياطين الجن والإنس. وزخرفوا القول به غرورا (ولو شاء ربك مافعلوه. فذرهم وما يفترون. ولنصفى إليه أفسدة الذين لا يؤمنون بالآخرة. وليرضوه وليقتروا ما هم مقترون) من بدع يشرعونها، وخرافات وأهواء يستحسنونها، وشهوات يروجونها، حتى تقسو عليها القلوب، فتظلم النفوس، وتعمى القلوب التي في الصدور. وما أصدق نصيحة رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس لو عقلوا ونصحو لأ أنفسهم. إذ قال «ترككم على المحجة البيضاء، ليلها نهارها. لا يزيغ عنها إلا هالك» وقال «تركتم فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي».

فما أشد حاجة البشرية — في شرق الأرض وغربها — اليوم إلى الرجوع إلى هذه المحبة البيضاء . مستمسكين بحبل الله المتين . من هدى كلامه ، الذي لا يزال غصنا طريا ، كما نزل به جبريل على صفوة خلقه ، وأكرم عبادته ، وخاتم رسله ، من عند الله رب الناس . ملك الناس ، إليه الناس ، — هدى وشفاء لما في الصدور ، وهاديا لهم إلى التي هي أقوم في كل شأن وكل عمل . إنهم — والله — لو فعلوا ، ورجعوا إلى ربهم وإلى فهم كتابه صادقين مخلصين ، ولأنفسهم ناصحين : لهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط العزيز الحميد .

وفي الحق أن كتاب «مدارج السالكين» من خير ما كتب الإمام ابن القيم — وحسبك بابن القيم — في تهذيب النفوس والأخلاق والتأديب والآداب المتقين الصادقين . مما يدل أوضح دلالة على أنه كان من أولئك المهتدين الصادقين . الذين طابت نفوسهم بتقوى الله ، واستنارت بصائرهم بهدى الله . وأنه — إن شاء الله — في جنة الرضوان مع المتقين الصادقين .

ولما كان مكان كتاب «مدارج السالكين» كذلك . وكانت الطبعة الاولى — التي طبعت في مطبعة المنار سنة ١٣٣٤ هـ — قد نفذت ، واشتد حرص الناس عليه ، وعظمت حاجتهم إليه بالأخص في هذا العصر الذي أغرق الناس فيه طوفان المادة ، واشتد تعلقهم بها ، وتعلقت نجاحهم في كل شأن من الشؤون بأذيالها . فاشتعلت نيران العداوة والبغضاء بينهم ، واستشرت الوحشية في كل مجتمعاتهم . واشتدت لذلك متاعبهم ، وتضاعفت همومهم ، وتراكمت أسباب الشقاء ، وتكد العيش ، وتضافرت المحن والفتن ، وألحت عليهم من كل ناحية ، متولدة من احتكاكات المادة ، وتركيز الانظار إليها ، وتكريس الجهود فيها . حتى صارت إلههم المسيطر على قلوبهم .

لأجل ذلك توجهت المهمة إلى طبعه هذه الطبعة المجودة الأنيقة . ليسد الحاجة الماسة إليه في عصر المادة . راجيا أن ينفع الله به ، ويجمع به إلى هذا النشاط المادي عند الناس ، صفاء الأرواح ، وتقوى النفوس ، وتهذيب الأخلاق . حتى يجعل الله للعرب والمسلمين — فيما آتاهم من الأسباب المادية ، والغنى والثراء الحاضر ، والمنتظر في المستقبل ، إن شاء الله — حياة عزيزة كريمة طيبة آمنة في ظل الإسلام ، على مثال ما كان عليه سلفنا الصالح رضي الله عنهم ، الذين جمع الله لهم الدين والدنيا . فمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، لأنهم كانوا يعبدونه لا يشركون به شيئا .

وكتبه فقير عفو الله

محمد حامد الفقي

١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م

القاهرة

مَقَرَّةُ نَزْلِ الْقِيَمَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وبه نستعين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين، وإله المرسلين، وقيوم السموات والأرضين. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث بالكتاب المبين، الفارق بين الهدى والضلال، والقي والرشاد، والشك واليقين. أنزله لنسقره تدبراً، وتأمله تبصراً، ونسجد به تذكراً، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه. ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياضين الحكم من بين رياضه وأزهاره. فهو كتابه الدالُّ عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات، ورحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عبادِهِ إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الدخول، فلا يفلق إذا غُلِّقَت الأبواب. وهو الصراط المستقيم الذي لا حميل به الآراء، والذكر الحكيم الذي لا تزيج به الأهواء، والتركُّ الكريم الذي لا يشيع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، ولا تُقْلَعُ سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولا تختلف دلالاته، كذا ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيراً، زادها هداية وتبصيراً. وكلما تجسست سمعته فُجِّرَ لها ينابيع الحكمة تفجيراً. فهو نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها وتجواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح، إلى بلاد الأفراح، والمنادى بالمساء والعصباح: يا أهل الفلاح، حتى على الفلاح. نادى منادي الإيمان على رأس الصراط المستقيم (٤٦: ٣١) يا قومنا أطيعوا داعي الله وأطيعوا به يُغْفَرْ لَكُمْ من ذنوبكم ويُجْزَمَ من عذاب أليم).

ولقد كان كمال الإنسان بالعلم النافع، والعمل الصالح. وهما الهدى ودين الحق، وبشكمله لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالى (وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كَمَّلَ قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره

بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولايمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما — كان حقيقاً بالإنسان أن يُنفق ساعات عمره — يل أنفاسه — فيما ينال به الطالب العالية، ويخلص به من الحسرات المبين. وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة دافئته، وصرف العناية إليه، والمكوف بالهمة عليه. فإنه الكفيل بمصالح العباد، في المعاش والمعاد. والموصل لهم إلى سبيل الرشاد.

ونحن — نعوذ بالله — ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن، وعلى بعض ماتضمنته هذه السورة من هذه الطالب، وماتضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال. وماتضمنته من منازل السائرين، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائلها وغاياتها، وبيان أنه لايقوم غير هذه السورة مقامها، ولايسد مسدها. ولذلك لم ينزل الله في التوراة ولاني الإنجيل ولاني القرآن مثلها.

والله المستعان، وعليه التكلان. ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

فَاتِحَةُ لَطَائِفِ الْعَالِيَةِ

اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتغال، وتضمنتها أكمل تضمن .

فاشتملت على التعريف بالمعبود - تبارك وتعالى - بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنی والصفات العليا إليها، ومدارها عليها . وهي «الله، الرب، الرحمن» وبنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة - «إياك نعبد» مبنى على الإلهية. و«إياك نستعين» على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة. والحمد يتضمن الامور الثلاثة. فهو للمحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسننها وسيئها. وتفرقة الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلاق، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله «مالك يوم الدين».

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة.

أحدها: كونه رب العالمين. فلا يليق به أن يترك عباده سُدىً همتلاً لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا كهُنُ للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى مالا يليق به.

وما قدره حق قدره من نسيه إليه.

الثاني: أخذها من اسم «الله» وهو المألوه المعبود. ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرحمن» فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم. فمن أعطى اسم «الرحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ، وإخراج الحب. فاقضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب. وأدرك منه أولو الأبواب أمراً وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر «يوم الدين» فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات؛ ويعاقبهم على المعاصي والسيئات. وما كان الله ليحبب أحداً قبل إقامة

الحجة عليه. والحجة إنما قامت برسله وكتبه. وبهم استحق الثواب والعقاب. وبهم قام سوق يوم الدين. وسبق الأبرار إلى النعيم. والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله «إياك فعبد» فإن ما يُعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه. وعبادته — وهي شكره وحبه وخشيته — فطرى ومعقول للعقول السليمة. لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم. وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول. يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع. فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسِل. ولم يؤمن به. ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفراً به.

الموضع السادس: من قوله «اهدنا الصراط المستقيم» فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب، وتحييه إليه، وتزيينه في القلب. وجعله مؤثراً له، راضياً به. راضياً فيه.

وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما. وهما متضمنتان تعريف مالم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً. وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لا تباعه ظاهراً وباطناً. ثم خلق القدرة على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم. ثم ادامه ذلك لنا وتشبثنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم. ومالا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه. ومالا نقدر عليه — بما نريده — كذلك. وما نعرف جلسته ولا بهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التشبث والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى — وهي آخر مراتبها — وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة. وهو الصراط الموصل إليها، فمن هدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، لهدى هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على قسطن جهنم. وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط. فمهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كسكة الركاب، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمتشي مشياً، ومنهم من يجوحيّوا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار. فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو العدة بالقدرة، جزاء وفقاً (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون؟).

وليتنظر الشبهات والشبهات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم. فإنها الكلايب التي يتجنت ذاك الصراط ، تحطه وتعوقه عن المرور عليه. فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك (وما ربك بظلام للعبيد).

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر. الموضوع السابع: من معرفة نفس المسؤول. وهو الصراط المستقيم. ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعة للمارين عليه، وتعيينه طريقاً للمقصود. ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة. فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين. وكلما تعوج طال وبعد. واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سقته. وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بخالفة صراط أهل الغضب والضلال، يستلزم تعيينه طريقاً.

و«الصراط» تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالى (١٥٣:٦) وأن هذا صراطي مستقيماً) وقوله (١٥٣:٤٢) وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم: صراط الله) وتارة يضاف إلى العباد، كما في الفاتحة، لكونهم أهل سلوكه. وهو المنسوب لهم. وهم المارون عليه.

الموضع الثامن: من ذكر المنعم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال. فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة. لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق. أو جاهلاً به. والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفاً له. فهذه أقسام المكلفين. لا يخرجون عنها البتة. فالعالم بالحق العامل به: هو المنعم عليه. وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح. وهو المفلح (٩:٩١) قد أفلح من زكاه) والعالم به المتبع هواه: هو المضطرب عليه. والجاهل بالحق: هو الضال. والمضطرب عليه ضال عن هداية العمل. والضال مضطرب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل. فكل منهما ضال مضطرب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به. ومن هنا كان اليهود أحق به. وهو متغلظ في حقهم. كقوله تعالى في حقهم (٩٠:٢) بشما اشتروا به أنفسهم: أن يكفروا بما أنزل الله بغيماً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فبأهوا بغضب على غضب) وقال تعالى (٦٠:٥) قل هل أنبشكم بشر من ذلك مثوبة عند الله؟ من لعنه الله وغضب عليه، وجعل منهم القرود والخنازير وعبد الطاغوت. أولئك شرمكان وأهل عن سواء السبيل) والجاهل بالحق: أحق باسم الضلال. ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى (٧٧:٥) قل يا أهل الكتاب لا تغفلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد

هصلوا من قبل وأهسلوا كثيراً ، وهسلوا عن سواء السبيل) فالأول: في سياق الخطاب مع اليهود . والثانية : في سياقه مع النصارى . وفي الترمذي وصحيح ابن جبرين . من حديث عدي ابن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اليهود مغضوب عليهم. والنصارى همالون».

ففي ذكر المنعم عليهم — وهم من عرف الحق واتبعه — والمغضوب عليهم — وهم من عرفه واتبع هواه — والضالين وهم من جهله — : ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة . لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود . وهذه القسمة إما أوجبها ثبوت الرسالة . وأضاف النعمة إليه ، وحذف فاعل الغضب لوجوه .

منها: أن النعمة هي الخير والفضل . والغضب من باب الانتقام والعدل . والرحمة تغلب الغضب ، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين ، وأسبقهما وأقواما . وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه . وحذف الفاعل في مقابلتهما . كقول مؤمنى الجن (٧٢: ١٠) وأنا لاتدرى أشتر أريد بمن في الأرض، أم أراد بهم ربهم وتشدداً) ومنه قول الخضير في شأن الجدار واليتيمين (١٨: ٨٢) فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كثرهما) وقال في خرق السفينة (١٨: ٧٩) فأردت أن أعيبها) ثم قال بعد ذلك (وما فعلته عن أمري).

الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعمة (١٦: ٥٣) وما بكم من نعمة فمن الله) فأضيف إليه ما هو منفرد به . وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقاً وتجربى للنعمة . وأما الغضب على أعدائه: فلا يختص به تعالى ، بل ملائكته وأنبيأؤه وأوليأؤه يغضبون لغضبه . فكان في لفظة «المغضوب عليهم» جواقة أوليائه له: من الدلالة على تفردّه بالإتمام ، وأن النعمة المطلقة منه وحده ، هو المنفرد بها — مالمس في لفظة «المنعم عليهم» .

الوجه الثالث: أن في حذف فاعل الغضب من الإشارات بإهانة المغضوب عليه ، وتحقيره . وتصغير شأنه مالمس في ذكر فاعل النعمة ، من إكرام المنعم عليه والاشادة بذكوره ، ورفع قدره ، مالمس في حذفه ، فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه ، ورفع قدره فقلت: هذا الذي أكرمه السلطان ، وخلع عليه وأعطاه ماقتناه . كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أكرمه وخلع عليه وشرف وأعطى .

وتأمل سراً بديعاً في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره . فإن الإتمام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية ، التي هي العلم النافع والعمل الصالح . وهي الهدى ودين الحق . ويتضمن كمال الإتمام بحسن الثواب والجزاء . فهذا تمام النعمة . ولفظ «أنعمت عليهم» يتضمن الأمرين .

وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضاً أمرين: الجزاء بالغضب الذي موجه غاية

العذاب والموان، والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه. فإنه أرحم وأرف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال؛ فكان الغضب عليهم مستلزم لضلالهم. وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم. فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله، وغضب الله عليه. فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاء أكمل اقتضاء، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة، وحذفه في أهل الغضب. وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال.

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال. فذكر «المغضوب عليهم» و«الضالين» في مقابلة المهتدين النعم عليهم. وهذا كثير في القرآن، يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح. فالشأنى كقولہ (٤: ٢) أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون) وقوله (٨٢: ٦) أولئك هم الأمن وهم مهتدون) والأول كقولہ تعالى (٤٧: ٥٤) إن المجرمين في ضلال وسوء) وقوله (٧: ٢) ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة. ولهم عذاب عظيم) وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله (١٢٣: ٢٠) فإذا يأتيكم منى هدى، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) فهذا الهدى والسعادة. ثم قال (١٤: ٢٠) ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً. ونحشره يوم القيامة أعمى. قال: رب لم حشرتني أعمى، وقد كنت بصيراً؟ قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تُنسى) فذكر الضلال والشقاء. فالهدى والسعادة متلازمان. والضلال والشقاء متلازمان.

● الهداية تورث الاستعلاء

وذكر «الصراط المستقيم» مفرداً معرّفاً تعريفين: تعريفاً باللام، وتعريفاً بالاضافة. وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد. وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه يجمعها وبقدرها، كقولہ (١٥٣: ٦) وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فوحد لفظ «الصراط» و«سبيله». وجمع «السبل» المخالفة له. وقال ابن مسعود «خلق لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره، وقال: هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله). ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد. وهو ما بحث به رسله وأزل به كتبه. لا يصل إليه أحد إلا من هذا الطريق. ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحو

من كل باب ، فالطرق عليهم مسدودة، والابواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد. فإنه متصل بالله، موصل إلى الله. قال الله تعالى (١٥: ٤١) هذا صراط علي مستقيم) قال الحسن: معناه صراط إلى مستقيم. وهذا يحتمل أمرين : أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض فقامت أداة «عل» مقام «إلى» والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى. وهو الأشبه بطريق السلف. أي صراط موصل إلى. وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه، لا يفتقر على شيء. وهذا مثل قول الحسن وأبين منه. وهو من أصبح ماقيل في الآية. وقيل: «عل» فيه للوجوب، أي عليّ بيانه وتمريقه والدلالة عليه. والقولان نظير القولين في آية النحل. وهي (١٦: ٩) وعلى الله قصد السبيل) والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر: أن السبيل المقصد — وهو المستقيم المعتدل — يرجع إلى الله ويوصل إليه. قال طغفيل الغنوي.

مَضَوْا سَلْفًا ، قَصَدَ السَّبِيلَ عَلَيْهِمْ وَصَرَّفَ الْمَنَابِيَا بِالرَّجَالِ تَتَقَلَّبُ
أَيُّ مَرْنَا عَلَيْهِمْ، وَإِلَيْهِمْ وَصَلْنَا . وَقَالَ الْآخَرُ:

فَهَنَ الْمَنَابِيَا: أَيُّ وَادٍ سَلَكَهُ عَلَيْهَا طَرِيقِي، أَوْ عَلَيَّ طَرِيقُهَا

فإن قيل : لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التي هي للانتهاء، لا أداة «عل» التي هي للوجوب. ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال (٨٨: ٢٣، ٢٢) إِنْ إِلَيْنَا يَا بَيْتَهُمْ، ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) وقال (٣٠: ٢٣) إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) وقال (٦: ١٠٨) ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ) وقال لما أراد الوحوب (٨٨: ٢٦) إِنْ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) وقال (٧٥: ١٧) إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) وقال (٦: ٣٨) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) ونظائر ذلك؟.

قيل: في أداة «عل» سر لطيف. وهو الاشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى. وهو حق. كما قال في حق المؤمنين (٢: ٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ) وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (٢٧: ٢٩) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى. فكان في أداة «عل» على هذا المعنى ما ليس في أداة «إلى» فتأمل، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر «عل» في ذلك أيضاً. وكيف يكون المؤمن مستعياً على الحق، وعلى الهدى؟.

قلت: لما فيه من استعماله وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه. فكان في الإتيان بأداة «عل» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته. وهذا بخلاف الضلال والريب. فإنه يؤتى فيه بأداة «في» الدالة على انغماس صاحبه، وانغماسه فيه، كقوله تعالى (٩: ٤٥)

فهم في زلّهم يترّدون) وقوله (٣٩:٦) والذين كذبوا بآياتنا هُتُمٌ وبُكُرمٌ في الظلمات) وقوله (٢٤:٢٣) فذَرْنَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ) وقوله (١٤:٤٢) وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ).

وتأمل قوله تعالى (٢٤:٣٤) وَإِنَّا أَوْ يَٰكُم لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلى الكبير، وطريق الضلال تأخذ سُفْلاً، هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

● إن ربي على صراط مستقيم

والصراط المستقيم: هو صراط الله. وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه، كما ذكرنا، ويخبر أنه سبحانه على الصراط المستقيم. وهذا في موضعين من القرآن: في هود، والنحل. قال في هود (٥٦:١١) مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إن ربي على صراط مستقيم) وقال في النحل (٧٦:١٦) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ، أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لآيَاتٍ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؟) فهذا مثل ضربه الله للأصنام التي لا تسمع. ولا تنطق ولا تعقل، وهي كَلٌّ على عابدها، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده، ويضعه و يقيمه ويحمله. فكيف يسوونه في العادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد؟ وهو قادر متكلم، غنى. وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله. فقوله صدق ورشد ونصح وهدى. وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة. هذا أصح الأقوال في الآية. وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره.

ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم. فإن دلالة بفعله وقوله، وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله. فلا يتناقض قول من قال: إنه سبحانه على الصراط المستقيم.

قال: وقيل: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالعدل. وهو على صراط مستقيم.

قلت: وهذا حق لا يتناقض القول الأول. فالله على الصراط المستقيم، ورسوله عليه. فإنه لا يأمر ولا يعمل إلا مقتضاه وموجه. وعلى هذا يكون المثل مضروباً لإمام الكفار وهادٍ بهم، وهو الصنم الذي هو أنكم، لا يقدر على هدى ولا حير. وإمام الأبرار، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.

وعلى القول الأول: يكون مضروباً لمعبود الكفار ومعبود الأبرار. والقولان متلازمان.

فبعضهم ذكر هذا. وبعضهم ذكر هذا. وكلاهما مراد من الآية. قال، وقيل: كلاهما للمؤمن والكافر، يرويه عطية عن ابن عباس. وقال عطية: ألا بكم أبي بن خلف، ومن يأمر بالعدل: حزة وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون.

قلت: والآية تحتمله، ولا يناقض القولين قبله، فإن الله على صراط مستقيم، ورسوله وأتباع رسوله. وضد ذلك: معبود الكفار وهاديتهم، والكافر التابع والمتبوع والمعبود. فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع. وبعضهم ذكر الهادى. وبعضهم ذكر المستجيب القابل. وتكون الآية متناولة لذلك كله. ولذلك نفاثر كثيرة في القرآن.

وأما آية هود: فصراحة لا تحتل إلا معنى واحداً. وهو أن الله سبحانه على صراط مستقيم. وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم. فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة (١١٥:٦) وقمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، وأفعاله كلها مصالح وحكم، ورحمة وعدل وخير فالشر لا يدخل في أفعاله ولا أقواله البتة، لخروج الشر عن الصراط المستقيم. فكيف يدخل في أفعال من هو على الصراط المستقيم، أو أقواله؟ وإنما يدخل في أفعال من خرج عنه وفي أقواله.

وفي دعائه عليه الصلاة والسلام «لبيك وسعديك، والخير كله بيدك، والشر ليس إليك» ولا يلتفت إلى تفسير من فسره بقوله: والشر لا يتقرب به إليك، أو لا يصعد إليك. فإن المعنى أجل من ذلك، وأكبر وأعظم قدراً. فإن من أسماؤه كلها حسنى، وأوصافه كلها كمالات، وأفعاله كلها حكم، وأقواله كلها صدق وعدل: يستحيل دخول الشر في أسماؤه أو أوصافه، أو أفعاله أو أقواله. فطابق بين هذا المعنى وبين قوله (إن ربي على صراط مستقيم) وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله (١١:٥٦) إني توكلت على الله ربي وربكم) أي هوربي، فلا يسلمنى ولا يضيعنى. وهوربكم فلا يسلطكم على ولا يمكنكم منى. فإن نواصبيكم بيده، لا تفعلون شيئاً بدون مشيئته. فإن ناصية كل ذابة بيده، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه. فهو المتصرف فيها. ومع هذا، فهو في تصرفه فيها وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها: على صراط مستقيم. لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة. ولو سلطكم على فله من الحكمة في ذلك ماله الحمد عليه. لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم. لا يظلم ولا يفعل شيئاً عبثاً بغير حكمة.

• وَحْشَةُ التَّفَرُّدِ عِلَاجُهَا عَدَمُ الْإِلْتِفَاتِ

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالباً أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريداً لسلوك طريقه. سرافقه فيها في غاية القلة والعزلة. والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأتس بالرفيق، نية

الله سبحانه على الرفيق في هذا الطريق، وأنهم هم الذين (أنعم الله عليهم من النبيين
والمصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقاً) فأضاف الصراط إلى الرفيق
السالكين له. وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة
تفرده عن أهل زمانه وبنى جنسه. وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط: هم الذين أنعم الله عليهم.
فلا يكثر بثخانة مخالفة التاكبين عنه له. فإنهم هم الأقلون قدراً، وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما
قال بعض السلف «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل،
ولا تقتر بكثرة المالكين» وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على
اللاحق بهم. وغيض الطرف عن سواهم. فإبهم لن يغنوا عنك من الله شيئا. وإذا صاحوا بك
في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم. فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك.
وقد ضربت لذلك مثيل. فليكونا منك على بال.

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لا يريد غيرها. فعرض له في طريقه شيطان
من شياطين الإنس، فألقى عليه كلاماً يؤذيه. فوقف ورد عليه، وتماسكا. فرما كان شيطان
الإنس أقوى منه، فقهقه، ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاتته الصلاة. وربما كان الرجل
أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكمال إدراك الجماعة.
فإن التفت إليه أطمعه في نفسه. وربما فترت عزيمته. فإن كان له معرفة وعلم راد في السعي بقدر
التفاتة أو أكثر. فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت: لم يبلغ
عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعياً من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه.
فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن في ذكر هذا الرفيق: ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق

بهم.

وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت «اللهم اهدني فيمن هديت» أي أدخلني في هذه
المرمة، واجعلني رفيقاً لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه، وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أي قد أنعمت
بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيباً من هذه النعمة، واجعلني
واحداً من هؤلاء النعم عليهم. فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكرم: تصدق عليّ في جملة من تصدقت عليهم.
وعلمني في جملة من علمته. وأحسن إليّ في جملة من شملتني بإحسانك.

• نتوسل الى الله باسمائه وبعبوديته

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب ، وتبَّله أشرف المواهب: علم عباده كيفية سؤاله ، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه ، وتمجيده . ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم . فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم . توسل إليه بأسمائه وصفاته ، وتوسل إليه بعبوديته . وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء . ويؤيدهما الرسلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه . والإمام أحمد والترمذي .

أحدهما: حديث عبدالله بن بُريدة عن أبيه قال «سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو، ويقول: اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد. فقال: والذي نفسي بيده، لقد سأَل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى» قال الترمذي: حديث صحيح. فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالوحدانية. وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد» وهو كما قال ابن عباس «العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته» وفي رواية عنه «هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد» وقال أبو وائل «هو السيد الذي انتهى سؤدده» وقال سعيد بن جبير «هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله» وبنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله «ولم يكن له كفواً أحد» وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة. والتوسل بالآيمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يدعو: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المتأن، بديع السموات والأرض. ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم. فقال: لقد سأَل الله باسمه الأعظم» فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين وهما التوسل بالحمد ، والثناء عليه وتمجيده ، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده. ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب - وهو الهداية - بعد الوسيلتين. فالداعي به حقيق بالإجابة .

ونظير هذا : دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي كان يدعوه إذا قام يصلي من الليل. رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس «اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد،

انت الحق، ووعدك الحق ، ولقائك حق، والجنة حق ، والنار حق، والنبيون حق،
والساعة حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك
أنبت. وبك خاصمت ، وإليك حاكمت . فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت
وما أعننت ، أنت إلهي لا إله إلا أنت» فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له .
ثم سأله المغفرة.

فَأَمَّا تَحْتَ التَّوْحِيدِ

تشتمل الماتحة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

والتوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد. ونوع في الإرادة والقصد. ويسمى الأول: التوحيد العلمي. والثاني: التوحيد القصدى الإرادى. لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة. والثاني بقصد والإرادة. وهذا الثاني أيضاً نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية. فهذه ثلاثة أنواع.

فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال. والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل على هذا تبيان: محمل، ومفصل. أما المحمل: فإثبات الحمد له سبحانه. وأما المفصل: فذكر صفة الإلهية والربوبية، ورحمة الملك. وعلى هذه الأربع مدار الاسماء والصفات.

فأما تنصير الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرصاعه، والخصوع له. فلا يكون حامداً من حمد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حده بحسبها. ولهذا كان الحمد كله لله حده لا يحصى سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال وسعوت الجلال التي لا يحصى سواه. ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار، وعانتها سلب أوصاف الكمال عنها. فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدي، ولا تنعم ولا تنذر. وهذه صفة إله الجهمية، التي عاب بها الأصنام، بسوها إله، تعالى الله عما يقول الظالمون وجاهدون علواً كبيراً. فقال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في معاجته لأبيه (١٩: ٤٢) يا أبيت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟ فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة والثبات لقال له آزر: وأنت إلهك بهذه المثابة، فكيف تنكر على؟ لكن كان مع شركه — أعرف بالله من الجهمية وكذلك كفار قريش كانوا — مع شركهم — مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه على خلقه. وقال تعالى (٧: ١٤٨) واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عملاً جسداً له خوار. ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً؟ اتخذوه وكانوا

ظالمين) غلو كان إله الخلق سبحانه كذلك لم يكن في هذا إنكار عليهم، واستدلال على بطلان الإلهية بذلك.

فإن قيل : قاله تعالى لا يكلم عباده.

قيل: بل، قد كلمهم. فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب، منه إليه بلا واسطة، كموسى . ومنهم من كلمه الله على لسان رسوله الملكي. وهم الأنبياء. وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله . فأنزل عليهم كلامه الذي بلغته رسله عنه.

وقالوا لهم : هذا كلام الله الذي تكلم به، وأمرنا بتبليغه إليكم. ومن ههنا قال السلف: من أنكر كون الله متكلماً فقد أنكر رسالة الرسل كلمهم. لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلم به إلى عباده. فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة. وقال تعالى في سورة طه عن السامري (٢٠: ٨٨) فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى، فنسى. أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً؟) ورَجَعَ القول: هو التكلم والتكليم. وقال تعالى (١٦: ٧٦) ضرب الله مثلاً: رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء، وهو كلٌّ على مولاه، أينما يوجهه لا يأت بآخره، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم؟) فجعل نفى صفة الكلام موجبا لبطلان الإلهية. وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية: أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهاً، ولا مدبراً، ولا رباً، بل هو مذموم، معيب ناقص، ليس له الحمد، لاني الأولى، ولاني الآخرة. وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعمت الجلال، التي لأجلها استحق الحمد. ولهذا سمي السلف كتبهم التي صنّفوها في السنة، وإثبات صفات الرب وعلمه على خلقه، وكلامه وتكليمه: توحيداً. لأن نفى ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع، وجحد له. وإنما توقيده: إثبات صفات كماله، وتنزيهه عن التشبيه والنقائص. فجعل المطلقة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيداً. وجعلوا إثباتها لله تشبيهاً وتجبساً وتركيباً. فسماوا الباطل باسم الحق، ترغيباً فيه، وزخراً يُنفقونه به. وسماوا الحق باسم الباطل تنفيراً عنه. والناس أكثرهم ليس لهم نقد النقاد (١٨: ١٧) من يهد الله فهو المهتدي . ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً) والمحمود لا يحمّد على العدم والسكرت ألبتة، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص، تتضمن إثبات أضعافها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لاحد فيه، ولا مدح ولا كمال. وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمدية وغناه وملكوته، وتعبيد كل شيء له. فاتخاذ الولد ينافي ذلك، كما قال تعالى (١٠: ٦٧) قالوا اتخذ الله ولداً، سبحانه، هو الغني . له مافي السموات ومافي الأرض).

وحد نفسه على عدم الشريك، المتضمن تفرد بالربوبية والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره، فيكون شريكاً له . فلو عدها لكان كل موجود أكمل منه . لأن الموجود أكمل من المعدوم . ولهذا لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمناً لثبوت كمال . كما حمد نفسه بكونه لا يموت لتضمنه كمال حياته . وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم، لتضمن ذلك كمال قيوميته . وحمد نفسه بأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، لكمال علمه وإحاطته . وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحداً ، لكمال عدله وإحسانه . وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار ، لكمال عظمته ، لا يرى ولا يدرك ، كما أنه يعلم ولا يحاط به علماً . فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال . لأن العدم لا يرى . فليس في كون الشيء لا يرى كمال أبته . وإنما الكمال في كونه لا يحاط به رؤية ولا إدراكاً ، لعظمته في نفسه، وتعاليه عن إدراك المخلوق له وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان ، لكمال علمه .

فكل سلب في القرآن حمد الله به نفسه فلمضادته لثبوت ضده، ولتضمنه كمال ثبوت ضده . فعملت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال ، وأن نفيها نفي لحمده، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده .

● لاننفي معاني الاسماء

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات .

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهي «الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك» فمبنى على أصلين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله . فهي مشتقة من الصفات . فهي أسماء، وهي أوصاف . وبذلك كانت حُشِي، إذ لو كانت ألعاطى لامعاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال . ولساع وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس . فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي إني أنت المنتقم . والله أعطني، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك .

ونسمى معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلهاد فيها . قال تعالى (١٧٠:٧) وذروا الذين يلحدون في أسمائه، سيجرون ما كانوا يعملون) ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجوز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها . لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى (٥٨:٥١) إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) معلم أن «القوي» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة . وكذلك قوله (١٠:٣٥) قلله العزة جميعاً)

فالعزیز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم یسم قویاً ولا عزیزاً. وكذلك قوله (١٦٦:٤) أنزله بعلمه (١٤:١١) فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله لا ینام، ولا ینبغی له أن ینام، یخفص القسط ویرفعه، یرفع إلیه عمل اللیل قبل النهار، وعمل النهار قبل اللیل، حجابہ النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إلیه بصره من خلقه» فأثبت المصدر الذي اشتق منه اسمه «البصیر».

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضی الله عنها «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات».

وفي الصحيح حديث الاستخارة «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك» فهو قادر بقدرته.

وقال تعالى لموسى (١٤٤:٧) إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) فهو متكلم بكلام.

وهو العظیم الذي له العظمة، كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى: العظمة إزاری، والكبرياء ردائي» وهو الحکیم الذي له الحکم (١٢:٤٠) فالحكم لله العلي الكبير) وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، أو سمعه، أو بصره، أو قوته، أو عزته، أو عظمته: انعدت يمينه، وكانت مكفرة. لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه.

وأیضا : لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم یسغ أن یخبر عنه بأفعالها. فلا یقال: یسمع ویری، ویعلم ویقدر ویريد. فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها. فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حکمها.

وأیضاً فلولم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة، التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به. فكانت كلها سواء، ولم یكن فرق بین مدلولاتها. وهذا مكابرة صريحة، وتنهت بقیة. فإن من جعل معنى اسم «التقدير» هو معنى اسم «السمیع»، البصیر» ومعنى اسم «التواب» هو معنى اسم «المنتقم» ومعنى اسم «المعطي» هو معنى اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فتفی معانی أسمائه من أعظم الإلحاد فیها.

• ضرورة فهم لوازم الصفات

الأصل الثاني: أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة. فإنه يدل عليه دالتين أخريين بالتضمن وال لزوم. فيدل على الصفة مفردا بالتضمن ، وكذلك على الذات المحردة عن الصفة . ويدل على الصفة الأخرى بال لزوم. فإن اسم «السمع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة. وعلى الذات وحدها. وعلى السمع وحده بالتضمن. ويدل على اسم «الحي» وصفة الحياة بالالتزام. وكذلك سائر أسمائه وصفاته. ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه ومن ههنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام. فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة ، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة : أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

فإن اسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها.

وكذلك اسم «العلي» واسم «الحكيم» وسائر أسمائه ، فإن من لوازم اسم «العلي» العلو المطلق، بكل اعتبار . فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات. فمن ححد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلي».

وكذلك اسمه «الظاهر» من لوازمه: أن لا يكون فوقه شيء، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم «وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء» بل هو سبحانه فوق كل شيء. فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر» ولا يصح أن يكون «الظاهر» هو من له فوقية القدر فقط، كما يقال : الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج. لأن هذه المقوية تتعلق بالظهور، بل قد يكون الموقوق اظهر من العائق فيها، ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ «الباطن» وهو الذي ليس دونه شيء، كما قابل «الأول» الذي ليس قبله شيء، بـ «الآخر» الذي ليس بعده شيء.

وكذلك اسم «الحكيم» من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه. فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه. وكذلك سائر أسمائه الحسنی.

• دلالة اسم (الله) على جميع الاسماء الحسنی

إذا تقرر هذان الأصلان . فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنی، والصفات العليا بالدلالات الثلاث. فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضعافها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص . ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنی إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى (١٨٠:٧) ولله الأسماء الحسنی) ويقال «الرحمن والرحيم . والقُدوس والسلام ، والعزیز ، والحكيم» من أسماء الله ، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزیز» ونحو ذلك.

فلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنی، دال عليها بالإجمال. والأسماء الحسنی تفصيل وتبيين لصفات الإلهية، التي اشتق منها اسم «الله» واسم «الله» دال على كونه مألوماً معبوداً، تأله الخلاق عبدة وتعظيماً وخضوعاً ، وفزعاً إليه في الخوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد. وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكوته مستلزم لجميع صفات كماله. إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحی، ولا سمیع، ولا بصیر، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فاعل لما يريد، ولا حكيم في أفعاله. وصفات الحلال والحمال: أخص باسم «الله».

وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشیة وكمال القوة ، وتدير أمر الخلیقة: أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان ، والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف: أخص باسم «الرحمن» وكرر إيداناً بثبوت الوصف، وحصول أثره ، وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن: الذي الرحمة وصفه. والرحيم: الراحم لعباده. ولهذا يقول تعالى (٤٣:٣٣) وكان بالمؤمنین رحيماً (١١٧:٩) إنه بهم رؤوف رحيم) ولم یجىء رحمان بعباده، ولا رحان بالمؤمنین، مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف ، وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلئ غضباً، وندمان وحيران وسكران ولهان لمن ملء بذلك، فبئنا قتلان للسعة والشمول. ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الإسم كثيراً، كقوله تعالى (٥:٢٠) الرحمن على العرش استوی) (٥٩:٢٦) ثم استوی على العرش الرحمن)

فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش يحيط بالمخلوقات، قد وسعها . والرحمة محيطه
بالمخلوق واسعة لهم، كما قال تعالى (١٥٦:٧) **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** فاستوى على أوسع
المخلوقات بأوسع الصفات. فلذلك وسعت رحمته كل شيء. وفي الصحيح من حديث أبي هريرة
رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **«لما قضى الله الخلق كتب في
كتاب، فهو عنده موضوع على العرش. إن رحمتي تغلب غضبي»** وفي لفظ **«فهو عنده على
العرش»**.

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك
وبين قوله **(الرحمن على العرش استوى)** وقوله (١٥٦:٢٥) **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ**
فَسَأَلَ بِهِ خَبِيرًا يفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى.
وصفات المدل، والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعتاء والمنع، والإعزاز والإذلال،
والقهر والحكم ونحوها، أخص باسم «الملك» ونحصر بيوم الدين، وهو الجزء بالعدل، ولتفرده
بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، ومقابلته كساعة. ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه.

● معنى الرب والرحمن

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الاسماء الثلاثة. وهي «الله والرب، والرحمن» كيف نشأ
عنها الخلق، والأمر، والثواب، والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع . ولها
الفرق.

فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات. فهو رب كل شيء وحالقه، والقادر عليه،
لا يخرج شيء عن ربوبيته. وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره.
فاجتمعوا بصفة الربوبية، واختلفوا بصفة الإلهية، فألّاه وحده السعاده، وأقروا له طوعاً بأنه الله
الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف، والحب والإجابة
والإخبات والخشية، والتذلل والخفض إلا له.

وهنا افرق الناس، وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير، وفريقاً موحدين في الجنة.
فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.
فالدين والشرع، والأمر والنهي — مظهره، وقيامه —: من صفة الإلهية. والخلق والإيجاد
والتدبير والعمل: من صفة الربوبية. والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار: من صفة الملك. وهو
ملك يوم الدين. فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووقفهم وهداهم وأضلهم بربوبيته. وأثابهم وعاقبهم
بملكه وعدله. وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.
وأما الرحمة: فهي التعلق، والسبب الذي بين الله وبين عباده. فالتأليه منهم له. والربوبية

منه لهم. والرحمة سبب واصل بينه وبين عبادته، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه. وبها هداهم. وبها أسكنهم دار ثوابه. وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم. فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته. فـ (الرحمن على العرش استوى) مطابق لقوله (رب العالمين، الرحمن الرحيم) فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها اقتضى شمول الرحمة وسعتها. فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه رباً للعالمين ما يدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شيء، كما يأتي بيانه إن شاء الله.

● المحمود

في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها: ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود. فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مشال ذلك: قوله تعالى (والله غني حميد) (والله عليم حكيم) (والله قدير والله غفور رحيم) فالغنى صفة كمال. والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضاً. وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضاً. وقدرته كمال ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك الغفور بعد القدرة (١٤: ٤) إن الله كان عفواً قديراً واقتران العلم بالحلم (١١: ٤) والله عليم حكيم.

فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حليماً، ولا كل حليم عالم. فما ثُن شيء إلى شيء أزيى من حلم إلى علم. ومن عفواً قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة (٩: ٢٦) وإن ربك هو العزيز الرحيم) ومنهما كان قول المسيح عليه السلام (١٢١: ٥) إن تعذبهم فإنهم عبادك. وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. أي إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة. وهي كمال القدرة. وعن حكمة، وهي كمال العلم. فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الحايي لا يكون قادراً حكيماً عليمًا. بل لا يكون ذلك إلا عجزاً فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها. فهذا أحسن من ذكر «الغفور الرحيم» في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها، وقد فانت. فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. كان في هذا — من الاستعطاف والتعريض

بتطلب المغفرة لمن لا يستحقها - ما يبرزه عنه منصب المسيح عليه السلام، لاسيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل لله ولداً، واتخذهم إلهاً من دونه فذكر العزة والحكمة فيه اليق من ذكر الرحمة والمغفرة. وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام (١٤: ٣٥ و ٣٦ واجنبني وقنني أن نعبد الأصنام. رب إنهم أضللت كثيراً من الناس. فمن تبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم) ولم يقل: فإنك عزيز حكيم. لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي إن تغفر لهم وترحمهم، بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن العصية إلى الطاعة، كما في الحديث «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه، واقترب به، من فعله وأمره. والله الموفق للصواب.

مراتب الهداية

مراتب الهداية الخاصة والعامة عشر مراتب:

● المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده بقطة بلا واسطة ، بل منه إليه . وهذه أعلى مراتبها ، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه . قال الله تعالى (٤: ١٦٣ وكلم الله موسى تكليماً) فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبين من بعده ، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه . وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية . ثم أكد به بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر «كلم» وهو «التكليم» رفعا لما يتوهمه المظلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام ، أو إشارة ، أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم . فأكد به بالمصدر المفيد لتحقيق النسبة ورفع توهم المجاز . قال القراء: العرب تسمى ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل . ولكن لا تحققه بالمصدر فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام ، كالأرادة . يقال: فلان أراد ارادة ، يريدون حقيقة الارادة . ويقال: أراد الجدار ، ولا يقال: ارادة . لانه مجاز غير حقيقة . هذا كلامه . وقال تعالى (٧: ١٤٢ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال : رب أرني أنظر إليك) وهذا التكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعون . وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر ، لا في الأول . وفيه أعطى الألواح . وكان عن مواعدة من الله له . والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة . وفيه قال الله له (٧: ١٤٣ يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) أي بتكليمي لك بإجماع السلف .

وقد أخبر سبحانه في كتابه: أنه ناداه وتاجاه . فالنداء من بُعد ، والتجاء من قرب . وفي حديث الإسراء في رؤية موسى في السماء السادسة أو السابعة ، على اختلاف الرواية ، قال: «وذلك بتفضيله بكلام الله» ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنى . ولا كان يسمى «كليم الرحمن» وقال تعالى (٤٢: ٥١ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء) ففرق بين تكليم الوحي ، والتكليم بإرسال الرسول ، والتكليم من وراء حجاب .

● المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء. قال الله تعالى (١٢٦:٤) إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) وقال (٥١:٤٢) وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب — الآية) فجعل الوحي في هذه الآية قسماً من أقسام التكليم. وجعله في آية النساء قسماً للتكليم. وذلك باعتبارين. فإنه قسم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذي هو اتصال المعنى بطرق متعددة.

والوحي في اللغة: هو الاعلام السريع الحقي، ويقال في فعله: وَحَى، وأوحى. قال رؤية ● وَحَى لها القرار فاستقرت ● وهو أقسام، كما سنذكره.

● المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري. فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه.

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشري رجلاً، يراه عياناً ومخاطبه. وقد يراه على صورته التي خلق عليها. وقد يدخل فيه الملك، ويوحي إليه ما يوحى، ثم يقصم عنه، أي يقلع. والثلاثة حصلت لنبينا صلى الله عليه وسلم.

● المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث. وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «انه كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في هذه الأمة فممن الخطاب».

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله يقول: جزم بأنهم كانوا في الأمم قبلنا وعلق وجودهم في هذه الأمة بـ «إن» الشرطية، مع أنها أفضل الأمم، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالة، فلم يوجب الله الأمة بعده إلى محدث ولا ملئهم، ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها.

والمحدث: هو الذي يحدث في سره وقلبه بالشئ، فيكون كما يحدث به.

قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث. لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف. فإنه قد سلّم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول صلى الله عليه وسلم.

قال: وكان هذا المحدث يمرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول. فإن وافقه قبله، وإلا رده. فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات «حدثني قلبي عن ربي» فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عَمَس؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال «حدثني قلبي عن

ربيعي كان مسنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب.
قال: ومحدث الامة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوّ به يوماً من الدهر. وقد أعاده الله من أن يقول ذلك. بل كتب كاتبه يوماً «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال «لا. امسحه، واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب. فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه بريء» وقال في الكلالة «أقول فيها برأى. فإن يكن صواباً فمن الله. وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان».

فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبين والقولين والحالين. وأعط كل ذي حق حقه، ولا تجعل الرغل والخالص شيئاً واحداً.

• المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام. قال الله تعالى (٧٨: ٧٩) وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرت، إذ نَفَسَتْ فيه غُصَمُ القوم، وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان، وكلاً آتينا حكماً وعلماً فذكر هذين النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم. ونخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة. وقال عل ابن أبي طالب — وقد مثل «هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس؟» — فقال «لا، والذي قلّتي الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتیه الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديبات، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر» وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضى الله عنهما «والفهم الفهم فيما أدل إليك» فالفهم نعمة من آتاه على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه. يعرف به، ويدرك مالا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من لقتص مالا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه. وفهم أصل معناه.

قالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عُذُّ أئمة بواحد. فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) وما خص به ابن عباس من فهم منها «أنها نَسِيَتْ الله سبحانه نبيه إلى نفسه» وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سناً. وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله، لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع انحصار إلى غيره. ولا يقع الاستغناء بالتصوص في حقه. أما في حق صاحب الفهم: فلا يحتاج مع انتصوص إلى غيرها.

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام. وهوتبيين الحق وتقيزه من الباطل بأدلته وشواهد وأعلامه. بحيث يصير مشهوداً للقلب، كشهود العين للمراثيات. وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه، التي لا يعذب أحداً ولا يوصله إلا بعد وصوله إليها.

قال الله تعالى (٩: ١١٥) وما كان الله ليُضِلَّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به. فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب. وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضلّه من عباده. والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله (٥: ٦١) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (٤: ١٥٥) وقولهم قلوبنا غلفت. بل طبع الله عليها بكفرهم) فالأول: كفر عناد. والثاني: كفر طبع، وقوله (٦: ١١٠) وثقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون) فعاقبهم على ترك الإيمان به حين يتقوه وتحققوه، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له. فتأمل هذا الموضع حق التأمل. فإنه موضع عظيم.

وقال تعالى (٤١: ١٧) وأما نموذ فهديناهم فاستجبوا على الهدى) فهذا هدى بعد البيان والدلالة. وهو شرط لا موجب. فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء. وهو هدى التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوة، وبيان بالآيات المشهودة المرئية. وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه. ولهذا يدعوه عباده بآياته المتلوة إلى التفكير في آياته المشهودة ويحضمهم على التفكير في هذه وهذه. وهذا البيان هو الذي بعث به الرسل. وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، وبعد ذلك يضل الله من يشاء. قال الله تعالى (٤: ٦٤) وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم. فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء. وهو العزيز الحكيم) فالرسل تبين. والله هو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء بعزته وحكمته.

● المرتبة السابعة: البيان الخاص. وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهوليان تقارنه العناية والتوفيق والاجتناب، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية ألبسة. قال تعالى في هذه المرتبة (١٦: ٣٧) إن حرص على هداهم فإن اللب لا يهدي من يضل) وقال (٣٨: ٥٦) إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) فالبيان الأول شرط. وهذا موجب.

● المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع. قال الله تعالى (٨: ٢٣) ولو علم الله فيهم خيراً لاستمعهم ولو أسمعهم لتوئلاً وهم معرضون) وقد قال تعالى (٣٥: ٢٢) وما يستوى الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا النور. ولا الحرور. وما يستوي الأحياء ولا الأموات. إن الله يسمع من يشاء. وما أنت بمسمع من في القبور. إن أنت إلا نذير) وهذا الإسماع

فخص من إسماع الحجة والتبليغ . فإن ذلك حاصل لهم ، وبه قامت الحجة عليهم . لكن ذلك إسماع الآذان ، وهذا إسماع القلوب . فإن الكلام له لفظ ومعنى ، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما . فسماع لفظه حظ الأذن ، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب . فإنه سبحانه تفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب ، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله (٧:٢١) ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُخَلِّدٌ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، لاهية قلوبهم) وهذا السماع لا يفيد السامع الا قيام الحجة عليه ، أو تمكته منها . وأما مقصود السماع وثمرته ، والمطلوب منه : فلا يحصل مع لمو القلب وغفلته وإعراضه ، بل يخرج السامع قائلاً للحاضر منه (١٦:٤٧) ماذا قال آنفاً؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم).

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام: أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن ، ومرتبة الإفهام أعم . فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه . ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر . وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته . ومرتبة السماع مدارها على إصالح المقصود بالخطاب إلى القلب ويترتب على هذا السماع سماع القول .

فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن ، وسماع القلب ، وسماع القول والإجابة .

● المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام . قال تعالى (٨٧:٩١) ونفسي وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسين بن منذر الخزاعي لما أسلم «قل: اللهم ألهمني رشدي ، وقني شر نفسي».

والإلهام أعم من التحديث ، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن قد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان . فأما التحديث : فالنبي صلى الله عليه وسلم قال فيه «إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر» يعني من المحدثين . فالتحديث إلهام خاص . وهو الوحي إلى غير الأنبياء إما من المكلفين ، كقوله تعالى (٧:٢٨) وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) وقوله (١١:٥) وإذ أوحيت إلى الحوارين أن آمنوا بي وبرسولي) وإما من غير المكلفين ، كقوله تعالى (٢٩:١٦) وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون) فهذا كله وحي إلهام.

وصورته الشائعة: ان يكون خطاباً يُلقى في قلب المؤمن يخاطب به الملك روحه ، كما في الحديث المشهور : «إن للملك نمة بقلب ابن آدم . وللشيطان لمة . فلمة الملك: إبعاد بالخير ، وتصديق بالوعد . ولة الشيطان: إبعاد بالشر وتكذيب بالوعد» ثم قرأ (٢٦٨:٢) الشيطان يبعثكم الفقر ويأمركم بالفحشاء . والله يعدكم مغفرة منه وفصلاً) وقال تعالى (١٢:٨) إذ يوحى ربك إلى الملائكة: أني معكم . فثبتوا الذين آمنوا) قيل في تفسيرها : قروا قلوبهم ،

وبشروهم بالنصر. وقيل : احضروا معهم القتال. والقولان حق. فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم.

ومن هذا الخطاب: واعظ الله عز وجل في قلوب عباده المؤمنين. كما في جامع الترمذي ومسنند أحد من حديث النّوّاس بن سميان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هَرَبٌ مِثْلًا: صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا. وَعَلَى كَتَفَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، هُمَا أَبْوَابُ مَفْتُوحَةٍ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ مَسْتَوْرٌ مِرْحَاةٌ، وَدَاعٌ يَدْعُو عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ. وَدَاعٌ يَدْعُو فَوْقَ الصِّرَاطِ. فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: الْإِسْلَامُ. وَالسُّورَانِ: حَدُودُ اللَّهِ. وَالْأَبْوَابُ الْمَفْتُوحَةُ: مَحَارِمُ اللَّهِ. فَلَا يَقَعُ أَحَدٌ فِي حِدَةٍ مِنْ حَدُودِ اللَّهِ حَتَّى يَكْشِفَ السُّتْرَ. وَالدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللَّهِ. وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ» فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإمام الإلهي بواسطة الملائكة.

وأما كُتْمَةُ الشَّيْطَانِ فِيهِ وَعِدَةٌ وَتَنْبِيهُتِهِ حِينَ يَمُتُّ الْإِنْسَى ، وَيَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ . كَمَا قَالَ تَعَالَى (١٢٠:٤) يَدْعُهُمْ وَيَنْبِيهِهُمْ. وَمَا يَدْعُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ، وَقَدْ قَالَ عَمْرِيْنُ الْخَطَّابُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَنَيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ — وَهُوَ مِنَ الصَّحَابَةِ لَمَّا طَلَّقَ نِسَاءَهُ، وَقَسَمَ مَالَهُ بَيْنَ بَنِيهِ — «إِنِّي لَأُظَنُّ الشَّيْطَانُ — فِيمَا يَسْتَرْقُ مِنَ السَّمْعِ — سَمِعَ بِمَوْتِكَ. فَقَذَفَهُ فِي نَفْسِكَ».

وعلامة هذا الشيطاني ان خطاه كثير، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن صائد «هاتري؟ قال: أرى صادقاً وكاذباً. فقال: لبس عليك» فالكشف الشيطاني لا بد أن يكذب. ولا يستمر صدقه أبته.

● المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة . وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» والرؤيا : مبدأ الوحي. وصدقها بحسب صدق الرائي. وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً . وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطئ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم. وذلك ليعد المهد بالنبوة وآثارها . فيتموض المؤمنون بالرؤيا. وأما في زمن قوة نور النبوة: ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «لم يبق من النبوة إلا المبشرات. قيل : وما المبشرات ، يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو ترى له» وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه لما أروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال «أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر. فمن كان منكم مُتَعَرِّضًا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ»

والرؤيا كالكشف، منها رحماني. ومنها نفساني . ومنها شيطاني. وقال النبي صلى الله عليه

وسلم «الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة. فيراه في المنام»

والذي هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التي من الله خاصة.
ورؤيا الأنبياء وحى. فإنها معصومة من الشيطان. وهذا باتفاق الأمة، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحى الصريح. فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.
فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟
قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحى، بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه، لم يعرف الرائي اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا على ذلك. ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحرق الصدق وأكل الحلال، والمحافظة على الأمر والنهي. ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة. ويذكر الله حتى تغلبه عيناه. فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتة.

وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار. فإنه وقت النزول الإلهي، واقتراب الرحمة والمغفرة، وسكون الشياطين. وعكسه رؤيا القتمة، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية. وقال عبادة بن الصامت رضى الله عنه «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام».

الفاتحة الشافية

وقد اشتملت الفاتحة على الشفاهين:

شفاء القلوب ، وشفاء الأبدان

فأما اشتمالها على شفاء القلوب : فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال. فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم. وفساد القصد.

ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال والنضب. فالضلال نتيجة فساد العلم. والنضب نتيجة فساد القصد. وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها. فهذه الصراط المستقيم: تتضمن الشفاء من مرض الضلال. ولذلك كان سؤال هذه الهداية: أفرس دعاء على كل عبد. وأوجبه عليه كل يوم وليلة. في كل صلاة، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة. ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

والتحقق بـ (إياك نعبد وإياك نستعين) علماً ومعرفة، وعملاً وحالاً: يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد. فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل. فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسداً. وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبة غير الله وعبوديته: من المشركين، ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل. فإذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم. فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل. فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى. وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان وعزله عن التصرف والحكم والتفويض، وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين. لا لأنه حق، بل لموافقة غرضهم وأهواءهم، وانتصارهم به (٤٨: ٢٤ - ٥٠) وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم مرض، أم ارتابوا؟ أم يخافون أن يخيف الله عليهم ورسوله؟ بل أولئك هم الظالمون).

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم. وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها. واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والخسرات. وهم أعظم الناس ندامة

وتحسروا، إذا حقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن رُكْب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيراً في الدنيا. ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله. ويشهد ظهوره وتحققه في البرزخ. وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حقت الحقائق. وفاز المحقون وخسر المبطون. وعلّموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين. فياله هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوصل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه. فعاله أيضاً كحال هذا. وكلاهما قاسد القصد. ولاشفاء من هذا المرض إلا بدواء «إياك نعبد وإياك نستعين».

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء (١) عبودية الله لاغيره (٢) بأمره وشرعه (٣) لا بالهوى (٤) ولا بآراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم (٥) بالاستعانة على عبوديته به (٦) لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء «إياك نعبد وإياك نستعين» فإذا ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام. وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تارياً به إلى التلف ولا بد. وهما الرياء، والكبر. فدواء الرياء بـ «إياك نعبد» ودواء الكبر بـ «إياك نستعين».

وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول «إياك نعبد» تدفع الرياء «وإياك نستعين» تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ «إياك نعبد» ومن مرض الكبرياء والعجب بـ «إياك نستعين» ومن مرض الضلال والجهل بـ «اهدنا الصراط المستقيم» عوفي من أمراضه وأسقامه، ورقل في أبواب العافية، وتمت عليه النعمة. وكان من المنعم عليهم «غير المغضوب عليهم» وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه «والضالين» وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحقٌ لسورة تشتتمل على هذين الشفاهين: أن يُشْتَقَى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاهين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه. فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله كلامه، وفهمت عنه مهماً خاصاً، اختصها به، من معاني هذه السورة.

وأما تضمناها لشفاء الأبدان: فنذكر منه ما جاءت به السنة.

ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الباجي عن أبي سعيد الخدري «أن ناساً من

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مروا بختى من العرب . فلم يقرؤهم ، ولم يُضَيِّقُوهم
فلُدغ سيد الحى . فأتوهم . فقالوا: هل عندكم من رقية ، أو هل فيكم من
راق ؟ فقالوا: نعم ، ولكنكم لم تقرونا . فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً ، فجعلوا لهم على
ذلك قطيعاً من الغنم ، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب . فقام بكأن لم يكن به
قَلْبَة . فقلنا : لا تجعلوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم . فأتيناه ، فذكرنا له ذلك .
فقال : ما يدريك أنها رقية ؟ كلوا ، واصبروا لي معكم بسهم»

فقد تصبّر هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديع بقراءة الفاتحة عليه . فأغنته عن الدواء .
ورجى بلب من شفاء ما لم يبلغه الدواء .

هذا مع كون الحبل غير قابل ، إما لكون هؤلاء الحى غير مسلمين ، أو أهل نخل ولؤم .
فكيف إذا كان المحل قابلاً .

فَاتِحَةُ التَّفْصِيْلِ

وابيضاً ، فقد اشتملت الفاتحة الرد على المبطلين من اهل الملل والنحل ، والرد على اهل البدع والضلال من هذه الامة .

وهذا يعلم بطريقتين ، مجمل ومفصل :

أما المجمل : فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق ، وإثارة ، وتقديمه على غيره ، ومحبة والانقياد له ، والدعوة إليه ، وجهاد أعدائه بحسب الإيمان .

والحق : هو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وما جاء به علماً وعملاً في باب صفات الرب سبحانه ، وأسمائه وتوحيده ، وأمره ونهيه ، ووعده وعيده ، وفي حقائق الإيمان ، التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى . وكل ذلك مسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم .

فكل علم أو عمل خرج من مشكاة نبوته ، وعليه السكة الحميدة ، بحيث يكون من ضرب المدينة . فهو من الصراط المستقيم ومالم يكن كذلك فهو من صراط اهل الغضب والضلال . فما تم خروج عن هذه الطرق الثلاث : طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وطريق اهل الغضب ، وهي طريق من عرف الحق وعانده . وطريق اهل الضلال : وهي طريق من أضله الله عنه . ولهذا قال عبدالله بن عباس وجابر بن عبدالله رضى الله عنهم «الصراط المستقيم : هو الإسلام» وقال عبدالله بن مسعود وعلي بن أبي طالب رضى الله عنهما «هو القرآن» وفيه حديث مرفوع في الترمذي وغيره ، وقال سهل بن عبدالله «طريق السنة والجماعة» وقال بكر بن عبدالله المزني «طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم» .

ولاريب أن ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه علماً وعملاً وهو معرفة الحق وتقديمه ، وإثارة على غيره . فهو الصراط المستقيم .

وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له .

فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ما خالفه فباطل . وهو من صراط الأمتين : الأمة الغضبية ، وأمة اهل الضلال .

• اثبات الربوبية لايحتاج الى دليل

وأما المفصل : فبمعرفة المذاهب الباطلة ، واشتمال كلمات الفاتحة على إبطالها . فنقول :
 الناس قسمان : مقر بالحق تعالى ، وجاحد له . فتضمنت الفاتحة إثبات الخالق تعالى ، والرد
 على من جحده ، بإثبات ربوبيته تعالى للعالمين .
 وتأمل حال العالم كله ، علوه وسفليه ، بجميع أجزائه : تجده شاهداً بإثبات صانعه وفطره
 ومليكه . فإلكار صانعه وحده في العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده ، لافرق بينهما ،
 بل دلالة الحالق على المخلوق ، والفعال على العمل ، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول
 الزكية المشرقة العارضة ، والفطر الصحيحة ، أظهر من العكس .
 فالعارفون أرباب الصنائع يستدلون بالله على أفعاله وصنعه ، إذا استدل الناس بصنعه
 وأفعاله عليه . ولاريب أنهما طريقان صحيحان ، كل منهما حق والقرآن مشتمل عليهما .
 فأما الاستدلال بالصنعة فكثير . وأما الاستدلال بالصانع فله شأن . وهو الذي أشارت إليه
 الرسل بقولهم لأنهمم (١٠ : ١٤) أي الله شك ؟ أي أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على
 وجوده ؟ وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول ؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى ؟ ثم نيهوا
 على الدليل بقولهم (فاطر السموات والأرض) .
 وسمعت شيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية — قدس الله روحه — يقول : كيف يطلب
 الدليل على من هو دليل على كل شيء ؟ وكان كثيراً ما يمثل بهذا البيت :
 وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل
 ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والعطر من وجود النهار ، ومن لم ير ذلك في عقله
 وفطرته فليتهمها .

• اختلاف الناس في الالهوية

ولكن من الناس طوائف تزيهم فطرتهم هذا المقدار من الحق ، فلا يشركون بالله في ربوبيته
 احداً ، ولا يشبثون معه خالقاً آخر ، لكنهم أهل إشراك به في إلهيته . وهم المقرون بأنه وحده رب
 كل شيء ، ومليكه وحالقه ، وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين ، ورب السموات السبع ، ورب
 العرش العظيم . وهم مع هذا يعدون غيره ، و يعدلون به سواء في المحبة والطاعة والتعظيم .

وهم الذين اتخذوا من دون الله أنداداً. فهؤلاء لم يوفوا «إياك نعبد» حقّه، وإن كان لهم نصيب من «نعبدك» لكن ليس لهم نصيب من «إياك نعبد» المتضمن معنى: لا نعبد إلا إياك، حباً وخوفاً ورجاء وطاعة وتعظيماً، فـ «إياك نعبد» تحقيق لهذا التوحيد، وإبطال للشرك في الإلهية، كما أن «إياك نستعين» تحقيق لتوحيد الربوبية، وإبطال للشرك به فيها، وكذلك قوله (اهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم) فإنهم أهل التوحيد، وهم أهل تحقيق «إياك نعبد، وإياك نستعين» وأهل الإشراك: هم أهل الغضب والضلال.

• تعطيل التعطيل

وقد تضمنت الفاتحة الرد على الجهمية مُعظلة الصفات، أهل التوحيد الناقص، الذين ينفون أن تكون ذات الله عز وجل متصفة بالعلم والقدرة والرزق ونحو ذلك من وجوه: أحدها: من قوله (الحمد لله) فإن إثبات الحمد الكامل له يقتضي ثبوت كل ما يحمده عليه، من صفات كماله، ونعوت جلاله. إذ متى عدم صفات الكمال فليس محمود على الإطلاق. وتغايته: أنه محمود من وجه دون وجه، ولا يكون محموداً بكل وجه، وبكأن اعتبار بجميع أنواع الحمد: إلا من استولى على صفات الكمال جميعها. فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها.

وكذلك في إثبات صفة الرحمة له: ما يتضمن إثبات الصفات التي تستلزمها: من الحياة، والإرادة والقدرة، والسمع والبصر، وغيرها.

وكذلك صفة الربوبية: تستلزم جميع صفات الفعل وصفة الإلهية تستلزم جميع أوصاف الكمال: ذاتاً وأفعالاً، كما تقدم بيانه.

فكونه محموداً إلهياً رباً، رحماناً رحيماً، ملكاً معبوداً، مستعاناً، هادياً منعماً، يرضى ويغضب — مع نفي قيام الصفات به —: جمع بين النقيضين. وهو من أعمل المحال.

وهذه الطريق تتضمن إثبات الصفات الخبرية من وجهين:

أحدهما: أنها من لوازم كماله المطلق. فإن استواءه على عرشه من لوازم علوه، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا في نصف الليل الثاني: — لوازم رحمته وربوبيته. وهكذا سائر الصفات الخبرية.

الوجه الثاني: أن السمع ورد بها، ثناء على الله ومدحاً له، وتعرفاً منه إلى عباده بها. فحجدها وتحريمها عما دلت عليه، وعما أريد بها: مناقص لما جاءت به. فلك أن تستدل بطريق السمع على أنها كمال، وأن تستدل بالعقل كما تقدم.

● كسر الجبر

وكذلك تضمنت الرد على الجبرية، الذين يقولون ان افعال العباد كلها لاخير لهم فيها.

وذلك من وجوه:

أحدهما: من إثبات عموم حمده سبحانه. فإنه يقتضي أن لا يعاقب عبيده على ما لا قدرة لهم عليه، ولا هو من فعلهم. بل هو بمنزلة ألوانهم، وطولهم وقصرهم، بل هو يعاقبهم على نفس فعله بهم. فهو الفاعل لقبائحهم في الحقيقة. وهو المعاقب لهم عليها. فحمده عليها يأبى ذلك أشد الإياء، وينفيه أعظم النفي. فتعال من له الحمد كله عن ذلك علواً كبيراً، بل إنما يعاقبهم على نفس أفعالهم التي فعلوها حقيقة. فهي لأفعاله. وإنما أفعاله العدل، والإحسان والخيرات.

الوجه الثاني: إثبات رحمته ورحانيته ينفي ذلك. إذ لا يمكن اجتماع هذين الأمرين قط — أن يكون رحماً رحيماً — ويعاقب العبد على ما لا قدرة له عليه، ولا هو من فعله، بل يكلفه ما لا يطيقه، ولله عليه قدرة ألينة، ثم يعاقبه عليه. وهل هذا إلا ضد الرحمة. ونقض لما وإبطال؟ وهل يصح في معقول أحد اجتماع ذلك، والرحمة التامة الكاملة، في ذات واحدة؟.

الوجه الثالث: إثبات العبادة والاستعانة لهم، ونسبتها اليهم، بقولهم «نعبد، ونستعين» وهي نسبة حقيقية لا مجازية. والله لا يصح وصفه بالعبادة والاستعانة التي هي من أفعال عبيده، بل العبد حقيقة هو العابد المستعين. والله هو المعبود المستعان به.

● اثبات النبوات

وتضمنت الفاتحة الرد على متكري النبوات.

وذلك من وجوه :

أحدها: إثبات حمده التام. فإنه يقتضي كمال حكمته، وأن لا يخلق خلقه عبثاً، ولا يتركهم سدى، لا يؤثرون ولا يئثرون. ولذلك قرأه الله نفسه عن هذا في غير موضع من كتابه. وأخبر أن من أنكر الرسالة والنسوة. وأن يكون ما أنزل على بشر من شيء — فإنه ما عرفه حق معرفته، ولا عظمه حق تعظيمه، ولا قدره حق قدره، بل نسبته إلى ما لا يليق به، و يأباه حمده ومجده.

فمن أعطى الحمد حقاً — علماً ومعرفة وبصيرة — استنبط منه «أشهد أن محمداً رسول الله» كما يستنبط منه «أشهد أن لا إله إلا الله» وعلم قطعاً أن تعطيل النبوات في منافاته للحمد، كتعطيل صفات الكمال، وكإثبات الشركاء والأنداد.

الثاني: إلهيته، وكونه إلهاً. فإن ذلك مستلزم لكونه معبوداً مطاعاً. ولا سبيل إلى معرفة

ما يعبد به و يطاع إلا من جهة رسله.

الثالث: كونه رباً. فإن الربوبية تقتضي أمر العباد ونهيهم. وجزاء محسنهم بإحسانه، ومسيئهم بإساءته. هذا حقيقة الربوبية. وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة.

الرابع: كونه رحماناً رحيماً. فإن من كمال رحمته: أن يُعَرِّف عباده نفسه وصفاته ويدلهم على ما يقربهم إليه، ويباعدهم منه. ويشيهم على طاعته، ويخزيهم بالحنس. ذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة. فكانت رحمته مقتضية لها.

الخامس: ملكه. فإن الملك يقتضي التصرف بالقول، كما أن الملك يقضى التصرف بالفعل، فالملك هو المتصرف بأمره وقوله فتتفد أوامره ومراسيمه حيث شاء. والمالك هو المتصرف في ملكه بفعله. والله له الملك. وهو المتصرف في خلقه بالقول والفعل.

وتصرفه بقوله نوحان: تصرف بكلماته الكونية، وتصرف بكلماته الدينية، وكما الملك بهما.

فإرسال الرسل: موجب كمال ملكه وسلطانه، وهذا هو التملك المفعول في فطر الناس وعقولهم. فكل ملك لا تكون له رسل يُثبِّت في أقطار مملكته فليس بملك. ويهذه الطريق يعلم وجود ملائكته، وأن الإيمان بهم من لوازم الإيمان بملكه. فإنهم رسل الله في خلقه وأمره.

السادس: ثبوت «يوم الدين» وهو يوم الجزاء، الذي يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيراً وشرراً. وهذا لا يكون إلا بعد ثبوت الرسالة والنبوة، وقيام الحجة التي بسببها يُدان المطيع والمعاصي.

السابع: كونه معبوداً. فإنه لا يُعبد إلا بما يحبه ويرضاه. ولا سبيل للخلق إلى معرفة ما يحبه ويرضاه إلا من جهة رسله. فإنكار رسله إنكار لكونه معبوداً.

الثامن: كونه هادياً إلى الصراط المستقيم. وهو معرفة الحق والعمل به، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى المطلوب. فإن الخط المستقيم: هو أقرب خط موصل بين نقطتين. وذلك لا يعلم إلا من جهة الرسل. فتوقفه على الرسل ضروري، أعظم من توقف الطريق الحسى على سلامة الخواص.

التاسع: كونه منعماً على أهل الهداية إلى الصراط المستقيم. فإن إنعامه عليهم إنما تم بإرسال الرسل إليهم، وجعلهم قائلين الرسالة، مستجيبين لدعوته. وبذلك ذكَّروهم به عليهم، وإنعامه في كتابه.

العاشر: انتقام خلقه إلى منعم عليهم، ومنغضوب عليهم، وضالين. فإن هذا الانتقام ضروري بحسب انقسامهم في معرفة الحق، والعمل به إلى عالم به، عامل بموجبه. وهم أهل النعمة. وعالم به معاند له. وهم أهل الغضب. وجاهل به وهم الضالون. هذا الانتقام إنما

نشأ بعد إرسال الرسل . فلولا الرسل لكانوا أمة واحدة . فانقسامهم إلى هذه الأقسام مستحيل بدون الرسالة . وهذا الانقسام ضروري بحسب الواقع . فالرسالة ضرورية .
وقد تبين لك بهذه الطريق ، والتي قبلها : بيان تضمنتها لثبوت الثواب والعقاب والأمر والنهي . وهو الحق الذي خلقت به وله السموات والأرض ، والدنيا والآخرة . وهو مقتضى الخلق والأمر ، ونفيه نفى لهما .

● وكلم الله موسى تكليماً

إذا ثبتت النبوات والرسالة ثبتت صفة التكلم والتكليم
فإن حقيقة الرسالة : تبليغ كلام المرسل . فإذا لم يكن ثمَّ كلام فماذا يبلغ الرسول؟ بل كيف يعقل كونه رسولاً؟ ولهذا قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلماً ، أو يكون القرآن كلامه : فقد أنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ورسالة جميع الرسل ، التي حقيقتها : تبليغ كلام الله تبارك وتعالى . ولهذا قال منكر ورسالته صلى الله عليه وسلم عن القرآن (٧٤: ٢٤، ٢٥) إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إن هذا إلا قول البشر) وإنما عنوا القرآن المسموع الذي يُلقونه ، وأنذروا به .

فمن قال : إن الله لم يتكلم به ، فقد ضاهاً قوله قولهم . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

غَيْبُ كَلَامِ رَبِّكَ

وسر الخلق والأمر ، والكتب والسرائع ، والثواب والعقاب : انتهى إلى هاتين الكلمتين . وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين . فنصفهما له تعالى وهو «إياك نعبد» ونصفهما لعبده . وهو «إياك نستعين» .

و «العبادة» تجمع أصليين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع . والعرب تقول : طريق معبد أي مذل . والتعبد : التذل والخضوع . فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له ، لم تكن عابداً له . ومن خضعت له بلا محبة ، لم تكن عابداً له ، حتى تكون محباً خاضعاً . ومن ههنا كان المكرون محبة العباد لربهم متكرين حقيقة العبودية ، والمتكرون لكونه محبوباً لهم . بل هو غاية مطلوبهم — ووجه الأعلى نهاية بغيتهم — : متكرين لكونه إلهاً ، وإن أقروا بكونه رباً للعالمين وخالقاً لهم . فهذا غاية توحيدهم . وهو توحيد الربوبية ، الذي اعترف به مشركو العرب ، ولم يخرجوا به عن الشرك ، كما قال تعالى (٤٣: ٨٧) ولئن سألتهم من خلقهم؟ ليقولن الله وقال تعالى (٣٩: ٣٨) ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ ليقولن الله (٢٢: ٨٤ — ٨٩) قل لمن الأرض ومن فيها؟ — إلى قوله — سيقولون لله . قل فأنى تسبحون؟) ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته ، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره ، كما أنه لا خالق غيره ، ولا رب سواه . و «الاستعانة» تجمع أصليين : الثقة بالله والاعتماد عليه . فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ، ولا يعتمد عليه في أموره — مع ثقته به — لاستغناؤه عنه . وقد يعتمد عليه — مع عدم ثقته به — لحاجته إليه ، ولعدم من يقوم مقامه . فيحتاج إلى اعتماده عليه . مع أنه غير واثق به . و «التوكل» معنى يلتزم من أصليين : من الثقة ، والاعتماد . وهو حقيقة «إياك نعبد وإياك نستعين» وهذان الأصلان — وهما التوكل ، والعبادة — قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع ، قرن بينهما فيها . هذا أحدها .

الثاني : قول شعيب (١١: ٨٨) وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب) . الثالث : قوله تعالى (١٠: ١٢٣) ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فأعبده وتوكل علىه) .

الرابع : قوله تعالى حكاية عن المؤمنين (٦٠ : ٤) ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

الخامس : قوله تعالى (٧٣ : ٩ ، ٨) واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلاً . رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو ، فاتخذهُ وكيلاً .

السادس : قوله تعالى (٤٣ : ١٠) قل : هوربي . لا إله إلا هو ، عليه توكلت وإليه أنيب .

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين . وهما «إياك نعبد وإياك نستعين» .
وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل . إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها ، و «الاستعانة» وسيلة إليها . ولأن «إياك نعبد» متعلق بألوهيته واسم «الله» و «إياك نستعين» متعلق بربوبيته واسم «الرب» . فقدم «إياك نعبد» على «إياك نستعين» كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة . لأن «إياك نعبد» قسم الرب . فكان من الشطر الأول ، الذي هو ثناء على الله تعالى ، لكونه أولى به . و «إياك نستعين» قسم العبد . فكان من الشطر الذي له ، وهو «اهدنا الصراط المستقيم» إلى آخر السورة .

ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس . ولأن «الاستعانة» طلب منه ، و «العبادة» طلب له .

ولأن العبادة لا تكون إلا من غلص ، و «الاستعانة» تكون من مخلص ومن غير مخلص .
ولأن «العبادة» حقه الذي أوجبه عليك ، و «الاستعانة» طلب العون على العبادة . وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك . وأداء حقه : أهم من التضرع لصدقته .
ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك ، والله يجب أن يشكر ، و «الإعانة» فعله بك وتوفيقه لك . فإذا التزمت عبوديته ، ودخلت تحت رفقها أعانتك عليها . فكان التزامها والدخول تحت رفقها سبباً لنيل الإعانة . وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم .
و «العبودية» محفوفة بإعانتين : إعانة قبلها على التزامها والقيام بها ، وإعانة بعدها على عبودية أخرى ، وهكذا أبداً ، حتى يقضى العبد تحبته .

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم «إياك نعبد» على «إياك نستعين» .
وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ، ففيه : أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم . وفيه الاهتمام وشدة العناية به . وفيه الإيذان بالاختصاص ، المسمى بالخضر . فهو في قوة : لانعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك . والحاكم في ذلك ذوق الرتبة والفرقة فيها .
وتأمل قوله تعالى (٢ : ٤٠) وإياي فارهبون (٢ : ٤١) وإياي فاتقون) كيف تجده في قوة :

لا ترهبوا غيري ، ولا تتقوا سوى ؟ وكذلك «إياك نعبد وإياك نستعين» هو في قوة : لا نعبد غيرك ولا نستعين بسواك . وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق . وفي إعادة «إياك» مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين . ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه ، فإذا قلت ملك مثلاً : إياك أحب ، وإياك أنصاف . كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته ، والاهتمام بذكره ، ما ليس في قولك : إياك أحب وأخاف .

● نستعين بالله على عبادته

إذا عرفت هذا؛ فالتاس في هذين الأصلين — وهما العبادة والاستعانة — أربعة أقسام . أحدها وأفضلها : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها . فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ، ويوفقهم للقيام بها . ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى : الإعانة على مرضاته ، وهو الذي علّمه النبي صلى الله عليه وسلم ليحيى معاذ بن جبل رضى الله عنه ، فقال «بإمعاذ ، والله إني لأحبك . فلا تنس أن تقول ذُبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» .

فأنفع الدعاء : طلب العون على مرضاته . وأفضل المواهب : إيساؤه بهذا المطلوب . وجميع الأدعية الماثورة مدارها على هذا ، وعلى دفع ما يضاده ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه . فتأملها . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — : تأملت أنفع الدعاء : فإذا هو سؤال العون على مرضاته . ثم رأيت في الفاتحة في «إياك نعبد وإياك نستعين» .

● إمداد الكافر : زيادة حجة عليه

ومقابل هؤلاء : القسم الثاني . وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به . فلا عبادة ولا استعانة . بل إن سأله أحدكم واستعان به . فعل حظوظه وشهوته ، لا على مرضاة ربه وحقوقه . فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض : يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمدُّ هؤلاء وهؤلاء . وأبغض خلقه : عدوه إبليس ، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ، ومتمعه بها . ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته . كانت زيادة له في شقوته ، وبعده عن الله وطرده عنه . وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ، ولم يكن عوناً على طاعته : كان مبعداً له عن مرضاته قاطعاً له عنه ولا بد .

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره . وليعلم أن إجابة الله لسائله ليست لكرامة السائل عليه ، بل يسأله عبده الحاجة فيفضيها له ، وفيها هلاكه وشقوته . ويكون قضاؤها له من هوانه عليه ، وسقوطه من عينه . ويكون متعه منها لكرامته عليه ومحبه له ، فيمنعه حياءً وصيانة وحفظاً ، لا بخلا . وهذا إما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبه ، ويعامله بلطفه . فيظن — بجعله — أن الله لا يحبّه ولا يكرمه . ويراه يقضي حوائج غيره ، فيسيء ظنه بربه . وهذا حشو قلبه ولا يشعر به . والمعصوم من عصمه الله . والإنسان على نفسه بصيرة ، وعلامة هذا : حله على الأقدار . وعتابه الباطن لها . كما قيل :

وعاجز الرأي مضياغ لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدر

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه ، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، ولكن ماحيتني ، والأمر ليس إليّ؟ والعاقل حصم نفسه . والجاهل خصم أقدار ربه .

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مغيبة عنك . وإذا لم تجد من سؤاله بداً ، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة . وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة . ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة ، بل استخارة من لاعلم له بمصالحه ، ولا قدرة له عليها ، ولا اعتدائه له إلى تفاسيلها . ولا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك ، وانقرط عليه أمره .

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال : تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته ، ولا يجعله قاطعاً لك عنه ، ولا معداً عن مرضاته . ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه ؛ ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه ، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده قال الله تعالى (٨٩ : ١٥ و ١٦) فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول : ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهانن * كلا أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته : فقد أكرمت وما ذاك لكرامته عليّ . ولكنه ابتلاء مني ، وامتحان له : أيشكرني فأعطينه فوق ذلك ، أم يكفرني فأسلبه إياه ، وأحوّل فيه غيره ؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه ، وجعلته بقدر لا يفضل عنه ، فذلك من هوانه عليّ ولكنه ابتلاء وامتحان مني له : أيبصر؟ فأعطينه أضعاف مافاته من سعة الرزق ، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط .

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام ، وأن الفقر إهانة ، فقال : لم أبتل عبيدي بالغنى لكرامته عليّ ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ . فأخبر أن الإكرام والاهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره . فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته ، ويقتصر على المؤمن لا

لإهانتة. إنسا يكرم من يكرمه بمعرفته وعجته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومصيته. فله الحمد على هذا وعلى هذا. وهو الغني الحميد.
فمادت سعادة الدنيا والآخرة إلى «إياك نعبد وإياك نستعين».

● العباداة بلا استعانة : نَقْصُ

القسم الثالث : من له نوع عبادة بلا استعانة . وهؤلاء نوعان .
أحدهما : القدرة، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألفاظ، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها ، وتعريف الطريق ، وإرسال الرسل ، وتمكينه من الفعل . فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها . بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة . فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء . ولكن أوليائه اختاروا لنفوسهم الإيمان ، وأعدائه اختاروا لنفوسهم الكفر ، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد ، أوجب لهم الإيمان . ونخذل هؤلاء بأمر آخر ، أوجب لهم الكفر . فهؤلاء لهم نصيب من مقصود من العبادة ، لا استعانة معه . فهم موكولون إلى أنفسهم . مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيدده.

النوع الثاني : من لهم عبادات وأورد ، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة ، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر ، وتلاشيها في ضمنه ، وقيامها به ، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له ، بل كالعدم الذي لا وجود له ، وأن القدر كالأرواح المحرك لها ، والمحول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب. ومن الآلة إلى الفاعل . فضغفت عزائمهم وقصرت همهم ، فقل نصيبهم من «إياك نستعين» ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة ، وإن وجدوا ذوقه بالأورد والوظائف .

فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير ، بحسب استعانتهم وتوكلهم . ولم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم . ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته ، لأزاله .
فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت : هو حال القلب يشأ عن معرفته بالله ، والإيمان بتفرد الخلق ، والتدبير والضرر والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان ، وإن لم يشأ الناس ، وما لم يشأ لم يكن ، وإن

شاهه الناس : فيوجب له هذا اعتماداً عليه ، وتفويضاً إليه ، وطمأنينة به ، وثقة به ، و يقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه ، وأنه قليٌّ به ، ولا يكون إلا بمشيئته ، شاهه الناس أم أبوه .
فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مئيلان بهما . فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه ، وحبس همه على إزال ما ينويه بهما . فهذه حال المتوكل . ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولا بد . قال الله تعالى (٣:٦٥) ومن يتوكل على الله فهو حسبه أي كافيه . و«الحسب» الكافي . فإن كان — مع هذا — من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة ، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو :

القسم الرابع : وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولم يُلْزَم مع ما يحبه ويرضاه . فتوكل عليه ، واستعان به على حفظه وشهوته وأغراضه ، وطلبها منه ، وأتزلها به . فقضيت له ، وأسعف بها . سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق ، أو أحوالاً من كشف وتأثير وقوة وتمكين ، ولكن لعاقية له . فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال ولا تستلزم الإسلام ، فضلاً عن الولاية والقرب من الله . فإن الملك والجاه والمال والحال مطعاة للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر . فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه ، وأنه من أوليائه المقربين . فهو من أجهل الجاهلين ، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه ، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ، ويكرهه ويسخطه . فالخال من الدنيا . فهو كالمملك والمال ، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاه ، وتنفيذ أوامره : ألحقه بالملوك العادلين البررة ، وإلا فهو وبال على صاحبه ، ومبعد له عن الله ، وملحق له بالملوك الظلمة ، والأغنياء الفجرة .

● متابعة وإخلاص

إذا عرف هذا : فلا يكون العبد متحققاً بـ «إياك نعبد» إلا بأصلين عظيمين .

أحدهما : متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والثاني : الإخلاص للمعبود . فهذا تحقيق «إياك نعبد» .

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى أربعة أقسام .

● الضرب الأول : أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة . وهم أهل «إياك نعبد» حقيقة . فأعمالهم كلها لله ، وأقوالهم لله ، وعطاؤهم لله ، ومنعهم لله ، وحبهم لله ، وبغضهم لله . فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده . لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً ، ولا ابتغاء الجاه عندهم ، ولا طلب المحمدة ، والمنزلة في قلوبهم ، ولا هراً من ذمهم . بل قد عُدُّوا الساس بمجلة أصحاب القصور ، لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . فالعمل

لأجل الناس ، وإتقاء الجاه والمنزلة عندهم ، ورجائهم للضر والنفع منهم : لا يكون من عارف بهم ألبسته ، بل من جاهل بشأنهم ، وجاهل بربه . فمن عرف الناس أقرهم منازلهم . ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله ، وعطاه ومنعه وجهه وبغضه . ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق ، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس أثر معاملة الله على معاملتهم .

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله ، ولما يحبه ويرضاه . وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه . وهو الذي يتلا عبادته بالموت والحياة لأجله قال الله تعالى (٢٦٧:٢) الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً . قال الفضيل بن عياض : العمل الحسن هو إخلاصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ما أخلاصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً : لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً : لم يقبل ، حتى يكون خالصاً وصواباً . والخالص : ما كان لله . والصواب : ما كان على السنة . وهذا هو المذكور في قوله تعالى (١٨:١١٠) فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وفي قوله (٤:١٢٥) ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه ، على متابعة أمره . وما عدا ذلك فهو مردود على عامله ، يُرد عليه — أخرج ما هو إليه — هباء منثوراً . وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعباداً . فإن الله تعالى إنما يُعبد بأمره ، لا بالآراء والآهواء .

● الضرب الثاني : من لا إخلاص له ولا متابعة . فليس عمله موافقاً لشرع ، وليس هو خالصاً للمعبود ، كأعمال المتزينين للناس ، المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله . وهؤلاء شرار الخلق ، وأمقتهم إلى الله عز وجل . ولهم أوفر نصيب من قوله (٣:١٨٨) لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحتدوا بما لم يفعلوا . فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب . ولهم عذاب أليم) يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ، ويحبون أن يحمداً باتباع السنة والإخلاص .

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف — من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة — عن الصراط المستقيم . فإنهم يرتكبون البدع والفضلالات ، والرياء والسمة ويحبون أن يحمداً بما لم يفعلوه من الإتيان والإخلاص والعلم . فهم أهل الغضب والفضلال .

● الضرب الثالث : من هو غلص في أعماله ، لكنها على غير متابعة الأمر كجهال العبادة ، والمنسبين إلى طريق الزهد والفقر ، وكل من عبد الله بغير أمره واعتقد عبادته هذه قرينة إلى الله

فَهَذَا حاله . كمن يظن أن سماع التُكاء والتصديّة قربة ، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة ، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة ، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة . وأمثال ذلك .

● الضرب الرابع : من أعماله على متابعة الأمر ، لكنها لغير الله . كطاعة المرائين ، وكالرجل يقاتل رياء وحيّة وشجاعة ، ويحج ليقال ، و يقرأ القرآن ليقال . فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها ، لكنها غير صالحة . فلا تقبل (٩٨: ٥) وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر . والإحلاص له في العبادة . وهم أهل «إياك نعبد وإياك نستعين» .

● الميزان الصحيح لأفضلية العبادة

ثم أهل مقام «إياك نعبد» لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق . فهم في ذلك أربعة أصناف .

الصنف الاول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها : أشقها على النفوس وأصعبها . قالوا : لأنه أبعد الأشياء عن هواها ، وهو حقيقة التعبد .

قالوا: والأجبر على قدر المشقة . ورووا حديثاً لا أصل له «أفضل الأعمال أحرها» أي أصعبها وأشقها .

وهؤلاء : هم أهل المحاهدات والجور على النفوس .

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك . إذ طبعها الكسل والمهانة ، والإخلاق إلى الأَرْض . فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق .

الصنف الثاني، قالوا: أفضل العبادات التجرد ، والزهد في الدنيا ، والتقلل منها غاية الإمكان ، وإطراح الاهتمام بها ، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها .

ثم هؤلاء قسمان:

فمواهم : ظنوا أن هذا غاية ، فتمروا إليه وعملوا عليه . ودعوا الناس إليه ، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة . فرأوا الرهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها .

وخواصهم : رأوا هذا مقصوداً لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب على الله ، وجمع الهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحتة ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته ، ودوام ذكره بالقلب واللسان ، والاشتغال بمراقبته ، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له .

المصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها : ما كان فيه نفع متعد ، فأوه أفضل من

ففي النفع القاصر . فرأوا خدمة الفقراء ، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ومساعدتهم بالمال والجاء والنفع أفضل . فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم «الخلق كلهم عيال الله . وأحبهم إليه أنفعهم لعيله» رواه أبو يعلى . واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه ، وعمل النافع متعدد إلى الغد وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . قالوا: وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه «لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم» وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدى . واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غرأ أن ينقص من أجورهم شيء» . واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله ، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ، مادام نفعه الذي نسب إليه .

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ، ونفعهم في معاشهم ومعادهم . لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب . ولهذا أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على أولئك الفر الذين هوا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس .

الصفحة الرابع ، قالوا : إن أفضل العادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته . فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد ، وإن آل إلى تركه إلا وراد ، من صلاة الليل وصيام النهار . بل ومن ترك إقامة صلاة الفرض ، كما في حالة الآمن .

والأفضل في وقت حضور الصيف مثلاً : القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب . وكذلك في أداء حق الروجة والأهل .

والأفضل في أوقات السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن ، والدعاء والذكر والاستغفار . والأفضل في وقت استرشاد الطالب ، وتعليم الجاهل : الإقبال على تعليمه والاشتغال به . والأفضل في أوقات الأذان : ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن . والأفضل في أوقات الصلوات الخمس : الجِد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه ، وللبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى الجامع . وإن بعد كان أفضل . والأفضل في أوقات ضرورة المحتاح إلى المساعدة بالجاء ، أو البدن ، أو المال الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك . والأفضل في وقت قراءة القرآن : جمع القلب والهمة على تدبره وتمهمه . حتى كأن الله

تعالى يخاطبك به . فتجمع قلبك على فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل في وقت الوقوف بعرقه : الاجتهاد في التصريح والدعاء والذكر دون الصوم المضاعف عن ذلك .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة : الإكثار من التعبد ، لاسيما التكبير والتلهيل والتحميد . فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل في العشر الأخير من رمضان : لزوم المسجد فيه والحلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقراءهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته ، وحضور جنازته وتشيعه .
والأفضل في وقت نزول النوازل وأداة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الحرب منهم . فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم في الخير ، فهي خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم في الشر ، فهو أفضل من خلطتهم فيه . فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حيث أفضل من اعتزالهم .
فالأفضل في كل وقت وحال : إثارة مرضاة الله في ذلك الوقت والحال . والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق . والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد . فمضى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته . فهو يبعد الله على وجه واحد ، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل لا يزال متنقلاً في منازل العبودية . كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى . فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره . فإن رأى العلماء رأيتهم . وإن رأيت العباد ، رأيتهم معهم . وإن رأيت المجاهدين رأيتهم معهم . وإن رأيت الذاكرين رأيتهم معهم ، وإن رأيت المتصدقين الحسنين رأيتهم معهم .

فهذا هو العبد المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه ، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات . بل هو على مراد ربه ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه . فهذا هو المتحقق بـ «إياك نعبد وإياك نستعين» حقاً ، القائم بهما صدقاً . ملبّسه ماتهياً . وما كلة ماتيسر . واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت وبوقته . ويجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً . لا تملكه إشارة . ولا يتعبده قيد . ولا يستولى عليه رسم . حر مجرد . دائر

مع ، مرحب داس، يدين بدين الامراني توجهت ركائبه . ويدور مع حيث استقلت مضاربه .
يأنس به كل محق . ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع . وكالنخلة
لايسقط ورقها . وكلها منفعة حتى شوكها . وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله ،
والغضب إذا انتهكت محارم الله . فهو لله وباللّه ومع الله . قد صحب الله بلاخلق ، وصحب
الناس بلا نفس . بل إذا كان مع الله عزل الحلائق عن البين ، وتحلى عنهم . وإذا كان مع
خلقه عزل نفسه من الوسط وتحلى عنها . فواهاً له ! ما أغرّبه بين الناس ! وما أشدّ وحشته منهم !
وما أعظم أنسه باللّه وفرحه به ، وطمانيته وسكونه إليه !! والله المستعان . وعليه التكلان .

● حِرمان الجَبْري من حلاوة العبادة

ثم للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة . وهم في ذلك أربعة أصناف .
الصنف الأول : الجبرية الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة ، وضُرْف الإرادة . فهؤلاء
عندهم القيام بها ليس إلا لجرد الأمر ، من غير أن تكون سبباً لسعادة في معاش ولا معاد ،
ولاسبباً لاجاة . وإنما القيام بها لجرد الأمر ومحض المشيئة .
وهؤلاء لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها ، ولا يتمتعون بها . وليست الصلاة قرّة أعينهم .
وليست الأوامر سرور قلوبهم ، وغذاء أرواحهم وحياتهم . ولهذا يسمونها «تكاليف» أي قد
كلّفوا بها . ولو سُمي مُدّع لمحبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفاً يُقال إني إنما أفعله
بكلّفة : لم يعده أحد عبداً له . ولهذا أنكر هؤلاء — أو كثير منهم — عبدة العبد لربه . وقالوا : إنما
يجب ثوابه وما يخلقه له من التعميم الذي يتمتع به . لا أنه يجب ذاته . فجعّلوا المحبة لمخلوقه دونه .
| وحقيقة العبودية هي كمال المحبة . فأنكروا حقيقة العبودية ولُبّها . وحقيقة الإلهية : كونه مالوهاً
محبوباً بغاية الحب ، المقرون بغاية الذل والخضوع ، والإجلال والتعظيم . فأنكروا كونه محبوباً .
وذلك إنكار لإلهيته ، وشيخ هؤلاء : هو التّجند بن درهم الذي حَضَى به خالده بن عبد الله القسري
في يوم أضحى . وقال «إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليماً ، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً» وإنما
كان إنكاره : لكونه تعالى محبوباً محبباً ، لم ينكر حاجة إبراهيم إليه ، التي هي الحلة عند الجهمية ،
التي يشترك فيها جميع الحلائق . فكلمهم أخلاء لله عندهم .

● وبعضُ يَمْتُونُ إسلامهم

«صنف الثاني : القَدْرية الثمّة ، الذين يقولون أن العادات شرعت أثمناً لما يناله العباد

من الثواب والنعيم ، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير.

قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالى عوضاً لقوله (٣:٧) «وَأُودُوا أَنْ يَتْلُوا الْجَنَّةَ أَوْ يُرْتَمَوْهَا بِمَا كُتِبَ تَعْمَلُونَ» وقوله (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وقوله (هل تحزنون إلا ما كنتم تعملون) وقوله صلى الله عليه وسلم — فيما يحكى عن ربه عز وجل — «يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم بإياها» وقوله تعالى (١٠:٣٩) «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاء وأجرأ وثواباً . لأنه يثوب إلى العامل من عمله ، أي يرجع إليه منه .

وإنما كان الجزاء ثواباً — والله أعلم — لأنه يثوب إلى العامل ، وترجع إليه ثمرة عمله في الدنيا ليستقدها ويحاسب نفسه عليها ، ويعرف ما في عمله من نقص وانحراف عن الجادة — ولا بد — بقدر ما وجد في ثمرته التي ثابت . ورجعت إليه في الدنيا ، ككل الشؤون والأعمال الدنيوية ، من صناعة وزراعة وتجارة وغيرها ، ميتدرك العبد النقص ، ويتحرى الصراط المستقيم . فإذا لم يقدر عمله ، ولم يحاسب نفسه ، لما يغلب عليه من العلة والحالة والتقليد الأعمى ، كان ذلك قاطعاً لعذره يوم القيامة .

قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاء ولا أجرأ ولا ثواباً معنى . قالوا: ويدل عليه الوزن . فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها ، وكونها على الأثمان لها ، لم يكن للوزن معنى . وقد قال تعالى (٨:٧) «وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ حَقٌّ» فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خففت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون .

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل . وبينهما أعظم التباين . فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطاً بالحراء ألبتة . وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته ، وينعم من أفنى عمره في معصيته . وكلاهما بالسبة إليه سواء . وجوزت أن يرفع صاحب العمل القليل على من هو أعظم منه عملاً ، وأكثر وأفضل درجات . والكل عندهم يرجع إلى عص المشيئة ، من غير تعليل ولا سبب ، ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب ، وهذا بالعقاب .

والقدرية أوحشت على الله سبحانه رعاية الأصلح . وجعلت ذلك كنه محض الأعمال وثمرتها ، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنعيص باحتمال وثمة الصدقة عليه بلا ثمن . فقاتلهم الله . ما أجهلهم بالله وأغرهم به! جعلوا تفضله وإحسانه إلى عبده بمنزلة صدقة العبد العبيته ، حتى قالوا: إن إعطاءه ما يعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد وأطيب له من أن

يعطيه فضلاً منه بلا عمل.

فقلبتهم الجبرية أشد المقابلة . ولم يجعلوا للأعمال تأثيراً في الجزاء ألبتة.

والطائفتان جاثرتان ، منحرفتان عن الصراط المستقيم ، الذي فطر الله عليه عباده ، وجاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب . وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب . مقتضية لهما كاختصاص سائر الأسباب لسيئاتها ، وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وقضيه وقته ، وصدقته على عبده . إن أعانه عليها ووفقه لها ، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها ، وحَبَّبها إليه ، وزَيَّنَها في قلبه وكَرَّمها إليه أُنْصَدَها . ومع هذا فليست ثمتاً لجزائه وثوابه ، ولا هي على قدره ، بل غايتها — إذا بذل العبد فيها نُفْسَه وجهده ، وأوقعها على أكمل الوجوه — أن تقع شكراً له على بعض نعمة عليه . فلو طالبه بحقه لبقى عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها . فلهذا لو عَذَّب أهل سمواته وأهل أرضه لمذنبهم وهو غير ظالم لهم . ولورحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعابهم . كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولهذا نفى النبي صلى الله عليه وسلم دخول الجنة بالعمل ، كما قال «لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله — وفي لفظ : لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله . وفي لفظ : لن ينجي أحداً منكم عمله — قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل» وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل ، كما في قوله (١٦: ٣٢) ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ولا تنازعوا فيها . إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد . فالمنفَى استحقاقها بمجرد الأعمال ، وكون الأعمال ثمتاً وعرضاً لها ، رداً على القدرية المجوسية ، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء مضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله ، وأغلظهم عنه حجاباً . وحُقَّ لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة . ويكفي في جهلهم بالله : أنهم لم يعلموا أن أهل سمواته وأرضه في ميثته . وأن من قام الفرح والسرور ، والغبطة واللذة : اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق ، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة . وأعظمهم منه منزلة ، وأقرهم إليه : أعرفهم بهذه المنة ، وأعظمهم إقراراً بها ، وذكرها لها ، وشكراً عليها ، ومحبة له لأجلها . فهل يتقلب أحد قط إلا في منته؟ (٩: ١٧) يَتَمَنَّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ، بَلِ اللَّهُ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

واحتمال منة المخلوق : إما كانت نقصاً لأنه نظيره . فإذا قرئ عليه استعلى عليه ، ورأى المسئول عليه نفسه دونة . هذا مع أنه ليس في كل مخلوق ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم المنة على أمته ، وكان أصحابه يقولون «الله ورسوله أمرٌ» ولا نقص في منة الوالد على ولده ، ولا عار عليه في احتماها ، فكيف رب العالمين الذي إما يتقلب الخلاق في حرمة عليه ، ومحض

صدقته عليهم ، بلاعوض منهم ألبتة؟ وإن كانت أعمالهم أسباباً لما ينالونه من كرمه وجوده . فهو المنان عليهم . بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها ، وأعانهم عليها وكملها لهم ، وقبلها منهم على ما فيها؟ وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله: (بما كنتم تعملون). فهذه باء السببية، رداً على القدرية والجبرية، الذين يقولون : لا ارتباط بين الأعمال والجزاء ولا هي أسباب له.

فالنصوص مبطلّة لقول هؤلاء كما هي مبطلّة لقول أولئك . وأدلة المعقول والفطرة أيضاً تبطل قول الفريقين . وتبين لمن له قلب ولب . مقدار قول أهل السنة . وهم الفرقة الوسط المثبتون لعموم مشيئة الله . وقدرته ، وخلقه العباد وأعمالهم ، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بسبباتها ، وانعقادها بها شرعاً وقدرأ وترتيبها عليها عاجلاً وآجلاً . وكل واحدة من الطائفتين المتحرفتين تركت نوعاً من الحق ، وارتكبت لأجله نوعاً من الباطل بل أنواعاً . وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه (٢: ٢١٣) والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) و (٦٢: ٤) ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم).

● تَفَلُُّف

الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة : رياضة النفوس ، واستعدادها لفيض العلوم عليها ، وخروج قواها عن قوى النفوس البهيمية . فلو غطلت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم . والعبادات تخرجها عن مألوفاتها وعوائدها ، وتنقلها إلى مشابهة العقول المجردة . فتصير عالمة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها .

● المحبة أساس العبادة

وأما الصنف الرابع: فهم الطائفة المحمدية الإبراهيمية ، أتباع الخليلين، العارفون بالله وحكمته في أمره وشرعه وخلقه، وأهل البصائر في عبادته، ومراده بها . فالطوائف الثلاث محجوبون عنهم بما عندهم من الشُّبه الباطلة ، والقواعد الفاسدة . ما عندهم وراء ذلك شيء . قد فرحوا بما عندهم من المحال ، وقنعوا بما ألفوه من الخيال . ولو علموا أن وراء ما هو أجل منه وأعظم ، لما ارتضوا بدونه ، ولكن عقولهم قصرت عنه ، ولم يهتدوا إليه

يستور النبوة ، ولم يشعروا به ، ليجتهدوا في طلبه ، ورأوا أن مامعهم خير من الجهل ، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده .

فتركب من هذه الأمور إثارة ما عندهم على ما سواه . وهذه بلية الطوائف . والمعاقى من عاقاه الله .

فاعلم أن سر العبودية ، وغايتها وحكمتها : إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل ، ولم يعطلها . وعرف معنى الإلهية وحقيقتها ، ومعنى كونه إلها ، بل هو الإله الحق ، وكل إله سواه باطل ، بل أبطل الباطل . وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له ، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها ، وارتباطها بها كارتباط المعلوم بالعلم ، والمقدور بالمقدرة ، والأصوات بالسمع ، والإحسان بالرحمة ، والاعطاء بالجود .

فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها ، وما شرعت لأجله ؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق ، والتي لها خلقوا ، ولما أرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، ولأجلها خلقت الجنة والنار ؟ وأن فرض تعطيل الخليفة عنها : نسبة لله إلى ما لا يليق به ، ويتعالى عنه من خلق السموات والأرض بالحق ، ولم يخلقها باطلا . ولم يخلق الإنسان عبثاً ولم يتركه سُدى مهمل . قال تعالى (٢٣: ١١٥) أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ أي لغرضه . ولا حكمة ولا لمبادتي ومجازاتي لكم ، وقد صرح تعالى بهذا في قوله (٥١: ٥٦) وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فالعبادة : هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلق كلها . قال الله تعالى (٧٥: ٣٦) أبحسب الإنسان أن يترك سُدى ؟ أي مهمل . قال الشافعي : لا يؤمر ولا يُلهى ، وقال غيره : لا يثاب ولا يعاقب . والصحيح : الأمران . فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهي . والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها . وحقيقة العبادة امتثالها . وقال تعالى (٣: ١٩١) ويتفكرون في خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانه ! ففينا عذاب النار) وقال (١٥: ٨٥) وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وقال (٤٥: ٢٢) وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتُجزى كل نفس بما كسبت) .

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق المتضمن أمره ونهيه وثوابه وعقابه . فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال ، وبين ما دل عليه صريح الوحي يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره ، ولا عرفوه حق معرفته .

فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لكمال محبته . مع الخضوع له والانقياد لأمره . فأصل العبادة : محبة الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحب كله لله . فلا يجب معه سواه ، وإنما يجب لأجله وفيه ، كما يحب أنبياءه ورسله وما تكتنه وأوليائه . فمحبتنا لهم من تمام محبته ،

وليست عبة معه، كحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحُبِّهِ.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها . فهي إنما تتحقق باتباع أمره . واجتناب نهيه . فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة . ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علماً عليها ، وشاهداً لمن ادعاه ، فقال تعالى (٣١:٣) **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** فجعل اتباع رسوله مشروطاً بحبهم لله ، وشرطاً لمحبة الله لهم . ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحقيقه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة . فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله ، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء عبة الله لهم . فيستحيل إذاً ثبوت محبتهم لله ، وثبوت عبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله .

ودل على أن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم : هي حب الله ورسوله ، وطاعة أمره . ولا يكفي ذلك في العبودية ، حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما . فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله . ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه أبته ، ولا يهديه الله . قال تعالى (٢٤:٩) **قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** .

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله ، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله ، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله ، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه . أو معاملة أحدهم على معاملة الله . فهو بمن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وإن قاله بلسانه فهو كذبت منه ، وإخبار بخلاف ماهو عليه . وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله .

● الأركان الاربعة للعبادة الناعة

وبنى «إياك نعبد» على أربع قواعد : التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه ، من قول اللسان والقلب ، وعمل القلب والجوارح .

فالعبودية : اسم جامع لهذه المراتب الأربع . فأصحاب «إياك نعبد» حقاً هم أصحابها .

فقول القلب : هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه ، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله .

وقول اللسان : الإخبار عنه بذلك ، والدعوة إليه ، والذب عنه ، وتبيين بطلان البدع المخالفة له والقيام بذكره ، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب : كالحبة له والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والخوف منه والرجاء له ، وإخلاص الدين له ، والصبر على أوامره ، وعن تواهيه ، وعلى أقداره ، والرضا به وعنه ، والموالة فيه ، والمعاداة فيه ، والذل له والخضوع ، والإحتبات إليه ، والطمانينة به ، وغير ذلك من أعمال القلوب ، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح : كالصلاة والجهد ، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ، ومساعدة العاجز ، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

فـ «إياك نعبد» التزام لأحكام هذه الأربعة ، وإقرارها ، و «إياك نستعين» طلب للإعانة عليها والتوفيق لها ، و «اهدنا الصراط المستقيم» متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل ، وإلهام القيام بهما ، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها.

● العبودية ذروة الشرف

وجميع الرسل إنما دعوا إلى «إياك نعبد ، وإياك نستعين» فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته ، من أولهم إلى آخرهم . فقال نوح لقومه (٥٩:٧) عبادوا الله ما لكم من إله غيره) وكذلك قال هود وصالح وشعيب (٦٥:٧ و٧٣:٨٥) وإبراهيم . قال الله تعالى (٣٦:١٦) ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال (٢٥:٢١) وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (٥١:٢٣ ، ٥٢) يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا . إني بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة واحدة . وأنا ربكم فاتقون).

والله تعالى جعل العبودية وصفاً أكمل خلقه ، وأقربهم إليه . فقال (١٧٢:٤) لن يَسْتَنكِفَ المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون . ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً) وقال (٢٠٦:٧) إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء (١٩:٢١) وله من في السموات والأرض) ههنا . ثم يتدنى (وقنٌ عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحشرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فهما جملتان تامتان مستتلتان ، أي إن له من في السموات ومن في الأرض عبيداً وملكاً . ثم استأنف جملة أخرى فقال (وقنٌ عنده لا يستكبرون عن عبادته) يعني أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته يعني لا يأنفون

عنها ولا يتعاضلون ولا يستحسرون ، فيعيون و يتعلمون — يقال : حَسَرَ واستحسر ، إذا تعب وأعيأ — بل عبادتهم وتسيبهم كالنفس لبني آدم. فالأول : وصف لعبد ربوبيته ، والثاني ، وصف لعبد إلهيته. وقال تعالى (٦٣: ٢٥) — ٧٧ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً إلى آخر السورة . وقال (٦: ٧٦) عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً) وقال (١٧: ٣٨) واذكر عبدنا داود) وقال (٤١: ٣٨) واذكر عبدنا أيوب) وقال (٤٥: ٣٨) واذكر عبدنا إبراهيم وإسحق ويعقوب) وقال عن سليمان (٣٠: ٣٨) نعم العبد إنه أواب) وقال عن المسيح (٥٩: ٤٣) إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) فجعل غاية العبودية لا الإلهية ، كما يقول أعداؤه النصارى . ووصف أكرم خلقه عليه ، وأعلامه عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته . فقال تعالى (٢٥: ٢) وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) وقال تبارك وتعالى (١: ٢٥) تبارك الذي نزل الفرقان على عبده) وقال (١: ١٨) الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه ، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله ، وقال (١٩: ٧٢) وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه. وقال (١٧: ١٧) سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) فذكره بالعبودية في مقام الإسراء. وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم فإنما أنا عبد . فقولوا عبد الله ورسوله» وفي الحديث «أنا عبد. آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد» وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو قال «قرأت في التوراة صفة محمد صلى الله عليه وسلم : محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سميت المتوكل، ليس بفظ . ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزى بالسبئية السيئة، ولكن يعفو ويغفر» .

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده . فقال تعالى (١٨: ٣٩) فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وجعل الأمن المطلق لهم . فقال تعالى (٤٣: ٦٨ ، ٦٩) يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة ، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به . فقال (٤٢: ١٥) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، إلا من اتبعك من الغاوين) وقال (٩٩: ١٦) ، ١٠٠ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون).

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم إحسان العبودية أعلى مراتب الدين ، وهو الإحسان . فقال في حديث جبريل — وقد سأله عن الإحسان — «أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

● لزوم (إياك نعبد) لكل عبد الى الموت

قال الله تعالى لرسوله (١٥:٩٩) واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وقال أهل النار (٤٦:٤٧، ٧٤:٤٧) وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين) واليقين ههنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير. وفي الصحيح — في قصة موت عثمان بن مظعون رضى الله عنه وارضاه — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه» أي الموت وما فيه. فلا يتفك العبد من العبودية مادام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان «من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم؟» و يلتسان منه الجواب. وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود. فيسجد المؤمنون. ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود. فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسيحاً مقروناً بأنفسهم لا يجدون له تعباً ولا نصيباً.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله. وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه. بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله صلى الله عليه وسلم — بل على جميع الرسل — أعظم من الواجب على أمهم. والواجب على أولى العزم: أعظم من الواجب على من دونهم. والواجب على أولى العلم: أعظم من الواجب على من دونهم. وكل أحد بحسب مرتبته.

● انقسام العبودية الى عامة وخاصة

العبودية نوعان : عامة ، وخاصة:

فالعبودية العامة : عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله ، بثرهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم . فهذه عبودية التهر والملك . قال تعالى (١٩:٨٨ — ٩٣) وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئا إداً . تكاد السموات يتفكرن منه وتتسقى الأرض وتجر الجبال سجداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من في السموات والأرض إلا آتني الرحمن عبداً) فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى (٢٥:١٧) ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله . فيقول: أنتم أهملتم هبادي هؤلاء؟) فسماهم عباده مع ضلالهم . لكن تسمية مقيدة بالإشارة . وأما المطلقة : فلم

يحيى إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .
 وقال تعالى (٤٦:٣٩) قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) وقال (٣١:٤٠) وما الله بريد ظلماً للعباد) وقال (٤٨:٤٠) إن الله قد حكم بين العباد) فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.
 وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأمر. قال تعالى (٦٨:٤٣) يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) وقال (١٨:٣٩) فيشرع عبادي الذين يستمعون القول فيستبعون أحسنه) وقال (٦٣:٢٥)، ٦٤ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا * وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) وقال تعالى عن إبليس (٤٠:١٥) لا غوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) وقال تعالى عنهم (٤١:١٥) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان).
 فالخلق كلهم عبيد ربوبيته . وأهل طاعته وولايته: هم عبيد الهيته .
 ولا يحيى في القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا لهؤلاء .
 وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية : فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه: إما مُتَّخِراً . كقوله (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً) والثاني : معروفاً باللام، كقوله (٣١:٤٠) وما الله بريد ظلماً للعباد) (٤٨:٤٠) إن الله قد حكم بين العباد).
 الثالث: مقيداً بالإشارة أو نحوها ، كقوله (أنتم أضللتم عبادي هؤلاء).
 الرابع: أن يذكر في عموم عباده . فيدرجوا مع أهل طاعته في الذكر . كقوله (٤٦:٣٩) أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون).
 الخامس : أن يذكر في مرصوفين بفعلهم . كقوله (٥٣:٣٩) قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله).
 وقد يقال : إما سماهم «عبادة» إذ لم يقنطوا من رحمة ، وأنابوا إليه ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربه ، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة .
 وإنما انقسمت العبودية الى خاصة وعامة ، لأن أصل معنى اللفظة : الدل والخضوع . يقال «طريق مُتَّعِد» إذا كان مُدَلِّلاً بوطء الأقدام، و «فلان عبده الحب» إذا دله، لكن أولياؤه خضعوا له وذلُّوا طوعاً وإحتياراً ، وانقياداً لأمره ونهيه . وأعداؤه خضعوا له قهراً وورعاً .
 ونظير انقسام العبودية الى خاصة وعامة: انقسام «القنوت» إلى خاص وعام، و «السجود» كذلك . قال تعالى في القنوت الخاص (٩:٣٩) أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ لَّيْلًا سَاجِدًا وَقَائِمًا؟ يَخْشَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) وقال في حق مريم (١٢:٦٦) وكانت من القانتين) وهو كثير في القرآن.
 وقال في القنوت العام (١٧٦:٢) وله من في السموات والأرض كل له قانتون) أي

خاضعون أذلاء .

وقال في السجود الخاض (٢٠٦:٧) إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) وقال (٥٨:١٩) إذا تبلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجُودًا وَبُكْيًا) وهو كثير في القرآن.

وقال في السجود العام (١٥:١٣) ولله يسجد من في السموات والأرض طوعًا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال).

ولهذا كان هذا السجود الكره غير السجود المذكور في قوله (١٨:٢٢) ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس) فخص بالسجود عنا كثيراً من الناس وعمهم بالسجود في سورة التحل (٤٩:١٦) ولله يسجد ما في السموات والأرض من دابة والملائكة) وهو سجد الذل والقهر والخنوع . فكل أحد خاضع لربوبيته ، ذليل لعزته . مقهور تحت سلطانه تعالى.

• مراتب (إياك نعبد) علماً وعملاً

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل . فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداها : العلم بالله . والثانية : العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه ، فخمس مراتب : العلم بذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وأسمائه ، وتزنيه عما لا يليق به .

والعلم بدينه مرتبتان . إحداها : دينه الأمرى الشرعي . وهو الصراط المستقيم الموصل إليه .

والثانية : دينه الجزائي ، المتضمن ثوابه وعقابه . وقد دخل في هذا العلم العلم بملائكته وكتبه ورسله .

وأما مراتبها العلمية ، فمرتبتان : مرتبة لأصحاب اليمين ، ومرتبة للسابقين القربين .

فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات ، وترك المحرمات ، مع ارتكاب المباحات ، وبعض المكروهات ، وترك بعض المستحبات .

وأما مرتبة المقربين : فالقيام بالواجبات والمندوبات . وترك المحرمات والمكروهات ، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم ، متورعين عما يخافون ضرره .

خاصتهم : قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقرابات بحسن النية . في تلقى هذه النعم والآلاء من ربهم العليم الحكيم ، الذي ما أعطى عباده هذه النعم إلا ليربهم بها ، وينمي فيهم ملكات الخير ، ويريدهم بها من عناصر الإنسانية الكريمة يرقون بها على معارج الخير والاحسان والرشد والحكمة ،

فيكونون من الابرار . فهم في كل شؤونهم وأحوالهم عابدون ذاكرون لربهم الرحمن . بكل أنواع الذل والخضوع والمحبة والإسلام . فهم في حقهم عابدون ، وفي متاجرهم عابدون ، وفي مضاجعهم مع أزواجهم عابدون ، وهكذا لا يرون في شيء مما آتاهم الله ما يشغلهم عن ربهم وينسيهم أسماءه ، وما يرون في شيء إلا أنه عنصر جديد من عناصر التربية والإحسان ، فيزدادون لمسديها إليهم سبحانه شكراً وجباً وخضوعاً وذلاً وإسلاماً وطاعة.

فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين ، بل كل أعمالهم راجحة . ومن دونهم يترك المباحات مشغلاً عنها بالعبادات . وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات . لأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله .

● قواعد العبودية

ورعى العبودية على خمس عشرة قاعدة. من كملها كمل مراتب العبودية.
وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب ، واللسان ، والجوارح . وعلى كل منها عبودية تخصه .
والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب ، ومستحب ، وحرام ، ومكروه ، ومباح . وهي لكل واحد من القلب ، واللسان ، والجوارح .
فواجب القلب: منه متفق على وجوبه ، ومختلف فيه .
فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص ، والتوكل ، والمحبة ، والصبر ، والإنابة ، والخوف ، والرجاء ، والتصديق الجازم ، والنية في العبادة . فهذا قدر زائد على الإخلاص . فإن الإخلاص هو أفراد المعبود عن غيره .
ونية العبادة لها مرتبتان .
إحداهما: تمييز العبادة عن العادة .
والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض .
والأقسام الثلاثة واجبة .
واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة .
وكذلك النصح في العبودية . ومدار الدين عليه . وهوبذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضى له . وأصل هذا واجب . وكما له مرتبة المقربين .
وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان ، واجب مستحق ، وهو مرتبة أصحاب اليمين ، وكما له مستحب . وهو مرتبة المقربين .

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة ، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن، أوبضاً وتسعين، وله طرفان أيضاً: واجب مستحق ، وكمال مستحب .
وأما المختلف فيه فكالرضا . فإن في وجوبه قولين:
فمن أوجبه قال: السخط حرام . ولا خلاص عنه إلا بالرضا . وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب .

ومن قال هو مستحب ، قال: لم يبيح الأمر به في القرآن ولا في السنة، بخلاف الصبر، فإن الله أمر به في مواضع كثيرة من كتابه . وكذلك التوكل . قال (١٠: ٨٤) إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) وأمر بالإتيان . فقال (٣٩: ٥٤) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ) وأمر بالإخلاص كقوله (٩٨: ٥) وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) وكذلك الخوف كقوله (٣: ١٧٥) فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وقوله (٢: ١٥٥) فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْا) وقوله (٢: ٤٠) وَإِنِّي فَارِهُونَ) وكذلك الصدق . قال تعالى (٩: ١١٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) وكذلك المحبة . وهي أفرض الواجبات . إذ هي قلب العبادة المأمور بها، وثقلها وروحها .

وأما الرضا: فإنما جاء في القرآن مدح أهله، والثناء عليهم . لا الأمر به .
وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم، وظن أنهما متباينان وليس كما ظنه . فالمرضى الشارب للدواء الكريه متألم به راض به، والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متألم بصومه راض به، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها . فالتألم كما لا ينافي الصبر لا ينافي الرضا به .

وهذا الخلاف بينهم، إنما هو في الرضا بقضائه الكوني، وأما الرضا به ربياً والمأ، والرضا بأمره الديني: فمتفق على فرضيته، بل لا يصير العبد مسلماً إلا بهذا الرضا: أن يرضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسلاً .
ومن هذا أيضاً اختلافهم في الخشوع في الصلاة . وفيه قولان للفقهاء ، هما في مذهب أحمد وغيره .

وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته . فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد، وإبو حامد الغزالي في إحيائه، ولم يوجبها أكثر الفقهاء .
واحتجوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر من سها في صلاته بسجدة السهو ولم يأمره بالإعادة مع قوله «ان الشيطان يأتي أحدكم في صلاته، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا» — لما لم يكن يذكر — حتى يفضل الرجل أن يدري كم صلى» ولكن لاتزاع أن هذه الصلاة لا يثاب على شيء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إن

العبد كينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها ، ثلثها ، ربعها — حتى بلغ عشرين» وقال ابن عباس رضى الله عنهما «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها» فليست صحيحة باعتبار ترتيب كمال مقصودها عليها ، وإن سميت صحيحة باعتبار أنها لا تأمره بالإعادة ، ولا ينبغي أن يعلق لفظ الصحة عليها . فيقال «صلاة صحيحة» مع أنه لا يثاب عليها فاعلمها ، والقول بأن الصلاة التي لا شوع فيها آتة ولا تدبر للقراءة والذكر تسمى صحيحة ، منى على أن كلمة «الصحة» ، إنما تطلق على ما اجتمعت الشروط الاصطلاحية في أعمالها الدنية الظاهرة ، دون الأعمال الباطنة كالإحلاص ، كما تطلق في عرف الأطباء على سلامة الجسد . دون سلامة النفس من فساد العقائد والأخلاق . وصحة الصلاة بهذا المعنى لا تقتضي سقوط الفرض وعدم المؤاخظة في الآخرة . والمراد أنها صحيحة ظاهراً كنسبة المنافق مسلماً في الظاهر .

والقصد : أن هذه الأعمال — واجبها ومستحبها — هي عبودية القلب . فمن عطّلها فقد عطّل عبودية الملك ، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح .
والقصد : أن يكون ملك الأعضاء — وهو القلب — قائماً بعبوديته لله سبحانه ، هو ورعيته .
وأما المحرمات التي عليه : فالكبر ، والرياء ، والعجب ، والحسد ، والغفلة ، والنفاق . وهي

نوعان : كفر ، ومعصية .

فالكفر : كالشك ، والنفاق ، والشرك ، وتوابعها .

والمعصية نوعان : كبائر ، وصغائر .

فالكبائر : كالرياء ، والعجب ، والكبر ، والعجز ، والخيلاء ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والفرح والسرور بأذى المسلمين ، والشامة بمصيبتهم ، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم ، وحسدكم على ما آتاهم الله من فضله ، وتقني روال ذلك عنهم ، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا ، وشرب الخمر وغيرها من الكبائر الظاهرة . ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها ، والتوبة منها . وإلا فهو قلب فاسد . وإذا فسد القلب فسد البدن .

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب ، وترك القيام بها .

فوظيفة «إياك نعبد» على القلب قبل الجوارح . فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولا بد . وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها .

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقّه وقد تكون كبائر ، بحسب قوتها وغلظها ، ونخفها ودقّتها .

ومن الصغائر أيضاً : شهوة المحرمات وتقنيها . وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر ، بحسب تفاوت درجات المشتته . فشهوة الكفر والشرك : كفر . وشهوة البدعة : فسق . وشهوة

الكبائر: معصية. فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب . وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره في تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار. قالوا: هذا القاتل. يارسول الله . فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» فنزله منزلة القاتل، لحرصه على قتل صاحبه، في الإثم دون الحكم. وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب. وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

● عبودية اللسان

وأما عبوديات اللسان الخمس . فواجهها : النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن. وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالشهاد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام. وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمداكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرمه: فهو النطق بكل ما يغضب الله ورسوله، كالنطق بالدع المحالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها، وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول. والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم. وهو أشدها تحريماً.

ومكروهه : التكلم بما تزكك خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف: هل في حقه كلام مباح، متساوى الطرفين؟ على قولين. ذكرهما ابن لسر وغيره. أحدهما : أنه لا يخلو كل ما يتكلم به: إما أن يكون له أو عليه. وليس في حقه شيء له ولا عليه.

وحجتوا بأنه يكتب عليه كلامه كله. ولا يكتب إلا الخير والشر.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح، لاله ولا عليه، كما في حركات الجوارح.

قلنا: لأن كثيراً من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي. وهذا شأن المباح.

ولتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة وإما

مرجوحة. لأن اللسان شأنًا ليس لسائر الجوارح، وأكثر ما يُكَيِّبُ الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم. وكل ما يلفظ به اللسان إما أن يكون مما يرضى الله ورسوله أولاً فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجح. وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح. فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيع له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة. وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة.

وربما كانت الجوارح في الحركة - مضرة، ومنفعة، ومسؤولية سواء، وظهر ذلك من اللسان: إما هو لكثرة استعمال الإنسان له، فهو متنبه له، وغافل عن الجوارح الأخرى ونحوها السمع والبصر. فإن قيل: فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين. فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل.

قيل: حركته بها عند الحاجة إليها راجحة، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تنفيده. فتكون عليه لا له.

فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوي الطرفين، كانت حركة اللسان التي هي الوسيلة إليه كذلك، إذ الوسائل تابعة للمقصد في الحكم.

قيل: لا يلزم ذلك. فقد يكون الشيء مباحاً، بل واجباً، ووسيلته مكروهة - كالوفاء بالطاعة المنذورة - هو واجب، مع أن وسيلته - وهو النذر - مكروه منهي عنه. وكذلك الحلف المكروه مرجوح، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة، وكذلك سؤال الحلق عند الحاجة مكروه، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة. وهذا كثير جداً. فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه.

● عبودية الجوارح

وأما العبوديات الخمس على الجوارح: فعل خمس وعشرين مرتبة أيضاً. إذ الحواس خمسة. وعلى كل حاسة خمس عبوديات.

فعل السمع: وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه من استماع الاسلام والأيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر الإمام بها، واستماع الخطبة للجمعة، في أصح قول العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة: من رده، أو

الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الايمان والسنة بمعرفة ضدّها من الكفر والبدعة ونحو ذلك .
وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تُغشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة: من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.
وكذلك استماع المعازف، وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور والبراع ونحوها. ولا يجب عليه سدّ أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات .
فحيث يجب لتجنب سماعها وجوب سدّ الفرائع.
ونظير هذا: نظرة النجاء لاحتريم على الناظر، وتحريم عليه النظرة الثانية إذا تمعدها.
وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.
والمكروه: عكسه . وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه.
والباح ظاهر.

وأما النظر الواجب: فالنظر في الصحف، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أبوابها ليميز بينها، ونحو ذلك.
والنظر الحرام: النظر إلى الاجتناب لشهوة مطلقاً، وبغيرها إلا الحاجة، كنظر الخاطب، والمستام والمعايل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذوي الحرم.
والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيماناً وعلماً، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته، وذلك أوجب الواجبات. فإنه قد ورد الأمر المشد به في القرآن كثيراً جداً، وحاه التورع الشديد لمن عسى وغفل عن آيات الله الكونية. فإن العسى عنها مؤد ولا يد إلى التكذيب بآيات الله في الأنفس والآفاق، ومن المحال أن يكون إيمان بالله وكتابه ورسوله إلا ثمرة التفكير في آيات الله في الأنفس وفي الآفاق.

والمكروه: فضول النظر الذي لامصلحة فيه. فإن له فضولاً كما للسان فضول . وكما قاد فضولها إلى فضول عزّ التخلص منها، وأعتى دواؤها . وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

والباح: النظر الذي لامضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.
ومن النظر الحرام: النظر إلى المورث . وهي قسمان.
عورة وراء الثياب وعورة وراء الأبواب.
ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة، ففقاً عينه، لم يكن عليه شيء،

ودهببت هذرا، بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حل لهم أن يفتقوا عينه» ورواه أبو داود، وفيه «ففتقوا عينه فقد هدرت».

وهذا إذا لم يكن للناس سبب يباح النظر لأجله، كمرة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور — أو مأذون له — في الاطلاع عليها.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطراب إليه، وحوف الموت. فإن تركه حتى مات مات عاصياً قاتلاً لنفسه. قال الإمام أحمد وطاوس. من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار.

والذوق الحرام: كذوق الحمر، والسموم القاتلة. والذوق الممنوع منه للصوم الواجب. وأما المكروه: فكذوق المشبهات، والأكل فوق الحاجة، ودوق طعام الفحاة. وهو الطعام الذي تفحاً آكله. ولم يُرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها. وفي السنن: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «نهى عن طعام المتبارزين» ودوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل، بما أذن الله فيه. والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه. والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به عن الشارع.

والدوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقاً للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي تعلم به هذه العين هل هي حيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لامضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟ ومن هذا شم المقوم، ورب الخيرة، عند الحكم بالتقويم، ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء حشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوى الحواس، ويسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك.

ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم «من غرض عليه ريحان فلا يردده. فإنه طيب الريح، خفيف المحمل».

والمكروه: كشم طيب الظلمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.
 والمباح: ما لا تنع فيه من الله ولا تيمة، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع.
 وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، فاللمس الواجب: كل لمس الزوجة حين يجب جهاها .
 والحرام: لمس ما لا يحل من الأجنيات.
 والمستحب: إذا كان فيه غرض بصره، وكف نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله.
 والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذة. وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام، إذا لم يأمن
 على نفسه، ولمس فخذ الرجل، إذا قلنا: هي عورة.
 والمباح: ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.
 وهذه المراتب أيضاً مرتبة على البطش باليد، والمشي بالرجل. وأمثلتها لا تحصى.
 فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله: واجب . وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف .
 والصحيح : وجوبه ليمكّنه من أداء دينه ، ولا يجب لإخراج الزكاة، وفي وجوبه لأداء فريضة
 الحج نظر . والأقوى في الدليل : وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكّنه بذلك من أداء النسك.
 والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب: إعانة المضطر ، ورمي الجمار.
 والحرام: كقتل النفس التي حرم الله قتلها، ونهب المال المصنوع، وضرب من لا يحل
 ضربه، ونحو ذلك وكأنواع اللب المحرم بالنصر كالنرد، أو ما هو أشدّ تحريماً منه عند أهل المدينة
 كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحد وغيره، أو دونه عند بعضهم. ونحو كتابة البدع
 المخالفة للسنة تصنيفاً أو نسخاً، إلا مقروناً بردها ونقضها، وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر،
 والقذف والتشيب بالنساء الأجانب ، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم،
 ولا سيما إن كسبت عليه مالا (٧٩:٢) فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)
 وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهداً مخطئاً، فالإثم
 موضوع عنه.

وأما المكروه: فكالمبث واللعب الذي ليس بحرام ، وكتابة مالا فائدة في كتابته ، ولا منفعة
 فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب : كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين
 صاعداً، أو يصنع لأخرق، أو يُفرغ من ذكوه في دلو المستسقى، أو يحمل له على دابته، أو يسكها
 حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك . ومنه: لمس الركن بيده في
 الطواف ، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان .
 والمباح: مالا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب: فالمشي إلى الجماعات والجماعات، في أصح القولين، لبضعة وعشرين دليلاً، مذكورة في غير هذا الموضع. والمشي حول البيت للطواف الواجب. والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دُعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه، وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية الله، وهو من رَجُل الشيطان. قال تعالى (١٧: ٦٤) وأجلب عليهم بغيلاًك ورجلك قال مقاتل: استمن عليهم بركبان جندك ومُشاتهم. فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضاً.

فواجبه: في الركوب في القزى والجهاد، والحج الواجب.

ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين.

وفي الوقوف بمرقة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأقر؟ والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء. ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله عز وجل.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما ترطبه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والشم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة.

مَنْظَرُ الْحَالِ وَالْأَحْوَالِ

وقد اكثَرَ النَّاسُ الْقَوْلَ فِي صِفَةِ مَنَازِلِ «إِبْرَاهِيمَ» الَّتِي يَنْتَقِلُ فِيهَا الْقَلْبُ مِنْزِلَةً مِنْزِلَةً فِي حَالِ سِيرِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَكَثُرُوا فِي غَذَاهَا ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهَا الْغَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهَا مَائَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ زَادَ وَنَقَصَ ، فَكُلٌّ وَصَفَهَا بِحَسَبِ سِيرِهِ وَسُلُوكِهِ .

وَلَا رَبَّابَ السُّلُوكِ اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ فِي عِدَدِ الْمَقَامَاتِ وَتَرْتِيبِهَا ، وَكُلٌّ يَصِفُ مَنَازِلَ سِيرِهِ ، وَحَالَ سُلُوكِهِ . وَلَمْ يَخْتَلَفْ فِي بَعْضِ مَنَازِلِ السَّيْرِ هَلْ هِيَ مِنْ قِسْمِ الْأَحْوَالِ ؟ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا : أَنَّ الْمَقَامَاتِ كَسْبِيَّةٌ . وَالْأَحْوَالُ وَهْبِيَّةٌ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : الْأَحْوَالُ مِنْ نَتَائِجِ الْمَقَامَاتِ . وَالْمَقَامَاتِ نَتَائِجُ الْأَعْمَالِ ، فَكُلٌّ مِنْ كَانَ أَصْلَحَ عَمَلًا كَانَ أَعْلَى مَقَامًا ، وَكُلٌّ مِنْ كَانَ أَعْلَى مَقَامًا كَانَ أَعْظَمَ حَالًا .

وَالصَّحِيحُ فِي هَذَا : أَنَّ الْوَارِدَاتِ لَهَا أَسْمَاءُ بِاعْتِبَارِ أَحْوَالِهَا ، فَتَكُونُ لَوَامِعَ وَبَوَارِقَ وَلَوَائِحَ عِنْدَ أَوَّلِ ظَهْرِهَا وَبُدُونِهَا ، كَمَا يَلْمَعُ الْبَارِقُ وَيُلَوِّجُ عَنْ بَعْدِ ، فَإِذَا نَازَلَتْهُ وَبَاشَرَهَا فِي أَحْوَالِهَا ، فَإِذَا تَمَكَّنَتْ مِنْهُ وَثَبَّتْ لَهُ مِنْ غَيْرِ انْتِقَالٍ فِيهَا مَقَامَاتٍ . وَهِيَ لَوَامِعَ وَلَوَائِحَ فِي أَوَّلِهَا ، وَأَحْوَالُ فِي أَوْسَطِهَا ، وَمَقَامَاتُ فِي نَهَائِهَا . فَالَّذِي كَانَ يَارِقًا هُوَ بَعِينُ الْحَالِ . وَالَّذِي كَانَ حَالًا هُوَ بَعِينُ الْمَقَامِ . وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ لَهُ بِاعْتِبَارِ تَعَلُّقِهِ بِالْقَلْبِ ، وَظَهْوِهِ لَهُ ، وَثَبَاتِهِ فِيهِ .

فَالْحَالُ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ وَلَا يَصْفُو حَالٌ إِلَّا بِصِفَاءِ الْعِلْمِ الثَّمَرِ لَهُ . وَعَلَى هَذَا ، فَإِنَّ الْحَالَ هُوَ تَكْيِيفُ الْقَلْبِ وَانْصِبَاغُهُ بِحُكْمِ الْوَارِدَاتِ ، هُوَ يَهْدِيهِ وَصَاحِبُهُ إِلَى الْمَقَامِ الَّذِي حَاءَ مِنْهُ الْوَارِدُ ، كَمَا تَدْعُوهُ رَائِحَةُ الْيَسْتَانَ الطَّيِّبَةِ إِلَى دُخُولِهِ وَالْمَقَامِ فِيهِ .

وَهَذَا لِأَنَّ الرَّحَلَ قَدْ يَكُونُ عَالِمًا بِالشَّيْءِ وَلَا يَكُونُ مُتَصَمًّا بِالتَّحَلُّقِ بِهِ وَاسْتِعْمَالِهِ . فَالْعِلْمُ شَيْءٌ وَالْحَالُ شَيْءٌ آخَرٌ . فَعِلْمُ الْعَشَقِ ، وَالصَّحَّةِ ، وَالشُّكْرِ ، وَالْعَافِيَةِ عَيْرِ حَصُولِهَا وَالْإِنْصَافِ بِهَا . فَإِذَا غَلِبَ عَلَيْهِ حَالُ تِلْكَ الْمَعْلُومَاتِ صَارَ عَلَيْهِ بِهَا كَالْمَفْعُولِ عَنْهُ . وَلَيْسَ بِمَفْعُولٍ عَنْهُ . بَلْ صَارَ الْحُكْمُ لِلْحَالِ .

فَإِنَّ الْعَبْدَ يَعْرِفُ الْخَوْفَ مِنْ حَيْثُ الْعِلْمِ . وَلَكِنْ إِذَا انْصَفَ بِالْخَوْفِ ، وَبَاشَرَ الْخَوْفَ قَلْبُهُ : غَلِبَ عَلَيْهِ حَالُ الْخَوْفِ وَالْإِزْعَاجِ ، وَاسْتَفْرَقَ عِلْمُهُ فِي حَالِهِ . فَلَمْ يَذْكُرْ عِلْمَهُ لِفُتْلَةِ حَالِهِ عَلَيْهِ . وَتَمَّتْ هَذِهِ حَالُهُ فَقَدْ ظَفَرَ بِالِاسْتِقَامَةِ . لِأَنَّ الْعِلْمَ إِذَا أَثْمَرَ الْأَحْوَالَ : كَانَتْ عَنْهَا الْإِسْتِقَامَةُ فِي الْأَعْمَالِ . وَوَقَّوعُهَا عَلَى وَجْهِ الصُّوَابِ . وَتَحَقُّقُ صَاحِبِهَا فِي الْإِشَارَةِ إِلَى مَا وَجَدَهُ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَلَمْ تَكُنْ إِشَارَتُهُ عَنْ تَحْمِينِ وَظَنِّ وَحِسْبَانِ . وَاسْتَحَقَّ اسْمُ النِّسْبَةِ — فِي صِفَةِ الْعَبْدِيَّةِ — إِلَى الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ . فَقَوْلُهُ (٢٠:١٥) : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَقَوْلُهُ (٢٣:٢٥) — ٢٦ — وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا — الْآيَاتِ وَقَوْلُهُ (٢٦:٢٦)

عيننا يشرب بها عباد الله) وقوله (٦٨:٤٣) يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون).

والمقصود : أن هذا قد انتقل من أحكام العمل وحده الى أحكام العمل بالحال المصاحب للعلم . فهو عامل بالمواجيد الحالية، المصحوبة بالعلم النبوية . فان انفراد العلم عن الحال تعطيل وبطالة ، وانفراد الحال عن العلم: كفر والحاد. والأكمل: ان لا يغيب عن شهود العلم بالحال ، وإن استغرق الحال عن شهود العلم ، مع قيامه بأحكامه : لم يضره . وقد ينسلخ السالك من مقامه كما ينسلخ من الثوب، و ينزل إلى ما دونه. ثم قد يعود اليه، وقد لا يعود.

ومن المقامات : ما يكون جامعاً لمقامين.

ومها ما يكون جامعاً لأكثر من ذلك.

ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات . فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه.

فالتوبة جامعة لمقام الحاسبة ومقام الخوف، لا يتصور وجودها بدونهما.

و «التوكل» جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا . لا يتصور وجوده بدونهما.

و «الرجاء» جامع لمقام الخوف والإرادة.

و «الخوف» جامع لمقام الرجاء والارادة.

و «الانابة» جامعة لمقام المحبة والخشية . لا يكون العبد منيباً إلا باجتماعهما .

و «الإخبات» له جامع لمقام المحبة والذل والخضوع. لا يكمل أحدها بدون الآخر إخباتاً.

و «الزهد» جامع لمقام الرضة والرهبة . لا يكون راهداً من لم يرغب فيما يرجونفعه ، ويرهب مما يخاف ضرره.

ومقام «المحة» جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة . فالمحبة معنى يلتم من هذه الأربعة . وبها تحققها.

ومقام «الخشية» جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته. فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته له. كما قال تعالى (٢٨:٣٥) إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فالعلماء به وبأسره هم أهل خشيته . قال النبي صلى الله عليه وسلم «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية» .

ومقام «المهية» جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

ومقام «الشكر» جامع لجميع مقامات الإيمان . ولذلك كان أرفعها وأعلاها . وهو فوق

«الرضا» وهو يتضمن «الصبر» من غير عكس . ويتضمن «التوكل» و «الانابة» و «الحب» و «الاخبات» و «الخشوع» و «الرجاء» فجميع المقامات مندرجة فيه . لا يستحق صاحبه اسمه على الاطلاق الا باستجماع المقامات له . ولهذا كان الإيمان نصفين : نصف صبر ، ونصف شكر . والصبر داخل في الشكر . فربح الإيمان كله شكراً . والشاكرون هم أقل العباد ، كما قال تعالى (١٣:٣٤) **وقليل من عبادى الشكور** .

ومقام «الحياء» جامع لمقام المعرفة والمراقبة .

ومقام «الأنس» جامع لمقام الحب مع القرب . فلو كان المحب بعيداً من محبوبه لم يأنس به . ولو كان قريباً من رجل ولم يحبه لم يأنس به ، حتى يجتمع له حبه مع القرب منه .

ومقام «الصدق» جامع للإخلاص والعزم . فاجتماعهما يصح له مقام الصدق .

ومقام «المراقبة» جامع للمعرفة مع الخشية . فيحسبهما يصح مقام المراقبة .

ومقام «الطمأنينة» جامع للإنابة والتوكل ، والتفويض والرضا والتسليم . فهو معنى ملتئم من هذه الأمور . إذا اجتمعت صار صاحبها صاحب طمأنينة . وما نقص منها نقص من الطمأنينة .

وكذلك «الرغبة» و «الرغبة» كل منهما ملتئم من «الرجاء» و «الخوف» والرجاء على الرغبة أغلب ، والخوف على الرهبة أغلب .

وكل مقام من هذه المقامات فالساكنون بالسببة إليه نوعان : أبرار ، ومقربون . فالأبرار في أذنياله ، والمقربون في ذروة سنامه . وهكذا مراتب الإيمان جميعها . وكل من النوعين لا يحمى تفاوتهم ، وتفاضل درجاتهم إلا الله .

و «المريد» في الاصطلاح : هو الذي قد شرع في السير الى الله . وهو فوق العابد ، ودون الواصل . وهذا اصطلاح بحسب حال السالكين . وإلا فالعابد مريد ، والسالك مريد ، والواصل مريد . فالإرادة لاتفارق العبد مادام تحت حكم العبودية .

و «العارف» فوق السالك . ولا يفارقه السلوك ، لكنه مع السلوك قد ظفر بالمعرفة . فأخذ منها اسماً أخص من اسم السالك . وهكذا الشأن في سائر المقامات والأحوال . فإنها لاتفارق من ترقى فيها . ولكن إذا ترقى في مقام أخذ اسمه ، وكان أحق به مع ثبوت الأ ول له .

والمتكلمون في هذا الشأن يرجحون «المعرفة» على «العلم» جداً . وكثير منهم لا يرفع بالعلم رأساً . ويعده قاطعاً وحجاباً دون المعرفة . وأهل الاستقامة منهم : أشد الناس وصية للمريدين بالعلم . وعندهم : أنه لا يكون لى الله كامل الولاية من غير أولى العلم أبدأ . فما اتخذ الله ولا يتخذ ولياً جاهلاً . والجهل رأس كل بدعة وضلالة ونقص . والعلم أصل كل خير وهدى وكمال .

والفرق بين «العلم» و«المعرفة» عند اهل الاستقامة من المتكلمين في هذا الشأن : ان «المعرفة» عندهم هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه . فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده ، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالماً بالله ، وبالطريق الموصول الى الله ، وبآفاته وقواطعها . وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة . فالعارف — عندهم — من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله . ثم صدق الله في معاملته . ثم اخلص له في قصوده ونياته . ثم انسلخ من اخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم تطهر من اوساخه وادارته ومخلفاته ، ثم صبر على أحكام الله في نعمه وبلياته . ثم دعا اليه على بصيرة بدينه وآياته . ثم جرد الدعوة اليه وحده بما جاء به رسوله ، ولم يشبها بأراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم . ولم يزن بها ما جاء به الرسول عليه من الله أفضل صلواته . فهذا الذي يستحق اسم العارف على الحقيقة ، إذا سمي به غيره على الدعوى والاستعارة .

وحقيقة الفرق بين العلم والمعرفة من وجوه:

أحدها : ان «المعرفة» تتعلق بذات الشيء ، و«العلم» يتعلق بأحواله . فتقول : عرفت أباك ، وعلمته صالحاً عالماً . ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون المعرفة . كتوبه تعالى (١٧: ٤٧) فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقوله (٩٨: ٥) اعلموا أن الله شديد العقاب) وقوله (١٤: ١١) فاعلموا أنما أنزل بعلم الله).

فالمعرفة: حضور صورة الشيء ومثاله للعلمي في النفس . والعلم : حضور أحواله وصفاته ، ونسبتها اليه . فالمعرفة : تشبه التصور . والعلم : يشبه التصديق .

الثاني : ان «المعرفة» — في الغالب — تكون لما غاب عن القلب بعد ادراكه . فإذا ادركه قيل : عرفة ، أو تكون لما وصف له بصفات قامت في نفسه . فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها ، قيل : عرفة ، قال الله تعالى (٤٥: ١٠) ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) وقال تعالى (٥٨: ١٢) وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه . فعرفهم وهم له منكرون) وقال (٣٠: ٦) الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) لما كانت صفاته معلومة عندهم ، فأروه : عرفوه بتلك الصفات . وفي الحديث الصحيح «إن الله تعالى يقول لآخر أهل الجنة دخولا: أتعرف الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم، فيقول: نعم، فيستمنى على ربه» وقال تعالى (٨٩: ٢) وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) فالمعرفة : تشبه الذكر للشيء . وهو حضور ما كان غائباً عن الذكر . ولهذا كان ضد المعرفة : الإنكار . وضد العلم : الجهل . قال تعالى (٨٣: ١٦) يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) ويقال : عرف الحق فأقر به . وعرفه فأنكره .

وقد وقع في القرآن لفظ «المعرفة» ولفظ «العلم» فلفظ «المعرفة» كقوله (ما عرفوا من الحق) وقوله (١٤٦:٢) و٣٠:١٩ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم). وأما لفظ «العلم» فهو أوسع إطلاقاً . كقوله (١٩:٤٧) فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقوله (١٨:٣) شهد الله أنه لا إله إلا هو - الآية) وقوله (١١٤:٦) والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقوله (١١٤:٤٠) وقل رب زدني علماً) وقوله (٢١:١٣) أقمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى؟) وقوله (٩:٣٩) قل: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟) وقوله (٥٦:٣٠) وقال الذين أنفوا العلم والإيمان، لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث) وقوله (٨٠:٢٨) وقال الذين أنفوا العلم: ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً) وقوله (٤٣:٢٩) وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون) وقوله (٤٠:٢٧) قال الذي عنده علم من الكتاب) وقوله (١٧:٥٧) اعلّموا أن الله يحيى الارض بعد موتها) وقوله (٢٠:٥٧) اعلّموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو) وقوله (٢٢:٣:٢) واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه) وقوله (١٤:١١) فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) وهذا كثير.

واختار سبحانه لنفسه اسم «العلم» وامتصرف منه . فوصف نفسه بأنه عالم، وعلمهم، وعلام، وعليم، ويعلم. وأخبر أن له علماً، دون لفظ «المعرفة» في القرآن. ومعلوم أن الاسم الذي اختاره الله لنفسه أكمل نوعه المشارك له في معناه، ومن هاهنا تدرك أن هؤلاء القوم لمخطأوا حين رجحوا اصطلاح «المعرفة» واكثروا الدتدنة حوله ، وإنما جاريهاهم في ذلك خروجاً من الخلاف ، وحرصاً على المعاني المباركة الصائبة الكثيرة التي وصفوا بها العارفين.

وإنما جاء لفظ «المعرفة» في القرآن في مؤمنى أهل الكتاب خاصة . كقوله (٨٥:٥) ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون - إلى قوله - ما عرفوا من الحق) وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم).

والسالكون ضربان أيضاً من باب آخر: سالكون على الحال، ملتفتون إلى العلم . وسالكون على العلم، ملتفتون إلى الحال ، حتى كأنهما غيران وحزبان ، وكل فرقة منهما لا تأنس بالآخرى ، ولا تعاشرها إلا على إغماض ونوع استكراه.

وهذا من تقصير الفريقين ، حيث ضعف أحدهما عن السير في العلم. وضعف الآخر عن الحال في العلم . فلم يتمكن كل منهما من الجمع بين الحال والعلم . فأخذ هؤلاء العلم، وسبغته ونوره . ورجحوه . وأخذ هؤلاء الحال وسلطانة وتمكينه . ورجحوه . وصار الصادق الضميف من الفريقين : يسير بأحدهما ملتفتاً إلى الآخر.

فهذا مطيع للحال. وهذا مطيع للعلم. لكن المطيع للحال متى عصى به العلم: كان منقطعاً

مجبوراً ، وإن كان له من الحال ما عساه أن يكون . والمطيع للعلم متى أعرض به عن الحال كان مضيقاً منقوصاً ، مشتتلاً بالوسيلة عن الغاية .

وصاحب التمكن : يتصرف علمه في حاله . ويحكم عليه فيقاد لحكمه ، ويتصرف حاله في علمه . فلا يدعه أن يقف معه . بل يدعوه إلى غاية العلم . فيجيبه ويلبي دعوته . فهذه حال الكمل من هذه الأمة . ومن استقرأ أحوال الصحابة رضى الله عنهم وجدها كذلك .

فلما فرق المتأخرون بين الحال والعلم : دخل عليهم النقص والخلل . والله المستعان (٤٩:٤٩) . يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراً وإناثاً . ويعمل من يشاء عقيماً . إنه عليم قدير) فكذلك يهب لمن يشاء علماً . ولن يشاء حالاً . ويجمع بينهما لمن يشاء . ويحلى منهما من يشاء .

واعلم أن الترتيب الذي يشير إليه كل مرتب للمنازل لا يخلو عن تحكم ، ودعوى من غير مطابقة . فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام ، ودخل فيه كله . فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة ، ومقاماته وأحواله . وله في كل عقد من عقوده واجب من واجباته أحوال ومقامات . لا يكون موفياً لذلك العقد والواجب إلا بها . وكلما وقى واجبا اشرف على واجب آخر بعده . وكلما قطع منزلة استقبل أخرى .

وقد يعرض له أعلى المقامات والأحوال في اول بداية سيره . فينتفع عليه من حال المحبة والرضا والأنس والطمانية مالم يحصل بعد لسالك في نهايته . ويحتاج هذا السالك في نهايته إلى أمور — من البصيرة ، والتوبة ، والمحاسبة — أعظم من حاجة صاحب البداية إليها . فليس في ذلك ترتيب كلى لازم للسلوك .

بل أن التوبة — التي جملوها من أول المقامات — هي غاية العارفين ، ونهاية أولياء الله المقربين . ولاريب أن حاجتهم إلى المحاسبة في نهايتهم ، فوق حاجتهم إليها في بدايتهم .

واعلم أيضاً أن السائر إلى الله لا ينقطع سيره إليه مادام في قيد الحياة . ولا يصل العبد مادام حياً إلى الله وصولاً يستغني به عن السير إليه أlette وهذا عين الحال . بل يشتد سيره إلى الله كلما زادت ملاحظته لتوحيده ، وأسمائه وصفاته . ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق اجتهاداً وقياماً بالأعمال ، ومحافظة عليها إلى أن توفاه الله . وهو أعظم ما كان اجتهاداً وقياماً بوظائف الصودية . فلو أنى العبد بأعمال الثقلين جميعها لم تفارق حقيقة السير إلى الله . وكان بعد في طريق الطلب والارادة .

وعلى هذا فإن تقسيم السائرين إلى الله إلى طالب ، وسائر ، وواصل . أو إلى مريد ، يريد الله ، ومسراد ، أعلى منه ، يريد الله ويجذبه إليه : تقسيم فيه مساهلة ، لا تقسيماً حقيقياً ، فإن الطلب والسلوك والارادة لو فارق العبد : لانقطع عن الله بالكلية .

ولحرماته، وإجلالاً له، وخشية من سقوط المنزلة عنده، عن البعد والطرده عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة. فهذه التوبة لون، وتوبة أصحاب العلل لون.

ومن اتهام التوبة أيضاً: ضعف العزيمة، والتفات القلب إلى الذنب الفئينة بعد الفئينة، وتذكر حلاوة مواقفته. فرما تنفس. وربما هاج هائج.

ومن اتهام التوبة: طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب، حتى كأنه قد بسط منشوراً بيالاًمان. فهذا من علامات التهمة.

ومن علاماتها: جمود العين، واستمرار الغفلة، وأن لا يتحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة لم تكن له قبل الخطيئة.

فالتوبة المقولة الصحيحة لها علامات.

منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان عليه قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفه عين. فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه (٤١: ٣٠) أن لا تخافوا ولا تحزنوا. وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه تدماً وخوفاً. وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها. وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى (٩: ١١٠) لا يزال بُيُئُهُمْ الذي بنوا ربةً في قلوبهم، إلا أن تقطع قلوبهم) قال: تقطعها بالتوبة. ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه. وهذا هو تقطعه. وهذا حقيقة التوبة. لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفاً من سوء عاقبته، فمن لم يتمتع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرة وخوفاً، تقطع في الآخرة إذا حُقَّت الحقائق. وعائين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين. فلا بد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء. ولا تكون لغير الذنب. لا تحصل بجوع، ولا حب مجرد. وإنما هي أمر وراء هذا كله. تكسر القلب بين يدي أقرب كسرة تامة. قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقت بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً.

فليس شيء أحب إلى الله من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل، والإحبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له. قلله ما أحل قوله في هذه الحال، «أسألك بعزك وذلي إلى رحمتي. أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عنى وفقرى إليك. هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سوى كثير. وليس لي سيد سواك. لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. أسألك مسألة المسكين. وأبتهل إليك ابتهاج الحاضع الذليل. وأدعوك دعاء الخائف المضرب، سؤال من خضعت لك رقبته، ورنم لك أنفه، وفاضت لك عينه، وذلل لك قلبه».

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجم إلى صحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة. وما أسهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادق بشيء أتق عليه من التوبة الخالصة الصادقة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

● قَدَر... وخيار

وأما الخيرة لله تعالى عند مخالفة الناس لاوامره وعدم الاعتدار عنهم بالقدر فلأن الله عز وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر. فلا أحد أحب إليه العذر من الله. ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب، إرادة لأعذار خلقه. لئلا يكون لهم عليه حجة. ومعلوم أن طالب عذرهم ومصححهم مقيم لحجة قد أبطلها الله من جميع الوجوه، ولله الحجة البالغة.

والشايث: أنه لا عذر لأحد ألبتة في معصية الله، ومخالفة أمره. مع علمه بذلك، وتمكنه من الفعل والتبرك. ولو كان له عذر لما استحق العقوبة واللوم. لافي الدنيا ولا في العقبى، ومن ادعى أن ذنبه كان قدراً مقدوراً عليه لم يستطع دفعه فهو طالم جاهل، ولولا جهله وظلمه لعلم أن بلاءه من نفسه ومصابه منها، وإنما أولى بكل ذم وطم، وأنها مأوى كل سوء. و«١٠:١٠٠» إن الإنسان لربه لكنود». قال ابن عباس ومجاهد وقتادة «كفور جحود لنعم الله» وقال الحسن «هو الذي تغد المصائب». ويني النعم» وقال أبو عبيدة «هو قليل الخير» والأرض «الكنود» التي لا سبت بها وقيل: التي لا تنبت شيئاً من المنافع، وقال الفضل بن عباس «الكنود: الذي أنسته الحيلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان».

ولولا جهله لعلم أنه هو القاعد على طريق مصالحه يقطعها عن الوصول إليه، فهو الحاجر في طريق الماء الذي به حياته. وهو الشكر الذي قد سد مجرى الماء إلى بستان قلبه، ويستفيث مع ذلك: العطش العطش، وقد وقف في طريق الماء. ومنع وصوله إليه. فهو حجاب قلبه عن سر غيبه. وهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على القلب. فما عليه أضر منه، ولا له أعداء أبلغ في نكايته وعداوته منه.

ما تبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

فتباً له ظالمنا في صورة مظلوم، وشاكياً والجناية مه. قد جد في الإعراض وهو بنادي: طردوني وأبعدوني.

يأخذ الشفيق بحجرته عن النار. وهو يجاذبه ثوبه ويقلبه ويقتحمها، ويستفيث: ما

الْبَيْتُ الْبَعْدِيُّ لِلْإِسْلَامِ

الْيَقِظَةُ (١) الْفُكْرَةُ (٢)

الْبَصَائِرُ (٣) الْعَيْنُ الْمُرَّةُ (٤)

• انتفاضة اليقظة

فأول منازل العبودية «اليقظة» وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رُقْدة الغافلين . والله ما أنفع هذه الروعة! وما أعظم قدرها وخطرها! وما أشد إيعانتها على السلوك! فمن أحس بها فقد أجس والله بالصلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة فإذا انتبه شَمَّرَ لله بهمة إلى السفر إلى منازلته الأولى، وأوطانه التي شُبِّ منها.

واعلم أن العبد قبل وصول الداعي إليه في نوم الغفلة، قلبه نائم وظرفه يقظان. فصاح به الناصح. وأسمعه داعي النجاح. وأذن به مؤذن الرحمن: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ.

فأول مراتب هذا النائم: اليقظة والانتباه من النوم. وقد ذكرنا: أنها انزعاج القلب لروعة الانتباه.

وكأنها هي القومة لله المذكورة في قوله (٤:٣٤: ٤ قُلْ: إِنَّمَا أعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ. أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْيًى وُقَرَّادِي).

فالقومة لله هي اليقظة من بيئة الغفلة، والنهوض عن ورطة الفترة. وهي أول ما يستتير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه. وأول أنوارها: لَحْظَةُ الْقَلْبِ إِلَى الْعَمَةِ، عَلَى الْيَاسِ مِنْ عَدَّهَا، وَالْوُقُوفِ عَلَى حِدْهَا، وَالتَّفَرُّغِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْمُنَّةِ بِهَا، وَالْعِلْمِ بِالتَّقْصِيرِ فِي حَقِّهَا.

وهذا هو موجب اليقظة وأثرها. فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة لاستشارة قلبه برؤية نور التنبيه. أوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة. وكلما حَدَّقَ قَلْبُهُ وَطَرَفَهُ فِيهَا، شَهِدَ عَظَمَتَهَا وَكَثْرَتَهَا. فَيَسُ من عَدَّهَا، وَالْوُقُوفِ عَلَى حِدْهَا. وَتَفَرَّغَ قَلْبُهُ لِمَشَاهِدَةِ مِثْقَلِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِهَا، مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ، وَلَا اسْتِجْلَابٍ لَهَا بِشَمْنٍ. فَتَيَقَّنُ حِينَئِذٍ تَقْصِيرَهُ فِي وَاجِبِهَا. وَهُوَ الْقِيَامُ بِشُكْرِهَا.

فأوجب له شهود تلك المنَّة والتقصير نوعين جليلين من الصودية: عِجْبَةُ النَّمَمِ. وَاللَّهَجُ بِذِكْرِهِ وَتَذَكُّرِ اللَّهِ وَخُضُوعِهِ لَهُ، وَإِزْرَاهُ عَلَى نَفْسِهِ. حَيْثُ عَجَزَ عَنْ شُكْرِ نِعْمِهِ. فَصَارَ مُتَحَقِّقًا بِـ «أَبُو لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ. وَأَبُوهُ بِذَنْبِي فَاعْفُ رِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» وَعَلِمَ حِينَئِذٍ أَنَّ

هذا الاستغفار حقيق بأن يكون سيد الاستغفار. وعلم حينئذ أن الله لوعذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبتهم وهو قهر ظالم لهم، ولورحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم. وعلم أن العبد دائماً سائر إلى الله بين مطالعة المنة، ومشاهدة التقصير. وهذا اللحظ يؤدي به إلى مطالعة الجناية، والوقوف على الخطر فيها، والتشمير لتداركها، والتخلص من رقها، وطلب النجاة بتمحيصها.

فينظر إلى ماسلف منه من الإساءة. ويعلم أنه على خطر عظيم فيها وأنه مشرف على الهلاك بمؤاحدة صاحب الحق بموجب حقه. وقد ذم الله تعالى في كتابه من نسي ما تقدم يده. فقال (٥٧:١٨) ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يده فإدا طالع حياته شتر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل. وتخلص من رق الجناية بالاستعمار والندم. وطلب التمحيص. وهو تحليص إيمانه ومعرفته من تحبث الجناية. كتمحيص الذهب والقصة، وهو تحليصها من خبثها. ولا يمكن دخول الجنة إلا بعد هذا التمحيص. فإنها طيبة لا يدخلها إلا طيب. ولهذا تقول لهم الملائكة (٣٩:٧٣) سلام عليكم طيئتم فادخلوها خالدين وقال تعالى (١٦:٣٢) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون: سلام عليكم ادخلوا الجنة فليس في الجنة ذرة خث.

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة. فإن عصته هذه الأربعة وخلصته: كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين. يشرونهم بالجنة وكان من الذين (٤١:٣٠ - ٣٢) تنزل عليهم الملائكة عند الموت (أن لا تخافوا ولا تحزنوا. وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون. نزلاً من غفور رحيم).

وإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه وتحليصه، فلم تكرر التوبة نصوحاً — وهي العامة الشاملة الصادقة — ولم يكن الاستغفار كاملاً تاماً — وهو المصحوب بمقارعة الذنب، والدم عليه — وهذا هو الاستغفار النافع، لا استغفار من في يده قبح السكر، وهو يقول: أستغفر الله، ثم يرفقه إلى فيه. ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيةها واية بالتكبير، ولا المصائب. وهذا إما لعظم الجناية، وإما لضعف المحص، وإما لهما —: مُخص في البرزخ بثلاثة أشياء.

أحدها: صلاة أهل الايمان الجنائزة عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم فيه.

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر، وروعة الفتان، والعقصة والانتهاز، وتوابع ذلك.

الثالث: ما يهدى إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال، من الصدقة عنه، والحب، والصيام عنه، وقرآنة القرآن عنه، والصلاة. وجعل ثواب ذلك له. وقد أجمع الناس على وصول

انصقة والدعاء . قال الإمام أحمد: لا يختلفون في ذلك . وما عداها فيه اختلاف . والأكثر
يقولون بوصول الحج . وأبو حنيفة يقول: إنما يصل إليه الإنفاق، وأحد ومن وافقه: مذهبهم في
ذلك أوسع المذاهب . يقولون : يصل إليه ثواب جميع القرب . بتزيتها ومالها .
قال لم تف هذه بالتمحيص . مُحْص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء: أهوال
القيامة . وشدة الموقف . وشفاة الشفعاء . وعفو الله عز وجل .

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيص فلا بد له من دخول الكبر، رحمة في حقه ليتخلص
و يتمحص ، ويتطهر في النار . فتكون النار طهرة له وتمحيصاً لحبه . ويكون مكثه فيها على
حسب كثرة الخس وقسوته ، وشدة وضعفه وتراكمه . فإذا حرج خبثه وصُغى ذنبه . وصار
خائضاً طياً ، أخرج من النار ، وأدخل الجنة .

ثم إن من أعلى مراتب اليقظة : الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام ، والتنصل من
تضييعها ، والنظر الى الظن بها لتدارك فائتها ، وتعمير باقيها .

فيعرف مامعه من الزيادة والنقصان . فيتدارك ما فاتته في بقية عمره التي لا تمن لها ،
و يبخل بساعاته — بل بأنفاسه — عن ذهابها ضياعاً في غير ما يترتب له الله . فهذا هو حقيقة
الخسران المشترك بين الناس ، مع تفاوتهم في قدره ، قلة وكثرة . فكل نفس يخرج في غير ما يقرب
إلى الله فهو حسارة على العبد في معباده ، ووقفه له في طريق سيره ، أو نكسة إن استمر ، أو
حجاب إن انقطع به .

فأما معرفة النعمة: فإنها تصفو ثلاثة أشياء : بنور العقل ، وتبسيم بروق اليقظة ، والاعتبار
بأهل البلاء .

فهو النور الذي أوجب اليقظة ، فاستنار القلب به لرؤية التنه . وعلى حسب — قوة وضعفاً —
تصفوله مشاهدة النعمة . فإن من لم ير نعمة الله عليه إلا في مأكله وملسه ، وعافية بدنه ،
وقيام وجهه بين الناس . فليس له نصيب من هذا الوراثة . فسمعة الله بالإسلام والإيمان ،
وجذب عهده إلى الإقبال عليه ، والتنعم بذكره ، والتلذذ بطاعته : هو أعظم النعم . وهذا إنما
يدرك بنور العقل ، وهداية التوفيق .

وكذلك شيمه روق من الله عليه . وهو النظر إليها ، ومطالعها من خلال شُحْب الطمع ،
وظلمات النفس . والنظر إلى أهل البلاء — وهم أهل الغفلة عن الله ، والابتداع في دين الله —
فهذه الصفات هم أهل البلاء حقاً . فإذا رآهم ، وعلم ما هم عليه ، عظمت نعمة الله عليه في
قربه ، وصفت له وعرف قدرها . فالضد يُظهر حسه الضد . وبضدها تتميز الأشياء .

حتى إن من تمام مقيم أهل الجنة : رؤية أهل النار وما هم فيه من العذاب .
وأما مطالعة الجنات: فإنها تصح ثلاثة أشياء : تعظيم الحق ، ومعرفة النفس ، وتصديق .

الوعيد.

فمن كملت عظمة الحق تعالى في قلبه عظمت عنده مخالفته. لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هودونه. ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها، وفقرها الذاتي الى مولاها الحق في كل لحظة ونفس، وشدة حاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هوشديد الضرورة اليه في كل لحظة ونفس.

وأيضاً فإذا عرف حقارتها — مع عظم قدر من حاله — عظمت الجناية عنده. فشمري التخلص منها. وبحسب تصديقه بالوعيد و يقينه به، يكون تسميره في التخلص من الجناية التي تلحق به.

ومدار السعادة، وقطب رحاها: على التصديق بالوعيد. فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خراباً لا يرجى معه فلاح ألبته. والله تعالى أخبر أنه إما تنفع الآيات والتذمر لمن صدق بالوعيد. وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإندار، والمتنفعون بالآيات، دون من عبدهم. قال الله تعالى (١١: ١٠٣) إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) وقال (٤٥: ٧٩) إنما أنت منذر من يخشاها) وقال (٤٥: ٥٠) فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد) وأخبر تعالى أن أهل النجاة في الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد، الخائفون منه. فقال تعالى (١٣: ١٤) وَلَنُشِئَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ. ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ).

وأما معرفة الريادة والنقصان من الأيام: فإنها تستقيم بثلاثة أشياء: سماع العلم، وإجابة داعي الحرمة، وصحبة الصالحين. وملاك ذلك كله: خلع العادات.

ذلك ان السالك: على حسب علمه بمراتب الأعمال، ونفائس الكسب. تكون معرفته بالريادة والنقصان في حاله وإيمانه. وكذلك تنقذ إجابة داعي تعظيم حرمة الله من قلبه: هل هو سريع الإجابة لها، أم هو بطيء عنها؟ فيحسب إجابة الداعي — سرعة وإبطاء — تكون زيادته ونقصانه.

وكذلك صحبة أرباب الغزائم، المشرمين إلى اللحاق بالمأ الأعلى، يعرف به مامعه من الزيادة والنقصان.

والذي يملك به ذلك كله خروجه عن العادات والمألوفات، وتوطين النفس على مفارقتها، والغربة بين أهل الفلة والإعراض. وما على العبد أضر من ملك العادات له. وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة، المورثة لهم عن الأسلاف الماضين. فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها، والاستعداد للمطلوب منه: فهو مقطوع. وعن فلاحه وفوزه ممنوع (٩: ٤٦) ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة. ولكن كره الله انبعاثهم. فنبطهم. وقيل: اقموا مع القاعدین).

● منزلة الفكرة

فإذا استحكمت يقظته أوجبت له الفكرة . وهي — كما تقدم — تحديق القلب إلى جهة ملوب التماساً له .

. والفكرة فكرتان : فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة ، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة .
فالتى تتعلق بالعلم والمعرفة : فكرة التمييز بين الحق والباطل ، والثابت والمنفي . والتى تعلق بالطلب والإرادة : هي الفكرة التى تميز بين النافع والضار .
ثم يترتب عليها فكرة أخرى فى الطريق الى حصول ماينفع ، فيسلكها ، والطريق الى ما يضر فيتركها .

فهذه ستة أقسام . لاسابع لها ، هي مجال أفكار العقلاء .
وأصلها : الفكرة فى التوحيد : وهي استحضار أدلته ، وشواهد الدلالة على بطلان الشرك واستحالته ، وأن الإلهية يستحيل ثبوتها لاثنتين ، كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنتين . فكذاك من أنبطل الباطل عبادة اثنين ، والتوكل على اثنين . بل لا تصح العبادة إلا للإله الحق ، والرب الحق . وهو الله الواحد القهار .

وهذه الفكرة هي حقيقة البراء والولاء . البراء من عبادة غير الله ، والولاء لله ، كما قال تعالى (٤:٦٠) قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا نرى آلهتكم وما تعبدون من دون الله كفرة بما بكم . وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) وقال (٢٧:٤٣) وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه : إني نرى ما تعبدون * إلا الذى قَطَرْنى ، فإنه سيهدين) وقال أيضاً (٦:٧٨، ٧٩) يا قوم إني برىء مما تشركون * إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً) وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون إلى آخرها .
وهذه براءة منهم ومن معبودهم وسماها براءة من الشرك .

وهي حقيقة المحو والإثبات . فيمحوه ما سوى الله عز وجل من قلبه ، علماً وقصدًا وعبادة ، كما هي متحوة من الوجود . ويثبت فيه إلهيته سبحانه وحده .
وهي حقيقة الجمع والفرق . فيفرق بين الإله الحق وبين من ادَّعيت له الإلهية بالباطل . ويجمع تأليهه وعبادته وحبه وخوفه ورجاءه وتوكله واستعانه على إله الحق الذى لا إله سواه .
وهي حقيقة التجريد والتفريد . فيتجرد عن عبادة مساواه ، ويفرده وحده بالعبادة فالتجريد نفي ، والتفريد إثبات . ومجموعهما هو التوحيد .
فهذا الولاء والبراء . والمحو والإثبات ، والجمع والتجريد . والتفرد المتعلق بتوحيد الإلهية : هو النافع المثمر . المنجي . الذى به تنال السعادة والفلاح .

● بصائر تهدي

فإذا صحت فكرته أوجبت له «البصيرة» ، فهي نور في القلب يصبره الوعد والوعيد ، والجنة والنار، وما أعد الله في هذه لأوليائه، وفي هذه لأعدائه. فأبصر الناس وقد خرجوا من قبورهم مُهْطِلِينَ لدعوة الحق ، وقد نزل ملائكة السموات فأحاطت بهم ، وَوُضِعَ الكتاب ، وَجِيءَ بالنبيين والشهداء . وقد نُصِبَ الميزان ، وتطايرت الصُحُف. واجتمعت الخصوم. وتَقَلَّقَ كلُّ غريم بغريمه ولاح الخوض وأكوابه عن كُتُب. وكثر البطاش وقل الوارد : ونُصِبَ الجسر للعبور، ولَزَّ الناس إليه . وقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه . والنار يُعْظِم بعضها بعضاً تحته. والمتساقطون، فيها أضعافُ أضعافِ الناجين.

فينفتح في قلبه عين يرى بها ذلك. و يقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها، والدنيا وسرعة انقضائها.

فـ «البصيرة» نور يقذفه الله في القلب ، يرى به حقيقة ما أحبرت به الرسل. كأنه يشاهده رأى عين . فيتحقق — مع ذلك — انتفاع بما دعت إليه الرسل، وتضرره بمخالفتهم . وهذا معنى قول بعض العارفين «البصيرة: تحقُّقُ الانتفاع بالشيء والتضرر به» وقال بعضهم «البصيرة: ما خلَّصك من الخيرة، إما بإيمان وإما بعيان».

و «البصيرة» على ثلاث درجات . من استكملها فقد استكمل البصيرة: بصيرة في الأسماء والصفات ، وبصيرة في الأمر والنهي ، وبصيرة في الوعد والوعيد.

● المرتبة الاولى من البصيرة

فالبصيرة في الأسماء والصفات : أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله. بل تكون الشبهة المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبهة والشكوك في وجود الله. فكلأهما سواء في البلاء عند أهل البصائر .

وعقد هذا: أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستويا على عرشه ، متكلاً بأمره ونهيه، بصيراً بحركات العالم علويه وسُفُلِيَّه، وأشخاصه وذواته، سميعاً لأصواتهم، رقيباً على ضمائرهم وأسرارهم ، وأمرُ الممالك تحت تدبيره، نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك. موصوفاً بصفات الكمال ، منعوفاً بنموت الجلال، منزهاً عن العيوب والنقائص والمثال. فهو كما وصف نفسه في كتابه ، وفوق ما يصفه به خلقه . حي لا يموت . قيوم لا يئام . عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. بصير يرى

دَسِيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء. سميع يسمع صحيح له صلات
 باختلاف اللغات، على تفنن الحاحات. تمت كلماته صدقاً وعدلاً، وحت صفاته أن تقاس
 بصفاته خلقه شها ومثلاً. وتعالته داته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلاً. ووسعت الخليفة
 أفعاله عدلاً. وحكمة ورحمة وإحساناً وصلوا. له الخلق والأمر. وله النعمة والفصل. وله الملك
 والحمد. وله الثناء والمجد. أولاً ليس قبله شيء. وآخر ليس بعده شيء. ظاهر ليس فوقه شيء.
 باطن ليس دونه شيء. أسماءه كلها أسماء مُدَحِّج ومحمد وثناء وتحميد. ولذلك كانت حسنى.
 وصفاته كلها صفات كمال، ونعوتها كلها نعوت جلال، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة
 وعدل. كل شيء من مخلوقاته دال عليه، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه. لم يخلق السموات
 والأرض وما بينهما باطلاً، ولا ترك الإنسان سدى عاطلاً. بل خلق الخلق لقيام توحيد
 وعبادته، وأسبغ عليهم نعمته ليتوسلوا شكرها إلى ريادة كرامته. تعرّف إلى عبادته بأنواع
 التعريفات. وصرف لهم الآيات. وتنوع لهم الدلالات. ودعاهم إلى عبته من جميع الأبواب.
 ومدّ يده وبينهم من عهده أقوى الأسباب. فأتمّ عليهم نعمه السابغة. وأقام عليهم حجة
 البالغة، أفاض عليهم النعمة، وكتب على نفسه الرحمة. وضمن الكتاب الذي كتبه: أن رحمة
 تغلب غضبه.

وتفاوت الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها، والعلم
 بفساد الشبه المخالفة لحقائقها.

وتجد أضعف الناس بصيرة أهل الكلام الساطل المذموم الذي ذمه السلف، لجهلهم
 بالنصوص ومعانيها، وتمكن الشبه الباطلة من قلوبهم. وإذا تأملت حال العامة — الذين ليسوا
 مؤمنين عند أكثرهم — رأيهم أنهم بصيرة منهم، وأقوى إيماناً، وأعظم تسليمًا للوحي، وانقياداً
 للحق.

● المرتبة الثانية من البصيرة

البصيرة في الأمر والنهي. وهي تجريده عن المصلحة بتأويل، أو تقليد، أو هووى. فلا
 يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه، ولا شهوة مبع من تنفيذه وامتناله، والأخذ به،
 ولا تقليد يرمجه عن بذل الجهد في تلقي الأحكام من مشكاة النصوص.
 وقد علمت بهذا أهل الصائير من العلماء من غيرهم.

● المرتبة الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد

وهي أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت في الخير والشر، عاجلاً وآجلاً، في دار

العمل ودار الجزاء ، وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته ، وعدله وحكمته . فإن الشك في ذلك شك في الإلهية وربوبيته . بل شك في وجوده . فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك . ولا يليق أن ينسب إليه تعطيل الخلق ، وإرسالها هباءً ، وتركها سدى . تعالى الله عن هذا الحساب علواً كبيراً .

فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية . ولهذا كان الصحيح : أن المعاد معلوم بالعقل . وإنما اهتدى إلى تفاصيله بالوحي . ولهذا يجعل الله سبحانه إنكار المعاد كفراً به سبحانه . لأنه إنكار لقدرته وإلهيته . وكلاهما مستلزم للكفر به ؛ قال تعالى (١٣: ٥) وإن تعجب ! فعجب قولهم : أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلقٍ جديد؟ أولئك الذين كفروا بربهم . وأولئك الأغفل في أعناقهم . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . وفي الآية قولان :

أحدهما : إن تعجب من قولهم «أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلقٍ جديد» فعجب قولهم ! كيف ينكرون هذا . وقد خلُقوا من تراب ولم يكونوا شيئاً . والثاني : إن تعجب من شركهم مع الله غيره ، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له . فانكارهم للبعث ، وقولهم «أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلقٍ جديد» أعجب . وعلى التقديرين : فانكار المعاد عجب من الإنسان . وهو محض إنكار الرب والكفر به ، والجحد لإلهيته . وقدرته ، وحكمته وعدله وسلطانه .

ولصاحب كتاب منازل السائرين الذي نشره ، شيخ الاسلام الهروي ، في «البصيرة» طريقة أخرى ، إذ تجل : «البصيرة ما يخلصك من الحيرة» ، وجعل الدرجة الأولى منها : أن تعلم أن خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من حَقَّقَهُ أن تؤديه يقيناً ، وتغضب له غيرةً» . ومعنى كلامه : أن ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم صادر عن حقيقة صادقة ، لا يخاف متبعها فيما بعد مكروهاً . بل يكون آمناً من عاقبة اتباعها . إذ هي حق . ومتبع الحق لا خوف عليه . ومن حق ذلك الخبر عليك : أن تؤدي ما أمرت به منه من غير شك ولا شكوى ، والأحوط بك والذي لا تبراؤ ذمك إلا به تناول الامر بامثال صادر عن تصديق محقق ، لا يصحبه شك ، وأن تغضب على من خالف ذلك غيرة عليه أن يضيع حقه ، ويهمل جانبه .

وإنما كانت الغيرة عند شيخ الاسلام من تمام «البصيرة» لأنه على قدر المعرفة بالحق ومستحقه وعجته وإجلاله : تكون الغيرة عليه أن يضيع ، والغضب على من أضاعه . فإن ذلك دليل على محبة صاحب الحق وإجلاله وتعظيمه . وذلك عين البصيرة . فكما أن الشك القادح في كمال الامثال مُعمِّلٌ لعين البصيرة ، فكذلك عدم الغضب والغيرة على حقوق الله — إذا ضيعت ، ومحارمه إذا انتهكت — معمم لعين البصيرة .

ثم يجعل الدرجة الثانية: ان تشهد في هداية الله للناس وإضلاله لهم : إصابة العدل، وتعاين في جنته إياك من نفسك الامتارة بالسوء : حبل الوصل.

يريد — رحمه الله — بشهود العدل في هدايته من هداة، وفي إضلاله من أضلّ: أمرين. أحدهما: تفرد بالخلق. والهدى والضلال.

والثاني: وقوع ذلك منه على وجه الحكمة والعدل، لا بالاتفاق، ولا بمحض المشيئة المجردة عن وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها، بل بحكمة قتضت هدى من علم أنه يزكو على الهدى، ويقبله ويشكره عليه، ويثمر عنده. قاله أعلم حيث يجعل رسالته، أصلاً وميراثاً. قال تعالى (٥٣:٦) وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين؟ وهم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى، ويشكرونها عليها، ويحبونه ويمجدونه على أن جعلهم من أهله. فهو سبحانه ماعدل عن موجب العدل والإحسان في هداية من هدى وإضلال من أضل، ولم يطرده عن يابه، ولم يبعد عن جنبه، من يليق به التقريب والهدى والإكرام، بل طرده من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد. وحكمته وحده تأبى تقريبه وإكرامه، وجعله من أهله وخاصته وأوليائه.

ولايبقى إلا أن يقال: قلم خلق من هو بهذه المثابة؟

فهذا سؤال جاهل ظالم ضال، مفرط في الجهل والظلم والضلال. لأن خلق الاضداد والمتقابلات هو من كمال الربوبية، كالليل والنهار، والحر والبرد، واللذة والألم، والخير والشر، والتعظيم والجحيم.

أما قوله الآخر فيريد به أن تعين في توفيقه لك للطاعة، وجذبه إياك من نفسك. نه يريد تقريظك منه. فاستعار للتوفيق الخاص الجذب، وللتقريب الوصل. وأراد بالحل السبب الموصل لك إليه.

فأشار بهذا إلى أنك تستدل بتوفيقه لك، وجذبك نفسك، وجعلك متمسكا بحبه — الذي هو عهده ووحيته الى عبادته — على تقريبه لك. تشاهد ذلك ليكون أقوى في المحبة والشكر، وبذل النصيحة في العبودية. وهذا كله من تمام البصيرة التي تؤدي الى درجة ثالثة منها رآها الهروي تُعَبَّرُ المعرفة، وتُثَبِّتُ الفراسة.

وصدق — رحمه الله — فإن بهذه البصيرة تنفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف، التي لا تنال بكسب ولا دراسة. إن هو إلا فهم يؤتاه الله عبداً في كتابه ودينه، على قدر بصيرة قلبه.

● الفِرَاسَةُ ثَمَرَةُ البَصِيرَةِ

فالبصيرة تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة. وهي نور يقذفه الله في القلب. مرق به

بين الحق والباطل ، والصادق والكاذب . قال الله تعالى (٧٥:١٥) **إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** قال مجاهد: للمتوسمين . وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال **«اتقوا فريسة المؤمن . فإنه ينظر بنور الله عز وجل»** ثم قرأ **(إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)**.

و «التوسم» تفعل من السيم . وهي العلامة . فسمى المتفرس متوسماً . لأنه يستدل بما يشهد على ماغاب . فيستدل بالعيان على الإيمان . ولهذا خص الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء . لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل ، من الأمر والنهي ، والثواب والعقاب . وقد أظم الله ذلك لآدم ، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء ، وآتاه من السمع والبصر والفؤاد وغيرها ما عرف به حقائق الأشياء ومزاياها وصفاتها ، ليشكرها بحسن الانتفاع بها ، ووضعها في مواضعها الصالحة لها بأصل الخلق والفضة لأنها إنما خلقت وسخرت له ، وبشوه هم نسخته وخلفاؤه . فكل قلب فهو قابل لذلك . وهو فيه بالقوة . وبه تقوم الحجة ، وتحصل العبرة ، وتصح الدلالة . وبعث الله رسله مدكرين ومنبهين ومكملين لهذا الاستعداد ، بنور الوحي والإيمان . فيضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد . فيصير نوراً على نور . فتتقوى البصيرة ، ويعظم النور ، ويدوم ، بزيادة مادته ودوامها . ولا يزال في تزايد حتى يرى على الوجه والجوارح ، والكلام والأعمال . ومن لم يقبل هدى الله ولم يرف به رأساً دخل قلبه في الغلاف والأكمة . فأظلم ، وعمى عن البصيرة . فحجبت عنه حقائق الإيمان . فيرى الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، والرشد غيياً ، والغي رشداً . قال تعالى (٨٣: ١٤) **كَلَّا ، بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** و «الرين» و «الران» هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق والاعتقاد له .

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة . ففراسة الصادقين ، العارفين بالله وأمره : متصلة بالله ، ذلك أن همتهم لما تعلق بمحبة الله ومعرفته وعبوديته ، ودعوة الخلق إليه على بصيرة . كانت فراستهم متعلقة بنور الوحي مع نور الايمان . فميزت بين ما يحبه الله وما يبغضه ، من الأعيان والأقوال والأعمال . وميزت بين الخبيث والطيب ، والحق والباطل ، والصادق والكاذب . وعرفت مقادير استعداد السالكين الى الله . فحملت كل إنسان على قدر استعداد ، علماً وإرادة وعملاً .

ففراسة هؤلاء دائماً حائمة حول كشف طريق الرسول وتعرفها ، وتخليصها من بين سائر الطرق ، وبين كشف عيوب النفس ، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين . فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة . وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده .

● قصه بحث على الاقتحام

فإذا انتبه وأبصر أخذ في «القصه» وصدق الإرادة. وأجمع القصد والنية على سفر الهجرة إلى الله. وعلم وتيقن أنه لا بد له منه. فأخذ في أهية السفر، وتبئية الزاد ليوم المعاد. والتجرد عن عوائق السفر، وقطع الملاحق التي تمنعه من الخروج.

وقد رآه الشيخ الهروي:

«قصداً يبحث على الارتياض، ويخلص من التردد، ويدعو إلى مجانبة الأغراض». فهو يبحث على السلوك بلا توقف، ولا تردد، ولا علة غير العبودية، من رياء أو سمعة، أو طلب محمدة، أو جاه ومنزلة عند الخلق، بحيث لا يلقى سبباً يثوق عن المقصود إلا قطعه، ولا حائلاً دونه إلا منعه، ولا صعوبة إلا سهلها، فيجمل دينه الاستسلام لتهديب العلم، واجابة داعي الحكم.

فهو يتقاد إلى العلم ليتهدب به ويصلح. ويقصد إجابة داعي الحكم الديني الأمري كلما دعاه. فإن للحكم في كل مسألة من مسائل العلم متادياً يناهز الإيمان بها علماً وعملاً. فيقصد إجابة داعيها.

أما الأسرار والحكم الداعية إلى شرع الحكم. فإجابتها قدر زائد على مجرد الامتثال. فإنها تدعو إلى المحبة والإجلال، والمعرفة والحمد. فالأمر يدعو إلى الامتثال. وما تضمنه من الحكم. والغايات تدعو إلى المعرفة والمحبة.

● ابتداء العزم على الانتهاء

فإذا استحكم قصده صار «عزماً» جازماً، مستلماً للشروع في السفر، مقروناً بالتوكل على الله. قال تعالى (١٥٩:٣) فإذا عزمت فتوكل على الله).

و «العزم» هو القصد الجازم المتصل بالفعل. ولذلك قيل: إنه أول الشروع في الحركة لطلب المقصود، وأن التحقيق: أن الشروع في الحركة ناشئ عن العزم، لا أنه هو نفسه، ولكن لما اتصل به من غير فصل ظن أنه هو.

وحقيقته: هو استجماع قوى الإرادة على الفعل.

و «العزم» نوعان. أحدهما: عزم المريد على الدخول في الطريق. وهو من البدايات. والشاوي: عزم في حال السير معه. وهو أحص من هذا. وهو من المقامات. وسنذكره في موضعه إن شاء الله.

وفي هذه المنزلة يحتاج السالك إلى تمييز ما لهُ مما عليه، ليستصحب ماله ويؤدي ماعليه. وهو «الحاسبية» وهي قبل «التوبة» في المرتبة. فإنه إذا عرف ماله وما عليه أخذ في أداء ماعليه، والخروج منه. وهو «التوبة».

واعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام، ويفارقه وينتقل إلى الثاني. كمنازل السير الحسى. هذا محال. ألا ترى أن «اليقظة» معه في كل مقام لا تفارقه، وكذلك «البصيرة» و«الإرادة» و«العزم» وكذلك «التوبة» فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضاً. بل هي في كل مقام مُستصحبة. ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته. فقال تعالى في غزوة تبوك. وهي آخر الغزوات التي قطعوا فيها الأودية والبدابات والأحوال والنهايات (١١٧:٩) لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم. ثم تاب عليهم. إنه بهم رؤوف رحيم) فجعل التوبة أول أمرهم وآخره. وقال في سورة أنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي آخر سورة أنزلت (إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا). فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً).

وفي الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صلى صلاة بعد إذ أنزلت عليه هذه السورة إلا قال في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن» فالتوبة هي نهاية كل سالك وكل ولي لله. وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله وعبوديته. وما ينبغي له. قال تعالى (٧٣:٣٣، ٧٢:٧٣) إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان. إنه كان ظلوماً جهولاً * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات. وكان الله غفوراً رحيماً) فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة.

وكذلك «الصبر» فإنه لا يتفك عنه في مقام من المقامات.

وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له.

ومثال ذلك: أن «الرضا» مترتب على «الصبر» لتوقف الرضا عليه. واستحالة ثبوته بدونه. فإذا قيل: إن مقام «الرضا» بعد مقام «الصبر» لا يعني به أنه يفارق الصبر وينتقل إلى الرضا وإنما يعني أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر. فافهم هذا الترتيب في مقامات العبودية.

وإذا كان كذلك علمت أن «القصـد» و«العزم» متقدم على سائر المنازل، وعلمت بذلك أن «المحاسبة» متقدمة على «التوبة» بالرتبة أيضاً. فإنه إذا حاسب العبد نفسه خرج مما عليه. وهي حقيقة التوبة. وأن منزلة «التوكل» قبل منزلة «الإنابة» لأنه يتوكل في حصولها. فالتوكل وسيلة. والإنابة غاية.

(٥) منزلة المحاسبية

ذكرنا «البقظة» و«الفكرة» و«البصيرة» و«العزم» .

وهذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالاساس للبيان. وعليها مدار منازل السفر إلى الله. ولا يتصور السفر بدون نزولها ألبتة. وهي على ترتيب السير الحسى. فإن المقيم في وطنه لا يتأثم منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر. ثم يتبصر في أمر سفره وتخطره، وما فيه من المنفعة له والمصلحة. ثم يفكر في أهبة السفر والتزود وإعداد عدته. ثم يعزم عليه. فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة «المحاسبة» وهي «التمييز» بين ما عليه وما عليه. فيستصحب ماله. ويؤدي ما عليه. لأنه مسافر سقر من لا يعود.

ومن منزلة «المحاسبة» يصح له نزول منزلة «التوبة» لأنه إذا حاسب نفسه، عرف ما عليه من الحق، فخرج منه، وتنصل منه إلى صاحبه. وهي حقيقة «التوبة» فكان تقديم «المحاسبة» عليها لذلك أولى.

ولتأخيرها عنها وجه أيضاً. وهو أن «المحاسبة» لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة. والتحقيق: أن التوبة بين محاسبتين. محاسبة قبلها، تقتضى وجوبها. ومحاسبة بعدها، تقتضى حفظها. فالتوبة محفوفة بمحاسبتين. وقد دل على المحاسبة قوله تعالى (١٨:٥٩) يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، ولتُنظَرْ نَفْسٌ مَّقْدَمَتٌ لَعْدٍ فَأَمْرٌ سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لعد. وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقي الله به أو لا يصلح؟. والمقصود من هذا النظر: ما يوجهه و يقتضيه. من كمال الاستعداد ليوم الماد. وتقديم ما ينجي من عذاب الله، و يبيض وجهه عند الله. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه (حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا. وزنوا أنفسكم قبل أن تزنوا، وتزنوا للعرض الأكبر) (١٨:٦٨) يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) أو قال «على من لا تخفى عليه أعمالكم».

● ما غرك بربك الكريم؟

وبداية المحاسبة أن تقايس بين نعمته عز وجل، وجنائك، فحينئذ يظهر لك التفاوت، وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاك والعقاب. وبهذه المقايسة تعلم أن الرب رب والعبد عبد. ويتبين لك حقيقة النفس وصفاتها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفصال. وأن كل نعمة منه فضل. وكل نقمة

منه عدل. وأنت قبل هذه المقايسة جاهل بحقيقة نفسك، وبربوبة فاطرها وخالقها. فإذا قايست ظهر لك أنها منبع كل شر، وأساس كل نقص. وأن حَدها: الجاهلة الظالمة، وأنه لولا فضل الله ورحمته يتزكيت لها ما زكَّتْ أبداً. ولولا هدها ما اهتدت. ولولا إرشاده وتوقفه لما كان لها وصول إلى خير ألبتة. وأن حصول ذلك لها من بارئها وفاطرها. وتوقفه عليه كتوقف وجودها على إيجاده. فكما أنها ليس لها من ذاتها وجود. فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود. فليس لها من ذاتها إلا العدم — عدم الذات، وعدم الكمال — فهناك تقول حقاً «أَبُوهُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوهُ بَذَنبِي».

ثم تقايس بين الحسنات والسيئات. فتعلم بهذه المقايسة: أيهما أكثر وأرجح قدرًا وصفة. وهذه المقايسة الثانية مقايسة بين أفعالك وما منك خاصة.

● آلات المقايسة

إلا أن هذه المقايسة تشق على من ليس له نور الحكمة، وسوء الظن بالنفس، وتقيز النعمة من الفتنة، فهي تتوقف على نور الحكمة، وهو النور الذي تَوَرَّ الله به قلوب اتباع الرسل، فيقدره ترى التفاوت، وتتمكن من المحاسبة.

ونور الحكمة ههنا: هو العلم الذي يميز به العبد بين الحق والباطل، والمهدى والضلال. والضار والنافع. والكامل والناقص. والخير والشر. ويصبر به مراتب الأعمال، راجحها ومرجوحها، ومقبوها ومردودها. وكلما كان حظه من هذا النور أقوى، كان حظه من المحاسبة أكمل وأتم.

وأما سوء الظن بالنفس: فإنما احتاج إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش. ويُلبِّس عليه. فيرى المساوئ عظاماً، والعيوب كمالات. فإن المحب يرى مساوئ محبوبة وعيوبه كذلك.

فمن الرضا عن كل عيب كَلِيلَة كما أن عين السُّخْطِ تُبْذِي المساويا
ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها. ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس نفسه.
وأما تمييز النعمة من الفتنة: فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف، ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية. وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج، فحكم من مُسْتَدْرَج بالنعيم وهو لا يشعر، مفتون بشأه الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه! وأكثر الخلق عندهم: أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح. ذلك مبلغهم من العلم.
فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه بجمعه على الله فهو

سعة حقيقة. وما فرقه عنه وأخذ منه فهو البلاء في صورة النعمة ، والمنة في صورة المنحة. هليحذر إنما هو مستدرج. ويميز بذلك أيضاً بين المنة والحجة. فكم تلبس إحداها عليه مالاخرى!

فإن العبد بين منة من الله عليه، وحجة منه عليه، ولا ينفك عنهما، وذلك قول الله تعالى (١٦٤:٣) لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) وقوله (١٧:٤٩) بل الله يَمُنُّ عليكم أن هذاكم للإيمان) وقوله (١٤٩:٦) فله الحجة البالغة).

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحيها تنفيذ لرضائه وأوامره فهي منة. وإلا فهي حجة. وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه، والدعوة إليه فهو منة منه. وإلا فهو حجة. وكل مال اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته، لا لطلب الجزاء ولا الشكوى فهو منة من الله عليه. وإلا فهو حجة.

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه، وإلا فهو حجة. وكل قبول في الناس، وتعظيم ومحبة له، اتصل به خضوع للرب، وذل وانكسار، ومعرفة عيب النفس والعمل، وبذل النصيحة للخلق فهو منة، وإلا فهو حجة.

وكل بصيرة وموعظة، وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد، اتصل به عبادة ومزيد في العقل، ومعرفة في الإيمان فهي منة، وإلا فهي حجة.

وكل حال مع الله تعالى، أو مقام اتصل به السير إلى الله، وإيثار مراده على مراد العبد. فهو منة من الله. وإن صحبه الوقوف عنده والرضا به، وإيثار مقتضاه، من لذة النفس به وطمأنينتها إليه، وركونها إليه، فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر. ويميز بين مواقع المنن والمحن. والحجج والنعيم. فما أكثر ما يلبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك (٢١٣:٢) والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم).

● لك وعليك !

فإذا تولعت في هذه المقاييس: فتحت المحاسبة لك باباً من التمييز بين ما عليك لله من وحبوب العبودية والتزام الطاعة، واجتناب المعصية، وبين مالك. فالذي لك: هو المباح الشرعي، فعليك حق، ولك حق، فأد ما عليك: يؤت ما لك.

ولا بد من التمييز بين مالك وما عليك. وإعطاء كل ذي حق حقه. وكثير من الناس يجعل كثيراً مما عليه من الحق من قسم ماله. فيتخير بين فعله وتركه، وإن عمله رأى أنه فضل قام به لاحق أداه.

و بإزاء هؤلاء من يرى كثيراً مما له فعله وتركه من قسم ماعليه فعله أو تركه .
 فيتعبد بترك ماله فعله، كترك كثير من المباحات . و يظن ذلك حقاً عليه، كمن يتعبد بترك
 الشكاح، أو ترك أكل اللحم، أو الفاكهة مثلاً، أو الطيبات من الطعام والملابس . و يرى —
 لجهله — أن ذلك مما عليه . فيوجب على نفسه تركه . أو يرى تركه من أفضل القرب، وأجل
 الطاعات . وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على من زعم ذلك، ففي الصحيح «أن نفراً من
 اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا عن عبادته في السر؟ فكانهم تقاتلوا . فقال
 أحدهم: أما أنا فلا أكل اللحم . وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء . وقال الآخر: أما
 أنا فلا أنام على فراش . فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم مقاتلهم . فخطب، وقال: ما بال
 أقوام يقول أحدهم: أما أنا فلا أكل اللحم . ويقول الآخر: أما أنا فلا أتزوج ويقول
 الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش؟ لكنني أتزوج النساء، وأكل اللحم . وأنا نائم وأقوم .
 وأصوم وأفطر . فمن رغب عن سنتي فليس مني» فتبرأ من رغب عن سنته، وتعبد لله بترك
 ما أباحه لعباده من الطيبات، رغبة عنه، واعتقاداً أن الرغبة عنه وهجره عبادة . فهذا لم يميز بين
 ماعليه وماله .

● الكثير... القليل!

ومن تمام هذا التمييز أن يعلم أن رضا العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه . وجهله
 بحقوق العبودية . وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله و يليق أن يعامل به .
 وحاصل ذلك: أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتا و عيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه
 وما ينبغي أن يعامل به، يتولد منهما رضا بطاعته، وإحسان ظنه بها . و يتولد من ذلك: من
 المعجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكائنات الظاهرة من الرنا، وشرب الخمر، والفرار من
 الزحف ونحوها .

فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحقاقتها .

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم
 فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بحلاله وكبريائه . وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل
 هذه العبودية ، ولا رضيها لسيده .

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات . وهو أجل
 المواقف وأفضلها . فقال (٢: ١٩٨، ١٩٩) فإذا أفضتكم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر
 الحرام . واذكروه كما هداكم . وإن كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث

أفاض الناس. واستغفروا الله، إن الله غفور رحيم) وقال تعالى (١٧:٣) والمستغفرين بالأسحار) قال الحسن: مدوا الصلاة إلى التحنن. ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل. وفي الصحيح «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً. ثم قال: اللهم أنت السلام. ومنك السلام. تباركت يا ذا الجلال والإكرام» وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج، واقتراب أجله. فقال في آخر سورة أنزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً).

ومن ههنا فهم عمر وابن عباس — رضى الله عنهم — أن هذا أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه. فكانه إعلام بأنك قد أديت ما عليك، ولم يبق عليك شيء. فاجعل خاتمة الاستغفار كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل. وخاتمة الوضوء أيضاً أن يقول بعد فراغه «سبحانك اللهم وبحمدك. أشهد أن لا إله إلا أنت. أستغفرك وأتوب إليك، اللهم اجعلنى من التوابين. واجعلنى من المتطهرين».

فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله، و يلقى بجلاله من حقوق العبودية وشرائعها. وقال بعض العارفين: متى رضيت نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راضٍ به. ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر، وعمله عرضة لكل آفة ونقص، كيف يرضى لله نفسه وعمله؟ ولله در الشيخ أبي مدين حيث يقول: من تحقق بالعبودية نظر أعماله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء. وكلما عظم المطلوب في قلبه، صغرت نفسك عندك، وتضاءلت القيمة التي تذاها في تحصيله. وكلما شهدت حقيقة الروبة وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس: تبين لك أن ما معك من البصاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين بخشيت عاقبته وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله. و يشيك عليه أيضاً بكرمه وجوده وتفضله.

● إزدراء البطيء وراء!

ولا يكمل هذا المعنى إلا بأن ترأ بنفسك عن تعبير المقصرين، جعل تعبيرك لأخيك بذنبه أعظم إثمًا من ذنبه. وأشد من معصيته. لما فيه من صولة الطاعة، وتركية النفس، وشكرها، والمساواة عليها بالبراءة من الذنب. وأن أخاك باء به. ولعل كثرته بذنبه. وما أحدث له من الدلة والخضوع، والإبراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى، والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ماكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب: أنفع له، وخير من صولة طاعتك،

وَتَشْكُرُكَ بِهَا وَالْإِعْتِدَادَ بِهَا، وَالْمُثَقَّةَ عَلَى اللَّهِ وَخَلْقِهِ بِهَا. فَمَا أَقْرَبَ هَذَا الْعَاصِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ! وَمَا أَقْرَبَ هَذَا الْمُنِذِلَ مِنْ مَقْتَبِ اللَّهِ. فَذَنْبٌ تَذِلُ بِهِ لَدَيْهِ، أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَةٍ تُذِلُّ بِهَا عَلَيْهِ. وَإِنَّكَ أَنْ تَسِيَتْ نَائِلًا وَتَصْبَحَ نَادِمًا، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبِيَتْ قَائِمًا وَتَصْبَحَ مَعْجَبًا، فَإِنَّ الْمَعْجَبَ لَا يَصْعَدُ لَهُ عَمَلٌ. وَإِنَّكَ أَنْ تَضْحَكَ وَأَنْتَ مُعْتَرِفٌ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبْكِي وَأَنْتَ مُذَلِّلٌ. وَأَيْنَ الْمُنِذَرِينَ، أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ الْمُسَبِّحِينَ الْمَذَلِّينَ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَسْقَاءَ بِهَذَا الذَّنْبِ دَوَاءَ اسْتَخْرَجَ بِهِ دَامَ قَاتِلًا هَوْفِيكَ وَلَا تَشْعُرَ.

فَلِلَّهِ فِي أَهْلِ طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ أَسْرَارٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ. وَلَا يَطَالِعُهَا إِلَّا أَهْلُ الْبَصَائِرِ. فَيَعْرِفُونَ مِنْهَا بِقَدَرِ مَا تَنَالَهُ مَعَازِفُ الْبَشَرِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ مَا لَا يَقْلَعُ عَلَيْهِ الْكَاتِبُونَ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِذَا زِنْتَ أُمَّةً أَحَدَكُمْ، فَلْيَقِيمْ عَلَيْهَا الْحَدَّ وَلَا تَزَكُ» أَيُّ لَا يَبْعَثُ مِنْ قَوْلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِإِخْوَتِهِ (١٢: ٩٢) لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ) فَإِنَّ الْمِيزَانَ بِيَدِ اللَّهِ. وَالْحَكْمُ لِلَّهِ. فَالْسُّوْطُ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ هَذَا الْعَاصِيَ بِيَدِ مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ. وَالْقَصْدُ إِقَامَةُ الْحَدِّ لَا التَّعْيِيرُ وَالتَّشْرِيبُ. وَلَا يَأْمَنُ كُزَّاتُ الْقَدْرِ وَسُطُوتُهُ إِلَّا أَهْلُ الْجَهْلِ بِاللَّهِ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَعْلَمِ الْخَلْقِ بِهِ، وَأَقْرَبِهِمْ إِلَيْهِ وَسِيلَةَ (١٧: ٧٤) وَلَوْ لَا أَنْ تُبَيِّنَاكَ لَقَدْ كَذَبْتَ تَزَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) وَقَالَ يُوسُفَ الْعَدِيقُ (١٢: ٣٣) وَلَا تَحْشَرْنَا عَنْكَ كَيْدَهُمْ أَهْضَبُ إِلَيْهِمْ وَأَكْثَرُ مِنْ الْجَاهِلِينَ) وَكَانَتْ عَامَةٌ يَمِينُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا وَتُقَلِّبُ الْقُلُوبِ» وَقَالَ «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ. إِنْ شَاءَ أَنْ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزَيِّغَهُ أَرْزَأَهُ» ثُمَّ قَالَ «اللَّهُمَّ مَقْلَبُ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ، اللَّهُمَّ مُصَرِّفُ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ».

(١) مَزِيلَةُ التَّوْبَةِ

فإذا صح هذا المقام، ونزل العبد في هذه المنزل، أشرف منها على مقام «التوبة» لأنه بالحاسبة قد تميز عنده ماله مما عليه. فليجمع همته وعزمه على النزول فيه والتشمير إليه إلى الملمات.

ومنزلة «التوبة» أول المنازل، وأوسطها، وآخرها. فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الملمات. وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به. واستصحبه معه ونزل به. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته. وحاجته إليها في النهاية ضرورية. كما أن حاجته إليها في البداية كذلك. وقد قال تعالى (٢٤: ٣١) وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق السبب بسببه. وأتى بأداة «لعل» المشفرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تبتُّم كنتم على رجاء الفلاح. فلا يرجو الفلاح إلا التائبون. جعلنا الله منهم. قال تعالى (٤٩: ١١) ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون قسم العباد إلى تائب وظالم، وما قسم قسم ثالث ألبته. وأوقع اسم «الظالم» على من لم يتب. ولا أظلم منه، لجهله بربه وبحقه، وبعب نفسه وأفات أعماله. وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فوالله إنى لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»، وكان أصحابه يفتنون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم «رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الغفور، مائة مرة» وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) إلى آخرها. إلا قال فيها «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي» وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «لن ينجى أحداً منكم عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمت وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالمبودية وحقوقها وأقومهم بها.

● فائحة التوبة

ولما كانت «التوبة» هي رجوع العبد إلى الله، ومفارقة لصرط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم ولا تحصل هدايته إلا بإعانة وتوجيه، فقد استطعت سورة الفاتحة أحسن انتظام، وتضمنتها أبلغ تضمن. فمن أعطى الفائحة حقها — علماً

وشهوداً وحالاً ومعرفة — علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح. فإن الهداية الإتمامية إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها. فإن الأول جهل ينافي معرفة المهدي والثاني غيٌّ ينافي قصده وإرادته. فذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخراً.

● الاعتصام أو الذنوب

وأول معاني التوبة : أن تنظر الى ماكان من انخلاعك عن الاعتصام بالله حين إتيان الذنب ، وان الله منع عصمته عنك، وإن تنظر الى ماكان من فرحك عند ظفرك بذلك الذنب ، وقعودك عن تداركه ، مُبَيِّراً عليه ، مع تيقنك نظر الحق اليك، فإن العبد لو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة . قال الله تعالى (٣: ١٠١) ومن يعتصم بالله فقد هُديَ إلى صراط مستقيم) فلو كملت عصمته بالله لم يخذله أبداً: قال الله تعالى (٢٢: ٧٨) واعتصموا بالله هو مولاكم . فنعم المولى ونعم النصير أي متى اعتصمت به تولاكم . ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان . وهما العدوان اللذان لا يفارقان العد . وعداوتها أضر من عداوة العدو الخارج . فالنصر على هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج . وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله ، ونقص هذا الاعتصام يؤدي الى الانخلاع من عصمة الله، وهو حقيقة الخذلان فما خَلَّى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك ، وخلي بينك وبين نفسك. ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلاً.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان : أن يَكِلَكَ الله إلى نفسك، ويخلي بينك وبينها. والتوفيق : أن لا يَكِلَكَ الله إلى نفسك. وله سبحانه في هذه التخليية — بينك وبين الذنب وخذلانك حتى واقعته — جِغَمٌ وأسرار . سنذكر بعضها . وهكذا ترجع «التوبة» إلى اعتصامك به وعصمته لك.

وتشتد الغلظة على مقارف الذنب حتى يفرح عند طفره بشهوته المحرمة، وهذا الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها. وفرحه بها غفلى عليه ذلك كله. وفرحه بها أشد ضرراً عليه من واقعته. والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً. ولا يكمل بها فرحه. بل لا يباشرها إلا والخرن محالط لقله، ولكن شكر الشهوة يحجبه عن الشعور به. ومتى خَلَّى قلبه من هذا الخزن. واشتدت عطشته وسروره، فَلَيَّتَهُمْ إيمانه. وَلَيَّتَهُمْ على موت قلبه، فإنه لو كان حياً لأحزنه ارتكاب للذنوب، وغاظه وصعب عليه. ولا يجش القلب بذلك، فحيث لم يُجش به فما لُجِش بميت إيلام.

وهذه النكته في الذنب قل من يهتدي إليها أو ينتبه لها . وهي موضع مخوف جداً ، مترام الى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء : خوف من الموافاة عليه قبل التوبة . وندم على ما فاتته من الله بمخالفة أمره ، وتشمير للجد في استدراكه .

فإذا اشتدت غفلته الى هذا الحد : ثقلته ولا بد الى الإصرار ، وهو الاستقرار على المخالفة . والعزم على المعاودة وذلك ذنب آخر ، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير . وهذا من عقوبة الذنب : أنه يوجب ذنباً أكبر منه . ثم الثاني كذلك . ثم الثالث كذلك ، حتى يستحكم الهلاك . فالإصرار على المعصية معصية أخرى . والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها ، وطمأنينة إليها . وذلك علامة الهلاك . وأشد من هذا كله : البجاعة بالذنب ، مع تيقن نظر "نرب جل جلاله من فوق عرشه إليه . فإن آمن بنظره إليه وأقدم على البجاعة فعظيم . وإن لم يؤمن بنظره إليه وإطلاعه عليه فذلك كفر ، وانسلاخ من الإسلام بالكليّة . فهوداثرين الأمرين : بين قلة الحياء ، وبجاعة نظر الله إليه ، وبين الكفر والانسلاخ من الدين . فلذلك يشترط في صحة "توبة تيقنه ان الله كان ناظرًا — ولا يزال — إليه مطلقاً عليه . يراه جَهرةً عند موافقة الذنب . لأن التوبة لاتصح الا من مسلم ، الا أن يكون كافراً ينظر الله إليه جاحداً له . فتوبته دحوله في الإسلام ، وإقراره بصفات الرب جل جلاله ، إذ حقيقة التوبة : الرجوع الى الله . ولايصح الرجوع ويتم إلا بمعرفة الرب بأسماؤه وصفاته وآثارها في نفسه وفي الآفاق . ومعرفة أنه كان فاراً من ربه ، أسيراً في قصّة عدوه . وأنه ما وقع في غياله عدوه إلا بسبب جهله بربه ، وجراته عليه . فلا بد أن يعرف كيف جهل ؟ ومتى جهل ؟ وكيف وقع أسيراً ، ومتى وقع ؟ ويؤمن أن التوبة إنما هي عملية شاقة بجهود كبير ، و يقظة تامة لتخلص من العدو والرجوع والفرار إلى ربه الرحمن الرحيم . والعود من طريق الهلاك الذي أخذته عدوه إليه ، ومعرفة مقدار الخطوات التي بعد بها عن ربه ، والمجهود والعقبات التي لابد من الحرص على اقتحامها للعود الى صراط الله المستقيم .

وشرائط التوبة ثلاثة : الندم . والإقلاع . والاعتذار .
فحقيقة التوبة : هي الندم على ما سلف منه في الماضي . والإقلاع عنه في الحال . والعزم على أن لايعاوده في المستقبل .

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة : فإنه في ذلك الوقت يندم ، ويقلم ، ويعزم . فحينئذ يرجع الى العبودية التي خلق لها . وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة . ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائطاً له .

فأما السدم : فإنه لاتتحقق التوبة إلا به ، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به . وإصراره عليه . وفي المسند «الندم توبة» .
وأما الإقلاع : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

واما الاعتذار فإنه من تمام التوبة ايضاً ، ولا نقصد به الاعتذار الذي هو حاجة عن الجناية ،
 لى بأن يقول في قلبه ولسانه: اللهم لإبراءة لى من ذنب فأعتذر، ولا قوة لى فأنتصر، ولكنى مذنب
 ستغفر. اللهم لأعذر لى. وإنما هو محض حقك ، ومحض جاييتى. فإن عفوت وإلا فالحق لك.
 فهو اعتذار باظهار الضعف والمسكنة، وانه ضحية غلبة الشيطان العدو وقوة سلطان النفس
 الامارة بالسوء، والقول بلسانه: يارب: لم يكن منى ما كان عن استهانة بحقك ، ولا جهلاً به،
 ولا إنكاراً لاطلاعك، ولا استهانة بوعيدك. وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة
 مرض الشهوة ، وطمعاً في مغفرتك واتكلاً على عفوك، وحسن ظن بك، ورجاء لكرمك ، وطمعاً
 في سعة حلمك ورحمتك . وعزّتى بك القُرور ، والنفس الأتارة بالسوء، وسترك المريحى على،
 وأعائنى جهلى ، ولا سبيل إلى الاعتصام لى إلا بك. ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك. ونحو
 هذا من الكلام المتضمن للاستعطف والتذلل والافتقار والاعتراف بالمعجز، والإقرار
 بالعبودية.

فهذا من تمام التوبة. وإنما يسلكه الأكياس المتعلقون لربهم عز وجل، والله يحب من عبده
 أن يتملق له.

• حقائق التوبة

وحقائق التوبة ثلاثة أشياء : تعظيم الجناية، واتهام التوبة، والغيرة لله والغضب له اذا
 خولفت أوامره وعدم الاعتدار للمخالف بأن حكم القدر قد جرى عليه.

فأما تعظيم الجناية : فإنه اذا استهان بها لم يندم عليها . وعلى قدر تعظيمها يكون تدمه على
 ارتكابها. فإن من استهان بإضاعة قلّس — مثلاً — لم يندم على إضاعته. فإذا علم أنه دينار
 اشتد تدمه، وعظمت إضاعته عنده.

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء : تعظيم الأمر ، وتعظيم الأمر. والتصديق بالجزاء.
 وأما اتهام التوبة : فلا بها حق عليه. لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه،
 الذي ينبغي له أن يؤديه عليه، فيخاف أنه ما وفاها حقها، وأنها لم تقبل منه ، وأنه لم يذل
 جهده في صحتها، وأنها توبة عيلة وهو لا يشعر بها، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس، والمحافظين
 على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس، أو أنه تاب محافظة على حاله. فتأب للحال، لا خوفاً من ذي
 الجلال . أو أنه تاب طلباً للراحة من الكد في تحصيل الذنب، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله
 ومنصبه، أو لضعف داعى المعصية في قلبه، وخود نار شهوته ، أو لمنفعة المعصية لما يطلبه من
 العلم والرزق، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفاً من الله ، وتعظيماً له

ولكن هذا التقسيم باعتبار تنقل العبد في أحوال سيره والا فإرادة العبد المراد، وطلبه وسيره : أشد من إرادة غيره ، وطلبه وسيره .

وأيضاً فإنه مراد أولاً ، حيث أقيم في مقام الطلب، وجذب الى السير . فكل مرید مراد . وكل واصل وسالك وطالب لا يفارقه طلبه ولا سيره ، وإن تنوعت طرق السير بحسب اختلاف حال العبد .

فمن السالكين : من يكون سيره بيدنه وجوارحه أغلبية عليه من سيره بقلبه وروحه . ومنهم : من سيره بقلبه أغلب عليه ، أعني قوة سيره وحدته . ومنهم — وهم الكمل الأقرباء — من يعطي كل مرتبة حقها . فيسير الى الله بيدنه وجوارحه ، وقلبه وروحه .

وقد أخبر الله سبحانه عن صفوة أوليائه بأنهم دائمي مقام الإرادة له . فقال تعالى (٥٢:٦) ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) وقال تعالى (١٩:٩٢) — وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. وسوف يرضى) فالعبد أحسن أوصافه، وأعل مقاماته : أن يكون مریداً صادق الإرادة ، عبداً في إرادته . بحيث يكون مراده تبعاً لمراد ربه الديني منه . ليس له إرادة في سواه .

قالاً ولي الكلام في هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم كلاماً مطلقاً في كل مقام مقام . ببيان حقيقته وموجبه ، وآفته المانعة من حصوله ، والقاطع عنه ، وذكر عامه وخاصه . فلكلام أئمة الطريق هو على هذا المنهاج ، فمن تأمله — كسهل بن عبد الله التستري ، وأبي طالب المكي ، والجنيد بن محمد ، وأبي عثمان النيسابوري ، ويحيى بن معاذ الرازي — وأرفع من هؤلاء طبقة، مثل أبي سليمان الداراني ، وعون بن عبد الله — الذي كان يقال له حكيم الأمة وأضرابهما ... فإنهم تكلموا على أعمال القلوب، وعلى الأحوال كلاماً مفصلاً جامعاً مبيناً مطلقاً من غير ترتيب . ولا حصر للمقامات بعدد معلوم . فإنهم كانوا أجل من هذا . وهمم أعلى وأشرف ، إنما هم حائسون على اقتباس الحكمة والمعرفة ، وطهارة القلوب ، وزكاة النفوس ، يتصحح المعاملة . ولهذا كلامهم قليل فيه البركة . وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة .

واعلم ان مُنتهى همة الصادقين ارباب البصائر الى ثلاثة اشياء :

أحدها : الكشف عن منازل السير .

والثاني : الكشف عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ومفسداتها .

والثالث : الكشف عن معاني الأسماء والصفات ، وحقائق التوحيد والمعرفة .

وهذه الأبواب الثلاثة : هي مجامع علوم القوم . وعليها يحومون . وحولها يدندنون . وإليها شمرون . فمنهم من جُلُّ كلامه ومعظمه : في السير وصفة المنازل . ومنهم من جل كلامه : في

الآفات والقواطع. ومنهم من جل كلامه: في التوحيد والمعرفة، وحقائق الأسماء والصفات. والصادق الذكي يأخذ من كل منهم ما عنده من الحق. فيستعين به على مطلبه. ولا يريد ما يجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر، ويهدره به. فالكمال المطلق لله رب العالمين، وما من العباد إلا له مقام معلوم.

ولابد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم. إذ لا قوة لهم للتشهير إلى تلقى السلوك من السلف الأول وكلماتهم وهديتهم. ولو برز لهم هديهم وحالهم لأنكروه، ولعدوه سلوكاً عاماً، وللخاصة سلوك آخر، كما يقول ضلال المتكلمين وجهلتهم «ان القوم كانوا أسلم. وان طريقنا أعلم» وكما يقول من لم يقدر قدرهم من المنتسبين إلى الفقه «إنهم لم يفرغوا لاستنباطه. وضبط قواعده وأحكامه. اشتغلاً منهم بغيره. والمتأخرون تفرغوا لذلك. فهم أفقه».

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعن عمق علومهم، وقلة تكلفهم، وكمال بصائرهم. وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التي كانت مهمة القوم مراعاة أصولها، وضبط قواعدها، وشد معاقدها، وهمهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شيء. فالتأخرون في شأن القوم في شأن، و (قد جعل الله لكل شيء قدراً). فالأولى بنا: أن نذكر منازل «العبودية» الواردة في القرآن والسنة. ونشير إلى معرفة حدودها ومراتبها. إذ معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله. وقد وصف الله تعالى من لم يعرفها بالجهل والنفاق. فقال تعالى (٩٧: ٩) الأعراب أشد كُفراً ونفاقاً وأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حَدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) في معرفة حدودها دراية، والقيام بها رعاية: يستكمل العبد الإيمان. ويكون من أهل «إياك نعبد وإياك نستعين».

ونذكر لها ترتيباً غير مستحق، بل مستحسن، بحسب ترتيب السير الحسنى، ليكون ذلك أقرب إلى تنزيل المقول منزلة المشهود بالحس. فيكون التصديق أتم. ومعرفة أكمل. وضبطه أسهل.

فهذه فائدة ضرب الأمثال، وهي خاصة العقل وليه. ولهذا أكثر الله تعالى منها في القرآن. ونفى عقلها عن غير العلماء. فقال تعالى (٣٤: ٢٩) وتلك الأمثال نَفْرُهَا للناس. وَمَا يَنْفَعُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ).

حيلتي؟ وقد قَدَّموني إلى الخُفيرة وقذفوني فيها. والله كم صاح به الناصح: الحَذَرُ الحَذَرُ، إياك إياك، وكم أمسك بثوبه. وكم أراه مصارع المقتحمين وهو يأبى إلا الاقتحام.

يأوي يله ظهيراً للشيطان على ربه، خصماً لله مع نفسه، تجرى المعاصي، قَدَّرُ الطاعات، عاجز الرأي مضياً لفرسته، قاعد عن مصالحه، معاتب لأقدار ربه. يحتاج على ربه بما لا يقبله من ولده وامراته، إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره. فلو أمر أحدهم بأمر فمرط فيه، أو نهاه عن شيء فارتكبه، وقال: القدر ساقى إلى ذلك. لما قَلَّ منه هذه الحجة، ولباقز إلى عقوبته.

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك، فهلا كان حجة لأمرك في ترك بعض حق؟ بل إذا أساء اليك مسيء، وجنى عليك جان، واحتج بالقدر: لاشتد غضبك عليه. وتضاعف جُرمه عندك، ورأيت حجة داحضة. ثم تحتج على ربك به. وتراه عذراً لنفسك؟! فمس أولى بالظلم والجهل من هذه حالة؟.

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مدى الأنفاس: أُرْجِعْ عِلْمَكَ، وَتَحَنَّنْكَ مِنَ التَّزَوُّدِ إِلَى حَاجَتِهِ، وَبِعْتَ اليك الدليل، وأعطاك مؤنة السفر، وما تحارب به قُطَاعَ الطريق عليك. فأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعَرَّفَكَ الخير والشر، والنافع والضار، وأرسل اليك رسوله. وأنزل اليك كتابه، وَبَيَّنَّ لِلذِّكْرِ وَالْمَعْمَلِ. وأعانتك بمدد من جده الكرام، يشيتونك ويحرسونك. ويحاربون عدوك ويطردونه عنك. ويريدون منك أن لا تميل اليه ولا تصالحه، وهم يَكُونُونَ مؤنة. وأنت تأبى إلا مظاهرتهم عليهم، وموالاة ديوهم. بل تُظَاهِرُهُمْ وتواليه دون وَلِيِّكَ الحق الذي هو أَوْلَى بِكَ. قال الله تعالى (١٨: ٥٠) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ. فسجدوا إلا إبليس، كان من الجن. فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي، وهم لكم عدو؟ بئس للظالمين بديلاً).

أمرك الله بشكره، لاحتاجته اليك، ولكن لتال به المريد من فضله، فجعلت كفر نعمه والاستعانة بها على مساخطه: من اكبر اسباب صرفها عنك.

وأمرك بذكره ليدركك ناحيته، فجعلت سبانه سباً لسيان الله لك (٥٩: ١٩) سوا الله فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ (٩: ٦٧) نسوا الله فَنَسِيَهُمْ).

أمرك بؤاله ليعطيك، فلم تسأله، بل أعطاك أحلَّ العطايا بلا سؤال، فلم تقبل.

تشكو من يرحك إلى من لا يرحك، وتظلم من لا يظلمك، وتدع من يعاديك و يظلمك، وإن انعم عليك بالصحة والعافية والمال والجاه استعنت بنعمه على معاصيه!.

دعاك إلى بابه فما وقفت عليه ولا طرقت، ثم فتح لك فما ولجته!

أرسل اليك رسوله يدعوك إلى دار كرامته، فعصيت الرسول، وقلت: لا أترك ما أراه لشيء

سمعت به .

ومع هذا فلم يؤسك من رحمة . بل قال: متى جئتنى قبلتك . إن أتيتنى ليلاً قبلتك . وإن أتيتنى نهاراً قبلتك . وإن تقربت منى شبراً تقربت منك ذراعاً . وإن تقربت منى ذراعاً تقربت منك باعاً . وإن مشيت إلى هرولت إليك . ولوليتنى بقراب الأرض خطايا . ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً . أتيتك بقرابها مغفرة . ولوليت ذنوبك عنان السماء . ثم استغفرتني غفرت لك . ومن أعظم منى جوداً وكرماً؟ .

عبادي يبارزونني بالعظائم ، وأنا أكلؤهم على فرشهم ، إني والجن والإنس في نبأ عظيم : أخلق ويغدغي ، وأرزق ويشكر سواي . خيري إلى العباد نازل . وشرهم إلى صاعد . أتحب إليهم بنعمي ، وأنا الغنى عنهم . ويتغنضون إلي بالمعاصي ، وهم أقرشيء إلي .

من أقبل إلي تلقيت من بعيد . ومن أعرض عني ناديت من قريب . ومن ترك لأجل أعطيت فوق المزيد . ومن أراد رضاي أردت ما يريد . ومن تصرف بحولي وقوتي ألت له الجديد .

أهل ذكرى أهل مجالستي . وأهل شكري أهل زيادتي . وأهل طاعتي أهل كرامتي . وأهل معصيتي لا أقسطهم من رحمتي . إن تابوا إلي فأنا حبيبهم . فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا إلي فأنا طيبهم . أبتليهم بالمصائب ، لأظهرهم من المعاييب .

من آثرني على سواي آثرته على سواه . الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة . والسيئة عندي بواحدة . فإن ندم عليها واستغفرتني غفرتها له .

أشكر اليسير من العمل . وأغفر الكثير من الزلل . رحمتي سبقت غضبي . وحلمي سبق مؤاخذتي . وعفوي سبق عقوبتي . أنا أرحم بعبادي من الوالدة يولدها «لله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته بأرض مهلكة دؤية عليها طعامه وشرابه . فطلبها حتى إذا أيس من حصولها . نام في أصل شجرة ينتظر الموت . فاستيقظ فإذا هي على رأسه . قد تعلق خطامها بالشجرة . فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته» .

وهذه فرحة إحسان وبر ولطف ، لافرحه محتاج إلى توبة عبده ، منتقم بها . وكذلك موالاته لعبده إحساناً إليه ، ومحبة وبراً به . لا يتكثربه من قلة ، ولا يتعززه من ذلة ، ولا يتصر به من غلبة . ولا يثمه لثأبه . ولا يستعين به في أمر (١٧: ١١١) وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً . ولم يكن له شريك في الملك . ولم يكن له ولي من الدن . وكبره تكبيراً فنفي أن يكون له ولي من الدن . والله ولي الذين آمنوا . وهم أولياؤه .

فهذا شأن الرب وشأن العبد . وهم يقيمون أعذار أنفسهم . ويحملون ذنوبهم على أقذاره .

استأثر الله بالمحامد والمجد سد ، وولي اللامة الرجلان

التحقيق: أن الغيرة لله ، والغضب له ، من حقائق التوبة . فتعطيل عذر الخليفة في مخالفة

الأمر والنهي، وشدة الغضب: هو من علامات تعظيم الحرمه، ومن حقائق التوبه.

ولاسيما أنه يدخل في العذر: عذر عباد الأهتمام والأوثان، وقتلة الأنبياء. وفرعون وهامان، ومروود بن كمان، وابي جهل وأصحابه، وإبليس وحنوده، وكل كافر وطالم، ومتمتع حدود الله، ومتمتلك عمارم الله. فإنهم كلهم تحت القدر. وهم من الخليقة.

وان الشائين حقاً، المؤمنين بالقدر حقاً، هم الذين ينتظرون سفينة الأمر الرباني، فلما قربت منهم ناداهم الربان (١١:١١) اركبوا فيها. بسم الله مَجْرِيها ومُرْسَاها) فهي سفينة نوح حقاً. وسفينة من بعده من الرسل. من ركبها نجا. ومن تحلب عنها غرق. فركبوا سفينة الأمر بالقدر. تجري بهم في تصارييف أمواجه على حُكْم التسليم لم يده التصرف في البحار. فلم يك إلا عَفْوَةً حتى قيل لأرض الدنيا وسماؤها: يا أرض ابلعي ماءك، وياسماء أقلمي، وغيض الماء. وقضى الأمر. واستوت على جودي دار القرار.

والمتخلمون عن السفينة — كقوم نوح — أغرقوا. ثم أحرقوا. وبودي عليهم على رؤوس المالمين (١١:٤٤) وقيل: بعداً للقوم الظالمين (١١:١٠٢) وما جلمهاهم ولكن كانوا هم الظالمين) ثم نودي بلسان الشرع والقدس تحقيقاً لتوحيد. وإثباتاً لحجته. وهو أعدل العادلين (٦:١٤٩ قل فله الحجة البالغة. فلو شاء هداكم أجمعين).

• نَدْفَعُ الْقَدْرَ بِالْقَدْرِ

وراكب هذا البحر في سفينة الأمر، وطيمته: مصادمة أمواج القدر، ومعارضتها ببعضها ببعض، وإلا هلك. فيرد القدر بالقدر. وهذا سير أرباب الغزائم من العارفين. وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبدالقادر الكيلاني «الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا. فاستفتح لي فيه رَوْزَةٌ فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعاً للقدر، لاس يكون مستسلماً مع القدر» ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار ببعضها ببعض فكيف في معادهم؟.

والله تعالى أمر أن تُدْفَعُ السيئة — وهي من قدره — بالحسنة — وهي من قدره — وكذلك الخيوع من قدره. وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره. ولو استسلم العبد لقدر الخيوع، مع قدرته على دفعه بقدر الأكل، حتى مات: مات عاصياً. وكذلك البرد والحر والعطش. كلها من أقداره. وأمر بدفعها بأقدار تضادها. والداهم والمدفوع والدُّم من قدره.

وقد أفصح النبى صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى كل الإصحاح، إذ قالوا: «يا رسول

الله، أَرَأَيْتَ أَدْوِيَةَ نَدَاوَىٰ بِهَا، وَرُقَىٰ نَسْرَقِي بِهَا، وَثَقَىٰ نَتَقِي بِهَا. هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ شَيْئاً؟ قَالَ: هِيَ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ».

وفي الحديث الآخر «إِنَّ الدَّعَاءَ وَالْبَلَاءَ كَيْفَتُلْجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». وإذا طرُقَ العدوُّ مِنَ الْكَمَارِ بِلَدِ الْإِسْلَامِ طَرَقَهُ بِقَدْرِ اللَّهِ. أَمِحِلْ لِلْمُسْلِمِينَ الْاسْتِسْلَامَ لِلْقَدْرِ، وَتَرَكَ دَفْعَهُ بِقَدْرِ مِثْلِهِ. وَهُوَ الْجِهَادُ الَّذِي يَدْفَعُونَ بِهِ قَدْرَ اللَّهِ بِقَدْرِهِ؟. وكذلك المعصية إذا قُدِّرَتْ عَلَيْكَ، وَفَعَلْتَهَا مَالِقَدْرِ. فادْفَعْ مَوْجِبَهَا بِالتَّوْبَةِ الصَّوْحِ. وَهِيَ مِنَ الْقَدْرِ.

ودفع القدر بالقدر نوعان: أحدهما: دفع القدر الذي قد اعتقدت أسبابه — ولما يقع — بأسباب أخرى من القدر تقابله. فيمتنع وقوعه. كدفع العدو بقتاله. ودفع الحر والبرد ونحوه. الثاني: دفع القدر الذي قد وقع واستقر بقدر آخر يريعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداعي. ودفع قدر الذنب بقدر التوبة. ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان. فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار، لا الاستسلام لها، وترك الحركة والحيلة. فإنه عجز. والله تعالى يلوم على العجز.

● شروط ثلاثة

وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء. تمييز التَّيْبَةِ مِنَ الْعُرَةِ، وسيان الحباية، والتوبة من التوبة. لأن الثالث داخل في «الجميع» من قوله تعالى (٣١: ٢٤) وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ حَيْثُ أَهَبَا الْمُؤْمِنُونَ لَكُمْ تَفْلَحُونَ) فأمر التائب بالتوبة مما حالط توبته من شوائب الإدلال بها. وتمييز التَّيْبَةِ مِنَ الْعُرَةِ: أن يكون المقصود من التوبة تقوى الله. وهو خوفه وحشيته، والقيام بأمره، واحتساب نهيه. فيعمل بطاعة الله على نور من الله. يرحو ثواب الله. ويترك معصية الله على سؤر من الله. يحاف عقاب الله. لا يريد بذلك عز الطاعة. فإن للطاعة وللتوبة عراً ظاهراً وباطناً. فلا يكون مقصوده العرة، وإن علم أنها تحصل له بالطاعة والتوبة. فمن تاب لأجل العرة فتوته مدحولة.

وكثير من الصادقين قد يلتبس عليهم حال نفوسهم في ذلك. ولا يميزه إلا أولو الصائير منهم. وهم في الصادقين كالصادقين في الناس.

وأما سيان الجباية: فهذا موضع تفصيل. فقد اختلف فيه أرباب الطريق. فمنهم من رأى الاشتغال عن ذكر الذنب والإعراض عنه صمماً. فصفاء الوقت مع الله

تعالى أولى بالتائب وأنفع له. ولهذا قيل : ذكر الجفا في وقت الصفا جفا.
ومنه : من رأى ابن الأوى أن لا ينسى ذنبه. بل لا يزال جاعلاً له نصب عينيه يلاحظه كل وقت. فيحدث له ذلك انكساراً ودلاً ونضوعاً، أنفع له من صفا وقته.
قالوا: ولهذا نقش داود الخطيئة في كفه. وكان ينظر إليها ويبكى.
قالوا: ومتى نُهت عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق.
ومعنى ذلك: انك إذا رجعت إلى ذنبك انكسرت وذلت. وأطرت بين يدي الله عز وجل، خاشعاً ذليلاً خائفاً. وهذه طريق العبودية.

والصواب: التفصيل في هذه المسألة. وهو أن يقال: إذا أحسَّ العبد من نفسه حال الصفاء عيشاً من الدعوى، ورفيقة من العجب ونسيان الملة، وحظقت نفسه عن حقيقة فقره ونقصه، فذكر الذنب أنفع له. وإن كان في حال مشاهدته ميته الله عليه، وكمال افتقاره إليه، وعدم استغنائه عنه في ذرة من ذراته، وقد خالط قلبه حال المحبة، والفرح بالله. والأُنس به، والشوق إلى لقائه، وشهود سعة رحمته وحلمه، وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات. فنيين الجنائية والإعراض عن الذنب: أولى به وأنفع. فإنه متى رجع إلى ذكر الجنائية توارى عنه ذلك. ونزل من علو إلى أسفل، ومن حال إلى حال، بينهما من التفاوت أبعد مما بين السماء والأرض. وهذا من حسد الشيطان له. أراد أن يحطه من مقامه، وسير قلبه في ميادين المعرفة والمحبة.

وبعد هذا : يتوب من رؤية التوبة. فإنها إنما حصلت له بمجة الله ومشيته. ولو تخلى ونفسه لم تسمح بها ألبته. فإذا رآها وشهد صدورها منه ووقعها به. وغفل عن ميته الله عليه: تاب من هذه الرؤية والغفلة.

وقد يكون في التوبة علة ونقص، وآفة تمنع كمالها. وقد يشعر صاحبها بذلك. وقد لا يشعر به. فيتوب من نقصان التوبة، وعدم توفيتها حقها، والمقدار المفقود هو الذي يحتاج أن يتوب منه.

● الحليم العادل ... سبحانه

ولطائف اسرار التوبة ثلاثة اشياء: أن ينظر الجناية التي قضاه الله عليه فيعرف مراد الله فيها. إذ خلأك وإتيانها. فإن الله عز وجل إنما تخلى العبد والذنب لأجل معنيين.
أحدهما: أن يعرف عزته في قضائه، وبره في ستره، وحلمه في إمهال رأكبه، وكرمه في قبول العذر منه، وفضله في مغفرته.

الثاني: أن يُقيم على عبده حجة عدله. فيعاقبه على ذنبه بحجته.
وتفصيل ذلك أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسة أمور.
أحدها: أن ينظر إلى أمر الله ونهيه. فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة، والقرار على نفسه بالذنب.

الثاني: أن ينظر إلى الوعد والوعيد. فيحدث له ذلك خوفاً وخشية، تحمله على التوبة.
الثالث: أن ينظر إلى تمكين الله له منها، وتخليته بينه وبينها، وتقديرها عليه، وأنه لو شاء لعصمه منها. فيحدث له ذلك أنواعاً من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وحكمته، ورحمته، ومغفرته وعفوه، وحلمه وكرمه. وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء، لاحتصل بدون لوازمها ألبتة. ويعلم ارتباط الخلق والأم، والجزاء والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وأن ذلك موجب الأسماء والصفات، وأثرها في الوجود، وأن كل اسم وصفة مقتض لأثره وموجبه، متعلق به لا بد منه.

وهذا المشهد يُظلمه على رياض مؤنقة من المعارف والإيمان، وأسرار القدر والحكمة، يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم.

فمن بعضها: أن يعرف العبد عزته في قضائه، وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضى بما يشاء، وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه، بأن قلب قلبه وصرف إرادته على ما يشاء. وحال بين العبد وقلبه. وحمله مريداً شائياً لما شاء منه العزيز الحكيم. وهذا من كمال العزة. إذ لا يتقدر على ذلك إلا الله. وغاية المخلوق: أن يتصرف في بدنك وظاهره. وأما جملك مريداً شائياً لما يشاء منك ويريد: فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة.

فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه، وتمكن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له، لأنه يصير مع الله لاعم نفسه.

ومن معرفة عزته في قضائه: أن يعرف أنه مدبر مقهور، ناصيته بيد غيره. لاعصمة له إلا بعصمته. ولا توفيق له إلا بمعونته. فهو ذليل حقير، في قبضة عزيز حيد.

ومن شهود عزته أيضاً في قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد، والغناء التام، والعزة. كلها لله، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم، والعيب والظلم والحاجة. وكلما ازداد شهوده لهذه ونقصه وعيبيه وقره، ازداد شهوده لعزة الله وكماله، وحده وغناه. وكذلك بالعكس. فنقص الذنب وذلة يطلعه على مشهد العزة.

ومنها: أن يعرف برّه سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له. ولو شاء لفصح بين خلقه فحذروه. وهذا من كمال بره. ومن أسمائه «البرّ» وهذا البر من سيده كان عن كمال غناه عنه، وكمال فقر العبد إليه. فيشتغل بمطالعة هذه المنة، ومشاهدة هذا البر

والإحسان والكرم. فيذهل عن ذكر الخطيئة . فيبقى مع الله سبحانه . وذلك أنفع له من الاشتغال بجناته . وشهود ذل معصيته . فإن الاشتغال بالله والفلة عما سواه : هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسنى .

ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقاً ، بل في هذه الحال . فإذا فقدنا فليرجع إلى مطالعة الخطيئة ، وذكر الجنات ، ولكل وقت ومقام عبودية تليق به .

ومنها : شهود حلم الله سبحانه وتعالى في إمهال راكب الخطيئة . ولو شاء لعاجله بالعقوبة . ولكنه الحليم الذي لا يتعجل . فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه بإسمه «الحليم» ومشاهدة صفة «الحلم» والتعبد بهذا الاسم .

ومنها : معرفة العبد كرم ربه في قبول العذرمته إذا اعتذر إليه ، فيقبل عذره بكرمه وجوده . فيوجب له ذلك اشتغالا بذكره وشكره ، وعبدة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك . فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجزاك به ، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها : أصعاف محبتك على شكر الإحسان وحده والواقع شاهد بذلك . فعبودية التوبة بعد الذنب لون . وهذا لون آخر .

ومنها : أن يشهد فضله في مغفرته : فإن المغفرة فضل من الله . وإلا فلو أخذك بمحض حقه ، كان عادلا محموداً . وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك . فيوجب لك ذلك أيضاً شكراً له وعبدة وإنابة إليه ، وفرحاً وإبتهاجاً به ، ومعرفة له باسمه «الغفار» ومشاهدة لهذه الصفة ، وتعبداً بمقتضاها . وذلك أكمل في العبودية ، والمحبة والمعرفة .

ومنها : أن يُكَمَّلَ لعبده مراتب الذل والخضوع والاكسار بين يديه ، والافتقار إليه . فإن النفس فيها مضاهاة للرؤية . ولو قدرت لقالت كقول فرعون . ولكنه قدر فأظهر . وَغَيْرُهُ عجز فأصر . وإنما يُخَلَّصُها من هذه المضاهاة ذل العبودية . وهو أربع مراتب .

المرتبة الأولى : مشتركة بين الخلق . وهى ذل الحاجة والفقر إلى الله . فأهل السموات والأرض جميعاً محتاجون إليه ، فقراء إليه . وهو وحده الغنى عنهم . وكل أهل السموات والأرض يسألونه . وهو لا يسأل أحداً .

المرتبة الثانية : ذل الطاعة ، والعبودية . وهو ذل الاختيار . وهذا خاص بأهل طاعته . وهو سر العبودية .

المرتبة الثالثة : ذل المحبة . فإن المحب دليل بالذات ، وعلى قدر محبته له يكون ذله ، فالمحبة أسست على الذلة للمحبيب ، كما قيل :

اخضَعْ وَذَلِّ لِمَنْ تَحِبُّ . فليس في حكم الهوى أَنف يُسْأَلُ وَيُعَدُّ

المرتبة الرابعة : ذل المعصية والجنات .

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم . إذ بذل له خوفاً

وخشية، ومعة وإنابة، وطاعة، وقرأ وفاة.

وحقيقة ذلك: هو الفقر الذي يشير إليه القوم. وهذا المعنى أجل من أن يسمى بالفقر. بل هو لبُ العبودية وسرها. وحصوله أنفع شيء للمبد، وأحب شيء إلى الله.

ومنها: أن أسماء الحسنى تقتضى آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسياتها. فاسم «الرزاق» يقتضى مرزوقاً. واسم «الرحيم» يقتضى مرحوماً. وكذلك أسماء «العفور» والعفو، والتواب، والحليم» يقتضى من يفرله، ويتوب عليه، ويعفو عنه، ويحلم. ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات، إذ هي أسماء حسنى وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة وإحسان وجود. فلا بد من ظهور آثارها في العالم. وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله. صلوات الله وسلامه عليه. حيث يقول «لولا تذبذبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذببون، ثم يستغفرون فيغفر لهم».

وأنت إذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم. فلن يغفر؟ وعمن يعفو؟ وعلى من يشوب ويعلم؟ وإذا فرضت الغايات كلها قد سُدَّت، والعبيد أغنياء معافون. فأين السؤال والتضرع والابتهاال؟ والإجابة وشهود الفضل والمنة، والتخصيص، بالإتعام والإكرام؟.

فسيحان من تعرف إلى خلقه بجميع أنواع التمرقات. ودلَّهم عليه بأنواع الدلالات. وفتح لهم إليه جميع الطرقات. ثم نصب إليه الصراط المستقيم. وعزَّتهم به وذلَّمهم عليه (٤٧:٨) لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيَّتِهِ، وَيَبْقَى مَنْ بَقِيَ عَنْ بَيَّتِهِ. وإن الله لسميع عليم).

● الرحيم ... سبحانه

ومنها: السر الأعظم، الذي لا تقتحمه العبارة، ولا تجسر عليه الإشارة، ولا يتأدى عليه منادى الإيمان على رؤوس الأشهاد، بل شهدته قلوب خواص العباد. فازدادت به معرفة لربها ومعة له. وطمأنينة به وشوقاً إليه، ولجأً بذكره. وشهوداً لبيِّره، ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعة لسر العبودية، وإشرافاً على حقيقة الإلهية. وهومائيت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لله أفرح بتوبة عبده - حين يتوب إليه - من أحدكم، كان على راحلة بأرضي فلاة. فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه. فأيس منها. فأتى شجرة فاضطجع في ظلها. قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده. فأخذ بخطامها. ثم قال - من شدة الفرح - اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح» هذا لفظ مسلم.

والقصد: أن هذا الفرح له شأن لا ينهى للمبد إهماله والإعراض عنه. ولا يطلع عليه إلا من

له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بجزالته.

ذلك أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله . وشرفه . وخلق نفسه، وخلق كل شيء له . وخصه من معرفته وعجيبته وأمره وإكرامه بما لم يعطه غيره . وسخر له مافي سماواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته — الذين هم أهل قربه — استخدمهم له . وجعلهم حفظية له في منسبته ويقظته ، وظلته وإقامته . وأنزل إليه وعليه كتيبه . وأرسله وأرسل إليه . وخاطبه وكلمه منه إليه ، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأنياء والخواص والأخبار . وجعلهم معدن أسرار . وعمل حكيمته . وموضع حبه . وخلق لهم الجنة والنار . فالخلق والأمم، والشواب والعقاب، مداره على النوع الإنساني . فإنه خلاصة الخلق . وهو المقصود بالأمم والنهي . وعليه الثواب والعقاب .

فلإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات . وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من روحه . وأسجد له ملائكته . وعلمه أسماء كل شيء . وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات . وطرد إبليس عن قربه . وأبعد عن يابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين . واتخذ عدواً له .

فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية على الإطلاق . وخيرة الله من العالمين فإنه خلقه ليتم نعمته عليه . وليتواتر إحسانه إليه . وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته . ولم يخطر على باله ولم يشعر به . ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة، التي لا تتال إلا بمحبته . ولا تتال محبة إلا بطاعته، وإيثاره على ماسواه . فاتخذ محبواً له . وأعده له أفضل مايعتد محب غني قادر جواد لجوبه إذا تقدم عليه . وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهي . وأعلمه في عهده مايقربه اليه . ويزيده محبة له وكرامة عليه، وما يبعده منه ويسخطه عليه، ويسقطه من عينه .

وللمحسوب عدو، هو أبغض خلقه إليه . قد جاهره بالعداوة وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له، دون وليهم ومعبودهم الحق . واستنقطع عبادته، واتخذ منهم حزياً ظاهروه ووالوه على ربهم . وكانوا أعداء له مع هذا العدو . يدعون إلى سخطه . ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته، ويسبونه ويكذبونه . ويفتنون أوليائه، ويؤذونهم بأنواع الكذبي . ويجهدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم . ومحو كل مايعبه الله ويرضاه، وتبديله بكل مايسخطه ويكرهه . ففرقه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم وبالمم . وحذر موالاتهم والدخول في زميرتهم والكون معهم .

وأخبره في عهده : أنه أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين . وأنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عتوبته، وعفوه مؤاخذته . وأنه قد أفاضل على خلقه النعمة . وكتب على نفسه الرحمة . وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر . وأن الفضل كله بيده، والخير كله منه ، والجود

كله له. وأحب ما إليه: أن يجود على عباده ويؤيهمهم فضلاً. ويغفرهم إحساناً وجوداً. ويتم عليهم نعمته. ويضاعف لديهم منته. ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه. ويتحجب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجواد لذاته. وجود كل جواد خلقه الله، ويخلقه أبداً: أقل من ذرة بالقياس إلى جوده. فليس الجواد على الإطلاق إلا هو. وجود كل جواد فمن جوده. وعبته للجود والإعطاء والإحسان، والبر والإنعام والإفضال: فوق ما يحط ببال الخلق، أو يدور في أوهامهم. وفرحه ببعثاته وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بما يعطاه يأخذه، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدراً. فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنعم بها، فما الظن بفرح المعطى؟ فرح المعطى سبحانه ببعثاته أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه. ولله المثل الأعلى. إذ هذا شأن الجواد من الخلق. فإنه يحصل له من الفرح والسرور، والابتهاج واللذة ببعثاته وجوده، فوق ما يحصل لمن يعطيه. ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه، عن لذة المعطى، وابتهاجه وسروره. هذا كمال حاجته إلى ما يعطيه وبقدره إليه، وعدم وثقه باستخلاف مثله، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هودونه. ونفسه قد طبعت على الحرص والشح.

فما الظن بمن تقدس وتنزه عن ذلك كله؟ ولأن أهل سمواته وأرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، ورطبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كل واحد ما سأل: ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

وهو الجواد لذاته، كما أنه الحي لذاته، العليم لذاته، السميع البصير لذاته. فوجوده المعالي من لوازم ذاته. والعفو أحب إليه من الانتقام. والرحمة أحب إليه من العقوبة. والفضل أحب إليه من العدل، والعطاء أحب إليه من المنع.

فإذا تعرض عبده ومحبيه الذي خلقه لنفسه، وأعد له أنواع كرامته، وفضله على غيره وجمله محل معرفته، وأنزل إليه كتابه: وأرسل إليه رسوله، واعتنى بأمره ولم يهمله. ولم يتركه مدى، فتعرض لغضبه، وارتكب مسأخطة، وما يكرهه وأبقى منه. وإلى عدوه وظاهره عليه، وتحيز إليه: وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التي هي أحب شيء إليه. وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام: فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر وتعرض لإغضابه وإسأخاطه وانتقامه. وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه. وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه. فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

. وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين: أنه رأى في بعض السكك باباً قد فتح. وخرج منه صبي يستغيث ويبكي. وأمه خلفه تطرده، حتى خرج. فأغلقت الباب في وجهه

ودخلت. فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكراً. فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه، ولا من يؤويه غير والدته. فرجع مكسور القلب حزيناً. فوجد الباب مُرتجاً، فتوسده ووضع تحده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه. فلما رآته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تُقبّله وتبكي. وتقول: يا ولدي، أين تذهب عنى؟ ومن يؤيك سوى؟ ألم أقل لك: لا تتخالفنى. ولا تحملنى بمصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم «لا تحملنى بمصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة والشفقة». وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم «لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلَدِهَا» وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التى وسعت كل شىء؟.

فإذا اغضبه العبد بمصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه. فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به.

فهذه نبذة يسيرة تطلمك على سر فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواحد لراحته في الأرض المهلكة، بعد اليأس منها.

هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلهى بالاحسان والجود والبر. وأما إن لاحظت تعلقه بإيمته وكونه معبوداً؛ فذاك مشهد أجمل من هذا وأعظم منه. وإنما يشهد خواص المحبين.

فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته. وهذا هو الحق الذي خُلقت به السموات والأرض. وهو غاية الخلق والأمر، وهو سبحانه يحب أن يُتَّبع ويُطاع ولا يعبأ بخلقه شيئاً لولا محبتهم له، وطاعتهم له، ودعائهم له.

وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك، وأنهم لو خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثاً وباطلاً وشدى. وذلك مما يتعالى عنه أحكم الحاكمين. والإله الحق. فإذا خرج العبد عما خُلق له من الطاعة والعبودية. فقد خرج عن أحب الأشياء إليه، وعن الغاية التى لأجلها خلقت الخليقة. وصار كأنه خلق عبثاً لغير شىء، إذ لم تُخرج أرضه البذر الذي وضع فيها. بل قلبه شوكاً وَغَلَا. فإذا راجع ما خلق له وأوجد لأجله: فقد رجع إلى الغاية التى هي أحب الأشياء إلى خالقه وفطره. ورجع إلى مقتضى الحكمة التى خلق لأجلها. وخرج عن معنى العبث والسدى والباطل. فاشتدت محبة الرب له. فإن الله يحب التوابين ويحب المستطهرين. فأوجب هذه المحبة فرحاً كأعظم ما يُقدَّر من الفرح. ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوع أعظم من هذا الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم لذكره، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواحد العاقد لمادة حياته وبلاغه في سمره، بعد إياسه من أسباب الحياة

بفقدته . وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشيء وغاب عنه . ثم وحده وصار طوع يده . فلا فرحة أعظم من فرحته به .

فما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً ، أسره عدوك ، وحال بينك وبينه . وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب ، وَ يُعَرِّضُهُ لأنواع الهلاك . وأنت أولى به منه . وهو غَرْسُكَ وتريتك . ثم إنه انفلت من عدوه ، ووافقك على غير ميعاد فلم يفجأك إلا وهو على بابك ، يتملقك و يترضاك ويستعينك ، و يُمرغ تحديه على تراب أعتابك . فكيف يكون فرحك به ، وقد اختصصته لنفسك ، ورضيته لقربك ، وأثرته على سواه ؟ .

هذا . ولست الذي أوجدته وخلقته . وأسبغت عليه نعمك ، والله عز وجل هو الذي أوجد عبده . وخلقه وكونه . وأسبغ عليه نعمه . وهو يحب أن يتمها عليه ، فيصير مظهرًا لنعمه ، قائلا لها ، شاكرًا لها ، عباً لؤلئها ، مطيعاً له عابداً له ، معادياً لعدوه ، مبغضاً له عاصياً له . والله تعالى يحب من عبده معاداة عدوه ، ومعصيته ومخالفته ، كما يحب أذ ، يوالى الله مولاة سبحانه ويطيعه ويعبده . فتضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه ، إلى عبا / لعداوة عدوه . ومعصيته ومخالفته ، فتشتد المحبة منه سبحانه ، مع حصول محبوه . وهذا هو حقيقة الفرح .

وفي صفة السى صلى الله عليه وسلم في بعض الكتب المتقدمة «عبي الذي شرت به نفسى» وهذا لكمال محبته له . جعله مما تسر به نفسه سبحانه .

● ومع الفرح ... ضحكك ايضاً!

ومن هذا «ضحكه» سبحانه من عبده ، حين يأتى من عبوديته بأعظم ما يحبه . فيضحك سبحانه فرحاً ورضاً . كما يضحك من عبده إذا ثار عن وطائه وفراشه ومضاجعة حبيبه إلى خدمته ، يتلو آياته و يتملقه .

ويضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو . فأقبل إليهم . وباع نفسه لله ولقاهم نخره ، حتى قُتل في محبته ورضاه .

ويضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه ، فتخلف بأعقابهم وأعطاه سرّاً ، حيث لا يراه إلا الله الذي أعطاه . فهذا الضحك منه حباً له ، وفرحاً به . وكذلك الشهيد حين يلقاه يوم القيامة . فيضحك إليه فرحاً به وبقدومه عليه .

وهو «فرح» ليس كمثله شيء ، و «ضحك» ليس كمثله شيء ، تؤمن بهما لورودهما في نفس الحديث كإيماننا بسائر صفات الله التى انتتها النصوص .

● العقوبة بعد إقامة الحجة

لما أن الله عز وجل خلق بين العبد والذنوب من أجل أن يقيم على عبده حجة عدله، فيعاقبه على ذنوبه بحججته، فسمّزها أن اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان. أطاع أم عصى. فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلغ ذلك إليه، وعكسه من العلم به. سواء علم أو جهل. فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه. قاصر عنه ولم يعرفه. فقد قامت عليه الحجة. والله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه. فإذا عاقبه على ذنوبه عاقبه بحججه على ظلمه. قال الله تعالى (١٥:١٧) وما كنّا معدّين حتّى نبعث رسولاً وقال (٩٨:٦٧) كلّما اتّفق فيها فوج سلّم خزنتها ألم يأتكم نذير؟ قالوا: بلى قد جاءنا نذير. فكذبنا وقلنا: ما نزل الله من شيء قال (١١٧:١١) وما كان ربك ليُهْلِك القرى بظلم وأهلها مُصلِحون).

وفي الآية قولان. أحدهما: ما كان ليُهْلِكها بظلم منهم. الثاني: ما كان ليُهْلِكها بظلم منه. والمعنى على القول الأول: ما كان ليُهْلِكها بظلمهم المتقدم. وهم مصلحون الآن. أي إنهم بعد أن أصلحوا. وتابوا: لم يكن ليُهْلِكهم بما سلف منهم من ظلم.

وعلى القول الثاني أنه لم يكن ظالماً لهم في إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون! وإنما أهلكهم وهم ظالمون. فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل في إهلاكهم. والقولان في آية الأسماء أيضاً (١٣١:٦) ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون).

وقال الله تعالى (١٦٩:٣٦)، وما علمناه الشعر وما ينبغي له. إن هو إلا ذكر وقرآن مبين. لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين).

فأخبر سبحانه أن الناس قسمان: حى قابل للانتفاع. يقبل الإنذار ويتنفع به، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به. لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير البتة. فيحق عليه القول بالعذاب. وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه. لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان. بل لأنه غير قابل ولا فاعل. وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول. إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لو جاءني رسول منك لانتلت أمرك. فأرسل إليه رسوله. فأمره ونهاه. فنصى الرسول بكونه غير قابل للهدى، فموجب بكونه غير فاعل. فحق عليه القول: أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالى (٣٣:١٠) وكذلك حققت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) وحق عليه العذاب. كقوله تعالى (٤٠:٦) وكذلك حققت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار).

فالكلمة التي حققت كلمتان: كلمة الإضلال، وكلمة العذاب. كما قال تعالى

(٧١:٣٩) ولكن حققت كلمة العذاب على الكافرين) وكلمته سبحانه، إما حققت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم. فحققت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بمقوبته. وحاصل هذا كله: أن الله سبحانه، أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم. لأمع مراد أنفسهم، مع علمه بموت قلوب بعضهم، فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم، فاستحقوا كرامته. وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده، فقامت عليهم بالمصيبة حُجَّة عدله، فعاقبهم بظلمهم.

● نَفْسٌ مَعِيَّةٌ ... وَرَبٌّ مُتَفَضِّلٌ

قد ذكرنا أن العبد في الذنب له نظر إلى أربعة أمور: نظر إلى الأمر والنهي. ونظر إلى الحكم والقضاء. وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين.

النظر الثالث: النظر إلى محل الجنابة ومصدرها. وهو النفس الأمانة بالسوء، فيعرف أنها جاهلة ظالمة. وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل. والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم. ومع هذا فجعلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها.

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاضلها أن يبقيا شرها. وأن يؤتيها تقواها ويزكيها. فهو خير من زكاها. فإنه رَبُّهَا ومولاها، وأن لا يَكِلَها إليها طَرَفَةً عين. فإنه إن وَكَلَهُ إليها هلك. فما هلك من هلك إلا حيث وَكَّلَ إلى نفسه. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحصين ابن المنذر «قل: اللهم ألهمني رُشدي. وَقِنِي شَرَّ نفسي» وفي خطبة الحاجة «الحمد لله. نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا» وقد قال تعالى (١٧:٦٤) وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وقال (٥٣:١٢) إِنْ النَفْسُ لِلْإِمَارَةِ بِالسُّوءِ).

فمن عرف حقيقة نفسه وما طُبعت عليه: علم أنها مَتَّبِعُ كل شر، ومَأْوَى كل سوء، وأد كل خير فيها فَمُضِلٌّ من الله تَرَى به عليها. لم يكن منها. كما قال تعالى (٢١:٢٤) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ قَارَكُم مِّنْكُمْ مِنْ آخِذٍ أَبَدًا) وقال تعالى (٨:٤٩) وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانِ وَزَيَّنَّا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَزَّةً إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِيعْيَانِ. أولئك هم الراشدون) فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها. ولكن هو الله الذي مَرَّ بهما. فجعل العبد بسببهما من الراشدين (فَضْلًا من الله ونعمة والله عليم حكيم) «عليهم» بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه، ويثمر عنده. «حكيم» فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه

بوضعه في غير موضعه.

اللطيفة الثانية من اسرار التوبة : أن يعلم أن نظر البصير الصادق في سيئته لم يُبق له حسنة بحال. لأنه يسير بين مشاهدة اليئة. وتطلب عيب النفس والعمل، فإن من له بصيرة بنفسه، وبصيرة بحقوق الله. وهو صادق في طلبه: لم يُبق له نظره في سيئاته حسنة البتة. فلا يلقى الله الا بالإنفلاس المحض، والفقر الصّرف. لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله، وأن تلك البضاعة لا تُشترى بها النجاة من عذاب الله. فضلاً عن الفوز بعظيم ثواب الله. فإن تخلص له عملٌ وحال مع الله. وصفاً له معه وقت شاهد يئة الله عليه به، ومجرد فضله، وأنه ليس من نفسه، ولا هي أهل لذلك. فهو دائماً مشاهد لمنة الله عليه، ولعيوب نفسه وعمله. لأنه متى طلبها رآها.

وهذا من أجل أنواع المعارف وأنفعها للعبد. ولذلك كان سيد الاستغفار «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت. خلقتني، وأنا عبدك. وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت. أبوء لك بنعمتك عليّ. وأبوء بذنبي. فاغفر لي. إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

فتضمن هذا الاستغفار: الاعتراف من العبد بربوبية الله، وإلحيتة وتوحيده. والاعتراف بأنه خالقه، العالم به. إذ أنشأ نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيته بيده وفي قبضته. لا مهرب له منه. ولا وليّ له سواه، ثم التزام الدخول تحت عهده — وهو أمره ونهيهِ — الذي عهده إليه على لسان رسوله، وأن ذلك بحسب استطاعتي، لا بحسب أداء حقل. فإنه غير مقدور للبشر. وإنما هو جهد المقل، وقدر الطاقة. ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب. فأنا مقيم على عهدك، مصدق بوعدك. ثم أفرج إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما قُرِطُت فيه من أمرك ونهيك. فإنك إن لم تُعذني من شره، والا احاطت بي الهلكة. فإن إضاعة حقل سبب الهلاك، وأنا أقِرُّ لك وألتزم بنعمتك عليّ. وأقر وألتزم وأبجُحُ بذنبي. فمناك النعمة والإحسان والفضل. ومعنى الذنب والإساءة. فأسألك أن تغفر لي بمخوذني، وأن تُغفيني من شره. إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار. وهو متضمن لمحض العبودية. فأني حَسَنَة تبقّى للبصير الصادق، مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله، ومنة الله عليه؟ فهذا الذي يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه.

● الشيطان ملحق بطيء اليأس

النظر الرابع: نظره إلى الامر له بالمعصية، المزين له فعلها، الحاض له عليها. وهو شيطانه الموكّل به.

فإنفذه النظر إليه، وملاحظته: اتخذ عدواً، وكمال الاحتراز منه، والتحفظ واليقظة. والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر. فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض. لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى مادونها إلا إذا عبّز عن الظفر به فيها. العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه. فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردّت نازر عداوته واستراح. فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها بصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة. إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه. وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله: من الأوضاع والرسوم المحدث في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئاً. والبدعتان في الغالب متلازمتان. قلّ أن تنفك إحداها عن الأخرى.

فإن قطع هذه العقبة، وخلّص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكيثار. فإن ظفر به فيها زلزلها له، وحسّنها في عينه. وسوف به. وفتح له باب الأرجاء. وقال له: الإيمان هو نفس التصديق، فلا تقم فيه أعمال الفسوق والعصيان، فإن الشيطان يقول له: عند فتح باب الأرجاء — إن الإيمان هو نفس التصديق فلا تقم فيه الأعمال السيئة والمعاصي. وهذا هو معنى الأرجاء الذي هو من شر البدع التي أفسدت الدين، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهي قوله «لا يقصرُ» مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة» والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه. لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله. وصاحبها لا يتوب منها. ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم. ومعاداة صريح السنة. ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة. وتولية من عزّله الله ورسوله، وعزّل من ولاه الله ورسوله. واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره. وموالة من عاداه، ومعاداة من والاه. وإثبات ما نفاه. ونفي ما أثبتته. وتكذيب الصادق. وتصديق الكاذب. ومعارضة الحق بالباطل. وقلب الحقائق، جعل الحق باطلاً، والباطل حقاً. والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب. وطلب الموعج لصراط الله المستقيم. وفتح باب تبديل الدين جملة، فإن البدع تستدرج بصغورها إلى كبيرها، حتى ينسلخ

صاحبها من الدين . كما تسفل الشجرة من العجين . فمفسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر ، والعميان ضالون في ظلمة العمى (٤٠ : ٢٤) ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله ، أو بتوبة نصوح تنجيها منها ، طلبه على :
العقبة الرابعة : وهى عقبة الصغائر فيقول له : ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللطم ، أو ما علمت بأنها تكفر باجتناب الكبائر والخفسات . ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يُعير عليها . فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالا منه . فالإصرار على الذنب اقبح منه . ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار . ولا صغيرة مع الإصرار . وقد قال صلى الله عليه وسلم «إياكم ومحقرات الذنوب» ثم ضرب لذلك مثلا يقوم نزلوا بفلاة من الأرض . فأعوزهم الحطب . فجعل هذا يجيء بعود ، وهذا بعود . حتى جمعوا حطبا كثيرا . فأوقدوا نارا . وأنضجوا خبزتهم . فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهن بشأنها حتى تهلكه .»

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ ، ودوام التوبة والاستغفار . وأتبع السيئة الحسنة . طلبه على :

العقبة الخامسة . وهى عقبة المساحات التى لا حرج على فاعلها . فشغل بها عن الاستكثار من الطاعات . وعن الاجتهاد فى التزود لمعاده . ثم طمع فيه أن يستدرجه منها الى ترك السنن . ثم من ترك السنن الى ترك الواجبات . واقل ما ينال منه : تفويته الأرباب ، والمكاسب العظيمة . والمنازل العالية . ولو عرف السر لما هوت على نفسه شيئا من القربات . ولكنه جاهل بالسعر .

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد ، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها ، وقلة المقام على المياء ، وحظر التجارة ، وكرم المستري ، وقدر ما يعوص به التجاره فيخل بأوقاته . وضمن بأنفسه أن تذهب في غير ربح . طلبه العدو على :

العقبة السادسة : وهى عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات . فأمر بها . وحسبها في عييه . ورينها له . وأراه مافيه من الفصل والربح ، ليستغل بها عما هو أفضل منها ، وأعظم كسبا وربحا . لأنه لما عجز عن تحصيله أصل الثواب ، طمع في تحصيله كماله ، وفضله ، ودرجاته العالية . فتشغل بالمفضول عن الفاضل ، وبالمرحوح عن الراجح ، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه ، وبالمرصي عن الأرصي له .

ولكن أين أصحاب هذه العقبة ؟ هم الأفراد في العالم ، والأكثر قد طمر بهم في العتات الأول .

فإن نحا منها بفقته في الأعمال ومراتبها عند الله ، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها ، والتمييز بين عاليها وسافلها ، ومفضولها وقاضلها، ورئيسها ومرؤوسها، وسيد ومسودها، فإن في الاعمال والاقوال سيدا ومسودا ورئيسا ومرؤوسا، وذروة وما دونها ، كما في الحديث الصحيح «سيد الاستغفار: أن يقول العبد: اللهم أنت ربى . لا إله إلا أنت — الحديث» وفي الحديث الآخر «الجهاد ذروة سنام الأمر». ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، البائسين على جادة التوفيق قد أنزلوا الإعتقال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

● عبودية المُرَاعِمَةِ

فإذا نجا مما سبق لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لا بد منها. ولنجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبيأؤه، وأكرم الخلق عليه. وهى عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير. فكلما عُلِّتْ مرتبته أُجْلِبَتْ عليه العدو بخيله ورجله. وظاهر عليه بجنده. وسلط عليه جربه وأهله بأنواع التسليط . وهذه العقبة لاحيلة له في التخلص منها. فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله ، والقيام له بأمره ، تجتهد العدو في إغراء التسفهاء به. فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب. وأخذ في محاربة العدو لله وماله. فعبوديته فيها عبودية نخاوص العارفين. وهى تسمى عبودية المُرَاعِمَةِ، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر الطامة. ولا شيء أحب إلى الله من مراعاة وليه لعدوه ، وإحاطته له. وقد أشار سبحانه الى هذه العبودية في مواضع من كتابه.

أحدها : قوله (٤: ١٠٠) ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً) سعى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مُرَاعِمًا يراغم به عدو الله وعدوه. والله يحب من وليه مراعاة عدوه، وإحاطته به. كما قال تعالى (٩: ١٢٠) ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصيب ولا غمصة في سبيل الله ولا يقاتلون مؤثماً يغضب الكفار ولا ينالون من عدوئنا إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح. إن الله لا يضيع أجر المحسنين) وقال تعالى في مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه (٤٨: ٢٩) ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره. فاستغلظ. فاستوى على سوقه. يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) فمعاينة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له. فموافقته فيها من كمال العبودية. وشرع النبي صلى الله عليه وسلم للمصلي إذا سها في صلاته سحدين، وقال «إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان» وفي رواية «ترغيمان للشيطان» وسماها «المرغمتين».

فمن تعبد لله بمراعاة عدوه ، فقد أخذ من الصديقية سهم وافر. وعلى قدر محبة العبد لربه،

وموالا ته ومعاداته لعدوه ، يكون نصيبه من هذه المراجعة . ولأجل هذه المراجعة حمد التبختر بين
الصنفين ، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر ، حيث لا يراه إلا الله . لما في ذلك من إرغام العدو .
وبذل محوبة من نفسه وماله لله عز وجل .

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس . ومن ذاق طعمه ولذته بكى على
أيامه الأولى .

وبالله المسحان . وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا بالله .
وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان ، ولاحظه في الذنب ، راغمه بالتوبة النصوح .
فأحدث له هذه المراجعة عبودية أخرى .

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار «التوبة» لا تستهزئ بها . فلعلك لا تتظفر بها في مصنف
آخر ألبتة . والله الحمد والمنة . وبه التوفيق :

• الفِطْرَةُ تَأْبَى الْقَبَاحِ

أما اللطيفة الثالثة من أسرار التوبة، ففى ان يرى التائب قبح مانهى الله عنه، وحسن ما أمر
به، وإانه كان مفسداً حين ركب مانهاه الله تعالى عنه، مُقَوِّماً لمصلحة حين قسّر في تنفيذ ما أَرَادَه
الله منه، وإن الله تعالى مانهى إلا عن أمر قبيح بالذات ، وما أمر إلا بأمر حسن الذات، فإن الله
مسحانه فَقَطَّرَ عباده على استحسان الصدق والعدل، والعفة والإحسان . ومقابلة النعم بالشكر .
وَقَسَّرَهم على استقراح أصدادها . ونسبة هذا إلى فطرهم وعقولهم كسرة الحلو والحامض الى
أذواقهم، وكنسبة رائحة المسك ورائحة الثمن إلى مشائهم، وكسبة اصوت اللذيد وضده إلى
أسماعهم . وكذلك كل ما يدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة . فيفترقون بين طيبه وخبيثه،
ونافسه وضاره .

من أدلة ذلك قوله تعالى (٧: ٢٨، ٢٩) وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا .
والله أمرنا بها قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله مالا تعلمون؟ * قل أمر
رَبِّى بِالْقِسْطِ . وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد، وادعوه مخلصين له الدين، كما بدأكم
تعودون . فريقاً هدى . وفريقاً حقّ عليهم الضلالة . إيهم اتخذوا الشياطين أولياء من
دون الله . ويحسبون أنهم مهتدون * يا بنى آدم ، خذوا زينتكم عند كل مسجد ، واكلوا
واشربوا ، ولا تسرفوا . إنه لا يحب المسرفين . قل : من حَرَّمَ ربة الله التى أخرج لعباده
والطيبات من الرزق؟ قل : هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . كذلك

زين للمسرفين ما كانوا يعملون . قل: إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ،
وَالْأَنثَىٰ وَالتَّبَعِي بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَأَنْ تَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا. وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ) فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنْ فَعَلَهُمْ فَاخِشَةً قَبْلَ نَهْيِهِ عَنْهُ. وَأَمَرَ بِاجْتِنَابِهِ بِالْأَخِيذِ الزَّيْنَةِ.
و«الفاخشة» ههنا هي طوافهم بالبيت عُزْرَةً — الرجال والنساء — غير قریش ثم قال تعالى «إِنْ
اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ» أي لا يأمر بما هو فاحشة في العقول والقطر، إذ كانت قریش هي التي تقوم
بتطويف الحجاج والمعتمرين، وقيادتهم في كل مناسك الحج وشعائره. و يأخذون منهم ما يمشون به ،
استجابة لدعوة إبيهم إبراهيم (٣٧:١٤) ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا
ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم. وارزقهم من الثمرات. لعلهم يشكرون) فرزقهم الله بما
أهوت إليهم أفئدتهم، ولكن أكثرهم لم يقيم الصلاة كما أحب الله، ولا شكر لله. بل كفروا، واتخذوا الآلهة
والأنناد من الوثني، فكانت صلتهم بأوليائهم أقوى من صلتهم بالله رب العالمين. وكان الشيطان مولاهم من
دون الله. فقتل في أعينهم من نعمة الله فيما يسوق إليهم من الأرزاق. وأوحى إليهم أن يشركوا للناس بدعة
فاحشة: أن لا يطوف أحد بالبيت إلا في ثياب من عند فریش، وهم الخمس وأن يحملوا ثيابهم ويحملوها لقي
تحت أقدام الطائفتين حول الكعبة. فامقاد الناس لهم بالتقليد وأصبح مودداً لقریش يتحكون به في لباس
كما يشاءون. ثم أوحى إليهم أن يزيدوا في الأثمان كلما رأوا إقبال الناس. حتى عجز أكثر الناس. وطلبوا
من السادة المستكبرين الرخصة عن الثمن. فقالوا: لا بد من ذلك، وإلا طهفوا عراً، فطافوا عراً.

ثم قال «قل ممن حرم زينة الله التي أخرج لعباده. والطيبات من الرزق؟» دل على أنه
طيب قبل التحريم، وأن وصف الطيب فيه مانع من تحريمه ماف للحكمة.

ثم قال «قل إما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن»، فهي فواحش قبل التحريم
ومعده، والشارع كساها بنهي عنها قبحاً إلى قبحها. فكان قبحها من ذاتها، وازدادت قبحاً عند
العقل بنهي الرب تعالى عنها، ودَّعَمَ لها، وإخباره ببغضها وبغض فاعلها. كما أن العدل
والصدق والتوحيد، ومقابلة نعم المنعم بالشاء والشكر: حسن في نفسه، وازداد حسناً إلى حسنه
بأمر الرب به، وثناؤه على فاعله. وإخباره بحبته ذلك وعبة فاعله.

بل من أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم: أنه يفرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر،
ويُجِلُّ لهم الطيبات. ويُحَرِّم عليهم الخبائث.

فالمحج والثناء والتكلم الدال على نبوته: أن ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنة وكونه
معروفاً. وما ينهى عنه تشهد قبحه وكونه منكراً. وما يحلله تشهد كونه طيباً. وما يحرمه تشهد
كونه خبيثاً. وهذه دعوة جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وهي بخلاف دعوة المتغلبين
المسطلين. والكذابين والسحرة. فإنهم يدعون إلى ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح
ومنكر وبغي وإثم وظلم.

ولهذا قيل لبعض الأعراب — وقد أسلم — لما عرف دعوته صلى الله عليه وسلم — عن أي

شيء أسلمت؟ وما رأيته منه مما ذلك على أنه رسول الله؟ قال «ما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه. ولا نهى عن شيء، فقال العقل: ليته أمر به. ولا أحل شيئاً. فقال العقل: ليته حرمه. ولا حرم شيئاً. فقال العقل: ليته أباحه» فانظر إلى هذا الأعرابي، وصحة عقله وفطرته، وقوة إيمانه، واستدلالة على صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ما حسن في العقل. وكذلك مطابقة تحليله وتجريمه.

وقال تعالى (١١٥:٢٣) أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون؟ أي لغير شيء، لا تؤمرون ولا تنهون. ولا تشابون ولا تعاقبون. والعبث قبيح. فدل على أن قبح هذا مستقر في الفطر والعقول. ولذلك أنكره عليهم إنكار مُتَّبِعٍ لهم على الرجوع إلى عقولهم وفطرتهم. وأنهم لو فكروا وأبصروا لعلوا أنه لا يليق به، ولا يحسن منه أن يخلق خلقه عبثاً، لا لأمر ولا لنهي، ولا لثواب ولا لعقاب. وهذا يدل على أن حسن الأمر والنهي والجزاء مستقر في العقول والفطر. وأن من جَوَّزَ على الله الإخلال به فقد نسب إلى ما لا يليق به، وإلى ما تأباه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا.

وقال تعالى (٢١:٤٥) أم حسب الذين اجتروا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون) فأنكر سبحانه هذا الحساب إنكار منه للعقل على قبحه، وأنه تحكم سيء. والحاكم به مسيء ظالم.

وكذلك قوله (٢٨:٣٨) أم نجعل المتقين كالفجار؟ وهذا استفهام إنكار. فدل على أن هذا قبيح في نفسه، منكر تنكره العقول والفطر. أفنتظنون أن ذلك يليق بنا أو يحسن منا فعله؟ فأنكره سبحانه إنكار منه للعقل والعطرة على قبحه. وأنه لا يليق بالله نسبه إليه.

وكذلك إنكاره سبحانه قبح الشرك به في الهيته، بالبراهين الدالة على قبحه في صريح العقول والفطر؟ وأنه أفتيح القبيح وأظلم الظلم؟ وأي شيء يصح في العقل إذا لم يكن فيه علم بقبح الشرك الذاتي، وأن العلم بقبحه بديهى معلوم بضرورة العقل، وأن الرسل نبهوا الأمم على ما في عقولهم وفطرتهم من قبحه، وأن أصحابه ليست لهم عقول ولا آليات ولا أفئدة. بل نفى عنهم السمع والبصر. والمراد: سمع القلب وبصره. فأخبر أنهم صم بكم عمى. وذلك وصف قلوبهم أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق. وشبههم بالأنعام التي لا عقول لها تميز بها بين الحسن والقبيح، والحق والباطل. ولذلك اعترفوا في النار بأنهم لم يكونوا من أهل السمع والعقل. وأنهم لورجعوا إلى أسماعهم وعقولهم لعلوا حسن ما جاءت به الرسل وقبح مخالفتهم.

قال الله تعالى حاكياً عنهم (١١٠:٦٧) وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وهم يقول لهم في كتابه (أفلا تعقلون؟) (لعلكم تعقلون). فينبههم على ما في

عقولهم وفطرهم من الحسن والقبيح. ويحتج عليهم بها، ويعبر أنه أعطاهموها لينتفعوا بها، ويميزوا بها بين الحسن والقبيح والحقى والباطل.

وكم في القرآن من مثل عقلى وحسى ينه به العقول على حسن ما أمر به، وقبح ما نهى عنه.

والقرآن مملوء بهذا لمن تدبره. كقوله تعالى (٢٨:٣٠) ضرب لكم مثلا من أنفسكم: هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم. فأنتم فيه سواء، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) يحتج سبحانه عليهم بما في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكا له. فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه، ولا يرضى بذلك، فكيف تجعلون لى من عبيدي شركاء تعبدونهم كعبادتى؟ وهذا بين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر في العقول والفطر. والسمع نية العقول وأرشدتها الى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك.

وكذلك قوله تعالى (٢٩:٣٩) ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل، هل يستويان مثلا؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو السلوك، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سليم كله له. فهل يصح في العقول استواء حال العبدین؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإله الحق؟ لا يستويان.

وكذلك قوله تعالى (٢٦٤:٢) ممثلا لقبح الرياء المبطل للعمل، والمثل والأذى المبطل للصدقات بـ «صفوان» وهو الحجر الأملس «عليه تراب» غبار قد لصق به «فأصابه مطر» شديد فأزال ما عليه من التراب «فتركه صلدا» أملس لا شيء عليه. وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه. فـ «صفوان» وهو الحجر. كقلب المرائي والمان والمؤذي. و «التراب» الذي لصق به ما تعلق به من أثر عمله وصدفته. و «الوايل» المطر الذي به حياة الأرض. فإذا صادفها لينة قابلة: نبت فيها الكلا وإذا صادف الصخور والحجارة الصم: لم ينبت فيها شيئا. فجاء هذا الوايل إلى التراب الذي على الحجر، فصادفه رقيقا، فأزاله. فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات. وهذا يدل على أن قبح «المن، والأذى، والرياء» مستقر في العقول. فذلك نبهها على شبهة ومثاله.

وعكس ذلك قوله تعالى (٢٦٥:٢) ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتنبها من أنفسهم، كمثل جنة برزوة أصابها وابل. فأنت أكلها ضيعفين. فإن لم يصبها وابل ففطل. والله بما تعملون بصير) فإن كانت هذه الجنة - التي بموضع عال، حيث لا تحجب عنها الشمس والرياح، وقد أصابها مطر شديد. فأخرجت ثمرتها ضيعفي ما يخرج غيرها - إن

كانت مستحسنة في العقل والحس. فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله، لا لجزاء من الخلق، ولا لشكور، بل بثبات من نفسه، وقوة على الإنفاق، لا يخرج النفقة وقلبه يترجف على خروجها، ويدها ترتعشان، ويضعف قلبه، ويخور عند الاتفاق. بخلاف نفقة صاحب الثبوت والقوة.

ولما كان الناس في الاتفاق على هذين القسمين: كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبوت: كمثل الوابل. ومثل نفقة الآخر كمثل الطل، وهو المطر الضعيف. فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلة. وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه وضعفه. أفلا تراه سبحانه نبه العقول على ما فيها من استحسان هذا، واستتياح فعل الأول؟.

وكذلك قوله (٢: ٢٦٦) أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ. وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ، فَاحْتَرَقَتْ؟ كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تفكرون). فيه سبحانه العقول على ما فيها من قبح الأعمال السيئة التي تحبط ثواب الحسنات وتثب عليها بحال شيخ كبير له ذرية ضعفاء، بحيث ينجس عليهم الصبغة وعلى نفسه. وله بستان هو مادة عيشه وعيش ذريته. فيه التخييل والأعتاب ومن كل الثمرات. فأرجى وأقتر ما هو له وأسر ما كان به إذ أصابه نار شديدة فأحرقته. فيه العقول على أن قبح المعاصي التي تفرق الطاعات كقبح هذه الحال. وبهذا فرها عمره وابن عباس رضى الله عنهما «لرجل غني عمل بطاعة الله زمانا. فبعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله» ذكره البخاري في صحيحه.

أفلا تراه نبه العقول على قبح المعصية بعد الطاعة، وضرب لقبها هذا المثل؟
ثم هؤلاء الفقهاء: يتكلمون في العلل والمناسبات الداعية لشرع الحكم. ويعرقون بين المصالح الخالصة والراجحة والمرجوة. والفساد التي هي كذلك. ويقدمون أرجح المصلحتين على مرجوحهما. ويدفعون أقوى المفسدين باحتمال أدناهما. ولا يتم لهم ذلك إلا باستخراج الحكم والعلل، ومعرفة المصالح والمعاقد الناشئة من الأفعال.

● يشاء الله السوء ولا يرضاه

وهذه اللطيفة الثالثة من أسرار التوبة التي يتضح فيها الحس والقبح تقتضى رؤية الفرق بين محبة الله ورضاه، ومشيبته وإرادته الكونية، وعدم التسوية بينهما، أو اعتقاد تلازمهما، كما فعل الجبرية الذين قالوا: المشيئة والمحبة سواء، أو متلازمان، وإن كل ما شاء الله فقد أحبه ورضيه، وقالوا: إن الأفعال جميعها محبوبة للرب، إذ هي صادرة عن مشيئته، وهي عين محبته ورضاه، فلم من ذلك أن صار أحدهم لا يستقبح سيئة، ولا يستنكر منكرا.

ولما ورد على هؤلاء قوله تعالى (٢: ٢٠٥) والله لا يحب الفساد (٣٩: ٧) ولا يرضى لعباده الكفر) وقوله (١٧: ٣٨) كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً) والتسّ عليهم كيف يكون مكروهاً له. وقد أراد كونه؟ وكيف لا يحبه، وقد أراد وجوده؟ أوّلوا هذه الآيات ونحوها بأنّه لا يحبّها ديناً. ولا يرضاهم شرعاً. ويكرهها كذلك، بمعنى أنه لا يشرعها، مع كونه يجب وجودها ويريد.

ثم بنوا على ذلك أنهم مأمورون بالرضا بالقضاء. وهذه قضاء من قضائه. فنحن نرضى بها. فمالنا ولا نكرها ومعاداة فاعلها، ونحن مأمورون بالرضا بالقضاء؟ فتركب من اعتقادهم: كونها عيوبية للرب، وكونهم مأمورين بالرضا بها، والتسوية بين الأفعال، وعدم استباح شيء منها أو إنكاره.

وانضاف إلى ذلك اعتقادهم جبر العبد عليها، وأنها ليست فعله. فلزم من ذلك: رفع الأمر والنهي، وتطوّل بباطل الشرع، والاستسلام للقدر، والذهاب معه حيث كان.

فتمشأ القلط: التسوية بين المشيئة والمحبة، واعتقادهم وجوب الرضا بالقضاء. ونحن نبين ما في الفصلين إن شاء الله تعالى. فإن القوة لله جميعاً.

فأما المشيئة، والمحبة: فقد دل على الفرق بينهما القرآن والسنة، والعقل، والفطرة، واجماع المسلمين.

قال الله تعالى (٤: ١٠٧) يستخفون من الناس، ولا يستخفون من الله وهو معهم. إذ يبببتون ما لا يرضى من القول) فقد أخبر أنه لا يرضى بما يبيتونه من القول، المتضمن البهت، ورمي البريء، وشهادة الزور، وبراءة الجاني. فإن الآية نزلت في قصة هذا شأنها، مع أن كله بمشيئته. إذ أجمع المسلمون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وتأويل من تأول الآية على أنه لا يرضاه ديناً، مع محبة لوقوعه: مما ينبغي أن يهان كلام الله عنه. إذ المعنى عندهم: أنه محبوب له. ولكن لا يثاب فاعله عليه. فهو محبوب بالمشيئة، غير مثاب عليه شرعاً.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها: أنه مسخوط للرب، مكروه له قدرأً وشرعاً، مع أنه وجد بمشيئته وقضائه. فانه يخلق ما يحب وما يكره. وهذا كما أن الأعيان كلها خلقه. وفيها ما يغيضه ويكرهه — كابليس وجنوده، وسائر الأعيان الحيثة — وفيها ما يحبه ويرضاه — كأنبياؤه ورسله، وملائكته وأوليائه — وهكذا الأفعال كلها خلقه. ومنها ما هو محبوب له وما هو مكروه له. خلقه لحكمة له في خلق ما يكره ويغيض كالأعيان. وقال تعالى (٢: ٢٠٧) والله لا يحب الفساد) مع أنه بمشيئته وقضائه وقدره. وقال تعالى (٣٩: ٧) إن تكفروا فإن الله غني عنكم

ولا يرضى لعباده الكفر. وإن تشكروا يَرْضَهُ لَكُمْ) فالكفر والشكر واقعان بمشيئته وقدره .
وأحدهما محبوب له مرضى . والآخر مبغوض له مسخوط .

وكذلك قوله عقيب مانهيه عنه من الشرك والظلم والفواحش (٣٨:١٧) كل ذلك كان
سَيِّئَةً عند ربك مكروهاً) فهو مكروه له ، مع وقوعه بمشيئته وقضائه وقدره .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل
وقال . وكثرة السؤال . وإضاعة المال» هذه كراهة لموجود تعلقت به المشية .

وفي المسند «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته» فهذه محبة
وكرهاته لأمرين موحودين . اجتماعاً في المشية ، وافتراقاً في المحبة والكرهية . وهذا في الكتاب
والسنة أكثر من أن يذكر جميعه .

وقد قطر الله عباده على قولهم : هذا الفعل يحبه الله . وهذا يكرهه الله ويغضه وفلان يفعل
مالا يحبه الله . والقرآن مملوء بذكر سخطه وغضه على أعدائه . وذلك صفة قائمة به ، يترتب عليها
العذاب واللعة . لا أن السخط هو نفس العذاب واللعة بل هما اثر السخط والغضب وموجبهما .
ولهذا يفرق بينهما كما قال تعالى (٩٢:٤) ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً
فيها . وغضب الله عليه ولعنه . واعد له عذاباً عظيماً) ففرق بين عذابه وغضبه ولعنته . وجعل
كل واحد غير الآخر .

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ
بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك» .

فتأمل ذكر استعاداته صلى الله عليه وسلم بصفة «الرضا» من صفة «السخط» وبفعل
«المعافاة» من فعل «العقوبة» فالأول : للصحة ، والثاني : لأثرها المترتب عليها . ثم ربط
ذلك كله بداته سبحانه ، وأل ذلك كله راجع إليه وحده . لا الى غيره . فما أعوذ منه : واقع
بمشيئتك وإرادتك . وما أعوذ به : من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك ، إن شئت أن ترضى
عن عمدي وتعافيه ، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه . فأعاذني مما أكره وأحذر ، ومنعه أن
يحل بي : هو بمشيئتك أيضاً . فالحبوت والمكروه كله نقضاتك ومشيتك . فعيادي بك منك :
عيادي بحولك وقوتك ، وقدرتك ورحمتك وإحسانك ، مما يكون بحولك وقوتك وقدرتك وعدلك
وحكمتك . فلا أستعيد بغيرك من غيرك . ولا أستعيز إلا بك من شيء هو صادر عن مشيتك
وخلقك . بل هو منك . ولا أستعيد بغيرك من شيء هو صادر عن مشيتك وقضائك ، بل أنت
الذي تعيذني بمشيئتك مما هو كائن بمشيئتك . فأعوذ بك منك .

ولا يعلم ما في هذه الكلمات — من التوحيد والمعارف والعبودية — إلا الراسخون في العلم
بالله ومعرفته .

وأشرنا إلى شيء يسير من معناها . ولو استقصينا شرحها لقام منه بيتر ضخم . ولكن قد فتح لك الباب . فإن دخلت رأيت مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر . والمقصود : أن أنقسام الكون في أعيانه وصفاته وأفعاله إلى عيوب الرب مرضى له ، ومسخوط مبغض له ، مكروه له : أمر معلوم بجميع أنواع الأدلة ، من العقل والنقل ، والفطرة والاعتبار . فمن سوى بين ذلك كله فقد خالف فطرة الله التي فطر عليها عباده . وخالف المعقول والمنقول . وخرج عما جاءت به الرسل .

ولأى شيء تنوع الله سبحانه العقوبات البليغة في الدنيا والآخرة . وأشهد عباده منها ما أشهدهم ؟ لولا شدة غضبه وسخطه على الفاعلين لما اشتدت كراهته وبغضه له . فأوجب تلك الكراهة والبغض منه : وقوع أنواع المكار بهم ، كما أن محبة لما يحبه من الأفعال ويرضاه : أوجب وقوع أنواع المحاب لمن فعلها . وشهود مافي العالم من إكرام أوليائه ، وإتمام نعمه عليهم ، ونصرهم وإعزازهم ، وإهانة أعدائه وعقوبتهم ، وإيقاع المكار بهم : من أدل الدليل على حبه وبغضه وكراهته ، بل نفس موالاته لمن والاه ، ومعاداته لمن عاداه : هي عين محبة وبغضه . فإن الموالات : أصلها الحب . والمعادة : أصلها البغض . فإنكار صفة «المحبة» والكراهة» إنكار لحقيقة «الموالاتة ، والمعادة» .

وبالجملية : فشهود القلوب لمحبه وكراهته ، كشهود العيان لكرامته وإهانتة . وأما مسألة «الرضا بالقضاء» فيقال :

أولاً : بأي كتاب ، أم بأي سنة ، أم بأي معقول : علمتم وجوب الرضا بكل مايقضيه ويقدره ؟ بل بجواز ذلك ، فضلاً عن وجوبه ؟ هذا كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأدلة العقول ليس في شيء منها الأمر بذلك ، ولا إباحته .

بل من المقتضى ما يرضى به ، ومنه ما يسخطه ويمقت . فلا نرضى بكل قضاء كما لا يرضى به القاضي لأقضيته سبحانه . بل من القضاء ما يسخطه ، كما ان من الأعيان المقتضية : ما يغضب عليه ، ويمقت عليه ، ويلعن ويذم .

ثم يقال : القضاء له وجهان .

أحدهما : تعلقه بالرب تعالى ، ونسبته إليه . فمن هذا الوجه : يرضى به كله .

الوجه الثاني : تعلقه بالعبد ، ونسبته إليه . فمن هذا الوجه : ينقسم إلى ما يرضى به ، وإلى ما لا يرضى به .

مثال ذلك : قتل النفس — مثلاً — له اعتباران . فمن حيث إنه قدرة الله وقضاء وكتبه وشاءه ، وجعله أجلاً للمقتول ، ونهاية لعمره : يرضى به . ومن حيث إنه صدر من القاتل ، وباشره وكسبه ، وأقدم عليه باختياره ، وعصى الله بفعله : يسخطه ولا يرضى به .

● راقِبْ عملك ... وناقِش نفسك

ومن العابدين أناس توفرت همهم على استكثارهم من الحسنات . دون مطالعة عيب النفس والعمل، والتفتيش على دسائسهما . ويحملهم على استكثارها رؤيتها والإعجاب بها؛ ولوتفرغوا لتفتيشها، ومحاسبة النفس عليها ، والتمييز بين مافيهما من الحظ والحق . تشغلهم ذلك عن استكثارها . ولأجل هذا كان عمل العابد القليل المراقبة لعمله خفيفاً عليه، فيستكثر منه ، ويصير بمنزلة العادة، فإذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب، وتفتيتها من الكدَر، ومافي ذلك من شوك الرياء: وجد لعمله ثقلًا كالجبال وقَلَّ في عينه. ولكن إذا وجد حلواته سهل عليه حل ثقله، والقيام بأعبائه، والتلذذ والتنعم به مع ثقله.

وإذا أردت فهم هذا القدر كما ينبغي فانظر وقت أخذك في القراءة إذا عرضت عن واجبها وتدبرها وتعقلها . وفهم ما أريد بكل آية ، وحفظك من الخطأ بها، وتنزيلها على أدواء قلبك والتقيدها بها، كيف تدرك الحتمة - أو أكثرها ، أو ما قرأت منها - بسهولة وثقة . مستكثرًا من الثقراء . فإذا ألزمت نفسك التدبر ومعرفة المراد ، والنظر الى ما يخصك منه والتعبد به ، وتنزيل دوائه على أدواء قلبك ، والاستشفاء به . لم تكن تجوز السورة أو الآية إلى غيرها . وكذلك إذا جمعت قلبك كله على ركعتين . أعطيتهما ما تقدر عليه من الحضور ، والخشوع والمراقبة : لم تكن أن تصل غيرهما إلا بجهد . فإذا خلا القلب من ذلك عدت الركعات بلا حساب . فالاستكثار من الطاعات دون مراعاة آفاتها وعيوبها دليل على قلة الفقه.

وقد يرى فاعلها ان له حقاً على الله في مُجازاته على تلك الحسنات بالجنات والتعظيم والرضوان ، ولهذا كثرت في عينه مع غفلته عن اعماله ، لا يدري انه لن ينجو أحد البتة من النار بعمله ، إلا بعفو الله ورحمته .

ولا ريب ان مجرد القيام باعمال الجوارح، من غير حضور ولا مراقبة، ولا إقبال على الله: قليل المنفعة، دنيا وأخرى، كثير المؤنة. فهو كالعمل على غير متابعة الأمر والإخلاص للمعبود. فإنه - وإن كثر - متعب غير مفيد. فهكذا العمل الخارجى القشورى بمنزلة التخاله كثيرة المنظر قليلة الفائدة. فإن الله لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها. وهكذا ينبغي أن يكون سائر الأعمال التى يؤمر بالحضور فيها والخشوع، كالتطواف، وأعمال المناسك ونحوها.

ولكن احب العباد الى الله: الذين يستكثرون من الصالحات، مع مراقبة لها، فقد نذب الله تعالى الى ذلك فقال: (١٧: ١٨) كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون) قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر. ثم جلسوا يستغفرون. وقال النبى صلى الله

عليه وسلم «تابعوا بن الحج والعمرة. فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد» وقال لمن سأله أن يوصيه بشيء يتشبه به «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله».

والدين كله استكثار من الطاعات ، وأحب خلق الله إليه : أعظمهم استكثاراً منها.
وفي الحديث الصحيح الإلهي «ماتقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. فبى يسمع. وبى يبصر. وبى يبطش. وبى يمشى. ولئن سألتني لأعطينته ولئن استعاذني لأعيذنه».

فهذا جزاءه وكرامته للمستكثرين من طاعته.

● صغيرة المؤمن ... كبيرة

وأيضاً: فإن استقلال المعصية ذنب، كما أن استكثار الطاعة ذنب والعارف من صغرت حسناته في عينه. وعظمت ذنوبه عنده. وكلما صغرت الحسنات في عينك كبرت عند الله. وكلما كبرت وعظمت في قلبك قلت وصغرت عند الله. وسيئاتك بالعكس. ومن عرف الله وحقه وما ينبغي لعظمته من العبودية: تلاشت حسناته عنده. وصغرت جداً في عينه. وعلم أنها ليست مما ينجوها من عذابه. وأن الذي يليق بمرتبه، ويصلح له من العبودية: أمر آخر. وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها. لأنه كلما استكثر منها فتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه. فشاهد قلبه من عظمت سبحانه وحلاله ما يستصغر معه جميع أعماله. ولو كانت أعمال الثقلين. وإذا كثرت في عيه وعظمت دل على أنه محجوب عن الله، غير عارف به وما ينبغي له. وبحسب هذه المعرفة ومعرفة بنفسه يستكثر ذنوبه. وتعظم في عينه. لمشاهدته الحق ومستحقته. وتقصيره في القيام به. وإيقاعه على الوجه اللائق لما يحبه الرب ويرضاه من كل وجه.

● الوقوف ... رجوع

وتوبة الخواص تكون من تصحيح الوقت في لغو أوله، فانه يُفضي الى درك النقيصة، ويطفىء نور المراقبة، وأما الحافظ لوقته فهو مترق على درجات الكمال. فإذا أضعاه لم يقف موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص. فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولاند. فالعبد سائر لا واقف. فإما إلى فوق. وإما إلى أسفل. إما إلى أمام وإما إلى وراء. وليس في الطبيعة، ولا في

التسريعة وقوف ألبتة. ما هو إلا مراحل تطوى أسرع على إلى الجنة أو إلى النار، فمسرّع ومبطل. ومتقدم ومتأخر. وليس في الطريق واقف ألبتة. وإنما يتخالفون في جهة السير. وفي السرعة والبطء (٣٧:٧٤) إنها لا حدى، الكبر نذيراً للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) ولم يذكر واقفاً. إذ لا منزل بين الجنة والنار. ولا طريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة. فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل عد في طلب شيء لا بد أن يعرض له وقفة وفتر. ثم ينهض إلى طلبه. قلت: لا بد من ذلك. ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليحجم نفسه، ويعدها للسير. فهذا وقفته سير. ولا تنصره الوقفة. فإن «لكل عمل شرة... ولكل شرة فترة».

وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه، وجاذب جذبه من خلفه. فإن أجابه أخره ولا بد. فإن تداركه الله برحمته، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره، نهض نهضة الغضبان الأسف على الانقطاع. ووثب واشتد سعيًا ليلحق الركب. وإن استمر مع داعي التأخر، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دَرَكَاً. وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض. فإنها أخطر منه وأصعب.

وبالجملة: فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه، وتخليصه. وإلا فهو في تأخر إلى الممات. راجع القهقري ناكص على عَقْبَيْهِ، أو مُؤَلَّ ظَهْرِهِ. ولا قوة إلا بالله. والمعصوم من عصمه الله.

وفوق هذا مقام آخر من التوبة، أرفع منه وأخص. لا يعرفه إلا الخواص المحبون، الذين يستقلون في حق محبوبهم جميع أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم، فلا يرونها قط إلا بعين النقص والإزراء عليها، ويرون شأن محبوبهم أعظم، وقدره أعلى من أن يرضوا أنفسهم وأعمالهم له. فهم أشد شيء احتقاراً لما وإزراءاً عليها. وإذا غفلوا عن مراد محبوبهم منهم، ولم يوفوه حقه، تابوا إليه من ذلك توبة أرباب الكيثر منها. فالتوبة لا تفارقهم أبداً. وتوبتهم لون وتوبة غيرهم لون (٧٦:١٢) وفوق كل ذي علم عليم) وكلما ازدادوا حباً له ازدادوا معرفة بحقه، وشهوداً لتقصيرهم. فمطلعت لذلك توبتهم. ولذلك كان خوفهم أشد. وإزراءهم على أنفسهم أعظم. وما يتوب منه هؤلاء قد يكون من كبار حسنات غيرهم.

مِنْ أَحْكَامِ التَّوْبَةِ

ونذكر نبذاً تتعلق بأحكام التوبة، تشتد الحاجة إليها، ولا يليق بالعبد جهلها.
منها : أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور. ولا يجوز تأخيرها. فمتى أخرها عصى بالتأخير. فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى. وهى توبته من تأخير التوبة. وقُلْ أن تحظر هذه ببال التائب، بل عنده: أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر. وقد بقى عليه التوبة من تأخير التوبة. ولا ينجى من هذا إلا توبة عامة، مما يعلم من ذنوبه وما لا يعلم. فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه. ولا ينفعه في عدم المؤاخذه بها جهله إذا كان متمكناً من العلم. فإنه عاص بترك العلم والعمل. فالمعصية في حقه أشد. وفي صحيح ابن حبان: أن النسيى صلى الله عليه وسلم قال «الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل. فقال أبو بكر: فكيف الخلاص منه يا رسول الله؟ قال: أن تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم. وأستغفرك لما لا أعلم».

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب، ولا يعلمه العبد.
وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «أنه كان يدعو في صلاته: اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطأي وعمدي. وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني. أنت إلهي لا إله إلا أنت».
وفي الحديث الآخر «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله. خطأه وعمده. سره وعلايته، أوله وآخره».
فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتى التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه.

● التوبة مُتَجَدِّدَةٌ أَبَداً

ومن أحكام «التوبة» أنه : هل يشترط في صحتها أن لا يعود إلى الذنب أبداً، أم ليس ذلك يشترطاً ؟ .
فشرط بعض الناس: عدم معاودة الذنب. وقال: متى عاد إليه تبيّنا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة.
والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط . وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والدم عليه، والعزم الجارم على ترك معاودته.

فإن كانت في حق آدمي : فهل يشترط تحلله؟ فيه تفصيل — سنذكره إن شاء الله — فإذا عاوده ، مع عزمه حال التوبة على أن لايعاوده . صار كمن ابتدأ المعصية ، ولم تبطل توبته المتقدمة .

والمسألة مبنية على أصل . وهو : أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده ، فهل يعود إليه إثم الذنب الذي قد تاب منه ثم عاوده ، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر ، إن مات مصراً؟ أو إن ذلك قد بطل بالكلية . فلا يعود إليه إثم . وإنما يعاقب على هذا الأخير؟ وفي هذا الأصل قولان :

فقال طائفة : يعود إليه إثم الذنب الأول : لفساد التوبة ، وبطلانها بالمعاودة . قالوا : لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر . والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابه . فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة . كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية . ومن أساء في الإسلام أثمخذ بالأول والآخر » فهذا حال من أسلم وأساء في إسلامه . ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة في الإسلام . فإذا أخذ بعدها بما كان منه في حال كفره . ولم يقطع الإسلام المتخلل بينهما . فهكذا التوبة المتخللة بين الذنوب لا تسقط الإثم السابق ، كما لا تمتنع الإثم اللاحق .

قالوا : ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها ، والمواقة عليها ، والمعلق على الشرط يعدم عند الشرط . كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والمواقة عليه . قالوا : والتوبة واجبة وجوباً مضيئاً مدى العمر . فوقتها مدة العمر . إذ يجب عليه استصحاب حكمها في مدة عمره . فهي بالنسبة إلى العمر كالإمسك عن المفطرات في صوم اليوم . فإذا أمسك معظم النهار ، ثم نقض إمساكه بالمفطرات : بطل ما تقدم من صيامه . ولم يعتد به . وكان بمنزلة من لم يمسك شيئاً من يومه .

قالوا : ويدل على هذا : الحديث الصحيح . وهو قوله صلى الله عليه وسلم «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثاني كراً موجباً للخلود ، أو معصية موجبة للدخول . فإنه لم يقل «فيرتد فيفارق الإسلام» وإنما أخبر : أنه يعمل بعمل يوجب له النار . وفي بعض السنن «إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة . فإذا كان عند الموت جباراً في وصيته فدخل النار» فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون حاتمة بكفر أو بمعصية والأعمال بالخواتيم .

فإن قيل : فهذا يلزم منه إحباط الحسنات بالسيئات . وهذا قول المعتزلة . والقرآن والسنة قد

دلا على أن الحسنات هي التي تحبط السيئات لا العكس. كما قال (١١:١١٤) إن الحسنات يَذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لماعز «أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

قيل : والقرآن والسنة، قد دلا على الموازنة. وإحباط الحسنات بالسيئات فلا يضرب كتاب الله بعضه ببعض. ولا يرد القرآن بمجرد كون المعتزلة قالوه — فعل أهل الهوى والتعصب — بل تقبل الحق من قاله. ونرد الباطل على من قاله.

فأما الموازنة : فمذكورة في سورة الأعراف (٧:٩)، والأنبياء (٢١:٤٧) والمؤمنون (٢٣:١٠١ — ١١١) والقارة، والحاقة (٦٩:١٩ — ٣٧).

وأما الإحباط : فقد قال الله تعالى (٤٧:٢٣) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) وتفسير الإبطال هاهنا بالردة. لأنها أعظم المبطلات ، لا لأن المبطل ينحصر فيها . وقال تعالى (٢:٢٦٤) يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى) فهذان سببان عرضاً معد للصدقة فأبطلها. تبه سبحانه بطلانها — بالمن والاذى — بحال التصديق رياء في بطلان صدقة كل واحد منهما. وقال تعالى (٩:٢٤) يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي. ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض : أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله» وقالت عائشة رضي الله عنها، لأم ولد زيد بن أرقم — وقد باع بيع العينة — «أحري زيدا: أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إلا أن يتوب» وقد نص أحد على هذا في رواية ، فقال : يبني للعد أن يتروج إذا خاف على نفسه. فيستدين ويتروج ، لا يقع في عذور فيحبط عمله.

فإذا استقرت قاعدة الشريعة — أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع ومنها ما يحبطها بالنص — حاز أن تحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة. فتصير التوبة كأنها لم تكن. فيلتقي العملان ولا حازر بينهما. فيكون التأثير لهما جميعا.

قالوا : وقد دل القرآن ، والسنة ، وإجماع السلف على الموازنة . وفائدتها : اعتبار الراجح . فيكون التأثير والعمل له دون المرحوح . قال ابن مسعود «يُحَاسَبُ الناس يوم القيامة . من كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار . ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة . ثم قرأ (٧:٨ ، ٩) فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) ثم قال «إن الميزان يحس مثقال حبة أو يرجح».

واحتج الفريق الآخر — وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذب الذي تاب منه بقص التوبة — بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة. وصار بمنزلة ما لم يعمل. وكأنه لم يكن. فلا يعود

إليه بعد ذلك، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضي.
 قالوا: ولا يشترط في صحة التوبة العصمة إلى المات، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك:
 مُخِي عنه إثم الذنب بمجرد ذلك. فإذا استأنفه استأنف إثمه.
 قالوا: فليس هذا كالكفر الذي يحبط الأعمال. فإن الكفر له شأن آخر. ولهذا يحبط جميع
 الحسنات. ومعاودة الذنب لا تحيط ما تقدمه من الحسنات.
 قالوا: والتوبة من أكبر الحسنات. فلو أبطلتها معاودة الذنب: لأبطلت غيرها من الحسنات.
 وهذا باطل قطعاً. وهو شبه مذهب الخوارج المكفرين بالذنب. والمعتزلة المخلدين في النار
 بالكبيرة، التي تقدمها الأنوف من الحسنات. فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكسائر في
 النار. ولكن الخوارج كفروهم، والمعتزلة فسقوهم. وكلا المذهبين باطل في دين الإسلام.
 مخالف للنقل والمعقول وموجب العدل (٤: ٤٠) إن الله لا يظلم مثقال ذرة. وإن تك حسنة
 يضاعفها. ويؤت من لَدُنْه أجراً عظيماً).

قالوا: وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب
 العبد المفتن التواب».

قلت: وهو الذي كلما فتن بالذنب تاب منه. فلو كانت معاودته تبطل توبته لما كان محبوباً
 للرب، ولكان ذلك أدعى إلى مقتته.

قالوا: وقد علق الله سبحانه قبول التوبة بالاستغفار وعدم الإصرار، دون المعاودة، فقال
 تعالى (٣: ١٣٥) والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا
 لذنوبهم. ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون (والإصرار:
 عَقْد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به. فهذا الذي يمنع مغفرته).

قالوا: وأما استمرار التوبة: فشرط في صحة كمالها ونفعها. لا شرط في صحة ماضي منها.
 وليس كذلك العبادات، كصيام اليوم، وعدد ركعات الصلاة. فإن تلك عبادة واحدة. لا تكون
 مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها. وأما التوبة: فهي عبادات متعددة بتعدد الذنوب.
 فكل ذنب له توبة تخصه. فإذا أتى بعبادة وترك أخرى، لم يكن ماترك موجباً لبطلان ما فعل.
 كما تقدم تقريره.

بل نظير هذا: أن يصوم من رمضان ويفطر منه بلا عذر. فهل يكون ما أفطره منه مبطلاً لأجر
 ما صامه منه؟.

بل نظير من صلى ولم يصم. أو زكى ولم يحج.
 ونكتة المسألة: أن التوبة المتقدمة حسنة، ومعاودة الذنب سيئة. فلا تبطل معاودته هذه
 الحسنة، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات.

قالوا: وهذا على أصول أهل السنة أظهر. فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين. ويكون محبوا لله مبغضاً له من وجهين أيضاً. بل يكون فيه إيمان ونفاق، وإيمان وكفر. ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر. فيكون من أهله. كما قال تعالى (١٦٧:٣) هم للكافرين أقرب منهم للإيمان وقال (١٠٦:١٢) وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون أثبت لهم الإيمان به، مع مقارنة الشرك. فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله. وإن كان معه تصديق لرسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسول وباليوم الآخر. فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكيثار.

وشركهم قسمان: شرك خفي. وشرك جلي. فالخفي قد يغفر. وأما الجلي فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه. فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكيثار النار، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة. لما قام بهم من السببين.

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب: مبغض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة. فيرتب الله سبحانه على كل سبب اثره ومسببه بالعدل والحكمة. ولا يظلم مثقال ذرة (٤٦:٤١) وما ربك بظلام للعبيد).

● حُسن الخاتمة يحفظ ذخيرة العمر

وإذا استغرقت سيئاته الحديثات حسناته القديمات وأبطلتها. ثم تاب منها توبة نصوحاً خلاصة: عادت إليه حسناته. ولم يكن حكمه حكم المستأنف لها. بل يقال له: تبت على ما أسلفت من خير. فالحسنات التي فعلتها في الإسلام أعظم من الحسنات التي يفعلها الكافر في كفره: من عتاقة، وصدقة، وصلة. وقد قال حكيم بن حزام «يا رسول الله، أرايت عتاقة أعتقتها في الجاهلية، وصدقة تصدقت بها، وصلة وصلت بها رحي. فهل لي فيها من أجر؟ فقال: أسلمت على ما أسلفت من خير» وذلك لأن الاساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة. وصارت كأنها لم تكن. فتلاقت الطاعتان واجتمعتا. والله أعلم.

● توبة القلب قامة

ومن أحكامها: أن العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية، وعجز عنها. بحيث يتعذر

وقوعها منه، هل تصح توبته؟ وهذا كالكاذب والقاذف؛ وشاهد الزور إذا قطع لسانه، والزاني إذا جُبَّ، والسارق إذا أتى على أطرافه الأربعة، والمزور إذا قطعت يده. ومن وصل إلى حدٍّ بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها.

الأظهر: أن توبته صحيحة ممكنة. بل واقعة. فإن أركان التوبة مجتمعة فيه. والمقدور له منها الندم. وفي المسند مرفوعاً «الندم توبة» فإذا تحقق ندمه على الذنب ولو به نفسه عليه. فهذه توبة. وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه، مع شدة ندمه على الذنب، ولو به نفسه عليه؟ ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه، وعزمه الجازم، ونيتة أنه لو كان صحيحاً والفعل مقدوراً له لما فعله.

وإذا كان الشارع قد نزل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها، إذا صحت نيته. كقوله في الحديث الصحيح «إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً» وفي الصحيح أيضاً عنه «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم سيرة، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة. حبسهم العذر» وله نظائر في الحديث. فتزيل العاجز عن المعصية، التارك لها قهراً — مع نيته تركها اختياراً لو أمكنه — منزلة التارك المختار أولى.

● نتحلل الذي ظلمناه

ومن أحكامها: أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمي: أن يخرج التائب إليه منه، إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به. وإن كان حقاً مالياً أو جنابة على بدنه أو بدن مبروئه. كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرش، فليتحلل اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات».

وإن كانت المظلمة بقدر فيه، بغية أو قذف: فهل يشترط في توبته إعلامه بذلك بعينه التحلل منه؟ أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه، ولا يشترط تعيينه، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا، يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام من قذفه وإعتابه؟.

على ثلاثة أقوال. وعن أحد روايتان منصوبتان في حد القذف، هل يشترط في توبة قاذف: إعلام المذوف، والتحلل منه أم لا؟ ويخرج عليهما توبة المفتاب والشاتم. والمعروف في مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، ومالك: اشتراط الإعلام والتحلل. هكذا كره أصحابهم في كتبهم.

والذين اشتروا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمي: فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإيرائه.

ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول شرط إعلامه بعينه. لاسيما إذا كان من عليه الحق عارفاً بقدره. فلا بد من إعلام مستحقه به. لأنه قد لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف قدره.

واحتجوا بالحديث المذكور. وهو قوله صلى الله عليه وسلم (من كان لأخيه عنده مظلمة — من مال أو عرض — فليتحللها اليوم).

قالوا: ولأن في هذه الجنائية حقين: حقاً لله، وحقاً للآدمي. فالتوبة منها بتحليل الآدمي لأجل حقه، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه.

قالوا: ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتكمين ولي الدم من نفسه، إن شاء اقتص وإن شاء عفا. وكذلك توبة قاطع الطريق.

والقول الآخر: أنه لا يشترط الإعلام بما قال من عرضه وقذفه واغتيابه، بل يكفي توبته بينه وبين الله. وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة. فيبطل غيبته بحدسه والثناء عليه، وذكر محاسنه، وقذفه بذكر عفته وإحسانه. ويستغفر له بقدر ما اغتياه.

وهذا اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية. قدس الله روحه.

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة، لا تتضمن مصلحة. فإنه لا يزيد إلا أذى وحشاً وغماً، وقد كان مستريحاً قبل سماعه. فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله، وأورثته ضرراً في نفسه أو بدنه، كما قال الشاعر:

فإن الذي يؤذيكَ منه سماعه وإن الذي قالوا وراءك لم يُقل

وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه. فضلاً عن أن يوجبه ويأمر به.

قالوا: وربما كان إعلامه به سبباً للعداوة والحرب بينه وبين القاتل. فلا يصوله أبداً. ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مؤلدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف. وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب، والتراحم والتعاطف والتحاب.

قائلاً: والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنابات الأبدان من وجهين.

أحدهما: أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه. فلا يجوز إخفاؤها عنه. فإنه محض حقه. فيجب عليه أداؤه إليه. بخلاف الغيبة والقذف. فإنه ليس هناك شيء ينفعه يؤديه إليه إلا إضراره وتهيجه فقط. فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس.

والثاني: أنه إذا أعلمه بها لم تؤذ، ولم تُهيج منه غضباً ولا عداوة. بل ربما سره ذلك وفرح به. بخلاف إعلامه بما تزق به عرضه طول عمره ليلاً ونهاراً، من أنواع القذف والغيبة والمهجو. فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد. وهذا هو الصحيح في القولين كما رأيت. والله أعلم.

● اذا نزل بالذنب : صعد بالتوبة

ومن احكامها: أن العبد إذا تاب من الذنب: فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التي حَقَّه عنها الذنب، أولا يرجع إليها؟ الصحيح: أن من التائبين من لا يعود إلى درجته. ومنهم من يعود إليها. ومنهم من يعود إلى أعلى منها، فيصير خيراً مما كان قبل الذنب. وهذا بحسب حال التائب بعد توبته، وجده وعزمه. وحذره وتشميره فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيراً مما كان وأعلى درجة. وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله. وإن كان دونه لم يعد إلى درجته. وكان منحطاً عنها.

ويتبين هذا بمثلين مضروبين.

أحدهما: رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن. فهو يمدو مرة وعشى أخرى، ويستريح تارة وينام أخرى. فبينما هو كذلك إذ عرض له في سيره ظل ظليل، وماء بارد ومقتيل، وروضة مزهرة. فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن، فنزل عليها. فوثب عليه منها عدو، فأخذه وقيده وكتفه ومنعه عن السير. فهاين الهلاك. وظن أنه متقطع به، وأنه رزق الوحوش والسباع. وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذي يؤمه. فبينما هو على ذلك تتقاذفه الظنون، إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر. فحلّ كتفه وقيوده. وقال له: اركب الطريق واحذر هذا العدو. فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد. واعلم أنك مادمت حاذراً منه، متيقظاً له لا يقدر عليك. فإذا غفلت وثب عليك. وأنا متقدمك إلى المنزل، وفرط لك فاتبعني على الأثر.

فإذا كان هذا السائر كجساً فطناً ليبياً، حاضر الذهن والعقل، استقبل سيره استقبالا آخر، أقوى من الأول وأتم. واشتد حذره. وتأهب لهذا العدو. وأعد له عدته. فكان سيره الثاني أقوى من الأول، وخيراً منه. ووصله إلى المنزل أسرع. وإن غفل عن عدوه وعاد إلى مثل حاله الأول. من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذرو ولا اعتماد، عاد كما كان. وهو معرض لما عرض له أولاً.

وإن أورثه ذلك توانياً في سيره وفترأ، وتذكرراً لطيب بقله، وحسن ذلك الروض وعذوبة مائه، وتفيؤ ظلاله، وسكوناً بقله إليه. لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان.

المثل الثاني: عبد في صحة وعافية جسم، عرض له مرض أوجب له جئمة وشرب دواء وتحفظاً من التخليط. ونقص بذلك مادة ردية كانت منقصة لكمال قوته وصحته. فعاد بعد المرض أقوى مما كان قبله، كما قيل:

لعمل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل
وإن أوجب له ذلك المرض ضعفا في القوة، وتداركه بمثل ما نقص من قوته. عاد إلى مثل ما

كان.

وإن تداركه بدون مانقص من قوته ، عاد إلى دون ما كان عليه من القوة.
وفي هذين المثلين كفاية لمن تدبرهما.
وقد ضرب لذلك مثل آخر برجل خرج من بيته يريد الصلاة في الصف الأول. لا يلوى على شيء في طريقه. فعرض له رجل من خلفه بجذ ثوبه وأوقفه قليلاً. يريد تعويقاً عن الصلاة. فله معه حالان.

أحدهما: أن يشتغل به حتى تفوته الصلاة. فهذه حال غير التائب.
الثاني: أن يجاذبه على نفسه، ويطغى منه، لتلا تفوته الصلاة.
ثم له بعد هذا التفت ثلاثة أحوال.
أحدها: أن يكون سيره تجزأاً ووثباً، ليستدرك ما فاتته بتلك الوقفة. فرما استدركه وزاد عليه.

الثاني: أن يعود إلى مثل سيره.
الثالث: أن تورث تلك الوقفة فتوراً وتهاوناً. فيفوته فضيلة الصف الأول، أوفضيلة الجماعة وأول الوقت. فهكذا حال التائبين السائرين سواء.

مفصلة

ويتبين هذا بمسألة شريفة . وهى أنه : هل المطيع الذى لم يعص خير من العاصى الذى تاب إلى الله توبة نصوحاً ، أو هذا التائب أفضل منه ؟
اختلف فى ذلك .

• جمال البراءة

فطائفة رجحت من لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحاً . واحتجوا بوجوه .
أحدها : أن أكمل الخلق وأفضلهم : أطوعهم لله . وهذا الذى لم يعص أطوع . فيكون أفضل .

الثانى : أن فى زمن اشتغال العاصى بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق . فتكون درجته أعلى من درجته . وغايته : أنه إذا تاب لتقبل سيره ليلحقه . وذلك فى سائر آخر فأتى له بلحاقه ؟ فهما بمنزلة رجلين مشتركين فى الكسب ، كلما كسب أحدهما شيئاً كسب الآخر مثله . فعمد أحدهما إلى كسبه فأضاعه ، وأمسك عن الكسب المستأنف . والآخر مُجِدُّ فى الكسب . فإذا أدركته حمية المنافسة ، وعاد إلى الكسب : وجد صاحبه قد كسب فى تلك المدة شيئاً كثيراً . فلا يكسب شيئاً إلا كسب صاحبه نظيره . فأتى له بمساواته ؟ .

الثالث : أن غاية التوبة : أن تحووس هذائياته ، و يصير بمنزلة من لم يعملها . فيكون سعيه فى مدة المعصية لاله ولا عليه . فأين هذا السعى من سعى من هو كاسب رابع ؟ .

الرابع : أن الله يمتت على معاصيه ومخالفة أوامره . ففى مده اشتغال هذا بالدنوب : كان حفظه المقت ، وحظ المطيع الرضا . فالله لم يرل عنه راضياً . ولا ريب أن هذا خير من كان الله راضياً عنه ثم مقته ، ثم رضى عنه ، فإن الرضا المستمر خير من الذى تخلله المقت .

الخامس : أن الذنب بمنزلة شرب السم . والتوبة ترياقه ودواؤه ، والطاعة هى الصحة والعافية ، وصحة وعافية مستمرة ، خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه . وربما أذيا به إلى التلب أو المرض أبداً .

السادس : أن العاصى على خطر شديد . فإنه دائرين ثلاثة . أشياء . أحدها : العطب والهلاك بشرب السم . الثانى : النقصان من القوة وضعفها ، إن سلم من الهلاك . والثالث : عود قوته إليه كما كانت أو خيراً منها بعيداً .

والأكثر إنما هو التسمان الأ ولان . ولعل الثالث نادر جداً . فهو على يقين من ضرر السم ، وعلى رجاء من حصول العافية ، بخلاف من لم يتناول ذلك .

السابع : أن المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطاً حصيناً. لا يجد الأعداء إليه سبيلاً. فشمزته وزهرته وخضرته وبهجته في زيادة ونمو أبداً. والعاصي قد فتح فيه ثغراً، وتلثم فيه ثلماً. ويمكن منه السراق والأعداء. فدخلوا فعاتوا فيه يميناً وشمالاً: أفسدوا أعضانه، وخربوا حيطانه. وقطعوا ثمراته، وأحرقوا في نواحيه. وقطعوا مائه. ونقصوا بقلبه. فمتى يرجع هذا إلى حاله الأول؟ فإذا تداركه قيّمه ولم يَشْتَهه، وأصلح ما فسد منه، وفتح طرق مائه، وعمر ما خرب منه، فإنه إما أن يعود كما كان، أو أنقص، أو خيراً. ولكن لا يلحق بستان صاحبه الذي لم يزل على نصارته وحسنه. بل في زيادة ونمو، وتضاعف ثمرة، وكثرة غرس.

الشامن: أن طمع العدو في هذا العاصي إما كان لضعف علمه وضمف عزيمته. ولذلك يسمى جاهلاً. قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل ما غشى الله به فهو جهالة. وكذلك قال الله تعالى في حق آدم (١١٥: ٢٠) ولم تجد له عزماً وقال في حق غيره (٣٥: ٤٦) فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وأما من قويت عزيمته، وكمل علمه، وقوى إيمانه: لم يطعم فيه عدوه. وكان أفضل.

التاسع: أن المحصية لا بد أن تؤثر أثرًا سيئاً ولابد: إما هلاكاً كلياً. وإما خسراناً وعقاباً، يعمقه: إما عفو ودخول الجنة، وإما نقص درجة، وإما خلود مصباح الإيمان. وعمل التائب في رفع هذه الآثار والتكفير. وعمل المطيع في الزيادة، ورفع الدرجات.

ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة. فإنه يعمل في زيادة الدرجات، وغيره يعمل في تكفير السيئات. وأين هذا من هذا؟

العاشر: أن المقبل على الله المطيع له يسير بجملته أعماله. وكلما زادت طاعته وأعماله ازداد كسبه بها وعظم. وهو بمنزلة من سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله. فسافر ثانياً برأس ماله الأول وكسبه. فكسب عشرة أضعافه أيضاً. فسافر ثالثاً أيضاً بهذا المال كله. وكان ربحه كذلك، وهلم جرا. فإذا فتر عن السفر في آخر أمره، مرة واحدة فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه. وهذا معنى قول الجنيد رحمه الله «لو أقبل صادق على الله ألف عام ثم أعرض عنه لحظة واحدة كان ما فاته أكثر مما ناله» وهو صحيح بهذا المعنى. فإنه قد فاته في مدة الاعراض ربح تلك الأعمال كلها. وهو أريد من الربح التقدم. فإذا كان هذا حال من أعرض، فكيف من عمى وأذنب؟ وفي هذا الوجه كفاية.

● وللمستدرك جمال . . . أيضاً .

وطائفة رجعت التائب، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه. واحتجت بوجوه.

أحدها: أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله، وأكرمها عليه. فإنه سبحانه يحب التوابين. ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه، لما ابتلى بالذنوب أكرم الخلق عليه. فطمعته لتوبة عبده ابتلاء بالذنوب الذي يوجب وقوع محبوبه من التوبة وزيادة محبة لمعبده، فإن للتائبين عنده محبة خاصة. يوضح ذلك:

الوجه الثاني: أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات. ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر، كما مثله النبي صلى الله عليه وسلم بفرح الواجد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدورية المهلكة، بعد ما فقداه، وأيس من أسباب الحياة. ولم يحى هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة. ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبه، ومزيده لا يعبر عنه. وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد. فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحيوية. فيصير محبوباً لله. فإن الله يحب التوابين ويحب العبد المقتس التواب. ويوضحه:

الوجه الثالث: أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار، والخضوع، والتعلق لله، والتذلل له، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة. وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التوبة. فإن الذل والانكسار روح العبودية، وتُمنحها ولها. يوضحه:

الوجه الرابع: أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره. فإنه قد شارك من ثم يذنب في ذل الفقر، والعبودية، والمحبة. وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمصيبة. والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذلّه، وانكسار قلبه. ولأجل هذا كان «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» لأنه مقام ذل وانكسار بين يدي ربه.

وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم. فيما يروى عن ربه عز وجل «أنه يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب، كيف أطعمتك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمتك عبدي فلان فلم تطعمه، أما لو أطعته لوجدت ذلك عندي. ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني. قال: يا رب، كيف أسقيتك، وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه. أما لو سقيته لوجدت ذلك عندي. ابن آدم، مرضت فلم تعدني. قال: يا رب، كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟ قال: أما إن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما لو عُدته لوجدتني عنده» فقال في عيادة المريض «لوجدتني عنده» وقال في الإطعام، والإسقاء «لوجدت ذلك عندي» ففرق بينهما. فإن المريض مكسور القلب، ولو كان من كان، فلا بد أن يكسره المرض فإذا كان مؤمناً قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده.

وهذا — والله أعلم — هو السرفى استجابة دعوة الثلاثة: المظلوم، والمسافر، والصائم، للكسرة التي في قلب كل واحد منهم. فإن غرة المسافر وكسرة مما يجده العبد في نفسه. وكذلك الصوم، فإنه يكسر سورة النفس السبعية الحيوانية، ويذلها.

الوجه الخامس: أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة، من كثير من الطاعات. وهذا معنى قول بعض السلف «قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة. ويعمل الطاعة فيدخل بها النار قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نُصَبَ عينيه، إن قام، وإن قعد، وإن مشى: ذكر ذنبه. فيحدث له انكساراً، وتوبة، واستغفاراً، ونداماً، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة. فلا تزال نصب عينيه. إن قام وإن قعد وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً وثمةً. فتكون سبب هلاكه. فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات وحسنات، ومعاملات قلبية، من خوف الله والحياء منه، والإطراق بين يديه منكساً رأسه حجباً، باكباً نادماً، مستقيلاً ربه. وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة، وكراً، وازدراء بالناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار. ولا ريب أن هذا المذنب خير عند الله، وأقرب إلى النجاة والفوز من المعجب بطاعته، الصائل بها، المائ بها، وبخاله على الله عز وجل وعباده. وإن قال بلسانه خلاف ذلك. قاله شهيد على ماني قلبه. ويكاد يعادي الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه. ويغضبوا له. ويحد في قلبه بُغضة لمن لم يفعل به ذلك. ولو فتش نفسه حق التمتعش لرأى فيها ذلك كامتاً. ولهذا تراه عاتياً على من لم يعظمه ويعرف له حقه. متطلباً لعييه في قالب حية لله، وغضب له، وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه، ويخضع له من الذنوب اضماعاف ماقام بهذا، فتح له باب المعاذير والرجاء. وأغمض عنه عينه وسمعه. وكفّت لسانه وقلبه، وقال: باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود. وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه.

فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه في ذنب يكسره به. ويعرفه قدره. ويكفي به عباده شره. وينكس به رأسه، ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده. فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة. ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال. كما قيل بلسان الحال في قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه: يا آدم، لا تخزع من كأس زلال كانت سبب كَيْسِكَ. فقد استخرج بها منك داء لا يصلح أن تجاورها به. وألبست بها حلة العبودية.

يا آدم إنما ابتليتك بالذنب لأنني أحب أن أظهر فضلي، وجودي وكرمي، على من عصاني «لولا تذبذبو للذهب الله بكم، ولجاء بكم يذبون فيستغفرون فيغفر لهم».

يا آدم، إذا عصمتك وعصمت بنيك من الذنوب، فعل من أجود بحلمي؟ وعلى من أجود

بعموى ومغفرتي، وتوبتي، وأنا التواب الرحيم؟
يا آدم، لا تجزع من قولي لك (اخرج منها) فلك خلقتها، ولكن اهبط إلى دار المجاهدة.
وابذر بذر التقوى. وأمر عليه سحائب الجفون. فإذا اشتد الحب واستغلف، واستوى على سقوفه،
فصالح قاصده.

يا آدم، ما أهبطك من الجنة إلا لتتوسل إلي في الصعود، وما أخرجتك منها نفيًا لك عنها،
ما أخرجتك منها إلا لتعود.

يا آدم، ذنب تذلل به لدينا، أحب إلينا من طاعة تُذل بها علينا.

يا آدم، أنين المدينين، أحب إلينا من تسبيح المدّئين.

«يا ابن آدم، إنك مادعوتني ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم،
لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك. يا ابن آدم، لو لقيتني بقراب الأرض
خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، أتيتك بقرابها مغفرة».

يذكر عن بعض العباد: أنه كان يسأل ربه في طوافه بالبيت، أن يعصمه ثم غلبته عيناه،
فنام. فسمع قائلاً يقول: أنت تسألني العصمة، وكل عبادي يسألونني العصمة. فإذا عصمتهم
فعل من أتفضل وأجود بمغفرتي وعفوي؟ وعلى من أتوب؟ وأين كرمي وعفوي ومغفرتي وفضلي؟
وتحو هذا من الكلام.

يا ابن آدم، آمنت بي ولم تشرك بي شيئاً، أقمت حلة عرشي وترن حوله يسبحون بحمدي
و يستغفرون لك وأنت على فراشك. وفي الحديث العظيم الإلهي حديث أبي ذر «يا عبادي إنكم
تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً. فمن علم أنني ذو قدرة على المغفرة غفرت
له ولا أبالي» (٣٩: ٥٣ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله
إن الله يغفر الذنوب جميعاً. إنه هو الغفور الرحيم).

يا عبيدي! لا تعجز. فمَنك الدعاء وعلى الإجابة. ومنك الاستغفار وعلى المغفرة.

ومنك التوبة وعلى تبدل سيئاتك حسنات» يوضحه:

الوجه السادس: وهو قوله تعالى (٢٥: ٧٠) إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً
فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات. وكان الله غفوراً رحيمًا) وهذا من أعظم البشارة
لستائين إذا اقترن ستوبتهم بإيمان وعمل صالح. وهو حقيقة التوبة. قال ابن عباس رضي الله
عنهما «ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت. وفرحه
من قول (٤٨: ١) إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر».

واحتلوا في صمة التدبيل، وهل هو في الدنيا، أو في الآخرة؟ على قولين.

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبدلهم بقبائح أعمالهم بحسناتها. فبدلهم بالشرك إيماناً.

وبالزنا عمة وإحصاناً، وبالكذب صدقاً، وبالحيانة أمانة.
 فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بدلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالاً صالحة، كما يدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.
 وقال سعيد بن المسيب، وغيره من التابعين: هوتدليل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة. فيعطيه مكان كل سيئة حسنة.
 واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرو بن سويد عن أبي ذرقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صفار ذنوبه. ونخباً عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا وكذا. وهو مقرر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها فيقال: اعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. فيقول: ان لي ذنوباً ما أراها ههنا. قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه».

فهذا حديث صحيح. ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر، فإن هذا قد عذب سيئاته ودخل بها النار. ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطى مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه. وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات. إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب. والكلام إما هو في ثابث أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته. فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟
 والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه. لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فلا استدلال به صحيح، بعد تهديد قاعدة، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته. وهي أن الذنب لا بد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة. وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقوتك الأمور على محوه. فلا بد إذا من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث. ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه. فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كيئز الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبيثه. فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة الصوح. وهي أقوى الأسباب. وتارة يكون باستيماء الحق منه وتطهيره في النار. فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أعطى مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهر بالتوبة الصوح، ورأى عنه بها أثر وسخ الذنوب وخشها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة. لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم

من إزالة النار، وأحب إلى الله. وإزالة النار بدل منها. وهي الأصل. فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول. يوضحه:

الوجه السابع: وهو أن التائب قد بذل كل سيئة بندمه عليها حسنة. إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة. والتوبة من كل ذنب حسنة. فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة. فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار. فتأمل أنه من ألطف الوجوه.

وعنى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة. وقد تكون دونها. وقد تكون فوقها. وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تريد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة. وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها. يوضحه:

الوجه الثامن: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم ثمناً، وأحب إلى الله من عصيته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك مجرأة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه. لكن شتان ما بين الندمين. والله تعالى يحب من عبده مراعاة عدوه وغيظه. كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار السجدة. فيحصل من العبد مراعاة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة. وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله (يبدل الله سيئاتهم حسنات) ولم يقل مكان كل واحدة واحدة فلهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المدل.

وأما في الحديث: فإن الذي عُذِّبَ على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها. فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات. فأعطى مكان كل سيئة حسنة واحدة. وسكت النبي صلى الله عليه وسلم عن كبار ذنوبه. ولما انتهى إليها ضحك. ولم يبين ما يمسح الله بها. وأحس أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة. ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين

أحدهما: قوله «أحيوا عنه كبارها» فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها. فيكون تبديلها أعظم موقعاً عنده من تبديل الصغائر. وهو نه أشد فرحاً وانشطاً.

والثاني: صحك النبي صلى الله عليه وسلم عند ذكر ذلك. وهذا الصحك مشعر بالتحبب مما يفعل به من الإحسان، وما يُقرَّر به على نفسه من الدوب، من غير أن يُقرَّر عليها ولا يسأل عنها. وإنما عرِضت عليه الصغائر.

فشارك الله رب العالمين، وأحد الأحمدين، وأكرم الأكرمين، الرب للطفيف، المتوكل إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع لا إلا هو الرحمن الرحيم.

التركيب المعنوي

وكثير من الناس إما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب ، وبالاتقاع عنه في الحال ، وبالثبات عليه في الماضي . وإن كان في حق آدمي : فلا بد من أمر رابع . وهو التحلل منه . وهذا الذي ذكره بعض مسمى «التوبة» بل شرطها ، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله — كما تنصص ذلك — تنصص العزم على فعل المأمور والتزامه ، بل وتنصص مقت من يتركه ومقاطعته . والنزاع الأمر به والهي عن تركه ، فإن العمل الصالح — المطلوب للتوبة ، في آية الفرقان — هو صد ما كان يأتيه من سوء ، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائباً ، حتى يوجد منه العزم الحارم على فعل المأمور ، والإتيان به . هذا حقيقة التوبة . وهي اسم لمجموع الأمور . لكنها إذا قرب بفعل المأمور كات عبارة عما ذكره ، فإذا أفردت تضمنت الأمرين . وهي كمنقطة «التقوى» التي تمتص عند إفرادها فعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه . وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحذور ، وإن كان معاشاً أعم ، إذ التقوى هي اتحاد كل ما أعطى الله بعد من عافية ، وما ولد ، وليل ونهار ، وغير ذلك — وقاية يتق بها ما يكره ويحاف . في سيره إلى الله ولدار الآخرة فإن الطريق كله عقبات ، وأعداء — من النفس الأمارة والهوى والشيطان تشاوت ، وتحذره ، ومحاولة صدده وإرباعه وإهلاكه ، وقد انتلاه الله بكل ذلك . وآتاه ما يمكنه من السلامة والعافية والنجح . وذلك بحس وضع العمة من كل ذلك موضعه ، فإن الهلاك إما يكون بوضع هذه النعم على غير وضعها ، بل لاهية واتساع الهوى ، وتعليق الشهوة الهيمية ، والإسلاح من آيات الله ، واتحاد الشيطان ولياً من دون الله

إن حقيقة «التوبة» الرجوع إلى الله بالترام فعل ما يجب ، وترك ما يكره . فهي رجوع من مكروه إلى محسوب . فالرجوع إلى المحبوب جزء مماها . والرجوع عن المكروه الجزء الآخر . ولهذا علق سبحانه العلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحذور بها ، فقال (٢٤ : ٣١) وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون . لعلكم تفلحون . فكل تائب مفلح . ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه . وقال تعالى (١١: ٤٩) ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون وتارك المأمور ظالم ، كما أن فاعل المحذور ظالم . وروال اسم «الظلم» عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين . فالناس قسمان : تائب وظالم . ليس إلا . فالتائبون هم (١١٢: ٩) العابدون الحامدون السائحون ، الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحافظون لحدود الله) فمحط حدود الله : حرة التوبة . والتوبة هي مجموع هذه الأمور وإنما سمي تائباً : لرجوعه إلى أمر الله من بهيه ، وإلى طاعته من معصيته ، بل لرجوعه إلى الله مولاه وحبيه . وتحليصه من عدوه . فإن عدوه يريد له شقائه فيحده إليه محل الحيوانية وسفها وحملها وشهواتها . والله مولاه يريد له سعادته ، وهو يتودد إليه بجميع ما يعطيه في نفسه وما سحر له ، ويحده إليه

بأساس نعمه التي لا تحصى. ومن أنوارها، آياته في الأنفس والآفاق، وسننه التي لا تتبدل. وما يوحى إليه إلى رسله من المهدى والنصائر (١٠٤:٦) قد جاءكم بصفائر من ربكم. فمن أبصر فلنفسه. ومن عمى فعليها. وما أنا عليكم بحميظ).

فإذن: «التوبة» هي حقيقة دين الإسلام، والديسن كله داخل في مسمى «التوبة» وبهذا استحقق الثائب أن يكون حبيب الله. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

فإذن «التوبة» هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً. ويدخل في مسماها الإسلام، والإيمان، والإحسان. وتتناول جميع المقامات. ولهذا كانت غاية كل مومن، وبداية الأمر وحادثته. كما تقدم. وهي الغاية التي تجد لأجلها الخلق. والأمر والتوحيد جزء منها. بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر «التوبة» ولا حقيقتها، فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً. ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن «التوبة» اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم. فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفصيل «التوبة» وآثارها.

● نفارق الباطل ثم نرجع إلى الحق

وأما «الاستغفار» فهو نوعان. مفرد ومقرون بالتوبة. فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه (١١:١٠:٧١) استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً) وكقول صالح لقومه (٤٦:٢٧) لتولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون) وكقوله تعالى (١٩٩:٢) واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) وقوله (٣٣:٨) وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم. وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) والمقرون كقوله تعالى (٣:١١) استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله) وقول هود لقومه (٥٢:١١) استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً) وقول صالح لقومه (٦١:١١) هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها. فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب) وقول شعيب (٩٠:١١) واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود) فالاستغفار المفرد كالنوبة. بل هو النوبة بعينها. مع تضمه طلب المغفرة من الله. وهو نحو الذنب، وإزالة أثره، وقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس: أنها السترة. فإن الله يستر على من

يغفر له ومن لا يغفر له. ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه. فدلائلها عليه إما بالتضمن وإما بالزوم.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب. ومنه المغفر، لما يقى الرأس من الأذى. والستر لازم لهذا المعنى. وإلا فالعمامة لا تسمى يغفراً، ولا القبع ونحوه مع ستره. فلا بد في لفظ «المغفر» من الوقاية. وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله (٣٣:٨) وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فإن الله لا يعذب مستغفراً. وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته. فهذا ليس باستغفار مطلق. ولهذا لا يمنع العذاب. فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار. وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

ومع ذلك فلا مانع أن يكون معنى الاستغفار: طلب المغفر. وهو الستر، ستر العيوب والنقائص المهلكة الفسدة وأكبر عيب الإنسان ونقصه: هو جهله وظلمه. فنخطام الجهل والظلم يحير العدو إلى ما يهلكه ويرديه، وستره إما يكون باليقظة والحرص على الانتفاع بما يوفيه الله له من العلم والعدل والإحسان. وكلما غفل انعمه عن كرامته الإنسانية، التي بعها الله فيه من روحه. كلما أخذ إلى أرض البهيمية، فاشتد جهله وظلمه. وصح نفسه. وكلما غفل عن إنسانيته وغذاها بالتفكير آيات الله وسنته الكونية في نفسه وفي الآفاق، وتدنس آياته العلمية المرسل بها رسله. كلما غفل الله له وستر من عيوبه ونقصاته. وبهذا يفهم قول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم (١٠:٤٨) ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك فإنه صلى الله عليه وسلم لم يأت مكرراً قط ولا عصى ربه قط ولا فسق عن أمره. وإنما هو ستر عيوب الشريعة وحلاتها بما أوتى من العلم والهدى الذي مكّن له ربه. من التحكم في هذه الطبايع الشريفة، والإحسان بها وفيها. حتى كان حكيم الرشيد عليه الصلاة والسلام.

وما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى. فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى. والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله. فهما هما ذنبان: دبت قد مضى. فالاستغفار منه: طلب وقاية شره. وذبت يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله. والرجوع إلى الله يتناول الوعين: رجوع إليه ليقبضه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقبضه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضا فإن المدب بمنزلة من ركب طريقاً تؤديه إلى هلاكه. ولا توصله إلى المقصود. فهو مأمور أن يوليها ظهره. ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته. والتي توصله إلى مقصوده. وفيها وإلا.

فهاها أمارات لا بد منها: مفارقة شيء والرجوع إلى غيره. فحصب «التوبة» بالرجوع، و«الاستغفار» بالمفارقة. وعند أفراد أحدهما يتناول الأمرين. ولذا جاء — والله أعلم — الأمر بهما مرتباً بقوله (استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة السيئات.

وأيضاً فالاستغفار من باب إزالة الضرر والتوبة طلب جلب المنفعة. فالمغفرة أن يقيه شر الذنب. والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه. وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده. والله أعلم.

● التوبة النصوح

وهذا يتبين بذكر التوبة النصوح وحقيقتها. قال الله تعالى (٨:٦٦) يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا. عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار فجعل وقاية شر السيئات — وهو تكفيرها — نزوال ما يكره العبد. ودخول الحسات — وهو حصول ما يجب العبد — منوطاً بحصول التوبة النصوح. و«النصوح» على وزد فعول المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة. كالتكوير والصور. وأصل مادة (ن ص ح) خلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة. وهو ملاق في الاشتقاق الأكر لتصح إذا حلص. فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل عثر ونقص وفساد. وإبقاها على أكمل الوجوه. والنصح صد الغش.

وقد اختلفت عبارات السلف عنها. ومرجعها إلى شيء واحد. فقال عمر بن الخطاب، وأبى اس كعب رضى الله عنهما «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبس إلى الصرع» وقال الحسن البصري «هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى. مجمعاً على أن لا يعود فيه» وقال الكلبي «أن يستعمر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن» وقال سعيد بن المسيب «توبة نصوحا. تصحون بها أنفسكم» جعلها بمعنى ناصحة للتائب كصروب المعدول عن صارب.

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أى قد نصح فيها التائب ولم يتسها بعس. فهي إما بمعنى منصوح فيها، كركوبة وخلوة، بمعنى مركوبة وخلوة، أو بمعنى الفاعل. أى ناصحة كحالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرطبي: يجمعها أربعة أشياء. الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإصمار ترك العود بالحنان، ومهاجرة سيء الإخوان. قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء.

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغفارها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.
والثاني: إجماع العزم والصدق بكلية عليها. بحيث لا يبقى عده تردد، ولا تلوم ولا انتظار.
بل يجمع عليها كل إرادته وعزمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القاذرة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وحشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده. لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمة، ومصيبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حد الناس، أو الهروب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقصاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول: يتعلّق بما يتوب منه، والثالث: يتعلّق بمن يتوب إليه. والوسط: يتعلّق بذات المتّوب ونفسه. فتصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها. ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمّن، وتحويج جميع الذنوب. وهي أكمل ما يكون من التوبة. والله استعان. وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

● إجابة أوها إلهام

وتوبة العبد إلى الله محققة بتوبة من الله عليه قبلها. وتوبة منه بعدها. فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة. فإنه تاب عليه أولاً إذناً وتوفيقاً وإلهاماً، فتاب الله عليه تائباً، فتاب الله عليه ثانية. قال الله سبحانه وتعالى (٩: ١١٧، ١١٨) لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريقي منهم. ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خَلَفُوا. حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت. وضاقت عليهم أنفسهم. وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا. إن الله هو التواب الرحيم) فأخبر سبحانه أن توبته عيهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين. فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم. فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم. والحكم ينتفي لانقضاء علقته.

ونظير هذا: هدايته لصدقه قبل الاهتداء، فقد أعطاه ربه هداية العطرة (٧٦: ٣، ٢) إنا حلّقنا الإنسان من نعمة أمشاح بتليته. فحملناه سميماً صغيراً. إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) فإن أحسن الاهتداء بهداية العطرة في سمنه وبصره وفؤاده، وشكر ربه عليها باستعمالها في إيصال المعلومات إلى فؤاده على حقيقتها التي حلّقها الله، فمقلها وأحسن ترتيبها والاستفادة منها. زاده الله هدى وزاده من نعمة الصكر واستأمل صفاء ووراً، اهتدى به إلى الفقه في كلامه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم (ومن لم يبجل الله له نوراً فما له من نور).

فإذا اهتدى العبد: أوجبت له تلك الهداية هداية أخرى يشبه الله بها هداية على هدايته. فإن من تواب الهدى: الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة: الضلالة بعدها. قال الله تعالى

(١٧:٤٧) والذين اهتمدوا زادهم هدى) فهداهم أولا فاهتدوا، فرادهم هدى ثانياً. وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى (٥:٦١) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه «الأول»، والآخر» فهو المَعْدُ. وهو المَعْدُ ومنه السبب والمسبب، وهو الذي يعيذ من نفسه نفسه، كما قال أعرف الخلق به «وأعوذ بك منك» والعبد تواب. والله تواب. فتوبة العبد: رجوعه الى سيده بعد الإهراق، وتوبة الله نوعان: إِدْنٌ وتوفيق، وقبول وإمداد.

و «التوبة» لها مبدأ ومنتهى. فمبدأها: الرجوع إلى الله سلوك صراطه المستقيم، الذي نصبه لعباده، موصلاً الى رضوانه. وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى: (١٥٣:٦) وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ) وبقوله (٥٣:٥٢) وَإِنْ كُنْتُمْ لَتَهْتَدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض) وبقوله (٢٤:٢٢) وَلَقَدْ دُعا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ. وَلَقَدْ دُعا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ).

ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد. وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته. فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة: رجع إليه في المعاد بالثواب. وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى (٧١:٢٥) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) قال البغوي وغيره «يتوب الى الله متاباً: يعود إليه بعد الموت، متاباً حسناً يفضل على غيره» فالتوبة الأولى — وهي قوله «ومن تاب» — رجوع عن الشرك. والثانية: رجوع الى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثاني: أن الجزاء متضمن معنى الأمر. والمعنى: ومن عزم على التوبة وأرادها، فليجعل توبته الى الله وحده، ولوجهه خالصاً، لا لغيره.

والتأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنى، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه. ورجع إليه. والمعنى: فليعلم توبته إلى من؟ ورجوعه إلى من؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره. ونظير هذا — على أحد التأويلين — قوله تعالى (٦٧:٥) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ. وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ). أي أعلم ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته.

والتأويل الرابع: أن التوبة تكون أولاً بالقصد والعزم على فعلها. ثم إذا قوى العزم وصار جازماً: تُؤجَد به فعل التوبة. فالتوبة الأولى: بالعزم والقصد لفعلها. والثانية: بنفس إيقاع التوبة وإيجادها. والمعنى: فمن تاب إلى الله قصداً ونية وعزماً، فتوبته إلى الله عملاً وفعلًا. وهذا نظير قوله صلى الله عليه وسلم «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

صَغَائِرُ الذُّنُوبِ الْكِبَائِرِ

و«الذنوب» تنقسم إلى صغائر وكبائر. بنص القرآن والسنة، وإجماع السلف وباعتبار. قال الله تعالى (٣١:٤) إِنْ تَحْسَبُوا كِبَايْرًا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سِيئَاتِكُمْ) وقال تعالى (٥٣:٣١) وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَايْرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمُ) وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر».

والذى جاء في لفظ الشارع، تسمية ذلك «لَمَمًا» و«مُحَقَّرَات» كما في الحديث «إياكم ومُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ» وقد قيل: إن «اللمم» المذكور في الآية من الكبائر. حكاه البيهقي وغيره.

قالوا: ومعنى الاستثناء: أن يُلَمَّ بالكبيرة مرة. ثم يتوب منها. ويقع فيها ثم ينتهى عنها، لا يتخذها دأبه. وعلى هذا يكون استثناء «اللمم» من الاجتناب إذ معناه: لا يصدر منهم، ولا تقع منهم الكبائر إلا لَمَمًا.

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر. وهو منقطع. أى لكن يقع منهم اللمم. وحسّن وقوع الانقطاع بعد الإيجاب — والغالب خلافه — أنه إنما يقع حيث يقع التفرغ. أذ في الإيجاب هنا معنى النعمى صريحاً. فالعنى: لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش. فحس استثناء اللمم.

ولعل هذا الذى شجع أبا إسحاق على أن قال «الذنوب كلها كبائر» إذ الأصل في الاستثناء الاتصال. ولا سيما وهو من موجب.

ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر. ثم اختلفوا في فصلين. أحدهما: في «اللمم» ما هو؟ والثانى: في «الكبائر» وهل لها عدد يحصرها، أو حدٌ يحدّها؟ فلندكر شيئاً يتعلق بالفصلين.

● تفسير اللمم

فأما «اللمم» فقد روى عن جماعة من السلف: أنه الإلمام بالذنب مرة، ثم لا يعود إليه. وإن كان كبيراً. قال البيهقي: هذا قول أبي هريرة، ومجاهد، والحسن، ورواية عطاء عن ابن عباس. قال: وقال عبد الله بن عمرو بن العاص «اللمم ما دون الشرك» قال السدي: قال أبو صالح: سُئِلْتُ عن قول الله عز وجل «إِلاَّ اللَّمَمُ؟» فقلت: «هو الرجل يُلَمُّ بالذنب ثم لا يعاوده» فتكررت ذلك لابن عباس فقال «لقد أعانك عليها ملك كريم».

والجمهور: على أن «اللمم» ما دون الكبائر. وهو أصح الروايتين عن ابن عباس، كما في

صحيح البخارى من حديث طاووس عنه قال «ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم: إن الله كتب على ابن آدم حَقَّهُ من الزنا. أدرك ذلك لا محالة. فزنا العين: النظر. وزنا اللسان: النطق. والنفس تَمَنَّى وتشتهى. والفرج يصدق ذلك أويكذِّبه» رواه مسلم من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة. وفيه «والعينان زناهما: النظر. والأذنان زناهما الاستماع. واللسان: زناه الكلام. واليد: زناها البطش. والرجل: زناها الخُطى».

وقال الكلبي «اللمم» على وجهين. كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًا في الدنيا. ولا عذابًا في الآخرة. فذلك الذى تكفره الصلوات الخمس، ما لم يبلغ الكبائر والفواحش. والوجه الآخر: هو الذنب العظيم، يُلَمُّ به المسلم المرة بعد المرة. فيتوب منه. قال سعيد بن المسيب: هو ما لَمَّ بالقلب. أى ما خطر عليه.

قال الحسين بن الفضل: «اللمم» النظر من غير تعمد. فهو مقفور. فإن أعاد النظر. فليس بلمم، وهو ذنب. وقد روى عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن تغفر اللهم تغفر رجلاً * وأى عبد لك لا أُلَمُّ»

وذهبت طائفة ثالثة إلى أن «اللمم» ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم. فالله لا يؤاخذهم به. وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين «أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا. فأنزل الله هذه الآية» وهذا قول زيد بن ثابت، وزيد بن أسلم.

والصحيح: قول الجمهور: أن اللمم صفائر الذنوب، كالنظرة، والغزوة، والقبلة، ونحو ذلك. هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم. وهو قول أبى هريرة وعبد الله بن مسعود. وابن عباس، ومسروق، والشعمي. ولا يثنى هذا قول أبى هريرة، وابن عباس في الرواية الأخرى «إنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها» فإن «اللمم» إما أنه يتناول هذا وهذا، ويكون على وجهين. كما قال الكلبي، أو أن أبا هريرة، وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة — ولم يصر عليها، بل حصلت منه قلقة في عمره — باللمم. ورأى أنها إنما تتلفظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مراراً عديدة. وهذا من فقه الصحابة رضى الله عنهم وغور علومهم. ولاربط أن الله يسامح عبده المرة والمرة والثلاث. وإنما يخاف التعتُّ على من اتخذ الذنب عادته، وتكرر منه مراراً كثيرة. وفي ذلك آثار سلفية، والاعتبار بالواقع يدل على هذا. ويذكر عن على رضى الله عنه: أنه «دُفِعَ إليه سارق، فأمر بقطع يده، فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت غير هذه المرة. فقال: كذبت. فلما قطعت يده قال: اصدقني، كم لك بهذه المرة؟ فقال: كذا وكذا مرة؟ فقال صدقت، إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب» أو كما قال. فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم. فهو من جنسه ونظيره. فالقولان عن أبي هريرة، وابن عباس، متفقان غير مختلفين. والله اعلم.

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والاعتاب بالفعل حيناً بعد حين. فإنه يقال: أَلَمْ يَكْذِبْ. إذا قاربه ولم يخش، ومن هذا سميت الثُّبلة والقَمْزة لَمَمًا، لأنها تَلُمُّ بما بعدها. ويقال: فلان لا يزورنا إلا لَمَمًا. أي حيناً بعد حين. فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية. وليس معنى الآية «والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم» فإنهم لا يجتنبونه فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم، وهذا محال. وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه. فإن سياق الكلام في تقسيم الناس إلى عس ومنس، وأن الله يجزى هذا بإساءته وهذا بإحسانه. ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش. ومضمون هذا: أنه لا يكون محسناً مجزياً بإحسانه، ناجياً من عذاب الله، إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش. فحسُنَ حيثُ استثناء اللمم. وإن لم يدخل في الكبائر. فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش.

وضابط الانقطاع: أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه وإن لم يدخل في نفسه. ولم يتناوله لفظه. كقوله تعالى (١٩:٦٢) لا يسمعون فيها نَقْراً إلا سلاماً) فإن «السلام» داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام. وكذلك قوله (٢٨:٢٤) لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً إلا حميماً وغساقاً) فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم. فكأنه قيل في الأول: لا يسمعون فيها شيئاً إلا سلاماً. وفي الثاني: لا يذوقون فيها شيئاً إلا حميماً وغساقاً. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحاً، ليكون نفية بطريق التصريح والتنصيص، لا بطريق العموم الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد. وكذلك قوله تعالى (٤:١٥٦) ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن.

وأدق من هذا: دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه، كقوله تعالى (٤:٢٢) ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف) إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو. وكذلك (٤:٢٣) وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) وإن كان المراد به: ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله، فحسن أن يقال «إلا ما قد سلف». فتأمل هذا فإنه من فقه العربية.

وأما قوله (٤:٥٦) لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) فهذا الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت. وهو يجعل النفى الأول العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة. إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفرادها لكان أولى بذكره من الصلوات عنه إلى الاستثناء المنقطع. فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد، والتنصيص على حفظ العموم. وهذا جارٍ في كل منقطع. فتأمل فإنه من أسرار العربية.

وقريب من هذا لفظه «أو» في قوله تعالى (٢: ٧٤) ثم قست قلوبكم من بعد ذلك. فهي كالحجارة أو أشد قسوة) وقوله (٣٧: ١٤٧) وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) هو كالتنصيص على أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة. فإنها إن لم تزد قسوتها على الحجارة فهي كالحجارة في القسوة لا دونها. وأنه إن لم يزد عددهم على مائة ألف لم ينقص عنها. فذكر «أو» هنا كالتنصيص على حفظ المائة ألف، وأنها ليست بما أريد بها المبالغة. والله أعلم.

● إحصاء الكبائر

وأما الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافا لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة. وفي الصحيحين من حديث الشعبي عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس». وفيهما عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ — ثلاثا — قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين — وجلس وكان متكئا — فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت».

وفي الصحيح من حديث أبي وائل عن عمرو بن شُرَّحْبِيل عن عبد الله بن مسعود قال: قلت «يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قال قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يقلع منك. قال قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك. فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي صلى الله عليه وسلم (٢٥: ٦٨) والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر. ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله. والسحر. وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. وأكل الربا. وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف. وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وروى شعبة عن سعد بن إبراهيم: سمعت حميد بن عبد الرحمن يحدث عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من أكبر الكبائر: أن يسب الرجل والديه. قالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل، فيسب أباه. ويتشبأ أمه، فيسب أمه».

وفي حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن من أكبر

الكبائر: استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم بغير حق». وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه «أكبر الكبائر: الشرك بالله. والأمر من مكر الله. والتمنوط من رحمة الله. واليأس من روح الله».

قال سعيد بن جبير: سألت رجل ابن عباس عن الكبائر «أسعج هن؟ قال: هن إلى السبعمئة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار» وقال «كل شيء عُصِيَ الله به فهو كبيرة. من عمل شيئاً منها فليستغفر الله. فإن الله لا يخلد في النار من الأمة إلا من كان راجعاً عن الإسلام، أو جاحداً فريضة، أو مكذباً بالقدر».

وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه «مانهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله (٣١:٤) إن تحتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) فهو كبيرة» وقال علي بن أبي طلحة: هي كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب أولئته، أو عذاب.

وقال الضحاك: هي ما أوعده الله عليه حداً في الدنيا، أو عذاباً في الآخرة. وقال الحسين بن الفضل: ما سماه الله في القرآن كبيراً، أو عظيماً. نحو قوله (٣:٤) إنه كان خوباً كبيراً) (٣١:١٧) إن قتلهم كان خطئاً كبيراً) (١٣:٣١) إن الشرك لظلم عظيم) (٢٨:١٢) إن كيدك عظيم) (١٦:٢٤) سبحانك! هذا بهتان عظيم) (٥٣:١٢) إن ذلكم كان عند الله عظيماً).

وقال مالك بن ميمون: الكبائر ذنوب أهل البدع، والسيئات ذنوب أهل السنة. قلت: يريد أن البدعة من الكبائر، وأنها أكبر من كبائر أهل السنة. فكبائر أهل السنة صفائر بالنسبة إلى البدع. وهذا معنى قول بعض السلف: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية. لأن البدعة لا يتاب منها. والمعصية يتاب منها.

وقالت فرقة: الصفائر مادون الحدين، والكبائر: ماتعلق بها أحد الحدين. ومرادهم بالحدين: عقوبة الدنيا والآخرة. فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة في الدنيا، كالزنا وشرب الخمر. والسرقة والقتل. أو عليه وعيد في الآخرة، كأكمل مال اليتيم، والشرب في آنية الفضة والذهب، وقتل الإنسان نفسه، وخيانتة أمانته، ونحو ذلك. فهو من الكبائر. وصدق ابن عباس رضى الله عنهما في قوله «هي إلى السبعمئة أقرب منها إلى السبع».

● حسنات المسيح تشفع له

وههنا أمرين ينبغي التفطن له، وهوان «الكبيرة» قد يقترن بها — من الحياء والخوف،

والاستعظام لها — ما يلحقها بالصفائر. وقد يقتزن بالصغيرة — من قلة الحياء ، وعدم المبالاة ، وترك الخوف ، والاستهانة بها — ما يلحقها بالكثائر . بل يجعلها في أعلى رتبتها .

وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب . وهو قدر زائد على مجرد الفعل . والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره .

وأيضاً فإنه يُعَفَّى للمحب ، ولصاحب الإحسان العظيم ، ما لا يعفى لغيره ، ويسامح بما لا يسامح به غيره .

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول : انظر إلى موسى — صلوات الله وسلامه عليه — رمى الأنواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها ، وجَرَّ بلحية نبيٍّ مثله ، وهو هارون ، ولطم عين ملك الموت ففقاها ، وعاتب ربه ليلة الإسراء في محمد صلى الله عليه وسلم ورَفَّعه عليه ، ورَبَّه تعالى يحتمل له ذلك كله ، ويحبه ويكرمه ، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدى عدوله ، وصدع بأمره ، وعالج أُمْتَى القَيْطِ وبنى إسرائيل أشد المعالجة . فكانت هذه الأمور كالشجرة في البحر .

وانظر إلى يونس بن مَتَّى حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسى ، غاضبَ ربه مرة . فأخذه وتَجَنَّه في بطن الحوت . ولم يحتمل له ما احتمل لموسى . وفرق بين مَن إذا أتى بذنب واحد ، ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له ، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع . كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله . وتذَكُّر به إذا وقع في الشدائد . قال تعالى عن ذى النون (١٤٣:٣٨) ، ١٤٤ فلولا أنه كان من المسبحين . لَلَبِثَ فِي بطنه إلى يوم يبعثون . وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال (٩٠:١٠) أَتُنتَ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) قال له جبريل (الآن وقد عصيت قبلُ ، وكنت من المفسدين ؟) .

ولهذا من رجعت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب ، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته . ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد ما لا يغفر لصاحب الإشراك . لأنه قد قام به بما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له . ويسامحه ما لا يسامح به المشرك . وكلما كان توحيد العبد أعظم . كانت مغفرة الله له أتم . فمن لقيه لا يشرك به شيئاً ألَبَّتْه غفر له ذنوبه كلها ، كائنة ما كانت . ولم يعذب بها .

ولسنا نقول : إنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد . بل كثير منهم يدخل بذنوبه . ويعذب على مقدار جرمه . ثم يخرج منها . ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علماً بما قعناهُ .
وتزينا ههنا أيضاً لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه .

اعلم أن اشعة «لا إله إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيوبها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه. فلها نور. وتفاوت أهلها في ذلك النور — قوة، وضعفاً — لا يصحبه إلا الله تعالى. فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس. ومنهم: من نورها في قلبه كالكوكب الدري. ومنهم: من نورها في قلبه كالمشعل العظيم. وآخر: كالسراج المضيء. وآخر كالسراج الضعيف. ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم، وبين أيديهم، على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة، علماً وعملاً، ومعرفة وحالا. وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد: أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدة. وحتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة، ولا ذنباً، إلا أحرقه. وهذا حال الصادق في توحيد. الذي لم يشرك بالله شيئاً. فأى ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها. فسماء إيمانه قد حُرست بالنجوم من كل سارق لحسناته. فلا ينال منها السارق إلا على غيرة وغفلة لا بد منها للبشر. فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه. أو حصل أعفاهه بكسبه. فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس. ليس كمن فتح لهم خزائنه، وتولى الباب فظهره.

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه. كما كان عبّاد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون. بل التوحيد يتضمن — من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع، والعطاء، والحب، والبغض — ما يحوّل بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي، والإصرار عليها. ومن عرف هذا عرف قول النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله) وقوله «لا يدخل النار من قال: لا إله إلا الله» وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظننها بعضهم منسوخة. وظنّها بعضهم قبلت قبل ورود الأمر والنواهي، واستقرار الشرع.

والشارع — صلوات الله وسلامه عليه — لم يجعل ذلك حاصلًا بمجرد قول اللسان فقط. فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام. فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم. وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار. فلا بد من قول القلب، وقول اللسان. وقول القلب: يتضمن من معرفتها، والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ماتضمنته — من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلمية المنفية عن غير الله، المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى

بالقلب : علماً ومعرفة و يقيناً ، وحالاً — : ما يوجب تحريم قائلها على النار. وكل قول رتب الشارح مارتب عليه من الثواب، فإنما هو القول التام. كقوله صلى الله عليه وسلم «من قال في يوم : سبحان الله وبحمده مائة مرة، حُطَّتْ عنه خطاياه — أو غُفِرَتْ ذنوبه — ولو كانت مثل رَبيد البحر» وليس هذا مرتباً على مجرد قول اللسان.

نعم من قالها بلسانه، عافلاً عن معناها، معرضاً عن تدبرها، ولم يواطىء قلبه لسانه. ولا عرف قدرها وحقيقتها. راجياً مع ذلك ثوابها. حَطَّتْ من خطاياه بحسب ما في قلبه. فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها. وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب. فتكون صورة العمل واحدة. وبينهما في التفاضل كما بين السماء والارض. والرحلان يكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السباق عن السير الى القرية. وحملته — وهو في تلك الحال — على أن جعل ينوء بصدره. و يعالج سكرات الموت. فهذا أمر آخر، وإيمان آخر. ولا جرم أن ألحق بالقرية الصالحة. وشغل من أهلها.

وقريب من هذا: ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب — وقد اشتد به العطش يأكل الشرى — فقام بقلبها ذلك الوقت — مع عدم الآلة، وعدم المعين وعدم من ترائيه بعملها — ماحملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر، وملء الماء في حُفِّها، ولم تعباً بتعرضها للتلف . وحملها خنها بغيها. وهو ملآن، حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمكنست له الحنف بيدها حتى شرب. من غير أن ترجومته جزاء ولا شكوراً. فأحرقت أوار هذا القدر من التوحيد ماتقدم منها من البقاء، ففقر لها.

فهكذا الأعمال والعمال عند الله . والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي ، الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطر من نحاس الأعمال قلها ذهاً. والله المستعان.

● علو المنزلة يوجب زيادة الانتباه

فإن قيل : قد ذكرتم: أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره. و يعفى للولي عما لا يعفى لسواه.

فهذا الذي ذكرتم صحيح. وهو مقتضى الحكمة والجلود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره؟ كقوله تعالى (٣٠:٣٣) يانسأ النسي، من يأت منكناً بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين)

وقوله تعالى (٧٣: ١٧)، ٧٤ ولولا أن ثبتناك لقد كذبت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات. ثم لا نعهد لك علينا نصيراً) أي لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشيء. ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات. أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة. وقال تعالى (٦٩: ٤٤ - ٤٦) ولوقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين) أي لو أنى بشيء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه. وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه. وقد أعاده الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه. ومن التقل عليه سبحانه. وكم من راكن إلى أعدائه ومتقل عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعأ به. كأرباب البدع كلهم، المتقلين على أسمائهم وصفاتهم ودينه.

وما ذكرتم في قصة يونس: هو من هذا الباب. فإنه لم يسمع بفضيلة. وسجن لأجلها في بطن الحوت. ويكفي حال أبي البشر حيث لم يسمع بلقمة. وكانت سبب إخراجه من الجنة. فالجواب: أن هذا أيضاً حق. ولا تنافي بين الأمرين. فإن من كملت عليه نعمة الله.

واختصه منها بما لم يختص به غيره: في إعطائه منها ما حرمه غيره. فحُيى بالإنعام، وخص بالإكرام، وخص بمزيد التقريب. وجعل في منزلة الول الحبيب، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاحتصاص: بأن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع، فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتخاذ نفسه، واصطفائه على غيره. تكون حقوق وليه وسيد، عليه أتم. ونعمه عليه أكمل. والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره. فهو إذا غفل وأخل بمقتضى مرتبته نُبِه بما لم ينه عليه البعيد الرائي، مع كونه يسمع بما لم يسمع به ذلك أيضاً، فيجتمع في حق الأمران.

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى في الشرع، حيث جعل حد من أنعم عليه بالتزوج إذا تعداه إلى الرنا: الرجم، وحد من لم يعطه هذه النعمة الجلد.

فسبحان من بهرت حكمته في خلقه وأمره وجزائه عقول العالمين، وشهدت بأنه أحكم الحاكمين.

فأخو البصائر غائص يتملق

لله سر تحت كل لطيفة

اجتناب المحرمات

ولا يستحق العبد اسم «الثائب» حتى يتخلص من جميع اجتناس المحرمات. وهي اثنا عشر جنساً مذكورة في كتاب الله عز وجل: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، واللاتم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا علم، وإتباع غير سبيل المؤمنين. فهذه الإثنا عشر جنساً عليها مدار كل ما حرم الله. وإليها انتهاء العالم بأسره إلا أتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وقد يكون في الرجل أكثرها وأقلها، أو واحدة منها. وقد يعلم ذلك. وقد لا يعلم. فالتوبة النصوح: هي بالتخلص منها، والتحصن والتحرز من موانعها. وإفنا يمكن التخلص منها لمن عرفها. ونحذركم، ونذكركم ما اجتمعت فيه وما افرقت. لتبين حدودها وحققاتها. والله الموفق لما وراء ذلك، كما وفق له. ولا حول ولا قوة إلا بالله. وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب. والعبد أحوج شيء إليه.

• كفر دون كفر

فأما «الكفر» فنوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر. فالكفر الأكبر: هو الموجب للخلود في النار. والأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود. كما في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث «اثنان في أمتي، هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة» وقوله «من أتى كاهناً أو عرافاً، فصدقه بما يقول. فقد كفر بما أنزل الله على محمد» وقوله «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة في قوله تعالى (٤: ٥) ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون قال ابن عباس «ليس بكفر ينقل عن الملة. بل إذا فعله فهو به كفر. وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر» وكذلك قال طاووس. وقال عطاء «هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وسق دون فسق». ومنهم: من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحداً له. وهو قول عكرمة. وهو تأويل مرجوح. فإن نفس حدوده كفر، سواء حكم أو لم يحكم.

ومنهم: من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله. قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتحديد والإسلام. وهذا تأويل عبد العزيز الكناي. وهو أيضاً بعيد. إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعة وبيعه.

ومنهم: من تأولها على الحكم بمخالفة النص، تعمداً من غير جهل به ولا خطأ في التأويل. حكاها البغوي عن العلماء عموماً.

ومنهم: من تأولها على أهل الكتاب. وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما. وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ. فلا يصار إليه.

ومنهم: من جعله كفراً ينقل عن الملة.

والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم. فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة. فهذا كفر أصغر. وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه غير فيه. مع تيقنه أنه حكم الله. فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه: فهذا عطىء، له حكم المخطين. والقصد: أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر. فإياها ضد الشكر، الذي هو العمل بالطاعة.

وأما الكفر الأكبر، فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق. وكفر إعراس. وكفر شرك. وكفر ففاق.

فأما كفر التكذيب: فهو اعتقاد كذب الرسل. وهذا القسم قليل في الكفار. فإن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة. وأزال به المعة. قال الله تعالى عن فرعون وقومه (٢٧: ١٤) وجحدوا بها واستفتتها أنفسهم ظلماً وعلواً وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (٦: ٣٣) فإنهم لا يكذبونك. ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون).

وإن سُمي هذا كفر تكذيب أيضاً فصحيح. إذ هو تكذيب باللسان.

وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس. فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنيكار. وإما تلقاء الإباء والاستكبار: ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول. وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم يثق له إباء واستكباراً. وهو الغالب على كفر أعداء الرسل، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه (٢٣: ٤٧) أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدين؟ وقال الأمم لرسلم (١٤: ١٠) إن أنتم إلا بشر مثلنا) وقوله (٩١: ١١) كذبت ثمود بطغواها) وهو كفر اليهود كما قال تعالى (٢: ٨٩) فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به) وقال (٢: ١٤٦) يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) وهو كفر أبي طالب أيضاً. فإنه صدقه ولم يشك في صدقه. ولكن أخذته

الحسية، وتعظيم ابائه ان يرغب عن ملتهم، ويشهد عليهم بالكفر .
 - وأما كفر الإعراض : فإن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول، لا يصدقه ولا يكذبه. ولا يواليه
 ولا يعاديه. ولا يصنى إلى ما نجاه به ألبته، كما قال أحد بنى عبد ياليل للنبي صلى الله عليه
 وسلم «والله أقول لك كلمة. إن كنت صادقا، فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك. وإن
 كنت كاذبا، فأنت أحقر من أن أكلك».

وهو كفر الملحدين اليوم من المنسمن بأسماء إسلامية، المقلدين للأفزع من اليهود والنصارى الملحدين
 عن كل خلق وفضيلة، راعين بجاهليتهم وسفههم: أن هذا هوسيل الرقى والمدنية.

وأما كفر الشك: فإنه لا يجزم بصدقه ولا يكذبه، بل يشك في أمره. وهذا لا يستمر شك إلا
 إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم جملة. فلا يسمعها
 ولا يلتفت إليها. وأما مع التفتاته إليها، وتظهر فيها: فإنه لا يبقى معه شك. لأنها مستلزمة
 للصدق. ولا سيما بمجموعها. فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

وأما كفر التفات: فهو أن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوي بقلبه على التكذيب. فهذا هو
 التفات الأكبر. وسيأتي بيان أقسامه إن شاء الله تعالى.

وكفر الجحود نوعان: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص.

فالطلق: أن يجحد جملة ما أنزله الله، وإرساله الرسول.

والخاص المقيد: أن يجحد فرضا من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفة
 وصف الله بها نفسه، أو خبراً أخبر الله به. عمداً، أو تقديماً لقول من خالفه عليه لغرض من
 الأغراض.

وأما جحد ذلك جهلاً، أو تأوياً لا يُعذر فيه صاحبه: فلا يكفر صاحبه به، كحديث الذي
 جحد قدرة الله عليه. وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح. ومع هذا فقد غفر الله له، ورحمه
 لجهله. إذ كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه. ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادا أو تكديبا،
 والقصة مروية في صحيح البخاري وغيره.

● والشرك شركان أيضا

وأما الشرك، فهو نوعان: أكبر وأصغر. فالأكبر: لا يفره الله إلا بالتوبة منه. وهو أن يتخذ
 من دون الله نداً، يحبه كما يحب الله. وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب
 العالمين. ولهذا قالوا لآلهتهم في النار (٢٦: ٩٧، ٩٨) قاله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ
 نسويكم برب العالمين) مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء، وربّه ومليكه، وأن آلهتهم

لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت. وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم. يحبون معبوداتهم ويظلمونها ويؤاخذونها من دون الله. وكثير منهم — بل أكثرهم — يحبون الهتهم أعظم من محبة الله. ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده. و يفضبون لمتنقص معبوديهم وأهنتهم — من المشايخ — أعظم مما يفضبون إذا انتقص أحد رب العالمين. وإذا انتهكت حرمة من حرمت آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضب الليث إذا حُرِد. وإذا انتهكت حرمت الله لم يفضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئاً رضوا عنه. ولم تنتكر له قلوبهم. وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جبهة. وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده من دون الله على لسانه دَيْئلاً له إن قام وإن قعد. وإن عثر وإن مرض وإن استوحش. فذكر إلهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه. وهو لا ينكر ذلك. ويزعم أنه باب حاجته إلى الله، وشفيحه عنده. ووسيلته إليه.

وهكذا كان عباد الأصنام سواء. وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم. فأولئك كانت آلهتهم من الحجر وغيرهم اتخذوها من البشر. قال الله تعالى، حاكياً عن أسلاف هؤلاء المشركين (٣:٣٩) والذين اتخذوا من دونه أولياء: ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى. إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون) ثم شهد عليهم بالكفر والكذب. وأخبر: أنه لا يهديهم فقال (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفان). فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً، يزعم أنه يقربه إلى الله. وما أعز من يخلص من هذا؟ بل ما أعز من لا يعادي من أنكره!

والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم: أن آلهتهم تشفع لهم عند الله. وهذا عين الشرك. وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله. وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه. ورضى قوله وعمله. وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء. فإنه سبحانه يأذن لمن شاء في الشفاعة لهم، حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه. فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له: صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعاً من دون الله ربه ومولاه.

و «الشفاعة» التي أثبتها الله ورسوله: هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وَحَّده. والتي نفاها الله: هي الشفاعة الشركية، التي في قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء. فيعاقلون بنقص قصدهم من شفعاتهم. ويفوز بها الموحدون.

وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة — وقد سأله «من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟» — قال «أسعد الناس بشفاعتي: من قال لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه» كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس

معانيد المشركين: أن الشفاعة تنال بانقاذهم أوليائهم شفعاء، وعبادتهم وموالائهم من دون الله. فقلّب النبي صلى الله عليه وسلم ماني زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة: هو تجريد التوحيد. فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع.

ومن تجهل المشرك: اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً: أنه يشفع له، وينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم. ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله. كما قال تعالى في الفصل الأول (٢: ٢٥٥) من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟ وفي الفصل الثاني (٢١: ٢٨) ولا يشفعون إلا لمن ارتضى. وبقى فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد، واتباع الرسول. وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين. كما قال أبو العالية «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟».

فهذه ثلاثة أصول. تقطع شجرة الشرك من قلب من وعها وعقلها: لاشفاعة إلا بإذنه. ولا يأذن إلا لمن رضى قوله وعمله. ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيد، واتباع رسوله. قاله تعالى: لا ينفع شرك العادلين به غيره، كما قال تعالى (٦: ١) ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وأصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة والموالة والمحبة، كما في الآية الأخرى (٢٦: ٩٨، ٩٧) تالله إن كنا لفي هلال مبین * إذ نسويكم برب العالمين) وكما في آية البقرة (٢: ١٦٥) ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله).

وترى المشرك يكذب حاله وعمله قوله، فإنه يقول: لانحبهم كحب الله، ولا نسويهم بالله. ثم يغضب لهم ولحرماتهم — إذا انتهكت — أعظم مما يغضب لله، ويستبشرون بكرهم، ويتبشش به. سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم: من إغاة اللغات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهم الباب بين الله وبين عباده. فإنك ترى المشرك يفرح ويترقّ ويجنّ قلبه، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالة، وإذا ذكرت له الله وحده، وتبرّدت توحيدة لحقه وحشته، وضيق وحرّج ورماك بنقص الإلهية التي له. وربما عاداك.

رأينا والله منهم هذا عياناً، ورمونا بمدادوتهم. وبغوا لنا الغوائل. والله يخزيهم في الدنيا والآخرة. ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا، كما قال إخوانهم: عاب آهتنا، فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلى الله. وهكذا قال النصارى للنبي صلى الله عليه وسلم، لما قال لهم «إن المسيح عبد الله» قالوا: تنقصت المسيح وعبثته. وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثاناً تعبد، وأمر بزيارتها على الوجه الذي أذن الله فيه ورسوله، قالوا: تنقصت أصحابها..! وما ذلك بغريب، فقد قال الله تعالى (٣٩: ٤٥) وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) والشرك الجديد هو بعينه القديم.

ومشأ هذا جميعه: التكذيب بيوم الدين، وأنه ليس على ما وصف الله العليم الحكيم، من الجزاء العادل، ووزن الأعمال بالقياس. وإفاهو — كما زعموا — بالأغراض والشفاعات التي لا يقدر الله — بزعمهم — على دفعها. وليست هذه هي الآخرة التي وصفها الله، وحذر عباده مواقفها. والمشركون — قديماً وحديثاً — يعتقدون أن أولياءهم فيهم شيء من خصائص الرب. ولذلك فهم ينادونهم، وقد ماتوا ودفنوا. ويزعمون أنهم أحياء ليست حياة قبور وسؤال فيها، ولكن من جنس حياة الرب — سبحانه — يقدرون بها وفيها على ما لا يقدر عليه البشر الأحياء، فضلاً عن الموتى. فلما جاءت الرسل يقولون لهم: إنهم بشر ماتوا. قالوا لهم: أستم تسبون آلهتنا وتنتقمونها.

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم، حتى كأنهم قد تواصلوا به (١٨: ١٧) ومن يهدي الله فهو المهتد. ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً).

وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعاً، قطعاً يعلم من تأمله وعرفه: أن من اتخذ من دون الله ولياً، أو شفعياً. فهو (٢٩: ٤١) كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً. وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) فقال تعالى (٣٤: ٢٢: ٢٣) قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله. لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وما لهم فيها من شيء، وما له منهم من ظهير. ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له).

فالمشرك إنما يتخذ مغبوه لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه. فإن لم يكن مالكا كان شريكاً للمالك. فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفعياً عنده. فنفسى سبحانه المراتب الأربع نفعياً مترتبات، منتقلة من الأعلى إلى مادونه، فنفسى اليلك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نوراً، وبرهاناً ونجاة، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومتوآذ لم عقّلها. والقرآن مملوء من أمثالها وظواهرها. ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له. ويطنون في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يقبوا وأثاره. وهذا هو الذي نجول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد حلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم. وتناول القرآن لهم كتاباً له لا ولك. ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ((إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الحاهلية)).

وهذا لأنه إذا لم يعرف الحاهلية والشركة وما عان القرآن وذمه: وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوّره وحسنه. وهو لا يعرف: أنه هو الذي كان عليه أهل الحاهلية، أو نظيره، أو سمره، أو

ونه. فيستغنى بذلك جرى الإسلام عن قلبه. ويعود المعروف منكراً، والمنكر معروفًا، والبدعة سنة، والسنة بدعة. ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد. ويُدْعَى بتجريد متابعة لرسول صلى الله عليه وسلم ومعارضة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حتى يرى ذلك عياناً، والله المستعان.

● إحصاء النفاق الأصغر

وأما الشرك الأصغر: فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، وإخلف بغير الله، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من خلف بغير الله فقد أشرك» وإنما كان الخلف بغير الله شركاً. لأن حقيقة اليمين ومقتضاها: أن الخالف يؤكد صدق غيره بأنه لو كان كاذباً ينتقم منه المحلوف به انتقاماً لا يقدر هو— ولا أحد من البشر— أن يدفعه. لأن المحلوف به يقدر أن يوصل انتقامه ويطشه من طريق فوق قدرة البشر وطاقتهم. وهذا لا يكون إلا لله القوى التين ذي البطش الشديد. العال كما يريد.

ومثله قول الرجل للرجل «ما شاء الله وشئت» و«هذا من الله ومنك» و«أنا والله وبلك» و«مالى إلا الله وأنت» و«أنا متوكل على الله وعليك» و«لولا أنت لم يكن كذا وكذا» وقد يكون هذا شركاً أكبر، بحسب قائله ومقصده. وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل قال له «ما شاء الله وشئت»: «أجعلتني لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده» وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ.

ومن أنواعه: التوبة للشيخ. فإنها شرك عظيم. فإن التوبة لا تكون إلا لله. كالصلاة، والصيام، والحج، والنسك. فهي خالص حق الله.

وفي المسند: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أثني بأسير فقال: اللهم إني أتوب إليك. ولا أتوب إلى محمد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عرف الحق لأهله».

فالتوبة عادة لا تنبئ إلا لله. كالسجود والصيام.

ومن أنواعه: النذر لغير الله. فإنه شرك. وهو أعظم من الخلف بغير الله. فإذا كان «من خلف بغير الله فقد أشرك» فكيف بمن نذر لغير الله؟ مع أن في السنن من حديث عقبة بن عامر عنه صلى الله عليه وسلم «النذر حيلة».

ومن أنواعه: الخوف من غير الله، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع، والذل لغير الله. واستقاء الرزق من عند غيره، وحمد غيره على ما أعطى. والغشية بذلك عن حده سبحانه، والذم والسخط على ما لم يقسمه، ولم يجز به القدر، وإضافة نعمه إلى غيره، واعتقاد أن يكون في الكون مالا يشاؤه.

ومن أنواعه: طلب الخواتيم من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم.
وهذا أصل شرك العالم. فإن الميت قد انقطع عمله. وهو لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، فضلاً
عن استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها. وهذا من جهله
بالشافع والشفوع له عنده، كما تقدم. فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه. والله لم يجعل
استغاثته وسأله سبباً لإذنه. وإنما السبب لإذنه: كمال التوحيد. فبجاء هذا الشرك بسبب يمنع
الإذن. وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها. وهذه حالة كل مشرك. والميت محتاج
إلى من يدعو له، و يترحم عليه، ويستغفر له، كما أوصانا النبي صلى الله عليه وسلم، إذا زرنا
قبور المسلمين «أن نترحم عليهم. ونسأل لهم العافية والمغفرة».

وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله. وعادى المشركين في الله.
وتقرب بمقتهم إلى الله. واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده. فجرد حبه لله. وخوفه لله. ورجاه
لله. وذله لله، وتوكله على الله، واستعانه بالله. والتجاء إلى الله، واستغاثته بالله. وأخلص
قصده لله، متجعباً لأمره، متطلباً لمرضاته. إذا سأل سأل الله. وإذا استعان استعان بالله، وإذا
عمل عمل لله. فهو لله. وبالله. ومع الله.

والشرك أنواع كثيرة. لا يحصيها إلا الله.
ولودهبنا نذكر أنواعه لا نضع الكلام أعظم اتساع.

• داء النفاق

وأما النفاق: فالداء المضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتكناً منه، وهو لا يشعر. فإنه أمر
خفى على الناس. وكثيراً ما يخفى على من تلبس به. فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.
وهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل. وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله
وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به. لا يؤمن
بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جملة رسولا للناس، يهديهم بإذنه. وينذرهم بأسه، ويخونهم
عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين. وكشف أسرارهم في القرآن. وجلى لعباده أمورهم.
ليكونوا منها ومن أهلها على حذر. وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين،
والكفار، والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات. وفي الكفار آيتين. وفي المنافقين ثلاث عشرة
آية. لكشرتهم وعموم الابتلاء بهم. وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله. فإن بلية الإسلام بهم

شديدة جدا. لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته، وموالاته، وهم أعداء في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه عِلْم وإصلاح. وهو غاية الجبل والإفساد.

قله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟ وكم من جيش له قد قتلوا أسامه وخبروه؟ وكم من عِلْم له قد طمسوه؟ وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟ وكم ضربوا بمحاول الشبه في أصول غراسه ليقلموها؟ وكم غموا حين موارد بآرائهم ليدفنوها و يقطعوها؟

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في حنة وبلية. ولا يزال يطرحه من شُبُههم سرية بعد سرية. ويزعمون أنهم بذلك مصلحون (٢: ١٧) ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) • (٦١: ٨ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله عليم بنوره ولو كره الكافرون).

• قبائح الشخصية النفاقية

اتفقوا على مقارعة الوحي. فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون (٢٣: ٥٣) وقطعوا أمرهم ببيتهم زُبراً. كل حزب بما لديهم فرحون) • (٦: ١١٢ يؤمى بعضهم إلى بعض زُخرف القول غروراً) ولأجل ذلك (٢٥: ٣٠ اتخذوا هذا القرآن مهجوراً).

دَرسَت معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يفرقونها. ودثرت معاهده عندهم فليسوا يصبرونها، وأقَلَّت كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يميزونها. وكُتِفَت شمس عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يصبرونها. لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله. ولم يرفضوا به رأساً. ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأساً. خلصوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة. وعزلوها عن ولاية اليقين. وشَتَّوا عليها غارات التأويلات الباطلة، وقالوا: ما لنا ولظواهر لفظية لا تنفيذنا شيئاً من اليقين؟ حسبنا ما وجدنا عليه خَلَفْنَا من المتأخرين. فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين. وأولئك غلبت عليهم السذاجة وصلامة الصدور. ولم يفرغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا هميتهم إلى فعل المأمور وترك المحظور. فطريقة المتأخرين: أعلم وأحكم. وطريقة السلف الماضين: أجهل، لكنها أسلم.

قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها. وغلبت القصد السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها. فسادهم قد تراسى إلى الهلاك، فجزعته الأطباء العارفون (٧: ١٠ في قلوبهم مرض. فزادهم الله مرضاً وهم هذاب أليم بما كانوا يكذبون)

أسماع قلوبهم قد أثقلتها الوتر. فهي لا تسمع منادى الإيمان. وحين بصائرهم عليها غشاوة العمى. فهي لا تبصر حقائق القرآن. وألستهم بها خرس عن الحق فهم به لا ينطقون (٧: ١٨ صُمُّ بَكْمٌ غُفِيَّيْهِمْ فهم لا يرجعون)

هم علامات يُترقون بها مبنية في السنة والقرآن. بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان. قام بهم - والله - الرياء. وهو أقيع مقام قامه الإنسان وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن. فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقبلاً (٤: ١٤٣) وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا محتالي. يراءون الناس. ولا يذكر الله إلا قليلاً.

أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، تبتغى إلى هذه مرة وإلى هذه مرة. ولا تستقر مع إحدى الغنمين. فهم واقفون بين الجمعين. ينظرون إليهم أقوى وأعز قبيلًا (٤: ١٤٣) فذبذب بين ذلك. لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء. ومن يضل الله قلن تجد له سبيلًا.

يتربصون الدوافر بأهل السنة والقرآن. فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم. وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإحاء بيننا محكم. وأن النسب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين. فلا تحتاج بعده دليلًا (٤: ١٤١) الذين يتربصون بكم. فإن كان لكم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وإن كان للكافرين نصيب، قالوا: ألم نستحوذ عليكم ونعصمكم من المؤمنين؟ فالله يحكم بينكم يوم القيامة. ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا.

يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه: ويشهد الله على ما في قلبه من كذبه وثيقته. فتراه عند الحق نائمًا. وفي الباطل على الأقدام. فخذ وصفهم من قول القدوس السلام (٢: ٢٠٤) ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه. وهو الكاذب (الخصام).

أوامرهم التي يأمرهم بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد، ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد. وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد (٢: ٢٠٥) وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل. والله لا يحب الفساد.

إن حاكمتهم إلى ضريح الوحي وحدتهم عنه باهرين. وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم رأيتهم عنه معرضين. فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدى أمدًا بعيدًا. ورأيتها معرضة عن الوحي إعراضًا شديدًا (٤: ٦١) وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودًا.

تسبق تخمين أحدهم كلامه من غير أن يعترض عليه. لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمن إليه. فيستبشرون بيمينته من سوء العنن به وكشف ماله. وكذلك أهل الرية يكذبون. ويخلفون ليحسب السامع أنهم صادقون، قد (٦٣: ٢) اتخذوا أيمانهم جنة. فصودوا عن سبيل الله.

إنهم ساء ما كانوا يعملون).

تَبَّأْهُمْ! برزوا إلى البيداء مع ركب الإيمان. فلما رأوا طول الطريق وتبدد الشقة تكصوا على أعقابهم ورجعوا، وظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش ولذة المنام في ديارهم. فما مثعبوا به ولا بتلك المهجعة انتفعوا. فكيف حالهم عند اللقاء؟ وقد عرفوا ثم أنكروا. وضعا بعد ما عاينوا الحق وأبصروا (٦٣: ٣) ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا. فطُلبَ على قلوبهم. فهم لا يفقهون). أحسن الناس أجساماً، وأخْلِبهم لساناً. والطفهم بياناً. وأخْبِثهم قلوباً. وأضعفهم جناناً. فهم كالخشب المسندة التي لا ثمر لها. قد قُلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها، لئلا يبطأها السالكون (٦٣: ٤) وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم. وإن يقولوا تسمع لقولهم. كأنهم خُشْبٌ مُسْتَدَّة. يحسبون كل صبيحة عليهم. هم العدو. فاحذرهم! قاتلهم الله. آتَى يَوْفُكُونُ؟).

يُخْرُونَ الصلاة عن وقتها الأول، فالصبح عند طلوع الشمس والعصر عند الغروب. و يتقرونها فقر الغراب. إذ هي صلاة الأبدان، لا صلاة القلوب. ويلغنون فيها التفات القلب، إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب. ولا يشهدون الجماعة، بل إن صلى أحدهم ففى البيت أو الدكان. إن أصاب أهل الكتاب والسنة عاقية ونصر وظهور ساءهم ذلك وعَثْمهم. وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يحصن به ذنوبهم، ويكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم (٣: ١٢٠) إن تمسكتم حسنة تسوهم. وإن تصبكم سيئة ففرحوا بها).

كره الله طاعاتهم، لحبب قلوبهم وفساد نياتهم. فثبَّطهم عنها وأمدهم. وأبعض قُرْبهم منه وجوار، لميلهم إلى أعدائه. فطردهم عنه وأبعدهم. وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم. وأشقامهم وما أسعدهم. وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم في الملاح بعده، إلا أن يكونوا من الثائنين. فقال تعالى (٩: ٤٦) ولو أرادوا الخروج لأعدوا له هُدًى. ولكن كره الله انبعاثهم. فثبَّطهم. وقيل: أقعدوا مع القاعدين) ثم ذكر حكته في تثبيتهم وإقعادهم، وطردهم عن بيانه وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم. فقال، وهو أحكم الحاكمين (٩: ٤٧) لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً. ولأوضعوا خلالكم. يَبْغُواكم الفتنة. وفيكم سَعَاوُونَ لهم. والله عليم بالظالمين).

ثقلت عليهم النصوص فكهروها. وأعياهم حملها فالتقوا عن أكتانهم ووضعوها. وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهلوها. وصالت عليهم نصوص الكتاب والسنة فوضعوها قوانين ردوها بها ودفعوها. ولقد هتك الله أستارهم. وكشف أسرارهم، وضرب لمعاده أمثالهم. وأعلم أنه كلما انقضى منهم طوائف خلفهم أمثالهم. فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر. وبينها لهم. فقال (٤٧: ٩) ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم).

أسرّوا سرائر النفاق. فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم، وقلّلت اللسان. ووسّهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان. وظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصياف والنقاد. كيف؟ والناقد البصير قد كشفها لكم (٢٩: ٣٠، أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم؟ ولو نشاء لأريناكم. فلعرفتهم بسيماهم * ولتعرفنهم في لحن القول. والله يعلم أعمالكم). فكيف إذا جُمعوا ليوم التلاقي، وتعلّى الله — جلّ جلاله — للعباد وقد تخشع عن ساق؟ ودُعوا إلى السجود فلا يستطيعون (٦٨: ٤٣) خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة. وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالون).

أم كيف بهم إذا حُشروا إلى جسر جهنم؟ وهو أدق من الشرة، وأخذ من الحسام. وهو دَحْض مزكّة، مُظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواعظ الأقدام. فَشُمّت بين الناس الأنوار. وهم على قدر تفاوتها في المرور والذهاب. وأخطوا نوراً ظاهراً مع أهل الإسلام. كما كانوا بينهم في هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام. فلما توسلوا الجسر قصفت على أنوارهم أهوية السفاق. فاطفأت ما بأيديهم من المصابيح. فوقفوا حيارى لا يستطيعون المرور. فُضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب. ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح، باطنه — الذى يلى المؤمنين — فيه الرحمة، وما يليهم من قتلهم العذاب والنقمة. ينادون من تقدمهم من وفد الإيمان، ومشاعل الركب تلوح على بعد كالنجوم. تبتدو لناظر الإنسان (٥٧: ١٣) انظرونا نفقّيس من نوركم) لتتمكن في هذا المضيق من العبور. فقد اطلعت أنوارنا. ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور (قيل: ارجعوا وراءكم. فالتمسوا نوراً) حيث قسمت الأنوار. فهيهات الوقوف لأحد في مثل هذا المضمار! كيف نلتبس الوقوف في هذا المضيق؟ فهل يلوى اليوم أحد على أحد في هذا الطريق؟ وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق؟ فذكروهم باجتماعهم معهم وصحبته لهم في هذه الدار. كما يذكّر الغريب صاحب الوطن بصحبته له في الأسفار (ألم تكن معكم؟) نصوم كما تصومون، ونصل كما تصلون. ونقرأ كما تقرأون. ونصدق كما تصدقون. ونحج كما تحجون؟ فما الذى فرق بيننا اليوم، حتى انفردتم دوننا بالمرور؟ (قالوا: بلى) ولكنكم كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل ملحد، وكل ظلم كفور (٥٧: ١٤: ١٥) ولكنكم فتنتم أنفسكم وترغضتم وارتبتم، وغرّكم الأمانى. حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور؟ فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا. مأواكم النار هي مولاكم. وبس المصير).

لا تستغل أوصاف القوم. فالمتروك — والله — أكثر من المذكور. كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم، لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور. فلا تخلّت بقاع الأرض منهم لئلا

يستوحش المؤمنون في الطرقات. وتتعطل بهم أسباب المعاش، وتحفظهم الوحوش والسياع في الغلوات. سمع حذيفة رضى الله عنه رجلاً يقول: اللهم أهلك المنافقين. فقال «يا ابن أختى، لو هلك المنافقون لاستوحشت من طرقاتكم من قلة السالك».

تأله لقد قُطِعَ خوف النفاق قلوب السابقين الأولين. لعلمهم بدقه وجهه وتفصيله وحمله. ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين. قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضى الله عنهما «يا حذيفة، نشدتك بالله، هل سمّاني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم؟ قال: لا. ولا أركى بعدك أحداً» وقال ابن أبي مليكة «ادركت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل» ذكره البخارى. وذكر عن الحسن البصرى «ما آمن إلا منافق. وما خافه إلا مؤمن» ولقد ذكر عن بعض الصحابة: أنه كان يقول في دعائه «اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق. قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى البدن خاشعاً والقلب ليس بخاشع».

تأله لقد ملئت قلوب القوم إيماناً و يقيناً، وخوفهم من النفاق شديد. وهتهم لذلك ثقل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم. وهم يدعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل. زرع النفاق ينبت على ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرياء. وغرجهما من عينين: عين ضعف البصرة، وعين ضعف العزة. فإذا تمت هذه الأركان الأربعة: استحکم نبات النفاق و بنيانه. ولكنه بمدارج السيول على شفا جُرْف هار. فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تُبلى السرائر، وكُشف المستور، وبشر ما في القبور، وحُطِل ما في الصدور. تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق: أن حواصله التي حَصَلْها كانت كالسراب (٣٩:٢٤) يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. ووجد الله عنده فوقاه حسابه، والله سريع الحساب).

قلوبهم عن الخيرات لاهية. وأجسادهم إليها ساعية. والفاحشة في فجاجهم فاشية. وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية. وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم، وكانت آذانهم واعية.

فهذه — والله — أسارات النفاق. فاحذروا أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية. إذا عاهدوا لم يفوا. وإن وعدوا أخلفوا. وإن قالوا لم ينصفوا. وإن دُعوا إلى الطاعة وقفوا. وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدّقوا. وإذا دعيتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا. فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان. والخرى والخسران. فلا تثق بعهودهم. ولا تطمئن إلى وعودهم. فإنهم فيها كاذبون. وهم لما سواها مخالفون (٧٧:٧٥-٧٧) ومنهم من عاهد الله: لئن آتانا من فضله، لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله

بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعده و بما كانوا يكذبون).

• انواع الفسوق

وأما الفسوق: فهو في كتاب الله بوعان: مفرد مطلق. ومقرون بالعصيان. والمفرد نوعان أيضاً: فسوق كفر، يخرج عن الإسلام. وفسوق لا يخرج عن الإسلام. فالمقرون كقوله تعالى (٧: ٤٩) وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ، وزينه في قلوبكم. وكرة إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون).
والمفرد - الذي هو فسوق كفر - كقوله تعالى (٢٧: ٢٦: ٢) يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً. وما يضل به إلا الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله - الآية) وقوله عز وجل (٢: ٩٩) ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفربها إلا الفاسقون) وقوله (٣٢: ٢٠) وأما الذين فسقوا فمأواهم النار. كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها - الآية) فهذا كله فسوق كفر.

وأما الفسوق، الذي لا يخرج عن الإسلام: فكقوله تعالى (٨٢: ٢) وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم - الآية) وقوله (٦: ٤٩) يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ - الآية) فإن هذه الآية أنزلت في الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق بعد الواقعة مُضْطَافاً. وكان بينه وبينهم عداوة في الحاهلية. فلما سمع القوم بمقدمه تلقَّوه، تعظيماً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فحذَّته الشيطان: أنهم يريدون قتله. فهاهم فرجع من الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم. وأرادوا قتلي. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهم أن يعزوه. فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله، فقالوا يا رسول الله سمعنا برسولك، فخرجنا نلتقاء ونكرم. وتؤدِّي إليه ما قبلنا من حق الله، فبدا له في الرجوع. فحشينا أنه إما رُدَّه من الطريق كتاب لُجاء منك لِيُغْضِبَ غَضْطَهُ عَلَيْنَا. وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبعث خالد ابن الوليد خفية في عسكر. وأمره أن يخفي عليهم قدومه. وقال له: انظر. فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار. ففعل ذلك خالد. ووافاهم. فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم. ولم ير منهم إلا الطاعة والخير. فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر. فنزل (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فَتَبَيَّنُوا - الآية).

و «النبا» هو الحسر الغائب عن المحتر إذا كان له شأن. و «التين» طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علما

وههنا فائدة لطيفة. وهى أنه سبحانه له يأمر برّد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة. وإنما أمر بالتين. فإن قامت قرائن وأدلة من حارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق. ولو أخبر به من أخبر. فهكذا ينبى الاعتماد فى روية الفاسق وشهادته وكثير من الفاسقين يصدقون فى أخسارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحرى. وفسقه من جهات آخر. فمثل هذا لا يرد حره ولا شهادته. ولوردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق. ويطل كثير من الأخيار الصحيحة. ولا سيما من فسقه من جهة الاعتقاد والرأى. وهو مُحْتَرَجٌ للصدق. فهذا لا يرد حيره ولا شهادته.

وأما من فسقه من جهة الكذب: فإن كثرة منه وتكرره بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقب خيره ولا شهادته. وإن ندرته مرة ومرتين. ففى رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء. وهم - وإيتان عن الإمام أحمد رحمه الله.

والمقصود: ذكر الفسوق الذى لا يخرج إلى حكم.

و فسوق الذى تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذى ترد به الرواية والشهادة. وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه. وهو قسمان: فسق من جهة العمل.. وفسق من جهة الاعتقاد

فسق العمل نوعان: مقرون بالعصيان ومفرد.

والمقرون بالعصيان: هو ارتكاب ما نهى الله عنه. والعصيان: هو عصيان أمره. كما قال الله تعالى (٦:٦٦) لا يعصون الله ما أمرهم وقال موسى لأخيه هرون عليهما السلام (٢٠): ٩٣. ٩٢ ما منعك إذ رأيتهم صلوا ألا تتبعى؟ أف عصيت أمرى؟ وقال الشاعر.

أمرتك أمراً حارماً. فعصيتى فأصبحت مسلوب الإمارة نادماً

فالمسوق أخص بارتكاب النهى، ومنه يطلق عليه كثيراً. كقوله تعالى (٢:٢٨٢) وإن تصعلوا فإياه فسوق بكم) والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم. ويطلق كل منهما على صاحبه كقوله تعالى (٢٠:٥٠) إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) مسمى مخالفته للأمر فسقاً. وقال (٢٠:١٢١) وعصى آدم ربه فغوى) فسمى ارتكابه للنهى معصية. فهذا عند الإجماع. فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر، والآخر لمخالفة النهى.

و «التقوى». اتقاء مجموع الأمور. و بتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان، بأن يحسن المد بطاعة الله على نور من الله، ويرحونوا الله. و يترك معصية الله، على نور من الله يحاف عقاب الله

ومن تأمل كلمة «التقوى» في كلام الله سبحانه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام العرب، — وقد سلم من التقليد وترديد الكلام بلا تدبر — علم أن «التقوى» هي أن يأخذ العبد من كل ما أعطاه الله ربه وقاية له من كل ما يكره ويخاف من الخيبة والخسران في الأول والأخرى، و يتحرى بكل يقظة وهدي وبصيرة أن يجعل منه سبباً لنجاحه في الأول والأخرى، مؤمناً بأن كل ما آتاه ربه في نفسه وماله وولده وما سخر له: صالح أن يكون سبباً للفلاح وسبباً للخسران، بل القرآن نفسه كذلك (١٧: ٨٢) ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين. ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) فضلاً عن غيره. ولذلك أوصانا الله ربنا أن نمؤد به ونلجأ إليه حال تلاوتنا لكل كلمة من القرآن من الشيطان الرجيم، حتى لا يضلنا في فهمها على وضعها الذي أراد الله لنا منها فنكون من الخاسرين.

وأما فسق الاعتقاد: ففسق أهل البعد الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويعلمون ما حرم الله. و يوجبون ما أوجب الله. ولكن يتفون كثيراً مما أثبت الله ورسوله، جهلاً وتأويلاً، وتقليداً للشيوخ. و يشعرون ما لم يشته الله ورسوله كذلك.

فالتوبة من هذا الفسوق: بإثبات ما أثبتته الله لنفسه ورسوله، من غير تشبيه ولا تمثيل، وتنزيه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل. وتلقى النفي والإثبات من مشكاة الوحي. لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التي هي منشأ البدعة والضلالة.

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة: بحض اتباع السنة. ولا يكتفى منهم بذلك أيضاً حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة. إذ التوبة من ذنب هي بفعل ضده. ولهذا شرط الله تعالى في توبة الكائمين ما أنزل الله من البينات والهدى: البيان. لأن ذنبهم لما كان بالكتمان، كانت توبتهم منه بالبيان. قال الله تعالى (٢: ١٥٩، ١٦٠) إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله. و يلعنهم اللاعنون، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا. فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم. لأن ذاك كتم الحق. وهذا كتمه ودعا إلى خلافه. فكل مبتدع كاتم ولا يتمكس.

وشرط في توبة المنافق: الإخلاص. لأن ذنبه بالرياء. فقال تعالى (٤: ١٤٥، ١٤٦) إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار — ثم قال — إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله. فأولئك مع المؤمنين، وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً).

● ألوان من السوء... أخرى

وأما «الإثم والمدون» فهما قرينان. قال الله تعالى (٥: ٢) وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان (وكل منهما إذا أفرد تضمن الآخر. فكل إثم عدوان. إذ هو

فعمل ما نهى الله عنه، أو ترك ما أمر الله به. فهو عدوان على أمره ونهيه، وكل عدوان إثم. فإنه يأثم به صاحبه. ولكن عند اقترانهما فهما شيان بحسب متعلقتهما ووصفهما.

فـ «الإثم» ما كان محرماً بالجنس كالكذب، والزنا، وشرب الخمر، ونحو ذلك. و«العدوان» ما كان محرماً بالقدرة والزيادة.

فالعدوان: تعدى ما أبيح منه إلى القدر المحرم والزيادة، كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه، إما بأن يتعدى على ماله، أو بدنه أو عرضه. فإذا غصبه حشبة لم يرض عوضها إلا داره. وإذا أتلّف عليه شيئاً أتلّف عليه أضماؤه. وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضماؤها. فهذا كله عدوان وتعدى للعدل.

وهذا العدوان نوعان: عدوان في حق الله، وعدوان في حق العبد، كما إذا تعدى ما أباح الله له من الوطء الحلال في الأزواج والمملوكات إلى ما حرم عليه من سواهما. كما قال تعالى (٢٣: ٥-٧) «والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون» وكذلك تعدى ما أبيح له من زوجته وأمه إلى ما حرم عليه منها، كوطئها في حيضها أو نفاسها، أو في إحرام أحدهما، أو صيامه الواجب. ونحو ذلك.

وكذلك كل من أبيح له منه قدر معين فتعداه إلى أكثر منه. فهو من العدوان، كمن أبيح له نظرة الخطبة، والشهادة، والمعاملة، والمداواة، فأطلق نظره في ميادين محاسن المنظور، فتعدى المباح إلى القدر المحظور، وحام حول الحيى المحظور المحجور.

و«الإثم» و«العدوان» هما الإثم والبغى المذكوران في سورة الأعراف (٢٣: ٧) مع أن «البغى» غالب استعماله في حقوق العباد والاستطالة عليهم.

وعلى هذا فإذا قرن البغى بالعدوان كان «البغى» ظلماً محرم الجنس، كالسرقة والكذب، والبهت والابتداء بالأذى. و«العدوان» تعدى الحق في استيفائه إلى أكبر منه. فيكون البغى والعدوان في حقهم كالإثم والعدوان في حدود الله.

فههنا أربعة أمور: حق لله وله حد، وحق لعباده وله حد. فالبغى والعدوان والظلم تجاوزا للحدين إلى ما وراءهما، أو التقصير عنهما. فلا يصل إليهما.

وأما «الفحشاء والمنكر» فالفحشاء. صفة لموصوف قد حذف تجريداً لقصد الصفة. وهى الفعلية الفحشاء، والخصلة الفحشاء وهو ما ظهر قبها لكل أحد. واستفحشه كل ذى عقل سليم. ولهذا فسرت بالزنا واللواط، وسماهما الله «فاحشة» لتناهى قبهما. وكذلك القبيح من القول يسمى فحشا. وهو ما ظهر قبها جداً من السب القبيح، والقذف ونحوه.

وأما «المنكر» صفة لموصوف محذوف أيضاً. أى الفعل المنكر. وهو الذى تستنكره العقول

سفر. ونسبته إليها كسبة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم. والمنظر القبيح إلى العين. والطعم
ستكره إلى الذوق. والصوت المستنكر إلى الأذن. فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة.
كما فحش إنكار الحواس له من هذه المدركات.
فالمنكر لها: ما لم تعرفه ولم تألفه. والقبيح المستكره لها: الذي تشتد نفرتها عنه وهو
العاشية. ولذلك قال ابن عباس «الفاحشة الزنا، والمنكر ما لم يعرف في شريعة ولا سنة».
فتأمل تفرقه بين ما لم يعرف حسنه ولم يؤلف، وبين ما استقر قبحه في الفطر والعقول.

● القول على الله بلا علم: أصل المفاسد

وأما «القول على الله بلا علم» فهو أشد هذه المحرمات تحريماً. وأعظمها إثماً. ولهذا ذكر في
المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان. ولا تباح بحال. بل لا تكون
إلا عجرة. وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير، الذي يباح في حال دون حال.
فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال، ومحرم في وقت دون وقت. وقال الله تعالى
في المحرم لذاته (٣٣:٧) قل: إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ثم انتقل منه
إلى ما هو أعظم منه فقال (والإثم والبغى بغير الحق) ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه. فقال
(وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه. فقال (وأن
تقولوا على الله ما لا تعلمون) فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدّها إثماً. فإنه يتضمن الكذب
على الله، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتديله، ونفى ما أثبتته وإثبات ما نفيه، وتحقيق ما
أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه،
ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.
فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشدّ إثماً. وهو أصل الشرك والكفر.
وعليه أسست البدع والضلالات. فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم.
ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها. وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض. وحذروا فتنهم
أشد التحذير. وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش، والظلم والعدوان. إذ مضرة
البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد. وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو
تحريمه من عنده. بلا برهان من الله. فقال (١٦:١٦) ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم
الكذب: هذا حلال وهذا حرام. لتفتروا على الله الكذب — الآية).
فكيف بمن نسب إلى أوصافه سبحانه وتعالى ما لم يصف به نفسه؟ أو نفى عنه منها ما
وصف به نفسه؟

قال بعض السلف: لِيَتَخَذَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ: أَحَلَّ اللَّهُ كَذَا. وَحَرَّمَ اللَّهُ كَذَا. فَيَقُولَ اللَّهُ: كَذِبٌ. لَمْ أَحَلِّ هَذَا، وَلَمْ أُحَرِّمْ هَذَا.

يعنى التحليل والتحريم بالرأى المجرد، بلا برهان من الله ورسوله. وأصل الشرك والكفر: هو القول على الله بلا علم. فإنَّ المشرك يزعم أنَّ من اتخذ معبوداً من دون الله، يقتربه إلى الله. ويشفع له عنده. ويقضى حاجته بواسطته، كما تكون الوسائط عند الملوك. فكل مشرك قائل على الله بلا علم. دون العكس. إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله. فهو أعم من الشرك. والشرك فرد من أفراد. ولهذا كان الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم موجباً لدخول النار، واتخاذ منزلة منها مُبْتَوًى، وهو النزل اللازم الذى لا يفارقه صاحبه. لأنه متضمن للقول على الله بلا علم. كصريح الكذب عليه. لأنَّ ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى الرسل. والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا؟). فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع.

وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة، أو يظنها سنة، فهو يدعو إليها، وبعض عليها؟ فلا تنكشف لهذا ذنوبه التى تجب عليه التوبة منها إلا بتضلمه من السنة. وكثرة اطلاعه عليها، ودوام البحث والتفتيش عليها. ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبداً.

فإنَّ السنة بالذات - تمحق البدعة. ولا تقوم لها. وإذا طلعت شمسها في قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة. إذ لسلطان للظلمة مع سلطان الشمس. ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة، ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة، إلا المتابعة، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله، بالاستعانة والاخلاص، وصدق اللجأ إلى الله. والمهجرة إلى رسوله، بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه في الدنيا والآخرة. والله المستعان.

مشهد الحيوانية

وهي: مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة، ومشهد الجبر. ومشهد القدر. ومشهد الحكمة. ومشهد التوفيق والخذلان. ومشهد التوحيد. ومشهد الاسماء والصفات. ومشهد الايمان وتعدد شواهد. ومشهد الرحمة. ومشهد العجز والضعف. ومشهد الدل والافتقار. ومشهد المحبة والعبودية. فالثلاثة الأول: للمنحرفين، والبواقي لأهل الاستقامة. وهذا الفصل من أجل فصول الكتاب. وأنفعها لكل أحد. وهو حقيق بأن تُثنى عليه الخناصر، ولملك لا تقفر به في كتاب سواء. إلا ما ذكرناه في كتابنا المسمى «سفر المجرتين في طريق السعادين».

• الطبائع الحيوانية في بعض البشر

فأما مشهد الحيوانية، وقضاء الشهوة: فمشهد الجهال، الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان، إلا في اعتدال القامة وطق اللسان. ليس مهمهم إلا مجرد بيل الشهوة بأي طريق أفضت إليها. فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية، لم تترق عنها إلى درجة الإنسانية، فضلا عن درجة الملائكة. فهؤلاء حالهم أخس من أن تذكر. وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم على أخلاقها وطباعها.

فمنهم: من نفسه كلبية لوصادف جبهة تشيع ألب كلب لوقع عليها، وحامها من سائر الكلاب. ويبح كل كلب يدنو منها. فلا تقر بها الكلاب إلا على كره منه وعليه. ولا يسمح لكلب بشيء منها. وهم شبع بطنه من أي طعام اتفق: ميتة أو مدكى، خبيث أو طيب. ولا يستحي من قبيح. إن تخيل عليه يُلْهَث أو تتركه يلهث. إن أطعمته نصبص بذنبه ودار حولك. وإن منعه هَرَّك ونبحك.

ومنهم: من نفسه حمارية. لم تخلق إلا للكد والعلف. كلما زيد في علفه زيد في كده، أبكم الحيوان، وأقله بصيرة. ولهذا مثل الله سبحانه وتعالى به من حَمَلَهُ كتابه. فلم يحمله معرفة ولا فقهها ولا عملا. ومثل بالكلب عالم السوء الذي آتاه الله آياته فأنسلخ منها، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه. وفي هذين المثليين أسرار عظيمة. ليس هذا موضع ذكرها.

ومنهم: من نفسه سبعية غضبية. همت العدوان على الناس، وقهرهم بما وصلت إليه قدرته، طبيعته تتقاضى ذلك كتقاضى طبيعة السبع لما يصدر منه.

وعلى هذا السبب اعتماد أهل التعبير للرؤيا في رؤية هذا الحيوانات في المنام عند الإنسان وفي

داره، أو أنها تحاربه. وهو كما اعتمدوه. وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك في المنام وقائع كثيرة. فكان تأويلها مطابقاً لأقوام على طباع تلك الحيوانات. وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم في قصة أحد «بِقَرَأَ تَنْحَر» فكان من أصيب من المؤمنين بنحر الكفار. فإن البقر أنفع الحيوانات للأرض. وبها صلاحها وفلاحها مع ما فيها من السكينة والمنافع، فإنها ذلول مذلّة، متقادة غير أبية. ورأى عمر بن الخطاب كأن ديكاً نقره ثلاث نقرات، فكان طعنُ أبي لؤلؤة له. والديك رجل أعجمي شرير.

ومن الناس: من طبعه طبع خنزير، يمر بالطيبات فلا يلوى عليها. فإذا قام الإنسان عن رجليه قَتَمَه. وهكذا كثير من الناس. يسمع منك و يرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساويء، فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه. فإذا رأى سَقَطَةً أو كلمة عوراه وجد بغيته وما يناسبها. فجعلها فأكهته ونُقَله.

ومنهم: من هو على طبيعة الطاووس ليس له إلا التَّطُّوس والترين بالريش. وليس وراء ذلك من شيء.

وأحمد طبائع الحيوانات: طبائع الخيل التي هي أشرف الحيوانات نفوساً، وأكرمها طبعاً. وكذلك الفئ. وكل من أَلِفَ ضَرْباً من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه. فإن يتغذى بلحمه كان الشَّبه أقوى. فإن الغاذي شبيه بالمتغذى.

ولهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير لما تورث آكلها من شبه نفوسها بها. والله أعلم.

والمقصود: أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميل نفوسهم وشهواتهم. لا يعرفون ما وراء ذلك ألبتة.

● مشهد أصحاب الجبر

ثم مشهد أصحاب الجبر. وهم الذين يشهدون أنهم مجبرون على أفعالهم، وأنها واقعة بغير قدرتهم، بل لا يشهدون أنها أفعالهم ألبتة.

يقولون: إن أحدهم غير فاعل في الحقيقة ولا قادر، وأن الفاعل فيه غيره والمحرك له سواء. وأنه آلة محضة، وحركاته بمزلة هبوب الرياح، وحركات الأشجار.

وهؤلاء إذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر. وحلوا ذنوبهم عليه. وقد يتفنون في ذلك، حتى يروا أفعالهم كلها طاعات. خيرها وشرها، لموافقتها للمشئة والقدر.

ويقولون: كما أن موافقة الأمر طاعة، فموافقة المشئة طاعة. كما حكى الله تعالى عن

المشركين إخوانهم: أنهم جعلوا مشيئة الله تعالى لأفعالهم دليلاً على أمره بها ورضاه. وهؤلاء شر من القدرة النفاة، وأشد منهم عداوة لله، ومناقضة لكتبه ورسله ودينه. حتى إن من هؤلاء من يتعذر عن إبليس، ويتوجع له، ويقيم عذره بجده. وينسب ربه تعالى إلى ظلمه بلسان الحال والمقال، ويقول: ما ذنبه، وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه؟ وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وإرادته منه؟ ثم كيف يمكنه السجود، وهو الذي منعه منه وحال بينه وبينه؟ وهل كان في ترك السجود لغير الله إلا محسناً؟

وهؤلاء أعداء الله حقاً، وأولياء إبليس، وإخوانه. وإذا نأح منهم نائح على إبليس، رأيت من البكاء والخنين أمراً عجباً. ورأيت من ظلمهم الأقدار، واتهامهم الجبار ما يبدو على فلتات السننهم، وصفحات وجوههم، وتسمع من أحدهم من الظلم والتوجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه.

● مشهد القدرة النفاة

ثم مشهد القدرة النفاة: يشهدون أن هذه الجنايات والذنوب، هم الذين أحدثوها، وأنها واقعة بمشيئتهم، دون مشيئة الله تعالى، وأن الله لم يُقَدِّرْ ذلك عليهم ولم يكتبه، ولا شاء، ولا خلق أفعالهم، وأنه لا يقدر أن يهدي أحداً ولا يضل إلا بمجرد البيان. لا أنه يلهم الهدى والضلال، والمجور والتقوى، فيجعل ذلك في قلبه. ويشهدون أنه يكون في ملك الله ما لا يشاؤه، وأنه يشاء ما لا يكون، وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله.

فالمعاصي والذنوب خلقهم، وموجب مشيئتهم، لا أنها خلق الله. ولا تتعلق بمشيئته. وهم لذلك مبخوسو الحظ جداً من الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاعتصام به، وسؤاله أن يهديهم، وأن يُثَبِّتَ قلوبهم، وأن لا يزيغها، وأن يوفقهم لمرضاته، ويحببهم معصيته. إذ هذا كله واقع بهم، وعين أفعالهم. لا يدخل تحت مشيئة الرب شيء منها. والشيطان قد رضى منهم بهذا القدر. فلا يؤرثهم إلى المعاصي ذلك الأز، ولا يزعجهم إليها ذلك الإزعاج. وله في ذلك غرضان مهمان.

أحدهما: أن يقر في قلوبهم صحة هذا المشهد وهذه العقيدة. وانكم تاركون الذنوب والكبائر التي يقع فيها أهل السنة. فدل على أن الأمر مفوض إليكم واقع بكم، وانكم العاصمون لانفسكم، المانعون لها من المعصية.

الغرض الثاني: أنه يصطاد على أيديهم الجهال. فإذا رأوهم أهل عبادة، وزهادة وتورع عن

المعاصي، وتعظيم لها. قالوا: هؤلاء أهل الحق — والبدعة آثر عنده وأحب إليه من المصيبة — فإذا ظفر بها منهم، واصطاد الجهال على أيديهم، كيف يأمرهم بالمصيبة؟ بل ينهاهم عنها ويقبحها في أعينهم وقلوبهم. ولا يكشف هذه الحقائق إلا أرباب البصائر.

• أول الاستقامة: اكتشاف حكمة الخلق

ولكن أهل الاستقامة يشهدون حكمة الله في تقديره على عبده ما يفيضه سبحانه ويكرهه، ويلوم ويعاقب عليه. وأنه لو شاء لمصمه منه، ولحال بيته وبيته. وأنه سبحانه لا يُعْصَى قسراً. وأنه لا يكون في العالم شيء إلا بمشيئته (٧: ٥٧) ألا له الخلق والأمر. تبارك الله رب العالمين).

وهؤلاء يشهدون أن الله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا سُدى، وأن له الحكمة البالغة في كل ما قدره وقضاه من خير وشر، وطاعة ومعصية، وحكمة باهرة تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها. وتكفل الألسن عن التعبير عنها.

فصدر قضائه وقدره، لما يفيضه ويسخطه: اسمه «الحكيم» الذي بهرت حكمته الألباب، وقد قال تعالى لملائكته — لما قالوا (٢: ٣٠) أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فأجابهم سبحانه بقوله (إني أعلم ما لا تعلمون) فله سبحانه في ظهور المعاصي والذنوب والجرائم، وترتب آثارها من الآيات والحكم. وأنواع التمرقات إلى خلقه، وتنوع آياته، ودلائل ربوبيته ووجدانيته، وإلهيته، وحكمته، وعزته، وقام ملكه، وكمال قدرته. وإحاطة علمه — : ما يشهده أولو البصائر عياناً ببصائر قلوبهم، فيقولون (٣: ١٩١) ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه! إن هي إلا حكمتك الباهرة، وآياتك العظيمة.

ولله في كل تحريكة وتسكينه أبدأشاهد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فكم من آية في الأرض بينة، دالة على الله، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقائه حق. كان سببها معاصي بني آدم وذنوبهم، كآيته في إغراق قوم نوح، وعلو الماء على رؤوس الجبال، حتى أغرق جميع أهل الأرض، ونجى أوليائه، وأهل معرفته وتوحيده. فكم في ذلك من آية وعبرة، ودلالة باقية على ممر الدهور! وكذلك إهلاك قوم عاد وثمود.

وكذلك إظهاره سبحانه ما أظهر من جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم. وإلقائهم له في النار، حتى صارت تلك آية، وحتى نال إبراهيم بها ما نال من

كما الخلة.

وكذلك ما حصل للرسول من الكرامة والمنزلة والرفق عند الله، والوجاهة عنده، بسبب صبرهم على أدى قومهم. وعلى محاربتهم لهم ومعاداتهم.

وكذلك اتخاذ الله تعالى الشهداء والأولياء والأصفياء من بنى آدم، بسبب صبرهم على أذى بنى آدم من أهل المعاصي والظلم، ومحاربتهم في الله، وتحملهم لأجله من أعدائه ما هو بعينه وعلمه، واستحقاقهم بذلك رفعة الدرجات.

إلى غير ذلك من المصالح والحكم التي وجدت بسبب ظهور المعاصي والجرائم. وكان من سببها: تقدير ما يفضيه الله ويسخطه. وكان ذلك محض الحكمة، لما يترتب عليه مما هو أحب إليه وأثر عنده من قوته بتقدير عدم المعصية.

فحصول هذا المحبوب العظيم: أحب إليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط، فإن فواته وعدمه — وإن كان محسباً له — لكن حصول هذا المحبوب الذي لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض أحب إليه. وفوات هذا المحبوب: أكره إليه من فوات ذلك المكروه المسخوط. وكمال حكمته تقتضي حصول أحب الأمرين إليه بفوات أدنى المحبوبين، وأن لا يعطل هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه. وفرض الذهن وجود هذا بدون هذا: كفرضه وجود السبب بدون أسبابها، والملزومات بدون لوازمها، مما تمتعه حكمة الله، وكمال قدرته وربوبيته.

وكم في تسليط أوليائه على أعدائه، وتسلط أعدائه على أوليائه، والجمع بينهما في دار واحدة، وإبتلاء بعضهم ببعض: من حكمة بالغة، ونعمة سابعة؟

وكم فيها من حصول محبوب للرب، وحمد له من أهل سماواته وأرضه، وخضوع له وتذلل، وخشية وافتقار إليه وانكسار بين يديه: أن لا يجعلهم من أعدائه. إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون خذلان الله لهم، وإعراضه عنهم، وثقتهم لهم، وما أعد لهم من العذاب. وكل ذلك بمشيئته وإرادته، وتصرفه في مملكته. فأولياؤه من خشية خذلانه خاصعون مشفقون، على أشد وتجل، وأعضم مخافة، وأتم انكسار.

فإذا رأت الملائكة إبليس وما جرى له، وهاروت وماروت: وضعت رؤوسها بين يدي الرب خضوعاً لعظمته، واستكانة لعزته، وخشية من إبعاده وطرده، وتذلاً لطيبته، وافتقاراً إلى عصمته ورحمته، وعلمت بذلك منته عليهم، وإحسانه إليهم، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته.

وكذلك أولياؤه المتقون، إذا شاهدوا أحوال أعدائه ومقتته لهم، وغضبه عليهم، وخذلانه لهم: اردوا حصوعاً وذلاً، وافتقاراً وانكساراً، وبه استعانة وإليه إنابة، وعليه توكلوا، وفيه رغبة، ومنه رهبة. وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه إلا إليه، وأنهم لا يعيدهم من بأسه إلا هو، ولا ينجيهم من

مخطئه إلا مرضاته، فالفضل بيده أولاً وآخرها.
وهذه قطرة من بحر حكيمته المحيطة بخلقه. والبصير يطالع بصيرته ما وراءه. فيطلعه عل عجائب من حكيمته، لا تبلغها العبارة، ولا تنالها الصفة.
وأما حظ العبد في نفسه، وما يخصه من شهود هذه الحكمة: فبحسب استعداده وقوة بصيرته، وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته، ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية، وكل مؤمن له من ذلك شُرب معلوم، ومقام لا يتعداه ولا يتخطاه. والله الموفق والمعين.

● مشهد التوحيد

وهو أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحكم، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه. وأن الخلق مقهورون تحت قبضته، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه. ان شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزينه أزاعه. فالقلوب بيده. وهو مقلبها ومصرفها كيف شاء وكيف أراد، وأنه هو الذي آتى نفوس المؤمنين تقواها، وهو الذي هداها وزكاها وأهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها (٧: ١٨٥ من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له) يهدي من يشاء بفضل رحمة، ويضل من يشاء ببدله وحكيمته. هذا فضله وعطاؤه. وما فضل الكريم بمتون. وهذا عدله وقضائه (٢١: ٢٣ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون).

قال ابن عباس رضي الله عنهما «الإيمان بالمقدر نظام التوحيد، فمن كذب بالمقدر نقض تكذيبه توحيد، ومن آمن بالمقدر صدق إيمانه توحيد».

وفي هذا المشهد: يتحقق للعبد مقام (إياك نعبد وإياك نستعين) علماً وحالاً، فثبت قدم العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الإلهية. فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع، والعطاء والمنع، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء: كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذي يقلب القلوب، ويصرفها كيف يشاء. وأنه لا موقف إلا من وقته وأعانه، ولا مخدول إلا من خذله وأهانته وتغلى عنه. وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها وأرقها وأصفاها، وأشدّها وألينها: من اتخذه وحده إلهاً ومعبوداً. فكان أحب إليه من كل ما سواه، وأحوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه. فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب، فنساق المحاب تبعاً لما كما ينساق الجيش تبعاً للسلطان. ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات، فنساق المخاوف كلها تبعاً لخوفه. ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعاً لرجائه.

فهذا علامة توحيد الإلهية في هذا القلب، والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية، أي

باب توحيد الإلهية: هو توحيد الربوبية.

فإن أول ما يتعلق القلب بتوحيده الربوبية. ثم يرتقى إلى توحيد الإلهية، كما يدعو الله سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر. ويحث عليهم به، ويقرهم به. ثم يخبر أنهم ينقصونه بشركهم به في الإلهية.

وفي هذا المشهد يتحقق له مقام (إياك نعبد) قال الله تعالى (٤٤: ٨٧) ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن: الله. فأنى يؤفكون؟ أى ثنائين يصرفون عن شهادة أن لا إله إلا الله، وعن عبادته وحده، وهم يشهدون: أنه لا رب غيره، ولا خالق سواه. وكذلك قوله تعالى (٢٣: ٨٤) — ٨٩ قل لمن الأرض ومن فيها. إن كنتم تعلمون؟ سيقولون: لله. قل: أفلا تذكرون؟ فتعلمون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم، فهو وحده إلههم ومعبودهم. فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إله لهم سواه (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ سيقولون: لله. قل: أفلا تتقون؟ قل: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجبر ولا يجار عليه — الآيات) وهكذا قوله في سورة النمل (٢٧: ٥٩ — ٦٥) قل الحمد لله. وسلام على عباده الذين اصطفى، آله خير، أم ما يشركون؟ آمن خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء، فأنبئتنا به حداثى ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، إله مع الله؟ بل هم قوم बदلون — إلى آخر الآيات).

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده، فهو الإله لهم وحده. فإن كان معه رب فعل هذا فينبغى أن تعبدوه. وإن لم يكن معه رب فعل هذا. فكيف تجعلون معه إلهاً آخر؟ ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية «إله مع الله فعل هذا؟» حتى يتم الدليل. فلا بد من الجواب بلا. فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله. فكيف تعبدون آلهة أخرى سواء؟ فلم أن إنهيته ما سواء باطلة، كما أن ربوبية ما سواء ناطلة بإقراركم وشهادتكم. ومن قال: المعسى «هل مع الله إله آخر؟» من غير أن يكون المعنى «فعل هذا» فقله ضعيف لوجهين.

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى. ولا ينكرون ذلك.

الثاني: أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير أى فإذا كنتم تقولون: إنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلهاً آخر لا يخلق شيئاً وهو عاجز؟ وهذا كقوله (١٣: ١٦) أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم؟ قل: الله خالق كل شيء. وهو الواحد القهار وقوله (٣١: ١١) هذا خلق الله. فأروني: ماذا خلق الذين من دونه؟ وقوله (١٦: ١٧) أفمن يخلق كمن لا يخلق؟ وقوله (١٦: ٢٠) والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون وقوله (٢٥: ٣) واتخذوا من

دونه آلهه لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) وهو كثير في القرآن. وبه تتم الحجة كما تبين.
والمقصود: أن العبد يحصل له هذا في المشهد من مطالعة الجنائيات والذنوب، وجرانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم. وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو. ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته. ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه. فموارد الأمور كلها منه. ومصادرها إليه. وأزمة التوفيق جميعها بيديه فلا مستعان للعباد إلا به، ولا مُتَكَلِّل إلا عليه. كما قال شعيب خطيب الأنبياء. (١١: ٨٨ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب).

● مشهد التوفيق والخذلان

وهو من تمام هذا المشهد وفروعه. ولكن أفرد بالذكر لحاجة العبد إلى شهوده وانتفاعه به. وقد أجمع العارفون بالله: أن «التوفيق» هو أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن «الخذلان» هو أن يخل بينك وبين نفسك. فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه. بل العبد في الساعة الواحدة يتال نصيبه من هذا وهذا. فيطيه ويرضيه، ويذكره ويشكره بتوفيقه له. ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له. فهو دائر بين توفيقه وخذلانه. فإن وفقه فبفضله ورحمته. وإن خذله فبعمله وحكمته. وهو المحمود على هذا وهذا. له أتم حد وأكمل. ولم ينح العبد شيئاً هو له. وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه. وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله؟
فتمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل نفس وكل لحظة وطرفة عين. وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى. لو تخلى عنه طرفة عين لثُلَّ عرش توحيده، ولخزَّت سماء إيمانه على الأرض. وأن المسك له: هو من يسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، قدأب لسانه «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي إلى طاعتك» ودعواه «يا حي يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام. لا إله إلا أنت. برحمتك أستغيث. أصلح لي شأني كله. ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين. ولا إلى أحد من خلقك».

ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه، كما يشهد ربوبيته وخلقه. فيسأله توفيقه مسألة المضطر. ويعوذ به من خذلانه، عياد المللوف. ويلقى نفسه بين يديه، طريقاً باباه مستسلماً له، ناكس الرأس بين يديه، خاضعاً ذليلاً مستكيناً، لا يملك لنفسه صراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ونشوراً.

و«التوفيق» إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبد ما يصلح به العبد، بأن يجعله قادراً على فعل ما يرضيه، مريداً له، محباً له، مؤثراً له على غيره. ويُعَصِّس إليه ما يسخطه، ويكرهه إليه. وهذا

بمجرد فعله. والمبدع له. قال تعالى (٤٩: ٨٧) ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم. وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان. أولئك هم الراشدون ﴿ فضلا من الله ونعمته، والله عليم حكيم ﴾ فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له. حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله. لا يمنعه أهله، ولا يرضه عند غير أهله. وذكر هذا عقيب قوله (٤٩: ٧) واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴿ ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال (ولكن الله حبيب إليكم الإيمان).

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له، وتزيينه في قلوبكم: منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك. فآثرووه ورضيتموه، فلذلك لا تقلدوا بين يدي رسول، ولا تقولوا حتى يقول. ولا تفعلوا حتى يأمر. فالذي حبيب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم لولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان. فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم. ولا تقدمتم به إليها. فنفسكم تقصر وتمجز عن ذلك ولا تبلغه. فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون: لشق عليكم ذلك، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون. ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصالح، كما أردتم الإيمان. فلولا أنى حبيته إليكم وزينته في قلوبكم، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم. ولا سمحت به أنفسكم.

وقد فسرت القدرية الجبرية «التوفيق» بأنه خلق الطاعة «والخذلان» بأنه خلق المعصية. ولكن بنوا ذلك على أصولهم الفاسدة من إنكار الأسباب والحكم، وردوا الأمر إلى محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة.

وقابلهم القدرية النفاة، ففسروا «التوفيق» بالبيان العام الطاعة والإقبال عليها. وتهيئة أسبابها. وهذا حاصل لكل كافروه الإيمان.

فالتوفيق عندهم: أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين إذ الإقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين. ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم. والكفار بخذلان امتنع به الإيمان منهم. ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلما.

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فلم يرضوا بطريق هؤلاء، ولا بطريق هؤلاء وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم. فأثبتوا القضاء والقدر، وعموم مشيئة الله للكانثات. وأثبتوا الأسباب والحكم. والغايات والمصالح. ونزهوا الله عروجل أن يكون في ملكه مالا يشاء، أو أن يقدر حلقه على مالا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته، أو أن يكون شيء من أفعالهم واقعا بغير اختياره وبدون مشيئته، ومن قال ذلك لم يعرف ربه، ولم يثبت له كمال الربوبية.

ونزهوه — مع ذلك — عن العث وفعل القبيح، وأن يخلق شيئاً سئياً، وأن تخلو أفعاله عن جحّم بالغة، لأجلها أوجدها، وأسباب بها سبها، وغايات جعلت طرقاً ووسائل إليها. وأن له في كل ما خلقه وقضاه حكمة بالغة. وتلك الحكمة صفة له قائمة به. ليست مخلوقة كما تقول القدريّة النفاة للقدّر والحكمة في الحقيقة.

فأهل الصراط المستقيم: بريئون من الطوائف، إلا من حق تتضمنه مقالاتهم. فإنهم يوافقونهم عليه. ويمجمون حق كل منهما إلى حق الأخرى. ولا يبتلون ما معهم من الحق لما قالوه من الباطل. فهم شهداء الله على الطوائف، وأمناء عليهم، حكام بينهم، جاكمون عليهم. ولا يحكم عليهم أحد منهم. يكشفون أحوال الطوائف، ولا يكشفهم إلا من كشف له عن معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وعرف الفرق بينه وبين غيره. ولم يلتبس عليه. وهؤلاء أفراد العالم ونجته وخلاصته، ليسوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، ولا من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زُبراً، بل ممن هو على بينة من ربه وبصيرة في إيمانه، ومعرفة بما عند الناس. والله الموفق.

● مشهد الاسماء والصفات

وهو من أجل المشاهد. وهو أعلى مما قبله وأوسع. والمطلع على هذا المشهد: معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً بالاسماء الحسنی، والصفات العلی، وارتباطه بها. وإن كان العالم — بما فيه — من بعض آثارها ومقتضياتها. وهذا من أجل المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة. فإن أسمائه أوصاف مدح وكمال. وكل صفة لها مقتض وفعل: إما لازم. وإما متعد. ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه. وهذا في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه. وكل ذلك آثار الاسماء الحسنی وموجباتها.

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأعمال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله وأفعاله عن صفاته، وصفاته عن أسمائه. وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته. وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حكماً ومصالح، وأسمائه حسنى: ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه. ولهذا ينكر سبحانه على من عظمه عن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وأنه بذلك نسبته إلى مالا يليق به وإلى ما ينتزه عنه وأن ذلك حكم سيئ من حكم به عليه، وأن من نسبته إلى ذلك فما قدره حق قدره، ولا عظمه حق تعظيمه، كما قال تعالى في حق

مستكرى النبوة وإرسال الرسل، وإنزال الكتب (٩١:٦) وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء وقال تعالى في حق مكبرى المعاد والثواب والعقاب (٦٧:٣٩) وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه وقال في حق من جوز عليه التسوية بين المختلفين، كالأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار (٢١:٤٥) أم حسب الذين اجتروحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون) فأنخبر أن هذا حكم سيء لا يليق به، تأباء أسماؤه وصفاته. وقال سبحانه (١١٦، ١١٥: ٢٣) أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون؟ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) عن هذا الظن والحسبان، الذي تأباء أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن كثيرة. ينفي فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته. إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها.

فاسمه «الحميد، المجيد» يمنع ترك الإنسان سُدى مهملًا معطلاً، لا يُؤمر ولا ينهى. ولا يثاب ولا يعاقب. وكذلك اسمه «الحكيم» يأبى ذلك. وكذلك اسمه «الملك» واسمه «الحي» يمنع أن يكون معطلاً من الفعل. بل حقيقة «الحياة» الفعل. فكل حي فقال. وكونه سبحانه «خالقاً قيوماً» من موجبات حياته ومقتضياتها. واسمه «السميع البصير» يوجب مسموعاً ومرئياً. واسمه «الخالق» يقتضى مخلوقاً. وكذلك «الرازق» واسمه «الملك» يقتضى ملكة وتصرفاً وتديبيراً، وإعطاء ومنعاً، وإحساناً وعدلاً، وثواباً وعقاباً. واسم «البر المحسن، المعطي، المان» ونحوها تقتضى آثارها وموجباتها.

إذا عرف هذا. فمن أسمائه سبحانه «الغفار، التواب، العفو» فلا بد لهذه الأسماء من متعلقات. ولا بد من جناية تغفر، وتوبة تقبل، وجرائم يعفى عنها. ولا بد لاسمه «الحكيم» من متعلق يظهر فيه حكمه. إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كإقتضاء اسم «الخالق، الرارق، المعطي، المانع» للمخلوق والمرزوق والمعطي والمنوع. وهذه الأسماء كلها حسنى.

والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه. فهو غفورٌ يحب العفو، ويحب المغفرة. ويحب التوبة. ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه: من موجب أسمائه وصفاته. وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك. وما يحمدُه به نفسه ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه: ما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده.

وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومحمده يقتضيان آثارهما. ومن آثارهما: مغفرة الرلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنابات.

مع كمال القدرة على استيفاء الحق. والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها. فحلمه يعد علمه، وعفوه يعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح صلى الله عليه وسلم (١١٨:٥) **إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** أى فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك. لست كمن يغفر عجزاً. ويسامح جهلاً بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك. قادر على استيفائه، حكيم فى الأخذ به.

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات فى العالم، وفى الأمر، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنائيات من العبيد، وتقديرها: هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال. وغايتها أيضاً: مقتضى حده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته.

فله فى كل ما قضاء وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرفات إلى عبادته بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له، وذكرهم له، وشكرهم له، وتعبدهم له بأسمائه الحسنى. إذ كل اسم فله تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً. وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التى يطلق عليها البشر. فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه «القدير» عن التعبد باسمه «الحليم الرحيم» أو يحجبه عبودية اسمه «المعطى» عن عبودية اسمه «المانع» أو عبودية اسمه «الرحيم والعفو والغفور» عن اسمه «المنتقم» أو التعبد بأسماء «التودد، والبر، واللفظ، والإحسان» عن أسماء «العدل، والجبروت، والعظمة، والكبرياء» ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكُمل من السائرين إلى الله. وهى طريقة مشتقة من قلب القرآن. قال الله تعالى (١٨٠:٧) **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الشناء ودعاء التعبد. وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويشنوا عليه بها، و يأخذوا بحظهم من عبوديتها. وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته.

فهو «عليم» يحب كل عليم «جَوَادُ» يُحب كل جواد «وَر» يحب الوتر «جميل» يحب الجمال «عفو» يحب العفو وأهله «حَيِي» يحب الحياء وأهله «زَر» يحب الأبرار «شكور» يحب الشاكرين «صبور» يحب الصابرين «حليم» يحب أهل الحلم. فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والمصفح: خلق من يغفر له، ويتوب عليه و يعفوه عنه. وقدر عليه ما يقتضى وقوع المكروه والمبغوض له. ليرتب عليه المحبوب له المرضي له.

● مشهد زيادة الايمان وتعدّد شواهدہ

وهذا من اللطف المشاهد، وأخصها بأهل المعرفة. ولعل سامعه يبادر إلى إنكاره، ويقول: كيف يشهد زيادة الإيمان من الذنوب والمعاصي؟ ولا سيما ذنوب العبد ومعاصيه. وهل ذلك إلا منقص للإيمان، فإنه بإجماع السلف: يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

فاعلم أن هذا حاصل من الثقات العارف إلى الذنوب والمعاصي منه ومن غيره وإلى ترتب آثارها عليها. وترتب هذه الآثار عليها علم من أعلام النبوة. وبرهان من براهن صدق الرسل، وصحة ما جاءوا به. فإن الرسل — صلوات الله وسلامه عليهم — أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم وبواطنهم، في معاشهم ومعادهم. ونهواهم عما فيه فساد ظواهرهم وبواطنهم في المعاش والمعاد. وأحبروهم عن الله عز وجل: أنه يحب كذا وكذا، ويحب عليه بكذا وكذا، وأنه يبغض كيت وكيت، ويعاقب عليه بكيت وكيت. وأنه إذا أطيع بما أمر به: شكر عليه بالإمداد والزيادة، والنعم، في القلوب والأبدان والأموال. وتوّجّه العبد زيادته وقوته في حاله كلها، وأنه إذا خولف أمره ونهيه، ترتب عليه من النقص، والفساد، والضعف، والذل والمهانة، والحقارة، وضيق العيش وتكد الحياة ما ترتب، كما قال تعالى (١٦: ٩٧) من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى — وهو مؤمن — فلنحبيبه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال (٣٩: ١٠) قل: يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم. للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، ولدار الآخرة خير) وقال تعالى (١١: ٣) واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى. وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) وقال تعالى (٢٠: ١٢٤ و١٢٥) ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً. ونحشره يوم القيامة أعمى).

وقد يكون المراد بلفظ «ذكرى» ما يذكر ماله سبحانه. وهو أولاً المشار إليه بقوله (٥١: ٢١) وفي أنفسكم. أفلا تبصرون) وقوله (٦٧: ٢٣) هو الذي أنشأكم. وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) وهذا كثير جداً في القرآن. فإن الفعلة عن آيات الله وعن آثار أسمائه وصفاته في الأنفس والآفاق والإنسلاج منها: هو الذي أركس الإنسان في ظلمات الجاهلية. ومكن لولاية الشيطان منه فاتبع وحيه الجاهل الوثني واتخذ انقراض مهجوراً. فلم يحاول أن يتدبر آياته، ولا أن يتلوه حق ثلاثه، لأنه رغم له أنه ليس بحاجة إليه لا في عقيدة ولا عمل ولا خلق ولا حال. فقد جمع له كل ذلك فيما رحل له من القول غروراً. وزاده غروراً وغداحة بإيهامه أن تكرار ألفاظ القرآن للموتى وللترك، واتخاذ المصحف قيمة يجرحه عن المرحصين عن ذكر الله.

وُفِّسَت المعيشة الضنك: بمعذاب القبر. والصحيح: أنها في الدنيا، وفي البرزخ. فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله، فله من ضيق الصدر، وتكد العيش، وكثرة الخوف، وشدة الحرص

والتعب على الدنيا، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التي في خلال ذلك — مالا يشعر به القلب، لسكرته، وانغماسه في السكر. فهو لا يصحوساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم. فبادر إلى إزالته بسكر ثان. فهو هكذا مدة حياته. وأى عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور؟.

فقلوب أهل البدع، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي: في جحيم قبل الجحيم الأكبر. وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر (١٣: ٨٢، ١٤ إن الأبرار لفي نعيم. وإن الفجار لفي جحيم) هذا في دورهم الثلاث. ليس مختصاً بالدار الآخرة. وإن كان تمامه وكماله وظهوره: إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى (٥٢: ٤٧) وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك) وقال تعالى (٢٧: ٧١، ٧٢ ويقولون: متى هذا الوعد، إن كنتم صادقين؟ * قل: عسى أن يكون زلف لكم بعض الذي تستعجلون).

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به: الاسترقاق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكير فيه.

والعبد قد يصيبه ألم جسدي فيطرحه عن قلبه. ويقطع التفاته عنه. ويجعل إقباله على غيره. لئلا يشعر به جلة. فلوزال عنه ذلك الالتفات، لصاح من شدة الألم. فما الظن بمذاب القلوب والآلامها؟!

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثاراً محبوبة لذينة طيبة. لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة. لا نسبة لها إليها. وجعل للسيئات والمعاصي آلاماً وآثاراً مكروهة، وحزازات تُزجي على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة. قال ابن عباس «إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن. وزيادة في الرزق، ومحة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سواداً في الوجه. وظلمة في القلب ووهنا في البدن. ونقصا في الرزق. وبغضة في قلوب الخلق» وهذا يعرفه صاحب البصيرة. ويشهده من نفسه ومن غيره.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب. وما يغفوا الله عنه أكثر. قال الله تعالى (٤٢: ٣٠) وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم. ويعفو عن كثير) وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه (٣: ١٦٥) أَوَلَمْ أَصَابِكُمْ مَصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا قُلْتُمْ: أَنَّى هَذَا؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) وقال (٤: ٧٩) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ).

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله. ولهذا قال «ما أصابك» ولم يقل: ما أصبت.

فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة. مسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال: أمر مشهود في العالم. لا ينكره ذو عقل سليم. بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره، وتأمله ومطالعه: مما يقوى إيمانه بما جاءت به الرسل. وبالشواب والعقاب. فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم. ومثوبات وعقوبات عاجلة، دالة على ما هو أعظم منها لمن كانت له بصيرة. كما قال بعض الناس: إذا صدر مني ذنب ولم أبادره. ولم أتداركه بالتوبة: انتظرت أثره السيء. فإذا أصابني — أوقوه أو دونه — كما حسبت: أكثر قول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلتها. فإن الصادق متى أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا. فجعلت كلما فعلت شيئاً من ذلك وحصل لك ما قال من المكروه، لم تردد إلا علماً بصدقه وبصيرة فيه. وليس هذا لكل أحد. بل أكثر الناس قرين الذنوب على قلبه. فلا يشهد شيئاً من ذلك ولا يشعره ألبيته.

وإنما يكون هذا لقلب فيه نور الإيمان وأهوية الذنوب والمعاصي تصصف فيه. فهو يشاهد هذا وهذا. ويرى حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح. فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح، وتقلب السفينة وتكفئها ولا سيما إذا انكسرت به وبقي على لوح تلعب به الرياح. فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب، إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير ذلك قلبه في واد آخر.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد: انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم. ومحريات الخلق. بل انتفع بمجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس وفهم حينئذ معنى قوله تعالى (١٣: ٣٣) أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) وقوله (٣: ١٨) شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط. لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فكل ما تراء في الوجود — من شر وألم وعقوبة وجذب، ونقص في نفسك وفي غيرك — فهو من قيام الرب تعالى بالقسط. وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم. فالسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن أسد في الأرض (١٧: ٥) بعثنا عليكم عبداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار — (الآية).

فالذنوب مثل السموم مفسدة بالذات. فإن تداركها من سقى بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرت القوة الإيمانية، وكان الهلاك. كما قال بعض السلف «المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت».

فشهود العبد نقص حاله إذا عصى ربه، وتغير القلوب عليه، وجفولها منه، وانسدال أبواب وجهه، وتوعر المسالك عليه، وهوانه على أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه، وتطلبه ذلك حتى يعلم من أين أتى؟ ووقوعه على السبب الموحب لذلك: مما يقوى إيمانه. فإن أطلع وياشر الأسباب التي تقضى به إلى ضد هذه الحال، رأى العبد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والأمن بعد الخوف، والقوة في قلبه بعد ضعفه وهنته — ازداد إيماناً مع إيمانه. فتقوى شواهد الإيمان في قلبه وبراهينه وأدلتها في حال معصيته وطاعته. فهذا من الذين قال الله فيهم (٣٩): ٣٥ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويمزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون). وصاحب هذا المشهد متى تبصر فيه، وأعطاه حقه: صار من أطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها. فتمعه الله في نفسه. ونفع به من شاء من خلقه. والله أعلم.

● مشهد الرحمة

فإن العبد إذا وقع في الذنب خرج من قلبه تلك العلفة والقسوة، والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمن صدر منه ذنب، حتى لو قدر عليه لأهلكه، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه، غضباً منه لله، وحرصاً على أن لا يعصى. فلا يجد في قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين. ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء. ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم، والعيب لهم والذم. فإذا جرت عليه المقادير وحُلِي ونفسه استغاث الله والتجأ إليه. وقلمل بين يديه قلمل السليم. ودعاه دعاء المضطر. فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة. وتلك القساوة على الخاطئين رحمة. وليناً مع قيامه بحدود الله. وتَبَدَّل دعاؤه عليهم دعاء لهم. وحمل لهم وظيفة من عمره. يسأل الله أن يغفر لهم. فما أنفعه له من مشهد! وما أعظم جدواه عليه. والله أعلم.

● مسكين هذا العاجز!

ثم يشهد الضعيف، وأنه أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضعفه، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه. فيشهد قلته كريحة مُلقاة بأرض فلاة تُقلِّبها الرياح يميناً وشمالاً. ويشهد نفسه كراكب سفينة في السرح تهيج بها الرياح وتتلاعب بها الأمواج، ترفعها تارة. وتخضعها تارة أخرى. تجري عليه أحكام القدر. وهو كالآلة طريقاً بين يدي وليه، ملقى ببابه، وإصعاباً تحده على تَرَى اعتشابه. لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. ليس له من نفسه إلا

الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما. فالهلاك أدنى إليه من شرك نعله كشاة ملقاة بين الذئب والسماع. لا يردّها عنها إلا الراعى. فلو تخلّى عنها طرفة عين لتقاسمها أعضاء.

وهكذا حال العبد ملقى بين الله وبين أعدائه، من شياطين الإيس والجن فإن حماه منهم وكفّهم عنه لم يجدوا إليه سبيلا. وإن تخلّى عنه ووكله إلى نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم، بل هو نصيب من ظفّره منهم.

وفى هذا المشهد يعرف نفسه حقاً، ويعرف ربه. وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور «من عرف نفسه عرف ربه» وليس هذا حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن يمكن تأويله بثلاث تأويلات:

أحدها: أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة. ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدر. ومن عرفها بالذل عرف ربه بالعز. ومن عرفها بالجهل عرف ربه بالعلم. فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق، والحمد والثناء، والمجد والعتى. والعبد فقير ناقص محتاج. وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعييه وقره وذله وضعفه: ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله.

التأويل الثاني: أن من نظر إلى نفسه ومافيها من الصفات المدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة، عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به. فمعطى الكمال أحق بالكمال. فكيف يكون العبد حياً متكلاً، سميماً بصيراً مريداً عالماً، يفعل باختياره، ومن خلقه وأوجده لا يكون أولى بذلك منه؟ فهذا من أعظم المحال. بل من حمل العبد متكلاً أولى أن يكون هو متكلاً ومن جعله حياً عليماً سميماً بصيراً فاعلاً قادراً، أولى أن يكون كذلك.

قالتا ويل الأول من باب الضد. وهذا من باب الأولوية.

والتأويل الثالث: أن هذا من باب النفي. أي كما أنك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك. فلا تعرف حقيقتها، ولا ماهيتها ولا كيفيتها. فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته؟.

والمقصود: أن هذا المشهد يُتَرَفُّ العبد أنه عاجز ضعيف. فتزول عنه رعونات الدعاوى، والإضافات إلى نفسه، ويعلم أنه ليس له من الأمر شيء، إن هو إلا محض القهر والعجز والضعف.

● استشعار الافتقار لله

ثم مشهد الذل، والانكسار، والخضوع، والافتقار للرب جل جلاله. فيشهد في كل ذرة من

ذرائع الباطنة والطاهرة: ضرورة تامة، وافتقاراً تاماً إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته. وهذه الحال التي تحصل لقلبه لاتنال العبارة حقيقتها. وإنما تدرك بالحصول. فيحصل لقلبه كثرة خاصة لا يشبهها شيء. بحيث يرى نفسه كالإناء المروض تحت الأرجل، الذي لأشياء فيه، ولا به ولا منه، ولا فيه منفعة، ولا يرغب في مثله. وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيمه. فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير. ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً. فأتي خير ناله من الله استكثره على نفسه. وعلم أن قدره دونه، وأن رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به، وسياقته إليه. واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه، ورأها — ولو ساءت طاعات الشقلين — من أقل ما ينبغي لربه عليه. واستكثر قليل معاصيه وذنوبه. فإن الكثرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله.

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجده عليه! وذرة من هذا ونفس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من الميادين المعجيين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم. وأحب القلوب إلى الله سبحانه: قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة. وملكت هذه الذلة. فهو ناكس الرأس بين يدي ربه. لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلاً من الله.

قليل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء. فهذا سجود القلب.

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه. وإذا سجد القلب لله — هذه السجدة العظمى — سجدت معه جميع الجوارح. وعنا الوجه حينئذ للحى القيوم. وخشع الصوت والجوارح كلها. وذلل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية، ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الدليل إلى العزيز الرحيم. فلا يرى إلا متملقاً لربه، خاضعاً له، ذليلاً مستطفاً له. يسأله عطفه ورحمته. فهو يرضى ربه كما يرضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له. الذي لا غنى له عنه. ولا بد له منه. فليس له هم غير استرضائه واستعطافه. لأنه لاهية له ولا فلاح إلا في قربه ورضاه عنه، ومحبه له، يقول: كيف أغضب من حياتي في رضاه؟ وكيف أعدل عن سعادتني وفلاحي وفوزي في قربه وحده وذكره؟.

وصاحب هذا المشهد: يشهد نفسه كرجل كان في كنف أبيه يذوه باطبيب الطعام والشراب واللباس، ويربيه أحسن التربية، ويرقيه على درجات الكمال أتم ترقية. وهو القميص بمصالحه كلها. فبش أبوه في حاجة له. فخرج عليه في طريقه عدو فأسره وكفّه وشده وثاقاً. ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب. وعامله بضد ما كان أبوه يعامله به. فهو يتذكر

تربية والده وإحسانه إليه الفتيّة بعد الفينة. فتهيج من قلبه لواضع الحسرات كلما رأى حاله ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه. فينأى هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب، ويريد نحره في آخر الأمر. إذ حانت منه التفاتة إلى ديار أبيه. فرأى أباه منه قريباً. فسعى إليه. وألقى نفسه عليه، وانطرح بين يديه. يستغيث: يا أبتاه، يا أبتاه! انظر إلى ولدك وما هو فيه. ودموعه تستيق على خديه، قد اعتنقه والتزمه، وعدوه في طلبه، حتى وقف على رأسه. وهو ملتزم لوالده ممسك به. فهل تقول: إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه، ويغلى بينه وبينه؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده، ومن الوالدة بولدها؟ إذا قرأ عبد إليه، وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه طريحاً باباه. يُمرّغ تحته في ثرى أعتابه باكياً بين يديه، يقول: يارب، يارب، ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوى له سواك، ولا مغني له سواك. مسكينك وفقيرك، ومائلك ومؤملك ومرجيك. لا ملجأ له ولا منجأ له منك إلا إليك. أنت معاذه وبك ملاذه.

يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجير الناس عظماً أنت كاسره ولا يهضون عظماً أنت جابره

فإذا استبصر في هذا المشهد، وتمكن من قلبه. وباشره وذاق طعمه وحلاوته ترقي منه إلى مشهد العبودية والمحبة، والشوق إلى لقائه، والابتهاج به، والفرح والسرور به. فتقر به عينه، ويسكن إليه قلبه. وتطمئن إليه جوارحه ويستولى ذكره على لسان محبه وقلبه. فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية. وإرادات التقريب إليه وإلى مرضاته، مكان إرادة المعاصي ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات، مكان حركاتها بالمعاصي. قد امتلأ قلبه من محبته. ولهج لسانه بذكره. وانقادت الجوارح لطاعته. فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يعبر عنه.

ويحكى عن بعض العارفين، أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها. فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام. فلم أتمكّن من الدخول، حتى حثت باب الذل والافتقار. فإذا هو أقرب باب إليه وأوسع. ولا مزاحم فيه ولا معوق.. فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبة. فإذا هو — سبحانه — قد أخذ بيدي وأدخلني عليه. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه يقول: من أراد السعادة الأبدية، فليأزم عتبة العبودية.

وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب إلى الله من العبودية.
والقصد: أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله، وترمي به على طريق المحبة. فيفتح

له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق . وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة . لكن الذي يفتح منها من طريق العدل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والغيب والنقص والدم ، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزاً ، وتفريطاً وذبناً وخطيئة: نوع آخر وفتح آخر . والسالك بهذه الطريق غريب في الناس . وهم في وادٍ وهو في وادٍ . فالله المستعان . وهو خير الغافرين .

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له ، وفرحه بتوبة عبده . فإنه سبحانه يحب التوابين ، ويرحم التائبين .

فكلما طالع العبد من ربه سبحانه عليه قَبْلَ الذنب ، وفي حال مواقفته ، وبعده ، وبرّه به وحلمه عنه ، وإحسانه إليه : هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلى لقائه . فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها . وأى إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي ، وهو يُبْذَرُه نعمة ، ويعامله بالطفافه ، ويُشْبِلُ عليه شتره ؟

ولنتقصر على هذا القدر من ذكر «التوبة» وأحكامها وثمراتها . فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفرط الحاجة والضرورة إلى معرفتها ، ومعرفة أحكامها ، وتفصيلها ومسائلها . والله الموفق لمراعاة ذلك . والقيام به عملاً وحالاً . كما وفق له علماً ومعرفة . فما خاب من توكل عليه . ولاذّ به وجأ إليه . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٧) مَنْزِلَةُ الْإِنْبَاءِ

قد علمت أن من نزل في منزلة «التوبة» وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام. فإن «التوبة» الكاملة متضمنة لها . وهي مندرجة فيها . ولكن لابد من أفرادها بالذكر والتفصيل .
تبييناً لحقائقها وخواصها وشروطها .

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة» وقد أمر الله تعالى بها في كتابه . وأثنى على خليله بها، فقال (٥٤:٣٩) وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ) وقال (٧٥:١١) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَتَاهُ مَنِيْبٌ) وأخبر أن آياته إنما يتصر بها ويذكر أهل الإنابة. فقال (٦:٥٠) — ٨ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا؟ — إِلَى أَن قَالَ — تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِّكَ عِيدٍ مَنِيْبٍ) وقال تعالى (١٣:٤٠) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا. وَمَا يَذْكُرْ إِلَّا مِنَ الْبَیْبِ) وقال تعالى (٣١:٣٠) مَنِيْبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ. وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ — (الآية)

قد «مَنِيْبِينَ» منصوب على الحال من الضمير المستكن في قوله «فَأَقُمْ وَجْهَكَ» لأن هذا الخطاب له ولأمته. أي أقم وجهك أنت وأمتك منيْبين إليه . نظيره قوله (١:٦٥) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ) ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله «فَطَرْنَا النَّاسَ عَلَيْهَا» أي طهرهم منيْبين إليه . فلورحلوا وطهرهم لما عدلت عن الإنابة إليه . ولكنها تحول وتغير عما طُهرت عليه . كما قال صلى الله عليه وسلم «ما من مولود إلا يولد على الفطرة — وفي رواية: على الفطرة — حتى يعرب عنه لسانه» . وقال عن نبيه داود (٢٤:٣٨) فَاسْتَغْفِرْ رَبِّهِ وَتَخَرَّرَا كَمَا وَأَنَا) وأخبر أن ثوابه وجته لأهل الحشية والإنابة. فقال (٣١:٥٠) — ٣٤ وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مَنِيْبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ) وأخبر سبحانه أن الشرى منه إما هي لأهل الإنابة . فقال (١٧:٣٩) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبِشْرَى).

و«الإنابة» إِبَابَتَانِ: إِبَابَةٌ لِرَبوبيته . وهي إِبَابَةُ المخلوقات كلها . يشترك فيها المؤمن والكَاسِرُ، والبر والفاجر . قال الله تعالى (٣٣:٣٠) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مَنِيْبِينَ إِلَيْهِ) فهذا عام في حق كل داع أصابه ضرر . كما هو الواقع . وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام، بل تحيىع الشرك والكفر. كما قال تعالى في حق هؤلاء (٣٤:٣٣) ثُمَّ إِذَا أَذَقْتَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يَشْكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ) فهذا حالهم بعد إنبابتهم .

و «الإنابة» الثانية هي إنابة أوليائه . وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومعة .

وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخصوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه . فلا

يستحق اسم «المنيب» الا من اجتمعت فيه هذه الأربع . وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والتقدم. و«المنيب» إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت: المتقدم إلى محابه، وهي في اللغة: الرجوع. وهي هنا الرجوع إلى الحق.

قال الشيخ الهروي:

«وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلى الحق إصلاحاً، كما رجع إليه اعتذاراً. والرجوع إليه وفاء، كما رجع إليه عهداً. والرجوع إليه حالاً، كما رجعت إليه إجابة». أي لما كان الثالث قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تنمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والصح في طاعته. كما قال (٧٥:٧٠) إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً وقال (٢:١٦٠) إلا الذين تابوا وأصلحو فلا تنفع توبة وبطالة. فلا بد من توبة وعمل صالح: ترك لما يكره، وفعل لما يجب، تَخَلَّ عن معصيته. وتَحَلَّ بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهد، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك. فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً. فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانياً. والدين كله: عهد ووفاء. فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته. فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته، أو منته إلى الرسول بلا واسطة كما تكلم موسى. وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل. وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء. فأخذ عهده وعلى هؤلاء بالتعلم. وعلى هؤلاء بالنعم. ومدح الموفين بعهده. وأخبر بما لهم عنده من الأجر، فقال (٤٨:١٠) ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً وقال (١٧:٣٤) وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً وقال (١٦:٩١) وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم وقال (٢:١٧٧) والموفون بعهدهم إذا عاهدوا). وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة. وعهودهم مع الخلق. وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أن من علامات النفاق «القدر بعد العهد». فما أناب إلى الله من خان عهده وغدره. كما أنه لم يُنِيب إليه من لم يدخل تحت عهده. فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

وقوله «والرجوع إليه حالاً. كما رجعت إليه إجابة».

أي هو سبحانه قد دعاك فأجبت بلبيك وسعديك قولاً. فلا بد من الإجابة حالاً تُصَدِّق به المقال. فإن الأحوال تصدق الأقوال أوتكذبها. وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله. فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال. فارجع إليه إجابة بالحال. قال الحسن: ابن آدم: لك قول وعمل. وعملك أولى بك من قولك. ولك سريرة وعلانية. وسريتك أثلك بك من علانيتك.

• رجوع الاصلاح

قال «وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحاً بثلاثة أشياء: بالخروج من التبعات . والتوجه للعثرات . واستدراك الفائتات».

والخروج من التبعات: هو التوبة من الذنوب التي بين العبد وبين الله . وأداء الحقوق التي عليه للخلق.

ثم أن يتوجه لعثرتة إذا عثر، فيتوجه قلبه وينصدع . وهذا دليل على إنابته الى الله . بخلاف من لا يتألم قلبه، ولا يصدع من عثرتة . فإنه دليل على فساد قلبه وموته .

وأيضاً أن يتوجه لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر حتى كأنه هو الذي عثر بها ولا يشمت به . فهو دليل على رقة قلبه وإنابته .

ويكمل ذلك باستدراك الفائتات: وهو استدراك ما فاتته من طاعة وقرعة بأمثالها ، أو خير منها ، ولا سيما في بقية عمره ، عند قرب رحيله إلى الله . فبقية عمر المؤمن لاقية لها . يستدرك بها ماوت . ويحيى بها ما أمات .

• الرجوع وفاء بالعهد

قال «وإنما يستقيم الرجوع اليه عهداً: بثلاثة أشياء . بالخلاص من لذة الذنب . وترك الاستهانة بأهل الغفلة ، تحوفاً عليهم ، مع الرجاء لنفسك . وبالاستقصاء في رؤية علة الخدمة» .

فإن العهد إذا صَفَتْ له الإمانة إلى ربه تخلص من الفكرة في لذة الذنب . وعاد مكانها ألماً وتوجهاً لذكره ، والفكرة فيه . فما دامت لذة العكرة فيه موحودة في قلبه ، فإنابته غير صافية .

فإن قيل: أي الحالين أعلى؟ حال من يجد لذة الذنب في قلبه ، فهو يجاهدها لله ، ويتركها من خوفه ومحنته وإحلاله أو حال من ماتت لذة الذنب في قلبه وصار مكانها ألماً وتوجهاً وطعناً إلى ربه ، وسكوناً إليه ، والتذاذاً بحبه ، وتنعماً بذكره؟ .

قيل : حال هذا أكمل وأرفع . وغاية صاحب المجاهدة: أن يجاهد نفسه حتى يصل إلى مقام هذا ومنزلته ، ولكنه يتلوه في المنزلة والقرن ومنوط به .

فإن قيل : فأين أجر مجاهدة صاحب اللذة ، وتركه محابته لله ، وإيثاره رضا الله على هواه؟ . وسهلاً كان النوع الإنساني أفضل من النوع الملكي عند أهل السنة وكانوا خير البرية . والمطمئن قد استراح من ألم هذه المجاهدة وعوفى منها . فبيهما من التفاوت ما بين درجة المعاقى والمبتلى . قيل: النفس لها ثلاثة أحوال: الأمر بالذنب، ثم اللوم عليه والدم منه ، ثم الطمأنينة إلى

ربها والإقبال بكليتها عليه. وهذه الحال أعلى أحوالها. وأرفعها وهي التي يشمر إليها المجاهد، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو تشميره إلى درجة الطمأنينة إلى الله. فهو بمنزلة راكب القفار، والمهامه والأهوال، ليصل إلى البيت فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به. والآخر بمنزلة من هو مشغول به طائفاً وقائماً، وراكعاً وساجداً. ليس له التفات إلى غيره. فهذا مشغول بالغلظة، وذلك بالوسيلة. وكل له أجر. ولكن بين أجر العايات وأجر الوسائل بؤن.

وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه في ذات الله، وإن كان أكثر عملاً، فقد رمل المطمئن المنيب بجملته وكيفيته أعظم، وإن كان هذا المجاهد أكثر عملاً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل. وقد كان فيهم من هو أكثر صياماً وحباً وقراءة وصلاة منه. ولكن بأمر آخر قام بقلبه، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلا أمامه.

ولكن عبيدية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون أشق. ولا يلزم من مشقتها تفضيلها في الدرجة. فأفضل الأعمال الإيمان بالله. والجهد أشق منه وهو تاليه في الدرجة. ودرجة الصديقين أعلى من درجة المجاهدين والشهداء.

● وَجَل ... دون يأس

ومن علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك. فترجو لنفسك الرحمة، وتحشى على أهل الغفلة النعمة، ولكن أرجو لهم الرحمة. وأخشى على نفسك النعمة. فإن كنت لا بد مستهيناً بهم ماقماً لهم، لا تكشف أحوالهم لك، ورؤية ما هم عليه. فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم، وكن أرجو لهم لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً.

وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله. فإن من شهد حقيقة الخلق، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم، بل تفريطهم، وإضاعتهم لحق الله، وإقبالهم على غيره، وبيعتهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العال الفاني — لم يجد بداً من مقتهم. ولا يمكنه غير ذلك ألينة. ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره، وكان على بصيرة من ذلك: كان لنفسه أشد مقتاً واستهانة. فهذا هو الفقيه.

وأما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة: فهو التفنيس عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس. ولعل أكثرها — أو كلها — أن تكون حظاً لنفسك وأنت

لا تشعر.

فلا إله إلا الله. كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال: أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه؟ وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر ألبته، وهو غير خالص لله. ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقاً، وهو خالص لوجه الله. ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعملها.

فبين العمل وبين القلب مسافة. وفي تلك المسافة قُطَاع تمنع وصول العمل إلى القلب. فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه عبة ولا خوف ولا رجاء، ولا ربه في الدنيا ولا رغبة في الآخرة. ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره. فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق. ورأى الحق والباطل. وميز بين أولياء الله وأعدائه. ووجب له ذلك المرید من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة. وعليها قُطَاع تمنع وصول العمل إليه، من كبر وإعجاب ودلال، ورؤية العمل، ونسيان الله. وعلل حفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب. ومن رحمة الله تعالى: سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها وعانيتها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس وسقوط والاستحسار، وترك العمل، وخود العزم، وفقر الهمة. ولهذا لما ظهرت «رعاية» أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي واشتغل بها العباد غطت منهم مساجد كانوا يعمرونها بعبادة. والطبيب الحاذق يعلم كيف يطب النفوس. فلا يعمر قصرًا ويهدم مصرًا.

● ولا بد من حال يصدق المقال

وإنما يستقيم الرجوع إليه حالاً بثلاثة أشياء: بالإيأس من عملك. وبمعاناة اضطراك، ورؤية لطمه بك

فتيأس من النجاة بعملك. وترى النجاة إنما هي رحمته تعالى وعمله وفضله، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لن ينجي أحدٌ منكُم عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل».

وأما معاناة الاضطراب: فإنه إذا أيس من عمله: شهد أن الله عز وجل غني بالذات، فإن العبي وصف ذاتي للرب، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتي للعبد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

والفقر وصف ذاتي لا رُم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

وعلى العبد بعد ذلك أن ينظر إلى الطاف الله، ويعلم أن كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له: لطف من الله به، وممة قرَّب بها عليه، وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه. إذ هو المحسن والسبب والسبب. والأمر له من قبل ومن بعد. وهو الأول والآخرة. لا اله غيره. ولا رب سواه

(٨) مَنَزِلَةُ التَّذَكُّرِ

ثم يسزل القلب مرل «التذكر» وهو قرين الإبابة. قال الله تعالى (٤٠: ١٣) وما يتذكر (الامس ينسب) وقال (٥٠: ٨ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) وهو من خواص أولى الألباب. كما قال تعالى (١٣: ٢١) بما يتذكر أولو الألباب) وقال تعالى (٢: ٢٦٩) وما يتذكر إلا أولو الألباب).

و «التذكر» و «التفكر» منزلان يشتران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان. والمعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره، وتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن العتاج العليم. قال الحسن البصري: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير، وبالتفكير على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقن.

و «استذكر» تعمل من الذكر. وهو ضد النسيان. وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب. واحتير له بناء الفعل، لحصوله بعد مهلة وتدرج. كالتبصر والتمهيم والتعلم.

فمنزلة «التذكر» من «التفكر» منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التعيش عليه. ولهذا كانت آيات الله المستلوة والمشهددة يكثرى. كما قال في المثلوة (٤٠: ٥٤) ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب. هدى وذكرى لأولى الألباب) وقال عن القرآن (٦٩: ٤٨) وانه لتذكرة للمتقين) وقال في آياته المشهددة (٥٠: ٨) أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف نبيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى. وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب).

ف «التبصرة» آلة البصر، و «التذكرة» آلة الذكر. وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإبابة لأن العدد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر. فاستدل بها على ما هي آيات له. فزال عنه الإعراض بالإبابة، والعمى بالتبصرة، والفغلة بالتذكرة. لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها. فترتيب المنارل الثلاثة أحسن ترتيب، ثم إن كلا منها يد صاحبه و يقويه ويشمره.

وقال تعالى في آياته المشهددة (٥٠: ٣٦، ٣٧) وكم أهلكنا قبلهم من قرن ثم أشد منهم بطشاً. فنقبوا في البلاد، هل من محيص؟ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد).

والباس ثلاثة: رحل قلبه ميت. فذلك الذى لا قلب له. فهذا ليست هذه الآية ذكرى في

حقه

الثانى: رجل له قلب حتى مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التى يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب ليس حاضراً. فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى، مع استماده وجود قلبه.

والثالث: رجل حى القلب مستعد. تليت عليه الآيات. فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه. ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه. فهو شاهد القلب. ملق السمع. فهذا القسم هو الذى ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذى لا يبصر.

والثانى: بمنزلة البصير الطامع ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذى قد حادق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره. وقابله على توسط من البعد والقرب. فهذا هو الذى يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما فى الصدور.

فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم على ما قررت؟

قيل فيها سر لطيف، ولنا نقول: إنها بمعنى الواو. كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وثقاد، ملء باستخراج العبر. واستنباط الحكم. فهذا قلبه يوقمه على التذكر والاعتبار. فإذا سمع الآيات كانت له نوراً على نور. وهؤلاء أكمل خلق الله. وأعظمهم إيماناً وبصيرة. حتى كأن الذى أخبرهم به الرسول مشاهد لهم.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفى قلبه نور من البصيرة: ازداد بها نوراً إلى نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضاً (٢: ٢٦٥) فإن لم يصبها وأبلى فقتل والوايل والطل فى جميع الأعمال وآثارها، وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما فى درجات التفضيل ما بينهما. حتى إن شراب أحد النوعين يصرف يطيب به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجا. قال الله تعالى (٦: ٣٤) ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك الحق. ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) فكل مؤمن يرى هذا. ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون آخر.

● تفكر بقود الى صالح العمل

وأبنية التذكر ثلاثة: الانتماع بالعظة. والاستبصار بالعبرة. والظفر بشمرة المكرة.

الاستماع بالعظة: هو أن يقدح فى القلب قادح الخوف والرجاء. فيتحرك للعمل، طلباً للخلاص من الخوف، ورغبة فى حصول المرجو.

و «العظة» هي الأمر والنهي، المعروف بالترغيب والترهيب.

و «العظة» نوعان: عظة بالمسموع، وعظة بالمشهود. فالعظة بالمسموع: الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد، والنصائح التي جاءت على لسان الرسل وما أوحى إليهم. وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد في مصالح الدين والدنيا.

و «العظة» بالمشهود: الانتفاع بما يراه ويشهده في العالم من مواقع العبر، وأحكام القدر، ومجربيه. وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله.

وأما استنصار العبرة: فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه في منزل التفكير بقوة الاستحضار. لأن التذكر يعتقل المعاني التي حصلت بالتفكير في مواقع الآيات والعبر. فهو يظهر بها بالتفكير. وتتصل له وتحتل بالتذكر. فيقوى العزم على السير بحسب قوة الاستبصار. لأنه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب إذ الطلب فرع الشعور. فكلما قوى الشعور بالمحجوب اشتد سفر القلب إليه. وكلما اشتغل الفكر به ازداد الشعور به والبصيرة فيه. والتذكر له.

وأما الطفر بشرة الفكرة: فهذا موضع لطيف.

وللعبرة ثمرتان: حصول المطلوب تماماً بحسب الإمكان، والعمل بموجبه رعاية لحقه. فإن القلب حال التفكير كان قد كثر بأعماله في تحصيل المطلوب. فلما حصلت له المعاني وتميزت في القلب، واستراح العقل: عاد فتذكر ما كان حصله وطالعه. فانتبه به وفرح به. وصح في هذا المسزل ما كان فاتته في مرر التفكير. لأنه قد أشرف عليه في مقام التذكر، الذي هو أعلى منه. فأخذ حينئذ في الثمرة المقصودة. وهي العمل بموجبه مراعاة لحقه. فإن العمل الصالح: هو ثمرة العلم بالواقع، الذي هو ثمرة التفكير.

وإذا أردت فهم هذا بمنال حسي. فطال ما دام حاداً في طلبه، فهو في كلال وتعب. حتى إذا طفر به استراح من كد الطلب. وقدم من سفر التجارة. فطالع ما حصله وأصره. وصح في هذا الحال ما عساه علق فيه في حال اشتغاله بالطلب. فإذا صح له وبردت غييمته له. أخذ في صرف المال في وجوه الانتفاع المطلوبة منه. والله أعلم.

● شروط الانتفاع بالعظة

وإنما يتبع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء: شدة الافتقار إليها. والعمى عن عيب الواعظ. وتذكر الوعد والوعيد.

إذ يستند افتقار العبد إلى العظة — وهي الترغيب والترهيب — إذا صغمت إجابته وتذكره، وإذا همتى قويت إجابته وتذكره. لم تستند حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب، ولكن تكون

الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والهي.

فالنسب المتذكر: شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب. والمعارض المتكبر: شديد الحاجة إلى المجادلة.

فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله (١٦: ١٢٥) ادع إلى سبيل ربك بالحكمة، والموعظة الحسنة. وجادلهم بالتي هي أحسن) أطلق الحكمة، ولم يقيد بها بوصف الحسنة. إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي.

وأما «الموعظة» فقيدها بوصف الإحسان. إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك «الجدال» قد يكون بالتي هي أحسن. وقد يكون بغير ذلك. وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينته وحدته ورفقه. فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه، وأدله على المقصود. وأوصله إلى المطلوب. والتحقيق: أن الآية تتناول التوعين. وأما العمى عن عيب الواعظ: فإنه إذا اشتغل به حُرم الانتفاع بموعظته. لأن النفوس محبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به.

ولأجل هذه التارة: قال شعيب عليه السلام لقومه (١١: ٨٨) وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) وقال بعض السلف: إذا أردت أن يُقبل منك الأمر والنهي: فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له، المؤثرين به. وإذا نهيت عن شيء، فكن أول المنتهين عنه. وقد قيل:

يا أيها الرجل المعلم غيره
تصف الدواء لذي السقام من الضنى ومن الضنى تسمي وأنت سقيم
لا تثنه عن خُلُق. وتأتى مثله
عار عليك إذا فعلت ذميم
ابدأ بنفسك فأنتهها عن غيرها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُقبل ما تقول ويُتقَدى
بالقول منك. ويسفع التعليم

فالعمى عن عيب الواعظ: من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشية والحذر منه. ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به، وخافه ورجاه. قال الله تعالى (١١: ١٠٣) إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) وقال (٨٧: ١٠) سَيَذَكَّرُنَا مِنْ خَشْيَةِ) وقال (٧٩: ٤٥) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا) وأصرح من ذلك قوله تعالى (٥٠: ٤٥) فَذَكَّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره: شرط في الانتفاع بالمعات والآيات والعبر. يستحيل حصوله بدونه.

• شروط استبصار العبرة

وإنما تَشْتَبِرُ العبرة بثلاثة أشياء: بحياة العقل. ومعرفة الأيام. والسلامة من الأغراض.
و «العبرة» هي الاعتبار. وحقيقتها: العبور من حكم الشيء إلى حكم مثله. فإذا رأى من
قد أصابته غنة وبلاء لسبب ارتكبه، علم أن حكم من ارتكب ذلك السبب كحكمه.
وحياة العقل: هي صحة الإدراك. وقوة الفهم وجودته. وتحقق الانتفاع بالشيء والتضرره به.
وهو نور يخص الله به من يشاء من خلقه. وبحسب تفاوت الناس في قوة ذلك النور وضعفه،
ووجوده وعدمه، يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم. ويستند إلى القلب كنسبة النور
الباصر إلى العين.

ومن تجربات السالكين، التي جربوها فألفوها صحيحة: أن من أدمن «ياحى يا قيوم لا
إله إلا أنت» أورثه ذلك حياة القلب والعقل.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — شديد اللهب بها جداً. وقال لى يوماً:
لهذين الاسمين — وهما «الحى القيوم» — تأثير عظيم فى حياة القلب.

وأما معرفة الأيام: فبأن يعلم قصرها، وأنها أنفاس معدودة منصرفة. كل نفس منها يقابله
آلاف آلاف من السنين فى دار البقاء. فليس لهذه الأيام الحالية قط نسة إلى أيام البقاء. وهى
كمدة المنام لمن له عقل حى وقلب واع. فما أولاه أن لا يصرف منها نفساً إلا فى أحب الأمور
إلى نفسه. فلو صرفه فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطاً فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه؟ فكيف
إذا صرفه فيما يعمقه عليه ربه؟ فالله المستعان ولا قوة إلا به.

وكذلك يتذكر أيام الله التى أمر رسله بتذكير أممهم بها. كما قال تعالى (١٤: ٥) ولقد
أرسلنا موسى بآياتنا: أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور. وذكّرهم بأيام الله) وقد
فسرت «أيام الله» بنعمه، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصى. فالأول تفسير ابن عباس
وأبى بن كعب ومجاهد. والثانى: تفسير مقاتل.

والصواب: أن أيامه نعم النوعين. وهى وقائعه التى أوقعها بأعدائه، ونعمه التى ساقها إلى
أوليائه. وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدّث بها «أياماً» لأنها طرف لما. تقول العرب:
فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس. أى بالوقائع التى كانت فى تلك الأيام. فمعرفة هذه
الأيام توجب للعبد استبصار العسر. وبحسب معرفته بها تكون عثرته وعطته. قال الله تعالى
(١٢: ١١١) لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب).

ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض. من متاعه الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة
بالسوء. فإن اتسع الهوى يطمس نور العقل. و يعمى بصيرة القلب. ويصد عن اتباع الحق

ويضل عن الطريق المستقيم. فلا تحصل بصيرة العبدة معه البتة. والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره. فأثرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن. فالتبس عليه الحق بالباطل. فأنى له الانتفاع بالذكر، أو بالتفكير، أو بالعظة؟.

● ثمرة الفكرة تُجتنى بِقصر الأمل

وإنما تُجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء:

أحدها: قصر الأمل. والثاني: تدبر القرآن. والثالث: تجتنب مفسدات القلب الخمسة.

فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهو من أنفع الأمور للقلب. فإنه يبعثه على معافضة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمرّ السحاب، ومبادرة طيّ صحائف الأعمال. ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحث على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط. ويزهده في الدنيا. ويرغب في الآخرة. فيقوم بقلبه — إذا داوم مطالعة قصر الأمل — شاهد من شواهد اليقين. يريه فناء الدنيا. وسرعة انقضائها. وقلة ما بقى منها. وأنها قد ترحلت مُدْبِرَةً. ولم يبق منها إلا ضيابة كضبابة الإناء يتصاّبها صاحبها. وأنها لم يبق منها إلا كما بقى من يوم صارت شمس على رؤوس الجبال. ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة. وقد جاء أشرافها وعلامتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعا.

ويكفى في قصر الأمل قوله تعالى (٢٦: ٢٠٥ — ٢٠٧ أفأريت إن متعناهم سننين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) وقوله تعالى (١٠: ٤٥ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) وقوله تعالى (٧٩: ٤٦ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا غشيّة أوضحاها) وقوله تعالى (٢٣: ١١٣، ١١٤ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. فاسأل العاذنين. قال: إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) وقوله تعالى (٤٦: ٣٥ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، بلاغ. فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) وقوله تعالى (٢٠: ١٠٣، ١٠٤ يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا. نحن أعلم بما يقولون. إذ يقول أمثلهم طريقة: إن لبثتم إلا يوما) وحط النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يوماً والشمس على رؤوس الجبال فقال «إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه» وقصر الأمل سناؤه على أمرين: يتيقن زوال الدنيا ومفارقتها، ويتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها. ثم يقيس بين الأمرين ويؤثر أولاهما بالأخيار.

● تدبر القرآن يولد الافكار

وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه. وجمع الفكر على تديره وتعقله. وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر. قال الله تعالى (٢٩:٣٨) كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته. ولينذركم أولو الألباب) وقال تعالى (٤٧: ٢٤) أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها؟ وقال تعالى (٢٣: ٦٩) أفلم يدّبروا القول) وقال تعالى (٤٣: ٣) إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبرو يعمل به. فأتحدوا تلاوته عملا.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن، وإطالة 'تأمل'. وجمع فيه الفكر على معاني آياته. فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر يحذاهما. وعن طرقهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلها. وتثبت قواعد الإيمان في قلبه: وتشيد بنيانه. وتوطد أركانه. وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه. وتُخَصِّرُه بين 'الأمم، وتريه أيام الله فيهم. وتُبيِّنُه مواقع العبر. وتشهده عدل الله وفضله. وتعرفه ذاته، وأسماء وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما ييخسه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكه بعد الوصول والسقوط عليه، وقواطع الطريق وآفاتهما. وتعرفه النفس وصفاتها، ومقدمات الأعمال ومصحاتها وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم. ومراتب أهل سمادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه. وافتراقهم فيما يفترون فيه.

وبالجملّة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه. وتعرفه في مقابله ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما نستجيب لدعوته من الإهانة والعداوة بعد الوصول إليه.

فهذه مئة أمور ضروري للعبد معرفتها. ومشاهدتها ومطالعتها. فتشاهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتقيه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها. وتُمَيِّزُه بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه 'العالم. وتريه الحق حقا، والباطل باطلا. وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال. والسعي والرشاد. وتعطيه قوة في قلبه، وحياة وسعة وإشراحاً ونهضة وسرورا. فيصير في شأن 'الناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراہینہ، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما يسره عنه من سمات القصص، وعلى الإيحاء بالرسول، وذكر براہین صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم.

والتعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم. وعلى الإيمان بملكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتديرهم الأمور بإذنه ومشئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوى والسعى، وما يختص بالوع الإنسانى منهم، من حين يستقرى رحم أمه إلى يوم يوائى ربه ويقدم عليه. وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التى لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص. وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التى لا يحالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح. وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه. وعلى تفاصيل الأمر والنهى، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواظ والعبر، والمقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات، في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتحفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحشه على التضر والتخفف للقاء اليوم الثقيل. وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل. وتصد عنه اقتحام طرق البدع والأضاليل وتبعته على الارياد من النعم بشكر ربه الجليل. وتبصره بحدود الحلال والحرام. وتوقفه عليها لئلا يتعدها فيقع في العناء الطويل. وتثبت قلبه عن الزيف والميل عن الحق والتحويل. وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل. وتناديه كلما فترت عزماته، ووتى في سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل. فاللحاق اللحاق، والرحيل الرحيل. وتخذوه وتسير أمامه سير الدليل. وكلما خرج عليه كمين من كسائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفى تأمل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد.

● مكدرات القلوب

وأما مفسدات القلب فهي: كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشيع، والنام. فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب. ذلك أن القلب يسير إلى الله عز وجل، والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحق ونهجه، آفات النفس والعمل، وقطاع الطريق بنوره وحياته وقوته، وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وصحته وبصره، وغية الشواغل والقواطع عنه. وهذه الخمسة تظفي نوره، وتور عين بصيرته، وتنقل سمعه، إن لم تصمه وتبكيته — وتضعف قواه كلها. وتوهن صحته وتفتت عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائه. ومن لا شعور له بهذا هيمت القلب. وما لجرح بيت إيلام. فهي عاتقة له عن نبل كماله. قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له. وحمل بعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته في الوصول إليه.

فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبه، والطمأنينة بذكره، وانصرح والانتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه. فهذه جنته، العاجلة. كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز إلا بحواره في دار النعيم في الجنة الآجلة. فله جنتان. لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله - وجه - يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل حنة الآخرة.

وقال بعض العارفين: انه ليبر بالقلب اوقات. أقول: ان كان اهل الجنة في مثل هذا. انهم لفي عيش طيب.

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه - أو نحو هذا من الكلام.

وكل من له قلب حتى يشهد هذا ويعرفه ذوقاً.

وهذه الأشياء الخمسة: قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، ومعدئة له أمراضاً وعلا إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

● نخالط الناس في الخير فقط

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس سى آدم حتى يسود، ويوجب له تشتتاً وتفرقاً، وهما وعماء، وضعفاء، وحلاً لما يعجز عن حله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسّم فكره في اودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟.

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وعظمت من متعة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبي طالب - عند الوفاة - أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وقر معصهم من بعض - تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، ويعص الحلط عليها يديه ندماً، كما قال تعالى (٢٥: ٢٧ - ٢٩) ويوم يعص الطاليم على يديه، يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً. يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً. لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ حاءنى) وقال تعالى (٤٣: ٦٧)

الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو، إلا المتقين) وقال خليله إبراهيم لقومه (٢٩: ٢٥) إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم مِّبَعْضُكُمْ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً - ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) وهذا شأن كل مشتركين في غرض. يتوادون ماداموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب بدامة وحزناً وألماً. وانقلبت تلك المودة بغضا ولعنة، ودما من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزناً وعذاباً، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه، إذا أخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين على باطل، متوادين عليه: لا بد أن تتقلب مودتهما بغضاً وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يحالط الناس في الخير - كالجمعة والجماعة والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة - ويعتزلهم في الشر، وفصول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم. وليصبر على أذاهم، فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن أدى يعقبه عز ومجبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقهم يعقها ذلٌ وَ تَقْصُرُ لَهُ، ومقت، ودم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحد مآلاً، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المساجات. فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكه، ويتبع به ويقوى قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومجبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، قَلْبَلْ قلبه من بينهم كسل الشعة من العين، وليكن فيهم حاضراً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظاً. ينظر إليهم ولا يصبرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من يسهم، ورفى به إلى الملأ الأعلى، يسح حول العرش مع الأرواح العلوية الركية. وما أصعب هذا وأشق على النفوس، وإنه ليسر على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويدب اللها إليه، ويلقى به على ربه طريقاً دليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتعب المسدات الأربع الباقية الآتية ذكرها. ولا يزال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراع من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم.

● في التمني مزيد فساد

ويعد القلب أيضاً بركونه بحر التمني وهو بحر لا ساحل له. وهو البحر الذي يركبه

معالييس العالم، كما قيل: إن المتى رأس أموال المعالييس. وبصاعة زكاته مواعيد الشيطان وخيالات المحال والبهتان، فلا تزال أمواج الامانى الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب ببراكبه، وكل حسب حاله: من متمنٍ للقدرة والسلطان، وللصرب في الارض والتطواف في البلدان، او للاموال والاثمان، فيمثل المتمنى صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصولها، والتذ بالظفر بها. فيسا هو على هذه الحال، إذا استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب المهمة العاليه أمانيه حائمة حول العلم والإيمان. والعمل الذى يقره إلى الله. و يدنيه من جواره.

فأمانى هذا إيمان ونور وحكمة. وأمانى أولئك خدع وغرور. وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم متمنى الخير وربما حمل أحره في بعض الأشياء كأحر قاعله، كماقاتل: لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان الذى يتقى في ماله ربه. و يصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه. وقال «هما في الأجر سواء».

● تمام الخذلان في التعلق بغير الله

وانفسد التالت من مفسدات القلب التعلق بغير الله تبارك وتعالى. وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فيس عليه أصر من ذلك. ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به. وحده من جهة ما تعلق به. وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل، فتعلقه بغيره، والتفاتة إلى سواء. فلا على نصيبه من الله حصل. ولا إلى ما أمله من تعلق به وصل. قال الله تعالى (١٩: ٨١ - ٨٢) واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عراً. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) وقال تعالى (٣٦: ٧٥) واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم يصرون. لا يستطيعون نصرهم وهم لهم حند محضرون).

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله. فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له من تعلق به. وهو معرض للروال والقوات. ومثل التعلق بغير الله: كمثّل المستظل من الحر والبرد بيت العكبوت، أو هن البيوت

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التى سى عليها: التعلق بغير الله. ولصاحبه الدم والخذلان، كما قال تعالى (١٧: ٢٢) لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتفقد مدموماً ممدولاً) مدموماً لا حامد لك. ممدولاً لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذى قهر ساطل. وقد يكون مدموماً منصوراً كالذى قهر وتسلط عليه ساطل.. وقد يكون محموداً منصوراً

كألذى تمكّن ومملك بحق. والمتشرك المتعلق بغير الله قسمه أرءاً الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

● النهم المميت

ومن مفسدات القلب: الطعام. والمفسد له من ذلك نوعان: اءءهما ما يفسءه لعينه وذاته كالمحرمات. وهى نوعان: محرمات لحق الله، كالميتة والءم، ولحم الخنزير، وذى الناب من السباع والمخلب من الطير. ومحرمات لحق العباء. كالمسروق والمغصوب والمنهوب. وما أءذ بغير رضا صاحبه، إما قهراً وإما حياء وتذمماً.

والشأنى: ما يفسءه بقءره: وتعدى حءه، كالإسراف فى الحلال، والشبع المفرط، فإنه يشغله عى الطاعات. ويشغله بمزاولة مؤنة البطء ومعاولتها، حتى يظفر بها. فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذى بشغلها، وقوى عليه مواد الشهوة، وطرق مجارى الشيطان ووسعها، فإنه يجرى من ابن آءم يجرى الءم. فالصوم يضيق مجارىه وىء عليه طرقه، والشبع يطرءها ويوسعها. ومن أكل كثيراً شرب كثيراً. فنام كثيراً. ففسر كثيراً. وفى الءءىث المشهور «ما ملأ آءمى وعاء شراً من بطنه. بحسب ابن آءم لقيمات يقمن صلبه. فإن كان لا بد فاعلا فلتلث لطفامه، وتلت لشرابه، وتلت لنفسه».

● رقاء الغافلين

والمفسء الخامس. كثرة النوم، اء النوم الكثير يمت القلب، ويشغل البءن، ويضعى الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل. ومنه المكروه جءاً. ومنه الضار غير النافع للبءن. وأنفع النوم: ما كان عىء شءة الحاجة اليه. ونوم أول الليل أءم وأنفع من آخره. ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه. وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه. وكثر ضرره. ولا سيما نوم العصر. والنوم أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عىءهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس. فإنه وقت عنيمة. وللسير ذلك الوقت عىء السالكين مزية عظيمة. حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمءوا بالقعود عى السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس. فإنه أول النهار ومفتاحه. ووقت نزول الأرقاق، وحصول القسم، وحلول البركة. ومنه ينشأ النهار. وينسحب حكم جميعه عى حكم تلك الءصة. فينبغى أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه : نوم نصف الليل الأول ، وسدسه الأخير. وهو مقدار ثمان ساعات . وهذا أعدل النوم عند الأطباء . وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافاً بحسبه .

ومن النوم الذي لا ينفع أيضاً: النوم أول الليل، عقيب غروب الشمس، حتى تذهب فحمة العشاء. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهه . فهو مكروه شرعاً وطبعاً .
وكما أن كثرة النوم . مورثة . لهذه الآفات ، فمدافعتها وهجره ، مورث لآفات أخرى عظام : من سوء المزاج ويبسه ، وانحراف النفس ، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل . ويورث أمراضاً متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدته معها . وما قام الوجود إلا بالعدل . فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير . وبالله المستعان .

(٩) مَنَزِلُ الْعِصْمَةِ

ثم ينزل القلب منزل الاعتصام.
وهو نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله. قال الله تعالى (٣: ١٠٣) واعتصموا بحبل الله جميعاً. ولا تفرقوا) وقال (٢٢: ٧٨) واعتصموا بالله هو مولاكم. فنعم المولى ونعم النصير).

و «الاعتصام» افتعال من العصمة. وهو التمسك بما يعصمك، ويمنك من المحذور والمخوف. فالعصمة: الحمية. والاعتصام: الاحتماء. ومنه سميت القلاع: العواصم، لمعها وحايثها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله. ولانجاة الا لمن تمسك بهاتين العصمتين. فأما الاعتصام بحبله: فانه يعصم من الضلالة. والاعتصام به: يعصم من الملكة. فإن السائر الى الله كالسائر على طريق نحو مقصده. فهو يحتاج إلى هداية الطريق. والسلامة فيها. فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له. فالدليل كفيل بعصته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعُدَّة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتهما.

فالاعتصام بحبل الله: يوجب له الهداية واتباع الدليل. والاعتصام بالله، يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التي يستلزم بها في طريقه. ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى.

فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود: هو الجماعة. وقال «عليكم بالجماعة. فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة».

وقال مجاهد وعطاء «بعهد الله» وقال قتادة والسدى وكثير من أهل التفسير «هو القرآن».

وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى.

وقى الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله يرضى لكم ثلاثاً. ويسخط لكم ثلاثاً. يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويسخط لكم: قيل وقال. وإضاعة المال. وكثرة السؤال» رواه مسلم في الصحيح.

فالاعتصام بحبل الله. هو المحافظة على طاعته، مراقباً لأمره.

ونريد بمراقبة الأمر: القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحبها. لا لحرد العادة، أو لعل باعثة سوى امتثال الأمر. كما قال طلق بن حبيب في التقوى «هى العمل بطاعة الله على نور من الله. ترجو ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله» وهذا هو الإيمان والاحتساب، المشار إليه في كلام النبي صلى الله عليه وسلم كقوله «من صام رمضان إيماناً واحتساباً. ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً — غفر له» فالصيام والقيام: هو الطاعة و«الإيمان» مراقبة الأمر. وإحلاص الباعث: هو أن يكون الإيمان الأمر، لا شيء سواه. و«الاحتساب» رجاء ثواب الله.

فلا اعتصام يحيل الله يحصى من البدعة وآفات العمل. والله أعلم. وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه. والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحصى العبد ومنعه، ويعصمه ويدفع عنه، فإن ثمرة الاعتصام به: هو الدفع عن العبد. والله يدافع عن الذين آمنوا. فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يقضى به إلى العطب، ويحميه منه. فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشتر نفسه. ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انمقاداتها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه. فتفقد في حقه أسباب العطب. فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها. ويدفع عنه قدره بقدره، وإرادته بإرادته، ويعينه به منه.

• درجات الاعتصام

وهو على ثلاث درجات: اعتصام العامة بالخبر، استسلاماً وإدعائاً. بتصديق الوعد والوعد، وتعظيم الأمر والنهى. وتأسيس المعاملة على اليقين والإنصاف. فالعامة اعتصموا بالخبر الوارد عن الله، استسلاماً من غير منازعة، بل إيماناً. وانقادوا إلى تعظيم الأمر والنهى والإذعان لهما، والتصديق بالوعد والوعد. وأسوسوا معاملتهم على اليقين. لا على الشك والتردد. وسلوك طريقة الاحتياط. كما قال القائل:

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تُبعث الأجساد. قلت: إيكما
إن صَحَّ قولكما فلست بخاسر أو صَحَّ قولي فالخسار عليكما

هذه طريق أهل الريب والشك. يقومون بالأمر والنهى احتياطاً. وهذه الطريق لا تنجى من عذاب الله. ولا تحصل لصاحبها السعادة. ولا توصله إلى المأمّن. وأما الإنصاف الذى أسوسوا معاملتهم عليه: فهو الإنصاف فى معاملتهم لله ولخلقه. فأما الإنصاف فى معاملة الله: فإن يعطى المبودية حقها، وأن لا ينازع ربه صفات إلهيته التى لا تليق بالعبد ولا تنبئ له: من العظمة، والكبرياء، والجبروت. ومن إنصافه لربه: أن لا يشكر سواه على نعمه وينساه. ولا يستعين بها على معاصيه.

● لاعلاق

واعتصام الحاصة: وهو إسبال الخلق عن الخلق سطلاً، ورفض العلائق عرماً.
فإن حسن الخلق وتركبة النفس بكارم الأخلاق: يدل على سعة قلب صاحبه، وكرم نفسه
ومسجيته. وفي هذا الوصف: يكف الأذى، ويحمل الأذى.

وأما رفض العلائق عرماً: فهو العزم التام على رفض العلائق، وتركها في ظاهره وباطنه.
والأصل هو قطع علائق الباطن. فمتى قطعها لم تضره علائق الطاهر. فمتى كان المال في
يدك وليس في قلبك لم يصرك ولو كثر. ومتى كان في قلبك ضرك ولو لم يكن في يدك منه
شيء.

قيل للامام أحمد: أليكون الرجل زاهداً. ومعه ألف دينار؟ قال: نعم على شريطة ألا يعرج إذا
رادت ولا يحزن إذا نقصت.

ولعله — رحمه الله — يقصد قبح الأثر والبطر. أما فرح المؤمن بالنعمة ليقدرها ويشكرها بحسن وضعها
في موضعها من عباد الله ومراضيتها. فلا يمكن أن يكره ذلك الامام أحمد.
ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال.

وقيل لسفيان الثوري: أليكون ذو المال زاهداً؟ قال: نعم إن كان إذا زيد في ماله شكر، وإن
نقص شكر وصبر.

وإنما يحمى قطع العلائق الطاهرة في موضعين. حيث يخاف منها ضرراً في دينه، أو حيث لا
يكون فيها مصلحة راححة. والكمال من ذلك: قطع العلائق التي تصير كلالية على الصراط
تسعه من العبور. وهي كلاليت الشهوات والشهات. ولا يضره ما تعلق به بعدها.

ودروة الاعتصام إما تكون بالقرب. إذ لا ريب أن العبد يقرب من ربه، والرب يقرب من
عبده. فأما قرب العبد: فكقوله تعالى (٩٦ : ١٩) واسجد واقترب) وقوله في الأثر الإلهي «من
تقرب مني سبراً تقرب منه ذراعاً» وكقوله «وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت
عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي
يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. فني
بسمع. وني يبصر. وني يبطش. وني يمشي». وفي الحديث الصحيح «أقرب ما يكون
الرب من عبده: في جوف الليل الأخير» وفي الحديث أيضاً «أقرب ما يكون العبد من ربه
وهو ساجد» وفي الحديث الصحيح — لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبي صلى الله عليه
وسلم في السفر — فقال «يا أيها الناس، أرمعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم
ولا غائباً. إن الذي تدعونه سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

(١٠) مَنَزِلَةُ الْفِرَارِ

ومن منازل «إياك نعد وإياك نستعين» «مسرة الفرار». قال الله تعالى (٥١ : ٥٠) **فَهَرُوا إِلَى اللَّهِ** وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء. وهو نوعان: فرار السعداء. وفرار الأشقياء.

ففرار السعداء: الفرار إلى الله عز وجل. وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه. وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه. قال ابن عباس في قوله تعالى (فَهَرُوا إِلَى اللَّهِ) هَرُوا مِنْهُ إِلَيْهِ، وَاعْمَلُوا بِطَاعَتِهِ. وقال سهل بن عبد الله: هَرُوا مِمَّا سِوَى اللَّهِ إِلَى اللَّهِ. وقال آخرون: هَرُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَى تَوَابِهِ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ. وادّنه: الفرار من الجهل إلى العلم عقداً وسعيًا. ومن الكسل إلى التشمير حذاً وعزماً. ومن الصيق إلى السعة ثقةً ورجاءً.

و «جهل» بوعان. عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه. فكلاهما جهل لعمى وعزاً وشرعاً وحقيقة. قال موسى (٢ - ٦٧) **أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْهَاهِلِينَ** لما قال له قومه (أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا) أي من المستهزئين. وقال يوسف الصديق (١٢ : ٣٣) **وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ. وَأَكُنْ مِنَ الْهَاهِلِينَ** أي من مرتكبي ما حرمت عليهم. وقال تعالى (٤ : ٤) **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ** قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل ما عصي الله به فهو جهالة. وقال غيره. أجمع الصحابة أن كل من عصي الله فهو جاهل.

فاسرار المذكور. هو الفرار من الجهلين: من الجهل بالعلم إلى تخصيله، اعتقاداً ومعرفةً وبصيرة. ومن جهل العمل: إلى السعي النافع، والعمل الصالح قصداً وسعيًا. ثم يمر من إحالة داعي الكسل إلى داعي العمل والتشمير بالجد والاجتهاد. و «جيد» ههنا هو صدق العمل، وإحلاصه من توائب الفتور، ووعود التسويف والتهاون. وهو تحت السيف وسوف، وعسى، ولعل. فهي أصر تقي على العبد. وهي شجرة تمرها الحشرات والندامات.

والفرق بين الجد والعزم: أن «العزم» صدق الإرادة واستجماعها. و «الجد» صدق العمل ومنذ الجهد فيه. وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقى أوامره بالعزم والجد. فقال (٢ : ٦٣) خذوا ما آتيناكم بقوة) وقال (٧ : ١٤٥) وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء. فخذها بقوة) وقال (١٩ : ١٢) يا يحيى خذ الكتاب بقوة) أي ببجد واجتهاد وعزم. لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور.

ثم يهرب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه. وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق بأسباب مصالحه، ومصالح من يتعلق به، وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعدوه. يهرب من هميق صدره بذلك كله إلى سعة فضاء الثقة بالله تبارك وتعالى، وصدق التوكل عليه، وحسن الرجاء لجميل صنعه به، وتوقع المرجوم لمن لطفه وبره. ومن أحسن كلام العامة قولهم: لا هم مع الله. قال الله تعالى (٦٥ : ٢، ٣) ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجا من كل ما ضاق على الناس. وقال أبو العالية: مخرجا من كل شدة. وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضاييق الدنيا والآخرة. فان الله يجعل للمتنق من كل ما ضاق على الناس فاشد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجا. وقال الحسن: مخرجا مما نهاء عنه (٦٥ : ٣) ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي كافي من يشق به في نوائسه ومهماته. يكفيه كل ما أمه. و «الحسب» الكافي (٩ : ٥٩) حسبا الله) كافينا الله.

وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فان الله لا يخيب أمله فيه ألبتة. فانه سبحانه لا يحيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل. وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة. فانه لا أشرج للصدر، ولا أوسع له — بعد الايمان — من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به.

● تجريد

وأبعد الفرار من الرسوم الى الاصول، ومن الخطوط الى التجريد، فان أبواب العزائم في السير لا يقتضون برسوم الاعمال وظواهرها، ولا يعتدون إلا بآرواحها وحقائقها. وهذا القدر هو الذي فات الزنادقة وقطاع الطريق، فانهم لما علموا أن حقائق هذه الأوامر هي المطلوبة أرواحها، لا صورها وأشباحها ورسومها، قالوا: نجمع همنا على مقاصدها وحقائقها، ولا حاجة لنا إلى رسومها وظواهرها، بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره. وغرهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الأعمال وظواهرها دون مراعاة حقائقها

ومقاصدها وأرواحها. فأروا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك، وهمهم أعلى، وأنهم المشتغلون باللب وأولئك بالقشر. فترجّب من تقصير هؤلاء وعدوان هؤلاء تعطيل.

وحلة الأمر: أن هؤلاء عطلوا سره ومقصوده وحقيقته. وهؤلاء عطلوا رسمه وصورته. فظنوا أنهم يصلون إلى حقيقته، من غير رسمه وظاهره، فلم يصلوا إلا إلى الكفر والزندقة. وجحدوا ما علم بالضرورة بجبه الرسل به. فهؤلاء كمار زنادقة منافقون. وأولئك مقصرون غير كاملين. والقائمون بهذا وهذا هم الذين يرون أن الأمر متوجه إلى قلوبهم قبل جوارحهم. وأن على القلب عبودية في الأمر كما على الجوارح. وأن تعطيل عبودية القلب منزلة تعطيل عبودية الجوارح.

فهؤلاء خواص اهل الايمان واهل العلم والعرفان، الذين يكملون مرارهم بفرار من حظوظ النفس على اختلاف مراتبها، الى التجريد. وهذه الحظوظ لا يعرفها الا المعتنون بمعرفة الله ومراده، وحقه على عبده، ومعرفة نفوسهم واعمالهم وآفاتهما، ورُبّ مطالب عالية لقوم من العباد هي حظوظ لقوم آخرين يستعفرون الله منها ويفرون إليه منها. يرونها حائلة بينهم وبين مطلوبهم.

والحظ: ما سوى مراد الله الديني منك، كأنما ما كان. وهو ما يبرح حظ محرم إلى مكروه إلى مباح إلى مستحب، غيره أحب إلى الله منه. ولا يتميز هذا إلا في مقام الرسوخ في العلم بالله وأمره، وبالنفس وصفتها وأحوالها.

فهناك تبيين له الحظوظ من الحقوق. ويفر من الحظ إلى التجريد. وأكثر الناس لا يصلح لهم هذا. لأنهم إنما يعدون الله على الحظوظ وعلى مرادهم منه.

وبالجملة فصاحب هذا التجريد: لا يقنع من الله بأمر يسكن إليه دون الله، ولا يفرح بما حصل له دون الله، ولا يأسى على ما فاته سوى الله، ولا يستغنى برتبة شريفة، وإن عظمت عنده أو عند الناس. فلا يستغنى إلا بالله. ولا يفتقر إلا إلى الله. ولا يفرح إلا بموافقة لمرضاة الله. ولا يحزن إلا على ما فاته من الله. ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله، واحتجاب الله عنه. فكله بالله، وكله لله. وكله مع الله. وسيره دائماً إلى الله. قد رُفِعَ له علمه فشمّر إليه. وتجرد له مطلوبه فعمل عليه. تناديه الحظوظ: إني، وهو يقول: إنما أريد من إذا حصل لي حصل لي كل شيء. وإذا فاتني فاتني كل شيء. فهو مع الله مجرد عن خلقه. ومع خلقه مجرد عن نفسه. ومع الأمر مجرد عن الحظ المزاحم للأمر. وأما الحظ المعين على الأمر: فانه لا يحطه تناوله عن مرتبته ولا يسقطه من عين ربه.

وهذا أيضاً موضع غلط فيه من غلط من الشيوخ. فظنوا أن إرادة الحظ نقص في الإرادة. والتحقيق فيه: أن الحظ نوعان، حظ يزاحم الأمر، وحظ يؤازر الأمر فينفذه. فالأول هو المذموم. والثاني ممدوح. وتناوله من تمام العبودية. فهذا لون وهذا لون.

(١١) مَزَلَّةُ السَّمَاعِ

من منازل «إياك نعد وإياك نستعين» منزلة «السماع».

وهو اسم مصدر كالنبات. وقد أمر الله به في كتابه. وأثنى على أهله. وأخبر أن البرى له. فقال تعالى (٥ : ١٠٨) واتقوا الله واسمعوا وقال (٦٤ : ١٦) واسمعوا وأطيعوا وقال (٤ : ٤٦) ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظروا لكان خيراً لهم وأقوم) وقال (٣٩ : ١٧، ١٨) فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله. وأولئك هم أولو الألباب) وقال (٧ : ٢٠٤) وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا وقال (٥ : ٨٣) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق).

وجعل السماع من السماع منهم دليلاً على علم الخبر فيهم، وعدم ذلك دليلاً على عدم الخير فيهم. فقال (٨ : ٢٣) ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون).

وأحضر أعدائه أنهم هجروا السماع وبهوا عنه. فقال (٤١ : ٢٢) وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه).

واسماع رسول الايمان إلى القلب وداعيه ومعلمه وكم في القرآن من قوله (أفلا يسمعون؟) وقال (٢٢ : ٤٦) أفلم يسيرا في الأرض، فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها؟ — الآبة).

واسماع أصل العقل، وأساس الايمان الذي اسى عليه. وهورائده وحليته ووريره. ولكن نشأت كل الشان في المسموع. وفيه وقع حبط الناس واحتلافهم. وعلط مهم من علط. وحقيقة «السماع» تسيه القلب على معاني المسموع. وتحريكه عنها. طلباً وهرناً وحاً وبعضاً. فهو حاد يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه.

وأصحاب السماع، مهم من يسمع بطبعه وبفسه وهواه. فهذا حطه من مسموعه: ما وافق

ضحه

ومنهم: من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله. فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته.

ومنهم: من يسمع بالله، لا يسمع بغيره. كما في الحديث الإلهي الصحيح «فبي يسمع، وببي يبصر» وهذا أعلى سماعاً، وأصح من كل أحد.

والكلام في «السماع» — مدحاً وذمّاً — يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع، وحقيقته وسببه، والباعث عليه، وثمرته وغايته، فهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر «السماع» ويتميز النافع منه والضار. والحق والباطل. والممدوح والمذموم.

فأما «المسموع» فعلى ثلاثة أضرب.

أحدها: مسموع يحبه الله ويرضاه. وأمر به عباده. وأثنى على أهله. ورضى عنهم به.

الثاني: مسموع يقبضه ويكرهه ونهى عنه. ومدح المعرضين عنه.

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه. لا يحبه ولا يقبضه. ولا مدح صاحبه ولاذمه. فحكمه حكم سائر المباحات: من الناظر، والمشام، والمطعمات، والملبوسات المباحة. فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله ما لا يعلم. وحرم ما أحل الله. ومن جعله ديناً وثقوباً يُتقرب به إلى الله، فقد كذب على الله، وشرع ديناً لم يأذن به الله. وضاهى بذلك المشركين.

• السماع الإيماني

فأما النوع الأول: فهو السماع الذي مدحه الله في كتابه. وأمر به وأثنى على أصحابه، وذم المعرضين عنه ولعنهم. وجعلهم أفضل من الانعام سيلاً. وهم القائلون في النار (٦٧ : ١٠) لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وهو سماع آياته المتلوه التي أنزلها على رسوله.

فهذا السماع أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه. وهو على ثلاثة أنواع. سماع إدراك: بحاسة الأذن وسماع فهم وعقل. وسماع فهم وإحابة وقبول. والثلاثة في القرآن.

فأما سماع الإدراك: ففى قوله تعالى حكاية عن مؤمنين الجن قولهم (٧٢ : ١) إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهدى إلى الرشd فأما (٤٦ : ٣٠) يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى — الآية) فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والاحابة.

وأما سماع الفهم: فهو المنفى عن أهل الاعراض والغفلة. بقوله تعالى (٣٠ : ٥٢) فإنت لا تُسمع الموتى. ولا تُسمع الصم الدعاء) وقوله (٣٥ : ٢٢) إنا الله يسمع من يشاء. وما أنت بمسمع من في القبور).

فالتخصيص ههنا لاسماع الفهم والعقل. وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة: لا تخصيص فيه. ومنه قوله تعالى (٨ : ٢٣) ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم. ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون) أى لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقياداً لأسمعهم، وإلا فهم قد سمعوا متّع الإدراك «ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون» أى ولو أفهمهم لما إنقادوا ولا انتضوا بما فهموا. لأن في قلوبهم من داعي التولي والاعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه. وأما سماع القبول والاجابة: ففى قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين: أنهم قالوا (٢٤ : ٥١ سمعنا وأطعنا) فان هذا سمع قبول واجابة مشر للطاعة. والتحقيق: أنه متضمن للأثنوع الثلاثة. وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه. واستجابوا له.

ومن سمع القبول: قوله تعالى (٩ : ٤٧) وفيكم سماعون لهم) أي قابلون منهم مستجيبون لهم.

والمقصود: أن سماع المقرين: هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكا وفهما، وتدبراً، وإجابة. وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أوليائه: فهو هذا السماع.

وهو سماع الآيات، لاسماع الأبيات، وسماع القرآن، لاسماع مزامير الشيطان. وسماع كلام رب الأرض والسماء لاسماع قصائد الشعراء. وسماع المرشد، لاسماع القصائد. وسماع الأنبياء والمرسلين، لاسماع المغنين والمطربين.

فهذا السماع حاد يحدو القلوب، إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأهرام. ومحرك يثير ساكن العزومات، إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات. ومناد ينادى للاميان. ودليل يسير بالركب في طريق الحنان. وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح. من قيل فالق الاصباح «حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ».

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، ورداً على ضلالة، وإرشاداً من غي، وبصيرة من عمى، وأمرأ بمصلحة، ونهياً عن مضرة ومفسدة. وهداية إلى نور، وإخراجاً من ظلمة، وزجراً عن هوى. وحثاً على تقى. وجللاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء. وعصمة ونجاة، وكشف شهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل.

فمن قرئ عليه القرآن فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به، وعندئذ تردحم معاني المسموع ولطائفة وعجائبه على قلبه، مما شئت من علم وحكمه، وبصيرة وهداية، فيرداد حثاً لنفسه وسعراً إلى العاية المقصودة بالمسموع الذي جعل وسيلة إليها. وهو الحق سبحانه. فانه عاية

كل مطلب (٥٣ : ٤٢) وأن إلى ربك المنتهى) وليس وراء الله مرمى، ولا دونه مستقر. ولا تنزع العين بغيره أثبت. وكل مطلب سواء فظل زائل، وخيال مفارق مائل وإن تمتع به صاحبه فمتاع الغرور.

• السماع المذموم

وسماع آخر يغيضه الله ويكرهه. ويدح المعرض عنه. وهو سماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه. كسماع الباطل كله، إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به وقصد أن يعلم به حسن ضده. فإن الصد يظهر حسه الضد. كما قيل:

وإذا سمعتُ إلى حديثك زادني حباً له: سمعى حديث موكا

وكسماع اللغو الذي مدح التاركين لسماعه، والمعرضين عنه بقوله (٢٨ : ٥٥) وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) وقوله (٢٥ : ٧٢) وإذا مروا باللغو مروا كراماً) قال عماد بن الحنفية: هو الغناء. وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود «الغناء يست الفاق في القلب كما ينت الماء البقل» وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته. فانه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر. ولو عرف حقيقة التفاق وغايتها لأ نصره في قلبه. فانه ما اجتماع في قلب عد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى. وقد شاهدنا نحن وغيرنا نقل القرآن على أهل الغناء وسماعه، وتبرئهم به، وصياحهم بالقارىء إذا طول عليهم. وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرأه. فلا تتحرك ولا تطرب، ولا تهيج منها بواعث الطلب.

نقل الكتاب عليهم لما رأوا	تقييده بأوامر ونواهي
وعليهم خف الغنا لما رأوا	إطلاقه في اليهودون مناهي
يايرق ماضراً دين محمد	وتحسني عليه وتلقه إلا هي
سمعوا له زهداً وبرقاً إذ حوى	رجراً وتخويفاً بفعل مناهي
ورأوه أعظم للنفس عس	شهواتها. يا ويمها التناهي
وأنى السماع موافقاً أغراضها	فلأحل ذاك غدا عظيم الجاه

ومن أعجب العجائب: استدلال من استدل على أن هذا السماع مباح: بكونه مستلذاً طبعاً. تسلده العوس، وتسروج إليه. وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجميل يقاسى تم السير ومشقة الحمولة. فيهود عليه بالخداء، وأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه، وريادة في خلقه، وأن الله دم الصوت العقيق، فقال (٣١ : ١٩) إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) وأن الله وصف نعيم أهل الجنة. فقال فيه (٣٠ : ١٥) فهم في روضة يجرون). وأن ذلك هو سماع الطيب. فكيف يكون حراماً وهو في الجنة؟ وأن الله تعالى ما أذن لشيء كآذنه — أى كاستماعه — لنسج حس الصوت يتعنى بالقرآن. وأن أبا موسى الأشعري استمع السج صلي لله عليه وسلم إلى صوته، وأثنى عليه بحس الصوت. وقال (لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير داود) يقال له أبو موسى «لو علمت أنك استمعت لآثرته لك تحميراً» أى زينه لك وحسنه. وقوله صلى الله عليه وسلم (زينوا القرآن بأصواتكم).

وبقوله صلى الله عليه وسلم (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) والصحيح: أنه من التمسى بمعنى تحميس الصوت. وبذلك فسره الإمام أحمد رحمه الله، فقال: يحسه بصوته ما استطاع. وأن السج صلي لله عليه وسلم أقر عائشة على غناء القنيتين يوم العيد. وقال لأبى بكر ادعهما. فإن لكل قوم عيداً. وهذا عيدنا أهل الإسلام).

وبأنه صلى الله عليه وسلم أذن في العرس في الغناء وسماه لمراً. وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخداء وأذنه فيه. وكان يسمع أنساً والصحابة، وهم يرتجرون بين يديه في حمر الخندق.

حسن لديس يايعموا عمداً على الجهاد ما سقياً أندا

ودخل مكة والمنخر يرتجرون بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة. وحدا به الحادى في مصره من حير. فعمل يقول.

و لله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأمرنا سكبنا علينا
الديس قد بعو علينا
إذا أرادوا فتنة أبينا
وحرر ب صبح — أتينا
وبالصياح غولوا علينا
وحرر عن فملك ما استعيبنا

فدعا لقاتله.

وسمع قصيدة كعب بن زهير. وأجازه ببردة.

واستنشد الأسود بن سريع قصائد حميد بها رنه.

واستنشد من شعر أمية بن أبي الصلت مائة قافية.

وأنشده الأعشى شيئاً من شعره فسمعه.

وصلى ليبدأ في قوله «ألا كل شيء ما حلا الله باطل»

ودعا لسان (أن يؤيده الله بروح القدس مادام ينافع عنه) وكان يعجبه شعره. وقال له (ألهجهم. وروح القدس معك).

وبأن ابن عمر رضى الله عنهما رخص فيه. وعبد الله بن جعفر، وأهل المدينة.

وبأن الاجماع منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية، فلذة سماع صوت الآدمي

أولى بالإباحة، أو مساوية.

وبأن السماع يحذور روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه. فإن كان محبوه حراماً كان السماع معيئاً له على الحرام. وإن كان مباحاً كان السماع في حقه مباحاً. وإن كانت محبته رحامية كان السماع في حقه قرينة وطاعة. لأنه يحرك المحبة الرحامية ويقويها ويهيئها.

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن. والشم بالروائح الطيبة، والشم بالطعوم الطيبة. فإن كان هذا حراماً كانت جميع هذه اللذات والادراكات محرمة.

فالجواب: أن هذه حيدة عن المقصود. وروغان عن محل النزاع. وتعلق بما لا متعلق به. فإن جهة كون الشيء مستلذاً للحاسة ملائماً لها، لا يدل على إباحته ولا تحريمه، ولا كراهته ولا استحبابه. فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة: تكون في الحرام، والواجب، والمكروه. والمستحب. والمباح. فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل، ومواقع الاستدلال؟

وهل هذا إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة، وأن لذته لا ينكرها من له طبع سليم، وهل يستدل بوجود اللذة والملازمة على حل اللذيذ الملائم أحد؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات؟ وهل أصوات المعارف التي صمغ عن النبي صلى الله عليه وسلم تحرمها، وأن في أمته من سيئتها بأصح إسناد، وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها. وقال جمهورهم: بتحريم جللتها إلا لذينة تلتد السمع؟ وهل في التذاذ الحمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه: من إباحة، أو تحريم؟

وأعجب من هذا: الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب. وهو زيادة نعمة منه لصاحبه.

فيقال: والصورة الحسنة الجميلة، أليست زيادة في النعمة. والله خالقها. ومعطى حسناتها؟
أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها، والالتذاذ على الإطلاق بها؟

وهل هذا المذهب الإباحة
وأعجب من هذا: الاستدلال على الإباحة بسماع أهل الجنة. وما أجدر صاحبه أن يستدل
على إباحة الخمر بأن في الجنة خمرًا. وعلى حل لباس الحرير بأن لباس أهلها حرير. وعلى حل
أواني الذهب والفضة والتحلل بهما للرجال: بكون ذلك ثابتاً وجود النعيم به في الجنة.
أما القصائد التي مُدح بها الله ورسوله ودينه وكتابه، وهجي بها أعداؤه، فهذه لم يزل
المسلمون يروونها ويسمعونها ويتدارسونها. وهي التي سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأصحابه وأتباع عليها. وحرض حسناً عليها. وهي التي غرَّت أصحاب السماع الشيطاني.
فقالوا: تلك قصائد وسماعنا قصائد. فنعلم إذن. والسنة كلام. والبدعة كلام والتسيب كلام.
والغيبة كلام. والدعاء كلام. والقذف كلام.

ونظير هذا: ما غرهم من استحسانه صلى الله عليه وسلم الصوت الحسن بالقرآن. وأذنه له
وأذنه فيه، وعية الله له.

فنتقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان، بالفناء المقرون بالمعازف والشاهد. وذكر القفا
والشهد والخمر، ووصف الميول وفعلها، والعتاب والاستمطاف، والاشتياق، والقلق والقراق،
وما جرى هذا المجرى. مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر، بما لا نسبة بينهما.
وأعجب من هذا: استدلالهم على إباحة السماع - المركب مما ذكرنا من الهيئة
الاجتماعية - بفناء بنتين صغيرتين دون البلوغ، عند امرأة صبية في يوم عيد وفرح، بأبيات من
أبيات العرب، في وصف الشجاعة والحروب، ومكارم الأخلاق والشيم. فأين هذا من هذا؟
والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم. فإن الصديق الأكبر رضى الله عنه سمى
ذلك «مزموراً من مزامير الشيطان» وأقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه التسمية.
ورخص فيه لجويعتين غير مكلفتين، ولا مفسدة في إنشادهما. ولا استماعهما. أفيدل هذا على
إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السماع المشتغل على ما لا يخفى فياسبحان الله! كيف ضلت
العقول والأفهام؟.

وأعجب من هذا كله: الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من
الحدهاء المشتغل على الحق والتوحيد؟ وهل حرم أحد مطلق الشعر، وقوله واستماعه؟
وأعجب من هذا: الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة. وهل هذا إلا من
جنس قياس الذين قالوا (٢: ٢٧٥) إنما البيع مثل الربا) وأين أصوات الطيور إلى نغمات
الغيد الحسان، والأوتار والعيدان؟

والذى يفضّل النزاع في حكم هذه المسألة أن تعلم أنه إذا وقع النزاع في حكمه فعل من الأفعال، أو حال من الأحوال، أو ذوق من الأذواق، هل هو صحيح أو فاسد؟ وحق أو باطل؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقولة عند الله وعند عباده المؤمنين. وهى وحى الله الذى تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه. وتعرض عليه وتوزن به، فما زكاه منها وقله ورجحه وصححه فبهو المقبول. وما أسطه وورده فهو الباطل المردود. ومن لم يتن على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله: فليس على شيء من الدين. وإن وإن. وإنما معه خلع وعرور (٢٤ : ٣٩ كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء. حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. ووجد الله عنه فوقاه حسابه. والله سريع الحساب).

فإذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء: هل هو الإباحة أو التحريم؟ فينظر إلى مفسدته وثمرته وعائته. فإن كان مشتملاً على مفسدة راححة طاهرة، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته. بل العلم بتحريمه من شره قطعى، ولا سيما إذا كان طريقاً مقصياً إلى ما يغضب الله ورسوله موصلاً إليه عن قرب، وهو رقية له ورائد ويريد. فهذا لا يشك في تحريمه وأولو الصائير. فكيف ينظر بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الأبرة من السكر. لأنه يسوق النفس إلى السكر الذى يسوقها إلى المحرمات ثم يبيع ما هو أعظم منه سوقاً للنفس إلى الحرام بكثير؟ فإن الغشاة — كما قال ابن مسعود رضى الله عنه هو «رقية الرنا» وقد شاهد الناس: أنه ما عاناه صسى إلا وفسد، ولا امرأة إلا وبغت، ولا شاب إلا وإلا، ولا شيخ إلا وإلا. والعيان من ذلك يعنى عن البرهان.

وإذا لم يكن نذ من المحاكمة إلى الذوق. فهلم محاكمك إلى ذوق لا سكره نحن ولا أنت، غير هذه الأذواق التى ذكرناها. فالقلب يعرض له حالات: حالة حزن وأسف على مفقود، وحالة فرح ورضى بموجود. وله بمقتضى هاتين الحالتين عباديتان.

وله بمقتضى الحالة الأولى: عبودية الرضاء. وهى للسابقين. والبصر. وهى لأصحاب اليمين. وله بمقتضى الحالة الثانية: عبودية الشكر والشاكرون فيها أيضاً نوعان: ساقون، وأصحاب يمين. فاقطعت النفس والشيطان عن هاتين العبوديتين، بصوتين أحققتين فاجريين. هما للتيطان لا للرحمن: صوت التندب والياحة عند الحزن وفوات المحبوب. وصوت اللهور والمرار والعتاء عند الفرح وحصول المطلوب فغوض الشيطان بهذين الصوتين عن تبتك العبوديتين. وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بعينه في حديث أنس رضى الله عنه ((عما نهيت عن صوتين أحققتين، فاجريين: صوت وئيل عند مصيبة. وصوت مزمار عند نعمة)).

فدواء صاحب مثل هذا الحال: أن ينقل بالتدريج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة. مع
الامعان في تفهم معانيه، وتدبر خطابه قليلا قليلا. إلى أن ينخلع من قلبه سماع الأبيات.
ويجلس سمعة سماع الآيات. ويصير ذوقه وشربه وحاله ووحده فيه. فحينئذ يعلم هو من نفسه:
أنه لم يكن على شيء، ويتمثل حينئذ بقول القائل:

وكننت أرى أن قد تناهى سى الهوى إلى عناية مافوقها لي مطلب
فما تلاقينا. وعانيت حسها تيقنت أسي إما كنت العيب

ومنافاة النوح للصبر والغناء للشكر: أمر معلوم بالضرورة من الدين. لا يمتري فيه إلا أبعد
ساس من العلم والايان. فإن الشكر هو الاشتغال بطاعة الله لا بالصوت الأحق الفاجر، الذي
هو للشيطان. وكذلك النوح ضد الصبر، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في
السائحة — وقد ضربها حتى بدا شعرها — وقال «لا حرمة لها. إنها تأمر بالجرع. وقد نهى الله
عنه. ونهى عن الصبر. وقد أمر الله به. وتفقت الحى وتؤذى الميت. وتبيع عرتها. وتبكي شحور
غيرها».

ومعلوم عند الخاصة والعامة: أن فتنة سماع الغناء والمعارف أعظم من فتنة السجدة بكثر.
وإذى شاهدها — نحن وغيرنا — وعرفناه بالتجارب: أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهى في
قوم. وفشت فيهم. واشتغلوا بها، إلا سلب الله عليهم العدو، ولوا بالقحط والجذب وولاة
السوء.

ذلك أنهم باللهى والغناء يعلبون حياتهم من الجد إلى اللعب والسخرية ومن الرش إلى السفه والى. ومن
القوة إلى الضعف والوهن. فإن حياة الغناء واللهى واللعب لا تدخل عناصر القوة والشايط العلمى والعملى
الذى لا نجاح للأمة ولا قوة لها إلا به. فتصعب مصاعبها واقتصادها ورراعى وعسكربا فصلا عن انبهارها
الخلقى، وشدة تمرصها للعبة الله. و يصبح أمرها مرطا. لأن قلوبها غفلت عن الحق في سن الله وآياته
وحكمته. واتمت هواها فهوى بها إلى درك الوهن والضعف.

(١٢) مَنَزَلُ الْخَوْفِ

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «الخوف»

وهي من أجل منازل الطريق، وانفعها للقلب. وهي فرص على كل احد. قال الله تعالى (١٧٥:٣) فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين وقال تعالى (٤٠:٢) فإياي فاعبدون وقال (٤٤:٥) فلا تخشوا الناس واخشون ومدح أهله في كتابه وأثنى عليها فقال (٥٧:٢٣) — ٦١ ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون — الى قوله — أولئك بسارعون في الخيرات وهم لها سابقون وفي المستد والترمذي عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت «يا رسول الله، قول الله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة) أهر الذي يزنى، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: لا، يا ابنة الصديق. ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق. ويخاف أن لا يقبل منه» قال الحسن: عملوا والله بالطاعات. واجتهدوا فيها. وخافوا أن ترد عليهم. ان المؤمن جمع احسانا وخشية، والمتناق جمع اساءة وأمانا.

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبه» الفاظ متقاربة غير مترادفة. قال ابو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجاري الانفاس.

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.

وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الاحكام. وهذا سبب الخوف. لا أنه نفسه.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشهاده.

و«الخشية» أخص من الخوف. فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى (٢٨:٣٥) إنما يخشى الله من عباده العلماء) فهي خوف مقرون بمعرفة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية».

فالخوف حركة. والخشية اجتماع، وانقباض وسكون. فإن الذي يرى العدو والسيل ومحر ذلك: له حالتان.

إحداها: حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل اليه فيه. وهي الخشية. ومنه: احش الشيء، والمصاعف والمعتل احوان. كتقضى البارى وتقضض

وأما «الرهبية» فهي الامعان في الهرب من المكروه . وهي ضد «الرغبة» التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه .

وبين الرقب والهرب تناسب في اللفظ والمعنى . يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذي هو عقد تقاليد الكلمة على معنى جامع .

وأما «الوجل» فرحان القلب ، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوته ، اولرؤيته .
وأما «الهيبة» : فحوف مقارن للتعظيم والاجلال ، واكثر مايكون مع المحبة والمعرفة .
والاجلال : تعظيم مقرون بالحب .

فالخوف لعامة المؤمنين . والخشية للعلماء العارفين . والهيبة للمجبن . والاجلال للمقربين .
وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إني لاعلمكم بالله . وأشدكم له خشية» وفي رواية «خوفا» وقال «لوتعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش وخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله تعالى» .

فصاحب الخوف : يلتجئ الى الهرب . والامساك ، وصاحب الخشية : يلتجئ الى الاعتصام بالعلم . ومثلهما مثل من لا علم له بالطب . ومثل الطبيب الحاذق ، فالاول يلتجئ الى الحمية والهرب . والطبيب يلتجئ الى معرفته بالأدوية والأدواء .

قال ابو حنيفة : الخوف سوط الله ، يُقَوِّم به الشاردين عن بابه . قال : الخوف سراح في القلب . به يصر مافيه من الخير والشر . وكل أحد اذا خفته هربت منه الا الله عز وجل . فإنك اذ حتمت هربت اليه .

فالخائف هارب من ربه الى ربه .

قال ابو سليمان : ما فارق الخوف قلباً الا خرب . وقال ابراهيم بن سفيان : اذا سكن الخوف القلوب احرق مواضع الشهوات منها . وطرد الدنيا عنها . وقال ذو النون : الناس على الطريق مالم يزل عنهم الخوف . فاذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق .

والخوف ليس مقصودا لذاته . بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل . ولهذا يروى بزوال المخوف فإن أهل الجنة لاخوف عليهم ولاهم يحزنون .

والخوف يشتمل على الافعال . والمحبة تشتمل على الدات والصفات . ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم اذا دخلوا دار النعيم . ولا يلحقهم فيها خوف . ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه .

والخوف المحمود الصادق : محال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل . فاذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط .

قال ابو عثمان: صدقُ الخوفُ هو الورعُ عن الآثامِ ظاهراً و باطناً
وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: الخوفُ المحمود: ما حَزَكَ
عن محارم الله.

وقال صاحب المنار الشيخ المروني رحمه الله:
«الخوف: هو الانحلاع من طمأنينة الامن بمطالعة الخير».
يعني الخروح عن سكون الامن باستحصار ما أحبر الله به من الوعد والوعيد.
قال: «واول الخوف: الخوف من العقوبة، وهو الخوف الذي يصح به الايتن . وهويتولد من
تصديق الوعيد ، وذكر الجنابة ، ومراقبة العاقبة».

والخوف مسيق بالشعور والعلم . فمحال خوف الانسان مما لاشعور له به .
وله متعلقان . احدهما: نفس المكروه المحذور وقوعه . والثاني : السب واطريق المفضى اليه -
فعل قدير شعوره بإفشاء السب الى الخوف ، وبقدر المخوف: يكون حوبه . وما نقص من
شعوره بأحد هذين نقص من حوفه بحسبه .

فمن لم يعتقد أن سب كذا يفضي الى عذور كذا: لم يخف منه ذلك اسب . ومن المعتقد
أنه يفضي الى مكروه ما ، ولم يعرف قدره: لم يخف منه ذلك الخوف . فاذا عرف قدر المخوف،
وتيقن اهضاء السب اليه : حصل له الخوف .
هذا معنى تولده من تصديق الوعيد، وذكر الجناية.

وفي مراقبة العاقبة: زيادة استحضار المخوف، وحمله نصب عيه ، بحيث لا يسه . فإنه -
وان كان عالماً به - لكن نسيانه وعدم مراقبته يحول بين القلب وبين احواف . فذلك كان
الخوف علامة صحة الايمان . وتَزَحُّله من القلب علامة ترحل الايمان منه . والله أعلم .
ومن الخوف المحمود: خوف المكرفي حريان الانفاس المستغرقة في اليقظة، المشوبة
بالحلاوة.

يريد : ان من حصلت له اليقظة بلا عملة ، واستغرقت انماسه فيها : استحل ذلك . فإنه لا
احل من الحضور في اليقظة . فإنه يعني ان يخاف المكرف، وان يُثَلِّب هذا الحضور ، واليقظة
والحلاوة . فكم من مغبوط بحالة انعكس عليه الحال . ورجع من حس المعاملة الى قبيح
الاعمال . فأصبح يُثَلِّب كُفْيهِ ويصرب باليمين على الشمال؟ بينما يَذُرُّ أخوه مستميراً في ليالي
السمام . اذ أصابه الكسوف فدخل في الظلام . فثُلِّل بالأنس وحشة ، والحضور غيبةً ،
وبالاقبال اعراضاً ، وبالتقريب ابعاداً ، وبالجمع تفرقة .

• تكامل الخوف والرجاء

القلب في سيره الى الله عز وجل بمنزلة الطائر. فالمحبة رأسه. والخوف والرجاء جناحاه . فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران. ومتى قطع الرأس مات الطائر ومتى فقد الجناحان فهو عرضه لكل صائد وكاسر. ولكن السلف استحبوا ان يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف. هذه طريقة ابي سليمان وغيره.

قال: ينبغي للقلب ان يكون الغالب عليه الخوف. فإن غلب عليه الرجاء فسد . وقال غيره: أكمل الأحوال : اعتدال الرجاء والخوف ، وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب. والرجاء حاد. والخوف سائق. والله الموصل بمتة وكرمه.

(١٣) مَنَزِلَةُ الشَّفَاقِ

ومن منازل «اياك نعيد واياك نستعين» منزلة «الاشفاق»

قال الله تعالى (٢١: ٤٩) الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون وقال تعالى (٥٢: ٢٥ - ٢٧) وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا : إنا كنا قبلُ في أهلنا مشفقين * فمنُ الله علينا . ووقانا عذاب السموم).

«الاشفاق» رقة الخوف . وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه . فنسبته الى الخوف نسبة الرافة الى الرحمة . فإنها ألطف الرحمة وأرقها .

. وبدايته: اشفاق على النفس ان تجميع الى العناد، او ان تسرع وتذهب الى طريق الهوى والعصيان وممانعة المبدية . ثم هو اشفاق على العمل ان يصير الى الصياح .

فيخاف على عمله ان يكون من الاعمال التي قال الله فيها (٢٥: ٢٣) وقدما الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) وهي الاعمال التي كانت لغير الله وعلى غير امره وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ويخاف ايضا ان يضع عمله في المستقبل، اما بتركه . واما بمعاصي تفرقه وتحبطه . فيذهب ضائعاً . ويكون حال صاحبه كحال التي قال الله تعالى عن أصحابها (٢: ٢٦٥) أبود أحدكم ان تكون له جنة من نخيل واعناب تجري من تحتها الأنهار . له فيها من كل الثمرات — الآية) قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للصحابه رضى الله عنهم «فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ فقالوا: الله أعلم . فغضب عمر، وقال: قولوا: نعم، اولا نعلم . فقال ابن عباس: في نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين . قال: يا ابن أحمى قل . ولا تحقرن نفسك . فقال ابن عباس: ضُربت مثلاً لعمل . قال عمر . أى عمل؟ قال ابن عباس: لعمل . قال عمر: لرجل غنى يعمل بطاعة الله فبعث الله اليه الشيطان . فعمل بالمعاصي حتى اعرق جميع اعماله».

وأوسطه : اشفاق على الوقت: أن يشوبه تفرق.

أى يخذل على وقته: أن يخاطله ما يفرقه عن الحضور مع الله عز وجل، وعلى القلب: ان يزاخه عارض.

والعارض المزاحم: إما فترة، وإما شبهة، وإما شهوة: وكل سبب يعوق السالك.

ونهايته: اشفاق يصون سعيه عن التُّجِب، ويكف عن محاصمة الخلق، ويحمل صاحب الارادة على حفظ الجِد.

فالمعجب: يفسد العمل كما يفسده الرياء. فيشفق على سعيه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه.

والمحاصمة للخلق: مفسدة للخلق. فيشفق على خلقه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه. والارادة: يفسدها عدم الجِد. وهو الهزل واللعب، فيشفق على ارادته مما يفسدها فإذا صح له عمله وخلقته وازادته: استقام سلوكه وقلبه وحاله. والله المستعان.

(١٤) مَنَزِلَةُ الْخُشُوعِ

ومن منازل «اياك تعبد واياك نستعين» منزلة «الخشوع»

قال الله تعالى (١٦:٥٧) أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ، وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ؟ قال ابن مسعود رضى الله عنه «ما كان بين اسلاطنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين» وقال اس عباس «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من رسول القرآن» وقال تعالى (١:٢٣) قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ.

و«الخشوع» في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون. قال تعالى (١٠٨:٢٠) وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ أَيَّ سَكْتٍ، وَذَلَّتْ، وَخَضَعَتْ. ومنه وصف الارض بالخشوع وهو يسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالرؤى والنبات. قال تعالى (٣٩:٤١) مِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً. فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ).

و«الخشوع» قيام القلب بين يدي الرب بالخصوع والذل، والجمعية عليه. وقيل «الخشوع» الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع. فمن علاماته: أن العبد اذا حولف ورؤد عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والاند. وقيل «الخشوع» خلود سيران الشهوة. وسكون دخان الصدور. وإشراق بو طيم في القلب.

وقال الجيد: الخشوع تدلل القلوب لعلام العيوب. وأجمع المارفون على أن «الخشوع» غلة القلب. وثمرته على الجوارح. وهي تفض. و«رأى النسبي صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: لو خ - «لب هذا تحشمت جوارحه» وقال النبي صلى الله عليه وسلم «التقوى ههنا» وأشار صدره - ثلاث مرات» وقال بعض العارفين. حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. أى بعصهم رحلا خاشع التكين والبدن. فقال: يافلان، الخشوع ههنا. وأشار الى صدره. لا يمد. وأشار الى متكيه.

وكان بعض الصحابة — رضى الله عنهم — وهو حذيفة، يقول «اياكم وحشوع النفاق. فقيل له: وما حشوع النفاق؟ قال: ان ترى التجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع» ورأى عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة. فقال «يا صاحب الرقعة، ارفع رقبته. ليس الخشوع في الرقاب. إنما الخشوع في القلوب» ورأت عائشة — رضى الله عنها — «شباباً يمشون ويتمشون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك. فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع. وإذا قال: أسمع. وإذا ضرب: أوجع. وإذا أطمع: أشبع. وكان هو الناسك حقاً» وقال الفضيل بن عياض: كان يُكره أن يرى الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه. وقال حذيفة رضى الله عنه «أول ماتفقدون من دينكم الخشوع. وآخر ماتفقدون من دينكم الصلاة. ورب مصل لاخير فيه. ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً» وقال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

• الخشوع تذلل واستسلام

وجاع الخشوع: التذلل للأمر. والاستسلام للحكم، والاتضاع لنظر الحق. التذلل للأمر: تلقيه بذلة القبول والانقياد والامثال. ومواطأة الظاهر الباطن، مع اظهار الضعف، والافتقار الى الهداية للامر قبل الفعل، والاعانة عليه حال الفعل، وقبوله بعد الفعل. واما الاستسلام للحكم الشرعي: فبعد معارضته برأي اوشوهة. وأما الاتضاع لنظر الحق: فهو اتضاع القلب والجوارح، وانكسارها لنظر الرب اليها، واطلاعه على تفاصيل مافي القلب والجوارح وهذا احد التأويلين في قوله تعالى (٥٥: ٦) ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقوله (٧٩: ٤٠) وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى) وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية. فخوفه من هذا المقام: يوجب له خشوع القلب لاحماله. وكلما كان اشد استحضاراً له كان أشد خشوعاً. واما يفارق القلب اذا غفل عن اطلاع الله عليه، وبظرو اليه. والتأويل الثاني: انه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه. فلي الأول: يكون من باب اضافة المصدر الى الفاعل. وعلى الثاني: — وهو اليق بالآية — يكون من باب اضافة المصدر الى المخوف. واعلم ان نحو الخشوع ابا يكون بترقب آفات النفس والعمل، ورؤية كل ذي فصل عليك، فان انتظار ظهور نقائص نفسك وعيوبهما لك: يجعل القلب خاشعاً لاحماله، لمطالمة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما: من الكبير، والعجب، والرياء، وضعف الصدق، وقلة اليقين،

وتشتت السية، وعدم تجرد الباعث من الهوى النفساني، وعدم ايحاء «اسهل على الوجه الذي ترصاه لربك، وغير ذلك من عيوب النفس، ومفسدات الأعمال.

وأما رؤية فضل كل ذي فضل عليك : فهو ان تراعى حقوق الناس فتؤديها. ولا ترى ان ما فعلوه من حقوقك عليهم . فلا تعارضهم عليها. فإن هذا من رعونات النفس وحقاقتها. ولا تطالبهم بحقوق نفسك . وتعترف بفضل ذي الفضل منهم . وتنتهي قصل نفسك.

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول : العارف لا يرى له على احد حقاً. ولا يشهد له على غيره فضلاً. ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب.

● افتقار واستتار

و يكمل الخشوع بتصفية الوقت من مرادة الخلق، وتجريد رؤية الفضل، فيخفي أحواله عن الخلق جهده، كخشوعه وذله وانكساره، لئلا يراها الناس فيعجبه اطلاعهم عليها، ورؤيتهم لها. فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله. وكم قد اقتطع في هذه المفازة من سالك؟ والمعصوم من عصمه الله. فلا شيء انفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وانه لاشيء . وانه من ثم يصح له بعد الاسلام حتى يدعى الشرف فيه.

ولقد شاهدت من شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — من ذلك امرأ لم أشاهده من غيره. وكان يقول كثيراً: مالي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء. وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المُكْدَى واسن المكدي وهكذا كان أسي وجدي
وكان اذا أثنى عليه في وجهه يقول: والله اني الى الآن اجدد اسلامي كل وقت. وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً.

وبعت الي في آخر عمره قاعدة في التفسير بقطه. وعلى ظهرها أبيات بقطه من نظمته:

أنا المقير الى رب السريات أنا المسيكين في مجموع حالاني
أنا الظلوم لسفي. وهي ظالمتي والخير ان يأتينا من عنده يأتي
لا أستطيع لسفي جلب منفعة ولاعن النفس لي دفع المضرات
والمقر لي وصف ذات. لارم أبداً كما المعنى أبداً وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم وكلهم عنده عدل له آتني

واما تجريد رؤية الفضل: فهو أن لا يرى الفضل والاحسان إلا من الله، فهو المان به بلا سبب من العبد، ولا وسيلة سبقت منه توصل بها الى احسانه، بل ان جميع ما وصله من خير فمن منة الله عليه. وبفضله عليه من غير استحقاق منه. ولا بذل عوض استوجب به ذلك. كما قال تعالى (١٧:٤٩) يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا، قُلْ: لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ، بَلِ اللَّهُ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمُ لِلْإِيمَانِ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

وكذلك يشهد أن ما زوى عنه من الدنيا، او ما لحقه منها من ضرر وأذى فهو منة أيضاً من الله عليه من وجوه كثيرة، و يستخرجها الفكر الصحيح. كما قال بعض السلف «يا ابن آدم، لا تدري أي النعمتين عليك أفضل: نعمته فيما أعطاك، أو نعمته فيما رَزَى عنك؟» وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه «لا أبالي على أي حال أصبحت أو أمسيت. إن كان الغنى، إن فيه الشُّكْر. وإن كان الفقر، إن فيه اللَّصَبِر» وقال بعض السلف «نعمته فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لي منها. إني رأيته أعطاهما قوما فاغتروا».

(١٥) منزلة الاخبات

ومن منازل «اياك نعيد واياك نستعين» منزلة «الاخبات»

قال الله تعالى (٢٢:٣٤) وبشر المخبتين ثم كشف عن معناهم . فقال: (الذين اذا ذكر الله وجّلت قلوبهم. والصابرين على ما اصابهم، وللمقيمي الصلاة. وما رزقناهم ينفقون) وقال (١١:٢٣) ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون).

و«الْمُخْبِتَاتُ» في أصل اللغة: المكان المنخفض من الأرض. وبه فسر ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة لفظ «المخبتين» وقالوا: هم المتواضعون. وقال مجاهد: المخبت المطمن الى الله عز وجل. قال: والمخبت: المكان المطمن من الأرض. وقال الأخفش: الخاشعون . وقال ابراهيم التيمي: المصلون المخلصون. وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم. وقال عمر بن اوس : هم الذين لا يظلمون، واذا ظلموا لم ينتصروا.

وهذه الاقوال تدور على معنيين: التواضع، والسكون الى الله عز وجل، ولذلك عُذِيَ بِأَيٍّ، تضميناً لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون الى الله. وهو من أول مقامات الطمأنينة.

كالسكنة، واليقين، والثقة بالله ونحوها. فالإخبات: مقدمتها ومدؤها. وبه يكون ورود المأمّن من الرجوع والتردد.

إذ لما كان «الإخبات» أول مقام يتخلص فيه السالك من التردد— الذي هو نوع غفلة واعراض — والسالك مسافر الى ربه ، سائر اليه على مدى انفاسه . لا ينتهي مسيره اليه مادام نفسه يصحبه — كان حصول الاخبات له كالماء العذب الذي يرده المسافر على ظمأ وحاجة في أول مشاهله . فيرويه موره، ويزيل عنه خواطر تردده في اتمام سفره، او رجوعه الى وطنه لمشقة السفر. فإذا ورد ذلك الماء: زال عنه التردد، وخاطر الرجوع. كذلك السالك اذا ورد مورد «الاخبات» تخلص من التردد والرجوع ، ونزل اول مارل الطمأنينة بسره، وجّد في السير. وهو على ثلاث درجات . الدرجة الاولى: ان تستغرق العصمة الشهوة وتستدرك الارادة العفلة. و يستهوى الطلب السلوة.

المريد السالك: تعرض له غفلة عن مراده، تضعف ارادته. وشهوة تعارض ارادته. فتصده عن مراده. ورجوع عن مراده، وسلوة عنه.

فهذه الدرجة من الاخبات تحميه عن هذه الثلاثة. فتستغرق عصمته شهوته. و«العصمة» هي الحماية والحفظ. و«الشهوة» الميل الى مطالب النفس. و«الاستغراق» للشيء الاحتواء عليه والاحاطة به.

فتغلب عصمته شهوته وتقهرها، وتستوفى جميع اجزائها. فإذا استوفت العصمة جميع اجزاء الشهوة: فذلك دليل على اخباته. ودخوله في مقام الطمأنينة، ونزوله اول منازلها، وخلصه في هذا المنزل من تردد الخواطر بين الاقبال والادبار، والرجوع والعزم، الى الاستقامة والعزم الجازم، والجد في السير. وذلك علامة السكينة.

وتستدرك ارادته غفلته. و«الارادة» عند القوم: هي اسم لاول منارل القاصدين الى الله. و«المريد» هو الذي خرج من وطن طبعه ونفسه. واخذ في السفر الى الله، والدار الآخرة. فإذا نزل في منزل «الاخبات» احاطت ارادته بغفلته. فاستدركها، واستدرك بها فارطها. واما «استهواء طلبة لسلوته» فهو قهر محبة لسلوته، وغلبتها له. بحيث تهوى السلوة وتسقط، كالذي يهوى في بشر. وهذا علامة المحبة الصادقة: ان تقهر فيه وارء السلوة، وتدفعها في هوة لاحتيا بعدها أبداً.

فالخاص: أن عصمته وحايته: تقهر شهوته. وارادته تقهر غفلته. ومحبة تقهر سلوته. الدرجة الثانية: ان لا يوحش قلبه عارض، ولا يقطع عليه الطريق فتنة. و«العارض» هو المخالف. كالشيء الذي يعترضك في طريقك. فيجىء في عرضها. ومن اقوى هذه العوارض: عارض وحشة التفرد. فلا يلتفت اليه، كما قال بعض الصادقين: انمرادك في طريق طلبك: دليل على صدق الطلب. وقال آخر: لا تستوحش في طريقك من قلة السالكين. ولا تغتر بكثرة الهالكين.

وأما «الفتنة» التي تقطع عليه الطريق: فهي الواردات التي ترد على القلوب، تمنعها من مطالعة الحق وقصده. فإذا تمكن من منزل «الاخبات» وصحة الارادة والطلب: لم يطمع فيه عارض الفتنة.

وهذه العزائم لا تصح الا لمن أشرق على قلبه أنوار آثار الأسماء والصفات. وتجلت عليه معانيها.

الدرجة الثالثة: ان يستوى عنده المذح والدم، وتدوم لائيمته لنفسه. فاعلم انه متى استقرت قدم العبد في منزلة «الاخبات» وتمكن فيها: ارتفعت همته، وعلت

نفسه عن خطفات المدح والذم. فلا يفرح بمدح الناس، ولا يحزن لذمهم. هذا وصف من خرج عن حظ نفسه.

وصار قلبه مطرحاً لأشعة أنوار الأسماء والصفات. وباشر حلاوة الايمان واليقين قلبه. والوقوف عند مدح الناس وذمهم: علامة انقطاع القلب، وخلوه من الله، وانه لم تباشره روح محبته ومعرفته، ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة اليه.

ولا يذوق العبد حلاوة الايمان، وطعم الصدق واليقين، حتى تخرج الجاهلية كلها من قلبه. والله لو تحقق الناس في هذا الزمان ذلك من قلب رجل لرموه عن قوس واحدة. وقالوا: هذا مبتدع، ومن دعاة البدع. فالى الله المشتكى. وهو المسؤول الصبر والثبات. فلا بد من لقائه (٢٠: ٦١) وقد خاب من افترى) (٢٦: ٢٢٧) وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون). والمراد بالنفس، عند القوم: ما كان مملوئاً من أوصاف العبد، منمواً من أخلاقه وأفعاله. سواء كان ذلك كسبياً، أو خلقياً. فهو شديد اللزامة لها. وهذا احد التأويلين في قوله تعالى (٧٥: ٢) ولا أقسم بالنعفس اللوامة) قال سعيد بن جبير وعكرمة: تلوم على الخير والشر. ولا تصبر على السراء. ولا على الضراء.

وقال قتادة: اللوامة: هي الفاجرة.

وقال مجاهد: تندم على ما فاتت، وتقول: لو فعلت؟ ولو لم أفعل؟.

وقال الغزالي: ليس من نفس برة ولا فاجرة الا وهي تلوم نفسها: ان كانت عملت حيراً قالت: هلا زدت؟ وان عملت شراً قالت: ليتني لم أفعل.

وقال الحسن: هي النفس المؤمنة. ان المؤمن — والله — ماتراه الا يلوم نفسه: ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت بأكلة كذا؟ ما أردت بكذا؟ ما أردت بكذا؟ وان الفاجر يمضي قُدماً، ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها.

وقال مقاتل: هي النفس الكافرة. تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في امر الله في الدنيا. والقصد: ان من بذل نفسه لله بصدق كره بقاء معها. لأنه يريد ان يتقبلها ممن نذلت له. ولأنه قد قرَّبها له قرباناً. ومن قرَّب قرباناً قُتِلَ منه. ليس كمن رُدَّ عليه قربانه. فمقاه نفسه معه دليل على أنه لم يتقبل قربانه.

فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير الى الله عز وجل. وكل سائر لاطريق له الا على ذلك الجبل. فلا بد أن ينتهي اليه، ولكن منهم من هو شاق عليه. ومنهم من هو سهل عليه. وان ليسير على من يسره الله عليه.

وفي ذلك الجبل أودية، وعقبات، وشوك، ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين. ولا سيما أهل الليل المدلجين. فإذا لم يكن معهم عدد الايمان، وبصاييح اليقين تنقذ ريت

الاحبات، والا تعلقت بهم تلك الموانع . وتشبّثت بهم تلك القواطع . وحالت بينهم وبين السير .
فإن أكثر السائرين فيه رحعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته . والشيطان
على قُلَّة ذلك الجبل . يحذر الناس من صعوده وارتفاعه . ويخوفهم منه . فيتفق مشقة الصعود وقعود
ذلك المحوف على قُلَّته، وضعف عزمة السائر ونيتته . فيتولد من ذلك : الانقطاع والرجوع .
والمعصوم من عصمه الله .

وكلما رقى السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع ، وتحذيره وتخويفه . فإذا قطعه وبلغ
قلته : انقلبت تلك المخاوف كلهن أماناً . وحيث يسهل السير، وتزول عنه عوارض الطريق،
ومشقة عقباتها . ويرى طريقاً واسعاً آمناً . يفصى به إلى المنارل والمأهل . وعليه الأعلام . وفيه
الاقامات، قد أعدت لركب الرحمن .

فمين العبد وبين السعادة والفلاح : قوة عزيمة، وصبر ساعة، وشجاعة نفس، وثبات قلب .
والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . والله ذو العسل العظيم .

(١٦) فَزِلْنَا التَّزْهِيدَ

ومن منارل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرهد».

قال الله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) وقال تعالى (٥٧ : ٢٠) اعلّموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد. كمثل غيث أعجب الكفار نباته. ثم يهيج فتراه مصفراً. ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد، ومعقرة من الله ورضوان. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) وقال تعالى (١٠ : ٢٤) إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض — الآية) وقال تعالى (١٨ : ٤٥، ٤٦) واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض. فأصبح هشيماً تذروه الرياح — إلى قوله — وخير أملاً) وقال تعالى (٤ : ١٥) قل متاع الدنيا قليل. والآخرة خير لمن اتقى) وقال (٨٧ : ١٤، ١٧) بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى) وقال (٢٠ : ١٣١) ولا تُمدّدْ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) وقال تعالى (١٨ : ٧، ٨) إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً. وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرّزاً) وقال (٤٣ : ٣٣ — ٣٥) ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم شققاً من فضة — إلى قوله — والآخرة عند ربك للمتقين).

والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والاختبار بنخستها وقتلها وانقطاعها، وسرعة فنائها. والترغيب في الآخرة، والاحساس بشرفها ودوامها. فإذا أراد الله بعد خيراً أقام في قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة. ويؤثر بهما ما هو أولى بالاثار.

وقد أكثر الناس من الكلام في «الرهد» وكل أشار إلى ذوقه. ونطق عن حاله وشاهده. فان غلب عبارات القوم عن أدوائهم وأحوالهم. والكلام بلسان العلم: أوسع من الكلام بلسان الدوق، وأقرب إلى الحجة والبرهان.

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول. الرهد ترك ما لا ينفع في الآخرة. والورع: ترك ما تحاف صرره في الآخرة.

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في «الرهد، والورع» وأجمعها.

وقال سفيان الثوري: الرهد في الدنيا قصر الأمل. ليس بأكل العليظ، ولا لس العاء.

ذلك ان الزهد في الشيء في لغة العرب — التي هي لغة الاسلام — الابصراف عنه احتقاراً له، وتصغيراً لشأنه للاستغناء عنه بخير منه. ولم يحىء في القرآن إلا في شأن الذين شروا يوسف (١٢ : ٢٠) بثمن بخس دراهم معدودة. وكانوا فيه من الزاهدين) والزهد فيما أعم الله وتفضل به على الانسان في هذه الحياة، بما جعله بلاء وعرباً للمهتدين على الايمان والهدى وصالح الأعمال للمتقين، فيكون باقياً صالحاً للأخرة، وعزاً على الكفر والفسوق والمصيان، عند العافلين الكافرين — الزهد في ذلك: إعراض عن نعم الله وتحقيرها. وليس هذا من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا هدي أصحابه. وإنما كان هداهم تقدير هذه النعمة وحسبها والمرح بمصل الله عليهم بها وشكرها بالاستعانة بها على النجاة والفلاح فيما ابتلاهم الله به.

وقال الجسيد: الزهد في قوله تعالى (٥٧ : ٢٣) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم. والله لا يجب كل مختال فخور) فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود. ولا يأسف منها على مفقود.

وقال يحيى بن معاذ: الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح. وقال ابن الجلاء: الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينك، فيسهل عليك الاعراض عنها.

وقيل: هو عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف.

وقال الجنيد: الزهد خلو القلب عما خللت منه اليد.

وقال الامام أحمد: الزهد في الدنيا قصر الأمل.

وعنه رواية أخرى: أنه عدم فرحه باقياها. ولا حزنه على إدبارها. فانه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار. هل يكون زاهداً؟ فقال: نعم. على شريطة أن لا يقترح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت.

وقال أبو سليمان الداراني: ترك ما يشغل عن الله.

وسأل روم الجنيد عن الزهد؟ فقال: استصغار الدنيا، ومحو آثارها من القلب. وقال مرة: هو حلو اليد عن الملك، والقلب عن التمتع.

وقال يحيى بن معاذ: لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث حصا: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعمر بلا رياسة.

وقيل: الزهد الايثار عند الاستغناء، والفتوة الايثار عند الحاجة. قال الله تعالى (٥٩ : ٩) ويؤثرون على أنفسهم ولي كان بهم خصاصة).

وقد قال الامام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه. الأول: ترك الحرام. وهو زهد العوام. والثاني: ترك المصا من الحلال. وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله. وهو زهد العارفين.

وهذا الكلام من الامام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ، مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته. وهو من أجمع الكلام. وهويدل على أنه رضى الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى. وقد شهد الشافعي رحمه الله بامامته في ثمانية أشياء «أحدها الزهد». والذي أجمع عليه العارفون: أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة. وعلى هذا صنف المتقدمون كتب الزهد. كالرهد لعبد الله بن المبارك، وللامام أحمد، ولوكيع، ولهناد بن السري، وغيرهم.

ومتعلقة ستة أشياء. لا يستحق العبد اسم «الزهد» حتى يزهد فيها. وهي المال، والصورة، والرياسة، والناس، والفس، وكل ما دون الله.

وليس المراد رفضها من الملك. فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما. ولهما من المال والملك والساء ما هما. وكان تينا صلى الله عليه وسلم من أزهد البشر على الاطلاق. وله تسع تسوة. وكان علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان - رضي الله عنهم - من الزهاد. مع ما كان لهم من الأموال، وكان الحسن بن علي رضي الله عنه من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحاً لهن، وأغناهم. وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الرهاد، مع ما كان كثير. وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد. وكان له رأس مال يقول: لو لا هو لتمتدل بنا هؤلاء.

ومن أحسن ما قيل في الزهد، كلام الحس أوجيه: ليس الرهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال. ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة - إذا أصبت بها - أرغب منك فيها لو لم تصبك. فهذا من أجمع كلام في الرهد وأحسنه. وقد روى مرفوعاً.

● ستة الزهد ماضية

وقد اختلف الناس في «الزهد» هل هو ممكن في هذه الأرملة أم لا؟ فقال أوحصص: الرهد لا يكون إلا في الحلال. ولا حلال في الدنيا، فلا زهد. وخالفه الناس في هذا. وقالوا: بل الحلال موحود فيها. وفيها الحرام كثيراً، وعلى تقدير: أن لا يكون فيها الحلال. فهذا ادعى إلى الرهد فيها، وتناول ما يتناول المضطر منها، كتناوله للميتة والدم ولحم الخنزير.

وقال يوسف بن أسباط: لولعني أن رحلا تبلغ في الرهد مرلة أي در وأني الدرداء وسلمان والمقداد وأشباههم من الصحابة رضي الله عنهم ما قلت له زاهد. لأن الرهد لا يكون إلا في

الحلال المحض. والحلال المحض لا يوجد في زماننا هذا. وأما الحرام: فان ارتكبه عذبك الله عز وجل.

ثم اختلف هؤلاء في متعلق الزهد.

فقال طائفة: الزهد إنما هو في الحلال. لأن ترك الحرام فريضة.

وقالت فرقة: بل الزهد لا يكون إلا في الحرام. وأما الحلال: فنعمة من الله تعالى على عبده.

والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. فشكره على نعمه، والاستعانة بها على طاعته، واتخاذها

طريقاً إلى حبه: أفضل من الزهد فيها. والتخل عنها، ومحابة أسبابها.

والتحقيق: أنها إن شغلته عن الله. فالزهد فيها أفضل. وإن لم تشغله عن الله، بل كان

شاكراً لله فيها، فحاله أفضل. والزهد فيها تجريد القلب عن التعلق بها، والطمأنينة إليها. والله

أعلم.

● استبراء واستعلاء

وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: الزهد في الشهوة. بعد ترك الحرام بالحد من

المتنقة، والأنفة من المتنقة، وكراهة مشاركة الفساق.

أما الزهد في الشهوة: فهو ترك ما يشتهى على العبد: هل حلال، أو حرام؟ كما في حديث

التعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم (الحلال بين. والحرام بين.

وبين ذلك أمور مشتبها. لا يعلمهن كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات اتقى الحرام.

ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى. يوشك أن يرتع فيه.

ألا وإن لكل ملك حمى. ألا وإن حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت

صلح لها سائر الجسد. وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد. ألا وهي القلب).

ثم يأتي نفس لنفسه من نقصه عدد ربه، وسقوطه من عينه. لا أنفته من نقصه عند الناس،

سقوطه من أعينهم. وإن كان ذلك ليس مذموماً، بل هو محمود أيضاً. ولكن المذموم: أن تكون

أنفته كلها من الناس، ولا يأتي نفس من الله.

أما كراهة مشاركة الفساق» فذلك أن الفساق يزدحون على مواضع الرعية في الدنيا. وتلك

المواقف بهم كظيظ من الرحام. فالراهد يأتي من مشاركتهم في تلك المواقف. ويرفع معه

عنها، لحسة شركائه فيها، كما قيل لبعضهم: ما الذي زهدك في الدنيا؟ قال: قلة وفائها، وكثرة

حفاؤها، ونخسة شركائها.

إذا لم أترك الماء اتقاء تركت لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام رفعت يدي ونفسي تشتهي
وتجنب الأسود ورود ماء إذا كان الكلاب يَلْتَقِنُ فيه

● نناء... في مكون

الدرجة الثانية: اعتنام التمرغ الى عمارة الوقت، وحَسَم الجأش.
إذ لما كان الزهد لأهل الدرجة الأولى: خوفاً من المَعْتَبَةِ، وحذراً من المقصّة: كان الزهد لأهل هذه الدرجة أعلى وأرفع. وهو اغتنام الفراغ لعمارة أوقاتهم مع الله. لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا، فانه نصيبه من انتهاز فرصة الوقت. فالوقت سيف إن لم تقطعه والا قطعك.
وعمارة الوقت: الاشتغال في جميع آثائه بما يقرب إلى الله، أو يعين على ذلك من مأكّل أو مشرب، أو مشكح، أو منام، أو راحة. فانه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله، وتجنب ما يسيخطه. كانت من عمارة الوقت، وإن كان له فيها أثم لذة فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيات.

بل لا تحسب أن عمارة الوقت بالصلاة ونحوها محب. فان عمارة الوقت بالعمل الصالح شكراً لله، والزراعة والصناعة، والعمل في عمارة الأرض واستخراج كنوزها وإصلاحها، وتسمية الثروات وإعداد القوة والعدد والمعد، لتكون الأمة قادرة على تمكين دينها، وإقامة شرائع الاسلام، ومد ظل عدله ورحمته على الناس، وإحراجهم من الظلمات إلى النور، وكذلك حسن العشرة مع الأهل والولد والجار بكل ما يجعل العشرة حسنة من مأكّل ومشرب وملبس، وغير ذلك مما يهيئ الحياة الرعيّة، والعيش السعيد للأسرة، لتكون في جو ومبشرة صالحة كريمة، لانشاء جيل جديد من أبناء صالحين ناعمين. عاملين لقوة الأمة وعزتها، وكذلك التمهير في الصناعات والحرف التي تسق بها الأمة غيرها في مصار العمران، كل ذلك ونحوه من شكر الله على نعمه فيما أعطى، وحسن الانتفاع به. يعني أن يعمّر الوقت به.

فالمحب الصادق ربما كن سيره القلبي في حال أكله وشربه، وراحته، أقوى من سيره البدني في بعض الأحيان.

ولا ريب أن النفس إذا نالت خطأ صالحاً من الدنيا قويت به وسرت، واستجمعت قواها وجمعتها. وزال تشتهاها.

وأما «حسم الجأش» فهو قطع اضطراب القلب، المتعلق بأسباب الدنيا، رغبة ورهبة، وحباً وبعصاً، وسعياً. فلا يصح الزهد للعد حتى يقطع هذا الاضطراب من قلبه. بأن لا يلتفت إليها،

ولا يتعلق بها في حالتي مباشرته لها وتركه. فان الزهد زهد القلب، لا زهد الترك من اليد وسائر الأعضاء. فهو تخلي القلب عنها. لا خلوا اليد منها.

● زهد بماذا... وما تَمَّ شيء!!

الدرجة الثالثة: الزهد في الزهد. وهوي ثلاثة أشياء: استحقار ما زهدت فيه. واستواء الحالات فيه عندك. والذهاب عن شهود الاكتساب.

فالزهد في الزهد يفسر بثلاثة أشياء.

أحدها: احتقاره ما زهد فيه. فان من امتلأ قلبه بحبة الله وتعظيمه لا يرى أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق أن يجعل قرباناً. لأن الدنيا بخذاً فيراها لا تساوي عند الله جناح بعوضة. فالعارف لا يرى زهده فيها كبير أمر يعتد به ويحتفل له، فيستحي من صَحَّ له الزهد أن يجعل ما تركه لله قدراً يلاحظ زهده فيه، بل يفنى عن زهده فيه كما فنى عنه. ويستحي من ذكره بلسانه، وشهوده بقلبه.

وأما استواء الحالات فيه عنده: فهو أن يرى ترك ما زهد فيه وأخذه: متساويين عنده. إذ ليس له عنده قدر. وهذا من دقائق فقه الزهد. فيكون زاهداً في حال أخذه، كما هو زاهد في حال تركه، إذ همته أعلى عن ملاحظته أخذاً وتركاً، لصغره في عينه.

وأما «الذهاب عن شهود الاكتساب» فمعناه:

أن يشاهد تفرد الله بالعطاء والمنع. فلا يرى أنه ترك شيئاً ولا أخذ شيئاً. بل الله وحده هو المعطي المانع. فما أخذه فهو مجرى لعطاء الله إياه، كمجرى الماء في النهر. وما تركه لله، فالله سبحانه وتعالى هو الذي منعه منه. فيذهب بمشاهدة القَعَال وحده عن شهود كسبه وتركه.

(١٧) مَنِزِلَةُ الْوَرَعِ

ومن منازل «إياك معبه وإياك نستعين» مرة «الورع»

قال الله تعالى (٢٣ : ٥١) يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً. إني بما تعملون عليم) وقال تعالى (٧٤ : ٤) وثيابك فطهر) قال قتادة وعاهد: بمسك فطهر من الذنب. فكفى عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم الحمي والصحاك، والتمعي، والرهري، والمحققين من أهل التفسير. قال ابن عباس: لا تلبسها على معصية ولا غدر. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإني — بحمد الله — لا ثوبَ غادرٍ لبستُ. ولا مِنْ غُدْرَةٍ اتَّقَنعُ

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: طاهر الثياب وتقول للمادر والفاخر: دنس الثياب. وقال أبي بن كعب: لا تلبسها على العدر، والظلم والاثم. ولكن السها وأنت نرُّ طاهر.

وقال الضحاك: عملك فأصلح. قال السدي: يقال للرجل، إذا كان صالحاً: إنه لظاهر الشياب. وإذا كان فاجراً: إنه لحبيث الثياب. وقال سعيد بن جبير: وقلبك وبيتك فطهر. وقال الحسن والقرظي: وخلقتك فحسن.

وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النحاسات التي لا تجوز الصلاة معها. لأن المشركين كانوا لا يطهرون، ولا يطهرون ثيابهم.

وقال طاووس: وثيابك فقصر. لأن تقصير الثياب طهارة لها. والقول الأول: أصح الأقوال.

ولا ريب أن تطهيرها من النحاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق. لأن نحاسة الظاهر تورث نحاسة الباطن. ولذلك أمر القائم بين يدي الله عز وجل بارتئها والعد عنها.

والمقصود: أن «الورع» يظهر دنس القلب ونجاسته. كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته. و من الثياب والقلوب ماسة ظاهرة وباطنة. ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله. ويؤثر كل مسهما في الآخر. ولهذا نهى عن لباس الحرير والذهب، وحلولة السباع، لما تؤثر في القلب من اميئة المماية للسودية والحسنة. وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر حفي. يعرفه أهل الصائير من نقافتها ودسها ورائحتها، وبهحتها وكسفتها، حتى إن ثوب البر يعرف من ثوب الفاجر، وليسا عليهما.

وقد جمع السيبي صلى الله عليه وسلم الورع كله في كلمة واحدة. فقال (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) فهذا يعم الترك لما لا يعنى: من الكلام، والنظر والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة. فهذه الكلمة كافية شافية في الورع. قال اسحاق بن حلف: الورع في المنطق أشد منه في الذهب والعصاة، والزهد في الرياسة: أشد منه في الذهب والفضة، لأنهما يبذلان في طلب الرياسة.

وقال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا.

وقال يحيى بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل. وقال: الورع على وجهين. ورع في الطاهر، ورع في الباطن. فروع الطاهر: أن لا يتحرك إلا لله، وورع الباطن: هو أن لا تدخل قلبك سواء. وقال: من لم يطر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء.

وقيل: الورع الخروج من الشهوات، وترك السيئات.

وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة، ومحاسبة النفس في كل طرفة عين.

وقال سفيان الثوري. ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك فتركه.

وقال سهل: الحلال هو الذي لا يعنى الله فيه، والصافي منه الذي لا يعنى الله فيه. وسأل الحسن غلاماً. فقال له: ما بلاك الدين؟ قال: الورع. قال: فما آفته؟ قال: الطمع. فمجب الحسن منه.

وقال أبو هريرة: جلساء الله عدأ أهل الورع والزهد.

وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حنيفة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس.

● إنشاء القلب بصون الجوارح

قال صاحب المارل شيخ الاسلام الهروي:

«الورع: توقُّ مستقصى على حذر. وتخرج على تعظيم».

يعنى أن يتوقَّى الحرام والشبه، وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه من التوقى. لأن التوقى

والحذر مستقاربات. إلا أن «التوقى» فعل الجوارح. و«الحذر» فعل القلب. فقد يتوقى العبد الشيء لا على وجه الحذر والخوف. ولكن لأمر أخرى: من إظهار نزاهة، وعزة وتصوف، أو اعتراض آخره كتوقى الذين لا يؤمنون بعباد، ولا جنة ولا نار ما يتوقونه من الفواحش والدناءة، تصوناً عنها. ورغبة بنفوسهم عن موانعها، وطلباً للمحمدة، وتحذراً.

وقوله «أو تخرج على تعظيم» يعنى أن الباعث على الورع عن المحارم والشبه إما حذر حلول الوعيد. وإما تعظيم الرب جل جلاله، وإجلاله له أن يتعرض لما نهى عنه.

فالورع عن المعصية: إما تخوف، أو تعظيم. واكتفى بذكر التعظيم عن ذكر الحب الباعث على ترك معصية المحبوب. لأنه لا يكون إلا مع تعظيمه. وإلا فلو خلا القلب من تعظيمه لم تستلزم محبة ترك مخالفتها، كمحبة الإنسان ولده، فإذا قارنه التعظيم أوجب ترك المخالفة.

والورع عموماً يبعث على تجنب القبائح، لحصول النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان. فهذه ثلاث فوائد من فوائد تجنب القبائح.

إحداها: صون النفس. وهو حفظها وحمايتها عما يشينها، ويعيبها ويزرى بها عند الله عز وجل وملائكته، وعباده المؤمنين وسائر خلقه. فإن من كرمته عليه نفسه وكبرت عنده صانها وحماها، وزكاها وعلاها، ووضعها في أعلى الحال. وزاحم بها أهل العزائم والكمالات. ومن هانت عليه نفسه وصنرت عنه ألقاها في الرذائل. وحل زمامها وأرخاء. ودساها ولم يصنها عن قبيح. فأش ما في تجنب القبائح: صون النفس.

ولما «توفير الحسنات» فمن وجهين.

أحدهما: توفير زمانه على اكتساب الحسنات. فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مستعداً بحصولها.

والثاني: توفير الحسنات المفوعة عن نقصانها، بموازنة السيئات وحبوطها، كما تقدم في منزلة التوبة: أن السيئات قد تحبط الحسنات، وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها. فلا بد أن تضعفها قطعاً، فتجنيها يوفر ديوان الحسنات. وذلك بمنزلة من له مال حاصل. فإذا استدان عليه، فاما أن يستغرقه الدين أو يكثره أو ينقصه، فهكذا الحسنات والسيئات سواء.

وأما «صيانة الإيمان» فلأن الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وقد حكاه الشافعي وغيره عن الصحابة والتابعين، ومن بعدهم. وأضعاف المعاصي للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود. فان العبد — كما جاء في الحديث — (إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء. فإن تاب واستغفر صقل قلبه. وإن عاد فأذنب نكت فيه نكتة أخرى، حتى تملو قلبه. وذلك الران الذي قال الله تعالى (٨٣ : ١٤) كال ليل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) فالقبائح تسود القلب. وتطفىء نوره. والإيمان هو نور القلب. والقبائح تذهب به أو

تقلله قطعاً. فالحسنات تريد نور القلب. والسيئات تطفيء نور القلب وقد أحبر الله عز وجل أن كسب القلوب سبب للران الذي يعملوها. وأخبر أنه أركس المنافقين بما كسبوا. فقال (٤٠ : ٨٨) والله أركسهم بما كسبوا) وأخبر أن نقض الميثاق الذي أحذه على عباده سبب لتقسية القلب. فقال (٥ : ١٣) فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه. ونسوا حظاً مما ذكروا به) فجعل ذنب النقض موجباً لهذه الآثار: من تقسية القلب، واللغة، وتحريف الكلم، ونسيان العلم.

فإيمان صاحب القبائح كقوة المريض على حسب قوة المرض وضعفه. وهذه الأمور الثلاثة — وهى صون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان — هى أرفع من باعث العامة على الورع. لأن صاحبها أرفع همة، لأنه عامل على تركية نفسه وصونها، وتأهيلها للوصول إلى ربها. فهو يصونها عما يشينها عنده. ويحجبها عنه. ويصون حسنة عما يسقطها ويضعها. لأنه يسير بها إلى ربه. ويطلب بها رضاه. ويصون إيمانه بربه: من حبه له، وتوحيده، ومعرفته به.

● رجال المراتب العالية

ويرتقي الورع بصاحبه حتى يؤدي به الى حفظ الحدود عندما لا بأس به، إبقاء على الصيانة والتقى، وتخلصاً عن اقتحام الحدود.

فمن صعد الى هذه الدرجة من الورع: يترك كثيراً مما لا بأس به من المباح، إبقاء على صيانه، وحرصاً عليها أن يتكدر صفوها. ويظفأ نورها. فان كثيراً من المباح يكدر صفو الصيانة، ويذهب بهجتها، ويظفأ نورها. ويخلق حسنها ويهيجها.

وقال لي يوماً شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — فى شيء من المباح: هذا يناق المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً فى النجاة. أو نحو هذا من الكلام.

فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاء على صيانه. ولا سيما إذا كان ذلك المباح يرزخا بين الحلال والحرام.

والفرق بين صاحب الورع العام وصاحب هذا: أن ذلك يسعى فى تحصيل الصيانة. وهذا يسعى فى حفظ صفوها أن يتكدر، ونورها أن يظفأ ويذهب.

وأما التخلص عن إقتحام الحدود، فالحدود: هى الهيات. وهى مقاطع الحلال والحرام. فحيث ينقطع ويستهى، فذلك حده. فمن اقتحمه وقع فى المعصية. وفد نهى الله تعالى عن تعدى حدوده وقربانه. فقال (٢ : ١٨٧) تلك حدود الله فلا تقربوها).

وقال (٢ : ٢٢٩) تلك حدود الله فلا تعتدوها) فان الحدود يراد بها أواخر الحلال. وحيث نهى عن اقتران فالحدود هناك: أوائل الحرام. يقول سبحانه: لا تمتدوا ما أبحت لكم. ولا تقربوا ما حرمت عليكم. فالورع يخلص العبد من قربان هذه وتعدى هذه. وهو اقتحام الحدود.

● الثمرات الطيبة

واعلم أن الخوف يشمر الورع والاستعانة وقصر الأمل. وقوة الايمان باللقاء تشمر الزهد. والمعرفة تشمر المحبة والخوف والرجاء. والقناعة تشمر الرضاء. والذكر يشمر حياة القلب. والايمان بالقدر يشمر استوكل. ودوام تأمل الأسماء والصفات يشمر المعرفة. والورع يشمر الزهد أيضاً. والتوبة تشمر المحبة أيضاً، ودوام الذكر يشمرها. والرضا يشمر الشكر. والعزلة والصبر يشمران جميع الأحوال والمقامات. والاخلاص والصدق كل منهما يشمر الآخر ويقتضيه. والمعقة تشمر الخلق. والفكر يشمر العزيمة. والمراقبة تشمر عمارة الوقت، وحفظ الأيام والحياة، والخشية والانبابة. وإماتة النفس وإذلالها وكسرها: يوجب حياة القلب وعزه وجبره. ومعرفة النفس ومقتها يوجب احياء من الله عز وجل. واستكثار ما منه، واستقلال ما منك من الطاعات. ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان وصحة البصيرة تشمر اليقين. وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يشمر صحة البصيرة.

وملاك ذلك كله: أمران. أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة. ثم تقبل به كله على معاني القرآن واستجلائها وتدبرها. وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله. وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك.

فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة. موصلة إلى الرفيق الأعلى. آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطش، ولا جوع ولا عطش، ولا قبحاً آفة من آفات سائر الطريق ألبتة. وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم، ويدفع عنهم. ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفات وقاطعها. والله المستعان.

(١٨) مَنَزِلَةُ التَّبَتُّلِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التبتل».

قال الله تعالى (٧٣ : ٨) واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتلاً).

و «التبتل» الانقطاع. وهو تَمَلُّ من التَّيَل وهو القطع. وسميت مريم «البتول» لانقطاعها عن الأ زواج، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرقاً وفضلاً. وقطعت منهن. ومصدر «بتل» «تبتلاً» كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التعميل — مصدر تفعل — لسر لطيف. فان في هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكلف والتحمل والتكرار والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتلاً، وتبتل إليه تبتلاً. ففهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثير في القرآن. وهو من أحسن الاختصار والابجاز.

فالتبتل: الانقطاع الى الله بالكلية. وقوله عز وجل (١٣ : ١٤) له دعوة الحق) اي التجريد المحض، اي التبتل عن ملاحظة الاعراض، بحيث لا يكون التبتل كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الاجرة، فاذا أخذها انصرف عن باب المستأجر.

والاستشهاد بقوله (له دعوة الحق) في هذا الموضع: فيه ارادة هذا المعنى، وانه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته، وان لم يجب لداعية بها ثواباً. فانه يستحقها لذاته. فهو أهل أن يعبد وحده، ويدعى وحده، ويقصد ويشكر ويمجد، ويحب ويرجى ويخاف، ويتوكل عليه، ويستعان به، ويستحاربه، ويلجأ إليه، ويصمد إليه. فتكون الدعوة الالهية الحق له وحده.

ومن قام بقلبه هذا — معرفة وذوقاً وحالاً — صح له مقام التبتل، والتحرير المحض. وقد فسر السلف «دعوة الحق» بالتوحيد والاخلاص فيه والصدق ومرادهم: هذا المعنى. فقال علي رضي الله عنه دعوة الحق: «التوحيد» وقال ابن عباس رضى الله عنهما «شهادة أن لا إله إلا الله» وقيل: الدعاء بالاخلاص. والدعاء الحالص لا يكون إلا لله. ودعوة الحق دعوة الالهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

● اتصال... وانفصال

و«التبطل» يجمع أمرين: اتصالاً وانفصالاً. لا يصح إلا بهما.
فالانفصال: انقطاع قلبه عن حفظ النفس المزامعة لمراد الرب منه. وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله، أو رغبة فيه، أو مبالاة به، أو فكراً فيه.
والاتصال: لا يصح إلا بعد هذا الانفصال. وهو اتصال القلب بالله، وإقباله عليه، وإقامة وجهه له، حباً وخوفاً ورجاء، وإناة وتوكلاً.
والذى يَخْنِسُ مادة رجاء المخلوقين من قلبك: هو الرضى بحكم الله عز وجل وقسمه لك، فمن رضى بحم الله وقسمه، لم يبق لرجاء الخلق في قلبه موضع.
والذى يحسم مادة الخوف: هو التسليم لله. فان من سلم لله واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له — لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضاً. فان نفسه التى يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاه. وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب لها. وأن ما كتب لها لا بد أن يصيبها. فلا معنى للخوف من غير الله بوجه.
وفى التسليم أيضاً فائدة لطيفة. وهى أنه إذا سلمها الله فقد أودعها عنده. وأحزها فى جزئه. وجعلها تحت كتفه. حيث لا تنالها يد عدو عاد ولا تبقى بأغ عات.
فهذا هو الانقطاع عن الخلق، ولكن التبطل لا يكتمل حتى يكون انقطاع التبطل عن النفس، بمجانبة الهوى، وتنسّم روح الأنس، فان فى مجانبة الهوى ومخالفته وبهي نفسه عنه: تنسم روح الانس بالله، والروح للروح كالروح للبدن، فهو روحها وراحتها، وانما حصل له هذا الروح لما اعرض عن هواه، فحينئذ يتنسم روح الانس بالله، ويجد راحته، اذ النفس لا بد لها من التعلق، فلما انقطع تعلقها من هواها: وجدت روح الانس بالله، وهبت عليها نسماته، فريحتها وأحيتها، وجعلت صاحبها حبساً على مراد الله الدينى الامري النبوي منه، وتنعيذه بين أهل العناد والمعارضة والبغى، فينغمس فيهم، يمزقون أديمه، ويرمونه بالعظام، ويخيمونه بأنواع المخاوف، ويتطليون دمه بجهدهم، لا تأخذه فى جهادهم فى الله لومة لائم. يصدع بالحق عند من يخافه ويرجوه، قد زهد فى مدحهم وثنائهم. يصبح فيهم بالنصائح جهاراً. ويعلن لهم بها. ويسر لهم اسراراً.

(١٩) قَنْزِلَةُ الْحَبِيبِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرجاء»
قال الله تعالى (١٧: ٥٧) أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمة وشفاعة عنده، فاقبضاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة. فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرجاء. قال تعالى (٥: ٢٩) من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت) وقال (١٨: ١١١) فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وقال تعالى (٢: ٢١٨) أولئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم).

وفي صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — قبل موته بثلاث — «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»، وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء»
«الرجاء» حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب. وهو الله والدار الآخرة. ويطيب لها السير. وقيل: هو الاستبشار بجدد فضل الرب تبارك وتعالى. والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه. وقيل: هو الثقة بجدد الرب تعالى.

والفرق بين «التمني» أن «التمني» يكون مع الكسل. ولا يسلك بصاحبه طريق الجهد والاجتهاد. و«الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.
فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذر بها ويأخذ زرعها.
والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذر بها. ويرجو طولع الزرع.
ولهذا أجمع العارفون على أن «الرجاء» لا يصح إلا مع العمل.
قال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء: حسن الطاعة.
والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان ونوع غرور مذموم.
فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله. فهو راج لثوابه. ورجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها. فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والشالث: رجل متمسك في التفریط والحطايا، يبرجورحة الله بلا عمل. فهذا هو الغرور
والتمني والرجاء الكاذب.
وللسالك نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عقله، يفتح عليه باب الخوف إلى سعة فضل
ربه وكرمه وبره. ونظريفتح عليه باب الرجاء.
ولذا قيل في حد «الرجاء»: هو النظر إلى سعة رحمة الله.
وسئل أحمد بن عاصم: ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان
ألهم الشكر، راجيا لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا والآخرة، وقام عفوه عنه في الآخرة.
واختلفوا، أي الرجائي أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه. أو رجاء المسيء التائب مغفرة
ربه وعفوه؟
فطائفة رجحت رجاء المحسن. لقوة أسباب الرجاء معه. وطائفة رجحت رجاء المذنب. لأن
رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل، مقرون بذلة رؤية الذنب.
قال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأنني أجدني
أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفيها وأحزرها؟ وأنا بالآفات معروف. وأجدني
في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجوهر موصوف؟
وقال أيضا: إلهي، أحل العطايا في قلبي رجاؤك. وأعذب الكلام على لساني ثناؤك.
وأحب الساعات إلّي ساعة يكون فيها لقاءك.

● مبنى المحبة على الرجاء

والرجاء من أجل المنازل، وأعلاها وأشرفها. وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله.
وقد مدح الله تعالى أهله، وأثنى عليهم. (٢١:٣٣) لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا).
وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي صلى الله عليه وسلم — فيما يروى عن ربه عز
وجل — «يا ابن آدم، إنك مادعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي»
وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
«يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه. إذا ذكرني في نفسه، ذكرته في
نفسي. وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم. وإن اقترب إلي شبرا، اقتربت إليه
ذراعا. وإن اقترب إلي ذراعا، اقتربت إليه باعا. وإن أتاني يمشي، أتيته هرولا» رواه
مسلم.

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى: أنهم كانوا راجين له خائفين منه . فقال تعالى (١٧: ٥٦، ٥٧ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه . فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب . ويرجون رحمته ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذورا) .
يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني: هم عبادي، يتقربون إليّ بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني؟ فأتيت عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم: من الحب، والخوف والرجاء.

وهو عبودية، وتعلق بالله من حيث اسمه «المحسن البَرُّ» فذلك التعلق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة بالله . هو الذي أوجب للعبد الرجاء، من حيث يدري ومن حيث لا يدري . فتوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه . ولولا روح الرجاء لَفُكُلَّت عبودية القلب والجوارح . وَلَهَّدَتْ صوامع، وَبَيَّغَتْ، وصلوات، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة . ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات . ول من آيات:

لولا التعلق بالرجاء تقطعت	نفس الحب تحسراً وتمزقاً
وكذلك لولا برده بحرارة الـ	سأ كباد ذابت بالحجاب تحرقاً
أ يكون قط حليف حب لا يترى	برجائه بحبيبه متملقاً ١٩
أم كلما قويت محبته له	قوى الرجاء فزاد فيه تشوقاً
لولا الرجا يحدو المطى لما سرت	بحمولها لديارهم ترجو اللقا

وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء . فكل حب راج خائف بالضرورة فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه . وكذلك خوفه . فإنه يخاف سقوطه من عينه، وطرد محبوبه له وإبعاده، واحتجابه عنه . فخوفه أشد خوف . ورجاؤه ذاتي للمحبة . فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه . فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له، لما يحصل له به من حياة روحه، ونعيم قلبه من الطاف محبوبه، وبره وإقباله عليه، ونظرة إليه بعين الرضا، وتأهيله في محبته، وغير ذلك مما لا حياة للمحب، ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه، فرجاؤه أعظم رجاء، وأجله وأتمه . فتأمل هذا الموضع حق التأمل يظلمك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة . فكل عبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء . وعلى قدر تمكنها من قلب الحب يشتد خوفه ورجاؤه، لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة . بخلاف خوف السيء، ورجاء المحب لا يصحبه علة، بخلاف رجاء الأخير . وأين رجاء المحب من رجاء الأخير؟ وبينهما كما بين حالهما .

وبالجملة: فالرجاء ضروري للمريد السالك، والعارف لوفارقة لحظة لتلف أو كاد. فإنه دائرين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها. ولا ينفك أجد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها.

ويكون الراجي دائماً راجباً راهباً. مؤملاً لفضل ربه. حسن الظن به، متعلق الأمل بربه وجوده، عابداً له بأسمائه «المحسن، البر، المعطي، الغفور، الجواد، الوهاب، الرزاق» والله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يرحوه. ولذلك كان عند رجاء العبد له وظنه به.

● رب غفور يحب ان نرجوه

وليس في «الرجاء» ولا في «الدعاء» معارضة لتصرف الله في ملكه، كما يظن بعض الجهلة، فإنه إنما يرجو تصرفه في ملكه أيضاً بما هو أولى وأحب الأمرين إليه. فإن الفضل أحب إليه من العدل. والعفو أحب إليه من الانتقام، والمسامحة أحب إليه من الاستقصاء. والترك أحب إليه من الاستيفاء. ورحمته غلبت غضبه.

فالراجي علق رجاءه بتصرفه المحبوب له المرضي له. فلم يوجب رجاءه خروجه عن تصرفه في ملكه. بل اقتضى عبوديته، وحصول أحب التصرفين إليه. وهو سبحانه وتعالى لا يتنفع باستيفاء حقه وعقوبة عبده، حتى يكون رجاءه مبطلاً لذلك، وإنما العبد استدعى العقوبة، وأخذ الحق منه لشركه بالله وكفره به. واجتهاده في غضبه. ولغضبه موجبات وآثار ومقتضيات — والعبد مؤثر لها — ساع في تحصيلها، عامل عليها بإيثاره إياها وسعيه في أسبابها. فهو المهلك لنفسه. وربه يحذره ويبصره ويناديه: هلم إلى أحك وأصنك، وأنجك مما تحذر، وأؤمنك من كل ما تخاف. وهو يأبى إلا شروداً عليه ونفاراً عنه، ومصالحة لعدوه، ومظاهرة له على ربه. ومتطلباً لمرضاة خلقه بمساخطه. رضا المخلوق أثر عنده من رضا خالقه. وحقه أكد عنده من حقه. وخوفه ورجاءه وحبه في قلبه أعظم من خوفه من الله ورجائه وحبه. فلم يدع لفضل ربه وكرامته وثوابه إليه طريقاً، بل سد دونه طرق مجاريها بحهده. وأعطى بيده لعدوه. فصالحه وسمع له وأطاع. وانقاد إلى مرضاته. فحاه من الظلم بأقبحه وأشدّه.

فهو الذي عارض مراده به منه بمراده وهواه وشهوته. واعترض لمحابه ومراضيه بالدفع. ولم يأذن لها في الدحول عليه. فأصاح حظه وبخس حقه. وظلم نفسه. وعادى حبيبه. ووال عدوه. وأسحط من حياته في رضاه. وأرصى من حياته في سخطه. وحاد بنفسه لعدوه. وبحل بها عر حبيبه ووليه.

و - رب تبارك وتعالى ليس له ثأر عند عبده فيدركه بعقوبته . ولا يشفى معاقبه . ولا يزيد ذلك في مسكه مشقال ذرة . ولا ينقص مغفرته . ولو غفر لأهل الأرض كلهم لما نقص مثقال ذرة من ملكه . كيف ، والرحمة أوسع من العقوبة وأسبق من الغصب وأغلب له ؟ وهو قد كتب على نفسه الرحمة فرجاء العبد له لا ينقص شيئاً من حكمته . ولا ينقص ذرة من ملكه . ولا يخرج عن كمال تصرفه . ولا يوجب خلاف كماله . ولا تعطيل أوصافه وأسمائه . ولولا أن العبد هو الذي سد على نفسه طرق الخيرات ، وأغلق دونه أبواب الرحمة بسوء اختياره لنفسه ؛ لكان ربه له فوق رجائه وهو أمله

وامم مستسلام العبد لربه ، واستسلامه بالطراحه بين يديه ، ورضاه بمواقع حكمه فيه ؛ فما دأب إلا رجاء منه أن يرحمه ، ويقبله عشرته ويعفو عنه ، ويقبل حسناته مع عيوب أعماله وآفاتهما . ويتحاور عن سيئاته . فتقوة رجائه أوجب له هذا الاستسلام والانقياد ، والانطراح بالباب . ولا يتصور هذا بدون الرجاء ألبته . فالرجاء حياة الطلب . والإرادة روحها .

● شبهات البائسين

وظننت طائفة ان في الرجاء وقوفاً مع الحظ . والسالكون قد خرجوا عن نفوسهم ، فكيف حضوظهم ؟ .

فيا له العجب ! ... أي غلط في رجاء العبد ربه ، وطعمه في بره وإحسانه وفضله ، وسؤاله ذلك بقلبه ولسانه ؟ فإن الرجاء هو استشراف القلب ليل ما يرجوه . فإذا كان العبد دائماً مستشرقاً بقلبه ، سائلاً بلسانه ، طالباً لفضل ربه . وأي خطأ في ذلك ؟ أولم يبلغهم دعاء النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك . لا أحصي ثناء عليك . أنت كما أئنت على نفسك» ؟ وقوله لعنه العباس رضى الله عنه «(بعباس ، يا عم رسول الله . سأل الله العافية)» وقوله للصديق الأكبر رضى الله عنه - . وقد سأله أن يُتْلَمَ دعاء يدعو به في صلاته - «قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً . ولا يغفر الذنوب إلا أنت . فاغفر لي مغفرة من عندك . وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» . وقوله لصديقة النساء - وقد سألت دعاء تدعوه ، إن وافقت ليلة القدر - فقال «قولي : اللهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعف عني» . وقوله في دعائه الذي كان لا يدعُه : وإن دعا بدعاء أردته إياه «ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة . وقنا عذاب النار» .

وقد أثبتني الله تعالى على خاصته. وهم أولو الألباب، بأنهم سألوه: أن يقيهم عذاب النار. فقالوا (٣: ١٩١) ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه. فقنا عذاب النار وقال صلى الله عليه وسلم لأم حبيبة «لوسألت الله أن يمحرك من عذاب النار لكان خيراً لك» و«كان يستعبد كثيراً من عذاب النار. ومن عذاب القبر» و«أمر المسلمين: أن يستعبدوا في تشهدهم من عذاب القبر، وعذاب النار. وفتنة المحيا والممات. وفتنة المسيح الدجال» حتى قيل: إن هذا الدعاء واجب في الصلاة. لا تصح إلا به. قاله ابن حزم وغيره. وهذا اعظم من أن نستقصيه.

وفي المسند عنه صلى الله عليه وسلم قال «ما شئ الله شيئاً أحب إليه من سؤال العفو والعافية» وقال لبعض أصحابه «ما تقول إذا صليت؟ فقال: أسأل الله الجنة. وأعوذ به من النار، أما إني لا أحسن ذنبتك، ولا ذنبتك معاذ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا حولها نندندن».

● الرجاء الولود

وكما أن الرجاء يُبرد حرارة الخوف، فإن له فوائد كثيرة أخر مشاهدة.
منها: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه. ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغنى عن فضله وإحسانه طرفة عين.
ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه. ويسألوه من فضله. لأنه الملك الحق الجواد، أجود من مثل، وأوسع من أعطى. وأحب ما إلى الجواد: أن يرجي، ويؤمل ويسأل.
وفي الحديث «من لم يسأل الله يغضب عليه» والسائل راج وطالب. فمن لم يرج الله يغضب عليه.

فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء. وهي التخلص به من غضب الله.
ومنها: أن الرجاء حاد يمدو به في سيره إلى الله. ويطيب له المسير. ويحبه عليه. ويبعثه على ملازمته. فلولا الرجاء لما سار أحد. فإن الخوف وحده لا يحرك العبد. وإنما يحركه الحب. ويزعجه الخوف. ويحدوه الرجاء.

ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة. ويلقيه في دهليزها. فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حباً لله تعالى، وشكراً له، ورضاً به وعنه.
ومنها: أنه يبعثه على أعلى المقامات. وهو مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية. فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها، والتعلق بها. فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنی، متعبد بها داع بها. قال الله تعالى (٧: ١٨٠) ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها) فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنی التي هي أعظم ما يدعوه بها الداعي. فالتدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الاسماء، وتعطيل للدعاء بها. ومنها: أن المحبة: لا تنفك عن الرجاء — كما تقدم — فكل واحد منهما يمتد الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء. والرجاء مستلزم للخوف. فكل راج خائف. وكل خائف راج. ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالى (١٣: ٧١) مالكم لا ترجون لله وقاراً؟ قال كثير من المفسرين: المعنى مالكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق: أنه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه. والخوف بلارضاء يأس وقنوط. وقال تعالى (١٤: ٤٥) قل للذين آمنوا يخفروا للذين لا يرجون أيام الله) قالوا في تفسيرها: لا يخافون وفتح الله بهم، كوقائعه من قبلهم من الأهم.

ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برباه، فأعطاه ما رجاه: كان ذلك أطف موقفاً، وأحل عند العبد. وأبلغ من حصول ما لم يرجه. وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار. فعل قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة حصول مرجوهم واندفاع مخوفهم.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستمانة، والخوف والرجاء والصبر والشكر، والرضا والإنابة وغيرها. ولهذا قدر عليه الذنب وابتلاه به، لتكامل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء — من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله — ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته. وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذ به بنصيبه من كل اسم وصفة — كما تقدم بيانه — فإذا هنى عن ذلك وغاب عنه: فاتته حطة ونصيبه من معاني هذه الاسماء والصفات.

ومنها: أن المحب الصادق في رجائه لا بد أن يقارنه أحياناً فرح محبوبه. ويشدد فرحه به. ويرى مواقع لطفه به، وبره به، وإحسانه إليه، وحن دفاعه عنه، والتلطف في إيصاله المنافع

والمسار والمبأء إليه بكل طريق، ودفع المضار والمكاره عنه بكل طريق. وكلما فتش عن ذلك اطلع منه على أمور عجيبة. لا يقف وهمه ومقتبسه لها على غاية. بل ما خفى عنه منها أعظم. فيدخله من شهود هذه الحالة نوع انبساط.

ولا ينكر فرح القلب بالرب تعالى وسروره به، وانتهاحه وقرة عينه، ونعيمه بحبه، والشوق إلى لقائه: إلا كثيف الحجاب، حجري الطاع.

ومنها: سرعة السير، وهذا كمن هو سائر إلى مدينة. فإذا شارفها ورآها: رأى الطريق حينئذ واضحة إليها، واستنار له ضيؤها واتصالها بالمدينة، وكان قبل مشاهدة المدينة على علم — أو ظن — يجوز معه أن يضيع عن باب المدينة. وأما الآن: فقد أمن من أن يضيع عن الباب. وكذلك الراجي: إذا انقطعت عنه الموانع، واستبان له الطريق. طمع بالوصول: وصارت حاله حال معاين باب المدينة من حين يقع بصره عليه. وكحال معاين الشفق الأحمر قرب طلوع الشمس، حيث تيقن أن الشمس بعده.

فتستجمع له قوى الظاهر والباطن على قصد الوصول والعزم عليه، لمشاهدته ما هو سائر إليه. وهكذا عادة المسافر: أنه إذا عاين القرية التي يريد دخولها أسرع السير، وبذل الجهد. وكذلك المسابق إذا عاين الغاية: استفرغ قوى جريه وسوقه. وكذلك الصادق في آخر عمره: أقوى عزما وقصداً من أوله، لقربه من الغاية التي يجري إليها. وكذلك الراجي يتخلص من تحذيل اليأس، فيعاين نعيم الآخرة فيسرع السير.

إلى فوائد أخرى كثيرة. يطالعها من أحسن تأمله وتفكره في استخراجها. وبالله التوفيق.

● قبل الاقتحام شوق

واعلم أن أول الرجاء: رجاء يبعث العامل على الاجتهاد. ويولد التلذذ بالخدمة. ويوقظ الطبع للسماحة بترك المناهي، فينشطه لئذ جهده لما يرجوه من ثواب ربه. فإن من عرف قدر مطلوبه هان عليه ما يبذل فيه.

وأما توليده للتلذذ بالخدمة: فإنه كلما طالع قلبه ثمرتها وحسن عاقبتها التذُّ بها. وهذا كحال من يرجو الأرباح العظيمة في سفره، ويقاسي مشاق السفر لأجلها. فكلما صورها لقلبه هانت عليه تلك المشاق والتذُّ بها. وكذلك المحب الصادق الساعي في مرضى محبوبه الشاقة عليه، كلما تأمل ثمرة رضاه عنه وقبوله سعيه، وقر به منه: تلذذ بتلك المساعي. وكلما قوى علم العبد بإقضاء ذلك السبب إلى المسبب المطلوب، وقوى علمه بقدر المسبب وقرب السبب منه. ازداد التذاد بتعاطيه.

(٢٠) مَنَزِلُ الرَّجَاءِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرغبة»
 قال 'سه عروجل (٢١: ٩٠) يدعوننا رَغْباً وَرَهْباً والعرق بين «الرغبة» و «الرجاء» أن
 الرجاء طمع. والرغبة طلب. فهي ثمرة الرجاء. فإنه إذا رجا الشيء طلبه. والرغبة من الرجاء
 كالهرب من الخوف. فمن رجا شيئاً طلبه ورغب فيه. ومن خاف شيئاً هرب منه.
 والمقصود: أن الراجي طالب، والخائف هارب، وإن الرغبة: هي الرجاء بالحقيقة، لأن
 الرجاء ضمع يحتاج إلى تحقيق، أي: طمع في مغيب عن الراجي مشكوك في حصوله، وإن كان
 متحققاً في نفسه، كرجاء العبد دخوله الجنة، فإن الجنة متحققة لا شك فيها، وإنما الشك في
 دخوله إليها. بخلاف الرغبة، فإنها طلب، فإذا قوي الطمع: صار طلباً.
 واولئها: رغبة تتولد من العلم، فتبعث على الاجتهاد المتوطين بالشهود، وتضمن السالك عن
 هذه الفترة والنكسل.
 فهذا لايمان متصل بمنزلة «الاحسان»، مه يشرف عليه ويصل إليه. ولهذا كان مقترباً
 بأشهود. وذلك الشهود هو مشهد مقام الاحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، ولا مشهد للعبد
 في الدنيا أعى من هذا.
 ولو كان فوق مقام «الاحسان» مقام آخر لذكره النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل .
 ولسأله جبريل عنه. فإنه جمع مقامات الدين كلها في الإسلام والايمان والإحسان.
 وتحقيق مقام الإحسان: أن ينفى بجه ونخوفه ورجائه، والتوكل عليه وعبادته، والتبتل إليه
 عن غيره. ويس فوق ذلك مقام يطلب إلا ما هو من عوارض الطريق.
 وتتصاع الرغبة حتى تكون رغبة لا تنفي من المجهود مدولا، ولا تدع للهمة دولا، ولا تترك
 غير 'نقص مدولا.
 فرغبته لا تدع من مجهوده مقدورا له إلا بدله، ولا تدع لهمة وعزمته متورا ولا خوداً، وعزمته في
 مريد، ولا تترك في قلبه نصيباً لغير مقصوده.
 فإذا اكتملت رغبته: اكتمل معها خلق «الرعاية» الایمانية، وهي: مراعاة العلم وحفظه
 بالعمل، ومراعاة العمل بالاحسان والاخلاص، وحفظه من المفسدات، وصيانه.

ومراتب العلم والعمل ثلاثة «رواية» وهي مجرد النقل وحمل المروي و«درابة» وهي فهمه وتعقل معناه. و«رعاية» وهي العمل بموجب ما علمه ومقتضاه

فالتَّغَلُّبُ همتهم الرواية. والعلماء همتهم الدراية. والعارفون همتهم الرعاية. وقد ذم الله من لم يرجع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته. فقال تعالى (٢٦:٥٧) وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، ورهبانية ابتدعوها — ما كتبناها عليهم — إلا ابتغاء رضوان الله. فما رعوها حق رعايتها، أي لم يفعلوها إلا لطلب رضوان الله. ودل على هذا قوله «ابتدعوها» ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداء هذه الرهبانية، وأنه هو طلب رضوان الله. ثم ذمهم بترك رعايتها. إذ من التزم لله شيئاً لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه. حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها، وجعلوا التزامها بالشرع كالالتزامها بالنذر. كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه.

وقد ابتدع النصارى الرهبانية، زاعمين أنها من سس عيسى بن مريم وهداه عليه السلام، وكذبهم الله. وبين أنهم هم الذين ابتدعوها من عند أنفسهم. وعيسى عليه السلام يرى منها. فإنها على خلاف العطرة التي فطر الله الناس عليها والله لا يشرع ما يضاد العطرة، ولا يجبه. ولذلك فإنهم لم يستطيعوا — وإن استطعوا — أن يروعوا حق رعايتها. لأن سنن الله لا يقدر أحد على تبديلها.

والقصد: أن الله سبحانه وتعالى ذم من لم يرجع قربةً ابتدعها لله تعالى حق رعايتها. فكيف بمن لم يرجع قربة شرعها الله لمبادءه. وأذن بها وحثَّ عليها؟ ومن أهم أركان الرعاية: رعاية الأعمال وفق النمط الاوسط، مع استصغارها والقيام بها من غير نظر إليها.

وأول رعاية الأعمال: العدول بها عن طرقي التفریط بالنقص، والإفراط بالزيادة، على الوجه المشروع في حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها. ثم استصغارها في عييه. واستقلالها، وأن ما يليق بعظمة الله وحلاله وحقوق عبيديته أمر آخر. وأنه لم يؤفه حقه، وأنه لا يرضى لربه بعمله، ولا بشيء منه.

وقد قيل: علامة رضا الله عنك: إعراضك عن نفسك. وعلامة قبول عملك: احتقاره واستقلاله، وصغره في قلبك. حتى إن العارف ليستمر الله عقيب طاعته، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من الصلاة استمر الله ثلاثاً. وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج. ومدهم على الاستغفار عقيب قيام الليل. وشرع النبي صلى الله عليه وسلم عقيب الطهور التوبة والاستغفار.

فمن شهد واحب ربه ومقدار عمله، وعيب نفسه. لم يجد بداً من استعمار ربه منه، وإحتقاره إياه واستصغاره.

ثم القيام بها بتوفيتها حقها، وجعلها قائمة كالشهادة القائمة، والصلاة القائمة، والشجرة القائمة على ساقها التي ليست بساقطة، من غير أن يلتفت اليها ويمددها ويذكرها، غافة العجب واليئة بها، فيسقط من عين الله، ويحبط عمله، بل اللاتق أن يتهم يقينه، وأنه لم يحصل له انيقين على الوجه الذي ينبغي، بل ما حصل له منه هو كالعارية لا الملك المستقر، ويزداد انهزاماً لنفسه وتظهيراً لها من رعونة الادعاء، وتخليصاً للقلب من نصيب الشيطان، بأن يقف مع كل خطوة بمقدار تصحيحها، نية وقصدًا وإحلاصاً ومتابعة، فلا يخطو هجماً ومجاً، بل يقف قبل الخطو حتى يصحح الخطوة، في سمت من الاستعداد ولطف الإدراك، ثم ينقل قدم عزمه، فاذا صحت له ونقل قدمه: انفصل عن نفسه. ولما كانت النفس محل الأكدار: كان انفصاله عنها محص الصفاء ونهاية الرعاية.

(٢١) مَنَزِلَةُ الْمَرَاقِبَةِ

ومن منازل «إياك نعد وإياك نستعين» منزلة «المراقبة»
قال الله تعالى (٢٣٥: ٥٢) واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه) وقال تعالى (٥٢: ٣٣) وكان الله على كل شيء رقيباً) وقال تعالى (٥٧: ٤) وهو معكم أينما كنتم). وقال تعالى (٩٦: ١٤) ألم يعلم بأن الله يرى؟) وقال تعالى (٥٢: ٤٨) فإنك بأعيننا) وقال تعالى (٤٠: ١٩) يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) أي غير ذلك من الآيات.

وفي حديث جبريل عليه السلام: أنه (سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإحسان؟ فقال له: أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك). ومن هذا الحديث يتضح أن «المراقبة» هي دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي «المراقبة» وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله. وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة. وكل نفس وكل طرفة عين.

وقد قيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات حوارجه.
وقال الحنيد: من تحقق في المراقبة حاف على فوات لحظة من ربه لا غير.
وقال دو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.
وقال إبراهيم الخواص: المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل.
وقيل: أفصل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريق: المحاسبة والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم

وقال أبوحفص لأبي عثمان اليسابوري: إذا جلست لناس فكس واعظاً لقلبك ونفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك.
وأرأى باب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر: سب لحفظها في حركات الظواهر. فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته.
و «المراقبة» هي التعبد بأسمائه «الرقيب، الحفيظ، العلیم، السميع، البصير» فمن عقل هذه الأسماء، وتعد مقتضاها: حصلت له للمراقبة

ومن الطّف ماوصفت به المراقبة انها:

مراقبة الحق تعالى في السير اليه على الدوام، بين تعظيم مُذهِل ومدانة حاملة، وسرور باعث. فأما التعظيم المذهل فهو: امتلاء القلب من عظمة الله عز وجل، بحيث يذهله ذلك عن تعظيم غيره، وعن الالتفات إليه. فلا ينسى هذا التعظيم عند حضور قلبه مع الله. بل يستصحبه دائماً. فإن الحضور مع الله يوجب أنساً ومحة، إن لم يقارنهما تعظيم، أورتاه خروجاً عن حدود العبودية ورعونة. فكل حب لا يقارنه تعظيم المحبوب: فهو سبب للبعد عنه، والسقوط من عينه. وبذلك تضمّن الوصف خمسة أمور: سير الى الله، واستدامة هذا السير، وحضور القلب معه، وتعظيمه، والذهول بعظمته عن غيره.

وأما المدانة الحاملة فهي: الدنو الحامل له على هذه الامور الخمسة، وهذا الدنو يحمله على التعظيم الذي يذهله عن نفسه. وعن غيره. فإنه كلما ازداد قرباً من الحق ازداد له تعظيماً، وذهولاً عن سواه، وبعداً عن الخلق.

وأما السرور الباعث فهو الفرحه والتعظيم، واللذة التي يجدها في تلك المدانة فإن سرور القلب بالله وفرحه به، وقرّة العين به. لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا ألبتة. وليس له نظير يقاس به. وهو حال من أحوال أهل الجنة. حتى قال بعض العارفين: إنه لتمرّبي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

ولاريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير الى الله عز وجل، وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته. ومن لم يجد هذا السرور، ولا شيئاً منه، فليتيهم إيمانه وأعماله. فإن للإيمان حلاوة، من لم يتفقها فليرحح، وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان.

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته. فذكر الذوق والوجد، وعلقه بالإيمان. فقال «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً» وقال «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن يكره أن يعود في الكفر— بعد إذ أنقذه الله منه — كما يكره أن يلقى في النار».

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً، فاتهمه. فإن الرب تعالى شكور. يعني أنه لا بد أن يشب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه. وقوة انشراح وقرة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدحول.

ذلك أن «الثواب» هو الراجع للعامل على عمله. فللأعمال عاقبة تعود على صاحبها وتتصل بحياته ويجمع شؤونه. فالصلاة تنهه عن الفحشاء والمنكر. وتهذب الأخلاق وتربي أعلى تربية يحبها الرب سبحانه. وهكذا الصيام يقوى العزيمة، ويمكن للنفس اللوامة، واللبصيرة أن تشرق فيرى الصراط السوي فيكون من المتقين.

وهكذا كل الأعمال الصالحة فإن لها ثوابا يصلح الشؤون كلها لها، فتسعد به الحياة في أسرته والجمع، كما أن أعمال السوء لها كذلك (للذين أحسنوا الحسنى) و (للذين أساءوا السوأى).

والقصد : أن السرور بالله وقربه، وقرّة العين به، تبعث على الإزدياد من طاعته، وتحث على الجِد في السير إليه، والاستقبال إلى مراقبة أخرى تملك على الاعراض عن الاعتراض، بصيانة الباطن والظاهر، فصيانة الظاهر: بحفظ الحركات الظاهرة. وصيانة الباطن: بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة، التي منها رفض معارضة أمره وتخيره.

فيتجرد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارض أمره، ومن كل إرادة تعارض إرادته. ومن كل شبهة تعارض خبره. ومن كل حجة تراحم محبته. وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من تنهى الله به. وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين. وكل تجريد سوى هذا فناقص.. وهذا تجريد أرباب العزائم.

و «الاعتراض» ثلاثة أنواع سارية في الناس. والمعصوم من عصمه الله منها. النوع الأول: الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشبهة الباطلة، التي نفوا لأجلها ما أثبت نفسه، وأثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم. وأثبتوا مانقاه، والوا بها أعداءه. وعادوا بها أوليائه. وحرّفوا بها الكلم عن مواضعه. ونسوا بها نصيباً كثيراً مما ذكروا به وقطعوا لها أمرهم بينهم زبراً، كل حزب بما لديهم فرحون.

والعاصم من هذا الاعتراض: التسليم المحض للوحي. فإذا سلم القلب له: رأى صحة ما جاء به، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة. فاجتمع له السمع والعقل والفطرة. وهذا أكمل الإيمان. ليس كمن الحُرث قائم بين سمعه وعقله وفطرته.

النوع الثاني: الاعتراض على شرعه وأمره. وأهل هذا الاعتراض أنواع: منهم: المعتصرون عليه بآرائهم وأقبيصهم، المتصنعة تحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى، وتخريص ما أحله، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صححه، وتصحيح ما أبطله، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقبيد ما أطلقه، وإطلاق ما قيد. وهذه هي الآراء والأقبيص التي اتفق السلف قاطبة على ذمها، والتحذير منها، وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض. وحذروا منهم، ونفروا عنهم.

ومهم المعتضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق، والحيلالات، والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتصنعة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله، ولتعويض عن حقائق الإيمان بحدع الشيطان.

وهؤلاء في حظوظ اتخذوها ديساً، وقدموها على شرع الله ودينه. واعتالوا بها القلوب. واقتطعوها عن طريق الله. فتولد من معقول أولئك، وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة، وأذواق هؤلاء: حراب العالم، وفساد الوجود، وهدم قواعد الدين، وتفانم الأمر وكاد. لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به من يحفظه، ويبين معالنه، ويحميه من كيد من يكيد.

ومنهم: أهل الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة، التي لأرباب الولايات التي قدموها على حكم الله ورسوله. وحكموا بها بين عباده، وعطلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: اذا تعارض العقل والنقل. قدما العقل.

وقال الآخرون: اذا تعارض الأثر والقياس: قدما القياس.

وقال أصحاب الذوق والكشف: اذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع: قدما الذوق والكشف.

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع قدما السياسة. فجعلت كل طائفة قسالة دين الله وشرعه طاغوتاً يتحاكمون إليه.

فهؤلاء يقولون: لكم النقل. ولنا العقل. والآخرون يقولون: أنتم أصحاب آثار وأحبار ونحس أصحاب أقيسة وآراء وأفكار. وأولئك يقولون: أنتم أرباب الطاهر، وبحس أهل الحقائق. والآخرون يقولون: لكم الشرع. ولنا السياسة. فيألفها من ملية، عتقت فأعققت، ورزية رمت فأضمت، وقتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون، وأهوية عصمت. فصنعت منها الآدان، وعصيت منها العيون. عطلت لها — والله — معالم الأحكام. كما نفيت لها صفات ذي الحلال والإكرام. واستسد كل قوم إلى ظلم وظلمات آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم. وصار لأجلها الوحي عرصة لكل تحريف وتأويل، والدين وقفاً على كل إفساد وتبديل.

السوع الثالث: الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره. وهذا اعتراض الجهال. وهو ما بين حلل وخفى، وهو أنواع لا تحصى.

وهو سار في النفوس سريان الحمى في بدن المحموم. ولولا أمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله، لرأى ذلك في قلبه عياناً. فكل نفس معترضة على قدر الله وقسمه وأفعاله، إلا نفساً قد اطمانت إليه وعرفت حق المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها. فتلك حظها التسليم والاعتقاد. والرضا كل الرضاء.

(٢٢) مَنَزَلَةُ تَعْظِيمِ الْحُرُمَاتِ

ومن منارل «إياك نعبد وإياك نستعين»

منزلة «تعظيم حرّمات الله عز وجل»

قال الله عز وجل (٢٢: ٣٠) ومن يعظم حرّمات الله فهو خير له عند ربه قال جماعة من المفسرين «حرّمات الله» ههنا مغاضبه، وما بهى عنه، و «تعظيمها» ترك ملاستها. قال للبيت: حرّمات الله: ما لا يحمل انتهاكها. وقال قوم: الحرّمات: هي الأمر والنهي. وقال لزيجاج: الحرمة ما وجب القيام به، وحرّم التقريط فيه. وقال قوم: الحرّمات ههنا الماسك، بمشاعر الحج زماناً ومكاناً.

والصواب: أن «الحرّمات» تعم هذا كله. وهي جمع «حرمة» وهي ما يجب احترامه، وحفظه: من حقوق، والأشخاص، والأزمنة، والأماكن. فتعظيمها: توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة، وإحراق من حرج المخالفة، وحساسة الإقدام عليها، بتعظيم الأمر والنهي، خوفاً من لعقوبة، وطمناً للأثوبة.

ونحتاج في ذلك بأحوال الأنبياء والرسل والصديقين، ودعائهم وسؤالهم، والثناء عليهم وخوفهم من السار، ورجائهم للحجة. كما قال تعالى في حق خواص عباده الذين غنّاهم لمشركون: إلههم يرجون رحمته ويخافون عذابه — كما تقدم — وقال عن أنبيائه ورسله ٢١٠: ٨٩، ٩٠ وذكربا إذ نادى ربه — إلى أن قال — إلههم كانوا يسارعون في الخيرات . يدعوننا رَعَاءً وَرَقَباً. وكانوا لنا خاشعين) أي رَعَاءً فيما عدنا، ورهباً من عداننا. والضمير قوله «إلههم». عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين.

وكذلك ما في أول قصة إبراهيم (٢١: ٥١ — ٩٠) ولقد آتينا إبراهيم رشده — الآيات) فإنها في ذكر هذه الأشياء وما أحاط بهم من شدائد بجاهم الله بها ندعائهم ولجأهم إليه وحده رعباً ورهباً.

و«الرجب والرهب» رجاء الرحمة، والخوف من النار عندهم أحمين.

ودكر سبحانه عباده، الذين هم خواص خلقه. وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم. وجعل منها: شعاعاً لهم به من النار، فقال تعالى (٢٥: ٦٦) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب

جهنم. إن عذابها كان غراماً. إنها ساءت مُسْتَقَرًّا ومُقَامًا) وأخبر عنهم: أنهم توسلوا إليه بآيمانهم أن ينجيهم من النار. فقال تعالى (١٦:٣) الذين يقولون ربنا إنا آتينا فاغفر لنا ذنوبنا وفنا عذاب النار فجعلوا أعظم وسائلهم إليه: وسيلة الإيمان، وأن ينجيهم من النار. وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولى الأبواب: أنهم كانوا يسألونه جته. ويتعوذون به من ناره. فقال تعالى (١٩٠:٣) — ١٩٥ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبواب — الآيات إلى آخرها) ولا خلاف أن الموعود به على ألسنة رسله: هي الجنة التي سألوها.

وقال عن حليبه إبراهيم صلى الله عليه وسلم (٨٢:٢٦) — ٨٩ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين. رب عت لي حكماً وألحني بالصالحين. واجعلني من ورثة جنة النعيم. واغفر لأبي إنه كان من الضالين. ولا تخزني يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) فسأل الله الجنة، واستعاذ به من النار. وهو الخزي يوم البعث. وأخبرنا سبحانه عن الجنة: أنها كانت وعْدًا عليه مسؤولاً (١٦:٢٥) أي يسأله إياها عباده وأوليائه.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته: أن يسألوا له في وقت الإجابة — عقيب الأذان — أعلى منزلة في الجنة. وأخبر: أن من سألها له «حلت عليه شفاعته». وقال له سليم الانصاري «أما إني أسأل الله الجنة. وأستعيذ به من النار، لا أحسن ذنبتك ولا دندنة معاذ، فقال: أنا ومعاذ حولها نُذْنِدُن».

وفي الصحيح — في حديث الملائكة السيرة الفضل عن كتاب الناس — «إن الله تعالى يسألهم عن عباد — وهو أعلم تبارك وتعالى — فيقولون: أتيناك من عند عباد لك يهللونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك. فيقول عز وجل: وهل رأوني؟ فيقولون: لا. يارب. ما رأوك. فيقول عز وجل: كيف لرأوني؟ فيقولون: لرأوك لكننا لك أشد تعجباً. قالوا: يارب. ويسألونك جنتك. فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا. وعزت ما رأوها. فيقول: فكيف لرأوها؟ فيقولون: لرأوها لكننا لها أشد طلباً. قالوا: ويستميذون بك من النار، فيقول عز وجل: وهل رأوها؟ فيقولون: لا وعزت ما رأوها. فيقول: فكيف لرأوها؟ فيقولون: لرأوها لكننا أشد منها هرباً. فيقول: إني أشهدكم أنني قد غفرت لهم، وأعطيتهم ما سألوا، وأعدتهم مما استعاذوا».

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباده وأوليائه بسؤال الجنة ورجائها، والاستعاذة من النار والخوف منها.

وقد قال سبي صلى الله عليه وسلم لاصحابه «استعيذوا بالله من النار» وقال لمرسله
رافقه في الجنة «أعني على نفسك بكثرة السجود».

و عمل على طلب الجنة والنجاة من النار مقصود التارخ من أمة ليكونا دائماً على ذكر
مهم فلا ينسويهما. ولأن الإيمان بهما شرط في السعادة والعمل على حصول الجنة والنجاة من
النار: هو محض بحداد.

وقد حصل سبي صلى الله عليه وسلم عليها أصحابه وأمه. فوصفها وحللاً لها ليخطبها،
وقال «ألا مُتَّعِرٌ للجنة؟ فإنها — ورب الكعبة — نور يتلألأ. وريحانة تهتر، وزوجة حسناء.
وفاكهة بضجة. وقصر مشيد، وبهر مُقَرَّد — الحديث — فقال الصحابة: يا رسول الله،
نحن المُتَّعَرُونَ عا. فقال: قولوا: إن شاء الله».

ولو ذهبت نذكر ما في السنة من قوله «من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة» تحريضاً
على عمله لها. وتكون هي الباعثة على العمل: لطال ذلك جداً. وذلك في جميع الأعمال.
ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص، ويقول «من فعل كذا فتحت له أبواب الجنة
الثمانية» و «من قال سبحان الله وبحمده غُرست له نخلة في الجنة» و «من كسا مسلماً
على عرى كساء الله عن ثل الجنة» و «عائذ المريض في خرفة الجنة» والحديث مملوء من
ذلك.

وأيضاً ما سجد يحب من عياده أن يسأله حنته. ويستعيذوا به من ناره. فإنه يحب أن
يسأل. ومن له يسأله يقضب عليه. وأعظم ما مثل «الجنة» وأعظم ما استعبد به «من النار».
فانعمل لصب الجنة محبوب للرب، مرضى له. وطلبها عرودية للرب. والقيام بعوديته كلها
أولى من تعطيل بعضها.

وإد حلاً قلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه والهرب من هذه: فترت عزائمه،
وضمعت همته. وهوى باعته، وكلما كان أشد طلباً للجنة، وعملأ لها: كان الباعث له أقوى،
والهمة أشد. وسعي أتم. وهذا أمر معلوم بالذوق ولو لم يكن هذا مطلوباً للشارع لما وصف
الجنة لعماد، وربها لهم، وعرضها عليهم. وأخبرهم عن تفاصيل ما تنصل اليه عقولهم منها، وما
عداه. أحبرهم به مجمل. كل هذا تنوياً لهم إليها. وحثاً لهم على السعي لها سعيها.
وقد قال الله عز وجل (٢٥: ١٠) والله يدعو إلى دار السلام وهذا حق على إحاطة هذه
الدعوة، والمبادرة إليها، والمساعدة في الإحاطة.

ثم لا يخفى أن الجنة ليست أسماً لمجرد الأشجار والفواكه، والطعام والشراب، والخور العين،
والأنهار والقصور. وأكثر الناس يغفلون في مسمى الجنة. فإن «الجنة» اسم لدار النعيم المطلق
الكامل. ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرعة العين

بالقرب منه وبرصوانه. فلا نسة للدة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصورة إلى هذه اللة أندا. فأيسر يسر من رصوانه. أكبر من الجنان وما فيها من ذلك. كما قال تعالى (٧٢:٩) ورضوان من الله أكبر) وأتى به متكرراً في سياق الاثبات. أي أي شيء كان من رضاء عن عبده: فهو أكبر من الجنة.

قليل منك يقنعني . ولكن قليل لا يقال له قليل
وفي الحديث الصحيح — حديث الرؤية — «فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه».

ولارب أن الأمر هكذا. وهو أجل مما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال. ولا سيد عد مور المحبين هناك جمعية المحبة. فإن المرء مع من أحب. ولا تخصيص في هذا الحكم. بل هو ثابت شاهداً وغائباً.

فأي نعيم، وأي لذة، وأي قرة عين، وأي فوز يُداني نعيم تلك نلعية ولذتها، وقرة العين بها؟.

وهل فوق نعيم قرة العين جمعية المحبوب، الذي لاشيء أجل منه، ولا أكمل ولا أجل: قرة عين ألبته؟.

وهذا — والله — هو العَلَمُ الذي شمر إليه المحبون، واللواء الذي أمه العافون. وهو روح مسمى «الجنة» وحياتها. وبه طابت الجنة . وعليه قامت.

وكذلك «النار» أعادنا الله منها. فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله رفاهاته، وغصبه وسخطه، والبعد عنه: أعظم من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم. بل التهاب هذه النار في قلوبهم. هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم. ومنها سَرَتْ إليها. فمطلوب الأسياء والمرسلين والصدّيقين، والشهداء والصالحين: هو الجنة. ومهر بهم: من النار.

وخير العباد من يريد الله و يريد ثوابه، وهؤلاء خواص خلقه. قال الله تعالى (٢٩:٣٣) وإن كنتم تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةِ، فَإِنِ اللَّهُ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً) وهذا خطابه لخير نساء العالمين، أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم . وقال الله تعالى (٩:١٧) ومن أراد الآخرة. وسعى لها سعيها — وهو مؤمن — فأولئك كان سعيهم مشكوراً) فأحبر أن السعى المشكور: سعى من أراد الآخرة. وأصرح بها: قوله لخواص أوليائه — وهم أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم — في يوم أحد (١٥٢:٣) منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة) قسمهم إلى هذين القسمين اللذين لا ثالث لهما.

وقد غلط من قال: فأين من يريد الله؟ فإن إرادة الآخرة عبارة عن إرادة الله تعالى وإرادته. فأرادة الثواب لا تنافي لإرادة الله.

• على معالم الستة ... بلا تأويل

ودرورة تعظيمنا لحرمات الله تعالى: إجراء الخبر على ظاهره. وهو أن تبقى اعلام التوحيد الخيرية على مواهرها، لا تتكلف لها تأويل، ولا تتجاوز ظواهرها تمثيلاً. فحفظ حرمة بصوص الاسماء والصفات: باحراء احبارها على ظواهرها، كما قال مالك رحمه الله وقد سئل عن قوله تعالى (٥:٢٠ الرحمن على العرش استوى) كيف استوى؟ فأطرق مالك. حتى علاه الرخصاء. ثم قال: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

ففرق بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة. وبين «الكيف» الذي لا يعقله البشر. وهذا الجواب من مالك رضي الله عنه شاف، عام في جميع مسائل الصفات. فمن سأل عن قوله (٤٦:٢٠) إني معكما أسمع وأرى) كيف يسمع ويرى؟ أحيب بهذا الجواب بعينه. فقيل له: السمع والصر معلوم. والكيف غير معقول.

وكذلك من سأل عن العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والبرول، والعضب، والرضا، والرحمة، والضحك، وغير ذلك. فمعانيها كلها مفهومة. وأما كيفيتها: فغير معقولة، إذ تعقل الكيفية فرع العلم بكيفية الذات وكنهها. فإذا كان ذلك غير معقول للشر، فكيف يعقل لهم كيفية الصفات؟

والعصمة السابعة في هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه. وما وصف به رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. بل تثبت له الأسماء والصفات. وتنفي عنه مشاهة المخلوقات. فيكون إثباتك مرها عن التشبيه. ونفيك منرها عن التعطيل. فمن نعى حقيقة «الاستواء» فهو معطل. ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثل. ومن قال: استواء ليس كمثله شيء. فهو الموحد المره.

وهكذا الكلام في السمع، والبصر، والحياة، والإرادة، والقدرة، واليد، والوجه، والرصا، والعصب، والبرول والضحك، وسائر ما ووصف الله به نفسه.

والمراد بالتأويل المنهي عنه هاهنا. التأويل الاصطلاحي، وهو صرف اللفظ عن طاهره من المعنى الراجح الى المعنى المرحوح.

وقد حكى غير واحد من العلماء: إجماع السلف على تركه. ومن حكاه البغوي، وأبو المعالي الجويني في رسالته النظامية، بخلاف ماسلكه في «شامله» و «إرشاده» ومن حكاه: سعد بن علي الزنجاني.

وقبل هؤلاء خلافت من العلماء لا يحصيهم إلا الله.

وفي ذكر عدم تجاوز ظاهرها تمثيلا إشارة لطيفة. وهي أن ظواهرها لا تقتضي التمثيل، كما تظنه المعلقة النفاة، وأن التمثيل تتجاوز لظواهرها إلى مالا تقتضيه، كما أن تأويلها تكلف، وحمل لها على مالا تقتضيه. فهي لا تقتضي ظواهرها تمثيلا، ولا تحتل تأويلا. بل إجراء على ظواهرها بلا تأويل ولا تمثيل. فهذه طريقة السالكين بها سواء السبيل.

(٢٣) مَزَلَةُ الْإِحْلَاصِ

ومن مسارل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإخلاص»

قال الله تعالى (٥:٩٨) وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وقال (٣:٣٩) إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين. الا لله الدين الخالص) وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (١٥:٣٩) قل الله أعبد مخلصاً له ديني، فاعبدوا ما شئتم من دونه) وقال له (١٦٢:٦، ١٦٣) قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له. وبذلك أمرت. وأنا أول المسلمين) وقال (٢:٦٧) الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً. لم يقبل. وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً: لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. ثم قرأ قوله تعالى (١١٠:١٨) فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً. ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وقال تعالى (١٢٥:٤) ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن؟) فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله. والإحسان فيه: متابعة رسوله صلى الله عليه وسلم وسنته. وقال تعالى (٢٣:٢٥) وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) رمي الأعمال التي كانت على غير السنة. أو أريد بها غير وجه الله. قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه «إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ، فَتَعْمَلْ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى؛ إِلَّا أَزْدَدَتْ بِهِ خَيْرًا، وَدَرَجَةً وَرَفْعَةً» وفي الصحيح من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثَلَاثٌ لَا تَقْبَلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمَنَاصِحَةُ وَلَاةِ الْأَمْرِ. وَلِزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ. فَإِنْ دَعَوْتَهُمْ تَحِيْطٌ مِنْ وِرَائِهِمْ» أي لا يسقى فيه غُلٌّ، ولا يحمل العِلٌّ مع هذه الثلاثة، بل تنفى عنه غُلّه. وتُنْقِيه منه. وتخرجه عنه. فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الفس. وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة. فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودَغَلًا. ودواء هذا الغل، واستخراج أخلاطه: بتحرير الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة.

و «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل: يقاتل رياء، و يقاتل شجاعة. و يقاتل حمية: أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وأخير عن أول ثلاثة تُسَمَّر بهم النار: قارئ القرآن، والمجاهد، والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليُقال: فلان قارئ، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله. وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به. وأنا منه بريء».

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم. ولكن ينظر إلى قلوبكم» وقال تعالى (٢٢: ٣٧) لن ينال الله لحومها ولا دماؤها، ولكن يناله التقوى منكم).

وقد تنوعت عبارتهم في «الإخلاص» و «الصدق» والقصد واحد.

ف قيل: هو أفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المحلوقين.

وقيل: التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك. و «الصدق» التنقي من مطالعة النفس. فالمخلص لا رياء له، والصادق لا اعجاب له. ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص. ولا يتمان إلا بالصبر.

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والرياء أن يكون ظاهره حياً من باطنه. والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق. ومن تزيين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

ومن كلام الفصيل: ترك العمل من أجل الناس: رياء. والعمل من أجل الناس: شرك. والإخلاص: أن يعافيك الله منهما.

قال الحنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد. لا يعلمه ملك فيكته، ولا شيطان فيفسده. ولا هو فيعيله.

وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص. لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهداً غير الله، ولا مجازياً سواه.

وقال مكحول: ما أحلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت بياض الحكمة من قلبه على لسانه.

وقال أبو سليمان الداراني: إذا أحلص العبد انقطعت عنه كثرة الوسواس والرياء.

● مغزى الاخلاص : تنقية العمل من الشوائب

اما الهروي فجعل الاخلاص : تصفية العمل من كل شوب .
أي لا يمزج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس : إما طلب التزين في قلوب الخلق ، وإما طلب مدحهم ، والمهرب من ذمهم ، أو طلب تعظيمهم ، أو طلب أموالهم ، أو خدمتهم ومحبتهم ، وقضائهم حوائجهم ، أو غير ذلك من العلل والشوائب ، التي عُقد متمرقاتها : هـ إرادة ماسوى الله بعمله ، كأننا ما كان .

وأول درجاته عنده : إخراج رؤية العمل عن العمل . والخلص من طلب العوض على العمل . والتزول عن الرضا بالعمل ، يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات : رؤيته ، وملاحظته ، وطلب العوض عليه ، ورضاه به ، وسكونه إليه .

ففي هذه الدرجة يتخلص من هذه البلية فالذي يتخلص من رؤية عمله : مشاهدته لمنه الله عليه ، وفصله وتوقيه له . وأنه بالله لا بنفسه ، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لامشيئته هو ، كما قال تعالى (٩٢:٨١) وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين .

فهنا يتفهم شهود الجبر ، وأنه آلة محضة ، وأن فعله كحركات الأشجار ، وهبوب الرياح ، وأن المحرك له غيره ، والفاعل فيه سواه ، وأنه ميت — والميت لا يفعل شيئاً — وأنه لو خلى ونفثه لم يكن من فعله الصالح شيء . ألبتة . فإن النفس جاهلة ظالمة ، طبعها الكسل ، وإيثار الشهوات ، والبطالة . وهي منج كل شر ، ومأوى كل سوء . وما كان هكذا لم يصدر منه خير ، ولا هو من شأنه .

فالخير الذي يصدر منها : إما هو من الله ، وبه . لامن العبد ، ولا به . كما قال تعالى (٢١:٢٤) ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكني منكم من أحد أبداً ، ولكن الله يزكني من يشاء) وقال أهل الجنة (٤٣:٧) الحمد لله الذي هدانا لهذا) وقال تارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (٧٤:١٧) ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً) وقال تعالى (٧:٤٩) ولكن الله تحبب إليكم الإيمان . وزينه في قلوبكم — الآية) .

فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله وممته ، وإحسانه ونعمته . وهو المحمود عليه .

والذي يتخلص من رضا عمله وسكونه إليه : أمران :

أحدهما : مطالعة عيوبه وآفاته ، وتقصيره فيه ، ومافيه من حظ النفس ، ونصيب الشيطان .

فقل عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب ، وإن قل . وللنفس فيه حظ . شل السبي صلى الله عليه وسلم عن التفات الرجل في صلاته ؟ فقال «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» .

فإذا كان هذا التفاتٌ ظُرِفَ أو لحظه. فكيف التفات قلبه إلى ماسوى الله؟ هذا أعظم نصيب الشيطان من العودية.

وقال ابن مسعود «لا يجعل أحدكم للشيطان حظاً من صلاته؛ يرى أن حقاً عليه: أن لا ينصرف إلا عن يمينه» فجعل هذا القدر اليسير الزر حظاً ونصيباً للشيطان من صلاة العبد. فما الظن بما فوقه؟.

وأما حظ النفس من العمل: فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون. الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله: من حقوق المودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيهها حقاً، وأن يرضى بها لربه. فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين. ويستحيى من مقابلة الله بعمله. فسوء ظنه بنفسه وعمله وبعضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله: يحول بينه وبين الرضا بعمله، والرضا عن نفسه.

وقال بعضهم: آفة العبد: رضاء عن نفسه، ومن لم يتهم نفسه على دوام الاوقات فهو مغرور.

• عمل لا ينفي الخجل

وقيل: لا بد من الخجل من العمل، مع بذل المجهود.

فمن اخلاص العابد: «خجله» من عمله. وهو شدة حيائه من الله. إذ لم يرد لك العمل صالحاً له، مع بذل مجهوده فيه. قال تعالى (٦٠: ٢٣) والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة: أنهم إلى ربهم راجعون) قال النبي صلى الله عليه وسلم «هو الرجل يصوم، ويصلي، ويتصدق، ويتعاف أن لا يقبل منه».

فال مؤمن: جمع إحساناً في عاقبة، وسوء ظن بنفسه. والمغرور: حسن الظن بنفسه مع إساءته. وخلال كل ذلك: تجعل عملك تابعاً للعلم، موافقاً له مؤتماً به. تسير سيره وتقف بوقوفه، وتحرك بحركته. نارلاً منزله، مرتوياً من موارده. ناظراً إلى الحكم الديني الأمرى متقيداً به، فعلاً وتركاً وطلباً وهرباً. وناظراً إلى ترتب الثواب والعقاب عليه سبباً وكسباً. ومع ذلك تفسر أنت بقلبك، مشاهداً للحكم الكوني القصائي، الذي تنطوي فيه الأسباب والمسببات، والحركات والسكنات ولا يبقى هناك غير محض المشيئة، وتفرد الرب وحده بالأفعال، ومصدرها. عس إرادته ومشيئته. فيكون قائماً بالأمر والهي: فعلاً وتركاً، سائراً بسيره، وبالقصاء والقدر: إيماناً وشهوداً وحقيقة. فهو ناظر إلى الحقيقة. قائم بالشرعية.

وهذان الأمران هما عودية هاتين الآيتين (٢٩:٢٨، ٢٩:٨٩) لمن شاء منكم أن يستقيم. وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وقال تعالى (٢٩:٧٦، ٣٠:٢٩) إن هذه تذكرة. فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً. وما تشاءون إلا أن يشاء الله. إن الله كان عليماً حكيماً).

فترك العمل يسير سير العلم: مشهد «لمن شاء منكم أن يستقيم» وسير صاحبه مشاهداً للحكم: مشهد «وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين».

وهذا هو تهذيب العمل، بأن يمنح العامل فيه إلى العلم، وهو: التفاته إليه، وإصفاؤه إلى ما يأمر به، وتحكيمه عليه، فمتى لم يمنح إليه هذا الجنوح كان سيره مذموماً، ناقصاً، مبعداً عن الله، فإن كل سير لا يصحبه علم: يُخاف عليه أن يكون من حدة الشيطان، وهذا القدر هو الذي أفسد على أهل الثغور ثغورهم، وشردهم عن الله كل مشرد. وطردهم عنه كل مطرد. حيث لم يحكموا العلم، وأعرضوا عنه صفحا، حتى قادهم إلى الانسلاخ من حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام.

وهم الذين قال فيهم سيد الطائفة الجنيد بن محمد — لما قيل له: أهل المعرفة يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله — فقال الجنيد: إن هذا كلام قوم تكلموا بإسقاط الأعمال عن الجوارح. وهو عندي عظيمة. والذي يزني ويسرق أحسن حالا من الذي يقول هذا. فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله. وإليه رجعوا فيها. ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة، إلا أن يحال بي دونها.

وقال: الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتنى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم. وقال: من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث: لا يفتدى به في طريقنا هذا. لأن طريقنا وعلمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. واعلم أن المعرفة الصحيحة: هي روح العلم، وإن العلم الصحيح والعمل المستقيم: هما ميزان المعرفة الصحيحة.

فهذه الأركان: هي أركان السير، وأصول الطريق التي من لم يتين عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع. وإن ظن أنه سائر، فسيره إما إلى عكس جهة مقصوده، وإما سير للمقعد والمقيد، وإما سير صاحب الدابة الجموح. كلما مشت خطوة إلى قدام رجعت عشرة إلى خلف.

فإن عديم الإخلاص والمتابعة: انعكس سيره إلى خلف. وإن لم يذل جهده ويوحد طلعه: سار سير المقيد.

وإن اجتمعت له: فذلك الذي لا يجازى في مضمار سيره. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

(٢٤) منزلة التهذيب

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التهذيب، والتصفية». وهو سبب العبودية في كثير الامتحان، طلباً لإخراج ما فيها من الخبث والنش. ولولها: تهذيب الخدمة، أن لا يتخالجها جهالة. ولا يشوبها عادة، ولا يقف عندها همة. أي: تخليص العبودية، وتصفيتهما من هذه الأنواع الثلاثة. وهي: غالبة الجهالة، وشوب العادة، ووقوف همة الطالب عندها.

النوع الأول: مخالطة الجهال. فإن الجهالة متى خالطت العبودية، أوردتها العبد غير موردها. ووضعها في غير موضعها، وفعلها في غير مستحقتها. وفعل أفعالا يمتد أنها صلاح. وهي إفساد لخدمته وعبوديته، بأن يتحرك في موضع السكون، أو يسكن في موضع التحرك، أو يُقَدِّم في موضع إحجام، أو يُخَيِّج في موضع إقدام، أو يتقدم في موضع وقوف، أو يقف في موضع تقدم. ونحو ذلك من الحركات، التي هي في حق الخدمة: كمحركات الثقل الفيفس في حقوق الناس. فالخدمة مالم يصحها علم ثان بأدابها وحقوقها، غير العلم بها نفسها، كانت في مظنة أن تبعد صاحبها، وإن كان مراده بها التقرب. ولا يلزم حبوط ثوابها وأجرها فهي إن لم تبعده عن الأجر والثواب أعدته عن المرة والقرنة. ولا تنفصل مسائل هذه الجملة إلا بمعرفة خاصة بالله وأمره، وعبية تامة له. ومعرفة بالنفس وما منها.

النوع الثاني: شوب العادة. وهو أن يمزج العبودية حكم من أحكام عوائد النفس تكون منتفذة لها، معينة عليها. وصاحبها يعتقدها قرينة وطاعة، كمن اعتاد الصوم — مثلاً — وقرن عليه. فألقته النفس، وصار لها عادة تتقاصها أشد اقتضاء فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية. وإنما هو تقاضي العادة.

وعلامه هذا: أنه إذا عرض عليها طاعة دون ذلك، وأيسر منه، وأتم مصلحة: لم تؤثرها إشارتها لما اعتادته وألفته.

فاعد الله على مقتضى أمره. لا على ما تراه من رأيك. ولا يكون الباعث لك داعي العادة. كما هو باعث من لا بصيرة له، غير أنه اعتاد أمراً فحرى عليه. ولو اعتاد صده لكان كذلك. وحاصله: أنه لا يكون باعثه على العبودية مجرد رأي، وموافقة هوى وعبية وعادة. بل الباعث

مجرد الأمر. والرأي والمحبة والمروءة والعوائد: منفذة تابعة. لا أنها مطاعة باعثة. وهذه نكتة لا يتنبه لها إلا أهل البصائر.

النوع الثالث: وقوف همة عند الخدمة. وذلك علامة ضعفها وقصورها. فإن العبد المحض لا تقف همته عند خدمة. بل همته أعلى من ذلك. إذ هي طالبة لرضا مخدومه. فهو دائماً مستصغر خدمته له. ليس واقفاً عندها. والقناعة تحمد من صاحبها إلا في هذا الموضع. فإنها عين الحرمان. فالمحب لا يقنع بشيء دون محبوبه. فوقوف همة العبد مع خدمته وأجرتها: سقوط فيها وحرمان.

● تهذيب القصد

و يكمل تهذيب الخدمة بتهذيب القصد، وهو تصفيته من ذل الإكراه، وحفظه من مرض الفتور، ونصرتة على فضول العلم.

وهذه ثلاثة أشياء تهذب قصد العامل وتصفيه:

أحدها: تصفيته من ذل الإكراه. أى لا يسوق نفسه إلى الله كرها. كالأجير المسخر المكلف. بل تكون دواعي قلبه وجواذبه متساقة إلى الله طوعاً ومحبة وإيثاراً. كجريان الماء في منحدره. وهذه حال المحبين الصادقين. فإن عبادتهم طوعاً ومحبة ورضا. ففيها فرة عيونهم، وسرور قلوبهم، ولذة أرواحهم. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «وجعلت قرة عيني في الصلاة» وكان يقول «يا بلال أرحنا بالصلاة» .

فقرة عين المحب ولدته ونعيم روحه: في طاعة محبوبه. بخلاف المطيع كرها، المتحمل للخدمة ثقلاً، الذي يرى أنه لولا ذل قهره لما أطاع، فهو يتحمل طاعته كالمكره الذي أذله مكرهه وقاهره. بخلاف المحب الذي يعد طاعة محبوبه قوتاً ونعيماً، ولذة وسروراً فهذا ليس الحامل له ذل الإكراه.

والثاني تحفظه من مرض الفتور. أى توقية من مرض فتور قصده، وخمود نار طلبه. فإن الغم هوروج القصد، ونشاطه كالصحة له. وفتوره مرض من أمراضه. فتهذيب قصده وتصفيته بحيثيته من أسباب هذا المرض الذى هو فتوره. وإنما يتحفظ منه بالحيثية من أسبابه. - وهو أن يلهو عن الفضول من كل شيء. - ويحرص على ترك ما لا يعنيه. ولا يتكلم إلا فيما يرجو فيه زيادة إيمانه وحاله مع الله ولا يصحب إلا من يعينه على ذلك. فإن بلى بمن لا يعينه فليدراه عنه ما استطاع، ويدفعه دفع الصائل.

الثالث: نصرة قصده على منازعات فضول العلم. ومعنى ذلك: نصرة خاطر العبودية المحضة، والاقبال على الله بكلية القلب، وإبعاد القلب عن مجاذبات تفاريع مسائل العلم الخلافية وفضلاته التي تشوش عليه وتضعف انتباهه الى قواعد العلم الشرعي الجامعة التي بها حياة القلب واستقامة السير.

(٢٥) منزلة الاستقامة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الاستقامة»
قال الله تعالى (٤١: ٣٠) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ. ثُمَّ اسْتَقَامُوا، تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ: أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا. وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) وقال (٤٦: ١٣)،
١٤ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ. ثُمَّ اسْتَقَامُوا. فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم
(١١: ١١٢) فاستقم كما أمرت ومن قاب معك ولا تطفوا إنه بما تعملون بصير
فبين أن الاستقامة ضد الطغيان. وهو مجاوزة الحدود في كل شيء.

وقال تعالى (٤١: ٦) قُلْ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ. فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ) وقال تعالى (٧٢: ١٦) وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لَنَفْتَنَهُمْ فِيهِ

سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة — أبو بكر الصديق رضى الله عنه — عن الاستقامة؟
فقال «أن لا تشرك بالله شيئاً» يريد الاستقامة على محض التوحيد، فإن من استقام على محض التوحيد الصادق الذى يدين به الصديق. واستقام له توحيد على العلم الصادق بأسماء الله وصفاته، وآثارها فى النفس والآفاق: استقام فى كل شأنه على الصراط المستقيم. فاستقام له كل عمل وكل حال.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهى. ولا تروغ روغان الثعلب».

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه «استقاموا: أحلصوا العمل لله».
وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه، وابن عباس رضى الله عنهما «استقاموا أدوا الفرائض»

وقال الحسن «استقاموا على أمر الله. فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته».
وقال مجاهد «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله».

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول: استقاموا على عبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يئنة ولا يسرة.

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت «يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك». قال: قل آمنت بالله ثم استقم»
وفيه عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «استقيموا. ولن تحصوا. واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة. ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»

والمطلوب من العبد الاستقامة. وهي السداد. فإن لم يقدر عليها فالمقاربة. فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة. كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «سدّدوا وقاربوا. واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها. فأمر بالاستقامة. وهي السداد، والإصابة في لنيات والأقوال والأعمال.

وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها. فقلهم إلى المقاربة. وهي أن يقرؤوا من الاستقامة بحسب طاقتهم. كالذي يرمى إلى العرض، فإن لم يصبه يقاربه. ومع هذا فأجبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تتجى يوم القيامة. فلا يركن أحد إلى عمله. ولا يحب به. ولا يرى أن نجاته به. بل إما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين. وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء.

والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله. وبالله، وعلى أمر الله.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله تعالى روحه — يقول: اعظم الكرامة لروم الاستقامة.

● اجتهاد على درب السنة ... في اقتصاد

وهي عند شيخ الإسلام الهروي: الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد. لا عاديّاً رزّم العلم، ولا متجاوزاً حدّ الإحلاص، ولا مغالاً نهج السة.

هذه درجة تتضمن ستة أمور: عملاً واجتهاداً فيه. وهو بذل المجهود. واقتصاد. وهو السلوك بين طرفي الإفراط، وهو الجور على النفوس. والتفريط بالاضاعة. ووقوفاً مع ما يرسمه العلم. وإفراد المعبود بالإرادة. وهو الإخلاص. ووقوع الأعمال على الأمر. وهو متابعة السنة. فهذه الأمور الستة تتم لأهل هذه الدرجة استقامتهم. وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة: إما خروجاً كلياً، وإما خروجاً جزئياً.

والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيراً، وما الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسنة — فإن الشيطان يُشَمُّ قلب العبد ويحتيره. فإن رأى فيه داعية للدعة، وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة: أخرجه عن الاعتصام بها. وإن رأى فيه حرصاً على السنة، وشدة طلب لها ولم يظفر به منقطعاً عنها : أمره بالاجتهاد، والجور على النفس، ومحاوذة حد الاقتصاد فيها. قائلاً له: إن هذا خير وطاعة. والزيادة والاجتهاد فيها أكمل. فلا تفر مع أهل الفتور. ولا تنم مع أهل النوم، فلا يزال يحشه ويحرضه. حتى يخرج عن الاقتصاد فيها. فيخرج عن حدها. كما أن الأول خارج عن هذا الحد. فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر، وكلا الأمرين خروج عن السُّنة إلى السدعة. لكن هذا إلى بدعة التفريط، والإصاعة. والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف.

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، وهى الإفراط. ولا يبال بأيهما ظفر: زيادة أو نقصان.

وقال النسي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما «يا عبد الله بن عمرو، إن لكل عامل شِرة، ولكل شِرة فترة. فمن كانت فترته إلى سنة أفلح، ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر» قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل. فكل الخير في اجتهاد ساقطصا، وإخلاص مقرون بالاتباع. كما قال بعض الصحابة: اقتصاد في سبيل سنة، خير من اجتهاد في خلاف سبيل سنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء عليهم السلام وستتهم.

وكذلك الرياء في الأعمال يخرج عن الاستقامة. والفتور والتواني يخرج عنها أيضاً. والذي يعين العابد على هذا التمييز أد يقف في مقام الفرق، فيشهد الفرق بين الأمر والبهى، والثواب والعقاب، والملاوة والمعاداة، والفرق بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يفضيه ويسخطه، فهوى في مقام الفرق الذي لا يحصل للعبد درجة الاسلام — فضلاً عن مقام الاحسان — إلا به.

ولا يحصل هذا إلا بالبقاء مع نور اليقظة، فهو الدوام في اليقظة، لا يطفىء نوره بظلمة الغفلة، بل يستديم يقظته، و يرى انه في ذلك كالمجذوب المأخوذ عن نفسه، حفظاً من الله له، لا أن هذه المواهب تحصل بتحفظه واحترازه، وليشهد أن الله هو المقيم له والمقوم، واد استقامته وقيامه بالله، لا بنفسه ولا بطلبه.

وهذا القدر من موجبات شهود معنى اسمه «القيوم» وهو الذي قام بعنه، فلم يحتج الى أحد، وقام كل شيء به، فكل ما سواه محتاج اليه.

(٢٦) مَنَزِلَةُ التَّوَكُّلِ

ومن منازل «إياك بعد وإياك مستعين» منزلة «التوكل»

قال الله تعالى (٥: ٢٦) وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين وقال (١٤: ١٢) وعلى الله فليتوكل المؤمنون وقال (٦٥: ٣) ومن يتوكل على الله فهو حسبه وقال عن أوليائه (٦٠: ٤) ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير وقال لرسوله (٦٧: ٢٩) قل هو الرحمن. آمنا به. وعليه توكلنا وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (٢٧: ٢٩) فتوكل على الله. إنك على الحق المبين وقال له (٤: ٨١) وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً وقال له (٢٥: ٥٨) وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وقال له (٣: ١٩٥) فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين وقال عن أنبيائه ورسله (١٤: ١٢) وما لنا ألا نتوكل على الله؟ وقد هداانا سُلطانا وقال عن أصحاب نبيه (٣: ١٧٣) الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فزادهم إيماناً. وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل وقال (٨: ٢) إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وحلت قلوبهم. وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً. وعلى ربهم يتوكلون

والقرآن مملوء من ذلك.

ومن أسمائه صلى الله عليه وسلم «المتوكل» وتوكله أعظم توكل. وقد قال الله له (٢٧: ٧٩) فتوكل على الله إنك على الحق المبين) وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن السيس محمودة في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله، واعتقاده وبيته، وأن يكون متوكلاً على الله وثقاً به. فالدين كله في هذين المقامين. وقال رسل الله وأنبياءه (١٤: ١٢) وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هداانا سُلطانا؟ فالعبد آفته: إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل. فإذا جمع التوكل إلى الهداية فقد جمع الإيمان كله. وفي الصحيحين — في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب — «هم الذين لا يشترقون، ولا يتطيقون، ولا يكتنون، وعلى ربهم يتوكلون».

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال «حسبنا الله ونعم الوكيل». قالها إبراهيم على الله عليه وسلم، حين ألقى في النار. وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فزادهم إيماناً. وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل)».

وفى الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «اللهم لك أسلمتُ وبك آمنت. وعليك توكلت. وإليك أنبت. وبك خاصمت. اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت: أن تضلني. أنت الحلى الذى لا يموت. والجن والانس يموتون».

وفى الترمذى عن عمر رضى الله عنه مرفوعاً «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

وفى السنن عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قال — يعني إذا خرج من بيته — بسم الله. توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هُديت ووُقيت وكُفيت. فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدى وكُفى ووُقى؟».

«التوكل» تصف الدين. والصف الثامى «الإبابة» فإن الدين استعانة وعبادة. فالتوكل هو الاستعانة، والإبابة هى العبادة. بل هو غرض العبودية وخالص التوحيد، إذا قام به صاحبه حقيقة.

ولله درسيد القوم، وشيخ الطائفة سهل بن عبد الله التستري. إذ يقول: العلم كله باب من التعداد. والتعبد كله باب من الورع. والورع كله باب من الزهد، والرهد كله باب من التوكل. ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها. ولا تزال معمورة بالنازليين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، فأهل السموات والأرض — المكلفون وغيرهم — فى مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم. فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه فى الايمان، ونصرة دينه، واعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفى محابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه فى استقامته فى نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس. ودون هؤلاء من يتوكل عليه فى معلوم يناله منه. من رزق أو عافية، أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك.

فأفضل التوكل: التوكل فى الواجب — أعنى واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس — وأوسعهم وأنفعهم: التوكل فى التأثير فى الخارج فى مصلحة دينية. أو فى دفع مقسدة دينية،

وهو توكل الأبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم. ثم الناس بعد في التوكل على حسب همهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغبة.

ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله. فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبنوذاً كان ما حصل له بتوكله مضره عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه. إن لم يستعن به على طاعته. والله أعلم.

● معاني التوكل ودرجاته

فلنذكر معنى «التوكل» ودرجاته. وما قيل فيه
قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب. ومعنى ذلك: أنه عمل قلبي. ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح. ولا هو من باب العلوم والإدراكات.
ومن الناس: من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد. ومنهم: من يفسره بالسكون. وهو حركة القلب. فيقول: التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب، وهو ترك الاختيار والاسترسال مع مجارى الأقدار.
قال سهل: التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد.
ومنهم: من يفسره بالرضا. فيقول: هو الرضا بالمقدور.
وقيل: التوكل هجر العاللق، ومواصلة الحقائق.
وحقيقة الأمر: أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور. لا تتم حقيقة التوكل إلا بها. وكل* أشار إلى واحد من هذه الأمور، أو اثنين أو أكثر.
فأول ذلك: معرفة بالرب وصفاته: من قدرته، وكفايته، وقوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.
قال شيخنا رضي الله عنه: ولذا لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف. ولا من القدريه الشقاق القائلين: بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء. ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله. ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات.
فأى توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم سفليه وعلويه؟ ولا هو فاعل باختياره؟ ولا له إرادة ومشية. ولا يقوم به صفة؟ فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف: كان توكله أصح وأقوى. والله سبحانه وتعالى أعلم.

● لانتفي الاسباب

الدرجة الثانية: إثبات في الاسباب والمسببات.
فإن من نفاها فتوكله مدخول. وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي: أن إثبات الاسباب
يقدم في التوكل، وأن نفيها تمام التوكل.
فاعلم أن نفاة الاسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة. لأن التوكل من أقوى الاسباب في
حصول التوكل فيه. فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعوه. فإذا اعتقد العبد أن
توكله لم ينصبه الله سبباً. ولا جعل دعاءه سبباً لنيل شيء، فقد وقع في الوهم الباطل، فإن الله
سبحانه وتعالى قضى بحصول الشيع إذا اكل المرء، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشيع ولم
يرو.
وقضى بحصول الحج والوصول الى مكة إذا سافر وركب الطريق، فإذا جلس في بيته لم يصل
الى مكة.
وقضى بدخول الجنة إذا أسلم، وأتى بالأعمال الصالحة. فإذا ترك الإسلام ولم يعمل
الصالحات: لم يدخلها أبداً.
وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الأرض، والقاء البذر فيها. فما لم يأت بذلك لم
يحصل إلا الخيبة.
فوزان ما قاله منكرو الاسباب: أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصول. ويقول: إن كان
قضى لي وسبق في الأزل حصول الشيع، والري، والحج ونحوها. فلا بد أن يصل الي، تحركت أو
سكنت، سافرت أو قعدت. وإن لم يكن قد قضى لي لم يحصل لي أيضاً، فعلت أو تركت.
فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء؟ وهل البهائم إلا أفقه منه؟ فإن البهيمة تسعى في
السبب بالهداية العامة.
فالتوكل من أعظم الاسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر
الاسباب لم يستقم منه التوكل. ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الاسباب. وقطع علاقة
القلب بها. فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها. وحال بدنه قيامه بها.
فالاسباب محل حكمة الله وأمره ودينه. والتوكل متعلق برؤيته وقضائه وقدره. فلا تقوم
عبودية الاسباب إلا على ساق التوكل. ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية.
بل الشجر من الاسباب جملة تمتنع عقلاً وشرعاً وحساً، وما أنزل رسول الله صلى الله عليه
وسلم بشيء من الاسباب، وقد ظاهر بين درعين يدم أحد، ولم يحضر الصف قط عريانا، كما
يفعله من لا علم عنده ولا معرفة. واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه، يدل على طريق الهجرة

وقد هدى الله به العالمين. وعصمه من الناس أجمعين. وكان يدخر له الله هوناً، وعصمه وهو سيد المتوكلين. وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد، وجميع أصحابه. وهم أولو التوكل حقاً، وأكمل المتوكلين بعدهم: هو من اشتهم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة، أو لحق أثره من غيارهم.

● التجريد اساس التوكل

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل. فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده. بل حقيقة التوكل: توحيد القلب. فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول. وعلى قدر تجريد التوحيد: تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفّت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه. فنقص من توكله يتقدر ذهاب تلك الشعبة، ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب. وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح. فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها. فيكون منقطعاً منها متصلاً بها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

● اللجوء الى الله بمنحنا السكينة

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده اليه، وسكونه اليه. بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون اليها. بل يخلع السكون اليها من قلبه. ويلبسه السكون الى مسببها. وعلامة هذا: أنه لا يبالي بأقباها وإدبارها. ولا يضطرب قلبه، ويخفق عند أدبار ما يجب منها، وأقبال ما يكره. لأن اعتماده على الله، وسكونه اليه، واستناده اليه، قد حصنه من خوفها ورجائها. فحالته حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به. فرأى حصناً مفتوحاً، فأدخله ربه إليه. وأغلق عليه باب الحصن. فهو يشاهد عدوه خارج الحصن. فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له.

وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه. وطمأنينته بشد أمه لا يعرف غيره. وليس في قلبه التفات الى غيره، كما قال بعض العارفين: المتوكل كالطفل. لا يعرف شيئاً يأوى اليه إلا ثدى أمه، كذلك المتوكل لا يأوى إلا الى ربه سبحانه.

• سبحانه أهل المنّ والتفضل

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل.
فعلى قدر حسن ظنك بربك ورحائك له. يكون توكلك عليه. ولذلك فسرّ بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.
والتحقيق: أن حسن الظن به يدعو إلى التوكل عليه. إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه. والله أعلم.

• استسلام

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع متاعاته.
وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير. يعني الاستسلام لتدبير الرب لك. وهذا في غير باب الأمر والنهي. بل فيما يفعله بك. لا فيما أمرك بفعله.
فإن توكل العبد هذا التوكل: أورثه علماً بأنه لا يملك قبل عمله استطاعة، ويعود لا يأمن مكر الله.

فاستطاعته بيد الله، لا بيده. فهو مالكها دونه. فإنه إن لم يُقطعه الاستطاعة فهو عاجز. فهو لا يتحرك إلا بالله، لا بنفسه. فكيف يأمن المكر. وهو محرك لا محرك؟ يحركه من حركته بيده، فإن شاء تَبَطَّطه وأتمده مع القاعدين. كما قال فيمن منعه هذا التوفيق (٩: ٤٦) ولكن كره الله انبعاثهم فَبَطَّطَهُمْ، وقيل أقعدوا مع القاعدين).

فهذا مكر الله بالعبد: أن يقطع عنه مواد توقيفه. ويغلى بينه وبين نفسه. ولا يبعث دواعيه. ولا يحركه إلى أمراضه ومحابه. وليس هذا حقاً على الله. فيكون ظالماً بمنعه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. بل هو مجرد فضله الذي يحمده على بذله لمن بذله، وعلى منعه لمن منعه إياه. فله الحمد على هذا وهذا.

ومن فهم هذا فهم باباً عظيماً من سر القدر، وانبجست له إشكالات كثيرة. فهو سبحانه لا يريد من نفسه فعلاً يفعله عبده يقع منه ما يحبه ويرضاه. فيمنعه فعل نفسه به، وهو توقيفه. لأنه يكرهه. ويقهره على فعل مساحطه. بل يَكِيلُه إلى نفسه وتحوّله وقوته، ويتخلّى عنه. فهذا هو المكر.

● نفوض أمرنا لله

الدرجة السابعة: التفويض.

وهو روح التوكل ولبُّه وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلها الى الله، وانزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراً. بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره: كل أموره الى أبيه، العالِم يشفقه عليه ورحمته، وقام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له. فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه. وقيامه بمصالحه وتوليئه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليئه لها. فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها الى أبيه، وراحته من حل كلِّها وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهله بوجود المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوض اليه، وقدرته وشفقته. وقد جاء التفويض في القرآن، فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون وقوله (٤٠: ٤٤) وافوض أمري الى الله).

والمفوض لا يفوض أمره الى الله إلا لأرادته أن يقضى له ما هو خير له في معاشه ومعاده. وإن كان للمقضى له خلاف ما يظنه خيراً. فهو راض به. لأنه يعلم أنه خير له. وإن خفيت عليه جهة المصلحة فيه. وهكذا حال المتوكل سواء. بل هو أرفع من المفوض. لأن معه من عمل القلب ما ليس مع المفوض. فإن المتوكل مفوض وزيادة. فلا يستقيم مقام «التوكل» إلا بالتفويض. فإنه إذا قوَّض أمره اليه اعتمد بقلبه كله عليه بعد تفويضه.

ونظير هذا: أن من فوض أمره الى رجل، وجعله اليه. فإنه يجد من نفسه — بعد تفويضه — اعتماداً خاصاً، وسكوناً وطمأنينة الى المفوض اليه أكثر مما كان قبل التفويض. وهذا هو حقيقة التوكل.

● الرضا ثمرة التوكل

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة. انتقل منها الى درجة «الرضا». وهي ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل: بها. فأنما فسره بأجل ثمراته، وأعظم فوائده. فإنه اذا وكل حق التوكل رضى بما يفعله وكيله. وكان شيخنا — رضى الله عنه — يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده. فمن توكل على الله قبل الفعل. ورضى بالمقضى له بعد الفعل. فقد قام بالعبودية. أو معنى هذا.

قلت: وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستخارة «اللهم إني أستخيرك بعلمك. وأستقدرك بقدرتك. وأسألك من فضلك العظيم» فهذا توكل وتفويض. ثم قال «فإنك تعلم ولا أعلم. وتقدر ولا أقدر. وأنت علام الغيوب» فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوكل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توكل إليه بها المتوسلون. ثم سأل ربه أن يقضى له ذلك الأمر أن كان فيه مصلحته عاجلاً، أو أجلاً، وأن يصرفه عنه إن كان فيه ضرره عاجلاً أو أجلاً، فهذا هو حاجته التي سألها. فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له. فقال «وَأَفْذُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ. ثُمَّ رَحِّمْنِي بِهِ».

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، التي من جملتها: التوكل والتفويض، قبل وقوع المقدور. والرضا بعده. وهو ثمرة التوكل. والتفويض علامة صحته، فإن لم يرض بما قضى له. فتفويضه معلول فاسد.

فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل. وثبت قدمه فيه. وهذا معنى قول بشر الخافي: يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله. لو توكل على الله لرضى بما يفعله الله به.

● أوهام بعض المتوكلين

وكثيراً ما يشتبه في هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص. فيشتبه التفويض بالإساعة. فيضيع العبد حظه. فلأن منه أن ذلك تفويض وتوكل. وإنما هو تضييع لا تفويض. فالتضييع في حق الله. والتفويض في حقك.

ومنه: اشتباه التوكل بالراحة، والقاء حل الكُلِّ. فيظن صاحبه أنه متوكل.

ومنه: اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها. فخلعها توحيد، وتعطيلها الحاد وزندقة. فخلعها عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه وركونه إليها مع قيامه بها. وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح.

ومنه: اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز. والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فصل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع شمسه، وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجرة، وبأذر الأرض. والمفتقر عاجز: قد فرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله. والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود.

ومنه: اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه، بالطمأنينة إلى المعلوم، وسكون القلب إليه. لا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة. كما يذكر عن أبي سليمان الداراني: أنه رأى رجلاً بمكة يتناول شيئاً لا شربة من ماء زمزم. فمضى عليه أيام. فقال أبو سليمان يوماً: أرايت لو غارت زمزم، أي شيء كنت تشرب؟ فقال وقيل رأسه، وقال: جزاك الله خيراً، حيث أرشدتني. فإني كنت أعد زمزم منذ أيام. ثم تركه ومضى.

و كثر المتوكلين سكونهم وطمأنينتهم الى المعلوم. وهم يظنون انه الى الله. وعلامة ذلك: أنه متى انتفض معلوم أحدهم حضره هممه وبثه وخوفه. فعلم أن طمأنينته وسكونه لم يكن الى الله. ومنه: اشتباه علم التوكل بحال التوكل. فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفصيله. فيظن أنه متوكل. وليس من أهل التوكل. فحال التوكل: أمر آخر من وراء العلم به. وهذا كعمرفة المحنة والعلم بها وأسبابها ودواعيها. وحال المحب العاشق وراء ذلك. وكعمرفة علم الخوف، وحال الخائف وراء ذلك. وهو شبه بعرفة المريض ماهية الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها.

فهذا الباب يشكر اشتباه الدعاوي فيه بالحقائق، والعوارض بالمطالب، والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة. والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم.

● اسماء حسنى يتعبد بها المتوكلون

«لتوكل» من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى. فإن له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات.

فله تعلق باسم «الغفار» والتواب، والعفو، والرووف، والرحيم» وتعلق باسم «الفتاح» والوهاب، والرازق، والمعطي، والحسن» وتعلق باسم «المعز، المذل، الحافظ، الرافع، المانع» من جهة توكله عليه في اذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر. وتعلق بأسماء «القدرة، والارادة» وله تعلق عام بجميع الاسماء الحسنى. ولهذا فسر من فسر من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وانما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح ~ محم ~ سوس

● الهمة الواطئة توقع المتوكل في الخلائ

وكثير من المتوكلين يكون مغشياً في توكله. وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغشٍ. كمن صرف توكله الى حاجة جبرئية استفرغ فيها قوة توكله. ويمكنه نيلها بأيسر شيء. وتغريغ قلبه للتوكل في زيادة الايمان والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيراً. فهذا توكل العاجز القاصر الهمة. كما يصرف بعضهم همته وتوكله. ودعاه الى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو حوج يمكن رواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه الى نصرة الدين، وقمع المستدعين، وزيادة الايمان، ومصالح المسلمين.

وحال النبي صلى الله عليه وسلم وحال أصحابه حك الأحوال وميزانها. بها يعلم صحيحها من سقيمها. فإن همهم كانت في التوكل أعلى من هم من بعدهم. فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب. وأن يُعبد الله في جميع البلاد، وأن يوحد جميع العباد، وأن تشرق شمس الدين الحق على قلوب العباد، فملأوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيماناً. وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان. وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأوها يقيناً وإيماناً. فكانت هم الصحابة — رضى الله عنهم — أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعى. فيجعله نصب عينيه، ويعمل عليه قوى توكله.

● لا إيمان لمن لا توكل له

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يجب المتوكلين عليه، كما يجب الشاكرين. وكما يجب المحسنين، وكما يجب الصابرين. وكما يجب التوابين. وأخبر: أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه. وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزاء معلوماً.

وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته. فقال (٢:٦٥) ومن يتق الله يجعل له مخرجاً (٥:٦٥) ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته (٤:٦٥) ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً (٦٩:٤) ومن يقطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين — الآية). ثم قال في التوكل (٣:٦٥) ومن يتوكل على الله فهو حسبه).

فانظر الى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجمله لغيره. وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عنده وأحبها إليه. وليس كونه وكل الأمور الى نفسه بمناف لتوكل العبد عليه. بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة الى نفسه. لأن العبد اذا علم ذلك وتحققه معرفة: صارت حاله التوكل قطعاً على من هذا شأنه، لعلمه بأن الأمور كلها موكولة إليه، وأن العبد لا يملك شيئاً منها. فهو لا يجيد بدا من اعتماده عليه. وتفويضه إليه، وثقته به من الوجهين: من جهة فقره، وعدم ملكه شيئاً آتية. ومن جهة كون الأمر كله بيده وإليه. والتوكل ينشأ من هذين العلمين. ولما كان الأمر كله لله عز وجل، وليس للعبد فيه شيء آتية، كان توكله على الله تسليم الأمر من هو له، وعزل نفسه عن منازعات مالكه، واعتماده عليه فيه، وخروجه عن تصرفه بنفسه، وحوله وقوته، وكونه به، الى تصرفه بربه، وكونه به سبحانه دون نفسه. وهذا مقصود التوكل، فاذا عزل العبد نفسه عن مقام التوكل: عزلها عن حقيقة السودية. وقد خاطب الله

بالتوكل في كتابه خواص خلقه، وأقر بهم اليه، وأكرمهم عليه، وشرّح في إيمانهم أن يكونوا متوكلين، والمعلق على الشرط بعدم عدمه.

وهذا يدل على انتفاء الايمان عند انتفاء التوكل. فمن لا توكل له: لا إيمان له قال الله تعالى (٢٣:٥) وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) وقال تعالى (١٣:١٤) وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال تعالى (٢:٨) إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلّت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون) وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة.

وأخبر تعالى عن رسله بأن التوكل ملجأهم ومعاذهم. وأمر به رسوله في أربعة مواضع من كتابه. وقال (١٠:٨٤، ٨٥) وقال موسى: يا قوم، ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مؤمنين * فقالوا على الله توكلنا).

(٢٧) منزلة الثقة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الثقة بالله تعالى» وهي التي لقتها الله تعالى لام موسى بقوله لها (٧: ٢٨) فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، ولا تخافي ولا تحزني) فإن فعلها هذا هو عين ثقته بالله تعالى، إذ لولا كمال ثقته بربه لما ألت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء. تتلاعب به أمواجه، وتجرّياته إلى حيث ينتهي أو يقف. ومدار التفويض عليها، وهي في وسطه كحال النقطة من الدائرة. فإن النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط. ونسبة جهات المحيط إليها نسبة واحدة. وكل جزء من أجزاء المحيط مقابل لها. كذلك «الثقة» هي النقطة التي يدور عليها التفويض. كما انها سويداء قلب التسليم، فإن القلب أشرف ما فيه سويداؤه، وهي المهجة التي تكون بها الحياة، وهي في وسطه. فلو كان «التفويض» قلباً لكانت «الثقة» سويداءه. ولو كان عيناً لكانت سوادها. ولو كان دائرة لكانت نقطتها. وقد تقدم أن كثيراً من الناس يفسر «التوكل» بالثقة. ويجعله حقيقتها. ومنهم من يفسره بالتفويض. ومنهم من يفسره بالتسليم.

فعلمت: أن مقام التوكل يجمع ذلك كله. فكأن «الشقة» هي روح. و«التوكل» كالبدن الحامل لها. ونسبتها إلى التوكل كنسبة الاحسان إلى الإيمان. وعنوانها: أمن العبد من فوت المقدور. وانتقاض المصور. فيظفر بروح الرضا، وإلا فبعين اليقين، والإنبساط الصبر. وذلك: أن من تحقق بمعرفة الله، وأن ما قضاه الله فلا مرد له ألبتة: أمن من فوت نصيبه الذي قسمه الله له. وأمن أيضاً من نقصان ما كتبه الله له، وسطره في الكتاب المصور. فيظفر بروح الرضا أي براحته ولذته ونعيمه. لأن صاحب الرضا في راحة ولذة وسرور. كما في حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله — بعدله وقسطه — حمل الرّوح والفرح في اليقين والرضا. وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

فإن لم يقدر العبد على «روح الرضا» ظفر «بعين اليقين» وهو قوة الايمان، ومباشرة للقلب، فيكون التسليم.

وهو نوعان: تسليم لحكمه الديني الأمرى. وتسليم لحكمه الكوني القدرى.
فأما الأول: فهو تسليم المؤمنين العارفين. قال تعالى (٦٥:٤) فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكّموك فيما شجر بينهم. ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً.
فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسعة الصدر بانتفاء الحرج. والتسليم.

وأما التسليم للحكم الكوني: فمزلة أقدام، ومُضَلَّة أفهام. حَيْرُ الأنام، وأوقع الخصام. وهي مسألة الرضا بالقضاء. وقد تقدم الكلام عليها بما فيه كفاية. وبيننا أن التسليم للقضاء يحمد اذا لم يؤمر العبد بمنارته ودفعه. ولم يقدر على ذلك، كالمصائب التي لاقدرة له على دفعها.
وأما الأحكام التي أمر بدفعها: فلا يجوز له التسليم اليها، بل المبودية: مدافعتها بأحكام آخره، أحب الى الله منها.

● فطرة نلهمنا تغنيانا عن طلب الادلة

وأول التسليم: ان لا تطلب على التوحيد دليلاً.
فكيف تحوج عليك وحبيبك الى أن يقيم لك الدليل على التوحيد والمعرفة بحيث لا تسير اليه حتى يقيم لك دليلاً على وجوده ووحدانيته، وقدرته ومشيتته؟
ولو أن رجلاً دعاك الى داره. فقلت للرسول: لا أتى معك حتى تقيم لي الدليل على وجود من أرسلك، وأنه مطاع، وأنه أهل أن يغشى بابه. لكنك في دعوى الفتوة زنيماً. فكيف بمن وجوده، ووحدانيته، وقدرته، وربوبيته والهيته: أظهر من كل دليل تطلبه؟ فما من دليل يستدل به، الا ووحدانية الله وكماله أظهر منه. فإقرار القدر بالرّب سبحانه خالق العالم: لم يوقفها عليه موقف. ولم تحتج فيه الى نظر واستدلال، ولهذا لم تدع الرسل قط الأمم الى الاقرار بالصانع سبحانه وتعالى، وإنما دعوهم الى عبادته وتوحيده. وخاطبهم خطاب من لا شبهة عنده قط في الاقرار بالله تعالى. ولا هو محتاج الى الاستدلال عليه. ولهذا (١٠:١٤) قالت لهم رسلهم: أفي الله شك فاطر السموات والأرض؟ وكيف يصح الاستدلال على مدلول هو أظهر من دليله؟ حتى قال بعضهم: كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ فتقيد السائر بالدليل وتوقفه عليه، دليل على عدم يقينه. بل إنما يتقيد بالدليل الموصول له الى المطلوب بعد معرفته به. فإنه يحتاج — بعد معرفته — الى دليل يوصله اليه، ويدله على طريق الوصول اليه. وهذا الدليل: هو الرسول صلى الله عليه وسلم. فهو موقوف عليه يتقيد به. لا يخطو خطوة إلا وراه، فيكون علمه و يقينه ونور بصيرته مغنياً له عن كثير من الادلة التي يتكلفها المتكلفون وأرباب القال. فإنه مشغول عنها بما هو أهم منها. وهو الغاية المطلوبة.

مثاله: أن المتكلم يفنى زمانه في تقرير حدوث العالم، وأحداث وجود الصانع. وذلك امر معروف منه عند السالك الصادق صاحب اليقين. فالذي يطله هذا بالاستدلال — الذي هو عرضة الشبه، والأسئلة، والايرادات التي لانهاية لها — هو كشف و يقين للسالك. فتقيده في سلوكه بحال هذا المتكلم انقطاع، وخروج عن الفتوة.

وهذا حق لاينسارع فيه عارف، فترى المتكلم يبحث في الزمان والمكان، والخواهر والأعراض، والأكوان. وهمته مقصورة عليها لايعدوها ليصل منها الى المكون وعبوديته. والسالك قد جاوزها الى جمع القلب على المكون وعبوديته بمقتضى أسمائه وصناعاته. لايلتفت الى غيره. ولايشغل قلبه بسواه.

فالتكلم متفرق مشتغل في معرفة حقيقة الزمان والمكان. والعارف قد شح بالزمان أن يذهب ضائعا في غير السير الى رب الزمان والمكان.
فصاحب التسليم لايتعلق في سيره بدليل.

• الشبهات والشهوات سبب الانقطاع

وتقام «التسليم» بالخلاص من شهوة تعارض الخير، أو شهوة تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع. وصاحب هذا التخلص: هو صاحب القلب السليم الذي لاينجويوم القيامة إلا من أتى الله به، فإن التسليم ضد المنازعة. والمنازعة: إما بشبهة فاسدة، تعارض الايمان بالخير عما وصف الله به نفسه من صفات وأفعاله، وما أخبر به عن اليوم الآخر، وغير ذلك. فالتسليم له: ترك منازعته بشبهات المتكلمير الباطلة.

وأما شهوة تعارض امر الله عز وجل. فالتسليم للأمر: بالتخلص منها.
أو إرادة تعارض مراد الله من عبده، فتعارضه إرادة تتعلق بمراد العبد من الرب. فالتسليم بالتخلص منها.

أو اعتراض يعارض حكمته في خلقه وأمره، بأن يظن أن مقتضى الحكمة خلاف ماشرع وحلاف ماقتضى وقدر. فالتسليم: التخلص من هذه المنازعات كلها.
وبهذا يتبين أنه من أجل مقامات الايمان، وأعلى طرق الخاصة، وأن «التسليم» هو محضر الصديقية، التي هي بعد درجة النوة، وأن أكمل الناس تسليما: أكملهم صديقية.

(٢٨) مَنَزِلَةُ الصَّبْرِ

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة الصبر.
قال الامام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً.
وهو واجب لجميع الأمة. وهو نصف الايمان. فإن الايمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً.
الأول: الأمر به. بحوقله تعالى (٣٥:٢) يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة)
وقوله (٤٥:٢) واستعينوا بالصبر والصلاة) وقوله (٢٠٠:٣) اصبروا وصابروا) وقوله
(١٢٧:١٦) واصبر وما صبرك إلا بالله).

الثاني: النهي عن صده كقوله (٣٥:٤٦) فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل،
ولا تستعجل لهم) وقوله (١٥:٨) ولا تؤثروهم الأذى) فإن تولية الأذى: ترك للصبر والمصابرة.
وقوله (٣٣:٤٧) ولا تبطلوا أعمالكم) فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها. وقوله (١٣٩:٣)
فلا تهتوا ولا تحزنوا) فإن الوهي من عدم الصبر.

الثالث: الشاء على أهله، كقوله تعالى (١٧:٣) الصابرين والصادقين — الآية) وقوله
(١٧٦:٢) والصابرين في الأساء والضراء وحين البأس. أولئك الذين صدقوا. وأولئك
هم المتقون) وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجاده سبحانه بحته لهم. كقوله (١٤٦:٢) والله يحب الصابرين).
الخامس: إيجاب معيته لهم. وهي معية خاصة. تنص حفظهم وصبرهم، وتأيدهم.
ليست معية عامة. وهي معية العلم، والإحاطة. كقوله (٤٧:٨) واصبروا. إن الله مع
الصابرين) وقوله (٢٤٩:٢) والله مع الصابرين).

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه. كقوله (١٢٦:١٦) ولئن صبرتم لهو خير
للصابرين) وقوله (٢٤:٤) وإن تصبروا خير لكم).
السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم. كقوله تعالى (٩٦:١٦) ولنجزين الذين
صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون).

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب. كقوله تعالى (٣٩:١٠) إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ).

التاسع: اطلاق البشري لاهل الصبر. كقوله تعالى (١٥٥:٢) وَتَلْبِثُوا فِيكُمْ بِشْيءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ. وبشر الصابرين).

العاشر: ضمان النصر والمداة لهم. كقوله تعالى (١٢٥:٣) بَلَى، إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا، وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُجُورِهِمْ هَذَا يُغْنِيْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم «واعلم أن النصر مع الصبر».

الحادي عشر: الاخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم. كقوله تعالى (٤٣:٤٢) وَلَنْ صَبِرُوا وَغَفَرَ إِنْ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ).

الثاني عشر: الاخبار أنه ما يُلْمَى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى (٨٠:٢٨) وَلَكُمْ. ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا. وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) وقوله (٣٥:٤١) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم).

الثالث عشر: الإخبار أنه اذا ينتفع بالآيات والمعبر أهل الصبر. كقوله تعالى لموسى (٥:١٤) أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَذَكَّرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ. إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) وقوله في أهل سبا (١٩:٣٤) فجعلناهم أحاديث. ومزقناهم كل مُتَزَقٍ. إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) وقوله في سورة الشورى (٣٣:٤٢) ومن آياته الجوارى في البحر كالأعلام. إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ. إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ).

الرابع عشر: الاخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر. كقوله تعالى (٢٦:١٣) والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم. فنعم عقبى الدار).

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الامامة. سمعت شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول: بالصبر واليقين تنال الامامة في الدين. ثم تلا قوله تعالى (٢٤:٣٢) وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون).

السادس عشر: اقتترانه بمقامات الاسلام، والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان. وبالتقوى والتوكل. وبالشكر والعمل الصالح والرحمة.

وهذا كان الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولايمان لمن لا صبر له. كما أنه لا جسد لمن لا رأس له. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «حير عيش ادركناه بالصبر» وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح «أنه ضياء» وقال «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله».

وفي الحديث الصحيح «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته شدة شكر، فكان خيراً له. وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له». وأمر الانعصار - رضى الله تعالى عنهم - بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده، حتى يلقوه على الحوض.

وأمر عند ملاقات العدو بالصبر. وأمر بالصبر عند المصيبة. وأخبر «أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى».

وأمر صلى الله عليه وسلم المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصبر والاحتساب. فإن ذلك يخفف مصيبته، ويوفر أجره. والخزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة، ويذهب الأجر. وأخبر صلى الله عليه وسلم أن الصبر خير كله، فقال «ما أعطي أحد عطاء خيراً له وأوسع: من الصبر».

• ارفع الصبر ما كان اختياراً

و «الصبر» في اللغة: الحبس والكف. ومنه: قُتل فلان صراً، إذا أسك وحبس. ومه قوله تعالى (٢٨: ١٨) واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) أي احبس نفسك معهم.

فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط. وحبس اللسان عن الشكوى. وحبس الجوارح عن التشويش.

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله. وصبر عن معصية الله. وصبر على امتحان الله. فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب. والثالث: صبر على مالا كسب للبعد فيه.

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على لقاء اخوته له في الحب، وبيعه وتفريقهم ييه وبين أبيه. فإن هذه امور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للبعد فيها حيلة غير الصبر. وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضاء، ومحاربة للنفس. ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة. فإنه كان شاباً، وداعية الشباب اليها قوية. وغزياً ليس له ما يعوصه و يبرد شهوته. وغريباً، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين

أصحابه ومعارفه وأهله. ومملوكا. والمملوك أيضاً ليس وازعه كوارع الحر. والمرأة جميلة. وذات مصيب. وهي سيدته. وقد غاب الرقيب. وهي الداعية له الى نفسها. والحرصة على ذلك اشد الحرص، ومع ذلك توعدته ان لم يفعل: بالسجن والصغار. ومع هذه الدواعي كلها: صبر اختياراً، وإيثاراً لما عند الله. وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسه؟. وكان يقول: الصبر على أداء الطاعات: أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل فان مصلحة فعل الطاعة: أحب الى الشارع من مصلحة ترك المعصية. ومفسدة عدم الطاعة: أبغض اليه وأكره من مفسدة وجود المعصية.

وله — رحمه الله — في ذلك مصنف قرره فيه بنحو من عشرين وجهاً. ليس هذا موضع دكرها.

والمقصود: الكلام على «الصبر» وحقيقته ودرجاته ومرتبته. والله الموفق.

● مراتب الصبر

وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله. وصبر لله. وصبر مع الله.

والأول: الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصّر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه. كما قال تعالى (١٦: ١٢٧) **واصبر وما صبرك إلا بالله** يعني ان لم يصبرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله. وهو أن يكون الساعث له على الصبر عمة الله، وأرادة وجهه، والتقرب اليه. لا لإظهار قوة النفس، والاستحسان الى الخلق، وغير ذلك من الاعراض.

والثالث: الصبر مع الله. وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع احكامه الدينية. صابراً نفسه معها، سائراً بسيرها. مقيماً باقامتها. يتوجه معها أين توجهت ركائبها. وينزل معها أين استقلت مضاربها.

فهذا معنى كونه صابراً مع الله، أي قد جعل نفسه وفقاً على أوامره ومحابه. وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها. وهو صبر الصديقين.

قال الجنيد: المسير من الدنيا الى الآخرة سهل حين على المؤمن. وهجران الخلق في جنب الله شديد. والمسير من النفس الى الله صعب شديد. والصبر مع الله أشد.

وسئل عن الصبر؟ فقال: تجرع المرارة من غير تعبس.

وقيل: تعويد النفس الهجوم على المكاره.

وقيل: المقام مع البلاء بحسن الصحة، كالمقام مع العافية.

وقال عمرو بن عثمان: هو الثبات مع الله، وتلقى ثلاثه بالرحب والدعة.

وقيل الحق: هو الشات على أحكام الكتاب والسنة.
وقيل: مراتب الصابرين خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبر، وصبور، وصبار. فالصابر: أعمها، والمصطبر: المكتسب الصبر الملىء به. والمتصبر: المتكلف حامل نفسه عليه. والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره. والصابر: الكثير الصبر. فهذا في القدر والكم. ولذي قبله في الوصف والكيف.

وقيل في قوله تعالى (٣: ٢٠٠) اصبروا وصابروا ورابطوا إنه انتقال من الأدنى الى الأعلى. فد «النصر» دون المصاهرة. و «المصاهرة» دون «المرابطة» و «المرابطة» مفاعلة من الربط وهو الشد. وسمى الرابط رابطاً: لأن الرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع. ثم قيل لكن منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها: رابط. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم «ألا أخبركم بما يحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إيساغ الوضوء على المكاه، وكثرة الخطا الى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط» وقال «رباط يوم في سبيل الله: خير من الدنيا وما فيها».

وقيل: اصبروا بنفسكم على طاعة الله. وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله. ورابطوا بأسراركم على الشوق الى الله.

وقيل: اصبروا في الله. وصابروا بالله. ورابطوا مع الله.

وقيل: اصبروا على النعماء. وصابروا على البأساء والضراء. ورابطوا في دار الأعداء. واتقوا إله الأرض والسماء. لعلكم تفلحون في دار السقاء.

«فالصر» مع نفسك، و«المصاهرة» بينك وبين عدوك. و«المرابطة» الثبات وإعداد العدة. وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو. فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب. لئلا يهجم عليه الشيطان، فيملكه أو يُخرجه أو يُشعثه.

وقيل: تتجرع الصبر، فإن قتلك قتلك شهيداً. وإن أحيأك أحيأك عزيزاً.

وقيل: الصبر لله غناء والله تعالى بقاء. وفي الله نلا. ومع الله وفاة. وعن الله جفاء. والصر على الطنب عنوان الظفر وفي المحن عنوان الفرج.

وقيل: حاب المد مع الله رباطه، ومادون الله أعداؤه.

وفي كتاب الأدب للبخاري «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان؟ فقال: الصبر، والسماحة»، ذكره عن موسى بن اسماعيل. قال: حدثنا سويد قال: حدثنا عبدالله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده — فذكره.

وهذا من اجمع الكلام . واعظمه برهانا وأوعه لمقامات الايمان من أولها الى آخرها .
فإن النفس يراد منها شيئا: بذل ما أمرت به وإعطاؤه . فالحامل عليه: السامع . وترك
مانهيت عنه، والبعد منه . فالحامل عليه: الصبر .
وقد امر الله سبحانه وتعالى في كتابه بالصبر الجميل، والصفح الجميل، والمحرر الجميل،
فسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول «الصبر الجميل» هو الذي
لا شكوى فيه ولا معه . و«الصفح الجميل» هو الذي لا عتاب معه . و«المحرر الجميل» هو الذي لا
أذى معه .

وقال ابن عيينة في قوله تعالى (٢٣:٣٢) وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) قال
«أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء» .

والشكوى الى الله عز وجل لا تنافي بالصبر . فإن يعقوب - عليه السلام - وعد بالصبر
الجميل . والنبي إذا وعد لا يخلف، ثم قال (٨٦:١٢) إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) وكذلك
أيوب أخبر الله عنه: أنه وجده صابراً مع قوله (٨٣:٢١) قسسى الضر. وأنت أرحم الراحمين).
وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى الى الله . كما رأى معصم رجلاً يشكو الى آخر
فاقةً وضرورة فقال: يا هذا، تشكون من يرحمك الى من لا يرحمك؟ ثم أنشد:

وإذا عَرَّكَ بَلِيَّةٌ فاصبر لها صبر الكريم . فإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

● الصعب اللذيذ

ولكن مهما تنوعت العبارات فانه لاخلاف بين اهل العلم ان اظهر معاني الصبر: حس
النفس على المكروه، وانه من اصعب المازل على العامة، وواحشها في طريق المحبة.
وإنما كان صعباً على العامة: لأن العامي مبتدئ في الطريق وليس له دُرْبَةٌ في السلوك،
ولا تهذيب المرتاض يقطع المازل. فإذا أصابته المحن أدركه الجزع وصعب عليه احتمال البلاء.
وعز عليه وجدان الصبر. لأنه ليس من أهل الرياضة. فيكون مستوطناً للصبر. ولا من أهل
المحنة، فيلنذ بالبلاء في رضا محبوبه.

وأما كونه وحشة في طريق المحبة: فلأنها تقتضي التذاد المحب بامتحان محبوبه له. والصبر
يقتضي كراهيته لذلك. وحسن نفسه عليه كرهاً. فهو وحشة في طريق المحبة.
وفي الوحشة نكتة لطيفة. لأن الالتذاد بالمحنة في المحبة هو من موجبات أنس القلب

بالمحبوب . فإذا أحس بالألم — بحيث يحتاج الى الصبر — انتقل من الاس الى الوحشة . ولولا الوحشة لما أحس بالألم المستدعى للصبر .

والصبر من آكد النازل في طريق المحبة ، وألزمها للمحبين . وهم أحوج الى منزله من كل منزلة . وهو من أعرف المارل في طريق التوحيد وأبينها .

وحاجة المحب اليه ضرورية .

فان قيل : كيف تكون حاجة المحب اليه ضرورية ، مع منافاته لكمال المحبة . فانه لا يكون الا مع منازعات النفس لمراد المحبوب ؟ .

قيل : هذه هي السكتة التي لأجلها كان من آكد النازل في طريق المحبة وأعلقها بها . وبه يعلم صحيح المحبة من معلوها ، وصادقها من كاذبها . فإن بقوة الصبر على المكارة في مراد المحبوب يعلم صحة محبته .

ومن ههنا كانت عمة أكثر الناس كاذبة . لأنهم كلهم ادعوا عمة الله تعالى . فحين امتحنهم بالمكارة انخلوا عن حقيقة المحبة . ولم يثبت معه إلا الصابرون . فلولا تحمل المشاق ، وتحشم المكروه بالصبر : لما ثبت صحة محبتهم . وقد تبين بذلك أن أعظمهم عمة أشدهم صبراً . ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه . فقال عن حبيبه أيوب (٣٨ : ٤٤) إذا وجدناه صابراً ثم أننى عليه . فقال (نعم العبد . إنه أواب) .

وأمر أحب الخلق اليه بالصبر لحكمه ، وأخبر أن صبره به . واثنى على الصابرين أحسن الشناء . وضمن لهم أعظم الجراء . وجعل أجر غيرهم محسوباً ، وأحرهم بغير حساب . وقرن الصبر بمقامات الاسلام ، والايمان ، والاحسان — كما تقدم — فجعله قرين اليقين ، والتوكل ، والايمان ، والأعمال ، والتقوى .

وأخبر أن آياته انما ينتفع بها أولو الصبر . وأخبر أن الصبر خير لأهلهم . وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم ، كما تقدم ذلك .

وليس في استكراه النفوس لألم ماتصبر عليه ، واحساسها به ، ما يقدح في محبتها ولا توحيدها . فان احساسها بالألم ، ونفرتها منه : أمر طبيعي لها . كافتضاءها للغذاء من الطعام والشراب . وتألمها بفقدته . فلوازم النفس لاسبيل الى اعدامها أو تعطيلها بالكلية . وإلا لم تكن نفاً إنسانية . ولا رفعت المحنة . وكانت عالماً آخر .

و«الصبر» و«المحبة» لا يتناقضان . بل يتواخيان ويتصاحبان بلى علة الصبر في الحقيقة : المناقضة للمحبة ، المزاحة للتوحيد — أن يكون الباعث عليه غير إرادة رضا

المحبوب. بل إرادة غيره، أو مزاحمته بإرادة غيره، أو المراد منه. لامراده. هذه هي وحشة الصبر ونكارتة.

وأما من رأى صبره بالله، وصبره لله، وصبره مع الله، مشاهداً أن صبره به تعالى لا يتنفسه. فهذا لا تلحق محبته وحشة. ولا توحده نكارة.

• الورع حياء أنبل من الورع خشية

والخوف من الوعيد جد مفيد في حل المرء على الصبر عن المعاصي والبعدها، والبعدها عنها جد مفيد بدوره في حفظ الإيمان والابقاء عليه، فإن المعصية تنقصه، أو تذهب به، أو تذهب رونقه وبهجته، أو تطفىء نوره، أو تضعف قوته، أو تنقص ثمرته. هذا أمر ضروري بين المعصية وبين الإيمان. يُعلم بالوجود والخبر والعقل، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن. ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن. ولا ينتهب ثوباً من ثياب الله حين يسرقها وهو مؤمن. ولا يفتن من ثياب الله حين يفتن بها وهو مؤمن. فإياكم إياكم». والتوبة معروضة بعد.

ولكن لما كان «الحياء» من شيم الأشراف، وأهل الكرم والنفوس الركية: كان صاحبه أحسن حالاً من أهل الخوف ومطالعة الوعيد.

لأن في الحياء من الله ما يدل على مراقبته وحضور القلب معه.

ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وزع الخوف.

فتمن وزعه الخوف: قلبه حاضر مع العقوبة. ومن وزعه الحياء: قلبه حاضر مع الله. والخائف مراعى جانب نفسه وحمايتها. والمستحي مراعى جانب ربه وملاحظ عظمت. وكلاهما من مقامات أهل الإيمان.

غير أن الحياء أقرب إلى مقام الاحسان، وألصق به، إذ أنزل نفسه منزلة من كأنه يرى الله. فنبعت يتابع الحياء من عين قلبه وتفتحت عيونها.

وايضاً: فإن فعل الطاعة أكد من ترك المعصية، فيكون الصبر عليها فوق الصبر عن ترك المعصية في الدرجة، إذ ترك المعصية إما كان لتكميل الطاعة، وأما المهى عنه فإنه لما كان يُضعف المأمور به ويُثقله: نهى عنه حماية، وصيانة لجانب الأمر. فجانب الأمر أقوى وأكد. وهو بمنزلة الصحة والحياة والنهي بمنزلة الحمية التي تراد لحفظ الصحة وأسباب الحياة. والصبر في هذه الدرجة بثلاثة أشياء: دوام الطاعة. والاختلاص فيها. ووقوعها على مقتضى العلم. وهو تحسينها علماً.

أما ترك الاخلاص فيها ، بأن يكون الباعث عليها غير وجه الله ، وإرادته والتعصب إليه .
فحفظا من هذه الآفة : برعاية الاخلاص .
وأما أن لا تكون مطابقة للعلم . بحيث لا تكون على اتباع السنة . فحفظها من هذه الآفة :
بتجريد المتابعة . كما أن حفظها من تلك الآفة بتجريد القصد والارادة .

● حلالة أجر المحنة ننسيتها شدتها

أما ، صبر في المحن على اذى الظالمين ، وعند النوازل والبلاء ، فإن العبد يستعجل به ويستعين
عليه بثلاثة أشياء :
أحد ها : « ملاحظة حسن الجراء » ، وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل
البلاء ، نشهود العوض . وهذا كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها ، لما يلاحظه من
لذة عاقبتها وطفره بها . ولولا ذلك لتمطلت مصالح الدنيا والآخرة . وما أقدم أحد على تحمل
مشقة عحلة إلا لثمرة مؤجلة ، فالنفس موكلة بحب العاجل . وإنا حاسة العقل : تلمح
المواقب ، ومطالعة الغايات .
واجع عقلاء كل أمة على أن السيم لا يدرك بالعيم . وأن من رافق الراحة : حصل على
استقة وقت الراحة في دار الراحة ، فإن على قدر التعب تكون الراحة .

عى قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكريم الكرائم
ويكسر في عين الصغير صغيرها وتصغر في عين العظيم العظائم

و قصد : أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحملة باختيارك وغير اختيارك .
والثانى « انتظار المرح » .
أى راحته ونسيمة . ولذته . فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة . ولا سيما عند قوة
اسرحاء ، * والقطع بالفرج . فانه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمة وراحته : ماهوم من
خمي الألطاف ، وما هو فرج معجل . وه — وغيره — يفهم معنى اسمه « اللطيف » .
والثالث : « تهوين البلية » بأمرين .
أحدهما : أن يعد نعم الله وأياديه عنده . فادا عجز عن عدها ، وأيس من حصرها ، هان

عليه ماهوفيه من البلاء وراه — بالسبة إلى أيادي الله ونعمه — كقطرة من بحر.
 الثانى: تذكر سؤالف النعم التى أنعم الله بها عليه. فهذا يتعلق بالماضى. وتعداد أيادي
 المنن: يتعلق بالحال. وملاحظة حسن الجزاء، وانتظار الجزاء، وانتظار روح الفرج: يتعلق
 بالمستقبل. وأحدهما فى الدنيا. والثانى يوم الجزاء.
 ويحكى عن امرأة من العابدات أنها عترب. فانقطعت اصبعها. فصحكت. فقال لها بعض
 من معها: أتضحكين، وقد انقطعت إصبعك؟ فقالت: أناطك على قدر عملك. حلاوة أجرها
 أنستسى مرارة ذكرها. إشارة إلى أن عمله لا يحتمل ما فوق هذا المقام. من ملاحظة المبطلين.
 ومشاهدة حسن اختياره لها فى ذلك البلاء، وتلدها بالتكره، والرضا عنه، ومقابلة ما جاء من
 قبله بالحمد والشكر.

● صبر لله .. وبالله

والصبر ثلاثة أنواع:
 صبر لله. أى رحاء ثوابه، وخوف عقابه. وصبر المريدين: إما هو بالله. فهم لا يرون
 لأنفسهم صبراً، ولا قوة لهم عليه. بل حالهم التحقق بـ «لا حول ولا قوة إلا بالله» علماً ومعرفة
 وحالاً:
 فالصبر لله فوق الصبر بالله، وأعلى درجة منه وأجل. فإن الصبر لله متعلق بالهية. والصبر
 به: متعلق بربوبيته. وما تعلق بالهية أكمل وأعلى مما تعلق بربوبيته.
 ولأن الصبر له: عبادة. والصبر به استعانة. والعبادة غاية. والاستعانة وسيلة. والغاية مرادة
 لنفسها. والوسيلة مرادة لغيرها.
 ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فكل من شهد الحقيقة الكونية
 صبر به.

وأما الصبر له: فتمتلة الرسل والأنبياء والصديقين، وأصحاب مشهد «إياك نعبد وإياك
 نستعين».

ولأن الصبر له: صبر فيما هو حق له، محبوب له مرضي له. والصبر به: قد يكون فى ذلك
 وقد يكون فيما هو مسخوط له. وقد يكون فى مكروه أو مباح، فأين هذا من هذا؟
 والثالث: «الصبر على أحكامه».

فهذا هو الصبر على أقداره، وقد عرفت بما تقدم: أن الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته:
 أكمل من الصبر على أقداره — كما ذكرنا فى صبر يوسف عليه السلام — فإن الصبر فيها صبر
 اختيار وإيثار ومحبة. والصبر على أحكامه الكونية: صبر ضرورة. وبينهما من اليون ما قد
 عرفت.

وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، على ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومهم: أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسببا عن فعله.

وكذلك كان صبر اسماعيل الذبيح. وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف.

فعلمت بهذا أن الصبر لله أكمل من الصبر بالله. والصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره. والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٢٩) منزلة الرضا

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرضا».

وقد اجمع العلماء على انه مستحب، مؤكدا استحبابه. واحتلوا في وجوهه. على قولين. وكان شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يذهب الى القول باستحبابه.

قال: ولم يحى الأمر به، كما جاء الأمر بالصبر. وإنما جاء الشاء على أصحابه ومدحهم. قال: وأما ما يروى من الأثر «من لم يصبر على بلائى، ولم يرض نفضائى، فليتخذ ربا سوائى» فهذا أثر اسرائيل، ليس يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم. قلت: ولا سيما عند من يرى أنه من جملة الأحوال التى ليست بمكتسبة، بل هوموهة محضة. فكيف يؤمر به. وليس مقدورا عليه؟

وقال الحراسيون: الرضا من جملة المقامات، وهونهاية التوكل. فعل هذا: يمكن أن يتوصل العد اليه بأكسائه. لأن الله مدح أهله، وأتى عليهم، فدل ذلك على انه مقدور لهم. والعراقيون قالوا: هو من جملة الاحوال، وليس كسبيا للعد، بل هونايلة تحمل بالقلب كسائر الأحوال.

والفرق بين المقامات والأحوال: أن المقامات عندهم من المكاسب، والأحوال مجرد المواهب. وحكمت فرقة تالته بين الطائفتين. منهم الغشيرة — صاحب الرسالة — وغيره فقالوا: يمكن الجمع بينهما، بأن يقال: بداية «الرضا» مكتسبة للعيد، وهى من جملة المقامات، وأما نهايته: فهى حال من الاحوال. والله أعلم.

وقال النبى صلى الله عليه وسلم «ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا، وبالا سلام ديناً، وبمحمد رسولا».

وقال «من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله ربا، وبالا سلام ديناً، وبمحمد رسولا. غفرت له ذنوبه».

وهذا الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، واليهما ينتهى. وقد تضمننا الرضا برؤيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه، والتسليم له. ومن اجتمعت له

هذه الأربعة: فهو الصديق حقاً. وهى سهلة بالدعوى واللسان. وهى من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان. ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك: تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقاً. فهو على لسانه لا على حاله.

فالرضا بألهيته يتضمن الرضا بحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والابادة والتبطل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه. فعلّ الراضى بحبوه كل الرضا. وذلك يتضمن عبادته والاحلاص له.

والرضا برؤيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده و يتضمن افراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه. وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضا بما يؤمر به. والثاني: يتضمن رضا بما يقدر عليه.

وأما الرضا بنبيه رسولاً: فيتضمن كمال الانقياد له. والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه. فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته. ولا يحاكم إلا إليه. ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبته. لافى شئ من أسماء الرب وصفاته وأفعاله. ولا فى شئ من أذواق حقائق الايمان ومقاماته. ولا فى شئ من احكام ظاهرة وباطنه. لإيرضى فى ذلك بحكمه. ولا يرضى الا بحكمه.

وأما الرضا بديسه: فاذا قال، أو حكم. أو أمر، أو نهى: رضى كل الرضا. ولم يبق فى قلبه حرج من حكمه. وسلم له تسليمًا. ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها، أو قول مُقلّده هو وشيخه وطائفته.

وههنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء فى العالم فإياك أن تستوحش من التفرد. فانه والله عين العزة، والصحة مع الله ورسوله، وروح الأس به. والرضا به رباً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً وبالاسلام ديناً.

بل الصادق كلما وجد من الاغتراب وداق حلاوته، وتَسَمَّ روحه. قال: اللهم زدنى اعتراباً، ووحشة من العالم، وأنسأ بك.. وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب، وهذا التفرد: رأى الوحشة عين الأس بالناس، والذلّ عين العزيم. والجهل عين الوقوف مع آرائهم. وزبالة ذهابهم،، والانقطاع عين التفيد برسومهم وأوصاعهم. فلم يؤثر بنصيبه من الله أحداً من الخلق. ولم يَنحَ حظه من الله موافقتهم فيما لا يُجْدى عليه إلا الحرمان. وعايته: مودة بينهم فى الحياة الدنيا. فاذا انقطعت الأسباب. وَحَقَّت الحقائق، وتُعْثِر مائى القبور، وَحُصِّل مائى النصور. ونُلت السرائر، ولم يجد من دوى مولاة الحق من قوة ولا ناصر. تبين له حيثى مواقع الرعب والخسار. وما الذى يَنْقُذ أو يرجع به الميزان. والله المستعان، وعليه التكلان

والتحقيق في المسألة: أن «الرضا» كسبي باعتبار سببه، مؤهبى باعتبار حقيقته. فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه. فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته: اجتتى منها ثمرة الرضا. فإن الرضا آخر التوكل، فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض: حصل له الرضا ولا بد. ولكن لعمته وعدم اجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها — لم يؤجبه الله على خلقه، رحمة بهم، وتخفيفاً عنهم. لكن ندبهم اليه. وأثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضا عنهم، الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها. فمن رضى عن ربه رضى الله عنه. بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه. فهو عفيف منوعين من رضا عن عبده: رضا قبله، أوجب له أن يرضى عنه. ورضا بعده. هو ثمرة رضا عنه. ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح المرءين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عيون المشتاقين.

ومن أعظم أسباب حصول الرضا: أن يلزم ما جعل الله رضا فيه. فإنه يوصله الى مقام الرضا ولا بد.

قيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد الى مقام الرضا؟ فقال: اذا أقام نفسه على اربعة اصول فيما يعامل به ربه، فيقول: ان اعطيتني قبلت. وان منعتني ربيت. وان تركتني عبدت. وان دعوتني اجبت.

وقال الجسيد: الرضا هو وصحة العلم الواصل الى القلب. فاذا باشر القلب حقيقة العلم اداه الى رضا.

وليس «الرضا والمحبة» كالرجاء والخوف. فإن الرضا والمحبة حالان من احوال اهل الجنة. لا يفارقان المتلبس بهما في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة. بخلاف الخوف والرجاء، فإنهما يفارقان اهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه، وأمنهم مما كانوا يخافونه، وان كان رجاءهم لما يتالون من كرامته دائماً، لكنه ليس رجاء مشوباً بشك، بل هو رجاء واثق بوعده صادق، من حبيب قادر. فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون.

• الهمة العالية شيعتها الرضا

وليس من شرط «الرضا» ألا تحس بالألم والمكاره. بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه. ولهذا أشكل على بعض الناس الرضا بالمكروه، وطعنوا فيه، وقالوا: هذا ممنوع على الطبيعة. وإنما هو الصبر، ألا فكيف يجتمع الرضا والكراهية؟ وهما ضدان.

والصواب: أنه لا تناقص بينهما، وان وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرضا، كرضا

المريض بشرب الدواء الكريه، ورضا الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ، ورضا المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح، وغيرها.

وطريق الرضا طريق مختصرة، قريبة جداً، موصلة الى أجل غاية. ولكن فيها مشقة. ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها. وإنما عقبتها همة عالية. ونفس زكية، وتوطين النفس على كل ما يرد عليها من الله.

و يسهل ذلك على العبد: علمه بضغفه وعجزه ورحمته به، وشقته عليه، وبره به. فإذا شهد هذا وهذا، ولم يطرح نفسه بين يديه، و يرضى به وعنه. وتنجذب لدواعي حبه ورضاه كلها اليه. نفسه نفس مطرودة عن الله، بعيدة عنه. ليست مؤهلة لقرنه ومولاته، أو نفس ممتحنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحس.

فطريق الرضا والمحبة: تُسَيِّر العبد وهو مستلق على فراشه. فيصبح أمام الركب بمراحل.

وتمرة الرضا: الفرح والسرور بالرب تارك وتعالى.

ورأيت شيخ الاسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في المنام. فذكرتُ له شيئاً من أعمال القلب. وأخذت في تعظيمه ومنفعته - لا أذكره الآن - فقال: أما أنا فطريقتي: الفرح بالله، والسرور به، أو بعهودنا من العبارة.

وهكذا كانت حاله في الحياة. يبدو ذلك على ظاهره. وينادي به عليه حاله.

وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما: ان ابا ذر رضي الله عنه يقول: الفقر أحب الي من العنى، والسقم أحب الي من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر. أما أنا، فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتممَّ غير ما اختار الله له.

وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي: الرضا أفضل من الزهد في الدنيا. لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته.

وسئل ابو عثمان عن قول النبي صلى الله عليه وسلم «أَسْأَلُكَ الرضا بعد القضاء» فقال: لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا. والرضا بعد القضاء هو الرضا.

وقيل: الرضا ارتفاع الجزع في اي حكم كان.

وقيل: رفع الاختيار. وقيل: استقبال الأحكام بالفرح.

وقيل: سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وكتب عمر بن الخطاب الى ابي موسى رضي الله عنهما «أما بعد، فإن الخير كله في الرضا.

فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر»

والرضا ثلاثة أقسام: رضا العوام بما قسمه الله وأعطاه. ورضا الخواص بما قدره وقضاه.

ورضا خواص الخواص به بدلاً من كل ما سواه.

● الرضا وليد الطمأنينة

والنفس انما تنال الرضا بالطمأنينة والسكينة، فمن دَرَب نفسه على الطمأنينة حصل له الرضا عن الله تعالى، ورضي الله عنه، وذلك قوله سبحانه (٢٧:٨٩) — ٣٠ يا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة ارجعي الى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي). وهذا نظير قوله تعالى (٣٢:١٦) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين. يقولون: سلام عليكم. ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) فإنما أوحى لهم هذا السلام من الملائكة والبشارة بغيره، وهو وفاتهم طيبين. فلم تنس الآية لعير الطيب سبيلا الى هذه البشارة. وفي وقت هذه المعالة ثلاثة اقوال للسلف. أحدهم: انه عند الموت. وهو الأشهر. قال الحسن: اذا أراد قضها اطمأنت الى ربها. ورضيت عن الله، فيرضى الله عنها.

وقال آخرون: انما يقال لما ذلك عند الموت. هذا قول عكرمة وعطاء والصحاح وجماعة. وقال آخرون: الكلمة الأولى — وهي «ارجعي الى ربك راضية مرضية» — يقال لما عند الموت. والكلمة الثانية — وهي «فادخلي في عبادي وادخلي جنتي» — يقال لما يوم القيامة. واصح — ان هذا القول يقال لما عند الخروج من الدنيا، و يوم القيامة. فإن اول بعثها عند مفارقتها الدنيا. وحينئذ فهي في الرفيق الاعلى، ان كانت مطمئة الى الله. فأول ذلك عند الموت. وتامه وبهايته. يوم القيامة، فلا اختلاف في الحقيقة.

● الرضا بالله رباً : أساس الايمان

وارفع الرضا : الرضا بالله رباً، وتسحط عادة مادونه. وهذا قطب رضى الاسلام. الرضا بالله رباً: ان لا يتخذ ربّاً غير الله تعالى يسكن الى تديره وينزل به حوائجه. قال الله تعالى (٦: ١٦٤ قل اعبر الله ابغى ربّاً، وهو رب كل شيء؟) قال ابن عباس رضي الله عنهما «سيداً والها» يعني فكيف اطلب رباً غيره، وهو رب كل شيء؟ وقال في اول السورة (٦: ١٤ قل اعبر الله اتخذ ولياً؟ فاطر السموات والأرض) يعني معبوداً وناصراً ومعيناً وملجأً وهو من المبالاة التي تنصس الحب والطاعة. وقال في وسطها (٦: ١١٤ افغير الله ابتعني حَكَمًا؟ وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفضلاً) اي امير الله ابغى من يحكم بيني ويسكنكم. فتحاكم اليه فيما اختلفا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم الى غير كتابه؟ أنزله معضلاً، ميسراً كافياً سافياً.

وأنت اذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضا بالله رباً. وبالاسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسلاً، ورأيت الحديت يترجم عنها، ومشتقاً منها. فكثير من الناس يرضى بالله رباً، ولا يبغي رباً سواه، لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصرأ. بل يوالي من دونه أولياء. ظناً منه أنهم يقرّبونه الى الله، وأن موالاهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك . بل التوحيد: ان لا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه اولياء.

وهذا غير موالاة انبيائه ورسله، وعباده المؤمنين به . فإن هذا من تمام الايمان ومن تمام موالاته. فمخالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون. ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه. فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكماً، يتحاكم اليه، ويخاصم اليه، ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاث هي اركان التوحيد: ان لا يتخذ سواه رباً، ولا إلهاً، ولا غيره حكماً.

وتفسير الرضا بالله رباً: ان يسخط عبادة مادونه . هذا هو الرضا بالله الهأ. وهو من تمام الرضا بالله رباً. فمن أعطى الرضا به رباً حقه سخط عبادة ما دونه قطعاً. لأن الرضا بتحريد ربوبيته يستلزم تحريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

فمفسد رضى الإسلام على ان يرضى العبد بعبادة ربه وحده، وان يسخط عبادة غيره. وقد تقدم أن العبادة هي الحب مع الذل. فكل من ذللت له وأطعت وأحبيته دون الله، فأنت عابد له.

● الرضا بالقضاء من مكملات الايمان

ثم يتلو: الرضا عن الله، وبه ايضاً نطقت آيات التنزيل، وهو الرضا عنه في كل ما قضى وقدر.

وانما كان هذا الرضا تالياً لأن الرضا بالله رباً أعلى شأنأ وأرفع قدراً، ودرجته غنصة بالمؤمنين، بينما درجة الرضا عن الله مشتركة. فإن الرضا بالقضاء يصح من المؤمن والكافر. وغايته التسليم لقضاء الله وقدره. فأين هذا من الرضا به رباً والهأ ومعبودأ؟.

وأيضاً فالرضا به رباً فرض. بل هو من أكد الفروض باتفاق الأمة. فمن لم يرض به رباً، لم يصح له إسلام ولا عمل ولا حال.

وأما الرضا بقضائه: فأكثر الناس على أنه مستحب. وليس بواجب. وقيل: بل هو واجب، وهما قولان في مذهب أحد.

فالفارق بين الدرجتين فرق ما بين المرض والندب. وفي الحديث الإلهي الصحيح «يقول الله عز وجل: ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه» فدل على أن التقرب إليه سبحانه بأداء فرائضه أفضل وأعلى من التقرب إليه بالتواضع.

وأيضاً: فإن الرضا به راءاً يتضمن الرضا عنه، ويستلزمه. فإن الرضا به ربه ربه: هو رضا العبد بما يأمر به، وينهاه عنه، ويقسمه له وَيُقَدِّره عليه، ويعطيه إياه، ويجمعه منه. فمضى لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضى به راءاً من جميع الوجوه. وإن كان راضياً به راءاً من بعضها. فارضاً به راءاً من كل وجه: يستلزم الرضا عنه، ويتضمنه فلا ريب.

وأيضاً: فالرضا به راءاً متعلق بذاته، وصفاته وأسمائه، وربه ربه العامة والخاصة. فهو الرضا به حالاً ومدبراً، وأمرأ ونهياً، وملكا ومعطياً وامناً، وحكماً، ووكيلاً ولياً، وتواضعاً ومعياً، وكافياً وحسباً وريقاً، ومتلياً ومعافياً، وقانصاً وباسطاً، إلى غير ذلك من صفات ربه ربه.

وما ارضاه عنه: فهو رضا العبد بما يفعله به، ويعطيه إياه. ولهذا لم يجز إلا في الثواب وجرء. كقوله تعالى «٢٨: ٢٧: ٨٩» يا أيها النفس المطمئنة. ارجعي أن ربك راضية مرضية) فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته. كقوله تعالى «٨: ٩٨» حالدين فيها أئداً. رضى الله عنهم، ورضوا عنه. ذلك لمن خشي ربه).

والرض به. أصل الرضا عنه، والرضا عنه: ثمرة الرضا به.

وسر اسألة: أن الرضا به متعلق بأسمائه وصفاته. والرضا عنه: متعلق بشواه وحزائه.

وأيضاً: فإن الذي صلى الله عليه وسلم علق دوق طعم الايمان عن رضى بالله راءاً. ولم يعلقه من رضى عنه. كما قال صلى الله عليه وسلم «ذاق طعم الايمان من رضى بالله راءاً. وبالإسلام ديباً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً» فجعل الرضا به قرين الرضا بدينه وبه. وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام، التي لا يقوم إلا بها وعليها.

وأيضاً: فالرضا به راءاً يتضمن توحيداً وعادته، والإجابة إليه، والتوكل عليه. وجوده ورجاءه ومحبته. والبصر له وبه. والشكر على نعمه: يتضمن رؤية كل مائته نعمه وإحساناً. وإن شاء عبده. ورضا به يتضمن «شهادة أن لا إله إلا الله» والرضا بمحمد رسولاً. يتضمن «شهادة أن محمداً رسول الله» والرضا بالإسلام ديباً: يتضمن الترام عوديته، وطاعته. وطاعة رسوله جمعت هذه الثلاثة الدين كله.

وأيضاً: فالرضا به راءاً يتضمن اتحاداً معبوداً دون ماسواه. واتخاذاً ولياً ومعبوداً، وإبطالاً عداة كل ماسواه. وقد قال تعالى لرسوله «١١٤: ٦» أفغير الله أنفني حكماً؟ وقال «١٣: ٦» أغير الله أنفني ولياً؟ وقال «١٦٤: ٦» قل: أغير الله أبعي راءاً؟ وهورب كل شيء) فهذا هو عين الرضا به راءاً.

وأيضاً: فإنه جعل حقيقة الرضا به رباً: أن يسخط عبادة مادونه. فمتى سخط العبد عبادة ماسوى الله من الآلهة الباطلة، حباً وخوفاً، ورجاء وتعظيماً، وإجلالاً — فقد تحقق بالرضا به رباً، الذي هو قطب رضى الإسلام.

وإنما كان قطب رضى الدين: لأن جميع العقائد والأعمال، والأحوال: إنما تنبنى على توحيد الله عز وجل في العبادة، وسخط عبادة ماسواه. فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رضى تدور عليه. ومن حصل له هذا القطب ثبتت له الرضى. ودارت على ذلك القطب. فيحرق حينئذ من دائرة الشرك الى دائرة الإسلام. فتدور رضى إسلامه وإيمانه على قطبها الثالث اللام. وأيضاً: فإنه جعل حصول هذه الدرجة من الرضا موقوفاً على كون الرضى به رباً — سبحانه — أحب الى العبد من كل شيء، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة. ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية، وينتظم فروعها وشعبها.

ولما كانت المحبة التامة ميل القلب بكلية الى المحبوب: كان ذلك الميل حاملاً على طاعته وتعظيمه. وكلما كان الميل أقوى: كانت الطاعة أتم، والتعظيم أوفر. وهذا الميل يلازم الإيمان، بل هو روح الإيمان ولله. فأى شيء يكون أعلى من أمر يتضمن أن يكون الله سبحانه أحب الأشياء الى العبد، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة؟.

وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان. كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان: من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن كان يكره أن يرجع الى الكفر — بعد إذ أنقذه الله منه — كما يكره أن يلقى في النار».

فعلق ذوق الإيمان بالرضا بالله رباً. وعلق وجود حلاوته بما هو موقوف عليه. ولا يتم إلا به، وهو كونه سبحانه أحب الأشياء الى العبد هو ورسوله.

ولما كان هذا الحب التام، والإخلاص — الذي هو ثمرته — أعلى من مجرد الرضا بربوبيته سبحانه: كانت ثمرته أعلى. وهى وتجذ حلاوة الإيمان. وثمره الرضا: ذوق طعم الإيمان. فهذا وجد حلاوة، وذلك طعم. والله المستعان.

وإنما ترتب هذا وهذا على الرضا به وحده رباً، والبراءة من عبودية ماسواه، وميل القلب بكلية الىه، وانجذاب قوى المحب كلها اليه. ورضاه عن ربه تابع لهذا الرضا به. فمن رضى بالله رباً رضى الله له عبداً. ومن رضى عنه في عطائه ومنعه وبلائه وعافيته: لم يزل بذلك درجة رضا الرب عنه، إن لم يرض به رباً، وبنيبه رسولاً، وبالإسلام ديناً. فإن العبد قد يرضى عن الله ربه فيما أعطاه وفيما منعه، ولكن لا يرضى به وحده معبوداً وإلهاً. ولهذا إنما ضمن رضا العبد يوم القيامة لمن رضى به رباً. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «من قال كل يوم:

رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً: إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة» وقد نطق التنزيل بهذا الرضا أيضاً كقوله عز وجل (١١٩:٥) قال الله: هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم. لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضى الله عنهم ورضوا عنه. ذلك الفوز العظيم) وقال تعالى في آخر سورة المجادلة (٢٢:٥٨) ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. رضى الله عنهم ورضوا عنه. أولئك حزب الله. ألا إن حزب الله هم المفلحون) وقال في آخر سورة «لم يكن» (٨:٩٨) خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشي ربه).
فتمسنت هذه الآيات: حراءهم على صدقهم وإيمانهم، وأعمالهم الصالحة، ومجاهدة أعدائه، وعدم ولايتهم. بئ رضى الله عنهم. فأرضاهم. فرضوا عنه. وإما حصل لهم هذا بعد الرضا به رباً، وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً.

● وجوب التفريق بين مشيئة الله ومحبة

واعلم أن الله سبحانه وتعالى قد انكر على من جعل مشيئته وقضاءه مستلزاماً لمحبة ورضاه، فقال سبحانه (١٤٨:٩) سيقول الذين أشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا، ولا حرماً من شيء. كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا. قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ إن تتعون إلا الظن. وإن أنتم إلا تخرصون) وقال تعالى (٣٥:١٦) وقال الذين أشركوا: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا، ولا حرمانا من دونه من شيء. كذلك فعل الذين من قبلهم) وقال تعالى (٤٣:٢٠) وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم. ما لهم بذلك من علم) فهم استدلوا على محبة لشركهم ورضاه عنه بمشيئته لذلك. وعارضوه بهذا الدليل أمره ونهيهم. وفيه أبين الرد لقول من جعل مشيئته غير محبة ورضاه. فالإشكال إنما نشأ من جعلهم المشيئة نفس المحبة. فنشأ من ذلك الرامهم بكونه تعالى راضياً محباً لذلك. وتبرام رضىهم به.

والذي يكتشف هذه الغفلة، ويصبر من هذه العماية، ويوضح المعنى الصحيح للرضا بالقضاء، إنما هو التفريق بين ما رضى الله به، وهو المشيئة والمحبة، وبينهما ليس واحداً. ولا هما متلازمين. بل قد يشاء ما لا يحب، ويحب ما لا يشاء كونه.

والأوب: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده. ومشيئته انعامه لجميع ما في الكون مع نفسه لبعضه

والثاني: كمحبته إيمان الكفار، وطاعات الفجار، وعدل الظالمين، وتوبة الفاسقين. ولو شاء ذلك لوجد كله وكان جميعه. فإنه ما شاء كان. وما لم يشأ لم يكن. فإذا تقرر هذا الأصل، وأن الفعل غير المفعول، والقضاء غير المقضي، وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاءه: زالت الشبهات. وانحلت الاشكالات. والله الحمد. ولم يبق بين شرع الرب وقدره تناقض، بحيث يظن ابطال أحدهما للآخر. بل القدر ينصر الشرع. والشرع يصدق القدر. وكل منهما يحقق الآخر. إذا عرف هذا، فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب. وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان. فيجب على العبد أن يكون راضياً به بلا حرج، ولا منازعة ولا معارضة، ولا اعتراض. قال الله تعالى (٤: ٦٥) فلا، وربك لا يؤمنون حتى يُحكّموك فيما شجر بينهم. ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً).

فأقسم: أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليماً. وهذا حقيقة الرضا بحكمه. فالتحكيم: في مقام الإسلام. وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان. والتسليم: في مقام الإحسان.

ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان، واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحيى بروح الوحي، وتهدت طبيعته، وانقلب النفس الأمارة مطمئنة راضية وادعة، وتلقى أحكام الرب تعالى بصدر واسع منشرح مسلم: فقد رضى كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله. والرضا بالقضاء الكوني القدري، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه — من الصحة، والغنى، والعافية، واللذة — أمر لازم بمقتضى الطبيعة. لأنه ملائم للعبد، محبوب له. فليس في الرضا به عبودية. بل العبودية في مقابلته بالشكر، والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وأن لا يعصى المنعم بها، وأن يرى التقصير في جميع ذلك. والرضا بالقضاء الكوني القدري، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبهه — مما لا يلائمه. ولا يدخل تحت اختياره — مستحب. وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان. وهذا كالمرض والفقر، وأذى الخلق له، والحر والبرد، والآلام ونحو ذلك. والرضا بالقدر الجارى عليه باختياره — مما يكرهه الله ويسخطه، ويهوى عنه — كأنواع الظلم والفسوق والعصيان: حرام يعاقب عليه. وهو مخالفة لربه تعالى. فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحبه. فكيف تتفق المحبة والرضا ما يسخطه الحبيب ويغضبه؟ عليك هذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء

خبراً قلت: كيف يريد الله سبحانه أمراً لا يرضاه ولا يحبّه؟ وكيف يشاءه ويكوّنه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكراهيته؟.

فأعلم أن «المراد» نوعان: مراد لنفسه. ومراد لغيره. فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير. فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد. والمراد لغيره: قد لا يكون في نفسه مقصوداً للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر الى ذاته. وإن كان وسيلة الى مقصوده ومراده. فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله الى مراده. فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا يتنافيان. لاختلاف متعلقيهما. وهذا كالدواء التثاوي في الكراهة، اذا علم متناوله أن فيه شفاء، وكقطع العضو المتأكل إذا علم أن في قطعه بقاء حسده، وكقطع المسافة الشاقة حذاً إذا علم أنها توصله الى مراده ومحبوبه. بل العقل يكفي في إشاره هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبه، وطويت عنه مقبته، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب؟ فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء ويبغضه في ذاته. ولا يتنافي ذلك إرادته لغيره، وكونه سبباً الى ما هو أحب إليه من فوته.

مثلاً ذلك: أنه سبحانه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال، والاعتقادات والارادات. وهو سبب شقاوة العبد، وعملهم بما يعرض الرب تبارك وتعالى. وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة. فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى، مسحوق له. لعنه الله ومقته. وغضب عليه. ومع هذا فهو وسيلة الى محاب كثيرة للرب تعالى برتبته على خلقه. وجودها أحب إليه من عدمها.

منها: أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات فحق هذه الذات — التي هي أحبب الذوات وشرها. وهي سبب كل شر — في مقابلة ذات جبريل، التي هي أشرف الذوات، وأطهرها وأزكاها. وهي مادة كل خير. فتبارك الله حائق هذا وهذا. كما ظهرت لهم قدرته الشامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام، والداء والنداء، والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقبيح، والأرض والسماء، والذكر والأنثى. والماء والنار، والخير والشر.

وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته، وسلطانه وملكوته، فإنه خلق هذه المتضادات. وقابل بعضها ببعض. وسلط بعضها على بعض. وجعلها محات تصرفه وتديبه وحكمته. فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وكمال تصرفه وتديبه لمملكته.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل «القهار، المنتقم، العدل، والصار، وشديد العقاب، وسريع الحساب، وذو السطش الشديد، والخافض، والمذل» فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، فلا بد من وجود متعلقها. ولو كان الخلق كلهم على طيعة الملك؛ لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعقوه، ومغفرته وستره، وتجاوزه عن حقه، وعثقه من شاء من عبده. فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والقوائد. وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله «لولا لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله. فيغفر لهم». ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت. ولكان الحاصل بعضها، لا كلها.

فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه. ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوانعها: من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه. وبدل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومحافة الموت، وإيثار محاب الرب على محاب النفس.

ومنها: عبودية التوبة، والرجوع إليه واستغفاره. فإنه سبحانه يحب التوابين. ويجب توبتهم. ولوعطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها. ومنها: عبودية مخالفة عدوه، ومراعمته في الله، وإغاضته فيه. وهي من أحب أنواع العبودية إليه. فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه وبراغمه ويسوءه. وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس.

ومنها: أن يتعد له بالاستعادة من عدوه، وسؤاله أن يجبره منه، ويعصمه من كيده وأداه. ومنها: أنهم يتلون تواب مخالفته ومعاداته، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة. فأكثر عادات القلوب والحوارج مرتبة على مخالفته.

ومنها: أن نمس اقتضاه عدواً من أكر أنواع العبودية وأحلبها. قال الله تعالى «٦:٣٥ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا»، فاتخاذ عدواً أفنع سوء للعد. وهو محبوب للرب. ومنها: أن انطيمعة البشرية متمثلة على الخير والسر، والطيب والخيب. وذلك كامن فيها كميون الساري الرناد. فخلق الشيطان مستحراً لما في طائع أهل الشر من القوة إلى الفعل. وأرسل الرسل تستحرج ما في طيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل، واستحرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها، ليترب عليه آثاره. وما في قوى أولئك من الشر، ليترب عليه آثاره. وتظهر حكمته في الفريص. ويمد حكمه فيهما. ويظهر ما كان معلوماً له مطاعاً لعنمه الساب

وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا (٢: ٣٠) أتجهل فيها من يفسد مؤيداً
ويسفك الدماء؟ ونحن نسيح بحمدك ونقدس لك، قال: إنني أعلم ما لا تعلمون) فظنت
الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أول من وجود من يعصيه ويخالفه. فأحابه
سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه
الملائكة.

ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه: حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس
السافرة، مظلمة، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على
إيراهيم سرداً وسلاماً، والآيات التي أحرأها الله تعالى على يد موسى، وغير ذلك من آياته التي
يقول سبحانه عقب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم
مؤمنين) * وإن ربك هو العزيز الرحيم) فلولا كفر الكافرين، وعناد الجاحدين، لما ظهرت
هذه الآيات الباهرة، التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل الى الابد.

ومنها: أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضاً، ويكسر بعضها بعضاً: هو من
شأن كمال الربوبية، والقدرة المافدة، والحكمة التامة، والملك الكامل — وإن كان شأن
الربوبية كاملاً في نفسه، ولو لم تخلق هذه الأسباب — لكن خلقها من لوازم كماله وملكوته،
وقدرته وحكمته. فظهر تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة: تحقيق لذلك الكمال، وموجب من
موحّداته. فتميز مراتب العيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق
بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته.

وبالحكمة: فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلقها لا يحبه ولا يرضاه وتقديره
ومشيئته: أحب إليه سبحانه وتعالى من هوانها، وتعطيلها وتعطيل أسبابها.
فإن قلت: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟
قلت: هذا سؤال باطل. إذ هو فرض وجود الملزوم بدون لازمه. كفرض وجود الابن بدون
الأب، والحركة بدون المتحرك، والتربة بدون الثائب.
فإن قلت: كيف يرضى لعبده تيباً، ولا يمينه عليه؟.

قلت: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضىها
نه. وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي اكراهه إليه سبحانه من محبته لتلك
النساعة، بحيث يكون وقوعها منه مستلزماً لمفسدة راححة، ومموراً لمصلحة راححة. وقد أشار تعالى
في ذلك في قوله (٩: ٤٦، ٤٧) ولو أرادوا الخروج لأغثوا له غثّة، ولكن كره الله انعتابهم
فَنَظَّطَهُمْ، وقيل: افعدوا مع القاعديس. لوجرجوا فيكم.

ما زادوكم إلا خبالاً. ولأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ، يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاحُونَ سَم. والله عليم بالظالمين) فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ: أَنَّهُ كَرِهَ انْبِعَاطَهُمْ مَعَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْفَزْو. وهو طاعة وقربة، وقد أمرهم به. فلما كرهه منهم كَبَطَهُمْ عَنْهُ. ثم ذكر سبحانه بعض المفاصد التي كانت ستترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال «لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً» أي فساداً وشرّاً «ولأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ» أي سمعوا فيما بينكم بالفساد والشر «يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ» أي قابِلُونَ مِنْهُمْ مُسْتَجِيبُونَ لَهُمْ. فيتوَلَّد من بين سَمَى هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم. فاقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ وَالرَّحْمَةُ: أَنْ مِنْهُمْ مِنَ الْخُرُوجِ، وَأَقْعَدَهُمْ عَنْهُ. فاجعل هذا المثال اصلاً لهذا الباب. وقس عليه.

• ثمرات الرضا اليانعة

وللرضا ثمرات إيمانية كثيرة وافرة تنتج عنه، يرتفع بها الراضي إلى أعلى المنازل. منها: أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه. ولولم يجز عليه بها إلا ما يحب لكان أُمِدَّ شَيْءٌ عَنِ عِبُودِيَّةِ رَبِّهِ. فلا تتم له عبوديته — من العسر، والتوكل، والرضا، والتضرع، والافتقار، والذل، والخضوع، وغيرها — إلا بحريان القدر له ما يكرهه. وليس الشأن في الرضا بالقضاء الملازم للطبيعة. إنما الشأن في القضاء المؤلم المأمور للطبع. الثاني عشر: أن يعلم أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يشمر رضا ربه عنه. فإذا رضى عنه بالقليل من الرزق: رضى ربه عنه بالقليل من العمل. وإذا رضى عنه في جميع الحالات، واستوت عنده، وجده أسرع تَبَيُّءً إِلَى رِضَاهُ إِذَا تَرَفَّاهُ وَتَمَلَّقَهُ. ومنها: أن السخط باب الهمِّ والقَمِّ والحَزَنِ، وشتات القلب، وكشف البال، وسوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله. والرضا يخلصه من ذلك كله ويفتح له باب جنة الدنيا قبل حنة الآخرة.

فالرضا يوجب له الطمأنينة، وتزدد القلب، وسكوته وقراره. والسخط يوجب اضطراب قلبه، وريبته وانزعاجه، وعدم قراره.

كما أن الرضا يُنْزِلُ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ الَّتِي لَا أَنْفَعَ لَهَا مِنْهَا. ومتى نزلت عليه السكينة: استقام. وصلحت أحواله، وصلح بآله. والسخط يعده منها بحسب قلته وكثرته. وإذا ترحلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدعة والراحة، وطيب العيش. فمن أعظم نعم الله على عبده: تَنَزُّلُ السَّكِينَةِ عَلَيْهِ. ومن أعظم أسبابها: الرضا عنه في جميع الحالات.

ومنها: أن الرضا يخلص العبد من مخاصمة الرب تعالى في آخيه وأقربيه. فإن الاحتياط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد. وأصل مخاصمة إبليس لربه: من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية.

ومنها: أن حكم الرب تعالى ماض في عبده، وقضاء عدل فيه، كما في الحديث «ماض في حكمك، عدل في قضاؤك» ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور. وقوله «عدل في قضاؤك» يعم قضاء الذنب، وقضاء أثره وعقوبته. فإن الأمرين من قضائه عز وجل. وهو أعدل العادلين في قضائه بالذنب، وفي قضائه بعقوبته.

أما عدله في العقوبة: فظاهر. وأما عدله في قضائه بالذنب: ولأن الذنب عقوبة على غفلته عن ربه. وإعراض قلبه عنه. فإنه إذا غفل قلبه عن ربه ووليه، وقص إحلاصه: استحق أن يُعْزَبَ بهذه العقوبة. لأن قلوب الغافلين معدن الذنوب. والعقوبات واردة عليها من كل جهة. وإلا فمع كمال الإخلاص والذكر والإقبال على الله سبحانه وتعالى ودكره، يستحيل صدور الذنب. كما قال تعالى (١٢: ٢٤) كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء. إنه من عبادنا المخلصين).

فإن قلت: قضاؤه على عبده بإعراضه عنه، ونسيانه إياه، وعدم إحلاصه عقوبة على ماذا؟ قلت: هذا طبع النفس وشأنها، فهو سبحانه إذا لم يرد الخبز بعده حتى يبيعه ويبس نفسه وطعمه وهواء. وذلك يقتضي أثرها من الغفلة والنسيان، وعدم الإخلاص واتباع الهوى. وهذه لأسباب تقتضي آثارها من الآلام، وفوات الحيرات والملاذات. كاقترضاء سائر الأسباب سائر آثارها.

فإن قلت: فهلا حلقة على غير تلك الصفة؟

قلت: هذا سؤال فاسد، ومضمونه. هلا حلقة ملكا لا إنسانا؟

وإن قلت: فهلا أعطاه التوفيق الذي يتخلص به من شر نفسه وظلمة طبعه؟

قلت: مضمون هذا السؤال: هلا سوى بين جميع خلقه؟ ولم خلق المتضادات والمختلفات؟

وهذا من أفسد الأسئلة. وقد تقدم بيان اقتضاء حكمته وربوبيته وملكه لخلق ذلك.

ومنها: أن عدم الرضا إما أن يكون لموات ما أخطأه مما يحبه ويريده. وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه. فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وما أصابه لم يكن ليخطئه: فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه وحصول ما يضره.

ومنها: أن الرضا يفتح له باب السلامة. فيجعل قلبه سليماً تقيماً من الغش والدَّعَلِ والعلل. ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم. كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا. وكلّما كان العد أشد رصاً كان قلبه أسلم. فالتخت والدَّعَلِ والغش: قرين السخط. وسلامة القلب وبره وبصحة: قرين الرضا. وكذلك الحسد: هو من ثمرات السخط. وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا.

ومنها: أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله، وقصائه وقدره، وحكمته وعلمه. فقلّ أن يَسْلِمَ الساحط من شك يداخل قلبه ويتعلل فيه، وإن كان لا يشعر به. فلو فتش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولاً مدخولاً. فإن الرضا واليقين أحوار مصطحبان. والشك والسخط قرينان. وهذا معنى الحديث الذي في الترمذي — أو غيره «إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل. فإن لم تستطع فإن في الصر على ما تكره النفس حيراً كثيراً».

ومنها: أن من ملأ قلبه من الرضا بالعدل ملأ الله صدره غنى وأمناً وقناعة. وفرغ قلبه لمحنته، والإنابة إليه، والتوكل عليه. ومن فاته حظه من الرضا ملأ قلبه بصد ذلك. واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه.

فالرضا يفرغ القلب لله، والسخط يفرغ القلب من الله. ومنها: أن الرضا يشمر بالشكر، الذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان. والسخط يشمر بصد. وهو كفر النعم. وربما أتمر له كفر النعم. فإذا رضي العد عن ربه في جميع الحالات: أوجب له ذلك شكره. فيكون من الراصين الساكرين وإذا فاته الرضا: كان من الساخطين. وسلك سبيل الكافرين.

ومنها: أن الشيطان إما يظهر بالإنسان عالياً عند السخط والسهوة. فهناك يصطاده. ولا سيما إذا استحکم سخطه. فإنه يقول مالا يرضى الرب. ويفعل مالا يرضيه. ويسوى مالا يرضيه. ولهذا قال السي صلي الله عليه وسلم عند موت ابنه إبراهيم «تُخَرَّنُ القلب. وتدمع العين. ولا نقول إلا ما يرضى الرب» فإن موت النبي من العوارض التي توجب للعد السخط على القدر. فأخبر النبي صلي الله عليه وسلم: أنه لا يقول في مثل هذا المقام — الذي يسخطه أكثر الناس. فيتكلمون بما لا يرضى الله. ويعملون مالا يرضيه — إلا ما يرضى ربه تبارك وتعالى.

ومنها: أن الرضا يخرج الهوى من القلب. فالراضي هو الذي تبع لمرء ربه منه أعشى المراد الذي يحبه ربه ويرضاه. فلا يجتمع الرضا وتباع الهوى في القلب أنداً. وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا، فهو للغالب عليه مهما.

• ندوة لطيفة في الرضا

ومنها: أن الراضى واقف مع اختيار الله له. معرض عن اختياره لنفسه. وهذا من قوة معرفته بربه تعالى. ومعرفته بنفسه.

وقد اجتمع وهيب بن الورد، وسفيان الثوري، ويوسف بن أسباط. فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم. وأما اليوم: فوددت أني ميت . فقال له يوسف بن أسباط: ولم؟ فقال: لما أتخوف من الفتنه. فقال يوسف: لكى لا أكره طول البقاء.

فقال ثوري: ولم تكره الموت؟

قال: حللى أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً.

فقتل وهيب: أي شيء تقول أنت؟

فقال: أنا لا أحتار شيئاً، أحب ذلك إليّ أحبه إلى الله.

فقتل ثوري بن عبيد. وقال: روحانية ورب الكلمة

فهو حال عند قد استوت عنه حالة الحياة والموت. وقف مع اختيار الله له مهماً. وقد كـ وهيب — رحمه الله — له المقام العالى من الرضا وغيره.

• رضا الله عن العبد أكبر الثواب

ومنها: أن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها. لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى (٧٢:٩) ورضوان من الله أكبر بعد قوله (وعند الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر. ذلك هو الفوز العظيم) وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأعمال.

ومنها: أن العبد إذا رضى به وعنه في جميع الحالات: لم يتحير عليه المسائل وأعانه رضاه بما يقسمه به وبقدره ويفعله به عن ذلك. وجعل ذكره في محل سؤاله. بل يكون من سؤاله له الإيعانة على ذكره، وبلوغ رضاه. فهذا يعطى أفضل ما يعطاه سائل. كما جاء في الحديث «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» فإن السائلين سألوهم فأعطاهم الفصل مدى سألوهم. والراضون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم، ولا يمنع الرضا سؤاله أساس الرضا. بل صحبه مُلِحُّون في سؤاله ذلك.

ومنها: أن الرضا يشمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكوبها في كل حال، وطمانينة القلب عند كل مزعج مُهلِّج من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واغتياب العبد بقسمة من ربه، وفرجه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضا منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا. واعتقاد حسن تديره، وكمال حكمته. ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأقصيته. ولهذا سُمي بعض العارفين الرضا: حسن الخلق مع الله. فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خلقه.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أهبحت ومالي سرور إلا في مواقع القدر. وقال ابن مسعود رضي الله عنه «الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت. إن كان الفقر فإن فيه العسر. وإن كان الغنى فإن فيه النذل».

ومنها: أن الرضا بالقدر يحلص العبد من أن يرضى الناس سحق الله. وأن يذمهم على لم يؤته الله. وأن يحمدهم على ما هو عيسى فضل الله. فيكون ظالماً لهم في الأول — وهو راضاهم وذمهم — مشركاً بهم في الثاني — وهو حمدهم — فإذا رضى بالقضاء تحلص من ذمهم وحمدهم. فحلصه الرضا من ذلك كله.

● قلب الراضي بارد

ومنها: أن الرضا يفرغ قلب العبد. ويقلل همه وغمه. فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وعمومها. كما ذكر ابن أبي الدنيا عن بشر بن نشار المحاشمي — وكان من العلماء — قال: قلت لعابد: أوصني. قال: ألق نفسك مع القدر حيث ألقاك، فهو أخرى أن يُفَرِّغَ قلبك. ويقلل همك. وإياك أن تسخط ذلك، فيجلب لك السخط وأنت عنه في عفة لا تشعربه. فيلقبك مع الذين سخط الله عليهم.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله «لقد تركتني هؤلاء الدعوات، ومالي في شيء من الأمور كلها أذب، إلا في مواقع قدر الله. وكان كثيراً ما يدعو: اللهم رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته. ولا تأخير شيء عجلته».

وقال: ما أصبح لي هوى في شيء سوى ما قضى الله عز وجل.

ومنها: أن الله تعالى نهى عن التقدم بين يديه ویدی رسوله في حكمه الديني الشرعي. وذلك عبودية هذا الأمر. فعبودية أمره الكوني القُدري: أن لا يتقدم بين يديه إلا حيث كانت المصلحة الراجحة في ذلك. فيكون التقدم أيضاً بأمره الكوني والديني. فإذا كان فرضه الصبر أو بده، أو فرصه الرضا حتى ترك ذلك: فقد تقدم بين يدي شرعه وقدره.

• ليس لأعمال القلوب نهاية

ومنها: أن أعمال الجوارح تضاعف إلى حد معلوم محسوب. وأما أعمال القلوب: فلا ينتهي تضميمها. وذلك لأن أعمال الجوارح: لها حُدٌّ تنتهي إليه. وتقف عنده. فيكون جزاؤها بحسب حدها. وأما أعمال القلوب: فهي دائمة متصلة، وإن توارى شهود العبد لها. مشاه: أن المحبة والرضا حال المحب الراضى، لا تدرقه أصلاً. وإن توارى حكمها. فصاحبها في مرید متصل. فمرید المحب الراضى: متصل بدواء هذه الحال له. فهو في مزيد، ولو فترت حورجه. بل قد يكون زيده في حال سكونه وفتره أكثر من مزيد كثير من أهل التواغل بما يسهل بينهما.

فإن أنكرت هذا فتأمل مزيد نائم بالله، وقيام عاقل عن الله. قاله سبحانه إنما ينظر إلى عبود، والمهم والعزائم لا إلى صور الأعمال. وقيمة العبد: همة وإرادته. فمن لا يرضيه غير الله — ويرأى الدنيا بعدا فيراها — له شأن. ومن يرضيه أدنى حظ من حظوظها له شأن. وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة. وقد تكون أعمال الملتفت إلى الحفظ أكثر وأشق. وذلك فضل لله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

• الإلحاح في الدعاء عين العبودية

و بدعاء لا يساقى الرضا، بل إذا ألح العبد على الله في سؤاله بما فيه رضاه والقرب منه: فإن ذلك لا يقدر في مقام الرضا. وفي الأثر «إن الله يحب الملحين في الدعاء» وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه — يوم بدر — للنبي صلى الله عليه وسلم «يا رسول الله، قد ألححت على ربك. كفائك بعض مناشدتك لربك» فهذا الإلحاح عين العبودية. وفي سنن ابن ماجة من حديث أنس صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من لم يسأل الله يفضب عليه». فإذا كان سؤاله يرضيه لم يكن الإلحاح فيه منافياً لرضاه. وحقيقة الرضا: موافقته سبحانه في رضاه. بل الذي يساقى الرضا. أن يلح عليه متحكماً عليه متحيراً عليه ما لم يعلم: هل يرضيه أم لا؟ كمن يلح على ربه في ولاية شخص، أو إغائنه، أو قضاء حاجته. فهذا يساقى الرضا، لأنه ليس على يقين أن مرضاة رب في ذلك. وربما يفتح على قلبه — حال النزال — من معرفة الله ومحبته. والدل له، والخصوع والتملؤ

مايسيه حاجته. ويكون ما فتح له من ذلك أحب إليه من حاجته، بحيث يجب أن تدوم له تلك الحال، وتكون أثر عده من حاجته. وفرحه بها أعظم من فرحه بحاجته لو عجلت له وفاته ذلك. وقال بعض العارفين: إنه لتكون لى حاجة إلى الله. فأسأله إياها. فيفتح على من مباحاته ومعرفته، والتذلل له، والتعلق بين يديه: ما أحب معه أن يؤخر عني قضاءها. وتدوم لى تلك الحال.

(٣٠) مَنَزِلُ الشُّكْرِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الشكر»
وهي من أعلى المسارل. وهي فوق منزلة «الرضا» وزيادة. وارضاً مدرجاً في الشكر. إذ
يستحيل وجود شكره بدونه.

وهو نصف الإيمان — كما تقدم — والإيمان نصفان: نصف شكر. ونصف صبر.
وقد أمر الله به. ونهى عن صده، وأتى على أهله. ووصف به خواص خلقه. وجعله غاية
حقيقته وأمره. ووعد أهله بأحسن جزائه. وجعله سبباً للمزيد من فضله. وحارساً لحافظته لنعمته.
و«حبر» أهله هم المتفكرون بآياته. واشتق لهم اسماً من أسمائه فإنه سبحانه هو «الشكور»
وهو يوصل شكره إلى متكوره بل يعيد الشاكر متكوراً. وهو غاية قرب من عبده. وأهله هم
القيس من عبده قال الله تعالى (١٧٢: ٢) واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون وقال
(١٥٢: ٢) واشكروا لي ولا تكفرون وقال عن حليته إبراهيم صلى الله عليه وسلم (١٦):
١٢٠. ١٢١ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً. ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه
وقد عن سبطه عليه السلام (١٧: ٣) إنه كان عبداً شكوراً وقال تعالى (١٦: ٧٨) والله
أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً. وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة.
لعلكم تشكرون وقال تعالى (٢٩: ١٧) واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون وقال تعالى (٣):
١٤٤ وسيجزي الله الشاكرين وقال تعالى (١٤: ٧) وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم
لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد وقال تعالى (٣١: ٣١) إن فى ذلك لآيات
لكم صارتكم.

وسمى منه «شاكراً» «وشكوراً» وسمى الشاكرين بهذين الاسمين. فأعطاهم من
وصفه. وسماهم به. وحسبك بهذا حجة للشاكرين وفصلاً.

وأعدته لشاكر متكوراً. كقوله (٢٢: ٧٦) إن هذا كان لكم جزاء. وكان سعيكم
مشكوراً ورضاً الرب عن عبده به. كقوله (٣٩: ٧) وإن تشكروا يزددكم (لكم) وقلة أهله و
العالمين تدل على أنهم هم خواصه. كقوله (٣٤: ١٣) وقليل من عبادى الشكور و

الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه قام حتى تورمت قدماه. فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكراً؟». وقال لعاذ «والله يامعاذ، إني لأحبك. فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك».

وفي المسند والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان يدعو بهؤلاء الكلمات: اللهم أعني ولا تُعِنْ عليّ. وانصرني ولا تنصر عليّ. وامكزني ولا تمكزني. واهدني ويسر الهدى لي. وانصرني على من بغى عليّ. رب اجعلني لك، شَكَاراً لك، ذَكَاراً لك، رَهَاباً لك، مطاوِعاً لك، مَخْبِتاً إليك. أُوَافِقُ مَنِيّاً. رب تقبل توبتي. واغسل حوبتي. وأجب دعوتي. وثبت حجتي. واهد قلبي. وسدد لساني. واسئل سخيمة صدري».

● قواعد الشكر

وأصل «الشكر» في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أمدان الحيوان ظهوراً يئناً. يقال: شَكَرَتِ الدابة تَشْكُرُ شُكْرًا على وزن سَمَنْتَ تَسْتَسْ سَمْنًا: إذا ظهر عليها أثر العلف، ودابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن فوق ماتاكل. وتعطى من العلف. وفي صحيح مسلم «حتى إن الدواب لتشكر من لحومهم» أى لتسمن من كثرة ماتاكل منها.

وكذلك حقيقته في العبودية، وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافاً. وعلى قلبه: شهوداً ومحبة. وعلى حوارجه: انقياداً وطاعة. و«الشكر» مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للشكور، وحمه له. واعترافه بعمته. وثناؤه عليه بها. وأن لا يستعملها فيما يكره. فهذه الخمس: هي أساس الشكر. وبناءؤه عليها، متى عُمد منها واحدة: اختل من قواعد الشكر قاعدة.

وكل من تكلم في الشكر وحمّه، فكلامه إليها يرجع. وعليها يدور.

فقيل: حده الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وحرمان اللسان بذكره، والثناء عليه.

وقيل: هو مشاهدة المنة. وحفظ الحرمة

وم - نطف ما قال حدود القصار: شكر النعمة أن ترى بمسك فيها طفيليا.
 وق - أبو عثمان: الشكر معرفة العجر عن الشكر.
 وق - الحيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للعمة.
 هـ - معنى قول حدود «أن يرى نفسه فيها طفيليا».
 وق - روي: الشكر استفراغ الطاقة.
 وشكر العامة: على المطعم والمشرب والملبس، وقوت الأبدان.
 وشكر الخاصة: على التوحيد والإيمان وقوت القلوب.
 وق - الحيد - وقد سأله سرى عن الشكر، وهو صي؟ - الشكر: أن لا يستعان بشيء من
 نعم الله عى معاصيه. فقال: من أين لك هذا؟ قال: من مجالستك.
 وقين: من قصرت يدها عن المكافآت فليطل لسانه بالشكر.
 واسكر معه المزيد أبدأ. لقوله تعالى (١٤: ٩) لئن شكرتم لأزيدنكم) فمتى لم تر حالك
 و مريد. وستقبل الشكر.
 و ش - إلهي: يقول الله عز وجل «أهل ذكرى أهل مجالستي، وأهل شكرى أهل
 رباتى. وأهل طاعتى أهل كرامتى، وأهل معصيتى لأقنطهم من رحمتى. إن تابوا فأنا
 حبيبهم. وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم. أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعائب».
 وقين: من كنم النعمة فقد كفرها. ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.
 وهـ - مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله إذا أنعم على عبد بعملة أحب أن
 يرى أثر نعمته على عبده».
 وى هذا قيل:

ومن البرية: أن شكرى صامت عما فعلت. وأن برك باطن
 ورى الصيغة منك ثم أيسرها إسى إذا لى الكريم لسارق

• نعرف نعمة الرب، ونقبلها، ونتحدث بها

أما معرفتها: فهو إحصاؤها فى الدهن، ومشاهدتها وتمييزها.
 فمعرفتها: تحصيلها دها، كما حصلت له حارجاً. إذ كثير من الناس تحسن إليه وهو
 لا يبرى. فلا يصح من هذا الشكر.
 وقسوا: هرتليها من المعمر باطهار الفقر والفاقة إليها. وأن وصولها إليه بغير استحقاق مه،
 ولا يدل تم. بل يرى نفسه فيها كالطفيل. فإن هذا شاهد بقولها حقيقة.

أما الثناء على المنعم، المتعلق بالنعمة فينوعان: عام، وخاص. فالعام: وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك.
والخاص: التحدث بنعمه، والإخبار بوصولها إليه من جهته. كما قال تعالى (٩٣: ١١) وأما بنعمة ربك فحدث). وفي هذا التحديث المأمور به قولان.

أحدهما: أنه ذكر النعمة، والإخبار بها. وقوله: أنعم الله عليّ بكذا وكذا. قال مقاتل: يعنى اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذا السورة: من جبر اليتيم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة.

والتحدث بنعمة الله شكر. كما في حديث جابر مرفوعاً «من صُنِعَ إليه معروف فليُجْزَ به. فإن لم يجد ما يُجْزَى به فليُثْنِ. فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره. وإن كتمه فقد كفره، ومن تَحَلَّى بما لم يُعْطَ كان كلابس ثوبي زور». فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها والكاتم لها. والمظهر أنه من أهلها، وليس من أهلها. فهو متحلٍ بما لم يعطه.

وفي أثر آخر مرفوع «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر. وتركه كفر. والجماعة رحمة. والفرقة عذاب».

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد: هي النبوة. قال الزجاج: أى تبلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله. وقال الكلبي: هو القرآن. أمره أن يقرأه.

والصواب: أنه يعم النوعين. إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها. وإظهارها من شكرها.

و «الشكر» سبيل رسل الله وأنبيائه — صلى الله عليهم وسلم — أخص خلقه، وأقربهم إليه.

وليس من مقام أرفع من «الشكر» الذى يندرج فيه جميع مقامات الإيمان، حتى المحبة والرضا، والتوكل وغيرها فإن «الشكر» لا يصح إلا بعد حصولها وتالله ليس لخواص أولياء الله، وأهل القرب منه سبيل أرفع من «الشكر» ولا أعلى.

وإنعام الرب تعالى على عبده: إحسان إليه، وتفضل عليه، ويجرد امتنان. لا حاجة منه إليه، ولا لمحاوذة، ولا لاستعانة به، ولا ليتكثر به من قلة، ولا ليتعزز به من ذلة، ولا ليقوى به من ضعف. سبحانه وبحمده.

وأمره له بالشكر أيضاً: إيعام آخر عليه. وإحسان منه إليه. إذ منفعة الشكر ترجع إلى العبد دنيا وآخرة. لا إلى الله. والعبد هو الذى يتمتع بشكره. كما قال تعالى (٣١: ١٢) ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) ف شكر العبد إحسان منه إلى نفسه دنيا وأخرى، فإنه إما هو محسن إلى نفسه بالشكر. لا أنه مكافء به لنعم الرب. فالرب تعالى لا يستطيع أحد أن يكافئه بنعمه أبداً، ولا أقلها، ولا أدنى نعمة من نعمه. فإنه تعالى هو المعظم المتفضل، الخالق للشكر والشاكر، وما يُشكر عليه. فلا يستطيع أحد أن يحصى ثناء عليه. فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه بأن أوعده شكره. فشكره نعمة من الله أنعم بها عليه. تحتاج إلى شكر آخر. وهلم جرا.

ومن تمام نعمته سبحانه، وعظيم بره وكرمه وجوده: محبته له على هذا الشكر. ورضاه منه به. وثاؤه عليه به، ومنفعته وفائدته مختصة بالعبد. لا تعود منفعة على الله. وهذا غاية الكرم الذى لا كرم فوقه. ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمة، ويرضى عنك. ثم يعيد إليك منفعة شكره. ويجعله سبباً لتوالى نعمه واتصالها إليك، والريادة على ذلك منها.

وهذا الوجه وحده يكفى اللبيب ليتنبه به على ما بعده.

● شكر اعلی من شكر

والشكر على المكاره: أشد وأصعب من الشكر على المحاب. ولهذا فهو فوقه فى الدرجة. ولا يكون إلا من أحد رحلين:

إما رجل لا يميز بين الحالات. بل يستوى عنده المكروه والمحبوب. فشكر هذا: إظهار منه لرضا بما نزل به. وهذا مقام الرضا.

الرحل الثانى: من يميز بين الأحوال. فهو لا يحب المكروه. ولا يرضى بنزوله به، فإذا نزل به مكروهه شكر الله تعالى عليه، فكان شكره كظما للغيظ الذى أصابه، وسترأ للشكوى، ورعاية للأدب، وسلوكاً لمسلك العلم. فان العلم والأدب يأمران بشكر الله على السراء والضراء فهو يسلك بهذا الشكر مسلك العلم لأنه شاكر لله شكر من رضى نقصائه، كحال الذى قبله. فالذى قبله: أرفع منه.

(٣١) مَنَزِلَتِكَ شَاءَ

ومن منارل «إياك بعد وإياك يستعين» مرلة «الحياء»
 قد سمع تعالى (٩٦: ١٤) ألم يعلم بأن الله يرى؟ وقال تعالى (٤: ١) إن الله كان
 عليكم رقيباً) وقال تعالى (٤٠: ١٩) يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور).
 وفي الصحيح من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَرَّ
 برحس — وهو يعظ أخاه في الحياء — فقال: دَعْنِي. فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ».
 وفيهم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 «الحياء لا يأتي إلا بحبر».

وفيهم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم. أنه قال «الْإِيمَانُ
 ضِعْ وَسِعْرُونَ شَعْبَةً — أَوْ بَضْعٌ وَسِتْرُونَ شَعْبَةً — فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَأَدْنَاهَا
 إِهَامُ ظَنِّ الْأَدَى عَنِ الطَّرِيقِ. وَالْحَيَاءُ شَعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ».
 وفيهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعِدْرَاءِ فِي جَذَرِهَا. فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ».
 وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «إِنْ مِمَّا أُدْرِكُ النَّاسَ مِنْ كَلَامِ النَّوْءِ الْأَوَّلِيِّ: إِذَا
 لَمْ تَسْتَحْ وَصَبَحَ مَا شَتَّ» وفي هذا قولان

أحدهما أنه أمر تهديد. ومعناه الحر، أى من لم يستح صنع ما شاء.
 والثاني أنه أمر إباحة. أى أنظر إلى العمل الذى تريد أن تفعله. فإن كان مما لا يستحى منه
 فافعه وأدبره. وهو قول الأكثرين
 والثالث الترمذى مرفوعاً «استحيوا من الله حق الحياء. قالوا: إنا نستحي يا رسول الله.
 قال: ليس ذلكم. ولكن من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى.
 وليحفظ البطن وما حوى. وليذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا. فمن
 فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء».

• حياة القلب في الحياء

و «الحياء» من الحياء. ومنه «الحيا» للمطر، لكن هو مقصور. وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة تُخلق الحياء. وقلة الحياء من موت القلب والروح. فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم.

قال الجنيد — رحمه الله: الحياء رؤية الآلاء. ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء. وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح. ويجمع من التفریط في حق صاحب الحق. وقال السري: إن الحياء والأُنس بطرقان القلب. فإن وجدا فيه الزهد والورع وإلا رحلا. وقال الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقوة: القسوة في القلب. وجود العيب. وقلة الحياء. والرغبة في الدنيا. وطول الأمل.

وقال يحيى بن معاذ: من استحيى من الله مطيعاً استحيى الله منه وهو مذهب. ومعناه: أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته. فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستح خجل: فإنه إذا واقع ذنباً استحيى الله عز وجل من نظره إليه في تلك الحال لكرامته عليه. فيستحي أن يرى من وليه ومن يتكرم عليه: ما يشينه عنده. كما أنه حياء كرم و بر وجود وحلال. فإنه تارك وتعالى حيي كرم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً. ويستحي أن يعذب ذا شية شابت في الإسلام.

• أنواع الحياء

وقد قسم «الحياء» على عشرة أوجه: حياء جنابة وحياء تقصير. وحياء إجلال. وحياء كرم. وحياء حشمة. وحياء استصغار للنفس واحتقار لها. وحياء محبة. وحياء عبودية. وحياء شرف وعرة. وحياء المستحي من نفسه.

فأما حياء الجنابة: فمنه حياء آدم عليه السلام لما قرَّه أرباً في الجنة. قال الله تعالى: أفرأى منى يا آدم؟ قال: لا يارب. بل حياء منك.

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يمترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك.

وحياء الاجلال: هو حياء المعرفة. وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النبي صلى الله عليه وسلم من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وظلوا الجلوس عنده. فقام واستحيى أن يقول لهم: انصرفوا.

وحياء الحشمة: كحياء على من طالب رضى الله عنه أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المذنب لمكان ابنته منه
وحياء الاستحقار، واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه، احتقاراً لشأن نفسه، واستصغاراً لها.
وقد يكون لهذا النوع سببان
أحدهما: استحقار السائل نفسه. واستعظام دنونه وخطاياها.
الثاني: استعظام مسؤوله.

وأم حياء المحبة فهو حياء المحب من محبوه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في عينه هاج الحياء من قلبه، وأحس أنه في وجهه. ولا يدري ما سببه. وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوه ومدححاته له روعة شديدة. ومنه قولهم «جمال رائح» وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه كثير من.

وأم حياء العبودية: فهو حياء يمتزج من محبة وحياء. ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وقلة قدره على وأحل منها. فهو يندب له توجب استحياءه منه لضعفه.
وأم حياء الشرف والعزة: فهو حياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من مدح أو عطاء وإحسان. فإنه يستحي مع بذله حياء شرف نفس وعزة. وهذا له سببان أحدهما: هذا. والثاني استحياءه من الآخذ، حتى كأنه هو الآخذ السائل. حتى إن بعض من سكرم لا تطاوعه نفسه بمواحهته لمن يعطيه حياء منه. وهذا يدخل في حياء التلوم. لأنه يستحي من حيلة الآخذ.

وأم حياء المرء من نفسه فهو حياء النفوس الشريفة العريضة الرفيعة من رصاها لنفسها ما تنقص، وقساقتها بالدور فيحد نفسه مستحيًا من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحي بإحدهما من الأخرى. وهذا أكمل ما يكون من الحياء. فإن العبد إذا استحيى من نفسه فهو بأب يستحي من غيره أحدر

● حياء الرقابة

وأور الحياء: حياء يتوكل من علم العبد بنظر الحق إليه. فيحذره إلى تحمل هذه المحاهدة. ويحمله عن استقراح الحيايه ويكته عن الشكوى.
فإن بعد متى علم أن الرب تعالى ناظر إليه أورثه هذا العلم حياء منه. يحذره إلى احتمال أعداء صفة.

وأرفع منه درجة: الاستقصاح الحاصل عن المحبة. فاستقصاح المحب أنتم من استقصاح الخائف. ولذلك فإن هذا الحياء يكف العدد أن يشتكى لغير الله. فيكون قد شكى الله إلى خلقه ولا يمنع الشكوى إليه سبحانه. فإن الشكوى إليه سبحانه فقر، وذلة، وفاقة، وعودية. والحياء منه في مثل ذلك لا ينافيها.

● الحياء من الإبطاء في التشمير

ثم أرفع منه: حياء يتولد من الطرقي علم القرب ويدعوه إلى ركوب المحبة. ويربطه روح الأنس. ويُكِّمُهُ إليه ملابسة الخلق.

والنظر في علم القرب هو تحقق القلب بالمعية الخاصة مع الله. فإن المعية نوعان: عامة. وهي: معية العلم والإحاطة. كقوله تعالى (٥٧: ٤) وهو معكم أينما كنتم) وقوله (٥٨: ٧) ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا حمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا).

وخاصة: وهي معية القرب، كقوله تعالى (١٦: ١٣٨) إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وقوله (٢: ١٥٣) إن الله مع الصابرين) وقوله (٢٩: ٦٩) وإن الله مع المحسنين).

فهذه معية قرب. تتضمن المولاة، والنصر، والحفظ. وكلها المعنيين مصاحبة منه للعبد. لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة. وهذه مصاحبة مولاة ونصر وإعانة. ف«مع» في لغة العرب تفيد الصحة اللائقة، لا تشعر بامتزاج ولا احتلاط، ولا مجاورة، ولا غانة. فمن طم منها شيئاً من هذا فمر سوء فهمه أئني.

وأما القرب: فلا يقع في القرآن إلا حاصاً وهو نوعان قر به من داعيه بالإحانة. وقر به من عانده بالإثابة.

فالأول: كقوله تعالى (٢: ١٨٦) وإذا سألك عبادي عني فإني قريب. أحبب دعوة الداعي إذا دعان) ولما نزلت جواباً للصحابة رضى الله عنهم وقد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم «ربُّنا قريب فتناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فأبى الله تعالى هذه الآية». والثاني: قوله صلى الله عليه وسلم «أقرب ما يكون العبد من ربه: وهو ساجد. وأقرب ما يكون الرب من عبده: في جوف الليل» فهذا قر به من أهل طاعته.

وفي الصحيح . عن أبي موسى رضي الله عنه قال «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر. فارتفعت أصواتنا بالتكبير. فقال: يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم. إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً. إن الذي تدعونه سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

فهذا قرب خاص بالداعي دعاء العبادة والتسبيح والحمد. وهذا القرب لا يتناهى كمال مبادية الرب لخلقته. يستواءه على عرشه. بل يجامعه ويلامسه. فإنه ليس كثرت الأقسام بعضها من بعض. تعاضد من ذلك علواً كبيراً. ولكنه نوع آخر والعدد والتهديج روحه قريبة جداً من محبوب بيته وبنيته معا ورتب قطع فيها أعماق المظن. ويحده أقرب به من حليته.

وأهل لستة أولياء رسول الله صلى الله عليه وسلم وورثته وحذوه. الذين هو عدهم أولى بهم من أنفسهم. وأحب إليهم منها. يحدون نفوسهم أقرب إليه. وهم في الأقطار البائية عنه من حيران ححرته في المدينة. والمحبون المتناقون للكعبة والبيت الحرام يحدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومن حولها. هذا مع عدم تأخر القرب منه فكيف بمن يقرب من خلقه كيف يتساء. وهو مستوعب عرشه. وأهل الدوف لا ينتهون في ذلك إلى شبهة معدل بعيد من الله. حلي من محته ومعرفته.

والقصد: أن هذا القرب يدع صاحبه إلى ركوب المحبة. وكسب ارادة من اراداد قربا. فالمحبة بين قريبين قرب قلبا. وقرب بدم. ويرى معرفتين معرفة قلبيا حملت عليها. ودعت إليها. ودعت عليها. ومعرفة بعدها حتى من شأنها وآثارها.

وأما ربطه بروح الأنس فهو تعلق قلبه بروح الأبرار. تعلقاً لا رماً لا يفارقه. بل يجعل بين القلب والانس رابطة لارمة. ولا ريب أن هذه الرابطة هي ملازمة لخلق. بل يند الوحشة في ملاستهم سقر أنسه برده. وقرة عينه بحبه وقربه منه. فإنه ليس مع الله غيره. فإن لاسهم لاسهم برسمه دوى يتره وروحه وقلبه فقله وروحه في الله. وبنده ورسمه في ملا

(٣٢) مَنَزِلُ الصَّادِقِ

ومن منازل «إياك نعد وإياك نستعين» منزلة «الصدق» وهو منزل القوم الأعظم. الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين المالكين. و به تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الحاد من أهل السير. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطع. ولا واجه باطلا إلا أذهبه وصارعه. من صال به لم ترد صولته. ومن نطق به علت على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال. ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، وإناب الذي دخل منه الواصلون إلى حصرة ذي الجلال. وهو أساس بناء الديس، وعمود فسطاط اليقين. ودرجته تالية لدرجة «سوة» التي هي أرفع درجات العالمين. ومن مساكنهم في احداث تجري العيون والأنهار إلى مركز الصديقين. كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدرد مد متصل ومعين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين وحسن المعاملة عليهم بالسير ونصديقين والشهداء والصالحين. فقال تعالى (١١٩:٩) يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقال تعالى (٦٩:٤) ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) فهم الرقيق الأعلى (وَحَسِّنْ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا) ولا يزال الله يمدد بهم بأعمه وألطافه ومريده إحساناً منه وتوفيقاً. ولهم مرتبة المعية مع الله. ومن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه. إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين. وأخسر تعالى أن من صدقه فهو خير له. فقال (٢١:٤٧) فإذا عَزَمَ الْأُمُورُ فَلَوْ صدقوا الله لكان خيراً لهم).

وأخسر تعالى عن أهل الرُّ. وأثنى عليهم. أحسن أعمالهم: من الإيمان، والإسلام، والصدقة، وعصر. وأبهم أهل الصدق فقال (١٧٧:٢) ولكن نُر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين. وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. والسائلين، وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا. والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس. أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون).

وهذا صريح في أن «الصدق» بالأعمال الظاهرة والباطنة. وأن «الصدق» هو مقام الإسلام والإيمان.

وقسم الله سبحانه الناس إلى صادق وموافق. فقال (٣٣: ٢٤) ليحري الله الصادقين بصدقهم. ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم). والإيمان أساسه الصدق والنفاق أساسه الكذب. فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما عار للآخر.

وأخبر سبحانه: أنه في يوم القيامة لا يرفع العبد وينجي من عذابه إلا صدقه. قال تعالى (١١٩: ٥) هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم. لهم حات تجري من تحتها الأنهار. حالدين فيها أبداً. رضى الله عنهم ورضوا عنه. ذلك الفوز العظيم) وقال تعالى (٣٩: ٣٤) والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) فالذي جاء بالصدق: هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله. قال الصدق: في هذه الثلاثة.

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السلسلة على ساقها. والصدق في الاعمال استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والخوارج على الإخلاص. واستفراغ الوسع، وبدل الطاقة. فذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق. وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صديقيته ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه: دروة شتام الصديقية، سُمى «الصديق» على الإطلاق، و«الصديق» أبلغ من الصدوق والصدق أبلغ من الصادق. فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية. وهي كمال الانقياد للرسول صلى الله عليه وسلم، مع كمال الإخلاص للمرسيل.

وقد أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ على الصَّدَق. فقال (١٧: ٨٠) وَقُلْ: رَّبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ. وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ. واحل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً) وأخبر عن حليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين. فقال (٣٦: ٨٤) واحل لي لسان صدق في الآخرين) وشر عباده بأن له عبده قَدَّمَ صدق، وَمَتَّعَهُ صدق. فقال تعالى (١٠: ٢) وبشر الذين آمنوا أن لهم قَدَّمَ صدق عند ربهم) وقال (٥٤: ٥٤، ٥٥) إن المتقين في جنات وبهر. في مَقْعَدٍ صِدْقٍ عند ملك مقتدر).

فهذه حمة أنبياء: مَدْخَلُ الصدق، وَمَخْرَجُ الصدق. ولسان الصدق، وقَدَّمَ الصدق، ومقعد الصدق

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله. وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال. وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة. فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله، وفي مرضاته. بالظفر بالعمية، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها. ولا له ساق ثابتة يقوم عليها. كمخرج أعدائه يوم بدر. ومخرج الصدق كمخرجه صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مدخله صلى الله عليه وسلم المدينة: كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله. فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب. فإنه لم يكن بالله، ولا لله. بل كان محدة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصن بنى قريظة. فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم ما أصابهم. فكل مدخل معهم ومخرج كان بالله ولله. فصاحبه ضامن على الله. فهو مدخل صدق، ومخرج صدق.

وكأن بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج محرماً لا أكون فيه ضامناً عليك.

يريد: أن لا يكون المحرغ مخرج صدق. ولذلك فُسر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه صلى الله عليه وسلم من مكة، ودخوله المدينة. ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مدخله ومخرجه صلى الله عليه وسلم. وإلا فمدخله كلها مدخل صدق، ومخرجه مخرج صدق إذ هي لله وبالله وبأمره، ولا ابتغاء مرضاته.

ومخرج أحد من بيته ودخل سوقه - أو مدخل آخر - إلا يصدق أو يكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب. والله المستعان.

وأما لسان الصدق. فهو الثناء الحسن عليه صلى الله عليه وسلم من سائر الأمم بالصدق. ليس ثناء بالكذب. كما قال عن إبراهيم ودرته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه (١٩: ٥٠) **وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا** والمراد باللسان ههنا: الثناء الحسن. فلو كان صدق باللسان، وهو محله. أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق، حراء وفاق. وعمره عه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا، واللغة. كقوله تعالى (١٤: ٤) وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) وقوله (٣٠: ٢٢) واختلاف ألسنتكم وألوانكم) وقوله (١٦: ١٠٣) لسان الذي يلحدون إليه أعجمي. وهذا لسان عربي مبين) ويراد به الجارحة نفسها. كقوله تعالى (٧٥: ١٦) لا تحرك به لسانك لتعجل به).

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة. وفسر بمحمد صلى الله عليه وسلم. وفسر بالأعمال الصالحة. وحقيقة «القدم» ما قدموه وما يتقدمون عليه يوم القيامة. وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويتقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك. فمن فسره بها أراد: ما يتقدمون عليه. ومن فسره بالأعمال وبالنبي صلى الله عليه وسلم: فلأنهم قدموها. وقدموا الإيمان به بين أيديهم. فالثلاثة قدم صدق. وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى.

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عانده. فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله. فهو صدق غير كذب. وحق غير باطل. ودائم غير زائل. ونافع غير ضار. وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل. ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه. ومن علامات الكذب: حصول الريبة، كما في الترمذي - مرفوعاً - من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (الصدق طمأنينة. والكذب ريبة).

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن الصدق يهدي إلى البر. وإن البر يهدي إلى الجنة. وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. وإن الكذب يهدي إلى الفجور. وإن الفجور يهدي إلى النار. وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) فجعل الصدق مفتاح الصديقة ومدأها. وهي غايته. فلا ينال درجتها كاذب أثبتة. لا في قوله، ولا في عمله، ولا في حاله. ولا سيما كاذب على الله في أسمائه وصفاته، ونفى ما أثبتته، أو إثبات ما نفاه عن نفسه. فليس في هؤلاء صديق أدأ.

وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه. بتحليل ما حرمه. وتحريم ما لم يحرمه. واسقاط ما أوحه، وإيجاب ما لم يوجبه، وكراهة ما أحبه، واستحباب ما لم يحبه. كل ذلك مناف للصديقة.

وكذلك الكذب معه في الأعمال: بالتخلي حلية الصادقين المخلصين، والراهدين المتوكلين. وليس في الحقيقة منهم.

فمنك كانت الصديقية: كمال الاخلاص والانقياد، واسعة للنحر وكرم، طاهراً
و-ح-، حتى ان صدق المتأيين يُجَلُّ البركة في بيتهما. وكدتها يحق بركة بيتهما كما في
صححيين عن حكيم بن حرام رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
(السعيان بالخيار ما لم يتفرقا. فإن صدقا وتينا بورك لهما في بيتهما، وإن كدبا وكُتِما:
مُحِقَّت بركة بيتهما)

● كلمات في حقيقة الصدق

ق- عبد الواحد بن زيد: الصدق الوفاء لله بالعمل.
وقيل: موافقة السر الطق.
وقيل: استواء السر والعالية. يعني أن الكاذب علانيته خير من سريره كالمافق الذي
طاهره خير من باطنه.
وقيل: الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة.
وقيل: كلمة الحق عند من تخافه وترحوه.
وقال الحفيد: الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة. والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين
سنة
وهذا الكلام يحتاج إلى شرح. وقد يسق إلى الدهس خلافه، وأن الكاذب متون. لأن
الكذب ألوان، فهو يتلون بتلونه. والصادق مستمر على حالة واحدة. فإن الصدق وحد في نفسه،
وصاحبه لا يتلون ولا يتغير.

كس مراد الشيخ أنى القاسم صحيح غير هذا. فإن المعارضات والواردات التي ترد على
الصدق لا ترد على الكاذب المرائي. بل هو فارغ منها. فإنه يرد عليه من قبل الحق موارد
الصدقين على الكاذبين المرائين ولا يعارضهم الشيطان. كما يعارض الصادقين فإنه لا أرب
له في حربة لاشيء فيها. وهذه الواردات توجب تقلب الصادق بحسب احتلاها وتوسعها. فلا
نره لا هارياً من مكان إلى مكان ومن عمل إلى عمل. ومن حال إلى حال ومن سب إلى
سب. لأنه يخاف في كل حال يطمئن إليها. ومكان وسب أن يقطعه عن مطلوبه. فهو لا
يس كس حالة ولا تسيئاً دون مطلوبه. فهو كالجوال في الآفاق في طلب العى الذي يموق به
الأعياء والأحوال والأسباب تتقلب به، وتقيمه وتتعده، وتحركه وتسكه. حتى يجد فيها ما
يعبسه على مطلوبه. وهذا غرير فيها فتله في تقلب، وحركة شديدة بحسب سعة مطلوبه

وعظمته ومهته أعلى من أن يصفه - أو - يصفه عن رسمه وحال. ولا كسر شيئاً غير فيه،
كالحب الصادق، الذي منه تنفتش على غيره. وكذا حال الصادق في طلب العلم، وحده
الصادق في طلب الدنيا فكل صادق في صفة تبيء لا يستقر له قرار، ولا يدوم على حالة
واحدة.

وأيضاً: فإن الصادق مطلوبه رسالته، وتب أوامره، وتنع عنه، فهو مثقل فيها يسير
معهما أين توجهت ركانبها. ويستقل معها. يستقل مضاربها فيها هو في صلاة إدراة في
ذكره، ثم في غرو، ثم في أمر معروف، أو سمي عن منكر أو في قيام بسب فيه عمارة الدين
والدياء، ثم في عيادة مريض، أو تنبيح حرة، أو نصر مظلوم - إن أمكن - إلى غير ذلك من
أنواع القرب والمناقع.

فهو في تفرق دائم لله، وحمية على الله، لا يمكنه رسم ولا عادة ولا وضع، ولا يتقيد بقيد ولا
بشرة. ولا يمكنه معين يصلي فيه لا يصلي في غيره، ويرتي معين لا يلبس سواء. وعبادة معينة لا
يلتفت إلى غيرها، مع فصل غيرها عليها، وهي على من غيرها في الدرجة، وتعد ما بينهما
كعد ما بين السماء والأرض.

فإن اللاء والآفات والرياء والتصنع، وعدة النفس، وإيثار مرادها، والاشارة إليها: كلها
في هذه الأوصاف، والرسوم والقيود، التي حسنت رادها عن السير إلى قلوبهم، فضلاً عن السير
من قلوبهم إلى الله تعالى، فإذا حرج أحدهم عن رسمه ووضعه وريته وقيدته وإشارته - ولو إلى
أفضل منه - استهجن ذلك، ورآه نقصاً، ومنوطاً من أعين الناس، وانحطاطاً لرتبته عندهم.
وهو قد انحط وسقط من عينه.

وقد يحس أحدهم ذلك من رسمه وحاله، ولا تدعه رسومه وأوصافه وريته وقيدته: أن يسمى
في ترميم ذلك وإصلاحه، وهذا شأن الكذاب الرائي الذي يدي للباس خلاف ما يعلمه الله
من باطنه، العامل على عمارة نفسه ومرنته، وهذا هو النفاق بعينه، ولو كان عاملاً على مراد الله
منه، وعلى الصدق مع الله، لأن ثقلته تلك القيود، وحبسته تلك الرسوم، ولرأى الوقوف عندها
ومعها عين الانقطاع عن الله لا إليه، ولما نال في ثوب لسن، ولا أتى عمل عمل، إذا كان على
مراد الله من العبد.

فكلام أبي القاسم الجليل حق، كلام رسخ في الصدق، عالم بتفاصيله وآفاته، ومواضع
اشتباهه بالكذب.

وأيضاً فحمل الصدق كحمل الحمال الرواسي، لا يطيقه إلا أصحاب العرائم، فهم يتقلبون
تحتة تقلب الحامل بحمله الثقيل، والرياء والكذب حفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلاً

السبب. فهو حامل له في أي موضع اتفق، بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة. فهو لا يتقلب تحت حمله ولا يجيد ثقله.

وقال بعضهم: لا يشم رائحة الصديق عبد داهن نفسه أو غيره.
وقال إبراهيم الخواص: الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه، أو أفضل يعمل فيه.
وقال الجنيد: حقيقة الصديق: أن تصدق في موطن لا ينحيك منه إلا الكذب.
وقيل: ثلاث لا تخطيء الصديق: الحلاوة، والملاحة، والهيبة.

● صدق الاستدراك

وَأَوَّلُ الصَّدَقِ: صدق القصد، وبه يتلافى كل تفريط، ويتدارك كل فائت، ويعمر كل خرب. وعلامة هذا الصادق: أن لا يتحمل داعية تدعو إلى نقص عهد، ولا يصير على صحة ضد. ولا يقعد عن الجذب بحال.

وذئ: كمال العزم، وقوة الإرادة، بأن يكون في القلب داعية صادقة إلى السلوك، وميل شديد يقهر السرعة على صحة التوجه. فهو يطلب لا يمازجه رياء ولا فتور. ولا يكون فيه قسمة بحال. ولا يصح الدخول في شأن السفر إلى الله، والاستعداد للقاءه إلا به.

وهو حامل على كل سبب ينال به الوصول، وقطع كل سبب يحول بينه وبينه. فلا يترك فرصة تعوته. وما فاتته من القرص السابقة تداركها بحسب الإمكان. فيصلح من قلبه ما تفرقت يد العفنة وتشتبه. ويُعَمَّرُ منه ما حربته يد البطالة. ويوقد فيه ما أطغته أهوية النفس. وَيُكَلِّمُ منه ما شَغَلَتْه يد التفريط والإضاعة. ويسترد منه ما هبته أَكْثُفُ اللصوص والسراق. ويزرع منه ما وحده بوراً من أراضيه. ويقلع ما وجده شوكا وشبرقا في نواحيه. ويستخرج منه ما ملأته مواد الأحلاط الرديئة الفاسدة المترامية به إلى الهلاك والعطب. ويدأوي منه الجراحات التي أصابته من عبرت الرياء. ويعمل منه الأوساخ والخبوات التي تراكمت عليه على تقادم الأوقات، حتى لو اطلع عليه لأحزنه سواده ووسخه الذي صار دأغاً له، فيطهره بالماء البارد من يابيع الصديق الخالصة من جميع الكدورات، قبل أن يكون طهره بالجحيم والحميم. فإنه لا يجاور الرحمن قسب دنس بأوساخ الشهوات والرياء أبدأ. ولابد من طهر. فاللبيب يؤثر أسهل الطهورين وأنعمهم. والله المستعان.

وَلِلصَّدَاقِ حَقِيقَةٌ: هو الذي قد انجذبت قوى روحه كلها إلى إرادة الله وطلبه، والسير إليه، والاستعداد للقاءه. ومن تكون هذه حاله: لا يحتمل سسا يدعو إلى نقض عهده مع الله بوجه. وكذلك لا يصبر على صحة الصد، وهم أهل العفلة، وقضاع طريق القلب إلى الله. وأصر

تبي على الصادق صحتهم، بل لا تصبر نفسه على ذلك أبداً، إلا جمع ضرورة وتكون صحتهم، له في تلك الحال نقاله وشحه، دون قلبه وروحه. فإن هذا لما استحكمت العقلة عليه كما استحكم الصدق في الصادق: أحست روحه بالأحسية التي يسه وينيهم بالمصادرة فاستندت السعرة. وقوى الحرب. وبحسب هذه الأجنبية وإحساس الصادق بها: تكون برته وهرسه عن الأصداد. فإن هذا الصد إن نطق أحس قلب الصادق: أنه نطق بلسان العقلة، والرياء والكبر، وطلب الحناء. ولو كان ذا كراً أو قارناً، أو مصلياً أو حاجاً، أو غير ذلك. فنفّر قلبه منه. وإن صمّت أحس قلبه. أنه صمّت على غير حضور وجمعية على الله، وأقبال بالقلب عليه، وعكوف السر عليه. فينمر منه أيضاً. فإن قلب الصادق قوى الإحساس.

فيجد الغيرية والأجنبية من الضد. ويشم القلب القلب كما يشم الرائحة الحبيثة. فيروى وجهه لذلك. ويعتريه عوس. فلا يأنس به إلا تكلفاً. ولا يصاحبه إلا ضرورة. فيأخذ من صحتته قدر الحاجة، كصحية من يشتري منه، أو يحتاج إليه في مصالحه، كالروحة والحامد وبحوه.

• كثير قليل

وهذه المنزلة تقوده إلى أن لا يتمسك الحياة إلا للحق، ولا يشهد من نفسه إلا أثر النقصان، فهو لا يحب أن يعيش إلا ليشع من رضا محبوبه. ويقوم بعبوديته. ويستكثر من الأسباب التي تقربه إليه، وتدنيه منه. لا لعله من علل الدنيا. ولا لشهوة من شهواتها، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جباد الخيل في سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام، كما يُنتقى أطايب الثمر». يريد رضى الله عنه: الجهاد، والصلاة، والعلم النافع. وهذه درجات الفضائل. وأهلها هم أهل الزلفى، والدرجات العليا.

وقال معاذ رضى الله عنه عند موته «اللهم إنك تعلم أبى لم أكن أحب البقاء لجرى الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولا لنكح الأزواج، ولكن لظماً للمواجر، ومكابدة الليل، ومزاحة العلماء بالركب عند جلق الذكر».

وهو في ذلك لا يرى نفسه إلا مقصراً. والموجب له لهذه الرؤية: استعظام مطلوبه. واستصغار نفسه، ومعرفة تعيوبها، وقلة راده في عبه. فمن عرف الله وعرف نفسه: لم ير نفسه إلا بعين القصاص.

وأيضاً، فإن الصادق مصطر - أشد ضرورة - إلى متابعة الأمر، والتسليم للرسول صلى الله عليه وسلم، في طاهره وباطنه، والاعتداء به، والتعدي بطاعته في كل حركة وسكون، مع إخلاص القصد لله عز وجل. فإن الله تعالى لا يرضيه من عبده إلا ذلك. وماعدا هذا ففوت التقس، وبمجرد حفظها، واتباع أهوائها. وإن كان فيه من المجاهدات والرياضات والخلوات ما كثر. فإن الله سبحانه وتعالى أبى أن يقبل من عبده عملاً، أو يرضى به، حتى يكون على متابعة رسوله صلى الله عليه وسلم، حالصاً لوحه سبحانه.

ومن ههنا يفارق الصادق أكثر السالكين. بل يستوحش في طريقه. وذلك لقلة سالكيها. فإن أكثرهم سائرون على طرق أذواقهم، وتحريد أنفاسهم لنموسهم، والصادق في وادٍ. وهؤلاء في وادٍ.

(٣٣) مَنَزِلَةُ الْإِيثَارِ

ومن مَدارِل «إِيَاكَ نَعُدُّ وَإِيَاكَ سَتَعِي» مَرَلَة «الإِيثَار»
قَالَ اللهُ تَعَالَى (١٦:٦٤) وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ حَصَاصَةٌ، وَمَنْ يوقِ شَخَّ
نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

فَالْإِيثَارُ ضِدُّ الشَّحِّ. فَإِنَّ الْمُؤَثِّرَ عَلَى نَفْسِهِ تَارِكٌ لِمَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ. وَالتَّحْيِيجُ: حَرِيصٌ عَلَى مَا
لَيْسَ سَيِّدَهُ. وَإِذَا حَصَلَ بِيَدِهِ شَيْءٌ شَخَّ عَلَيْهِ. وَبَخِلَ بِاحِرَاحِهِ. فَالْحِلُّ ثَمَرَةُ الشَّحِّ. وَالشَّحُّ يُؤْمَرُ
بِالْحِلِّ، كَمَا قَالَ السِّي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِيَاكُمْ وَالشَّحَّ). فَإِنَّ الشَّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ
قَلْبُكُم. أَمَرَهُمْ بِالْبَخْلِ فَبَخَلُوا. وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا).
فَالْبَحِيلُ: مَنْ أَجَابَ دَاعِيَ الشَّحِّ. وَالْمُؤَثِّرُ: مَنْ أَجَابَ دَاعِيَ الْخُودِ. كَذَلِكَ السَّخَاءُ عَمَّا فِي
أَيْدِي النَّاسِ هُوَ السَّخَاءُ. وَهُوَ أَضَلُّ مِنَ سَخَاءِ الدَّلِّ.
قَالَ عَمْدُ اللهِ بِنُ الْمَسَارِكِ: سَخَاءُ النَّفْسِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ أَضَلُّ مِنَ سَخَاءِ النَّفْسِ
بِالْبَذْلِ.

وَهَذَا الْمَنْزِلُ: هُوَ مَزَلُ الْخُودِ وَالسَّ
وَسَمِيَ عَمَرَلُ «الإِيثَارِ» لِأَنَّهُ أَعْلَى
إِحْدَاهَا: أَنْ لَا يَقْصَهُ الْبَذْلُ، وَلَا يَصْغَبُ عَلَيْهِ. فَهُوَ مَرَلَة «السَّخَاءِ».
الثَّانِيَة: أَنْ يُعْطَى الْأَكْثَرُ، وَيُتَّقَى لَهُ شَيْءٌ، أَوْ يَبْقَى مِثْلُ مَا أُعْطِيَ. فَهُوَ «الْجُودُ».
الثَّالِثَة: أَنْ يُؤَثِّرَ غَيْرُهُ بِالشَّيْءِ مَعَ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَرْتَبَة «الإِيثَارِ» وَعَكْسُهَا «الْأَثَرَة» وَهِيَ
اسْتِثْثَارُهُ عَنْ أَخِيهِ عَمَّا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ. وَهِيَ الْمَرْتَبَة الَّتِي قَالَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لِلْأَنْصَارِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ (إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَة. فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْخُودِ)
وَالْأَنْصَارُ: هُمُ الدِّينُ وَصَحْبُهُمُ اللهُ بِالْإِيثَارِ فِي قَوْلِهِ (١٦:٦٤) وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ
بِهِمْ حَصَاصَةٌ) فَوَصَّعَهُمْ بِأَعْلَى مَرَاتِبِ السَّخَاءِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِيهِمْ مَعْرُوفًا.
وَكَانَ قِيْسُ بْنُ سَعْدٍ مِنْ عِبَادَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مِنَ الْأَجْوَادِ الْمَعْرُوفِينَ. حَتَّى إِنَّهُ مَرَضَ مَرَّةً،
فَاسْتِثْثَا بِحَوَاتِهِ فِي الْعِيَادَةِ. فَسَأَلَ عَنْهُمْ؟ فَقَالُوا: إِيَّاهُمْ كَانُوا يَسْتَحْيُونَ بِمَالِكَ عَلَيْهِمُ مِنَ الدِّينِ

فقال: أحرى الله مالا يجمع الإحوان من الزيارة. ثم أمر مباديا ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو مه في حل. فما أُمسى حتى كُمرت عتة نابه، لكثرة من عاده.

فتأمل سر التقدير، حيث قدر الحكيم الخير — سبحانه — استئثار الناس على الأنصار بالدنيا — وهم أهل الإيثار — ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم في الدنيا على موسهم بالمارل العالية في حيات عدن على الناس. فتظهر حينئذ فصيلة إيثارهم ودرحتهم و يغنطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غطة. وذلك فصل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك — مع كونك من أهل الإيثار — فاعلم أنه خير يراد بك. والله سبحانه وتعالى أعلم.

● مصاعد الجود

و «الجود» عشر مراتب.

أحدها: الجود بالنفس. وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس، إذ صَنَّ البخیل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
الشامية: الجود بالرياسة. وهو ثاني مراتب الجود. فيحمل الجواد جوده على امتهان رياسته،
والجود بها. والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحتة ورفاهيته، وإجماع نفسه. فيجود بها تعباً وكذا في مصلحة غيره. ومن
هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسايره، كما قيل:

مُتَيْمٌ بالسندی، لو قال سائله: هب لي جميع كرى عينيك، لم يتم

الراسعة: الجود بالعلم وبذله. وهو من أعلى مراتب الجود. والجود به أفضل من الجود بالمال.
لأن العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به على مراتب متفاوتة. وقد اقتضت حكمة الله وتقديره الناقد: أن لا ينفع
به بخيلاً أبداً.

ومن الجود به: أن تذله لمن لم يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرْحاً.

ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سأل عن مسألة: استقصيت له جوابها جواباً شافياً، لا
يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو
«لا» مقتصرأً عليها.

ولقد تهتت من شيخ الإسلام اس تيمية — قدس الله روحه — في ذلك أمراً عجيباً:
كان إذا سئل عن مسألة حكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قدر، ومأخذ
الخلاف، وترجيح القول الراجح. وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أرفع للسائل من
مسألته. فيكون فرجه بتلك المتعلقات، والنوازم: أعظم من فرجه بمسألته. وهذه فتاويه — رحمه
الله — بين الناس. فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك .

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل. بل يذكر له نظائرها ومتعلقاتها
ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المتوضئ بهاء البحر؟
فقال (هر الطهور ماؤه، الحل ميتته) فأجابهم عن سؤالهم. وحاد عليهم بما لعلهم في بعض
الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نههم على علته وحكمته. كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟
فقال (أينقص الرطب إذا جف؟ قالوا: نعم. قال: فلا. إذن) ولم يكن يحنى عليه صلى
الله عليه وسلم نقصان الرطب بحفافه، ولكن نههم على علة الحكم. وهذا كثير جداً في أجوبته
صلى الله عليه وسلم. مثل قوله (إن بعث من أخيك ثمرة. فأصابتها جائحة فلا تجل لك أن
تأخذ من مال أخيك شيئاً. ثم يأخذ أحدكم مال أخيه؟ بغير حق؟) وفي لفظ (أرأيت إن
منع الله الثمرة: ثم يأخذ أحدكم مال أخيه، بغير حق؟) فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها
إلزامه بالتمنع. وهي منع الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع.

الخامسة: الجود بالنفع بالجاء. كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه. وذلك
ركاة الخاء المطالئ بها العبد. كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه. كما قال صلى الله عليه وسلم (يُضج
على كل سُلَاقَمَى من أحدكم صدقة. كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين:
صدقة. ويعين الرجل في دابته، فيحمله عليها، أو يرفع له عليها متاعه: صدقة. والكلمة
الطيبة: صدقة، وبكل خطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة: صدقة. ويُمِيط الأذى عن
الطريق: صدقة) متفق عليه.

السابعة: الجود بالعرض، كعود أبي سَنَفَسَم من الصحابة رضي الله عنهم. كان إذا أصبح
قال «اللهم إنه لا مال لي، أتصدق به على الناس. وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شئمني، أو

قدفسي: فهو في حل. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من يستطيع منك أن يكون كأبي صمضم؟».

وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإعطاء. وهذه مرتبة شريفة من مراتبه. وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأمر له وأضر، وأمنك لنفسه، وأشراف لها. ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود فإنه يحتسب ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة. وهذا جود المتوة. قال تعالى (٥: ٤) والجروح قصاص. فمن تصدق به فهو كفارة له) وفي هذا الجود. قال تعالى (٢: ٤٠) وجزاء سيئة سيئة مثلها. فمن عفا وأصلح فأحره على الله. إنه لا يحب الظالمين) فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل، وأذن فيه. ومقام الفضل، ودب إليه. ومقام الظلم، وحرمه.

التاسعة: الجود بالخلق والشر والسطوة. وهو جود الجود بالصبر، والاحتمال والعمو. وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم. وهو أثقل ما يوضع في الميزان. قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تخفيروا من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منكس إلى) وفي هذا الجود من المنافع والمساو، وأنواع المصالح ما فيه. والعد لا يمكنه أن يسمعهم بخلقهم واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم. فلا يتلعت إليه. ولا يستشرف له نفعه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه. وهذا الذي قاله عبد الله بن المبارك «إبه أفضل من سحاء النفس بالبدل».

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن له أعطك ما تجود به على الناس، فخذ عليهم رهدك في أموالهم. وما في أيديهم، تفصل عليهم، وتزاحهم في الجود، وتمرد عنهم بالراحة. ولكل مرتبة من مراتب الجود مريد وتأثير خاص في القلب والحال والله سبحانه قد ضمن المزيد للحواد، والإتلاف للممسك. والله المستعان.

● سعة الصبىق

وسداية لا رتفاء في مدارح الايتار ان تؤتر اخلق على نفسك فيما لا يحرم عليك ديباً. ولا يقطع عليك طريقاً، ولا يفسد عليك وقتاً. وذلك بأن تقدمهم على نفسك في مصالحهم. مثل أن نطعمهم وتوجع. وتكسوهم وتغنى، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدي ذلك الى ارتكاب إلتلاف لا يجوز في الدين. ومثل أن تؤترهم عائلك وتنفق كلاً مصطراً، مستثراً لناس او سائلاً. وما أن لا يقطع عليك طريقاً، بذلك طريق الطلب والمسير الى الله تعالى، مثل أن تؤتر حميتك على ذكرك، وتوجهك وحميتك على الله. فتكون قد آتته على الله. وآتت نصيبك من الله ما لا يستحق الإيتار. فيكون مثلك كمثل مسافر سائر على الطريق لقيه رحل فاستوقفه، وأخذ يעדته ويهيه حتى فاته الرفاق. وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر الى الله تعالى فإيتارهم غيبه عين العيب، الا ان تكون محالة ضيف او نحوه. فان ذلك من تمام الخلود والايتار، كم ذكرنا.

وكذلك لايتار بما يسد على المؤتر وقتة فيح ايضاً. اويؤتر بأمر قد جمع قلبه وهمة على الله. يفرق قلبه عيه بعد جمعته، ويستت حاطره، فهذا ايضاً ايتار غير محمود. وكذلك لايتار ما شتعال القلب والفكر في مهماتهم ومصالحهم التي لا تمنع عليك، على الفكر الباع وشتعال القلب بالله، مالم يكن بصر مظلوم واعاةة همدان او شفاعة خسة. ومن هه تكلم الفقهاء في الايتار بالقرّب. وقالوا: إنه مكروه أو حرام. كم يؤتر بالصف لأوب غيره ويشخر هو، اويؤتره بمره من الإمام يوم الجمعة، اويؤتر غيره بالأدان والإقامة.

● لا تخف في الله لومة لائم

و يطل اسريرتقي حتى يؤتر رضى الله على رضى غيره، وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن. وضعف عه الظن والبدن.

فهو يريد و يفعل ما فيه مرضاته، ولو أعصب الخلق وهي درجة الأسياء. وأعلاها للرسل عليهم صوت الله وسلامه. وأعلاها لأولى العرم منهم. وأعلاها لسياصل الله عليه وسلم وعليه. فربه قادم العالم كله. وتقرّد لدعوة الى الله. واحتمل عداوة العبد والغريب في الله تعالى. وآثر رضى الله على رضى الخلق من كل وجه. ولم يأخذ في إيتار رضاه لومة لائم. بل كان هدمه وعزمه وسعيه كله مقصوراً على إيتار مرضاة الله، وتليغ رسالاته، وإعلاء كلماته، وجهاد أعدائه. حتى طهر دين الله على كل دين. وقامت حجة على العالمين. وتمت نعمته على

المؤمنين. فبلغ الرسالة. وأدى الأمانة. وضح الأمة. وجاهد في الله حق جهاده. وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه. فلم يزل أحد من درجة هذا الإيثار مائلاً صلوات الله وسلامه عليه والمحنة تعظم على صاحب هذا الإيثار، ليتأخر من ليس من أهله، فإذا احتملها وتقدم: انقلبت تلك المحن منحناً، وصارت تلك المؤن عوباً. وهذا معروف بالتحرة الخاصة والعامة فإنه ما أثر عد مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق، وتعمل ثقل ذلك ومؤثره، وصسر على محنة إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة، ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته. فانقلبت معاونه أمناً، ومطمان غظه نعمة، وتعه راحة، ومؤنة معونة، وبلية نعمة، ومحنة مسحة، وسخطه رضى. فيا خيبة المتخلفين، ويا ذلة المتهمين.

هذا، وقد حرت سنة الله — التي لا تدبيل لها — أن من أثر مرضاة الخلق على مرضاته: أن يسخط عليه من أثر رضاه، ويحذله من جهته، ويجعل محنته على يديه. فيعود حامده ذاماً. ومن أثر مرضاته ساحطاً. فلا على مقصوده منهم حصل. ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل. وهذا أعجز الخلق وأجمعهم.

هذا مع أن رضى الخلق: لا مقدور، ولا مأمور، ولا مأثور. فهو مستحيل. بل لابد من سخطهم عليك. فلا تيسخطوا عليك وتعمور رضى الله عنك أحب إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض. فإذا كان سخطهم لابد منه — على التقديرين — فأثير سخطهم الذي يتال به رضى الله. فإن هم رضوا عنك بعد هذا، وإلا فأهون شيء رضى من لا يتفعلك رضاء. ولا يصرك سخطه في دينك، ولا في إيمانك، ولا في آخرتك. فإن ضرك في أمر يسير في الدنيا فمصرة سخط الله أعظم وأعظم. وخاصة العقل: احتمال أدنى المفسدين يدفع أعلاهما. وتقويت أدنى المفسحين لتحصيل أعلاهما. فوارد عقلك. ثم انظر أي الأمرين خير وأثمة، وأيها شر وأثمة. فهذا برهان قطعي ضروري في إثبات رضى الله على رضى الخلق.

هذا مع أنه إذا أثر رضى الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق. وإذا أثر رضاءه لم يكفه مؤنة غضب الله عليه

قال السامعي رضى الله عنه رضى لناس غاية لا تدرك فعليك بما فيه صلاح نفسك ورمه ومن المعلوم أن المؤثر رضى الله متصّب لمعاداة الخلق وأدبه. وسعيهم في إتلافه. ولا هذه سنة الله في خلقه. وإلا فمددب الأسياء والرسول، والذين يأمرون بالقسط من — سر والعائمين بدين الله، الدائين عن كتابه وسنة رسوله عندهم^٩

فمن آثر رضى الله فلا بد أن يعاديه ردالة العالم وسقطتهم، وشهالهم، وأهل البدع والمحو
 مسهم، وأهل ارياسات الباطلة، وكل من يخالف هديه هديه. فما يقدم على معاداة هؤلاء إلا
 طالب الرجوع الى الله، عامل على سماع خطاب (٢٧: ٨٩ - ٣٠ يا أيها النفس المطمئنة،
 ارجعي الى ربك راضية مرضية) ومن إسلامه ضل كامل لا ترعرعه الرجال. ولا تقلقه
 الحال، ومن عقد عروة صره مخكم لا تحلة المحن والتدائد والمخاوف.
 وملأ ذلك أمران: الزهد في الحياة والنساء. فما ضعف من ضعف، وتأخر من تأخر إلا
 بحسب للحياة والنساء، وثناء الناس عليه، وبعثته من دمهم له. فإذا زهد في هذين الشيئين،
 تأخرت عنه العورص كلها. وانعمس حينئذ في العساكر.
 وملأ هذين شيئين متينين. صحة اليقين. وقوة المحبة.
 وملأ هذين متينين أيضاً: بصدق اللجأ والطلب، والتصدي للأسباب الموصلة إليهما.
 فإلى ههنا تستهي معرفة الخلق وقدرتهم، والتوفيق بعد يد من أمة الأمور كلها يده
 (٣١، ٣٠: ٧٦) وما تشاءون إلا أن يشاء الله. إن الله كان عليه حكيمًا. يدخل من يشاء
 في رحمته. والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً).

(٣٤) مَنَزَّلَ تِلْكَ الْخُلُقُ

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة (الخلق)

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (٦٨: ٤) وإنا لك لخلق عظيم). قال ابن عباس وبجاهد: لعل دين عظيم، لادين أحب إلى ولا أرضى عندى منه. وهودين الإسلام. وقال الحسن رضى الله عنه: هو آداب القرآن.

وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله. وينهى عنه من نهى الله. والمعنى: إنك لعل الخلق الذي آثرك الله به في القرآن.

وفي الصحيحين: أن هشام بن حكيم «سأل عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال: لقد همت أن أقوم ولا أسأل شيئاً».

وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى (٧: ١٩٩) خذ العفو. وأعز بالعرف. وأعرض عن الجاهلين) قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق. وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل (ما هذا؟ قال: لا أدري حتى أسأل، فسأل. ثم رجع إليه. فقال: إن الله يأمرك أن تَصِلَ من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك).

ولاريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال.

أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثاني: أخذه منهم ما يذولونه مما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موال، ومعادٍ معارض. وعليه في كل واحد من

هذه واجب.

فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف. وهو المعروف الذي به صلاح شأنهم. وينهاهم عن ضده.

وواجبه فيما يذلوله له من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سئى عليهم، وطوعت له به أنفسهم،
بمباحة واختياراً. ولا يحملهم على العتة والمشقة فيفسدهم.

وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم. وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم
لنفسه. فقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (٧: ١٩٩) خذ العفو وأمر بالعرف.
وأعرض عن الجاهلين) قال عبدالله بن الريرضى الله عنهما: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو
من أخلاق الناس. وقال مجاهد: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تحسيس،
مثل قبول الأعذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش عن حقائق
بواطنهم.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: خذ ماعا لك من أموالهم. وهو العاضل عن العيال،
ودلك معنى قوله تعالى (٢: ٢١٩) ويسألونك ماذا ينفقون؟ قل: العفو).

ثم قال تعالى (وأمر بالعرف) وهو كل معروف. وأعرفه: التوحيد. ثم حقوق العبودية
وحقوق العبيد.

ثم قال تعالى (وأعرض عن الجاهلين) يعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه.
كقوله تعالى (٢٥: ٦٣) وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاماً) وعلى هذا فليست بمسوخة. بل
يعرض عنه مع إقامة حق الله عليه. ولا ينتقم لنفسه.

وهكذا كان خلقه صلى الله عليه وسلم. قال أس رضى الله عنه «كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً» وقال «مامسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف
رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله صلى
الله عليه وسلم. ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين. فما قال لي
قط: أف. ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟» متفق
عليهما.

وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن البر: هو حسن الخلق». وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال «سألت رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن البر والإثم؟ فقال: البر حسن الخلق. والإثم ما حاك في صدرك. وكرهت
أن يطلع عليه الناس».

فقابل البر بالإثم. وأجبر: أن الرحسن الخلق. والإثم: حوار الصدور. وهذا يدل على أن
حسن الخلق: هو الدين كله. وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام. ولهذا قابله بالإثم.

وفي حديث آخر «البر: ما أطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في الصدر» وقد فرس حسن الخلق بأنه البر. فدل على أن حسن الخلق: طمأنينة النفس والقلب. والاثم حوار الصدور، وما حاك فيها، واسترأت به. وهذا غير حسن الخلق وسوئه في عرف كثير من الناس. كما سيأتي في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (حياركم: أحاسنكم أخلاقاً). وفي الترمذي عن أبي الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق. وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفيه أيضاً — وصححه — عن أبي هريرة رضى الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: تقوى الله، وحسن الخلق. ومثل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: الفم والفرج).

وفيه أيضاً عن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم — وصححه — «إن من أكمل المؤمنين إيماناً: أحسنهم خلقاً. وخياركم: خياركم لنسائهم». وفي الصحيح عن عائشة عنه صلى الله عليه وسلم «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» رواه أبو داود.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عنه صلى الله عليه وسلم «أنا زعيم ببيت في ربقة الجنة: لمن ترك المراء وإن كان محققاً. وبيت في وسط الجنة: لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه» رواه الطبراني وإسناده صحيح. فجعل البيت العلوي جزءاً لأعلى المقامات الثلاثة. وهي حسن الخلق. والأوسط لاوسطها. وهو ترك الكذب. والأدنى لأدناها. وهو ترك المماراة، وإن كان معه حق. ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله.

وفي الترمذي عن جابر رضى الله عنه عنه صلى الله عليه وسلم (إن من أحبكم إلى، وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً. وإن من أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون. قالوا: يارسول الله. قد علمنا الثرثارون والمتشدقون. فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون) الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائدة دينية. والمتشدد: المتكلم بملء فيه تفاصلاً وتعامطاً وتظاولاً، وإظهاراً لفضله على غيره. وأصله: مر الفقه. وهو الامتلاء.

• الاخلاق الاساسية

وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان. لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والإنابة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء. وهو رأس كل خير. وتمتعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والميعة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والبدى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتحمله على كظم الغيظ والحلم. فإنه بقوة نفسه وشجاعته يسك عنائها، ويكبحها بلجامها عن النغ والطمش. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد: الذي يملك نفسه عند الغضب) وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها طرقي الإفراط والتفريط. فيتحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة. وعلى خلق الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور. وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبنائها على أربعة أركان: الجهل. والظلم. والشهوة. والغضب.

فالجهل: يريه الحسن في صورة التبييع، والقبيح في صورة الحسن. والكمال نقصاً والنقص كمالاً.

والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغصب في موضع الرضى، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأنانة، ويخل في موضع العدل، ويذل في موضع السخل، ويحرم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والثمة والجشع، والذل والدناءات كلها.

والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد، والعدوان والسفه.

و يتركب من بين كل حلقين من هذه الأخلاق: أخلاق مدمومة.
وملاك هذه الأربعة أصلاً: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة فيتولد من
إفراطها في الضعف: المهانة والبخل، والخسة واللؤم، والدل والحرص، والشح وسفاسف الأمور
والأخلاق.

و يتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحدة، والمحش والطيش.
فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضاً، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضاً.
وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميين. وهو وسط بينهما. وطرفاه خلقان ذميان،
كالجود: الذي يكتسبه خلقا الحل والتدبير. والتواضع: الذي يكتسبه خلقا الدل والمهانة.
والكر العلو.

فمن النفس متى انحرفت عن «التوسط» انحرفت الى احد الخلقين الذميين ولا بد، فإذا
انحرفت عن حق «التواضع» انحرفت: إما الى كبر وعلو، وإما الى ذل ومهانة وحقارة. وإذا
انحرفت عن حق «الحياء» انحرفت: إما الى قحة وحرأة، وإما الى عجز وتحوّر ومهانة، بحيث
يُطبيع في نفسه عذوه. ويعوته كثير من مصالحه. ويرغم أن الحامل له على ذلك الحياء. وإما
هو المهانة والعجز. وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خلق «العصر المحمود» انحرفت: إما الى جزع وهلع وحشع
وتسخط. وإما الى غلظة كد، وقسوة قلب، وتحجر طبع.
وإذا انحرفت عن خلق «الحلم» انحرفت. إما الى الطيش والتروث والحدة والحفة، وإما الى
الدل والمهانة والحقارة. هرق بين من حلمه حلم دل ومهانة وحقارة وعجز، وبين من حلمه حلم
اقتدار وشرة وشرف كما قيل.

كس حسب أنسى سحر اقتدار حجة لاجيء إليها اللثام

وإذا انحرفت عن خلق «الأناة والرفق» انحرفت: إما الى عجلة وطيش وعنف، وإما الى
تفريط وإساعة. والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «العة» التي وهبها الله للمؤمنين، انحرفت: إما الى كبر، وإما الى
دل. وأجرة المحمودة بينهما

وإذا انحرفت عن خلق «الشجاعة» انحرفت إما الى تهور واقدام غير محمود، وإما الى حس
وتأخر بدموم.

وإذا انحرفت عن خلق «المافسة في المراتب العالية والغلبة» انحرفت. إما الى حسد، وإما
الى مهانة. وعجز ودل ورضى بالدون.

إذا انحرفت عن «القناعة» انحرفت: أما إلى حرص وكَلْب، وأما إلى خِشَّة ومهانة وإضاعة.

وإذا انحرفت عن خلق «الرحمة» انحرفت: إما إلى قسوة، وأما إلى ضعف قلب وجبن نفس، كمن لا يقدم على ذبح شاة، ولا إقامة حد، وتأديب ولد. ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك. وقد ذبح أرحمُ الخلق صلى الله عليه وسلم بيده في موضع واحد ثلاثاً وستين بدنة. وقطع الأيدي من الرجال والنساء، وصرب الأعناق. وأقام الحدود ورحم بالحجارة حتى مات المرحوم. وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم.

وكذلك طلاقة الوجه، والشر المحمود. فإنه وسط بين التعميس والتقطيع وتصعير الحد، وطى البشر عن البشر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد، بحيث يُذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يقع الوحشة والمصّة، والنفرة في قلوب الخلق.

وصاحب الخلق الوسط: مهيب محبوب، عرير حابه، حبيب نقاؤه. وفي صفة نبيّا صلى الله عليه وسلم (من رآه بديهةً هابه. ومن حالطه عشرةً أحبه) والله أعلم.

● فضيلة المغالبة

اعلم أن أصعب ماعلى الطبيعة الإنسانية. تعير الأخلاق التي طعت النعوس عليها. وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إما عملوا عليها، ولم يطفروا أكثرهم بتبديلها. لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها. وإذا جاء سلطان تلك الأخلاق ورز: كسر جيوش الرياضة وشتتها. واستولى على مملكة الطع. وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الاخلاق. ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها. ويكون سيره أقوى وأجل وأسرع من سير العامل على إزالتها.

وتقدم قبل هذا مثلاً نضربه. مطابقاً لما يريده. وهو: نهر حارٍي صَبَّه ومُتَحَدِّره، ومُتَنَزِّهِ إلى تغريق أرض وعممرات ودور. وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهى حتى يُحَرِّب دورهم. و يتلف أراضيهم وأموالهم. فانقسموا ثلاث فرق.

فرقة صرفت قواها وقوى أعمالها إلى سَكْرِهِ وَحَبِّهِ وإيقافه. فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمر. فإنه يوشك أن يحتجم ثم يتخيل على السكر، فيكون إفساده وتخريبه أعظم.

وفرقة رأت هذه الحالة. وعلمت أنه لا يعنى عنها شيئاً. فقالت: لا خلاص من محذوره إلا سقطة من أصل الينبوع. فرامت قطعة من أصله. فتندر عليها ذلك عاية التعذر، وأبت الطبيعة

السهرية عليهم ذلك أشد الإباء، مهم دائماً في قطع النسيج، وكلما سدوه من موضع بيع من موضع، فاشتعل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الرراعات والمعارات وعرس الأشجار.

هجاءت فرقة ثالثة، حالفت رأى المرتقبين. وعلموا أنهم قد صاع عليهم كثير من مصالحهم. فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهى إلى العمران، فصرفوه إلى موضع ينتفعون بوصوله إليه. ولا يتصرفون به. فصرفوه إلى أرض قابلة للنبات. وسقوها به. فأثبتت أنواع العشب والكلأ والتمر المختلفة الأصناف، فكانت هذه العروة هم أصوب الفرق في شأن هذا النهر.

هناك تبين هذا المثل، فالله سبحانه قد اقتضت حكمته: أن ركب الإنسان — بل وسائر الحيوان — على طبيعة محمولة على قوتين: عصبية. وشهوانية. وهي الإرادية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأحلاق النفس وصفاتها. وهما مركزتان في جبهة كل حيوان. فبقوة الشهوة والإرادة: يجذب المنافع إلى نفسه. وبقوة العصب: يدفع المضار عنها. فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه: تولد منها الحرص. وإذا استعمل العصب في دفع المضرة عن نفسه: تولد منه القوة والغيرة فإذا عجز عن ذلك المضار: أورثته قوة الحقد. وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه. ورأى غيره مستبداً به: أورثه الحسد. فإن ظفر به. أورثته شدة شهوته وإرادته: خلق السحن والنشح. وإن اشتد حرصه وشهوته على الشيء، ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة العصبية، فاستعسها فيه: أورثه ذلك العدوان، والبي والطمع. ومنه يتولد: الكبير والفخر والخيلاء. فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والعصب.

هنا تبين هذا: فالنهر مثال هاتين القوتين. وهو منصّب في جدول الطبيعة ومجرها إلى دور القسب وعمرانه وحواصله، يجرها و يتلفها ولاد. فالنفوس الجاهلة الغالبة تركته ومجرها. فحرب ديار الإيمان. وقلع آثاره. وهدم عمرانها. وأثبت موضعها كل شجرة حيثة، من حطط وضرب وشوك ورقوم. وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد.

وأما النفوس الزكية الفاضلة: فإنها رأت ما يؤول إليه أمر هذا النهر. فافترقا ثلاث فرق.

فأصحاب الرياضات والمجاهدات، والخلوات والتمريبات: راموا قطعه من ينبوعه. فأبى عليهم ذلك حكمة الله تعالى، وما طمع عليه الجبهة البشرية. ولم تنقد له الطبيعة. فاشتد القتال. ودم الحرب. وحى الوطيس. وصارت الحرب دولا ويحالا. وهؤلاء صرفوا قواهم إلى محاربة النفس على إرادة تلك الصعات.

ومرقة أعرضوا عنها. وشغلوا نفوسهم بالأعمال. ولم يحيبوا دواعي تلك الصفات مع تخليتهم إياها على مجراها، لكن لم يمتكوا نهرها من إفساد عمرانهم. بل اشتغلوا بتحسين العمران، وإحكام بنيانه وأساسه ورأوا أن ذلك النهر لابد أن يصل إليه. فإذا وصل وصل إلى بناء محكم فلم يهدمه. بل أخذ به يميناً وشمالاً. فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة، وإحكام

البناء . وأولئك صرعوها في قطع المادة الفاسدة من أصلها، خوفاً من هدم البناء .
وقد سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ؟ فقال لي: مثال آفات النفس مثال الحيات
والعقارب التي في طريق المسافرين . فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاستغفار بقتلها:
انقطع . ولم يمكنه السفر قط . ولكن لتكن همتك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها .
فإذا عرض لك فيها ما يموقك عن المسير فاقتله . ثم امض على سيرك
إذا تبين هذا . فهذه الفرقة الثالثة: رأت أن هذه الصفات ما خلقت سُدى ولا عبثاً . وأنها
بمنزلة ماء يُسقى به الورد، والشوك، والثمار، والخطب، وأنها صوان وأصداف لجواهر متطورة
عليها . وأن ما خاف منه أولئك هو نفس سبب الفلاح والظفر . فرأوا أن الكبر نهر يسقى به العلو
والفخر، والبطر والظلم والعدوان . ويسقى به علو الهمة، والأنفة، والحمية، والمراعاة لأعداء
الله، وقهرهم والعلو عليهم . وهذه درة في صدفته . فصرعوا مجراها إلى هذا الفراس . واستخرجوا
هذه الدرة من صدفته . وابقوه على حاله في نفوسهم . لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع .
وقد (رأى النبي صلى الله عليه وسلم أبا دجاجة يتبخر بين الصفيين . فقال: إنها أليسية
يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموضع) .

فانظر كيف خلّى مجرى هذه الصفة وهذا الخلق يجري في أحسن مواضعه .
وفي الحديث الآخر — وأظنه في المسند — (إن من الخيلاء ما يحجبها الله . ومنها ما يبغضها
الله . فالخيلاء التي يحجبها الله: اختيال الرجل في الحرب، وعند الصدقة) .
فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية؟ وكيف استحال القاطع موصلاً؟ .
فصاحب الرياضات، والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات، والخلاوات: هيات حيات،
إنما يوقعه ذلك في الآفات، والشبهات، والضلالات . فإن تزكية النفوس مُتَكَلِّمٌ إلى الرسل . وإنما
بعثهم الله لهذه التزكية ولولا هم إياها . وجعلها على أيديهم دعوة، وتعلية، وبياناً، وإرشاداً،
لاحقاً ولا إماماً . فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم . قال الله تعالى (٢: ٦٢) هو الذي بعث في
الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته . ويزكيهم . ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا
من قبل لفي ضلال مبين) وقال تعالى (٢: ١٥١، ١٥٢) كما أرسلنا فيكم رسولا منكم
يتلو عليكم آياتنا، ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة . ويعلمكم ما لم تكونوا
تعلمون . فاذكروني أذكركم . واشكروا لي ولا تكفرون) .

وتزكية النفوس: أصعب من علاج الأبدان وأشد . فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة
والخلوة، التي لم يجيء بها الرسل: فهو كالمرضى الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من
معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب . فلا سبيل إلى تزكيتها وصلحتها إلا من طريقهم . وعلى
أيديهم، ومحض الانقياد، والتسليم لهم . والله المستعان .

• من كل حسب قدرته

وأساس الاخلاق: أن تعرف مقام الخلق. وأنهم بأقدارهم مربوطون. وفي طاعتهم محسوس. وعلى الحكم موقوفون. تستفيد بهذه المعرفة ثلاثة أشياء: أس الخلق ملك، وعمة الخلق إياك. ونجاة الخلق بك.

فهيته الدرجة: يكون تحسين الخلق مع الخلق في معاملتهم. وكيفية مصاحبتهم. فانك إذا عرفت مقام الخلق، ومقاديرهم، وجريان الأحكام القدريه عليهم، وأنهم مقيدون بالقد، لاخروجهم عنه ألبته، ومحسوسون في قدرتهم وطاقتهم. لايمكنهم تجاوزها الى غيرها، وأنهم موقوفون على الحكم الكوني القدري لايتعدونه، استعدت بهذه المعرفة ثلاثة أشياء: أمن الخلق منك. وذلك: أنه إذا نظر إليهم بعين الحقيقة. ثم يطالبهم بما لايقدرؤن عليه. وامتشل فيهم أمر الله تعالى لبيبه صلى الله عليه وسلم بأحد العفو مهم. فأموا من تكيده إياهم والرامة لهم ما ليس في قواهم وقدرهم.

وأيضاً فإنهم يأمنون لانتته. فإنه في هذه الحال عاذرهم فيما يجري عليهم من الأحكام فيما لم يأمر انشرع بإقامته فيهم. لأنهم إذا كانوا محسوسين في طاقتهم فيسبني مطالبتهم بما يطالب به المحسوس. وعذرهم بما يعذره المحسوس. وإذا بدا منهم في حقت تقصير أو إساءة، أو تفريط. فلا تقابلهم به ولا تخاصمهم. بل اعفر لهم ذلك واعذرهم. نظراً الى جريان الأحكام عليهم، وأنهم آفة. وههنا ينعمك الصاء بشهود الحقيقة عن شهود جبايتهم عليك، كما قال بعض العارفين لرجل تعدى عليه وظلمه: إن كنت طالما فالدي سلطك على ليس نظام. وههنا للعبد أحد عشر مشهداً فيما يصيبه من أدى الخلق وجبايتهم عليه.

• عن الدعاء سنة كونية قضاها الله

أحدها: هذا، وهو مشهد «القدر»، وأن ماحرى عليه: مشيئة الله وقضائه وقدره. فبإياه كالتأذى بلحر والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطع الأمطار. فإن الكل أوحى مشيئة الله. فما شاء الله كان. ووجب وجوده. ومالم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده. وإذا شهد هذا: استراح. وعلم انه كائن للاحالة. فما للحرع مه وجب. وهو كالحرع من الحر والبرد والمرض والموت.

● للصبر في المحن لذة

المشهد الثاني: مشهد «الصبر» فيشهد و يشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، وما يترتب عليه من الغبطة والسرور. ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام. مما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة. وعلم أنه إن لم يصبر اختباراً على هذا — وهو محمود — صبر اضطراراً على أكرمه. وهو مذموم.

● عز العفو

المشهد الثالث: مشهد «العفو والصفح والحلم» فإنه متى شهد ذلك وقضاه وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لعش في بصيرته. فإنه (ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً) كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم. وعلم بالتحريفة والوجود. وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلك. هذا، وفي الصفح والعفو والحلم: من احلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزاها ورفعته عن تشعيبها بالانتقام: عا ليس شيء من في المقابلة والانتقام.

● نرضى ليرضى

المشهد الرابع: مشهد «الرضا» وهو فرق مشهد «العفو والصفح» وعبد لا يكون إلا للفرس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيبت به منه القيام لله. فإذا كان ما أصيبت به في الله، وفي مرضاته وعبته: رضى عما نالها في الله. وهذا شأن كل عب صادق، يرضى عما ياله في رضا محبوبه من المكاره. ومتى تحط به وتشكى منه، كان ذلك دليلاً على كذبه في محته.

● نحسن لمن أساء

المشهد الخامس: مشهد «الإحسان». وهو أرفع مما قبله. وهو أن يقابل إساءة الميء إليه بالإحسان. فيحسن إليه كلما أساء هو إليه. ويهون هذا عليه علمه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدى إليه حسناته، وعماها من صحبته. وأنتها في صحيفة من أساء إليه. فيبقي لك أن تشكره، وتحسن إليه بما لاسه له إلى ما أحسن به إليك.

وههنا يسفع استحضار مسألة اقتضاء المنة الثواب. وهذا المسكين قد وهك حسناته. فإن كنت من أهل الكرم فأثبه عليها، لتثبت المنة. وتأمين رجوع الواهب فيها. وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم. وأهل الغزائم. ويهوسه عليك أيضاً: علمك بأن الجزاء من جنس العمل. فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق اليك عفوت عنه. وأحسن اليه، مع حاجتك وصعفك وفقرك وذلك. فهكذا يفعل المحسن التقدر العزيز الغني بك في إساءتك. يقابلها بما قابلت به إساءة عبده اليك. فهذا لا بد منه.

● خراطير الثأر تستهلك القلب

الشهد السادس: مشهد «السلامة وبرد القلب» وهذا مشهد شريف جداً لم عرفه، وذاق حلاوته. وهو أن لا يشتغل قلبه وسره بما ناله من الأذى، وطلب الوصول الى درك ثأره، وشفاء نفسه. بل يفرغ قلبه من ذلك. ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له. وألذ وأطيب. وأعوون على مصالحه. فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده، وخير له منه. فيكون بذلك معيئاً. والرشد لا يرضى بذلك. ويرى أنه من تصرفات السفيه. فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساس، وإعمال الفكر في ادراك الانتقام؟

● العفو يقطع الحاح الجاهل في الظلم

الشهد السابع: مشهد «الأمن» فإنه اذا ترك المقاتلة والانتقام: أمن ما هو شر من ذلك. وإذا انتقم: واقع الخوف ولا بد. فإن ذلك يزرع العداوة. والعاقل لا يأمن عدوه، ولو كان حقيراً. فكيف من حقير أردى عدوه الكبير؟ فإذا غفر، ولم ينتقم، ولم يقابل: أمن من تولد العداوة، أو ربا ديتها. ولا بد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه. ويكف من جزعه، بعكس الانتقام. والواقع شاهد بذلك أيضاً.

● صفقة رابحة ثمنها: عرض ودماء

الشهد الثامن. مشهد «الجهاد» وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده في سبيل الله. وأمرهم بالمعروف. وبنيهم عن المنكر. وإقامة دين الله. وإعلاء كلمته.

وصاحب هذا الثمن: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعمره بأعظم الثمن. وإن أراد أن يُسَلِّمَ إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها. فلا حق له على من آذاه. ولا شيء له قبلة. إن كان قد رضى بمقد هذا التسليم. فإنه قد وحب أجره على الله. وهذا ثابت بالصحيح وإجماع الصحابة رضى الله عنهم. ولهذا مع النبي صلى الله عليه وسلم المهاجرين من مكى سكى مكة — أعزها الله — ولم يَزِدْ على أحد منهم داره ولا ماله الذي أحده الكفار. ولم يصنعهم دية من قتلوه في سبيل الله.

ولما عزم الصديق رضى الله عنه على تصميم أهل الردة ما أتلعه من نفوس المسلمين وأموالهم. قال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه — بمشهد من الصحابة رضى الله عنهم «تلك دماء وأموال دهب في الله. وأحورها على الله. ولا دية لتشهد» فأصعق الصحابة على قول عمر ووافقوه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى ردى في الله: حرم الله عليه الانتقام. كما قال لقمان لابنه (١٧:٣١) وأثر بالمعروف. وآنة عن المنكر. وأصر على ما أصابك. إن ذلك من عزم الأمور.

● تكفير الخطايا بالمحسن : نعمة

المشهد التاسع: مشهد «العمة» وذلك من وجوه. أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه في أن يجعله مظلوماً يترقب النصرة. ولم يجعله ظالماً يترقب المقت والأخذ. فلو خيّر العاقل بين الخاتين — ولابد من إحداها — لاختار أن يكون مظلوماً. ومنها: أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك من خطاياهم. فإنه ما أصاب المؤمن هم ولا أذى إلا كفر الله به من خطاياهم. فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والدنوب. ومن رضى أن يلتقى الله بأدوائه كلها وأسقامه، ولم يداوه في الدنيا بدواء يوجب له التمام: فهو مغبون سفيه. فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك. فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومن كان على يديه. وانظر إلى شفقة الطبيب الذي ركه لك، وبعثه إليك على يدى من تفعلك بعصرته.

ومنها: أن يشهد كون تلك البلية أهول وأسهل من غيرها. فإنه مأمور بعمدة إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمر. فإن لم يكن فوقها عمدة في البدن والمال فليظن أن سلامة دينه وإسلامه وتوحيده. وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهيئة. وأنها في الحقيقة نعمة. والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين.

هـ - وإن العبد ليشتد فرجه يوم القيمة بما له قتل الناس من الخوق في المال والنفس و عرض . فالعاقل يُعَدُّ هذا ذخراً ليوم الفقر والدقة . ولا يظله بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئاً .

● على الدرب نجدد المثال

المشهد العاشر: مشهد «الأسوة» وهو مشهد شريف لطيف جداً . وإن العاقل اللبيب يرصّي أن يكون له أسوة يرسل الله ، وأنبيائه وأوليائه ، وحاصته من خلقه . فإنهم أشد الحلق امتحاناً - لناس . وأذى الناس اليهم أسرع من السيل في الحدور . ويكفي تدبر قصص الأنبياء عليهم سلام مع أنهم . وشأن نبينا صلى الله عليه وسلم وأذى أعدائه له بما لم يُؤدّه من قبله . وقد قال له ورقة بن نوفل «لَتَكْذِبُنَّ» وَلَتَحْرَبَنَّ» ولتؤذين» وقال له «ما جاء أحد بمثل ما حلت به إلا عيى» وهذا مستمر في وريته كما كان في مرثيم صلى الله عليه وسلم .

أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله ، وخواص عباد الله : الأمل فالأمل؟ .

ومن أحب معرفة ذلك فليقف على مَحَبِّ العلماء ، وأذى الجهال له . وقد صنف في ذلك بن عبد نير كتاباً سماه «عن العلماء» .

● السائر الى الله لا توقفه الاتسوك

المشهد الحادي عشر: مشهد «التوحيد» وهو أحل المشاهد وأرفعها . فإذا امتلأ قلبه بحجة - لله . و إخلاص له ومعاملته ، وإيثار مرصاته ، والتفرد اليه . وقرّة العين به ، والإس به ، وطمان اليه . وسكن اليه . واشتاق الى لقائه ، واتحده ولياً دون من سواه ، بحيث قوّض اليه أموره كلها . ورضي به وبأفضيته . وفنى بحبه وخوفه ورحائه وذكره والتوكل عليه . عن كل ما سواه . فإنه لا يسقى في قلبه متسع لشهود أذى الناس له البتة . فصلا عن أن يشتغل قلبه وفكره وبشره بتطلب الانتقام والمقابلة . بهذا لا يكون إلا من قلب ليس فيه ما يبعثه عن ذلك ويعوصه منه . فهو قلب حانع غير شعبان . فإذا رأى أي طعام رآه هَفَّت اليه نوازعه . وانبعثت اليه دواعيه . وأما من متلاً قلبه بأعلى الأعدية وأشرفها : فإنه لا يلتفت الى مادونها . وذلك فصل الله يؤتبه من يشاء .

دو "فضل العظيم .

● اطلب العذر ... واشكر

وإذا تشم هذه المشاهد الا بتحسين خلقك مع الحق تعالى ، بأن تعلم أن كل ما يأتيك منك يرحب عذراً ، وان كل ما يأتيك من الحق سبحانه يرحب شكراً

وهذه الدرجة مبيية على قاعدتين:

إحداهما: أن تعلم أنك ناقص. وكل ما يأتي من الناقص ناقص. فهو يوجب اعتداله منه لاعتداله. فعلى العبد أن يعتذر إلى ربه من كل ما يأتيه من خير وشر أما الشر: فظاهر. وأما الخير: فيعتذر من نقصانه. ولا يراه صالحاً لربه.

فهو — مع احسانه — معتذر في إحسانه. وكذلك مدح الله أوليائه بالوحد منه مع إحسانهم بقوله (٢٣: ٦٠) والذين يؤمنون بما آتوا وقلوبهم وجيلة) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (هو الرجل يصوم ١٠ ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه) فإذا خاف فهو بالاعتذار أولى.

والخامل له على هذا الاعتذار أمران.

أحدهما: شهود تقصيره ونقصانه.

والثاني: صدق محبة. فإن المحب الصادق يتقرب إلى محبوه بغاية إمكانه.

وهو معتذر إليه، مستحي منه: أن يواخيه عما واجهه به. وهو يرى أن قدره فوقه وأحل منه. وهذا متاهد في محبة المخلوقين.

القاعدة الثانية: استعظام كل ما يصدر منه سبحانه إليك، والاعتراف بأنه يوجب الشكر عليك، وأنت عاجز عن شكره. ولا يتبين هذا إلا في المحبة الصادقة. فإن المحب يستكثر من محبوبة كل ما يناله. فإذا ذكره تنبأ وأعطاء إياه: كان سروره بذكره له، وتأهيله لعطاءه. أعظم عده من سروره بذلك العطاء بل يعيب بسروره بذكره له عن سروره بالعطية.

● التحريدان المتكاملان

ومدار حسن الخلق مع الحق، ومع الخلق: على حرفين. ذكرهما عبدالقادر الكيلاني فقال:

كن مع الحق بلا تخلق. ومع الخلق بلا نفس.

فتأمل. ما أحل هاتين الكلمتين، مع احتصارهما، وما أحمهما لقواعد السلوك. ولكل خلق حميل؟ ومصاد الخلق إنما يشأ من توسط الحق بينك وبين الله تعالى. وتوسط النفس بينك وبين خلقه. فمتى عزلت الخلق — حال كونك مع الله تعالى — وعزلت النفس — حال كونك مع الخلق — فقد فزت بكل ما أشار إليه القوم. وشعروا إليه. وحاموا حوله. والله المستعان.

(٣٥) مَثَلُ التَّوَّابِ

ومن مَثَل «أياك نَعُد وأياك نَسْتَعِي» مَثَلُ «التَّوَّابِ».

قَدْ سَمِعَ تَعَارَ (٢٥: ٦٣) وَعِبَادَ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا أَيَّ سَكِينَةٍ وَوَقَرٍ مَتَوَصِّعِينَ، غَيْرِ أَتْرَبِينَ، وَلَا مَرَحِينَ وَلَا مُتَكَبِّرِينَ. قَالَ الْحَسَنُ: عَسَاءَ حُلَمَاءُ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ حَنِيشٍ: أَصْحَابُ وَقَارٍ وَعَفَّةٍ لَا يَسْفَهُونَ. وَإِنْ شِعْهُ عَلَيْهِمْ حُلَمَاءُ.

«وَهُونٌ» - يُفْتَحُ فِي اللُّغَةِ: الرِّفْقُ وَاللِّينُ. وَ«الْهَوْنُ» بِالضَّمِّ: الْهَوَانُ وَخَفَافٌ مِنْهُ. صَفَةُ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْمُصْصِمِ: صَفَةُ أَهْلِ الْكُفْرَانِ. وَخَزَاؤُهُمْ مِنَ اللَّهِ التَّيْرَانُ.

وَقَالَ تَعَارُ (٥٤: ٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ. أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ).

لَمَّا كَانَ مِنْهُمْ دَلِيلٌ رَحِمَهُ وَعَظَفَ وَتَشَفَّقَ وَاحْتَأَتْ عَدَاهُ بِأَدَاةٍ «عَنِ» تَصْمِينًا لِمَعَانِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ. فَإِنَّهُ - يَرُدُّهُ دَلِيلُ الْهَوَانِ الَّذِي صَاحَهُ دَلِيلُ. وَإِنَّمَا هُوَ دَلِيلُ الْإِقْيَادِ الَّذِي صَاحَهُ ذَلِيلُ. فَالْمُؤْمِنُ دَلِيلُ. كَمَا فِي الْحَدِيثِ (الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الذَّلِيلِ، وَالْمُنافِقُ وَالْفَاسِقُ ذَلِيلُ) وَأَرْبَعَةٌ يَعِشْتُهُمْ لَدَلُّ أَشَدَّ الْعَشَقِ: الْكَذَّابُ، وَالنَّمَامُ، وَالْحَيْلُ، وَالْجَبَّارُ.

وَقَرْنَهُ «عَرَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ» هُوَ عَرَّةُ الْقُوَّةِ وَالْمُنْعَةِ وَالْعِلْمَةِ. قَدْ عَطَاهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلْمُؤْمِنِينَ كَسَالِدَ لَوْلَدِهِ. وَعَلَى الْكَافِرِينَ كَالسَّعِ عَلَى فَرَسِهِ. كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى (٤٨: ٢٩) أَشَدَّ عَلَى الْكَافِرِينَ رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ).

وَفِي صَحِيحِ مُسْنَدِ مَنْ حَدَّثَ عِيَّاصُ بْنُ حَمَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدْ رَسُلَ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِلَى اللَّهِ أَوْحَى إِلَيَّ: أَنْ تَوَاصَعُوا، حَتَّى لَا تَبْقَعَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ. وَلَا يَعْصِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ).

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر).

وفي الصحيحين مرفوعاً (ألا أخبركم بأهل النار؟ كل غُلّ جَوَّاز مستكبر)

وفي حديث احتجاج الجنة والنار (أن السارق قالت: ما لي لا يدخلني إلا الجبارون، والمتكبرون؟ وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَفَطُهم) وهو في الصحيح
وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقول الله عز وجل: العزة إزاري. والكبرياء ردائي. فمن نازعني عديته).

وفي جامع الترمذي مرفوعاً عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه (لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في ديوان الجبارين. فيصيبه ما أصابهم).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر على الصبيان فيسلم عليهم.
وكانت الأمة تأخذ بيده صلى الله عليه وسلم. فتطلق به حيث شاءت.
وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أكل لعق أصابعه الثلاث.

وكان صلى الله عليه وسلم يكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط.
وكان صلى الله عليه وسلم يحصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير ويأكل مع الخادم، ويحالف المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويحيي دعوة من دعاه. ولوالى أيسر شيء.

وكان صلى الله عليه وسلم هين المؤنة، لين الخلق. كريم الطبع. جميل المعاشرة. طلق الوجه بساماً، متواضعاً من غير ذلّة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم.

وقال صلى الله عليه وسلم (ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ — أو تحرم عليه النار — تحرم على كل قريب هين لين سهل) رواه الترمذي. وقال: حديث حسن.

وقال (لو دُعيت إلى ذراع — أو كراع — لأجبت، ولو أهدى إلى ذراع — أو كراع — لقبلت) رواه البخاري.

وكذلك صلى الله عليه وسلم يعود المريض، ويشهد الخنارة، ويركب الحمار، ويحيي دعوة النعب.

وكان يوم قريظة على حمار محطوم يحمل من ليف عليه إكاف من ليف.

• دوائر التواضع

سئل فضيل بن عياض عن التواضع؟ فقال: يحصع للحق، ويقاد له، ويقبله ممن قاله، وقيل: التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب. وهذا مذهب الفضيل وغيره.

وقال الحفيد بن محمد: هو خفض الجناح، ولين الجانب. وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان، والبر في التواضع. فمن طلبه في الكبر فهو كطلب الماء من النار.

وقال إبراهيم بن شيان: الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة. وقال عروة بن الزبير رضى الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه على عاتقه قربة ماء، فقمت «يا أمير المؤمنين؛ لا ينبغي لك هذا». فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين، دشنت نفسي نحوه، فأردت أن أكسرها».

وقد أنور هريرة رضى الله عنه إمارة مرة، فكان يحمل حُرمة الخطب على ظهره، ويقول: صَافُوا لِأُمِيرٍ.

ومر الحسن على صبيان معهم كسر خبز، فاستضافوه، فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى مسكنه، فأطعمهم وكساهم، وقال: أيد لهم. لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني، ونحر به أكثر منه.

ويذكر أن أبا ذر رضى الله عنه عَثر بلالاً رضى الله عنه بسواده، ثم ندم، فألقى بسسه، وحلف: لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال حذى بقدمه. فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال.

وقال رجاء بن حيوة: قُوت ثياب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه — وهو يحط — بأثني عشر درهماً، وكاتب قاء وعمامة وتميصا وسروال ورداء وحمين وقلنسوة.

وبلغ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أن ابناً له اشترى له حاتماً بألف درهم. فكتب إليه عمر: بلغني أنك اشتريت فيهما بألف درهم. فإذا أتاك كتابي فبع الحاتم. وأشبع به ألف بطن. واتخذ حاتماً بدرهمين. وأجعل فيهما حديدأ صينياً. واكتب عليه: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه. والله اعلم.

• الانقياد للحق روح التواضع

وروح التواضع: أن يتواضع المد لصولة الحق. بأن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له، والذل، والانقياد، والدخول تحت رقبته. بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف المالك في مملوكه. فهذا يحصل للعبد خلق التواضع. ولهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم الكبير بضده. فقال «الكبر ينظر الحق، وغفص الناس» فبطل الحق: رذء وتبجحده، والدفع في صدره. كدفع الصائل. و«غفص الناس» احتقارهم، وازدراؤهم. ومتى احتقرهم وازدراؤهم: دفع حقوقهم. وجحداء، واستهان بها. ولما كان لصاحب الحق مقال وصولة: كانت النفوس المتكبرة لا تُقر له بالصولة على تلك الصولة التي فيها، ولا سيما النفوس المطلة. فتصول على صولة الحق بكبرها وباطلها. فكان حقيقة التواضع: خضوع العبد لصولة الحق، وانقياده لها. فلا يقابلها بصولته عليها.

• لانعاض الدليل والمنقول برأي أو قياس

وركنه الأهم: التواضع للدين. وهو أن لا يعارض بمقول منقولاً. ولا ينهم للدين دليلاً. ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً.

و«التواضع للدين» هو الانقياد لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، والاستسلام له، والإدعان. وذلك بثلاثة أشياء.

الأول: أن لا يعارض شيئاً مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة: بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

فالأول: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين، الذين عارضوا نصوص الوحي بمقولاتهم الفاسدة. وقالوا: إذا تعارض العقل والقل: قدمنا العقل. وعزلنا النقل.

والثانية: مستكرين من للتنسين إلى الفقه، قالوا: إذا تعارض القياس والرأى والنصوص قدما القياس على النص. ولم نلتفت إليه.

والثالثة: للمستكرين المنحرفين من التنسين إلى التصوف والزهد. فإذا تعارض عندهم الدوق والأمر. قدموا الدوق والحال. ولم يعبأوا بالأمر.

والرابعة: للمستكرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين. إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة. قدموا السياسة. ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فبؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر. والتواضع: التحلص من ذلك كله.

اشانى: أن لايتهم دليلا من أدلة الدين، بحيث يظنه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة، أو قاصده، أو أن غيره كان أولى منه. ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه، وبلية فيه. كما قيل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وأفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والفهم
وهكذا انراقع فى الواقع حقيقة: أنه ما اتهم أحد دليلا للدين إلا وكان المتهم هو العاسد
الذهن. المأقون فى عقله، وذهنه. فالآفة من الذهن الليل. لا فى نفس الدليل.

وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك، وينو فهمك عنه فاعلم أنه لعضته وشرفه
استصى عليك. وأن تحته كنزاً من كنوز العلم. ولم تؤت مفتاحه بعد هذا فى حق نفسك.

لأنك لم تحذ له السيل سوى من صدق الإخلاص والضراعة إلى الله مقلب القلوب، وأنك لم تأخذ
الأسباب المصيبة - هناك المنظمة لقلبك، من صدق التوجه إلى هدى رسول الله صل الله عليه وسلم، لتستأهل
هذا الكبر.

وأما بالنسبة إلى عيرك: فانهم آراء الرجال على نصوص الوحى، وليكن ردها أيسر شيء
عليك لنصوص. فما لم تفعل ذلك فلسى على شيء.

قد - الشافعى، قدس الله روحه: أجمع المسلمون على أن من استبانى له سنة رسول الله صلى
الله عليه وسلم: سم يحل له ان يدعى لقول أحد.

الثالث: أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة. لا باطنه، ولا بلسانه ولا بفعله. ولا
بحاله. بل إذا أحس بشيء من الخلاف: فهو كخلاف المقيم على الرنا. وتُزب الحمر، وقتل
النفس. بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك. وهوداع إلى الفاق. وهو الذى حابه الكفار.
والأنتم على نموسهم.

واعلم أن المخالف للنص — لقول متسوعه وشيخه ومُقلّده، أو لرأيه ومعقوله، وذوقه، وسياسته إن كان عند الله معذوراً، ولا والله ما هو بمعذور، — فالمخالف لقوله لنصوص الوحي أولى بالعذر عند الله ورسوله، وملائكته. والمؤمنين من عباده.

فواعجباً إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذر من خالفها تقليداً، أو تأويلاً، أو غير ذلك. فكيف ضاق عن عذر من خالف أقوالهم، وأقوال شيوخهم. لأجل موافقة النصوص؟ وكيف نصبوا له الحبائل. وبغوه الغوائل. ورموه بالعظائم. وجعلوه أسوأ حالاً من أرباب الجرائم؟ فرموه بدانهم واصلوا منه لؤذاً. وقذفوه بمصائبهم. وجعلوا تعظيم المتوسعين ملاذاً لهم ومعاذاً. والله أعلم.

● ثقة على بصيرة

ولا يصح ذلك إلا بأن يعلم: أن النجاة في الصيرة، والاستقامة بعد الثقة. وأن البيئة وراء الحجة.

فيعلم أولاً أن النجاة من الشقاء والضلال: إنما هي في البصيرة. فمن لا بصيرة له: فهو من أهل الضلال في الدنيا. والشقاء في الآخرة.

والبصيرة نور يجعله الله في عين القلب، يفرق به العبد بين الحق والباطل، ونسبته إلى القلب: كنسبة ضوء العين إلى العين.

وهذه «البصيرة» وهبية وكسبية. فمن أدار النظر في أعلام الحق وأدلته، وتجرد لله من هواه: استنارت بصيرته. ورزق فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل.

ثم أن يعلم أن الاستقامة إنما تكون بعد الثقة، أي لا يتصور حصول الاستقامة في القول والعمل والحال، إلا بعد الثقة بصحة مامعه من العلم. وأنه مقتبس من مشكاة النور. ومن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة.

ومبنى هذا على أن يعلم أن البيئة وراء الحجة. و«البيئة» هي: استبانة الحق وظهوره. وهذا إنما يكون بعد الحجة إذا قامت استبان الحق وظهوره وانضج.

وفيه معنى آخر. وهو: أن العبد إذا قبل حجة الله بمحض الإيمان والتسليم والانقياد: كان هذا القول هو سبب تبينها وظهورها، وانكشافها لقلبه.

وفيه معنى آخر أيضاً: أنه لا يتبين له عيب عمله من صحته إلا بعد العلم الذي هو حجة الله على العبد. فإذا عرف الحجة انضج له بها ما كان مشككاً عليه من علومه، وما كان معيها من أعماله.

• نؤاخي كل مسلم ونقبل عذره

وحد - التصريح اما يكون بأن ترضى بما رضي الحق به لنفسه عبداً من المسلمين أماً، وإن لا ترد على عدوك حقاً، وإن تقبل من المعتذر معاذيره.
فإذا كان من قد رضي احاك المسلم لنفسه عبداً، أفلا ترضى انت به أماً؟ فعدم رضاك به أماً: عيب "لكسر" وأي قبيح اقبح من تكبر العد على عد مثله، لا يرضى راحوته، والله راض معوديته.

ولا تصح سب درجة «التواضع» حتى تقبل الحق من تحت ومن تبص فتقبله من عدوك كما تقسه من وبيك. وإذا لم ترد عليه حقه، فكيف تقسه حقاً له قبلك؟ بل حقيقة «التواضع» أنه إذا جاءك قتله منه. وإذا كان له عليك حق أديته إليه. فلا تمكع عداوته من قبول حقه، ولا من إيتائه ياء.

وكذلك من ساء اليك ثم جاء يعتذر عن اساءته فإن «التواضع» يوجب عليك قبول معذرتة. حقاً كنت أو باطلاً. وتكلم سريرته إلى الله تعالى. كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسبيين الذين تملقوا عنه في الغزو. فلما قدم جاءوا يعتذرون إليه. فقبل أعذارهم. ووكل سريره رب الله تعالى.

وعلازمة الكبر والتواضع: أنك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه عليه ولا تحاجه. وقل: يمكن أن يكون ذلك منكم تقول. ولو قضى شيء لكان، والمقدور لا مدفع له. ونحو ذلك.

• انما تنجيننا الرحمة

وتقام تواضع - ان لا يرى العابد لنفسه حقاً على الله لاجل عمله، فانه في عودية وفقر محض، ودل وانكسار. فمتى رأى لنفسه على الله حقاً: فسدت عوديته، وصارت معلولة وخيف منها المقت. ولا يت في هذا ما أحقه سبحانه على نفسه، من إثانة عابديه وإكرامهم. فإن ذلك حق أحقه على نفسه تحصن كرمه وبره وجوده وإحسانه. لا باستحقاق العيد، وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم.

فعليك بالفرقة في هذا الموضع الذي هو معتق الطرق.

ولكنك إجتث لداعي الحق حالصة، إجابة محبة ورعة، وطلب للمحبوب دانه، غير مشوبة بطلب خيره من الخطوط والأعواص، فإنه متى حصل لك حصل لك كل عرض وكل حظ له وكل قسم

فمن أعرض عن طلب ماسوى الله، ولم يشب طلبه له بموص، بل كن حُجاً له، وإرادة خالصة لوجهه. فهو في الحقيقة الذى يفوز بالأعراض والأقسام والحظوظ كلها. فإنه لما لم يجعلها غاية طلبه، توفرت عليه في حصولها. وهو عمود مشكور مقرب.

واعلم أنه لا يستوجب العبد على الله بسعيه نجاته ولا فلاحاً. ولا يدخل أحداً عمله الجنة أبداً، ولا ينجيه من النار. والله تعالى — بفضله وكرمه، ومحض جوده وإحسانه — أكد إحسانه وجوده وبره بأن أوجب لعبده عليه سبحانه حقاً بمقتضى الوعد. فان وعد الكريم إيجاب، ولو بـ «عسى، ولعل».

ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنهما «عسى: من الله واجب».

ووعد اللئيم خلف. ولو اقترن به العهد والخلف.

والمقصود: أن عدم رؤية العبد لنفسه حقاً على الله لا ينافي ما أوجبه الله على نفسه. وجعله حقاً لعبده. قال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضى الله عنه «يامعاذ، أتدرى ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: حقه عليهم أن يمدوه لا يشركوا به شيئاً. يامعاذ، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقه عليهم عليه: أن لا يعذبهم بالنار».

فالرب سبحانه ما لأحد عليه حق. ولا يصيب لديه سعى. كما قيل:

ما للمعباد عليه حق واجب	كلا. ولا سعى لديه ضائع
إن عُذِّبوا فبِعَدْلِهِ، أو نُعْمُوا	فبِفَضْلِهِ. وهو الكريم الواسع

مَنْزِلَةُ الْفُتُوَّةِ (٣٦)

ومن مارل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الفتوة» وهذه منزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى الناس. وكف الأذى عنهم. واحتمال أذ هم. فهي استعمال حسن الخلق معهم. فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله. واسفرق يبعثا وبين المروءة: أن المروءة أعم منها. فالفتوة نوع من أنواع المروءة. فإن المروءة استعمال لا يحبل ويزين مما هو مختص بالعيد، أو متعد إلى غيره. وترك ما يندس ويشين مما هو مختص أيضا به، أو متعلق بغيره.

و«الفتوة» إما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق. وهي ثلاثة منازل: منزلة التحلق وحسن الخلق. ومنزلة الفتوة. ومنزلة المروءة. وقد تقدمت منزلة الخلق.

وهذه منزلة شريفة، لم تمر عنها الشريعة باسم «الفتوة» بل عرت عنها باسم «مكارم الأخلاق» كما في حديث يوسف بن محمد المكدر عن أبيه عن حارر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق، وبحاسن الأعمال».

وأصل «الفتوة» من «الفتى» وهو الشاب الحديث السن. قال الله تعالى عن أهل الكهف (١٨: ١٣) «نهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى»

قال المصنف بن عياض: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان. وقال إمام أحمد رضي الله عنه — في رواية أنه عد الله — عه، وقد سئل عن الفتوة؟ فقال: ترك ما تهوى لما تحشى.

وقال عمر بن عثمان المكي: الفتوة حسن الخلق.

وقال أحمد: الفتوة كف الأذى ودل البدى.

وقال سهل: هي اتباع السنة.

وقيل: فضيلة تأتياها، ولا ترى نفسك فيها. وقيل: أن لا تحتجب بمقصودك.

وقيل: أن لا تهرب إذا أقبل طالب المعروف. وقيل: إظهار العفة وإسرار المحبة. وقيل: أن لا تدحر ولا تعتذر.

• الفتنى . . . أرض خير

واصلها: استرسال الناس في فضلك، فانك إذا استرسلت معهم، ولم تجذب عنهم عاتك: نالوا من فضلك. فيكون استرسالك سبباً لئيلهم لفضلك، وقض العنان سبباً للحرمان. ثم تسعهم بحلقك، باحتمال ما يدو منهم من سوء العشرة، فخذ منهم ما أمر الله نيه أن يأخذه من أخلاق الناس. وهو العفو. وتدعهم يطرؤونك، أى يدوسونك من لينك وتواضعك، وحفض حناك، بحيث لا تترك لفسك بينهم رتبة تتقاضاهم أن يحترموك لأجلها. ولكن مع قيام العلم: بأن يكون هذا الاسترسال موافقاً للشرع. غير مخرج عن حدوده وآدانه، بحيث لا تحمّلهم على تعدى حدود الله، وتضييع حقه وحقوق عبادته، حافظاً لقلبك مع الله، ودوام إقبالك عليه، فانت معهم مسترسل بشحك ورمحك وصورتك فقط، ومفارقهم بقلك وسرك، منتبهاً لسرك في مدارج «اياك نعد واياك نستعين» فان هذا الانتباه هو حياة القلب والروح. فاذا فات السائر وغفل عنه: غلته الكآنة، وغمره الهم والغم والاحزان، وتاه قسه في الاودية والشعاب.

• نقص . . . وإيثار

قال صاحب المنازل شيخ الاسلام الهروي رحمه الله: «نكتة الفتوة: أن لا تشهد لك فضلا. ولا ترى لك حقاً». يقول: قلب الفتوة، وإنسان عينها: أن تفنى بشهادة نقصك، وعيك عن فضلك. وتغيب شهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم. والناس في هذا مراتب. فأشرفها: أهل هذه المرتبة. وأخسها: عكسهم. وهم أهل الماء في شهود فضائلهم عن عيوبهم. وشهود حقوقهم على الناس عن شهود حقوق الناس عليهم. وأوسطهم: من شهد هذا وهذا. فيشهد مافى العيب والكمال. ويشهد حقوق الناس عليه وحقوقه عليهم.

ومن مظاهرها عنده «ترك الخصومة. والتعافل عن الزلة، ونسيان الأذية». فلا يخاصم بلسانه. ولا ينوى الخصومة بقله. ولا يخطرها على باله. هذا في حق نفسه. وأما في حق ربه: فالفتوة أن يخاصم بالله وفي الله. ويحاكم إلى الله، كما كان النى صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح «أوبك خاصمت. وإليك حاكمت» وهذه درجة فتوة العلماء الدعاء إلى الله تعالى.

وأما «التعدي عن الرتبة» فهو أنه إذا رأى من أحد زلة يوجب عليه الشرع أخذه بها أظهر أنه لم يرها، لئلا يعرض صاحبها للوحشة.

وفتوة التعاض: أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية.

وأما «نسيان الأذية» فهو بأن تنسى أذية من نالك بأذى، ليصفو قلبك له. ولا تستوحش منه.

وهما نسيان آخر أيضاً. وهو من الفتوة. وهو نسيان إحسانك إلى من أحسنت إليه، حتى كأنه لم يصدر منك. وهذا النسيان أكمل من الأول. وهو قيل:

يسى صائعه. والله يظهرها إن الحميل إذا أخفيتة ظهرها

● المعاكسة البتاءة

ثم من مظاهرها عنده: «أن تُقَرَّب من يقصيك، وتكرم من يؤذيك، وتعتذر إلى من يجني عليك، سماحة لا كطما، ومودة لا مصابرة»، بأن يكون الإحسان والإساءة بينك وبينه حِطَّتَيْن. فخطتك: الإحسان. وخطته: الإساءة.

ومن أراد فهم هذه الدرجة كما ينبغي. فليُنظر إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع الناس يحده هذه بعينها. ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سواه. ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة. وما رأيت أحداً قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه. وما رأيت يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم.

وحشت يوماً مبشراً له بموت أكره أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له. فنهزني وتكررتي واسترحج. ثم قام من موته إلى بيت أهله فزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه. ونحو هذا من الكلام. فسروا به ودعوا له. وعظموا هذه الحال منه. فرحمه الله ورضي عنه.

ومعنى الاعتذار إلى من يجني عليك: أنك تنزل نفسك منزلة الجاني لا المجني عليه، والجاني حليق بالعدو.

والذى يُشهدك هذا المشهد: أنك تعلم أنه إنما سُلط عليك بدنب، كما قال تعالى (٢: ٣٠) وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم. ويعفو عن كثير
فإذا علمت أنك بدأت بالجناية فانتقم الله منك على يده: كُت في الحقيقة أول بالاعتذار.
فالفِتوة كَل الفِتوة: إن لا يظهر له منك عتب ولا تغير عما كان له منك قبل معاداته، ولا تطوي عنه بشرك ولا دك، وإذا لم تحل انت من قيامه بين يديك مقام المعتذر: لم يكن لك في الفِتوة نصيب.

والذى يهون عليك هذا كله: مشاهدة تلك المشاهد العشرة المتقدمة. فعليك بها. فإن فيها كنوز المعرفة والبر.
وقوله «سماحة لا كطما. ومودة، لا مصابرة».

يعنى: اجعل هذه المعاملة منك صادرة عن سماحة، وطية نفس، وانشرح صدر، لا عن كظم، وضيق ومصابرة. فإن ذلك دليل على أن هذا ليس في خلقك. وإنما هو تكف يوشك أن يزول. و يظهر حكم الخلق صريحاً فتفتضح. وليس المقصود إلا إصلاح الباطن والسر والقلب.
وهذا الذى قاله الشيخ لا يمكن إلا بعد العبور على جسر المصابرة والكظم. فإذا تمكن منه أفضى به إلى هذه المنزلة بعون الله. والله أعلم.

وفضيلة «المروءة» تتلازم مع فضائل الفِتوة هذه.

● سمو المروءة

و «المروءة» فَعْمولة من لفظ المرء، كالفِتوة من الفتى، والإنسانية من الإنسان ولهذا كان حقيقتها: اتصاف النفس بصفات الإنسان التى فارق بها الحيوان البهيم والشیطان الرجيم. فإن في النفس ثلاثة دواع متجاذبة: داع يدعوها إلى الإتيان بأخلاق الشيطان: من الكبر، والحسد، والعلو، واليغى، والشر، والأدى، والفساد، والغش.

وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان. وهو داعي الشهوة.

وداع يدعوها إلى أخلاق الملك: من الإحسان، والنصح، والبر، والعلم، والطاعة.

فحقيقة المروءة: بغض دينك الداعين، وإجابة الداعي الثالث. وقلة المروءة وعدماها: هو الاستمرار مع دينك الداعين. والتوجه لدعوتها أين كانت.

فالإنسانية، والمروءة، والفِتوة: كلها في عصيان الداعين، وإجابة الداعي الثالث. كما قال بعض السلف: خلق الله الملائكة عقولا بلا شهوة. وخلق البهائم شهوة بلا عقل. وخلق ابن آدم، وركب فيه العقل والشهوة. فمن غلب عقله شهوته: التحق بالملائكة. ومن غلبت شهوته عقله: التحق بالبهائم.

ولهذا قيل في حد المروءة إنها غلبة العقل للشهوة.
وقال الفقيه في حدها: هي استعمال ما يجمل العبد ويرينه، وترك ما يندسه و يشينه.
وقيل: المروءة استعمال كل خلق حسن. واحتساب كل خلق قبيح.
وحقيقة «المروءة» تحب للدنايا والردائل، من الأقوال، والأخلاق، والأعمال.
فمروءة اللسان: حلاوته وطيبه ولينه، واحتشاء الثمار منه بسهولة ويسر.
ومروءة الخلق: سعته وسطه للحبيب والبغيفض.
ومروءة المال: الإصابة بدله مواقفه المحمودة عقلا وعرفاً وشرعاً.
ومروءة الخاء: بذله للمحتاج إليه.
ومروءة الإحسان: تمحيله وتيسيره، وتوفيره، وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه.
فهذه مروءة لنذل.

وأما مروءة التركة: فترك الحصام، والمعاتة، والمطالبة والمعاراة، والاضضاء عن عيب ما
يأخذ من حقلك. وترك الاستقصاء في طلبه، والتعامل عن عثرات الناس، وإشعارهم أنك لا
تعلم لأحد منهم عثرة، والتوقير للكبير. وحفظ حرمة النظير، ورعاية أدب الصغير. وهي على
ثلاث درجات.
الدرجة الأولى: مروءة المرء مع نفسه. وهي أن يحملها قسراً على ما يجتمل ويرين. وترك ما
يدس ويشين، ليصيرها ملكة في العلانية. فمن أراد شيئاً في سره وحلوته، ملكه في جهره
وعلانيته. فلا يكشف عورته في الخلوة، ولا يتحشأ بصوت مزعج ما وجد إلى خلاه سبيلاً. ولا
يتحشع ويتهم عند أكله وحده.
وبالجملة: فلا يفعل خالياً ما يستحي من فعله في الملام، إلا ما لا يحظره الشرع والعقل. ولا
يكون إلا في الخلوة، كالجماع والتحلل وبحود ذلك.
الدرجة الثانية: المروءة مع الخلق، بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء، والخلق
الجميل. ولا يظهر لهم ما يكرهه هومن غيره لنفسه. ولينخذ الناس مرآة لنفسه. فكل ما كرهه
وفرغه، من قول أو فعل أو خلق، فليحشسه. وما أحبه من ذلك واستحسنه فليفعله.
وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكل من حالطه وصاحبه من كامل وناقص، وسوء الخلق
وحسنه. وعديم المروءة وغريرها.
وكثير من الناس يتعلم المروءة، ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها كما روى عن
بعض الأكابر: أنه كان له مملوك سيء الخلق، فقط عليظ. لا يناسه فمثل عن ذلك؟ فقال:
أدرس عليه مكارم الأخلاق.

وهذا يكون معرفة مكارم الأخلاق في صدد أخلاقه. و يكون تمرير النفس على مصاحته ومعاشرته، والصبر عليه.

الدرجة الثالثة: المروءة مع الحق سبحانه. بالاستحياء من نظره إليك، وإطلاعه عليك في كل لحظة ونفس، وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان. فإنه قد اشتراها منك. وأنت ساع في تسليم المبيع، وتقاضي الثمن. وليس من المروءة: تسليمه على ما فيه من العيوب، وتقاضي الثمن كاملاً. أو رؤية يثته في هذا الإصلاح، وأنه هو المتولى له. لا أنت. فيغنيك الحياء منه عن رسوم الطبيعة. والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفتك إلى عيب غيرك، وشهود الحقيقة عن رؤية فعالك وصلاحك.

وكل ما تقدم في منزلة «الخلق» و «الفتوة» فإنه بعبه في هذه المسألة.

(٣٧) مَنَزِلَةُ الْإِرَادَةِ

ومن مَآرِل «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» مَنْزِلَةُ «الْإِرَادَةِ».

قال سَه تَعَالَى (٦: ٥٢) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَقَالَ تَعَالَى (٩٢: ١٩ - ٢١) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا أَثْقَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ. وَلَوْ يَرَىٰ (يَرْضَى) وَقَالَ تَعَالَى (٣٣: ٢٩) وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ

أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا).

وقَدْ تَبَيَّنَتْ عِبَارَاتُ الْقَوْمِ عَنْهَا. وَغَالِبُهُمْ بِحَرَمِهَا بِأَنَّهَا تَرَكَّ الْعَادَةُ. وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّ عَادَةَ النَّاسِ غَالِبًا التَّعَرُّجَ عَلَى أَوْطَانِ الْغَفْلَةِ، وَإِحَابَةِ دَاعِي الشَّهْوَةِ، وَالْإِخْلَادَ بِأَرْضِ الطَّبِيعَةِ. وَالْمُرِيدُ مُنْخَلَعٌ عَنْ ذَلِكَ. فَصَارَ خُرُوجُهُ عَنْهُ: أَمَارَةٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ الْإِرَادَةِ. فَسَمِيَ انْسِلَاخَهُ وَتَرْكُهُ إِرَادَةً.

وَقِيلَ: يَهْوِضُ الْقَلْبُ فِي طَلَبِ الْحَقِّ.

وَيَقَالُ: لَوْعَةٌ تَهْوِي كُلَّ رَوْعَةٍ.

قال سَدِّيقِي: الْإِرَادَةُ لَوْعَةٌ فِي الْفُؤَادِ، لِدَعَاةٍ فِي الْقَلْبِ، غَرَامٌ فِي الضَّمِيرِ، انْزِعَاجٌ فِي الْبَاطِنِ،

تَبَرُّانٌ تَأَحُّجٌ فِي الْقُلُوبِ.

وَقِيلَ: مِنْ صِفَاتِ الْمُرِيدِ: التَّحَبُّبُ إِلَى اللَّهِ بِالْوُفَاقِ، وَالْإِحْلَاصُ فِي نَصَبَةِ الْأَمَةِ، وَالْأَسَى الْخُلُوعُ. وَلَا يَثَارُ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْحَيَاءُ مِنْ نَظَرِهِ، وَمِثْلُ الْمَجْهُودِ، وَالتَّعَرُّصُ لِكُلِّ سَبَبٍ يُوَصِّلُ إِلَيْهِ، وَالْقَدْعَةُ، وَعَدَمُ قَرَارِ الْقَلْبِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى وَلِيِّهِ وَمَعْبُودِهِ.

وَقِيلَ: مِنْ حِكْمَةِ الْمُرِيدِ: أَنْ يَكُونَ يَوْمَهُ غَلَّةً، وَكُلَّهُ فَاقَةً، وَكَلَامُهُ ضَرُورَةً.

وَقِيلَ: أَسْرَعُ عَشَادَانَ الْحَبِيرِيِّ: مَنْ لَمْ تَنْصَحْ إِرَادَتَهُ اتِّدَاءً، فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ مَرُورُ الْأَيَّامِ عَلَيْهِ إِلَّا

إِدَارًا.

وقال: الْمُرِيدُ إِذَا سَمِعَ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْقَوْمِ فَعَمِلَ بِهِ: صَارَ حِكْمَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى آخِرِ عَمَرِهِ يَنْتَفِعُ بِهِ. وَإِذَا تَكَلَّمَ اسْتَفْعَلَ بِهِ مِنْ سَمْعِهِ. وَمَنْ سَمِعَ شَيْئًا مِنْ عِلْمِهِمْ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ كَانَ حِكَايَةً يَحْمِلُهَا أَيْمَانًا ثُمَّ يَسَاهَا.

وقال ينبغي بن معاد: أشد شئىء على المريد: معاشرته الاضداد.
وعلم السلوك مسي على الارادة، فهي أساسه وجميع بانه، وهو مشتمل على تفاصيل احكام
الارادة، وهي حركة القلب، كما ان علم الفقه يشتمل على تفاصيل احكام الخواارج.
فالفقيه: يسطر في تلك الحركات من جهة موافقتها لأمر الشرع، وبهيه وإذنه، وكراهته،
ومتعلقات ذلك.

والمريد: ينظر في تلك الحركات من جهة كونها موصلة له إلى مراده. أو قاطعة عنه، ومفسدة
لقلبه، أو مصححة له.

ولا بد في ذلك من ثلاثة أشياء: نفس مستعدة قابلة. لا تعوز إلا الداعى. ودعوة مستعدة،
وتحلية الطريق من المانع.

فما انقطع من انقطع إلا من جهة من هذه الجهات الثلاث.

ومن مقدماتها: الذهاب عن العادات بصحة العلم، مع صدق القصد. وخلع كل شاغل.
وهذا يوافق من حدة «الإرادة» بأنها: غلبة العادة. وهي ترك عوائد النفس، وشهواتها،
ورغباتها وبطالاتها. ولا يمكن ذلك إلا بهذه الأشياء وهي: صحة العلم ومعانفته. فإنه النور
الذى يُعرّف العد مواقع ما ينبغي إظهار طلبه. وما ينبغي إظهار تركه. فمن لم يصحبه العلم: لم
تصح له إرادة باتفاق كلمة الصادقين. ولا عزة بقطاع الطريق.

ومما يعين السالك على ترك العادة: ترك الموانع والقواطع العائقة عن السلوك، من صحة
الاغيار اهل السطالة. فليس على المريد أضر من عُشْرته القاطعين له عن سيره الى الله تعالى،
فليقترب عنهم بجهده.

فإذا صحت له هذه المقدمات: أسلمته الى ترويح الانس، والسير بين القبض واليسط،
فينتقل من مقام رسوم الاعمال الى مقام حقائقها وأذواقها واحوالها، فيترقى من الاسلام الى
الايمان، ومن الايمان الى الاحسان، فإن السالك في أول الأمر يجد تعب التكاليف ومشقة
العمل. لعدم أس قله بمعوده. فإذا حصل للقلب روح الأس زالت عنه تلك التكاليف
والمشاق. فعادت قرة عين له. وقوة ولذة. فتصير الصلاة قرة عينه، بعد أن كانت عبلاً عليه.
و يستريح بها، بعد أن كان يطلب الراحة منها. فله ميراث من قوله صلى الله عليه وسلم
«أرحنا بالصلاة يا بلال»، «وحملت قرة عيني في الصلاة» بحسب إرادته، ومحنته، وأنسه
بالله سبحانه وتعالى، ووحشته مما سواه.

وأما «السير بين القبض واليسط».

فـ «القبض» و «اليسط» حالتان تعرضان لكل سالك. يتولدان من الخوف تارة، والرجاء
تارة. فيقبضه الخوف. ويسطه الرجاء.

ويتولد من الوفاء تارة، والوفاء تارة. فوداه: يورثه السسط ويجهل به الفاسق.
وقد يهجم على قلب السالك قص لا يدري ما سببه. وحكم صاحب هذا القمص: أمراد
الأول: التوبة والاستغفار. لأن ذلك القمص نتيجة حناية. أو حفة. ولا يشعر بها.
والثاني: الاستسلام حتى يمضي عنه ذلك الوقت، ولا يتكلف دفعه. ولا يستقبل وقته مغالبة
وقهراً. ولا يطلب طلوع الفجر في وسط الليل، ويُتَزَد حتى يمضي عامة الليل. ويحين طلوع الفجر.
ونقتاع ظلمة الليل. بل يصبر حتى يهجم عليه الملك. فالله يقبض ويسط.
وكذلك إذا هجم عليه وارد السسط: فليحذر كل الحذر من الحركة والاهتزاز. وليحرزه
بـسكون والاكماش. فالعاقل يقف على الساط، ويحذر من الانبساط، وهذا شأن عقلاء أهل
الديار ورؤسائهم: إذا ما ورد عليهم ما يضرهم ويسطهم ويهيج أفراحهم، قابله بالسكون
ونبات والاستقرار، حتى كأنه لم يهجم عليهم وقال كعب بن زهير مدح المهاجرين:
ليسوا معاريج إن نالت رماحهم قوماً وليسوا مجاريعاً إذا قيلوا
فلا يحرجه البسط عن استقامته، ولا عن الوقوف بأدب بين يدي ربه.

(٣٨) مَنَزِلَةُ الْأَدَبِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الأدب»
 قال الله تعالى (٦٦: ٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ
 وَالْحِجَارَةُ) قَالَ ابن عباس وغيره: أدبهم وعلموهم.
 وهذه اللفظة مؤذنة بالاحتماع. فالأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة. وهي
 الطعام الذي يجتمع عليه الناس.
 وعلم "الأدب": هو علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصانة مواقفه، وتحسين ألفاظه، وصيانتها
 عن الخطأ والخبث. وهو شعبة من الأدب العام. والله أعلم.

• مسالك الادب

و «الأدب» ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه. وأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم
 وشرعه. وأدب مع خلقه.
 فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:
 أحدها: حياة معاملته: أن يشوبها بقبصة.
 الثاني: حياة قلبه: أن يلتصق إلى غيره.
 الثالث: حياة إرادته: أن تتعلق بما يملكه عليه.
 قال يحيى من معاد: من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله.
 وقال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.
 وسئل الحسن البصري رحمه الله عن أرفع الأدب؟ فقال: التفقه في الدين. والرهف في الدنيا،
 والمعرفة بما لله عليك.
 وقال سهل: القوم استعانوا بالله على مراد الله. وصبروا لله على آداب الله.
 وقال ابن المبارك: طلبنا الأدب حين فائنا المؤدبون.
 وقال: الأدب للعارف كالقوة للمستأنف.

وقال أبو حفص — لما قال له الجنيد: لقد أدبت أصحابك أدب السلاطين — فقال: حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن. فالأدب مع الله حسن الصحة معه، بإيقاع الحركات الطاهرة والساطنة على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء. كحال مجالس الملوك ومصاحبتهم.

وقال سهل: من قهر نفسه بالأدب فهو عبد الله بالإحلاص.
وقال عبد الله بن المبارك: قد أكثر الناس القول في «الأدب» ونحن نقول: إنه معرفة النفس ورعوناتها، وتجنب تلك الرعونات.
وقال أبو عثمان: إذا صحت المحبة تأكدت على المحب ملازمة الأدب.
وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم. كيف تحدثها كلها مشحونة بالأدب قائمة به.

قال المسيح عليه السلام (٥: ١١٦) إن كنت قلته فقد علمته ولم يقل: لم أقله. وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب. ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره. فقال (تعلم ما في نفسي) ثم برأ نفسه عن علمه بغيره وما يختص به سبحانه، فقال (ولا أعلم ما في نفسك) ثم أنشأ على ربه. ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها. فقال (إنك أنت علام الغيوب) ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به — وهو محض التوحيد — فقال (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به: أن أعبدوا الله ربي وربكم) ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم. وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل وحده هو الممرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم. فقال (وكننت عليهم شهيداً ما دمت فيهم. فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم) ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم. فقال (وأنت على كل شيء شهيد) ثم قال (إن تعذبهم فإنهم عبادك) وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام. أي شأن السيد رحمة عبده والإحسان إليهم. وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك. فإذا عذبتهم — مع كونهم عبيدك — فلولا أنهم عبيد سوء من أحسن العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له: لم تعذبهم. لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته. فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحساناً عبده؟ لولا فرط غشهم، وإياهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله (إنك أنت علام الغيوب) أي هم عبادك. وأنت أعلم بسرهم وعلانياتهم. فإذا عذبتهم: عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه. فهم عبادك وأنت أعلم بما حثوه واكتسوه.

فهو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال (٥: ١١٨) وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) ولم يقل «الغفور الرحيم» وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى. فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمريهم إلى النار. فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة. بل مقام براءة منهم. فلو قال «فإنك أنت الغفور الرحيم»، لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضب عليهم. فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم. فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتصنيتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم صغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم. ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم. وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لمعجزه عن الانتقام منه. ولجهله بمقدار إساءته إليه. والكمال: هو مغفرة القادر العالم. وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عن الأدب في الخطاب.

وفي بعض الآثار «حلمة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. لك الحمد على عفوك بعد قدرتك» ولهذا يترن كل من هاتين الصفتين بالأخرى، كقوله (والله عليم حكيم) وقوله (وكان الله عفواً قديراً).

وكذلك قول إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم (٢٦: ٧٨ — ٨٠) الذي خلقتني فهو يهدين * والذى هو يطمعنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين) ولم يقل «وإذا أمرضنى» حفظاً للأدب مع الله.

وكذلك قول الحضرة عليه السلام في السمينة (١٨: ٧٩) فأردت أن أعييبها) ولم يقل «فأراد ربك أن أعييبها» وقال في الغلامين (١٨: ٨٢) فأراد ربك أن يبلغا أشدهما).

وكذلك قول مؤمنى الحن (٧٢: ١٠) وأنا لا ندري: أشر أريد من في الأرض) ولم يقولوا «أرادوا ربهم» ثم قالوا (أم أراد بهم ربهم رشداً).

وألفظ من هذا قول موسى عليه السلام (٢٨: ٢٤) رب إنى لما أنزلت إلي من خير فقير) ولم يقل «أضعمنى».

وقول آدم عليه السلام (٧: ٢٣) ربنا ظلمنا أنفسنا. وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ولم يقل «رب قدرت علي وقضيت علي».

وقول أيوب عليه السلام (٢١: ٨٣) مسني الضر وانت أرحم الراحمين) ولم يقل «فعافى واشفني».

وسئل يوسف لا بيه وإخوته (١٢: ١٠٠) هذا تأويل رؤياى من قبل. قد جعلها ربى حقاً. وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن) ولم يقل «أخرجنى من الحب» حفظاً للأدب مع إخوته، أن لا يخلجهم بما جرى فى الحب. وقال (وجاء بكم من البدو) ولم يقل «رفع عنكم جهد الجوع والحاجة» أدباً معهم. وأضاف ما جرى إلى السبب. ولم يصعه إلى المباشر الذى هو أقرب إليه منه. فقال (من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين إخوتى) فأعطى الفتنة والكرم والأدب حقته. ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله عليهم.

ومن هذا أمر النسي صلى الله عليه وسلم الرجل: أن يستر عورته، وإن كان خالياً لا يراه أحد. أدباً مع الله، على حسب القرب منه، وتعظيمه وإجلاله، وشدة الحياء منه، ومعرفة وقاره. وقال بمصهم: الزم الأدب ظاهراً وباطناً. فما أساء أحد الأدب فى الظاهر إلا عوقب ظاهراً. وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً.

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن. ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض. ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وقيل: الأدب فى العمل علامة قبول العمل.

وحدة «الأدب» استعمال الخلق الجميل. ولهذا كان الأدب. استخراج ما فى الطبيعة من الكمال من القوة إلى الفعل.

وإن الله سبحانه هياً الإنسان لقرول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد، التى جعلها فيه كامنة كالبارى الزناد. فأنه وتوكله، وعرفه وأرشدته. وأرسل إليه رسله. وأنزل إليه كتبه

لاستخراج تلك القوة التى أقله بها لكماله إلى الفعل. قال الله تعالى (٩١: ٧ — ١٠) ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من ركاها وقد خاب من دساها) فعرعن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام. ثم أحرعن قولها للفقير والتقوى. وأن ذلك نالها منه امتحاناً واختياراً. ثم حصن بالفلاح من زكاها فتمها وعلأها. ورفعها بأدابه التى أدب بها رسله وأبسياءه وأوليائه. وهى التقوى. ثم حكى بالتقاء على من دساها. فأخفاها وحقرها. وصعرها وقمعها بالفجور. والله سبحانه وتعالى أعلم.

● الاخلاق النبوية الساهية

وجرت عادة القوم: أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم، حين أراه ما أراه (٥٣: ١٧) ما زاغ البصر وما طغى) وأبو القاسم الشيرازي صدر باب الأدب بهذه الآية. وكذلك غيره.

وكأنهم نظروا قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأده صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام. إذ لم يلتفت جانباً. ولا تجاوز ما رآه. وهذا كمال الأدب. والإخلاص له: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلع أمام المتصور. فاللغات رينغ. والتطلع إلى ما أمام المتصور: طغيان وعوازة. فكما إقبال الناظر على المتصور: أن لا يصرف بصره عنه يمتة ولا يسه ولا يتجاوز.

هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية. قدس الله روحه. وفي هذه الآية أسرار عجيبة. وهي من غوامض الآداب اللاتمة بأكمل البشر صلى الله عليه وسلم: توخاً هناك بصره وبصيرته. وتوافقاً وتصادقاً فيما شاهده بصره. فالبصيرة مواطنة له. وما شاهده بصيرته فهو أيضاً حق مشهود بالبصر. فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة. ولهذا قال سبحانه وتعالى (٥٣: ١١، ١٢) ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمازونه على ما يرى؟) أى ما كذب الفؤاد ما رآه بصره.

ولهذا قرأها أبو جعفر «ما كذب الفؤاد» ما رأى — تتديد الذال — أى لم يكذب الفؤاد الصبر. بل صدقه وواطأه. لصحة الفؤاد والصبر. أو استقامة البصيرة والبصر. وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقاً. وقرأ الجمهور «ما كذب الفؤاد» بالتحفيف. وهو متعد. و«ما رأى» مفعوله: أى ما كذب قلبه ما رآه عيناه. بل واطأه ووافقه. فلمواطأة قلبه لقلبه، وظاهره لباطنه. وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤاد الصبر. ولم يتجاوز البصر حده فيطغى ولم يل عن المرئي فيزيغ؛ بل اعتدل الصبر نحو المرئي. ما جاوز ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله، والإعراض عما سواه. فإنه أقبل على الله بكلية. ولقلب زيغ وطميان، كما للبصر زيغ وطميان. وكلاهما منتف عن قلبه وبصره. فلم يزيغ قلبه التفاناً عن الله إلى غيره. ولم يطغ بجاوزته مقامه الذى أقيم فيه.

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذى لا يلحقه فيه سواه. فإن عادة النفوس، إذا أقيمت في مقام عال رفيع: أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وبقوة. ألا ترى أن موسى — صلى الله عليه وسلم — لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية؟

وبينا صلى الله عليه وسلم لما أقيم في ذلك المقام، وفاه حقه: فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه ألبته؟.

ولأجل هذا ما عاقه عائق. ولا وقف به مراد، حتى جاور السموات السبع حتى عاتب موسى ربه فيه، وبكى «قليل: ما يبكيك؟ قال أبكى أن علماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمة أكثر ممن يدخلها من أمتي» تم جاوزة علوا فلم تعقه إرادة. ولم تقف به دون كمال العودية همة.

ولهذا كان مركوبه في مشراه يسبق خطوه الطرف. فيضع قدمه عند منتهى طرفه، متساكلاً لحال راكبه، ويُعيد شأوه، الذي سبق العالم أجمع في سيره، فكان قدم النراق لا يختلف عن موضع نظره، كما كان قدمه صلى الله عليه وسلم لا يتأخر عن محل معرفته.

فلم يزل صلى الله عليه وسلم في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مراتب عوديه له، حتى حرق حجب السموات. وجاور السبع الطباقي. وحاور سدرة المنتهى. ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين. فانصت إليه هناك أقسام القرب انصافاً. وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهراً وباطناً حجاباً حجاباً. وأقيم مقاماً عبطه به الأنبياء والمرسلون. فإذا كان في المعاد أقيم مقاماً من القرب ثانياً، يعطيه به الأولون والآخرين. واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله، مازع البصر عنه وما طفى. فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط من الحق والهدى. وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم، فقال تعالى (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم) فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزوه إلى جات النعيم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

● الادب يحمل العبادة

و «الأدب» هو الدين كله. فإن ستر العورة من الأدب. والوضوء وغسل الجنابة من الأدب. والتطهر من الخنث من الأدب. حتى يقف بين يدي الله طاهراً.

ومن الأدب: نهى النبي صلى الله عليه وسلم المصل «أن يرفع بصره إلى السماء». فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف المدين يدي ربه مطرقاً، خافضاً طرفه إلى الأرض. ولا يرفع بصره إلى فوق. ومن الأدب مع الله: أن لا يستقل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة. كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة، وغيرهم. رضى الله عنهم. والصحيح: أن هذا الأدب: يعم المعاء والنيان. كما ذكرنا في غير هذا الموضوع.

ومنها: نسكون في الصلاة. وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه (٧٠: ٢٣) الا ان هم على صلاتهم دائمون قال عبد الله بن المبارك عن ابن الهيثم: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخيراً قال: سألت أبا عمارة بن عامر عن قوله تعالى (الذين هم على صلاتهم دائمون) أهم لذين يصلون دائماً؟ قال: لا. ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله ولا خلفه. قلت: هذا أمران. الدوام عليها. والمداومة عليها. فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالى (٧٠: ٣٤) والذين هم على صلاتهم يحافظون) ومسر «الدوام» بسكون الألف والظمانينة. وأدبه في استماع القراءة: أن يلقى السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوى. ويعظم الله تعالى، حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه. ويتضاءل ويتصاغر في نفسه. حتى يكون أقل من الهباء. والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه، والتأدب بأدبه ظاهراً وباطناً. ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وتسرعه، وما يحب وما يكره. ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق علماً وعملاً وحالاً. والله المستعان.

● نصف التوحيد والادب: متابعة النبي صلى الله عليه وسلم

وأما الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم: فالقرآن مملوء به. فأرأس الأدب معه: كمال التسليم له، والانقياد لأمره. وتلقى خيره بالتقوى والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل، يسميه معقولا. أو يحمله شبهة أو شكاً، أو يقدم عليه آراء أرحال، وزبالات أذهانهم، فيجوده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان. كما وحده إرسل سبحانه وتعالى بالعادة والخضوع والذل، والإجابة والتوكل. فهم توحيدان. لأنجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما. توحيد الرسل. وتوحيد متابعة الرسول. فلا يحاكم إلى غيره. ولا يرضى بحكم غيره. ولا يقف تنفيذ أمره. وتصديق خيره، على عرصه على قول شيخه وإمامه، وذوى مذهبه وطائفته، ومن يعظمه. فإن أذنوا له ففده وقيل خبره، وإلا فإن طلب السلامة: أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم، وإلا حرقه عن مواضعه. وسمى تحريته: تأويلاً، وحالاً. فقال: يؤوله وبحمله. فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب على الإطلاق — ما خلا الشرك بالله — خير له من أن يلقاه بهذه الحال.

ولمعد حاططت يوماً معص أكابر هؤلاء. فقلت له: سألتك بالله. لو قُدر أن الرسول صلى الله عليه وسلم حتى بين أظهرنا. وقد واهجنا بكلامه وبخطابه: أكان فرصاً علينا أن نتنعم من غير أن نعرضه على رأي عده وكلامه ومذهبه، أم لا نتنعم حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم؟

فقال: بل كان الفرض المأذرة إلى الامتنال من غير التفات إلى سواء.

فقلت فما الذي نسخ هذا الفرض عا؟ وبأى شيء نسخ؟

فوضع إصبعه على فيه. وبقي ناهتاً متحيراً. وما نطق بكلمة.

هذا أدب الحوار مع. لا مخالفة أمره والتشرك به. ورفع الأصوات، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم. وعزل كلامه عن اليقين وعن أن يستفاد منه معرفة الله، أو تلقى أحكامه منه وجعل المبعول في باب معرفة الله: على العقول المنهكة المتحيرة المتناقضة. وفي الأحكام: على تفليد الرجال وآرائها. والقرآن والسنة إنما نقرأهما تركاء، لا أننا نتلقى مهمما أصول الدين ولا فروعه. ومن طلب ذلك ورامه عادينا وسعينا في قطع دابره، وأستصالح شافته (٢٣: ٦٣ - ٧٤) بل قلوبهم في غمرة من هذا. ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون * حتى إذا أخذنا متروفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون * لا تجأروا اليوم. إنكم منا لا تنصرون * قد كانت آياتي تتلى عليكم. فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به. سامراً. تهجرون * أفلم يدبروا القول؟ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين؟ * أم لم يعرفوا رسولهم. فهم له منكرون؟ * أم يقولون به جنة؟ بل جاءهم بالحق. وأكثرهم للحق كارهون * ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن. بل أتيناهم بذكرهم معرضون * أم تسألهم خزجا؟ فخراج ربك خير. وهو خير الرازقين * وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم * وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لنا كبون).

والصاح لفسه. العامل عنى بجاتها: يتدبر هذه الآيات حتى تدبرها. ويتأملها حتى تأملها. وينزلها على الواقع: فيرى المحب. ولا يطنها اختصت بقوم كانوا فبانوا «فالحديث لك. واسمعى يا جارة»، والله المستعان.

ومن الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم: أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهى، ولا إذن ولا تصرف. حتى يأمر هو، وينهى ويأذن، كما قال تعالى (٤٧: ١) يا أيها الذين آمنوا لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله) وهذا باق إلى يوم القيامة ولم يسخ. فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذى عقل سليم. قال معاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب. أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه.

وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر. ولا تنهوا حتى ينهى. ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته. فإنه سب لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء. ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجباً لقول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها؟

ومن الأدب معه: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره. قال تعالى (٢٤: ٦٣) لا تعملوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) وفيه قولان للمفسرين. أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضاً، بل قولوا: يا رسول الله يابني الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المسمى لا يعمل دعاءه لكم بملة دعاء بعضكم بعضاً. إن شاء أحاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم ثم يكن لكم بُدٌّ من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الداعي، أي دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع — من خطبة، أو جهاد، أو رباط — لم يذهب أحد منهم مذهباً في حاجته حتى يستأذنه. كما قال تعالى (٢٤: ٦٢) إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله. وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) وإذا كان هذا مذهباً مقيداً بحاجة عارضة، لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف مذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله، وفروعه، دقيقه، وحليته؟ هل يتسع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ (١٦: ٤٣) فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون).

ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله. بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس. بل تهدر الأقية وتنقّي لصوصه. ولا يحرف كلامه عن حقيقته لحيال يسميه أصحابه معقولا، نعم هو معهود، وعن أصوات معرول. ولا يوقف قول ما جاء به صلى الله عليه وسلم على موافقة أحد. فكل هذا من قلة الأدب معه صلى الله عليه وسلم. وهو عين الحرارة.

● كل الحياة ينظمها الادب

وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم — على اختلاف مراتبهم — بما يليق بهم. فلكل مرتبة أدب. والمرتاتب فيها أدب خاص. فمع الوالدين: أدب خاص وللأب منهما: أدب هو أنخص به، ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان: أدب يليق به. وله مع الأقران أدب يليق بهم. ومع الأجانب: أدب غير أدبه مع أصحابه ودوى أئسسه. ومع الضيف: أدب غير أدبه مع أهل بيته. ولكل حال أدب: فللاً كل آداب. وللمشرب آداب. وللكوكب والدحول والحروج والسر والإقامة واليوم آداب. وللبول آداب. ولل كلام آداب. وللسكوت والاستماع آداب. وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه. وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره. فما استجلب خير الدنيا والآخرة مثل الأدب، ولا استجلب حرمانها مثل قلة الأدب. فانظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نَحَى صاحبه من حبس الفارحين أطبقت عليهم الصخرة؟ والإخلال به مع الأم — تأويلًا وإقتسالا على الصلاة — كيف امتحَن به جُريج الراهب بهدم صومعته وضرب الساس له، ورميه بالفاحشة؟ وتأمل أحوال كل شقى ومغتر ومدير: كيف تحد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان؟ وانظر أدب الصديق رضى الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة: أن يتقدم بين يديه. فقال «ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم» كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمه بعده؟ فكان ذلك التأخر إلى خلقه — وقد أوماً إليه أن: أنبت مكانك — جُثمًا وسعيًا إلى قدام؟ بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام. تنقطع فيها أعناق المطى. والله أعلم.

● آداب النمط الاوسط

وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجاني عنه. وإضاعة الأدب بالجفاء: كمن لم يكمل أعضاء الوصوء. ولم يوف الصلاة آدابها التي سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعلها. وهي قريب من مائة أدب: ما بين واجب ومستحب.

وإضاعته بالعلو: كالوسوسة في عقد النية. ورفع الصوت بها. والجهر بالأدكار والدعوات التي شرعت سرًا. وتطويل ما السنة تحيفه وحذفه. كالتهنيد الأول والسلام الذي حذفه سنة. وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولاعلى ما يظنه سراق الصلاة

• ساءرون لها ويستهنونه. وإن أسى صلى الله عليه وسلم لم يكن ليأمر بأمر ويتخالفه. وقد صانه من ذلك. وكان يأمرهم بالتحفيف ويؤمهم بالصدقات. ويأمرهم بالتحفيف. وتقام صلاة الظهر، فيذهب الذهاب إلى القيع، فيقضي حاجته. ويأتي أهله ويتوصأ. ويدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركعة الأولى. فهذا هو التحفيف الذي أمر به. لا بقر الصلاة وسرقتها. فإن ذلك احصار، بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم. ويسمى به مصليا، وهو كأكمل المضطرب في السحصة ما يسد به رمعه: فليته شيع على القول الآخر، وهو كجائع قدم إليه طعام لذيذ جداً. فأكل منه لمة أو لمتين. فماداً يغنيان عنه؟ ولكن لو أحسن بحوجه لما قام من الطعام حتى يتسع منه وهو يقدر على ذلك. لكن القلب شعاع من تبيء آخر.

بعد. والله. فإن الصلاة هي غذاء الروح والقلب. فإنه بحاجة إلى غذائه مما يتربل من رحمة الله. كما - الحسب بحاجة إلى الغذاء ما تخرج الأرض. ولما كان كل منهما يهضم عداة، فيحتاج إلى غذاء جديد تغش الله رسا سبحانه. فحمل الصلوات خمساً مقسمة على أجزاء اليوم هذا التسميم الحكيم ليأخذ الروح وعلت - الأساسي المعسوي الكريم - حجة الغذاء بعد اضطرابه في شؤون الحياة وقتها التي هضبت عداة، كالحسم سواء سواء. وهكذا العلم وبقية ما تفصل به علينا رنا الكريم من العادات. والأعمال - الحجاب.

ومتال ذلك في حقوق الخلق: أن لا يفرط في القيام بحقوقهم، ولا يستغرق فيها، بحيث يستغل بها عن حقوق الله. أو عن تكميلها، أو عن مصلحة دينه وقله، وأن لا يحفونها حتى يعطلها بالكلية. فإن الطرفين من العدوان الضار. وعلى هذا الحد، فحقيقة الأدب: هي العدل. و الله اعلم

• وزن الأحوال والمقامات بالادب

ومن الادب: منع الخوف: أن يتعدى إلى اليأس، وحيث الرضاء: أن يخرج إلى الأمن، وضبط السرور: أن يضاهى الجزأة.

فالادب لا يدع الخوف يفضي به إلى حد يوقمه في القنوط، واليأس من رحمة الله. فإن هذا الخوف مذموم.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: حد الخوف ما حجزك عن معاصي الله. فما راد على ذلك: فهو غير محتاج إليه.

وهذا الخوف الموقع في الإيأس: إساءة أدب على رحمة الله تعالى، التي سبقت غصبه، وجهل بيا.

وأما حس الرحاء: أن يخرج إلى الأمن، فهو أن لا يبلغ به الرجاء إلى حد يأمن معه العقوبة فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. وهذا إعراف في الطرف الآخر.
بل حد الرحاء: ما ظنَّ لك العادة، وحملك على السير. فهو عملة الرياح التي تسير السمية. فإذا انقطع وقفت السمية. وإذا زادت الفتها إلى المهالك. وإذا كانت تقدر. أوصلتها إلى البغية

وأما صبط السرور فلا يقدر عليه إلا الأقوياء أرباب العرائم. الذين لا تستفرهم السراء، فتعلم شكرهم. ولا تصعهم الضراء. فتعلم صرهم. كما قيل:

لا تعلم السراء منهم شكرهم كلا . ولا الصراء صر الصابر

والنفس قرينة الشيطان ومصاحته، وتسببه في صفاته. ومواهب الرب تارك وتعالى تزل على القلب والروح. فالنفس تسترق السمع. فإذا نزل على القلب تلك المواهب: وتنت لتأخذ قسطها منها، وتُضَيِّرُهُ من عدتها وحواصلها. فالمسترسل معها، الجاهل بها: يدعها تستوي ذلك. فيسا هو في موهبة القلب والروح وعدة وقوة له، إذ صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها. وعددها. فصالت به وطعت. لأنها رأب عنهاها به. والإنسان يطعم أن رآه استغنى بالمال فكيف بما هو أعظم خطراً، وأحل قدراً من المال، مما لا نسته بينهما من علم، أو حال، أو معرفة؟ فإذا صار ذلك من حاصلها: انحرف العدد به — ولابد — إلى طرف مذموم من حرة أو شطح، أو ادلال. وبحو ذلك

فوالله كم ههنا من قتيل، وسليب، وجريح يقول: من أين أتيت؟ ومن أين دُهِيت؟ ومن أين أصبت؟ وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك: أن يعلق عنه باب المريد. ولهذا كان العارفون وأرباب الصنائع: إذا نالوا شيئاً من ذلك انحرفوا إلى طرف الدل والانكسار، ومطالعة عيوب النفس. واستدعوا حارس الخوف، وحافظوا على الرباط بملازمة الثغرى القلب وبين النفس. ونظروا إلى أقرب الخلق من الله، وأكرمهم عليه، وأدناهم منه وسيلة، وأعظمهم عنده حاجاً، وقد دخل مكة يوم الفتح. وَذَقَّه تَمَسُّ قُرْبُوسِ سِرْجِه: انخفاصاً وانكساراً، وتواضعاً لربه تعالى في مثل تلك الحال، التي عادة النفوس البشرية فيها: أن يملكها سرورها، وفرحها بالنصر، والظفر، والتأييد، ويرفعها إلى عنان السماء.

فالرحل: من صان فتحه ونصيبه من الله. وواراه عن استراق نفسه. وبحل عليها به، والعاجز: من جاد لها به. فيأله من حود ما أقبحه، وسماحة ما أسفه صاحبها. والله المستعان.

(٣٩) منزلة اليقين

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «اليقين»

وهو من الايمان بمنزلة الروح من الجسد. وبه تفاضل العارفون. وفيه تنافس المتنافسون. واليه تتمر العاقلون. وعمل القوم انما كان عليه. واشاراتهم كلها اليه. وخص سبحانه اهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين. فقال، وهو اصدق القائلين (٥١: ٢٠) وفي الارض آيات للموقنين).

وخص اهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين، فقال (٢: ٤، ٥) والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك، وبالاخرة هم يوقنون * اولئك على هدى من ربهم. واولئك هم المفلحون).

وأخسر عن أهل النار: بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى (٥٥: ٣٢) وإذا قيل: ان وعد الله حق، والساعة لأرب فيها. قلتم: ما ندري ما الساعة؟ ان نظن الا ظنا. وما نحن بمستيقنين).

ف«اليقين» روح اعمال القلوب التي هي ارواح اعمال الجوارح. وهو حقيقة الصديقية. وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره.

وروى خالد بن يزيد عن السفيانيين عن التيمي عن حيشمة عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لا تُرضين أحدًا بسخط الله. ولا تحقدن أحدًا على فضل الله، ولا تثقن أحدًا على مالم يؤت الله. فإن ررق الله لا يسوقه اليك حرص حرص، ولا يردده عنك كراهية كاره. وإن الله بعذله وقسطه جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في السك والسخط».

والصواب: ان التوكل تمرته وتتيحه. ولهذا حس اقتراح الهدى به. قال الله تعالى (٢٨: ٧٩) فتوكل على الله. انك على الحق المسين) فالحق هو اليقين وقال رسل الله (١٤: ١٢) وما لنا ان لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا؟

ومتى وصل «اليقين» الى القلب امتلاً بوراً واشراقاً. وانقى عنه كل ريب وشك وسخط، وهَمَّ وَغَمَّ. فامتلاً بحمة الله، وخوفاً منه ورضى به، وشكراً له، وتوكلاً عليه، واناثة اليه. فهو مادة جميع المقامات والحامل لها.

وقال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا يتقلب ولا يحول، ولا يتغير في القلب. وقال ابوبكر الوراق: اليقين ملاك القلب. وبه كمال الايمان. وباليقين عُرف الله. وبالعقل عقل عن الله.

وقال ابوبكر الوراق: اليقين على ثلاثة اوجه: يقين حر. ويقين دلالة. ويقين مشاهدة. يريد سيقين الخير: سكون القلب الى حر المخير وتوقفه به. ويبين الدلالة: ما هو فوقه. وهو ان يقيم له — مع وثوقه بصدقه — الادلة الدالة على ما أحبره. وهذا كعامة أحبار الايمان والتوحيد والقرآن. فإنه سبحانه — مع كونه أصدق الصادقين — يقيم لعباده الادلة والامثال والرايين على صدق اخباره. فيحصل لهم اليقين من الوجهين: من جهة الخير، ومن جهة الدليل.

فيرتفعون من ذلك الى الدرجة الثالثة. وهي «يقين المكاشفة» بحيث يصير المخبره لقلوبهم كالمرئى لعيونهم. فنسبة الايمان بالغيب حينئذ الى القلب: كسبة المرئى الى العين. قال بعضهم: رأيت الحنة والنار حقيقة. قيل له: وكيف؟ قال: رأيتهما بعيني رسول الله صلى الله عليه وسلم. ورؤيتى لهما بعيني: آثر عندي من رؤيتى لهما بعيني. فان بصري قد يطغى ويزيغ، بخلاف بصره صلى الله عليه وسلم.

واركان علم اليقين: قبول ما ظهر من الحق، وقبول ما غاب، والوقوف على ما قام بالحق. فالاول: قبول ما طهر من الحق تعالى، والذي ظهر منه سبحانه: اوامره ونواهيه وشرعه، ودينه الذي طهر لنا منه على السنة رسله، فنتلقاه بالقبول والانقياد، والادعاء والتسليم للربوبية. والدخول تحت رق العبودية.

الثاني «قبول ما غاب» وهو الايمان بالغيب الذي احبره الحق سبحانه على لسان رسله من امور المعاد وتفصيله، والحنة والنار، وما قبل ذلك: من الصراط والميزان والحساب، وما قبل ذلك: من تشقق السماء وانفطارها، وانتثار الكواكب، وسف الجبال، وظئ العالم. وما قبل ذلك: من أمور البرزخ، ونعيمه وعذابه.

فقبول هذا كله — ايماناً وتصديقاً واثقاً — هو اليقين. بحيث لا يحالُج القلب فيه شبهة. ولا شك ولا تناس، ولا عملة. فإنه ان لم يهلك يقينه أفسده وأضعفه. الثالث «الوقوف على مقام بالحق» سبحانه من أسمائه وصفاته وأفعاله. وهو علم التوحيد، الذى اساسه: اتاب الأسماء والصفات

فاليقين هو الوقوف على ما قام بالحق من أسمائه وصفاته . زينت كنه الله ، وتوحيده . وهذه الثلاثة أشرف علوم الخلاق : علم الامر والهي ، وعلم الاسماء والصفات والتوحيد ، وعلم المعاد واليوم الآخر . والله أعلم .

● مقام الأئس بالقرآن

ومن قوي يقينه : حصل له من الأئس بالقرآن ما لا يحصل للضعيف .
كما ان الأئس ثمرة الطاعة والمحبة ، فكل مطيع مستأس ، وكل عاص مستوحش .
فالسالك اذا كان محباً صادقاً طالباً لله ، عاملاً على مرضاته : كان غذاؤه بالسماع القرآني ،
الذي كان غذاؤه سادات العارفين من هذه الامة ، وأبرها قلوباً ، وأصحها أحوالاً . وهم الصحابة
رضى الله عنهم .

وهذا السماع القرآني سماع اهل المعرفة بالله ، والاستقامة على صراطه المستقيم . ويحصل
للأذهان الصافية منه معان وإشارات ، ومعارف وعلوم . تتدنى بها القلوب المشرقة بنور الأئس .
فيجد لها لذة روحانية . يصل نعيمها الى القلوب والارواح . وربما فاض حتى وصل الى
الاجسام . فيجد من اللذة ما لم يعمد مثله من اللذات الحسية .

فاذا تجردت الروح وكانت مستعدة . وباشر القلب روح المعنى . واقبل بكلية على
المسموع . فالتقى السمع وهو شهيد . وساعده طيب صوت القارئ : كاد القلب يفارق هذا
العالم . ويلج عالم آخر . ويجد له لذة وحالة لا يعدها في شيء غيره البتة . وذلك رقيقة من حال
اهل الجنة في الجنة .

فياله من غذاؤه ما أصلحه وما انقده .

وحرام على قلب قد تربى على عداء السماع الشيطاني : ان يجد شيئاً من ذلك في سماع
القرآن .

وليس في نعيم اهل الجنة اعلى من رؤيتهم وجه الله محبوبهم سبحانه وتعالى عباداً ، وسماع
كلامه منه .

والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة . فاذا امتلأ من محبة الله وسمع كلام محبوه
— اي مصاحبته وحضره في قلبه — فله من سماعه هذا شأن . ولغيره شأن آخر . والله اعلم .

● القلب الحى آلة السمع

والناس في السماع على ثلاثة أقسام:
أحدها: من اتصف قلبه بصفات نفسه. بحيث صار قلبه نفساً محصه. فعلمت عليه آفات الشهوات، ودعوات الهوى. فهذا حظه من السماع: كحط الهائم. لا يسمع الا دعاء وبداء. والفرق الذي بينها وبينه: غير طائل.

الفسم الثاني: من اتصف نفسه بصفات قلبه. فصارت نفسه قلباً محصاً. فعلمت عليه المعرفة والمحبة، والعقل واللب. وعشق صفات الكمال. فاستارت نفسه بنور القلب. واطمأنت الى ربها. وقرت عينها بعبوديته. وصار نعيمها في حبه وقره. فهذا حظه من السماع مثل — او قريب — من حظ الملائكة. وسماعه عذاء قلبه وروحه، وقره عيه ونعيمه من الدنيا، ورياضه التي يسرح فيها. وحياته التي بها قوامه.

الفسم الثالث: من له منزلة بن منزلتين. وقلبه ناق على فطرته الاولى. ولكن ماتصرف في نفسه تصرفاً احالها اليه. وارال به رسومها. وجلاعه ظلمتها. ولاقوت النفس على القلب باحالة اليها. وتصرفت فيه تصرفاً أرالت عنه نوره وصحته وفطرته.

فبين القلب والفسس مارالات ووقائع، والحرب بينهما دول وسجالات، تدال الفسس عليه تارة، ويدال عليها تارة.

فهذا حظه من السماع: حظ بين الخطيئ، ونصيبه منه بين النصيبين. فإن صادفه وقت دولة القلب: كان حظّه منه قوياً. وان صادفه وقت دولة النفس: كان ضعيفاً.

ومن ههنا يقع التفاوت في الفقه عن الله. والفهم عنه. والابتهاج والنعيم بسماع كلامه. وصاحب هذه الحال — في حال سماعه — يتشغل القلب بالحرب بينه وبين النفس، فيفوته من روح السموع ونعيمه ولذته بحسب اشتغاله عنه بالمحاربة. ولا سبيل له الى حصول ذلك تمامه، حتى تصع الحرب اورارها. وربما صادفه في حال السماع وارد حق، او الظفر بمعنى بديع لا يقدر فكره على صيده كل وقت. فيعيب به ويستعرق فيه عما يأتي بعده. فيعجز عن صيد تلك المعاسي. ويدهشته ازدحامها. فيبقى قلبه باهتاً. كما يحكي ان بعض العرب: ارسل صائداً له على صيد. فحرج الصيد عليه من امامه وحلمه، وعن يمينه وعن شماله، فوقف هاتفاً يطرع بيناً وسمالاً. ولم يصطد شيئاً. فقال:

تكاثرت الظاء على خراش فما يدري حراش ما يصيد

فوطيتمته في مثل هذا الحال: أن يعلق قلبه بالمتكلم. وكأنه يسمع كلامه منه. ويجعل قلبه نهراً لحريانه معانيه و يمرعه من سوى فهم المراد. و يصب اليه انصباباً يتلقى فيه معانيه،

كتلقتي المحب للاحباب القادمين عليه. لا يشغله حبيب منهم عن حبيب. بل يعطيني كل قادم حقه. وكتلقتي الضيوف والزوار. وهذا انما يكون مع سعة القلب، وقوة الاستعداد، وكمال الحضور.

فإذا سمع خطاب الترغيب والتشويق، واللفظ والاحسان: لا يفنى به عما يجيء بعده من خطاب التخويف والترهيب والعدل. بل يسمع الخطاب الثاني مستصحباً لحكم الخطاب الأول وعزج هذا بهذا. ويسير بهما ومعهما جميعاً، عاكفاً بقلبه على المتكلم وصفاته سبحانه. وهذا سير في الله. وهونوع أحرأعلى وأرفع من مجرد السير اليه. ولا ينقطع بذلك سيره اليه. بل يدرج سيره. فإن سير القلب في معاني اسمائه وصفاته وتوحيده ومعرفته.

ومتى بقيت للقلب في ذلك ملكة، واشتد تعلقه به: لم تحجبه معاني المسموع، وصفات المتكلم بعضها عن بعض، ولكن في الابتداء يعسر عليه ذلك. وفي التوسط يهون عليه، ولا انتهاء ههنا ألبته.

وذلك: لأن هذا الانس المذكور يكون مبدؤه الكشف عن اسماء الصفات التي يحصل عنها الانس. ويتعلق بها. كاسم «الجميل، والبر واللطيف، والودود، والخليم، والرحيم» ونحوها. ثم يقوى التعلق بها حتى يكون معه طيب الحياة، وقرّة العين، ولذة القلب، وبهجة الروح، مع كمال العافية بلا عمة، والهداية بلا فتنة، فتخف اعاء المسير، ويزول كل فتور، ويظل القلب في اريداد من معاني الخير دائماً.

(٤٠) مَنْزِلَةُ الذِّكْرِ

ومن منازل «إياك نعد وإياك نستعين» منزله «الذكر»
وهي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزودون. وفيها يتجرون. وإليها دائماً يترددون.
و «الذكر» منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل. وهو قوت قلوب القوم،
الذي متى هـ رقيها صارت الأحساد لها قبوراً. وعمارة ديارهم. التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً.
وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق. وماؤهم الذي يطننون به التهاب الحريق.
ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب. والسبب الواصل، والعلاقة التي
كانت بينهم وبين علام الغيوب.
به يستدعون الآفات، ويستكتفون الكربات. وتهون عليهم به المصيبات. إذا أظلم
السلا. فإليه ملجؤهم. وإذا رلت بهم النوارل. فإليه مفرعهم. فهو رياض جنتهم التي فيها
يتقلسون. ويؤوس أموال سعادتهم التي بها يتحرون. يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً.
ويوصل الذكر إلى المذكور بل يدع الذكر مذكوراً.
وي كس جارية من الجوارح عبودية مؤقتة. و«الذكر» عبودية القلب واللسان وهي غير
مؤقتة. بل هم يأمرهم مذكر معبودهم ومحوبهم في كمال حال: قياماً، وعل جنبوهم. فالقلوب بور
حراب. وهو عمارتها، وأساسها.
وهو حلاء القلوب وصقلها. ودواؤها إذا غشيها اعتلاها. وكلما ازداد الذاكر في ذكره
استمراقاً: 'ردد المذكور حجة إلى لفاته واستيقاً. وإذا واطأ قلبه للسانه في ذكره: سقى في جنب
ذكره كل شيء. وحفظ الله عليه كل شيء وكان له عوضاً من كل شيء.
به يروى 'نور عن الأسماع، والكم عن الألسن، وتفتح الظلمة عن الأبصار.
ريس الله به ألسنة الذاكرين. كما زين بالور أنصار الناطرين. واللسان الغافل: كالعين
العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.
وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يعلقه العبد بفقلته.
قال الحسن البصري رحمه الله: تعقدوا الخلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة. وفي الذكر.
وقراءة القرآن. فإن وحدتم . . . وإلا فاعلموا أن الباب معلق.

وبالذكر يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل العيلة والسيان.
وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا حلا العمل عن الذكر كان كالحسد الذي لا روح فيه.
الله أعلم.

وهو القرآن على عشرة أوجه.

الأول: الأمر به مطلقاً ومقيداً.

الثاني: النهي عن صده من العفلة والسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: التناء على أهله، والإختبار بما أعدّ الله لهم من الجنة والمعرة.

الخامس: الإخبار عن حسران من لما عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع: الإخبار أنه أكرم من كل شيء.

الثامن: أنه جملة حائقة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الاتصاف بآياته. وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاسر: أنه جملة قرين جميع الأعدال الصالحة وروحها. فمتى خدمته كانت كالحسد بلا

روح.

أما قوله تعالى (٣٣: ٤١) — ٤٤ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً.
و- جـءه بكرة وأصيلاً * هو الذي يصلي عليكم وملائكته. ليخرجكم من الظلمات إلى
النور. وكان بالمؤمنين رحيماً) وقوله تعالى (٧: ٢٠٤) واذكروا ربك في نفسك تضرعاً وحيفة).

وفي رولان. أحدهما: في شرك وقلبك. والثاني: لسانك بحيث تسمع نفسك

وأما النهي عن صده: فكقوله (٧: ٢٠٤) ولا تكن من الغافلين) وقوله (٥٩: ١٩) ولا

تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم).

وأما تعليق الفلاح سالا كتنار منه: فكقوله (٨: ٤٥، ٦٢: ١٠) واذكروا الله كثيراً

لعلكم تفلحون).

وأما التناء على أهله، وحسر حرائيم: فكقوله (٣٣: ٣٥) إن المسلمين والمسلمات — إلى

قوله — والذاكرين الله كثيراً والذاكرات: أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً).

وأما حسران من لما عنه، فكقوله تعالى (٦٣: ٩) يا أيها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا

أولادكم عن ذكر الله. ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون).

وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله (٢: ١٥٢) فاذكروني أذكركم.

واشكروا لي ولا تكفرون).

وأما الإحار عنه بأنه أكبر من كل شيء فكقوله تعالى (٢٩: ٤٥) أَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ. إن الصلاة تهى عن الفحشاء والمنكر. ولذكر الله أكبر وفيها أربعة أقوال.

أحدها: ذكر الله أكبر من كل شيء. فهو أفضل الطاعات. لأن المصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره. فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم. فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل. وعلى الأول. مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومسكر. بل إذا تَمَّ الذكر: تَحَقَّقَ كل خطيئة ومعصية. هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول. معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين.

إحدهما: نهىها عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتغالها على ذكر الله وتضمنها له. ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهىها عن الفحشاء والمنكر.

ولعل في الآية معنى آخر: أن الصلاة هي أكبر الذكر. فقد قال الله تعالى (٢٠: ١٤) أَقِمِ الصَّلَاةَ لَذِكْرِي) وهي أكبر وأقوى وأشد ناه عن الفحشاء والمنكر.

وأما حتم الأعمال الصالحة به. فكما حتم به عمل الصياء بقوله (٢: ١٨٥) وَلِتُكْمِلُوا الْعِبَادَةَ. ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون).

وحتم الحج في قوله (٢: ٢٠٠) فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا).

وختم به الصلاة كقوله (٤: ١٠٣) فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ).

وختم به الجمعة كقوله (٦٢: ١٠) فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ. وانتفوا من فصل الله، وادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ولهذا كان حامة الحياة الدنيا. وإذا كان آخر كلام العبد: أدخله الله الجنة.

وأما اختصاص الداكرين بالاستغفار بآياته. وهم أولو الألباب والعقول. فكقوله تعالى (٣: ١٩٠، ١٩١) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ. الذين يدْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ).

وأما مصباحته لجميع الأعمال. واقتراه بها، وأنه روحها فإنه سبحانه قرنه بالصلاة
كقوله (٢٠: ١٤) وأقم الصلاة لذكري) وقرنه بالصيام وبالْحج ومناسكته. بل هوروج
الحج، ولبنة ومقصوده. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إنما جعل الطواف بالبيت
والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار: لإقامة ذكر الله».
وقرنه بالجهاد. وأمر بذكره عند ملاقاتة الأقران، ومكافحة الأعداء. فقال تعالى (٨):
ه يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله لعلكم تفلحون).

• الذاكرون سابقون

والذاكرون: هم أهل السبق، كما روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء عن أبيه عن
أبي هريرة رضى الله عنه قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في طريق مكة.
فمر على جبل يقال له جُحْدَان فقال: سيروا. هذا جُدَان. سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ. قالوا: وما
المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».
(والمفردون) إما الموحدون. وإما الآحاد الفرادى.

وفى المسند — مرفوعاً — من حديث أبي الدراء رضى الله عنه «ألا أنبئكم بخير أعمالكم،
وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة، وأن
تلقوا عدوكم. فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟
قال: ذكر الله عز وجل».

وروى شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت الأغر قال أشهد على أبي هريرة وأبى سعيد
رضى الله عنهما. أنهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا يقعد قوم يذكرون
الله إلا حَقَّتْ لَهُم الملائكة. وغشيتهم الرحمة. ونزلت عليهم السكينة. وذكروهم الله فيمن
عنده» وهو فى صحيح مسلم.

ويكى فى شرف الذكر: أن الله يباهى ملائكته بأهله. كما فى صحيح مسلم عن معاوية
رضى الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «خرج على حلقة من أصحابه. فقال: ما
أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. ونحمده على ما هدانا للإسلام. ومَنَّ علينا، قال: ما
أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: أما إنى لم أستحلفكم تهمة
لكم، ولكن أتأبى جبريل، فأخبرنى: أن الله يباهى بكم الملائكة».
وسئل أعرابى رسول الله صلى الله عليه وسلم «أى الأعمال أفضل؟ فقال: أن تفارق
الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله».

وقال له رجل (إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فعزني بأمر أتثبت به، فقال: لا يزال لسانك رطاً من ذكر الله».

وفي المسند وغيره من حديث جابر، قال «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أيها الناس، ارتعوا في رياض الجنة، قلنا: يا رسول الله: وما رياض الجنة؟ فقال: مجالس الذكر».

وقال «اغدوا وروحوا واذكروا، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله: فليظر كيف منزلته الله عنده؟ فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه».

وروى السيوطي عن النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه إبراهيم صلى الله عليه وسلم — ليلة الإسراء — أنه قال له «أفريء أمتك مني السلام، وأحبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غرسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» رواه الترمذي وأحمد وغيرهما.

وفي «الصحاح» من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره: مثل الحى والميت»
وسنفظ مسلم «مثل البيت الذى يذكر الله فيه، والبيت الذى لا يذكر الله فيه: مثل الحى والميت».

فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحى، وبيت العاقل بمنزلة بيت الميت، وهو القبر.
وفي «سنن» الأول: جعل الذاكر بمنزلة الحى فى بيوت الأحياء، والعاقل كاليت فى بيوت الأموات، ولا ريب أن أبدال العاقلين قبور لقنبرهم، وقلوبهم فيه كأموات فى القبور، كما قيل:

فسيان ذكر الله موت قلوبهم وأحسامهم قبل القبور

وأرواحهم فى وحشة من جوسمهم وليس لهم حتى قبور

وفي «صحاح»: فى الأثر الذى يرويه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خيرهم».

وقد ذكرنا فى الذكر بحومائة فائدة فى كتابنا (الوالب الصب) ربع كنه الطيب) وذكرنا هناك أسرار الذكر، وعظم نفعه، وطيب تمرته، وذكرنا فيه أن الذكر ثلاثة أنواع.

ذكر لأسماء وصفات ومعانيها، والثناء على الله بها، وتوحيد الله بها.

وذكر الأمر والسهى، والحلال والحرام، وذكر الآلاء والنعماء، وإحسان والآذى وأبه ثلاثة أنواع أيضاً: ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان، وهو أعلاها، وذكر لا تقل وحده، وهو سدرية نشية، وذكر باللسان المحرد، وهو فى الدرجة الثالثة

وذكر العبد لربه مخفوف بذكرين من ربه له: ذكر قلبه. به صار العبد ذا كراً له. وذكر بعده. به صار العبد مذكوراً. كما قال تعالى «٢: ١٥٢ فاذكروني أذكركم» وقال — فيما يروى عنه نبيه صلى الله عليه وسلم — «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

• انواع الذكر

وانواع الذكر ثلاثة: ثناء، ودعاء، ورعاية.

فأما ذكر الثناء: فنحو «سبحان الله. والحمد لله. ولا إله إلا الله. والله أكبر»

وأما ذكر الدعاء فنحو «٧: ٢٣ رنا ظلمنا أنفسنا. وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» و «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث» ونحو ذلك.

وأما ذكر الرعاية: فمثل قول الذاكر: الله معي. الله ناظر إلى. الله شاهدي وبحود ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله. وفيه رعاية لمصلحة القلب، ولحفظ الأدب مع الله، والتحرر من الغفلة، والاعتصام من الشيطان والنفس.

والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة. فإنها متضمنة للثناء على الله، والتعرض للدعاء والسؤال، والتصريح به. كما في الحديث «أفضل الدعاء الحمد لله» قيل لسفيان بن عيينة: كيف جعلها دعاء؟ قال: أما سمعت قول أمية ابن الصلت لعبد الله بن جعدان يرحوناه: أذكر حاحتي، أم قد كفاني جياؤك؟ إن شيمتك الحياء إذ أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء فهذا مخلوق. واكتفى من مخلوق بالثناء عليه من سؤاله، فكيف برب العالمين؟

والأذكار النبوية متضمنة أيضاً لكمال الرعاية، ومصلحة القلب، والتحرر من الغفلات، والاعتصام من الوسواس والشيطان، وفيها تعليم القلب مناجاة الرب، تلقاً تارة، وتضرعاً تارة، وثناء تارة، واستعظاماً تارة، وغير ذلك من انواع المناجاة بالرب والقلب.

١١) مَنْزِلَةُ الْيَقِينِ

ومن منازل «اياك نعد واياك نستعين» منزلة «الفقر»
هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم، وأعلاها وأرفعها، بل هي روح كل منزلة
رها وغايتها.
وهذا لما يعرف معرفة حقيقة «الفقر» والذي تريد به هذه الطائفة أخص من معناه الأصلي.
لن لعل «الفقر» وقع في القرآن في مواضع.
أحده: قوله تعالى (٢٧٣: ٢) للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله. لا يستطيعون ضرباً
في الأرض، يحبسهم الجاهل أعياء من التعفف — الآية) أي الصدقات هؤلاء. كان فقراء
المهاجرين بحر أرعمائة. لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشاير. وكانوا قد حسوا أنفسهم
على الجهاد في سبيل الله. فكانوا وقفوا على كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وهم أهل الصفة. هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله.
وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله. وقيل: حبسهم الفقر والغنى عن الجهاد في سبيل
الله.
وقيل: لما عادوا أعداء الله وحاهدوهم في الله تعالى أحصروا عن الصبر في الأرض لطلب
المعاش. فلا يستطيعون ضرباً في الأرض.
و صحيح أنهم - لمفرهم وعجزهم وصعبتهم - لا يستطيعون ضرباً في الأرض، ولكمال
عفتهم وصيانتهم يحبسهم من لم يعرف حالهم أعياء.

ومنها: قوله تعالى (٩: ٦١) إنما الصدقات للفقراء — الآية).
ومنها: قوله تعالى (٣٥: ١٥) يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله).
فأصنف الأول: خواص الفقراء. والثاني: فقراء المسلمين حاصهم وعامهم. والثالث:
الفقر العام لأهل الأرض كلهم: غنيهم وفقيرهم، مؤمنهم وكافرهم.
فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى: يقابلهم أصحاب الحدة، ومن ليس محصراً في سبيل
الله، ومن لا يكتفه فقره تعمداً. بمقابلهم أكثر من مقابل الصف الثاني.

والصنف الثاني: يتقابلهم الأغنياء أهل الجدة. ويدخل فيهم المتعفف وغيره. والمحصري سبل الله وغيره.

والصنف الثالث: لامقابل هم. بل الله وحده العني. وكل من سواه فقير إليه. ومراد القوم بالفقر: شيء أخص من هذا كله. وهو تحقيق العبودية. والافتقار إلى الله تعالى في كل حالة.

وهذا المعنى أجل من أن يسمى فقراً. بل هو حقيقة العبودية ولُثها. وعزُّ النفس عن مراحة الربوبية.

وحقيقة «الفقر» وكماله كما قال بعضهم — وقد سئل: متى يستحق الفقير اسم «الفقر»؟ — فقال: إذا لم يبق عليه بقية منه. فقليل له: وكيف ذلك؟ فقال: إذا كان له فليس له. وإذا لم يكن له فهو له.

وهذه من أحسن العبارات عن معنى «الفقر» الذي يشير إليه القوم. وهو أن يصير كله لله عز وحل. لا يسقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه. فمتى بقى عليه شيء من أحكام نفسه فقره مدحول.

ثم فسر ذلك بقوله «إذا كان له فليس له» أي إذا كان لنفسه فليس لله. وإذا لم يكن لنفسه فهو لله.

فحقيقة «الفقر» أن لا تكون لنفسك. ولا يكون لها منك شيء، بحيث تكون كملك لله. وإذا كنت لنفسك قثم ملك واستغناء ماف للفقر.

وهذا «الفقر» الذي يشيرون إليه: لا تنافيه الجدة ولا الأملاك. فقد كان رسل الله وأنبياءه في ذروته مع جدتهم، وملكهم، كإبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم كان أباً الضيفان. وكاست له الأموال والمواشي. وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام. وكذلك كان نبينا صلى الله عليه وسلم، كان كما قال الله تعالى (٨:٩٣) ووجدك عائلاً فأغنى مكاناً أغنياء في فقرهم. فقراء في غناهم.

فالفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد — في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة — فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه.

فالفقر ذاتي للعبد. وإنما يتجدد له لشهوده وجوده حالاً، وإلا فهو حقيقة. كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية. قدس الله روحه:

والفقر لى وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب أكثر إشارات القوم إليها. كقول بعضهم: أركان الفقر أربعة: علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه.

ومثل سهل بن عبد الله: متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه.

وقال أبو حفص: أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله: دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال. وملازمة الستة في جميع الأنعام، وطلب القوت من وجه حلال.

و«الفقر» له بداية ونهاية. وظاهر وباطن، فبدايته: الذل، ونهايته: العز. وظاهره: الخدم. وباطنه: العس. كما قال رجل لآخر: فقر وذل؟ فقال: لا، بل فقر وعز.

وإذا عرفت معنى «المقر» علمت أنه عين الغنى بالله. فلا معنى لسؤال من سأل: أي الخاتين يكمل؟ الافتقار إلى الله، أم الاستعانة به؟.

فهذه مسألة غير صحيحة. فإن الاستعانة به هو عين الافتقار إليه.

ومثل عن ذلك محمد بن عبد الله الفرعاني؟ فقال: إذا صح الافتقار إلى الله تعالى فقد صح الاستغناء بالله، وإذا صح الاستغناء بالله كمل الغنى به. فلا يقال أيهما أفضل: الافتقار أم الاستغناء؟ لأيهما حالتان لا تتم أحدهما إلا بالأخرى.

ونما كلامهم في مسألة «الفقر الصابر، والغني الشاكر» وترجيح أحدهما على صاحبه. فمعند أهل التحقيق والمعرفة: أن التفصيل لا يرجع إلى ذات الفقر والعس. وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق، فإن التفصيل عند الله تعالى بالتقوى، وحقائق الإيمان. لا بفقر ولا بعس. كما قال تعالى (١٣: ٤٩) إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ولم يقل أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — والفقر والغنى ابتلاء من الله لعبده. كما قال تعالى (١٦: ٨٩، ١٧) فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه، فيقول: ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه. فيقول: ربي أهانن * كلا أي ليس كل من شعث عليه وأعطيته: أكون قد أكرمته، ولا كل من ضيق عليه وقُترت: يكون قد أهنته، فالإكرام: أن يكرم الله العبد بطاعته، والإيمان به، ومحبة معرفته. والإهانة: أن يسله ذلك.

قال — يعني ابن تيمية — ولا يقع التفاضل بالفقر والغنى، بل بالتقوى، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة. سمعته يقول ذلك.

وتذكروا هذه المسألة عند يحيى بن معاذ. فقال: لا يوزن عدأ الفقر ولا الغنى، وإنما يوزن الصبر والشكر.

• مبدأ الفقر : التفويض

وأول قدم الفقر: الخروج عن النفس. وتسليمها لمالكها ومولاها. فلا يخاصم لها. ولا يتوكل لها. ولا يحاج عنها ولا يتصر لها، بل يفوض ذلك لمالكها وسيدها.
قال بدار بن الحسين: لا تخاصم لنفسك. فإنها ليس لك. دعها لمالكها يفعل بها ما يريد.

• تعطيم الاصنام

ومن لوازم ذلك: قسّ اليد عن الدنيا صطاً أو طلاً. وإسكات اللسان عنها مدحاً.
• والسلامة منها طلاً أو تركاً.

و«الدنيا» عند القوم: ماسوى الله تعالى — من المال والجاه، والصور، والمراتب —.
ولما كان لها تعلق بالحوارج والقلب واللسان، كان حفيظة الفقر: تعطيل هذه الثلاثة عن تعلقها بها وسلبها منها. فإذا قسّ يده عن الامساك حاد بها. وإن كانت غير حاصلة له كُفّ يده عن طلبها. فلا يطلب معدومها. ولا يحل موجودها.
وأما «تعطيلها عن اللسان».

فهو أن لا يمدحها. فإن استعاله بمدحها دليل على محتها ورعبته فيها. فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

وكما يطالب الفقير بالسلامة من آفات ظنّها، فإنه يطالب سلامة أخرى من آفات تركها، فإن لتركها آفات. ولطلبها آفات. والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك. بحيث لا يحجب عن ربه بوجه من الوجوه الطاهرة والباطنة. لاي طلبها وأخذها ولا في تركها والرغبة عنها.

فإن قلت: عرفت الآفة في أخذها وطلبها. فما وجه الآفة في تركها والرغبة عنها؟
قلت: من وجوه شتى.

أحدها: أنه إذا تركها — وهو بشر لا مَلَك — تعلق قلبه بما يقيمه ويُقيته ويُعِيشه. وما هو محتاج اليه. فيبقي في عاهدة شديدة مع نفسه. لترك معلومها وحطها من الدنيا. وهذه قلة فقه في الطريق، بل العمية العارف: يردّها عنه بلقمة. كما يرد الكلب إذا نبج عليه بكسرة. ولا يقطع زمانه بمحاهدته ومدافعتة، بل أعطها حطها، وطالها عما عليها من الحق.

والفرق بين الحال والمقام: أن «الحال» معنى يرد على القلب من غير اجتلاب له، ولا اكتساب، ولا تعمد. و«المقام» يتوصل إليه بنوع كسب وطلب. فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب. فالمقام يحصل بذل المجهود. وأما الحال: فمن عين الجود.

وسئل اصحاب ابي عثمان الجيري: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمر بالترام الطاعات، ورؤية التقصير فيها.

وتلك هي الحنيفية المحضة، فانه اذا بذل الطاعة لله و بالله: صانه ذلك عن الشرك، و اذا شهد تقصيره فيها: صانه عن الاعجاب، فيكون قائما بإياك عبد وإياك نستعين. وأبو عثمان هذا: هو سعيد بن اسماعيل النيسابوري من جلة شيوخ القوم وعارفيهم. وكان يقال: في الدنيا ثلاثة، لارابع لهم: أبو عثمان النيسابوري نيسابور، والحنيد ببغداد، وأنو عبد الله ابن الخلا لتمام. وله كلام رفيع عال، وكان شديد الوصية باتباع السنة، وتحكيمها ولرومها. ولما حضرته الوفاة مرق ابنه قميصا على نفسه. ففتح أبو عثمان عينيه، وهو في السياق. فقال: ياسى خلاف السنة في الظاهر، علامة رياء في الباطن.

● الفقرا غنى العلى

ومن افتقر الى الله تعالى: اغتنى
والغنى نوعان: غنى بالله، وغنى عن غير الله، وهما حقيقة الفقر.
واستدل الهروي له بقول الله تعالى (٨:٩٣) ووحده عائلأ فأغنى)،
وفي الآية ثلاثة أقوال.
أحدها: أنه أغناه من المال بعد فقره: وهذا قول أكثر المفسرين. لأنه قابله بقوله «عزلا»
والعائل: هو المحتاج. ليس ذا العيلة. فأغناه من المال.
والشامي. أنه أرضاه بما أعطاه. وأغناه به عن سواء. بهوعى قلب ونفس، لاغنى مال. وهو حقيقة الغنى.
والثالث: — وهو الصحيح — أنه يعم النوعين: نوعى الغنى، فأغنى قلبه به. وأغناه من المال.
ويكمل غنى القلب بغنى آخر، هو: عنى النفس. وآيته: سلامتها من الحفظوظ، وبراءتها من المراءاة.
ومعلوم: أن أمور القلب أكمل وأقوى من أمور النفس. لكن في هذا الترتيب نكتة لطيفة.

وهى أن النفس من جنة القلب ورعيته. وهى من أشد جنده خلافاً عليه، وشقاقاً له. ومن قيلها تتشوش عليه أُممكتة. ويدخل عليه الداخل. فإذا حصل له كمالٌ بالنعى: لم يتم له إلا بغناها أيضاً. فإنها متى كانت فقيرة عاد حكم فقرها عليه. وتشوش عليه غناه. فكان غناها تماماً لغناه وكمالاً له. وغناه أصلاً بغناها. فمنه يصل النعى إليها. ومنها يصل الفقر والضرر والفتنة إليه. إذا عرفت هذا فاعلم أن عناها بتينين:

الاول: «سلامتها من الخطوط» وهى تعلقاتها الظاهرة والباطنة عما سوى الله. الثاني: «برءتها من المراءاة» وهى إرادة غير الله بنىء من أعمالها وأقوالها. فمراءاتها دليل على شدة فقرها. وتعلقها بالخطوط من فقرها أيضاً.

٤٢) مَنْزِلَةُ الْجَنَابَةِ

ومن منازل «اياك نعد واياك نستعين» منزلة «الاجتناء».

فان المؤمن متى بلغ دروة الايمان: احتساء الله واصطفاه وحذبه اليه.
وقد استبد الايباء عليهم السلام بهذه المنزلة، وكادوا ان يمتكروها، وشغلوا محلها وفناءها،
إلا حثراً اخلاها الله تعالى ووقفه وادخره، ليهبه ثلة من المؤمنين في كل حيل يصدقونه الحب،
فيحجم، ويريدونه، فيريدهم.

فمن اجتساء الانبياء: ان الله سبحانه القى الى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم كتابه،
وحضه بكرامته، وأثله لرسالته ونوته، من غير ان يكون ذلك منه على رحاء، او ناله بكسب، او
توسل اليه بعمل، بل هو أمر أريد به، كما قال الله تعالى (٢٨: ٨٦) وما كنت ترجوان يلقى
اليك الكتاب، الا رحمة من ربك).

ومها انه اصطفى موسى واستخلصه لنفسه. وجعله حالاً له من عرسب كان من موسى،
ولا وسيلة. فثنه خرج ليقنق النار. فرجع وهو كلیم الواحد القهار. وأكرم الخلق عليه، ابتداء
منه سبحانه. من غير سائقة استحقاق، ولا تقدم وسيلة. وفي مثل هذا قيل:

أيها العبد، كن لما لست ترجو من صلاح أرخى لما أنت راج
إن موسى أتى ليقنق ناراً من صياء رآه والليل داح
فانتنى راحعاً، وقد كلمه الله، وباجاه وهو حير مساج

فأخذ من نفسه، واصطنعه لنفسه، واختاره من بين العالمين، وحضه بكلامه.

والانبياء عليهم السلام يتفاوتون في ذلك تفاوت اتباعهم.

فمن ذلك قصة موسى صلى الله عليه وسلم، حين ألقى الألواح - وفيها كلام الله - عن
رأسه. وكسرها، وخرّ بلحية أخيه. وهونى مثله، ولم يعاتبه الله على ذلك؛ كما عتب على آدم
عليه السلام في أكل لقمة من الشجرة.

وأما غير الانبياء، فمن انواع الاجتناء لهم: ان يعصم الله عبده وهو مستشرف للجمعاء،
اضطراً، بتغيب التهوات، وتعين الملاذ، وسد مسالك العطب عليه إكراهاً.

وذلك ان العبد الصادق اذا استشرفت نفسه للجفاء بينه وبين الله تعالى موافقة شهواته، في لحظة غفلة: عصمه الله اضطراراً، بأن ينغص عليه الشهوات، فلا تصفوه البتة، بل لا يزال معها إلا مشروباً بأنواع التعصيص، الذي ربما اربى على لذتها واستهلكها، بحيث تكون اللذة في جنب التسفيص كالحلقة والغفوة، ليكرهها. وكذلك يعوق الملاذ عليه بأن يحول بينه وبينها، حتى لا يركب اليها، ولا يطمش اليها ويساكنها، فيحول بينه وبين اسبابها.

● محمد الكامل صلى الله عليه وسلم

وأكمل من احتواه الله تعالى من الآيات عليهم السلام: محمد صلى الله عليه وسلم. فموسى عليه السلام: كان في مظهر الحلال، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر، وكان من أعظم خلق الله هبة وقاراً، وأشدّهم بأساً وغيظاً لله، ويطشاً بأعداء الله.

وعيسى صلى الله عليه وسلم: كان في مظهر الجمال. وكانت شريعته شريعة فصل واحسان. وكان لا يقاتل، ولا يجارب. وليس في شريعته قتال ألتة. والمصارى يحرم عليهم دينهم القتال. وهم به عصاة لترعه. فإن الانجيل يأمرهم فيه: أن «من لطمك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر. ومن نازعك توبك. فأعطه رداءك. ومن سحرك ميلاً، فأمش معه ميلين» ونحو هذا.

أما نبينا صلى الله عليه وسلم. فكان في مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والتبذة في الله. وهذا اللب والرفقة والرحمة. وشريعته أكمل الشرائع. فهو نبي الكمال، وشريعته شريعة الكمال. وأتمته أكمل الأمم. وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات. ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجاباً له وفرصاً وبالعقل بدباً إليه واستجاباً. وبالتبذة في موضع التبذة. وباللين في موضع اللين. ووضع السيف موضعه. ووضع البدن موضعه. فذكر الظلم وبجرمه. والعدل ويوجبه. والفضل ويندب إليه في بعض آيات. كقوله تعالى (٢٠: ٤٢) وحزاء سيئة سيئة مثلها) فهذا عدل (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) فهذا فضل (إنه لا يحب الظالمين) فهذا تحريم للظلم. وقوله (١٦: ١٢٦) وإن عاقبتهم فاعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) فهذا إيجاب للعدل، وتحريم للظلم (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) ندد إلى الفصل. وقوله (٢٩: ٢٨٠) فإن تنتم عليكم رؤوس أموالكم. لا تظلمون ولا تظلمون) تحريم للظلم (وإن كان ذو عسرة فقسطره إلى مبصرة) عدل (وإن نصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) فصل

● أمة محمد الكاملة ... خير الامة

وكذلك تحريم ما حرم على أمته صيانة وجمية،
حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع. فتحرره عليهم رحمة، وعن من
قبلهم لم يخل من عقوبة. وهداهم لما صَلَّت عنه الأمم قبلهم. ووهب لهم من علمه وحلمه.
وجعلهم خير أمة أخرجت للناس. وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم. كما كمل
لنبيهم صلى الله عليه وسلم من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله. وكمل في كتابه من المحاسن ما
فرقها في الكتب قبله. وكذلك في شريعته.

فهؤلاء هم المتجنيون الاختيار. كما قال تعالى (٧٨:٢٢) هو اجتباكم. وما جعل عليكم
في الدين من حرج) وجعلهم شهداء على الناس. فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على
أمتهم.

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

(١٣) مَنَزِلُ تَرَاةِ الْحَسَنِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الاحسان»

وهي لب الايمان، وروحه وكماله. وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل. فجميعها منطوية فيها. وكل ما قبل من أول الكتاب الى ههنا فهو من الإحسان.

وقد استشهد على هذه المنزلة بقوله تعالى (٦٠:٥٥) هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)، وبحديث (ان تعبد الله كأنك تراه).

وقال ابن عباس والمفسرون: هل جزاء من قال «لا إله إلا الله» وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة.

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ثم قال «هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟».

وأما الحديث: فإشارة الى كمال الحضور مع الله عز وجل. ومراقبته الجامعة لخشيته، ومحبتة ومعرفته، والإنابة اليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان. قال شيخ الاسلام الهروي:

وأول درجاته: «الإحسان في القصد تهذيبه علماً، وإبرامه عزمًا».

أي أن احسان القصد يكون بشيئين:

أحدهما: تهذيبه علماً، بأن يجعله تابعاً للعلم على مقتضاء مُهَذَا به، مُتَقَي من شوائب الخطوط. فلا يقصد إلا ما يجوز في العلم. و«العلم» هو اتباع الأمر والشرع.

والثاني: إبرامه عزمًا. و«الإبرام» الإحكام والقوة. أي يقاربه عزم يفضيه، ولا يصحبه فتور

وتوان يصعده و يوهنه

● فقه العمل السري

ومن درجاته: الاحسان في الاحوال، وهوان يسترمي به الله من حفظ وصيانة واجتباء، قيسرتها عن الناس ما أمكنه، ثلثا يعلموا بها. ولا يظهرها إلا للحاجة، أو حاجة، أو مصلحة راجحة. فإن في إظهارها بدون ذلك آفات عديدة. مع تعريضها للصوم والسراق والمغيرين والحاسدين.

وأظهار الحال للناس عند الصادقين: حق وعجز. وهومن حظوظ النفس والشيطان. وأهل الصدق والعزم لها أستر، وأكتم من أرباب الكنوز من الأموال لأموالهم.

● مهاجرون أبدا

وأعلى الاحسان: الاحسان في الوقت، وهوان تحمل هجرتك الى الحق سرمداء، إذ كل متوجه الى الله بالصدق والإخلاص، فإنه من المهاجرين اليه. فلا ينبغي أن يتخلف عن هذه الهجرة، بل ينبغي أن يصحبها سرمداء. حتى يلحق بالله عز وجل.

فما هي الساعة . ثم تنقضى ويحمد غيب السير من هوسائر
ولله على كل قلب هجرتان . وهما فرض لازم له على الأنفاس.

هجرة الى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص، والابادة والحب، والخوف والرجاء والعبودية. وهجرة الى رسوله صلى الله عليه وسلم: بالتحكيم له والتفويض، والانقياد لحكمه، وتلقى أحكام الظاهر والباطن من مشكاته. فيكون تعبه به أعظم من تعد الركب بالدليل الماهر في ظلم الليل، ومتاهات الطريق.

فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحُث على رأسه الرماد. وليراجع الإيمان من أصله. فيرجع وراءه ليقبَس نورا، قبل أن يُحال بينه وبينه، ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور. والله المستعان.

(٤٤) مَنْزِلَةُ الْعِلْمِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «العلم».

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه: فسلوكه على غير طريق. وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح. مغلقة عنه أبوابها. وهذا إجماع من شيوخ العارفين. ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم، ونواب إبليس وشُرطه.

قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتضى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم. وقال: من لم يحفظ القرآن و يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: مذهبا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة. وقال أبو حفص رحمه الله: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره. فلا يعد في ديوان الرجال. وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء فهو عيش النفس.

وقال أحمد بن أبي الجوارى رحمه الله: من عمل عملا بلا اتباع سنة، فباطل عمله. وقال أبو عثمان النيسابوري رحمه الله: الصحة مع الله: بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة والصحة مع الرسول صلى الله عليه وسلم: باتباع سنته، ولزوم طاهر العلم. ومع أولياء الله: بالاحترام والخدمة. ومع الأهل: بحسن الخلق. ومع الإخوان: بدوام البشر. مالم يكن إثمًا. ومع الجهاد: بالدعاء لهم والرحمة. زاد غيره: ومع الحفاظين: بإكرامهما واحترامهما، وإملائهما ما يحمدانك عليه. ومع النفس: بالمخالفة. ومع الشيطان: بالعداوة.

وقال أبو عثمان أيضاً: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلًا: نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلًا: نطق بالبدعة. قال الله تعالى (٢٤: ٥٤) وإن تطيعوه تهتدوا).
وقال عمرو بن عثمان المكي: العلم قائد. والخوف سائق. والنفس حرون بين ذلك، جموع خداعة رواغة. فاحذرهما وراعها بسياسة العلم. وسقها بتهديد الخوف: يتم لك ما تريد.

● اخبرنا . . . أول علمونا

وأما الكلمات التي تروى عن بعضهم: من التزهيد في العلم، والاستغناء عنه. كقول من قال «نحن تأخذ علمنا من الحى الذى لا يموت، وأنتم تأخذونه من حى يموت». .
وقول الآخر—وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟— فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق، من يسمع من الخلاق؟

ونحو هذا من الكلمات: فجعل وكلام شيطاني، وإلا فلولا عبد الرزاق وامثاله من رواة الحديث لما وصل الى هذا وامثاله شيء من الاسلام.
ومن أحالك على غير «أخبرنا» و«حدثنا» فقد أحالك: إما على خيال صوفى، أو قياس فلسفى. أو رأى نفسى. فليس بعد القرآن و«أخبرنا» إلا الشبهات، ومن فارق الدليل، ضل عن سواء السبيل. ولا دليل إلى الله والجنة، سوى الكتاب والسنة. وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهى من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم.

و«العلم» خير من «الحال» ، فنفع الحال لا يتعدى صاحبه. ونفع العلم كالغيث يقع على الظراب والآكام ويطون الأودية ومناكب الشجر.
دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة. ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبه. وربما ضاقت عنه.
والعلم هاد والحال الصحيح مهتد به. والعلم تركة الأنبياء وتراثهم. وأهله عصبتهم ووراثهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر. وشفاء الصدور. ورياض العقول. ولذة الأرواح.
وأنس المسترحشين. ودليل المتحيرين. وهو الميزان الذى به توزن الأقوال والأعمال والأحوال.
وهو الحاكم للفرق بين الشك واليقين، والغى والرشاد، والهدى والضلال.
به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحّد، ويحمد ويمجد. وبه اهتدى إليه السالكون. ومن طريقه وصل إليه الواصلون. ومن بابه دخل عليه القاصدون.
به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام. وبه توصل الأرحام وبه تعرف مراضى الحبيب، وبمعرفة ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام، والعمل مأموم. وهو قائد، والعمل تابع. وهو صاحب في الغرة والمحدث في الحلوة، والأيسس في الوحشة. والكاشف عن الشهة. والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزته. والكُف الذي لا صيغة على من آوى إلى حرزه.

- مذاكرته تسبيح. والبحث عنه جهاد. وطلبه قرية. وبذله صدقة. ومدارسته تعدل بالصيام والقيام. والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد رضى الله عنه: الناس إلى العلم أحرج منهم إلى الطعام والشراب. لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين. وحاجته إلى العلم يمدد أنفاسه. وروينا عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة. ونص على ذلك أبو حنيفة رضى الله عنه.

وقال ابن وهب: كنت بين يدي مالك رضى الله عنه. فوصعت ألواحى وقمت أصلى. فقال: ما الذى قمت إليه بأفضل مما قمت عنه. ذكره ابن عبد البر وغيره.

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على أئجل مشهود به وهو «التوحيد» وقرن شهادتهم شهادته وشهادة ملائكته. وفي ضمن ذلك تعديلهم. فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح.

ومن ههنا — والله أعلم — يؤخذ الحديث المعروف «يعمل هذا العلم من كل خلف عدوله. ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل المبطلين».

وهو حجة الله في أرضه. ونوره بين عباد. وقائدهم ودليلهم إلى جنته. ومدنيهم من كرامته. ويكفى في شرفه: أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وأن الملائكة لتصع لهم أجنحتهم، وتظلهم بها.

ولقد رحل كلليم الرحمن موسى بن عمران — عليه الصلاة والسلام — في طلب العلم هو وفتاه، حتى مسهما النصب في سفرهما في طلب العلم. حتى ظفرا بثلاث مسائل. وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المريد منه فقال (٢٠: ١١٤) قل رب زدنى علماً).

• أنواع العلم

والعلم نوعان:

فمنه: علم تجلي، يدرك بالعيان، أو باستفاضة صحيحة، أو صحة تجربة قديمة.

أي أن هذا العلم الجلي ثلاثة أنواع:

أحدها: ما وقع عن عيان. وهو البصر.

والثاني: ما استند إلى السمع. وهو علم الاستفاضة.

والثالث: ما استند إلى العقل. وهو علم التجربة.

فهذه الطرق الثلاثة — وهي السمع، والبصر، والعقل — هي أهم طرق العلم وأبوابه، ولا تنحصر طرق العلم فيها، فإن سائر الحواس توجب العلم، إذ يلحق بها ما يدرك بالباطن، وهي الوجدانيات، وكذا ما يدرك بخبر المخبر الصادق، وإن كان واحدا، وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط، وإن لم يكن عن تجربة.

ثم من المعلم: علم خفي، ينبت في القلوب الطاهرة، من الأبدان الزاكية، بماء الرياضة الخالصة. ويظهر لأهل المهمة العالية، في الأحايين الخالية، والاسماع الصاخية.

وهذا العلم خفي على أهل النوع الأول، وهو المسمى بالمعرفة. فهو ينبت في القلوب الطاهرة من كدر الدنيا والاشتغال بها، وعلاجها التي تعوق الأرواح عن ديار الأفراح. فإن هذه أكدار، وتنفسات في وجه مرآة القلب والروح. فلا تنجلي فيها صور الحقائق كما ينبغي. والنفس تنفس فيها دائما بالرغبة في الدنيا والرغبة من فوتها. فإذا تجليت المرآة بإذهاب هذه الأكدار صفت. وظهرت فيها الحقائق والمعارف.

ولا تحصل هذه القلوب إلا الأبدان الزاكية التي زكت بطاعة الله، ونبتت على أكل الحلال. فمتى خلصت الأبدان من الحرام، وأدناس البشرية، التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة، وظهرت الأنفس من علائق الدنيا: زكت أرض القلب. فقبلت بذر العلوم والمعارف. فإن سقيت — بعد ذلك — بماء الرياضة الشرعية النبوية المحمدية — وهي التي لا تخرج عن علم، ولا تسعد عن واجب. ولا تعطل سنة. أثبتت من كل زوج كريم، من علم وحكمة وفائدة وتعرف. فاجتنت منها صاحبها ومن جالسه أنواع الطُّرف والفوائد، والثمار مختلفة الألوان، والأذواق.

وأما «المهمم العالية» فهي التي لا تقف دون الله عز وجل. ولا تُعَرَّج في سفرها على شيء سواه. وأعلى المهمم: ما تعلق بالعلی الأعلى. وأوسعها: ما تعلق بصلاح العباد. وهي هم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وورثتهم.

و «الاسماع الصاخية» هي التي صحت من تملقها بالباطل واللغو، واصبحت لدعوة الحق ومنادي الايمان.

وان شئت فقل ان هذا العلم الخفي هو الالهام والنهم الخاص الذي هو ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الاتقياء له، كما قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه — وقد سئل: هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس؟ — فقال: «لا، والذي قلّ الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهم يؤتيه الله عبداً في كتابه».

او ان شئت فقل في هذا العلم انه البصيرة، وهي التي تكون نسبة العلوم فيها الى القلب كنسبة الرئي الى البصر، وهذه هي الخفيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة. وهي أعل درجات العلماء. قال تعالى (١٢: ١٠٨) قل هذه سبيلي أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) أى أنا وأتباعي على بصيرة.

وقيل «ومن اتبعني» عطف على المرفوع «بأدعو» أى أنا أدعوا الى الله على بصيرة. ومن اتبعني كذلك يدعوا الى الله على بصيرة.

وعلى القولين فالآية تدل أن أتباعه هم أهل البصائر الداعين الى الله على بصيرة. فمن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة. وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى. او قل: هي «الحكمة».

قال الله تعالى (٢: ٦٩) يؤتي الحكمة من يشاء. ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً كشيراً) وقال تعالى (٤: ١١٣) وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة. وعلمك ما لم تكن تعلم. وكان فضل الله عليك عظيماً) وقال عن المسيح عليه السلام (٣: ٤٨) ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل).

و «الحكمة» في كتاب الله نوعان: مفردة. ومقترنة بالكتاب. فالمفردة: فسرت بالبصيرة، وفسرت بعلم القرآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما «هي علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، وحكمه ومتشابهه. ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه. وأمثاله».

وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه. وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه. وفي رواية أخرى عنه: هي الإصابة في القول والفعل.

وقال النخعي: هي معاني الأشياء وفهمها.

وقال الحسن: الورع في دين الله. كأنه فسرها بشمرتها ومقتضاها.

وأما «الحكمة» المقرونة بالكتاب: فهي السنة. كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة.

وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد، ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل.

وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان. و«الحكمة» حكمتان: علمية، وعملية. فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها، خلقاً وأمرأ. قدراً وشرعاً، والعملية هي وضع الشيء في موضعه. وأساس الحكمة: أن تعلمي كل شيء حقاً، ولا تعدي حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه، فانه لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها شرعاً وقدراً، ولما حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها. ولما أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر — كانت «الحكمة» مراعاة هذه الجهات الثلاثة. بأن تعطى كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره. ولا تتعدى بها حدها فتكون متعدياً مخالفاً للحكمة. ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة. ولا تؤخرها عنه فتؤخرها.

وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً. فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض.

وتعدي الحق: كسقيها فوق حاجتها، بحيث يفرق البذر والزرع و يفسد. وتعجيلها عن وقتها: كحصاده قبل إدراكه وكماله.

فالحكمة إذاً: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي. والله تعالى أورش الحكمة آدم وبنه. فالرجل الكامل: من له إرث كامل من أبيه، ونصف الرجل — كالمرأة — له نصف ميراث. والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى.

وأكمل الخلق في هذا: الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وأكملهم أولو العزم. وأكملهم محمد صل الله عليه وسلم. ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى عليه وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة. كما قال تعالى (٤: ١١٣) وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وقال تعالى (٢: ١٥١) كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا، ويزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون).

فكل نظام الوجود مرتبط بهذه الصفة. وكل خلل في الوجود، وفي العيد فسيبه: الإخلال بها. فأكمل الناس: أوفرهم منها نصيباً. وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال: أقلهم منها ميراثاً.

ولما ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة.

وآفاتهما وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة.

فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول. والله أعلم.

وانما تكمل الحكمة بأن تشهد نظر الله في وعده. وتعرف عدله في حكمه. وتلحظ به في منعه.

أى تعرف «الحكمة» في الوعد والوعيد، وتشهد حكمه في قوله (٤: ٤٠) إن الله لا يظلم متحلاً ذرة. وإن تلك حسنة يضاعفها. ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) فتشهد عدله في وعده، وإحسانه في وعده.

وكذلك تعرف عدله في أحكامه الشرعية، والكونية الجارية على الخلائق. فإنه لا ظلم فيها، ولا حيف ولا جور. وإن أجراها على أيدي الظلمة. فهو أعدل العادلين. ومن جرت على يديه هو الضالم.

وكذلك «تعرف برّه في منعه».

فإنه سبحانه هو الجواد الذى لا ينقص خزائنه الإنفاق، ولا يفيض ما في يمينه سعة عطائه. فما منع من منعه فضله إلا لحكمة كاملة في ذلك. فإنه الجواد الحكيم. وحكمته لا تناقض وجوده. فهو سبحانه لا يضع برّه وفصله إلا في موضعه ووقته. بقدر ما تقتضيه حكمته. ولو بسط الله الرزق لعباده لفسدوا وهلكوا. ولو علم في الكفار خيراً وقبولاً لنعمة الإيمان، وشكراً له عليها، وعجة له واعترافاً بها، لهداهم إلى الإيمان. ولهذا لما قالوا للمؤمنين (٦: ٥٣) أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أجابهم بقوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين؟).

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول: هم الذين يعرفون قدر نعمة الإيمان، ويشكرون الله عليها.

فهو سبحانه ما أعطى إلا بحكمته. ولا منع إلا بحكمته، ولا أضل إلا بحكمته.

(٤٥) فَانْزِلْ الْفَرَسَيْنِ

ومن منازل «إياك تعبد وإياك نستعين» منزلة «الفراسة».

قال الله تعالى (١٥: ٧٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّحِينَ) قال مجاهد رحمه الله: للمتوسمين: وقال ابن عباس رضى الله عنهما: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: للمستكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسة وعبرة وفكرة. وقال تعالى في حق المشاقين (٤٧: ٣٠) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمْرِئُهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَاهِهِمْ. ولتعرفنهم في لَحْنِ الْقَوْلِ) فالأول: قراءة النظر والعمق. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

و «اللحن» ضربان: صواب وخطأ. فلحن الصواب نوعان. أحدهما: الفطنة. ومنه الحديث: «ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض».

والثاني: التعريض والاشارة. وهو قريب من الكناية. ومنه قول الشاعر:

وحديث أله. وهو مما يشتبه السامعون يوزن وزنا

منطق صائب. وتلحن أحيانا وخير الحديث ما كان لحنا

والثالث: فساد المنطق في الإعراب. وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلى خطأ، وإما

إلى معنى خفى لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة التكلم وما في صميمه من كلامه: أقرب من معرفته بسيماء وما في وجهه. فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين بالنظر والسمع. وفي الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله. ثم تلا قوله تعالى (١٥: ٧٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)».

وفراسة المؤمنين صادقة دائما.

وسببها: نوريقذفه الله في قلب عبده. يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب.

وحقيقتها: أنها خاطريهجم على القلب ينفي ما يضاده. يشب على القلب كوثب الأسد على الفريسة. لكن «الفريسة» فعيلة بمعنى مفعولة. وبناء «الفراصة» كبناء الولاية والإمارة والسياسة.

وهذه «الفراصة» على حسب قوة الإيمان. فمن كان أقوى إيماناً فهو أحذ فراصة. وقال عمرو بن نجيذ: كان شاه الكرمانى حاد الفراصة لا يخطيء ويقول: من غص بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بالمراقبة وطاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال: لم تخطيء فراسته. وقال أبو جعفر الحداد: الفراصة أول خاطر بلا معارض، فإن عارضه معارض آخر من جنسه. فهو خاطر وحديث نفس.

وقال المروى: لا يصدق منها إلا فراصة تُجنى من غرس الإيمان. فشبه الإيمان بالغرس، لأنه يزداد وينمو، ويزكو على السقى. ويؤتى أكله كل حين بإذن ربه. وأصله ثابت في الأرض. وفروعه في السماء. فمن غرس الإيمان في أرض قلبه الطيبة الزاكية، وسقى ذلك القِراس بماء الإخلاص والصدق والمتابعة: كان من بعض ثمره الفراصة. وقال ابن مسعود رضى الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف، حيث قال لأمرأته (١٢: ٢١) أكرمي مثواه. عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى (٢٨: ٣٦) استأجره) وأبوبكر في عمر رضى الله عنهما، حيث استخلفه. وفي رواية أخرى: وامرأة فرعون حين قالت (٢٨: ٩) قرة عين لي ولك، لا تقتلوه. عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً).

وكان الصديق رضى الله عنه أعظم الأمة فراصة. وبعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه. ووقائع فراسته مشهورة. فإنه ما قال لشيء «أظنه كذا» إلا كان كما قال. ويكفى في فراسته: موافقته ربه في المواضع المعروفة، مما كان في شأن اسرى بدر، ونحوها.

ومر به سواد بن قارب ولم يكن يعرفه. فقال «لقد أخطأ ظني، أو أن هذا كاهن؛ أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية» فلما جلس بين يديه قال له ذلك عمر. فقال «سبحان الله، يا أمير المؤمنين، ما استقبلت أحدا من جلسائك بمثل ما استقبلتني به. فقال له عمر رضى الله عنه: ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك. ولكن أخبرني عما سألتك عنه. فقال: صدقت يا أمير المؤمنين. كنت كاهناً في الجاهلية. ثم ذكر القصة». وفراصة الصحابة رضى الله عنهم أصدق الفراصة.

وأصل هذا النوع من الفراسة: من الحياة والنور اللذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده،
 ميسحياً القلب بذلك، ويستنير، فلا تكاد فراسته تخفى. قال الله (١٢٢: ٦) أو من كان ميتاً
 فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها؟
 كان ميتاً بالكفر والجهل، فأحياه الله بالإيمان والعلم. وحمل له بالقرآن والإيمان نوراً يستضيء به
 في الناس على قصد السبيل. ويمشي به في الظلم. والله أعلم.

وفراسة المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء: بعينه. وأذنه. وقلبه. فعينه للسماء والعلامات.
 وأذنه: للكلام وتصريحه وتعريضه، ومنطوقه ومفهومه، وبحواه وإشارته، وطقنه وإيمائه ونحو ذلك.
 وقلبه للعمور والاستدلال من المنظور والمسموع إلى باطنه وحفيه. فيعبر إلى ما وراء ظاهره، كمعبر
 النقاد من ظاهر النقش والسكة إلى باطن النقد والاطلاع عليه: هل هو صحيح، أو زغل؟
 وكذلك عبور المتفرس من ظاهر الهيئة والدَّلِّ، إلى باطن الروح والقلب. فنسبة نقده للأرواح من
 الأشباح كسبة نقد الصيرفي ينظر للجوهر من ظاهر السكة والنقد.

وكذلك نقد أهل الحديث. فإنه يرسد ظاهر كالمشمس على متن مكذوب. فيخرجه
 ناقدهم، كما يخرج الصيرفي الزغل من تحت الظاهر من الفضة.

وكذلك فراسة التمييز بين الصادق والكاذب في أقواله وأفعاله وأحواله.

وللفراسة سببان. أحدهما: جودة ذهن المتفرس، وحدة قلبه، وحسن فطنته.

والثاني: ظهور العلامات والأدلة على المتفرس فيه. فإذا اجتمع السببان لم تكد تخفى
 للعبد فراسة. وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة. وإذا قوى أحدهما وضعف الآخر: كانت فراسته
 بين بين.

وكان إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسة. وله الوقائع المشهورة. وكذلك الشافعي
 رحمه الله. وقيل: إن له فيها تأليف.

(٤٦) مَنَزِلَةُ التَّعْظِيمِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التعظيم» وهذه المنزلة تابعة للمعرفة. فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب. وأعرف الناس به: أشدهم له تعظيماً وإجلالاً. وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته. ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته. وأقوالهم تدور على هذا. فقال تعالى (٧١: ١٣) **مَالِكُمْ لَا تَرَجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً** قال ابن عباس وبجاهد: لا ترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: مَالِكُمْ لَا تَعْظُمُونَ اللَّهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ؟ وقال الكلبي: لا تخافون لله عظمة.

وقال ابن كيسان: لا ترجون في عبادة الله أن يشيكم على توفيركم إياه خيراً.

وروج العبادة: هو الإحلال والمحبة. فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت. فإذا اقترن بهذين الشئاء على المحبوب المعظم. فذلك حقيقة الحمد. والله سبحانه أعلم.

وأول التعظيم: تعظيم الامر والنهي، وهو أن لا يعارضاً بترخص جاف، ولا يُعَرِّضاً لتشدد غلب.

مها هنا أمران يتأفان تعظيم الامر والنهي:

أحدهما: الترخص الذي يجنب بصاحبه عن كمال الامتثال.

والثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي.

فالأول: تمريط. والثاني إفراط.

وما أمر الله بأسر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تعريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو. وديى الله وسط بين الجاني عه والغالي فيه. كالوادي بين جبلين. والهدى بين ضلالتين. والوسط بين طرفين ذميمين. فكما أن الجاني عن الأمر: مضيع له، فالغالي فيه: مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد. وهذا بتجاوزه الحد.

وقد نهى الله عن الغلو بقوله (٥: ٧٧) **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ**. و «الغلو» نوعان. نوع يخرج عن كونه مطيعاً. كمن راد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمى الجمرات بالصخور الكبار التي يرمى بها في المنجنيق، أو سعى بين الصفا والمروة عسراً، أو نحو ذلك عمداً.

وعبدو يحاف منه الانقطاع والاستحار كهيء الليل كله وسزد الصياء الدهر أجمع. بدور صوم ايام النهى. والحر على القوس في العبادات والأوراد، الذى قال فيه السى صلى الله عليه وسلم «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه. فسددوا وقاربوا ويسروا. واستعينوا بالغدوة والروحة، وتنوء من الدلحة» يعنى استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة. فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسير فيها. وقال صلى الله عليه وسلم «(يُفْضَلُ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ. فَإِذَا فُتِرَ فَلْيَرْقُدْ) رواهما البخارى. وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «هَلِكِ الْمُتَنَطِّعُونَ — قَالَهَا ثَلَاثًا — وَهُمْ الْمُتَعَمِّقُونَ الْمُتَشَدِّدُونَ».

وفي صحيح البخارى عنه صلى الله عليه وسلم «عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تَمَلُّوا»

وفي السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن هذا الدين متين. فأَوْغِلْ فيه برفق. ولا تُبَغِّضَنَّ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ» أو كما قال.

واعظم التعظيم: تعظيم الحق سبحانه، وهو ان لا يجعل دونه سبباً، ولا يرى عليه حقاً. فهذه الدرجة تتضمن تعظيم الحاكم سبحانه، صاحب الخلق والأمر، والاولى تتضمن تعظيم أمره.

وأما تكون بأمرين:

أحدهما: أن لا تجعل للوصلة إليه سبباً غيره. بل هو الذى يوصل عبده إليه، فلا يوصل إلى الله إلا الله، ولا يقرب إليه سواه. ولا يُذْنِي إليه غيره، ولا يتوصل إلى رضاه إلا به. فما دل على الله إلا الله، ولا هدى إليه سواه. ولا أدنى إليه غيره. فإنه سبحانه هو الذى جعل السبب سبباً. فالسبب وسبيته وإيصاله: كله حلقة وفعله.

والشاي: ان لا ترى لأحد من الخلق — لالك ولا لغيرك — حقاً على الله، بل الحق لله على حلقة.

وأما حقوق العبيد على الله تعالى: من إتاتته لمطيعهم، وتوبته على تائبهم، وإحابته لسانهم: فتلك حقوق أحققها الله سبحانه على نفسه، بحكم وعده وإحسانه لا أنها حقوق أحقوها هم عليه. فالحق في الحقيقة لله على عبده، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه جوده وبره، وإحسانه إليه بمحض جوده وكرمه.

(٤٧) مَنْزِلَةُ السَّكِينَةِ

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين، منزلة «السكينة»

هذه المنزلة من منازل المواهب. لا من منازل المكاسب. وقد ذكر الله سبحانه «السكينة» اثني عشر مرة في خمسة مواضع.

الأول: قوله تعالى (٢٧:٩) ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين).
الثاني: قوله تعالى (٤١:٩) إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا. فأنزل الله سكينة عليه. وأيده مجنود لم تروها).

الثالث: قوله تعالى (٤٨:٤) هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم. ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليهما حكيماً).

الرابع: قوله تعالى (٤٨:١٨) لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة. فعلم ما في قلوبهم، فأرسل السكينة عليهم. وأثابهم فتحة قريباً).

الخامس: قوله تعالى (٤٨:٢٦) إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية. فأرسل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين) الآية.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — إذا اشتدت عليه الأمور: قرأ آيات السكينة. وقد جرت أنا أيضاً قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه ورأيت لها تأثيراً عظيماً في سكونه وطمأنينته.

وأصل «السكينة» هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المحاول. فلا يترعج بعد ذلك لما يرد عليه. ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

وفى أحسن سبحانه عن إنزالها على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين في مواضع الغلق والاضطراب. كيوم الهجرة، إذ هو صاحبه في الغار والعدو فوق رأسيهما. لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما. وكيوم حنين، حين ولّوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يلبى أحد منهم عن أحد. وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكّم الكفار عليهم، ودحلوهم تحت

شروطهم التي لا تحملها النفوس . وحسبك بضعف عمر رضى الله عنه عن حملها — وهو عمر — حتى ثبتته الله بالصديق رضى الله عنه .

وفى الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ينقل من تراب الخندق، حتى وارى التراب جلدة بطنه . وهو يرتجز بكلمة عبد الله ابن رواحة رضى الله عنه :

لاهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأمل قد بفسوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

وفى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكتب المتقدمة «إني باعث نبياً أمياً، ليس بفقيظ ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا مُتَزِّن بالفحش، ولا قَزَال للخنأ. أسدده لكل جليل. وأهبط له كل خُلُق كريم. ثم أجعل السكينة لباسه، والبرَّ شعاره، والتقوى ضميره. والحكمة مقولته، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته. والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه».

❦ لسان الحكمة تُنطقه السكينة

«السكينة» إذا نزلت على القلب اطمأن بها . وسكنت إليها الجوارح . وخشعت، واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش، واللغو والمجسر، وكل باطل. قال ابن عباس رضى الله عنهما «كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه» .

وكثيراً ما ينطق صاحب «السكينة» بكلام لم يكن عن فكرة منه، ولا رواية ولا هبة، ويستغربه هو من نفسه. كما يستغرب السامع له . وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه . وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة . وصدق الرغبة من السائل والمحالس، وصدق الرغبة منه هو إلى الله، والإسراع بقلبه إلى بين يديه، وحضرته، مع تجرده من الأهواء، وتجريده النصيحة لله ولرسوله، ولعباده المؤمنين.

● السكينة نور وقوة وروح

وقال شيخ الاسلام ابو اسماعيل الهروي رحمه الله :

« السكينة : هى التى نزلت على قلب النبى صلى الله عليه وسلم ، وقلوب المؤمنين . وهى شىء يجمع قوة وروحاً ، يسكن إليه الخائف . ويتسل به الحزين والضجر . و يسكن إليه التقي والتجربى والأبى » .

هذا من عيون كلامه وغرره الذى تتنى عليه الخناصر . وتعقد عليه القلوب .
فذكر : أن هذا الشىء الذى أنزله الله فى قلب رسوله صلى الله عليه وسلم . وقلوب عباده المؤمنين يشتمل على ثلاثة معان : النور ، والقوة ، والروح .
وذكر له ثلاث ثمرات : سكون الخائف إليه ، وتسلى الحزين والضجر به ، واستكانة صاحب المعصية والجرأة على المخالفة والإباء إليه .
بل لروح الذى فيها : حياة القلب . وبالنور الذى فيها : استنارته ، وضياؤه واشراقه . وبالقوة : ثباته وعمره ونشاطه .

فالنور : يكشف له عن دلائل الايمان ، وحقائق اليقين . ويميز له بين الحق والباطل ، والهدى والضللال ، والغنى والرشد ، والشك واليقين .

والحياة : توجب كمال يقظته وفطنته ، وحضوره وانتباهه من سعة الغفلة . وتأهبه للقائه .
وسقوة : توجب له الصدق ، وصحة المعرفة ، وقهر داعى القى والتفتت ، وضبط النفس عن حرجه . وهلمها ، واسترسالها فى النقائص والمعيوب . ولذلك ازداد بالسكينة إيماناً مع إيمانه .
والإيمان : يثمر له النور ، والحياة والقوة . وهذه الثلاثة تثمره ايضاً . وتوجب ريادته . فهو محنوف بها قبلها وبعدها .

فبالنور : يكشف دلائل الإيمان . وبالحياة : ينتبه من سعة الغفلة . ويصير يقظاً . وبالقوة : يقهر هوى النفس ، والشيطان . كما قيل :

وتلك مواهب الرحمن ليست	تحصل باجتهاد ، أو بكسب
وسكن لا غنى عن بذل جهد	بإخلاص وجد ، لا بلمس
ومفضل الله مبدول . ولكن	بحكمته ، وعن ذا النص يُنبى
فما من حكمة الرحمن وضع الـ	كواكب بين أحجار وتُرَب
شكراً للذى أعطاك منه	فلو قبل المحل لزداد ربى
فباد حصلت هذه الثلاثة بالسكينة — وهى النور ، والحياة ، والروح — سكن إليها العصى .	

وهو الذى سكونه إلى المعصية والمخالفة. لعدم سكونة الإيمان فى قلبه صار سكونه إليها عوض سكونه إلى الشهوات، والمخالفات. فإنه قد وجد فيها مطلوبه. وهو اللذة التى كان يطلبها من المعصية. ولم يكن له ما يعيض عنها. فإذا نزلت عليه السكونة اعتاض بلذتها وروحها، وتعييمها عن لذة المعصية. فاستراحت بها نفسه. وهاج إليها قلبه. ووجد فيها من الروح والراحة واللذة ما لا نسبة بينه وبين اللذة الجسمانية النفسانية. فصارت لذته روحانية قلبية. بعد أن كانت جسمانية فانسلب منها، وحبس عنها وخلصته. فإذا تألفت بروقها قال:

تألق البرق تجدياً . فقلت له : يا أيها البرق ، إننى عنك مشغول

وإذا طرقت طيورها الخيالية فى ظلام ليل الشهوات، نادى لسان حاله، وتمثل مثل قوله:

طرقتك سائدة القلوب . وليس ذا وقت الزيارة . فارجمى بسلام

فإذا ودعته وعزمت على الرحيل، ووعدته بالموافاة، تمثل بقول الآخر:

قالت — وقد عزمت على ترحالها — ماذا تريد؟ فقلت: أن لا ترجعى

فإذا باشرت هذه السكونة قلبه سكتت خوفه. وهو قوله «يسكن إليها الخائف» وسلت حزنه. فإنها لا حزن معها. فهى سلوة المحزون. ومذهبة الموم والمغموم. وكذلك تذهب عنه وخم ضحره. وتبعث نشوة العزم، وتحول بينه وبين الجرأة على مخالفة الأمر، وتورثه وقاراً وخشوعاً. ومن معاني السكونة أيضاً: السكونة عند المعاملة، بحاسبة النفوس، وملاطفة الخلق، ومراقبة الحق.

وهذا المعنى هو الذى يحوم عليه السالكون، والتعلم الذى يشتمون اليه للمعاملة التى بينهم وبين الله، وبينهم وبين خلقه. وتحصل بثلاثة أشياء. أحدها: محاسبة النفس، حتى تعرف ما لها وما عليها. ولا يدعها تسترسل فى الحقوق استرسالاً، فيضيعها ويهملها.

وأيضاً فإن زكاتها وطهارتها موقوف على محاسبتها. فلا تزكو ولا تظهر ولا تصلح البتة إلا بحاسبتها.

قال الحسن رضى الله عنه: إن المؤمن — والله — لا تراه إلا قائماً على نفسه: ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت ؟؟ ما أردت بدخل كذا ونخرج كذا؟ ما أردت بهذا؟ ما لى ولهدا؟ والله لا أعود إلى هذا. ونحو هذا من الكلام.

فبحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها. فيمكنه السعى فى إصلاحها.

الثانى: ملاطفة الخلق: وهى معاملتهم بما يجب أن يعاملوه به من اللطف. ولا يعاملهم بالعنف والشدّة والغلظة. فإن ذلك ينفرهم عنه. و يفرهم به. و يفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته، فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف. فإن معاملة الناس بذلك: إما أجنبى.

فتكسب مودته ومحنته. وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ويزدته. وأما عدو ومبغض.
فتطغىء بلسانك امرته. وتستكفى شره. ويكون اسمك لك لمبغض لطعنك به، دون احتمالك
سرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به.

الثالث: مراقبة الحق سبحانه. وسى الموجبة لكن صلاح وحير عاجل وآجل. ولا تصح
الدرجتان إلا ولتان إلا بهذه. وهى المقصود لذاته. وما قبله وسيلة إليه، وعون عليه. فمراقبة الحق
سبحانه وتعالى: توجب إصلاح النفس، واللفظ بالخلق.

(٤٨) مَنَازِلُ الطَّمَانِينَةِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الطَّمَانِينَةِ»
قال الله تعالى (١٣: ٢٨) الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله. ألا بذكر الله
تطمئن القلوب) وقال تعالى (٨٩: ٢٧ — ٣٠) يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ
راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي).

«الطَّمَانِينَةِ» سكون القلب إلى الشيء. وعدم اضطرابه وقلقه. ومنه الأثر المعروف «الصدق
طمأنينة، والكذب ريبة» أي الصدق يطمئن إليه قلب السامع. ويمجد عنده سكوناً إليه.
والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «البرها اطمأن إليه
القلب» أي سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه.
وفي «ذكر الله» هاهنا قولان :

أحدهما: أنه ذكر العبد ربه. فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن. فإذا اضطرب القلب وقلق
فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله.

والقول الثاني، وهو الأصح: أن ذكر الله ههنا القرآن. وهو ذكره الذي أنزله على رسوله. به
طمأنينة قلوب المؤمنين. فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين. ولا سبيل إلى حصول الإيمان
واليقين إلا من القرآن. فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه. واضطرابه وقلقه من شكه.
والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام. فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا
به.

ومستحيل أن يتسع بالقرآن وهدهد: من لم يفقهه ويتدبره حق تدبره، و يتلوه حق تلاوته. ولا يمكن أن
يصبح ذلك ويتحقق إلا لمن كان قلبه بصيراً حاصراً مع ربه ناثراً أسماؤه وصفاته في سنته الكونية في نفسه
وفيما حوله في كل حركة وسكنة وشأن.

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى (٤٣: ٣٦) وَقَدْ نَفِثُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيْثُ لَهُ
شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ).

والصحيح: أن ذكره الذى أنزله على رسوله — وهو كتابه — من أعرض عنه: يَقْصُرْ له شيطانا يُضِلُّهُ وَيَصْده عن السبيل. وهو يحسب أنه على هدى.

وكذلك القولان في قوله تعالى (٢٠: ١٢٤ — ١٢٦) ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً. ونحشره يوم القيامة أعمى).

والصحيح: أنه ذكره الذى أنزله على رسوله — وهو كتابه — ولهذا يقول المعرض عنه (رب لَمْ حَشَرْتَنِي أَعْمَى. وقد كنت بصيراً؟ قال: كذلك. أتلك آياتنا فنسيتها. وكذلك اليوم تُنسى).

وجعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة. فطوبى لهم وحسن مآب.

وفى قوله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك) دليل على أنها لا ترجع إليه إلا إذا كانت مطمئنة. فهناك ترجع إليه. وتدخل في عاده. وتدخل في جنته. وكان من دعاء بعض السلف «اللهم هَبْ لي نفساً مطمئنة إليك».

● وختامها . . . أمن

وحاصل الطمأنينة: سكون يُقَوِّيه أمن صحيح، شبهه بالعيان. فالطمأنينة موجب السكينة، وأثر من آثارها، وكأنها نهاية السكينة، وهي سكون القلب مع قوة الامن الصحيح الذى لا يكن أمن عرور. فإن القلب قد يسكن إلى أمن الغرور. ولكن لا يطمئن به لفارقة ذلك السكون له. و «الطمأنينة» لا تفارقه، فإنها مأخوذة من الإقامة. يقال: اطمأن بالمكان والمنزل: إذا أقام به.

وسبب صحة هذا الأمن المقوى للسكون: شبهه بالعيان. بحيث لا يبقى معه شيء من عجوزات الظنون والأوهام. بل كأن صاحبه يعاين ما يطمئن به. فيأمن به اضطراب قلبه وقلقه وارتيابه.

وفرق ما بينها وبين السكينة: ان «السكينة» تصول على أخية الحاصلة في القلب. فتخمدُها في بعض الأحيان. فيسكن القلب من انزعاج الهية بعض السكون. وذلك في بعض الأوقات. فليس حكماً دائماً مستمراً. وهذا يكون لأهل «الطمأنينة»، دائماً. و يصحبه الأمن والراحة بوجود الانس. فإن الاستراحة في «السكينة» قد تكون من الخوف والهية فقط. والاستراحة في منزل «الطمأنينة» تكون مع زيادة أسس. وذلك فوق مجرد الأمن، وقدرائده عليه.

كذلك فإن «الطمأنينة» أعم. فإنها تكون في العلم والخبر، واليقين والظفر بالعلوم. ولهذا طمأنت القلوب بالقرآن لما حصل لها الإيمان به، ومعرفته والهداية به في كل الآراء والمذاهب. واكتسفت به مهيا، وحكمت عليها وعزتها. وحملت له الولاية بأسرها كما جعلها الله. فه خاصمت، وإليه حاكمت وبه صالت، وبه دفعت الثبته.

وأما «السكينة» فإنها ثبات القلب عند هجوم المحاول عليه، وسكونه وروال قلقه واضطراره، كما يحصل لحزب الله عند مقابلة العدو وصولته. والله سبحانه أعلم.

واسد ما تكون الطمأنينة على عبد أدركه الصحر من قوة التكليف وإعلاء الامر والمثاله — ولا سيما من أقسم مقام التبليغ عن الله، وبجاهدة أعداء الله، وقطاع الطريق إليه — فإن ما يتحمل ويتحمل فوق ما يحمله الناس ويتحملونه. فلا بد أن يدركه الصحر، ويضعف صره. فإذا راد الله أن يريحه ويحمل عنه: أنزل عليه سكينته. فاطمأن إلى حكمه الديني، وحكمه القدري.

ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين وبحسب مشاهدته لما تكون طمأنينته. فإنه إذا اطمأن إلى حكمه الديني علم أنه ديه الحق، وهو صراطه المستقيم. وهو ناصر له وناصر أهله وكافيهم ووليهم.

وإذا اطمأن إلى حكمه الكوني: علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأنه ما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن. فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان، فإن المحدث والمحدث إن لم يتقدم فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أبرم تقديره. فلا جزع حينئذ — لا مما قدر ولا مما لم يقدر. نعم إن كان له في هذه المارلة حيلة. فلا ينبغي أن يصحر بها، وإن لم يكن فيها حيلة، فلا ينبغي أن يصحر بها.

كما أنها ارد ما تكون على البتلى، فلا ريب أن المتلى إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه واطمأن بمشاهدة العوص. وإما يشتد به اللاء إذا غاب عنه ملاحظة الثواب. وقد تتوى ملاحظة العوص حتى يستلذ بالبلاء و يراه نعمة، ولا تستعد هذا. فكثير من العقلاء إذا تحقق نفع الدواء الكريه فإنه يكاد يلتذ به. وملاحظته لنفعه تعيه عن تأمله مذاقه أو تحفقه عنه. والعمل الممول عليه: إما هو على البصائر. والله أعلم.

(٤٩) منزلة الهمة

ومن مازل «إياك نعد وإياك نستعين» منزلة «الهمة»
و «الهمة» فغلة من الهم. وهو مبدأ الإرادة. ولكن خصوصاً بنهاية الإرادة. فالهم مدوها.
والهمة نهايتها.
والعامة تقول: قيمة كل امرئ ما يحسن. والخاصة تقول: قيمة كل امرئ ما يطلب، فإن
قيمة المرء همة ومطله.

والمراد: أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلباً صادقاً خالصاً عضواً. فذلك هي الهمة
العدلية، التي لا يقدر معها على المهلة، ولا يتمالك صره، لغلة سلطانه عليه، وشدة إرامها إياه
نضب المقصود، ولا يلتفت عنها، إلى ما سوى أحكامها. وصاحب هذه الهمة: سريع وصوله
وضرره مظلونه. مالم تعقه العوائق وتقطعه العلائق. والله أعلم.

● هذه الدنيا موحشة

وأول بصائر الهمة: همة تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني، وتعمله على الرغبة في
الباقي، وتُصغيه من كدّر التواني.
و «العماني»: الدنيا وما عليها. أي يزهد القلب فيها ويأهلها. والرغبة فيها «وحشة»
لأهلها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها، وقلوب الزاهدين فيها.
وأما الراعون فيها: فأرواحهم وقلوبهم في وحشة من أحسامهم. إذ وثنها ما خلقت له. فهي
في وحشة لفواته.
وأما الراهدون فيها: فإنهم يرونها موحشة لهم. لأنها تحول بينهم وبين مظلوبيهم ومحبوبهم.
ولا شيء أوحش عند القلب مما يحول بينه وبين مظلوبيه ومحبوه. ولذلك كان من بارع الناس
أموالهم، وطلبها منهم: أوحش شيء إليهم وأبغضه.

وأيضاً: فالزاهدون فيها: إنما ينظرون إليها بالبصائر. والراغون: ينظرون إليها بالأبصار. فيستوحش الراهب مما يأس به الراغب. كما قيل:

وإذا أفاق القلب وأنشغل الهوى رأيت القلوب، ولم تر الأبصار

وكذلك هذه المهمة تحمل على الرغبة في الباقي لذاته. وهو الحق سبحانه. والباقي بإبقائه: هو الدار الآخرة.

ثم تصفيه من كدر التواني، أي تخلصه وتمحصه من أوساخ الفتور والتواني، الذي هو سبب الإضاعة والتفريط. والله أعلم.

وتعلم المهمة حتى تورث ثقة من المبالاة بالعلل، والثقة بالأمل.

و«العلل» هاهنا: هي علل الاعمال: من رؤيتها بعين التعظيم، ونحو ذلك.

فصاحب هذه المهمة: يأنف على همته، وقله من أن يبال بالعلل. فإن همته فوق ذلك.

فمبالاته بها، وفكرته فيها: نزول من المهمة.

وعدم هذه المبالاة: إما لأن العلل لم تحصل له. لأن علو همته حال بيه وبينها. فلا يبال بما لم يحصل له. وإما لأن همته وسعت مطلوبه، وعلوه يأتى على تلك العلل، ويستأصلها. فإنه إذا علق همته بما هو أعلى منها تضمنتها المهمة العالية. فاندرج حكمها في حكم المهمة العالية. وهذا موضع غريب عزيز جداً.

والهامام يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالي، فهو في سفر دائم بالقلب إلى الله، ليحصل له ويفوز به. فإنه طالب لربه تعالى طلباً تاماً بكل معنى واعتبار في عمله، وعبادته ومناجاته، وسومه ويقظته، وحركته وسكونه، وعزلته وخلطته، وسائر أحواله. فقد اصنع قلبه بالتوجه إلى الله تعالى أليماً صيبغة. وهذا الأمر إما يكون لأهل المحبة الصادقة. وأحدهم لا يقنع بتجرد رسوم الاعمال، ولا يقف عند عوض ولا درجة. فإن ذلك نزول من همته. ومطلبه أعلى من ذلك. فإن صاحب هذه المهمة قد قصر همته على المطلب الأعلى، الذي لا شيء أعلى منه. والأعواض والدرجات دونه، وهو يعلم أنه إذا حصل له فهناك كل عوض ودرجة عالية.

وأما أنفسته من الثقة بالأمل: فإن الثقة توجب الفتور والتواني. وصاحب هذه المهمة: ليس من أهل ذلك، كيف؟ وهو طائر لاسائر. والله أعلم.

(٥٠) مَنْزِلُ الْحَبَسَةِ

ومن منازل «إياك نعد وإياك نستعين» منزلة «المحبة»

وهي المنزلة التي فيها تشافس المتنافسون. وإليها تحصى العاملون. وإلى عَلمها شمر السابقون. وعليها تقام المحبون. ويَرْفُج نعيمها تَرْوَج العابدون. فهي قوت القلوب، وعداء الأرواح. وقرة العيون. وهي الحياة التي مَنْ حرمها فهو من حلة الأموات. والنور الذي من فقده فهو في سحر الظلمات. والشفاء الذي من عدمه حَلَّتْ بقلبه جميع الأسقام. واللدّة التي من لم يطفر بها فميشه كله هموم وآلام.

وهي سِمة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم، الذين ركوا جراح السفر إليه، ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء، وهم الذين قعدوا على الحقائق. وقعد من سواهم على الرسوم. وهي عنواط طريقتهم ودليلها. فإن العتوان يدل على الكتاب، والمحبة تدل على صدق الطالب، وأنه من أهل الطريق.

كما أنها «معقد النسبة» أي النسبة التي من الرب وبين العبد. فإنه لانسبة بين الله وبين العبد إلا محض العبودية من العبد. والربوبية من الرب. وليس في القَبْد شيء من الربوبية، ولا في الرب شيء من العبودية. فالعبد عدد من كل وجه. والرب تعالى هو الإله الحق من كل وجه. ومَعْقِد سِمة العبودية هو المحسنة. فالعبودية معقودة بها، بحيث متى انحلت المحنة انحلت العبودية. والله أعلم.

وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال. التي متى حَلَّتْ منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه. تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا يَتَّقُ الأنفس بالعيها. وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا يدونها أبدأ وأصلبها. وتُؤَوِّهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاهها داخلها. وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائما إلى الحبيب. وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منارهم الأولى من قريب. تالله لقد ذهب أهلها شرف الدنيا والآخرة. إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب. وقد قصى الله — يوم قدر مقادير الخلائق عيشته وحكمته البالغة — أن المرء مع من أحب. فيألفها من معية على المحبين ساعة.

تالله لقد سبق القوم الساعة ، وهم على ظهور الفرش نائمون. وقد تقدموا الركب بهراجل،
وهم في سيرهم واقفون.

من لى بثل سيرك الدلال تتشى رويدا؟ وتحى فى الأول
أجابوا منادى الشوق إذ نادى بهم: حَتَّى على الفلاح. وبدلوا نفوسهم فى طلب الوصول إلى
المحبوبهم. تالله لقد حمدوا عند الوصول سُراهم. وشكروا مولاهم على ما أعطاهم. وإنما يحمّد القوم
السُّرى عند الصباح.

فحِيلًا، إن كنت ذا همة. فقد	حدابك حادى الشوق فاظو المراحلا
وقل لمنادى حبههم ورضاهم	إذا مادعا «لبيك» ألفاً كواملا
ولا تنظر الأطلال من دونهم. فإن	نطرت إلى الأطلال عُذْن حوائلا
ولا تنتظر بالسير رُفقة قاعد	ودَّعه. فإن الشوق يكفيك حاملا
وتخذ منهم زاداً إليهم. ويزر على	طريق الهدى والفقر تصيح واصلا
وتخذ قسماً من نورهم. ثم يزيه	فنورهم يهديك. ليس المشاعلا
وتُخذ: يثمنة عنها على المنهج الذى	عليه سرى وفد المحبة أهلا
وقل: ساعدى، يانفس بالصبر ساعة	فعند اللقاء الكدُ يصيح زائلا
فما هى إلا ساعة. ثم تنقضى	و يصيح ذو الأحزان فرحان حاذلا

أول نقدة من أثمان المحبة: بذل الروح. فما للمفلس الجبان البخيل وسومها؟

بدم المحب يباع وصلهم فمن الذى يبتاع بالثمن؟

تالله ما هزلت فيستامها المفلسون. ولا كَسَدَتْ فيميمها بالنسيئة المعسرون. لقد أقيمت
للعرض فى سوق من يزيد. فلم يرض لما شمن دون بذل النعوس. فتأخر البقالون: وقام المحبون
ينظرون: أيهم يصلح أن يكون ثمتاً؟ فدارت السلعة بينهم. ووقعت فى يد (٥: ٥٤) أذلة على
المؤمنين أعزة على الكافرين).

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البيعة على صحة الدعوى. فلو يُعْطَى الناس بدعواهم
لادعى الحليّ حُرقة الشَّجِيّ. فتنوع المدعون فى الشهود. فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلا ببيّنة
(٣: ٣١) قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله).

فتأخر الخلق كلهم. وثبت أناع الحبيب فى أفعاله وأقواله وأخلاقه. فيطولبوا بعدالة
البيعة بتزكية (٥: ٥٤) يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم).

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم.

نهلموا إلى بيعة (٩: ١١١) إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة).
 فمد عرفوا عظمة المتتري. وفصل التمس. وجلالة من حرق على يديه عقد التسايغ: عرفوا قدر
 السلعة، وأن لها شأنًا. فأروا من أعظم الغش أن يبيعوها لغيره تمس جس. فعددوا معه بيعة
 الرضوان بالتراضي، من عثر ثبوت خيار. وقالوا «والله لا نقيلك ولا ستقيلك».
 فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وموالمكم لما رددناها عليكم أوفر
 ما كانت، وأضعافها معاً (٣: ١٦٩، ١٧٠) ولا تحسن الذين قتلوا في سبيل الله أموالاً. بل
 أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله).
 إذا عُرست شجرة حبة في القلب، وسُتيت ماء الإحلاص ومتعة الحبيب أتمرت أنواع
 التماس. وآتت أكلها كل حين بإذن ربها. أصلها ذات في قر القلب. وفرعها متصل سدة
 المنتهى.
 لا يبرأ سعى المحب صاعداً إلى حبيبه لا يحبه دونه تنى (٣٥: ١٠) إليه يصعد الكلم
 الطيب، والعمل الصالح يرفعه).

• من ذاق طعم المحبة ... عرفها

لا تحدد المحبة بحد أوضع منها. فالحدود لا تريدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها. ولا
 توصف المحبة بوصف أظهر من «المحبة».
 وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجاتها، وعلاماتها وشواهداها، وثمراتها وأحكامها.
 فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة. وتنوعت بهم العبارات. وكثرت الإشارات، بحسب
 إدراك الشخص ومقامه وحاله، وملكه للعبارة.
 وهذه المادة تدور في اللغة على خمسة أشياء:
 أحدها: الصفاء والبياض. ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان وبصارتها، حَبَّ الأسنان.
 الثاني: العلو والظهور. ومنه حَبَّ الماء والحباب. وهو ما يعلو عند المطر الشديد. وحَبَّ
 الكأس منه.
 الثالث: اللزوم والتناص. ومنه: حَبَّ البعير وأحب، إذا ترك ولم يقيم.
 قال الشاعر:

حلت عليه بالعللة ضرباً صرب بعير السوء إذ أحب
 الرابع: اللب. ومنه: حبة القلب، لثته وداحله. ومنه: الحبة الواحدة الحبوب. إذ هي أصل
 الشيء ومادته وقوامه.

الحامس: الحفظ والإمساك. ومنه جِبُّ الماء للوعاء الذي يَخْنَطُ فيه ويمسكه وفيه معنى الثبوت أيضاً.

ولا ريب أن هذه الخمسة من لواره 'المحبة' فإنها صفاء 'مؤدة'. ويحيان إرادات القلب للمحبوب. وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحسوب المراد. وثوت 'إرادة' القلب للمحبوب. ولرومها لزوماً لا تفارقه، ولإعطاء المحب محبوبه لله، وأشرف ما عنده. وهو قلبه، ولا اجتماع عزماته وهوومه على محبوبه.

له آثار المحبة وشواهدا

وقيل: المحبة الميل الدائم، بالقلب الهائم. وهذا الحد لا يتميز فيه بين المحبة الخاصة والمشاركة. والصحيحة والمعلولة. وقيل: إثارة المحسوب، على جميع المضحوب. وهذا حكم من أحكام المحبة وأثر من آثارها. وقيل: موافقة الحبيب، في المشهد والمغيب. وهذا أيضاً موجهاً ومقتضاهما. وهو أكمل من الحدين قبله. فانه يتناول المحبة الصادقة الصحيحة خاصة، بخلاف مجرد الميل والإثارة بالإرادة. فإنه إن لم تصحبه موافقة فمحنته معلولة.

وقيل: استكثار القليل من جبايتك، واستقلال الكثير من طاعتك. وقيل: معانقة الطاعة، ومباينة المخالفة. وهو أسهل من عند الله. وهو أيضاً حكم 'لحبة' وموجهاً. وقيل: أن تهب كُلك لمن أحببت. فلا يبقى لك منك شيء. وهو لأمرى عند الله القرشي. وهو أيضاً من موجبات المحبة وأحكامها والمراد. أن تهب إردتك وعزمك وأعمالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتعملها حساً في مرضاته وعجابه. فلا تأخذ لنفسك منها إلا ما أعطاك. فتأخذه منه له.

● محبة ... عراقية

ومن اجمع ما قيل فيها: ما ذكره أبو بكر الكتاني، قال: جرت مسألة في المحبة ممكة أعرفها الله تعالى — أيام الموسم — فتكلم الشيخ فيها. وكان الجنيد أصغرهم سناً. فقالوا: هات ما عندك يا عراقى. فأطرق رأسه، ودمعت عيناه. ثم قال: عند داهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقله، فإن تكلم فالله. وإن نطق فمع الله. وإن تحرك فأمر الله. وإن سكن فمع الله. فهو بالله والله ومع الله. فبكى الشيخ وقالوا: ما على هذا مريد. جراك الله ياتاح العاروس.

● كيف تتعلم المحبة؟

في الأسباب الجالبة للمحبة، والموجبة لها. وهى عشرة. أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتعمق لمعانيه وما أريد به. الثانى: التقرب إلى الله بالوفاة بعد الفرائض. فإنها توصله إلى درجة المحوبة بعد المحبة. الثالث: دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال. فنصيه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر. الرابع: إثارة محابه على عماك عند غلطات الهوى، والتسليم إلى محابه، وإن صعب المرتقى. الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها. وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومبانيها. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: أحبه لا محالة. السادس: مشاهدة براه وإحسانه وآلائه، وبه الساطة والظاهرة. فإنها داعية إلى عته. السابع: وهو من أعجبها — انكسار القلب بكليته بين يدى الله تعالى. وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات. الثامن: الحولة به وقت البرول الإلهى، لماجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه. ثم تخم ذلك بالاستغفار والتوبة. التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما تنتقي أطايب الثمر. ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت ان فيه مريداً لحالك، ومفعة لغيرك. العاشر: مباحة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل. فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب. ويملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وامتاحت عين البصيرة. وبالله التوفيق.

والكلام في هذه المسئلة معلق بطرفين: طرف محبة العبد لربه. وطرف محبة الرب لعبده. والذي أجمع عليه العارفون: أنه يحبهم، وأنهم يحبونه، على إثبات الطرفين، وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر. ولا نسبة لسانر المحاب إليها. وهي حقيقة «لا إله إلا الله» وكذلك عندهم محبة الرب لأوليائه ورسله: صفة زائدة على رحمته، وإحسانه وعطائه. فإن ذلك أثر المحبة وموجبها. فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أنهم نصيب. وجميع طرق الأدلة — عقلاً ونقلًا وفطرة، وقياساً واعتباراً، ودوقاً ووحداً — تدل على إثبات محبة العبد لربه، والرب لعبده.

وقد ذكرنا لذلك قريشاً من مائة طريق في كتابنا «روضة المحبين»، وذكرنا فيه فوائد المحبة، وما تثمر لصاحبها من الكمالات، وأسبابها وموحياتها، والرد على من أنكروها. وبيان فساد قوله، وأن المنكرين لذلك قد أنكروا خاصة الخلق والأمر، والغاية التي وجدوا لأجلها. فإن الخلق والأمر، والثواب، والعقاب: إنما نشأ عن «المحبة» ولا جُلها. وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض. وهي الحق الذي تضمنته الأمر والنهي. وهي سر التأليه. وتوحيدها: هو شهادة أن لا إله إلا الله.

وليس كما زعم المنكرون: أن «الإله» هو الرب الخالق. فإن المشركين كانوا مقرين بأنه لا رب إلا الله، ولا خالق سواه، وأنه وحده المتفرد بالخلق والربوبية. ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية. وهو المحبة والتعظيم، بل كانوا يؤهلون مع الله غيره. وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، وصاحبه ممن اتخذ من دون الله أنداداً.

قال تعالى (٢: ١٦٥) ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله (الله) فأنخبر أن من أحب من دون الله شيئاً، كما يحب الله تعالى: فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا يُد في المحسة، لا في الخلق والربوبية. فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم. ثم قال (والذين آمنوا أشد حبا لله) وفي تقدير الآية قولان. أحدهما «والذين آمنوا أشد حبا لله» من أصحاب الأنداد لأناداهم وأهتتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

والثاني: «والذين آمنوا أشد حبا لله» من محبة المشركين بالأنداد لله. فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة: أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى «يحبونهم كحب الله» فإن فيها قولان. أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله. فيكون قد أثبت لهم محبة الله. ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً.

والثاني: أن المعنى يحبون الله. كما يحب المؤمنون الله. ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يرجح القول الأول، ويقول: إنما دُئِمَا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة. ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له. وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم. وهم في النار يقولون لأهلهم وأندادهم، وهى مُخَضَّرَةٌ معهم في العذاب (٣٦: ٩٧، ٩٨) قائلة إن كنا لفي ضلال مبين: إذ نسويكم برب العالمين) ومعلوم أنهم لم يسووه برب العالمين في الخلق والربوبية. وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم. وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى (٦: ١) ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أى يعدلون به غيره في العبادة، التى هى المحبة والتعظيم.

وفى الآية معنى آخر - والله أعلم - هو أنهم يحبون أندادهم حياً من جنس محبة المؤمنين لله، وهى محبة ممختزجة بذل وتعظيم، وتقديس يحملهم على عبادتهم بالدعاء وغيره من أنواع العبادة، وعلى طاعتهم فيما يشرعون لهم من الدين الخرافى.

و يصح أن يقال: بل سووهم به فى خصائص الربوبية. وهى التشريع. كما قال الله عنهم (٩: ٣٩) اتخذوا أحياءهم وربانهم أرباباً من دون الله) وفى قوله (٤٢: ٢١) أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) وفى حديث عدى بن حاتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شرح ذلك، والمسألة مجرد خلاف فى الاصطلاح، فى معاني (الرب) و(الاله).

وقال تعالى (٣: ٣١) قل: إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وهى تسمى آية المحبة. قال أبوسليمان الداراني: لما أذنت القلوب محبة الله: أنزل الله لها محبة (قل: إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله).

قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحبة (قل: إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله).

وقال «يحببكم الله» إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها، وفائدتها. فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول. وفائدتها وثمرتها: محبة المرسل لكم. فعالم تحصل المتابعة. فليست محبتكم له حاصلة. وعبته لكم متتفة.

وقال تعالى (٥: ٥٤) يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه. أئذلة على المؤمنين، أعززة على الكافرين. يجاهدون فى سبيل الله. ولا يخافون لومة لائم) فقد ذكر لهم أربع علامات.

الاول والثانية: انهم: أئذلة، أعززة. قيل: معناه أرقاء، رحاء مشفقين عليهم. عاطفين

عليهم. فلما ضمن «أذلة» هذا المعنى عداه بأداة «على» قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده. وعلى الكافرين كالأسد على فريسته (٤٨: ٢٩ أشداء تحلى الكفار رجاء بينهم).

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد، واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذا علامة صحة المحبة فكل محب يأخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحب على الحقيقة. كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية يجد السبيل بها إليه اللوم

وقال تعالى (١٧: ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب — إلى قوله — محذوراً) فذكر المقامات الثلاث: الحب، وهراتقاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف: يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً: أنك لا تتنافس إلا في قرب من تحب قريبه، وتحب قريبه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه، إذ فيها حياة القلوب، ونعيم الارواح، وبهجة النفوس، وقرّة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة.

وقال تعالى (٦: ٥٢ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه). وقال أحبابه وأولياؤه (٧٦: ٨ إنما نطعمكم لوجه الله. لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً). وقال تعالى (٥٢: ٢٠، ٢١ وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين: إرادة وجهه.

وقال تعالى (٣٣: ٢٩ وإن كنتم تنزّلون الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً) فحمل إرادته غير إرادة الآخرة. وهذه الإرادة لوجهه مرجبة للذة النظر إليه في الآخرة، كما في مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان في الحديث المرفوع عن النبي صل الله عليه وسلم: أنه كان يدعو «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق: أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي. وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة. وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى. وأسألك القصد في الفقر والغنى. وأسألك نعيماً لا ينفد. وأسألك قرة عين لا تنقطع. وأسألك الرضى بعد القضاء. وبزّذ العيش بعد الموت. وأسألك لذة النظر إلى وجهك. وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضيلة. اللهم زينا بزينة الإيمان. واجعلنا هداة مهتدين».

فقد استتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر— بعد إذ أنقذه الله منه — كما يكره أن يلقى في النار».

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ من أداء ما افترضته عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» وفي الصحيحين عنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم «إذا أحبَّ الله العبد دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانا فأحبه. فيحبه جبريل. ثم ينادي في السماء، إن الله يحب فلانا فأحبه. فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض». وذكر في البغض عكس ذلك.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها في حديث أمير السرية الذي كان يقرأ «قل هو الله أحد» لأصحابه في كل صلاة، وقال: لأنها صفة الرحمن. فأننا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «أخبروه: أن الله يحبه».

وفي جامع الترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «كان من دعاء داود صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك. اللهم اجعلني أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي. ومن الماء البارد» وفيه أيضاً من حديث عبد الله بن يزيد الخطمي: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه «اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك. اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً فيما تحب».

والقرآن والسنة مملوآن بذكر من يحبه الله سبحانه من: عباده المؤمنين. وذكر ما يحبه من: أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم.

١٤٨ والله يحب المحسنين (١)

إن الله يحب الذين يقاتلون أ

فإن الله يحب المتقين).

وقوله في ضد ذلك (٢: ٢٠٥) والله لا يحب الفساد (٣٩: ١٨) والله لا يحب كل
مخالفة (٣: ٥٧، ١٤٠) والله لا يحب الظالمين (٤: ٣٥) إن الله لا يحب من كان
مخالفاً فخوراً.

وكم في السنة «أحب الأعمال إلى الله كذا وكذا»، «وإن الله يحب كذا وكذا» كقوله
«أحب الأعمال إلى الله: الصلاة على أول وقتها، ثم بر الوالدین، ثم الجهاد في سبيل
الله» و«أحب الأعمال إلى الله: الإيمان بالله، ثم الجهاد في سبيل الله. ثم حج مبرور» و
«وأحب العمل إلى الله: ما دام عليه صاحبه» وقوله «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه».

وأضعاف أضعاف ذلك. وفرحه العظيم بتوبة عبده الذي هو أشد فرح يعلمه العباد. وهو من
عجته للتوبة وللتائب.

فلوطلت مسألة المحبة لطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان. ولتطلت منازل السراى
الله. فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل. فإذا خلا منها فهميت لاروح فيه. ونسبتها إلى
الأعمال كنسبة الإخلاص إليها. بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام. فإنه
الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله. فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة. بل هي حقيقة شهادة
أن لا إله إلا الله. فإن «الإله» هو الذى يأله العباد حباً وذلًا، وخوفًا ورجاءً، وتعظيمًا وطاعة
له. بمعنى «مألو» وهو الذى تأله القلوب. أى تحبه وتذل له.

والعقول تحكم بوجوب تقديم محبة الله على محبة النفس والأهل والمال والولد، وكل ما سواه.
وكل من لم يحكم عقله بهذا: فلا تعياً بعقله. فإن العقل والفطرة والشرعة والاعتبار والنظر
تدعو كلها إلى محبته سبحانه. بل إلى توحيده في المحبة. وإنما جاءت الرسل بتقرير ما في الفطر
والعقول. كما قيل:

هب الرسل لم تأت من عنده ولا أخبرت عن جمال الحبيب
أليس من الواجب المستحق محبته في اللقا والمفیب؟

فمن لم يكن عقله آمراً بذًا. ماله في الحجى من نصيب
وإن العقول لتدعو إلى محبة فاطرها من قريب
أليست على ذاك مجبولة ومنظورة لا بكسب غريب
أليس الجمال حبيب القلوب لذات الجمال، وذات القلوب؟

فيا منكراً ذاك والله أنست عين السطرسد وعين الحريب
ويامن يوحى محبوبه ويرضيه في مشهد، أو مغيب
حظيت وخابوا فلا تبتئس بكيد العدو وهجر الرقيب

وأصل «التأله» التعبد، و«التعبد» آخر مراتب الحب. يقال: عبده الحب وتيمه: إذا ملكه
وذلك لمحبوبه.

و «المحبة» حقيقة العبودية. وهل تمكن الإنابة بدون المحبة والرضى، والحمد والشكر،
والخوف والرجاء؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين؟ فإنه إنما يتوكل على المحبوب في
حصول محابه ومراضيه.

وكذلك «الزهد» في الحقيقة: هوزهد المحبين. فإنهم يزهّدون في محبة ماسوى محبوبهم
لمحبته.

وكذلك «الحياة» في الحقيقة: إنما هو حياة المحبين. فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم.
وأما مالا يكون عن محبة: فذلك خوف محض.

وكذلك مقام «الفقر» فإنه في الحقيقة فقر الأرواح إلى محبوبها. وهو أعل أنوع الفقر. فإنه
لا فقر أنم من فقر القلب إلى من يحبه. لا سيما إذا وُحِدَ في الحب، ولم يجد منه عوضاً سواه.
هذا حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك «الغنى» هو غنى القلب بحصول محبه به. وكذلك «الشوق» لا، الله تعالى، ولقائه.
فإنه لبّ المحبة وسرها. كما سيأتى.

فمنكر هذه المسألة ومعطّلها من القلوب: معطل لذلك كله. وحجابه أكثف الحب. وقلبه
أقسى القلوب، وأبعدا عن الله. وهو منكر لخلوّ إبراهيم عليه السلام. فإن «الخلّة» كمال
المحبة. وهو يتأول «الخليل» بالاحتاج. فخليل الله عنده: هو المحتاج. فكم — على قوله — ليه
من خليل من برّ وفاجر، بل مؤمن وكافر إذ كثير من الفجار والكفار من ينزل حوائجه كلها بالله
صغيرها وكبيرها. ويرى نفسه أحوج شيء إلى ربه في كل حالة.

فلا بالخلّة أقر المنكرون، ولا بالعبودية، ولا بتوحيد الإلهية، ولا بحقائق الإسلام والإيمان
والإحسان. ولهذا ضحّى خالد بن عبد الله القسرى بمُقَدَّم هؤلاء ربه خفّذ بن ذرهم، وقال
في يوم عيد الله الأكبر، عقيب خطبته «أيها الناس، ضحوا. تقبل الله ضحاياكم. فإني مّضّج
بالجمد بن درهم. فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً. تعالى الله
عما يقول الجمد علوّاً كبيراً» ثم نزل فذبحه، فشكر المسلمون سعيه. ورحمه الله وتقبل منه.

• مراتب المحبة

أولها: «العلاقة» وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبيب.
 الثانية: «الارادة» وهى ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.
 الثالثة: «الصباية» وهى انصباب القلب إليه. بحيث لا يملكه صاحبه. كانصباب الماء في الحدود. فاسم الصفة منها «صَبَّ» والفعل صَبَّاً إليه يصبو صَبَّاً، وصباية، فماتوا بين المضاعف والمعتل، وجعلوا الفعل من المعتل والصفة من المضاعف. و يقال: صَبَّاً وَصَبَّوْهُ، وصباية. فالعصا: أصل الميل. والصَّبَوْتُ: فوقه، والصباية: الميل اللازم. وانصباب القلب بكليته.
 الرابعة: «الغرام» وهو الحب اللازم للقلب، الذى لا يفارقه. بل يلزمه كملازمة الغريم لغريمه. ومنه سمي عذاب النار غَراماً للزومه لأهله. وعدم مفارقتها لهم. قال تعالى (٢٥: ٦٥)
 إن عذابها كان غراماً.

الخامسة: «الوداد» وهو صفو المحبة، وخالصها ولُبُّها، و «الودود» من أسماء الرب تعالى. وفيه قولان.

أحدهما: أنه الودود. قال البخارى رحمه الله في صحيحه «الودود الحبيب».
 والثانى: أنه الواؤد لعباده. أي المحب لهم. وقرنه باسمه «الغفور» إعلماً بأنه يقفر الذنب، ويحب التائب منه، وَيُؤَدُّه. فحظ التائب: نيل المغفرة منه.
 وعلى القول الأول «الودود» في معنى يكون سر الاقتران. أى اقتران «الودود بالغفور» استدعاء مودة العباد له، ومحبتهم إياه باسم «الغفور».
 السادسة: «الشفاف» يقال: شُفِّفَ بكذا. فهو مشفوف به. وقد شَفَّهَ المحبوب. أى وصل حبه إلى شِغَاف قلبه. كما قال النسوة عن امرأة العزيز (١٢: ٣٠) شَفَّهَهَا حَيّاً وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه الحب المستولى على القلب، بحيث يحجبه عن غيره. قال الكلبي: حجب حُبُّ قلبها حتى لا تعقل سواء.

الثانى: الحب الواصل إلى داخل القلب. قال صاحب هذا القول: المعنى أحبته حتى دخل حُبُّه شِغَاف قلبها، أى داخله.

الثالث: أنه الحب الواصل إلى غشاء القلب. و«الشفاف» غشاء القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب. قال السدى: الشفاف جلدة رقيقة على القلب. يقول: دخله الحب حتى أصاب القلب

وقرأ بعض السلف (شَعَقَهَا) بالعَيْن المهملة. ومعناه: ذهب الحب بها كل ما ذهب. وبلغ بها
لِجلى مراتبه، ومنه: شَقَف الجبال، لرؤوسها.

السابعة «العتق» وهو الحب المفرط الذى يخاف على صاحبه منه.
وفى اشتقاقه قولان أحدهما: أنه من التَشَقَّة — عركة — وهى نبت أصفريلتوى على الشجر،
فشبه به العاشق.

والثانى: أنه من الإفراط وعلى القولين: فلا يوصف به الرب تبارك وتعالى، ولا العبد فى عبة
ربه.

الثامنة «التَّيِّم» وهو التعبد، والتذلل. يقال: تَيَّمَهُ الحب أى ذَلَّلَهُ وَعَبَّدَهُ. وتَيِّمُ الله: عبد
الله. وبينه وبين «اليِّم» — الذى هو الانفراد — تناسب فى المعنى. فإن «المتَّيِّم» المنفرد بحبه
وَسَجَّه. كانفراد التَّيِّم بنفسه عن أبيه، وكل منهما مكسور ذليل. هذا كسره يَم. وهذا كسره
تَيِّم.

التاسعة «التعبد» وهو فوق التَّيِّم. فإلى الجِد هو الذى قدملك المحبوب رِقَهُ فلم يبق له شئ.
من نفسه أبته. بل كله عبد لمحبوبه ظاهراً وباطناً. وهذا هو حقيقة العبودية. ومن كمل ذلك
فقد كمل مرتبتها.

ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة: وصفه الله بها فى أشرف مقاماته. مقام الإسرائ، كقوله
(٦٧: ١ سبحان الذى أسرى بعبده) ومقام الدعوة. كقوله (٢٢: ١٩) وأنه لما قام عبد الله
يدعوه) ومقام التحدى كقوله (٢: ٢٣) وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) وبذلك
استحق التقديم على الخلائق فى الدنيا والآخرة.

وكذلك يقول المسيح عليه الصلاة والسلام لهم، إذا طلبوا منه الشفاعة — بعد الأنبياء عليهم
الصلاة والسلام — «اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».
سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — يقول: فحصلت له تلك المرتبة.
عبوديته لله تعالى، وكمال مغفرة الله له.

وحقيقة العبودية: الحب التام، مع الذل التام والخضوع للمحبوب. تقول العرب «طريق
معب» أى قد ذللت الأقدام وسهلته.

العاشر «مرتبة الحلة» التى انفرد بها الخليلان — إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم —
كما صرح به أنه قال (إن الله اتخذنى خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً)
و«الحُلَّة» هى المحبة التى تغللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير
المحبوب.

وهذا هو السر الذى لأجله — والله أعلم — أمر الخليل بذيبح ولده، وثمرة فواذه وفلذة كبده.

لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة من قلبه. و«الحقة» منصب لا يقبل الشركة والقسمة. فغار الخليل على خليله: أن يكون في قلبه موضع لغيره. فأمره بذبح الولد. ليخرج المزاحم من قلبه. فلما وَّظَلَّ نفسه على ذلك، وعزم عليه عرماً جارماً: حصل مقصود الامر. فلم يسق في إثرها نفس الولد مصلحة. فحال بينه وبينه. وفداء بالذبح العظيم، وقيل له (١٠٥:٣٧) إنا كذلك نجزي المحسنين، نجزي من بادر إلى طاعتنا، فقُفِّرْ عنه كما أقرنا عينك بامثال أوامرنا، وابقاء الولد وسلامته (إن هذا هو البلاء المبين) وهو إختار المحبوب لمحبه، وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته. ويتم عليه نعمه، فهو بلاء محنة ومحنة عليه معاً.

وهذه الدعوة إنما دعا إليها بها خواص خلقه، وأهل الألباب والبصائر منهم. فما كل أحد يجيب داعيها. ولا كل عين قريبة بها.

فما كل عن بالحبيب قريبة	ولا كل من نودى يجيب المنايا
ومن يمسب د عي لهذا قتلَه	يُحب كل من أضحي إلى الغي داعيا
وقل للعبيد الرمد: إياك أن ترى	سنا الشمس فاستغشى ظلام الليالي
وسامح نفوساً لم يهبها لحيهم	ودعها وما اختارت. ولا تك جافيا
وئل للذي قد غاب: يكفى عقوبة	مغيبك عن ذا الشأن لو كنت واعيا
ألم تر آثار القطيعة قد بدت	على حاله. فارحه إن كنت راثيا
فكن أبداً حيث استقلت ركائب الـ	عجة في ظهر العزائم ساريا
وأدلسج. ولا تحش الظلام. فإنه	سيكفيك وجه الحب في الليل هاديا

● ومحبة هروية

ولذلك كانت لشيخ الاسلام ابي اسماعيل الهروي رحمه الله طريقة اخرى في تعريفها، فقال:
«المحبة: تعلق القلب بين الهمة والأنس».
يعنى: تعلق القلب بالمحبيب تعلقاً مقترناً بهمة المحب، وأنسه بالمحبوب، في حالتي بذله ومنعه، وإفراذه بذلك التعلق. بحيث لا يكون لغيره فيه نصيب.
وإنما أشار إلى أنها «بين الهمة والأنس» لأن المحبة لما كانت هي نهاية شدة الطلب، وكان المحب شديد الرغبة والطلب: كانت «الهمة» من مقومات حبه، وجلة صفاته. ولما كان الطلب

بالهمة قد يَفْتَرى عن الأنس، وكان المحب لا يكون إلا مستأنساً بجمال محبوبه، وطعمه بالوصول إليه. فمن هذين يتولد الأنس؛ يجب أن يكون المحب موصوفاً بالأنس. فسارت المحبة قائمة بين الهمة والأنس.

وبالمحبة تفتى خواطر المحب عن التعلق بالغير. وأول ما يقنى من المحب: خواطره المتعلقة بما سوى محبوبه. لأنه إذا انجذب قلبه بكليته إلى محبوبه انجذبت خواطره تبعاً.

• اعقلها وابدأ المحبة

ومباديها عند الهروي: «حبة تقطع الوسواس، وتُسَلِّي عن المصائب». فإن الوسواس والمحبة متناقضان. فإن المحبة توجب استيلاء ذكر المحبوب على القلب والوسواس تقتضى غيبته عنه، حتى توسوس له نفسه بغيره. فبين المحبة والوسواس تناقض شديد، كما بين الذكر والغفلة. فعزّة المحبة: تنفى تردد القلب بين المحبوب وغيره. وذلك سبب الوسواس، وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغاً لوسواس الغير، لا ستفراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه. وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى؟ ومن أين يجتمع الحب والوسواس؟

لا كان من لساك فيه بقية فيها يُقَسَّم فكره و يوسوس كذلك فإن المحب يجد في لذة المحبة ما ينسيه المصائب ولا يجد من معها ما يجد غيره، حتى كأنه قد اكتسب طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلق. بل يقوى سلطان المحبة، حتى يلتذ المحب بكثير من المصائب التي يصيبه بها حبيبه أعظم من التذاذ الخلق بحفظه وشهوته.

وهي محبة تنبت من مطالعة المنة، وثبت باتباع السنة. أي أنها تنشأ من مطالعة العيد بمئة الله عليه، ونعمه الباطنة والظاهرة، فيقدر مطالعته ذلك تكون قوة المحبة. فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها. وليس تلعب قط إحسان إلا من الله. ولا إساءة إلا من الشيطان.

ومن أعظم مطالعة منة الله على عبده: تأهيله لمحبه ومعرفته، وإرادة وجهه، ومتابعة حبيبه. وأصل هذا: نور يقذفه الله في قلب العيد. فإذا دار ذلك النور في قلب المد وذاته: أشرقت ذاته. قرأى فيه نفسه، وما أهملت له من الكمالات والمحسن. فقلّت به همة. وقويت عزيمته. وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطعمه. لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويطرد أحدهما صاحبه. مرقيت الروح حينئذ بين الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول.

نَقْلُ فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحُبُّ إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحسينه أبداً لأول منزل

وهذا النور كالشمس في قلوب المقرّين السابقين، وكالبدر في قلوب الأبرار أصحاب اليمين، وكالنجم في قلوب عامة المؤمنين. وتفاوتهم فيه كتماوت ما بين الزهرة والشهي..

ورسوخ هذه المحبة وثباتها في القلب إنما يكون متانة الرسول صلى الله عليه وسلم في أعماله، وأقواله وأخلاقه. فبحسب هذا الاتباع يكون مشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها. وبحسب نقصانه يكون نقصانها، كما تقدم: أن هذا الاتباع يوجب المحبة والمحبة معاً. ولا يتم الأمر إلا بهما. فليس الشأن في أن تحب الله، بل الشأن في أن يحبك الله. ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيب ظاهراً وباطناً، وصدقته خيراً، وأطعته أمراً، وأجبتة دعوة، وآثرته طوعاً. وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محته غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته. وإن لم يكن ذلك فلا تمن. وارجع من حيث شئت فالتمس نورا. فلست على شيء.

وتأمل قوله (٣: ٣١) فاتبعوني يحبككم الله) أى الشأن في أن الله يحبككم. لاني أنكم تحبونه، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب صلى الله عليه وسلم.

وتتساعد المحبة حتى تمتع على إثبات الحق على غيره، وتلجج اللسان بذكره، فهي - لكما لها وقوتها - تنفضي من الحب أن يترك لأجل الحق ما سواه، فيؤثره على غيره، ولا يؤثر غيره عليه، ويجعل اللسان لهجاً بذكره، فإن من أحب شيئاً: أكثر من ذكره، حتى كأنه لا يشاهد غيره.

وأما تظهر هذه المحبة من مطالعة الصفات، بإتقانها أولاً، ومعرفتها ثانياً، ونفي التحريف والتعطيل عن نصوصها ثالثاً ونفي التمثيل والتكليف عن معانيها رابعاً. فلا يصح له مطالعة الصفات الباعثة على المحبة الصحيحة إلا بهذه الأمور الأربعة. وكلما أكثر قلبه من مطالعتها، ومعرفة معانيها: ازدادت محبته للموصف بها.

وتزداد تصاعداً بالنظر الى الآيات نظر الفكر والاعتبار إلى آياته المشهودة وفي آياته المسموعة. وكل منهما داع قوي إلى محبته سبحانه. لأنها أدلة على صفات كماله، ونعوت جلاله، وتوحيد ربوبيته وإلهيته، وعلى حكمته وبره، وإحسانه وعفوه، وحلمه. وكذلك الارتياض بالمقامات. فإن من كانت له رياضة وملكة في مقامات الإسلام والإيمان: كانت محته أقوى. لأن محبة الله له أتم. وإذا أحب الله عبداً أنشأ في قلبه محبته.

وهذا المقدار من المعاني هو ما يسمح به التعبير، وإلا فإن أوصاف المحبة لا تنهاى، إذ لها في كل مقام نسبة وتعلقاً به، وهي روح كل مقام، والحاملة له. وإقدام السالكين إنما تتحرك بها، فلها تعلق بكل قدم وحال ومقام، فلا تنهاى نعمتها البتة.

• الشوق ثمرة المحبة

ومن آثار المحبة : الشوق.

قال الله تعالى (٢٩: ٥ من كان يرجو لقاء الله فإن أجلّ الله لآت).
 قيل: هذا تمزية للمشتاقين، وتسلية لهم أى أنا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق
 إني. فقد أجلت له أحلاً يكون عن قريب. فإنه آت لا محالة. وكى آت قريب.
 وفيه لطيفة أخرى. وهى تعليل المشتاقين برجاء اللقاء.

لولا التعلل بالرجاء لقطعت	نفس المحب صامة وتشتوق
ولقد يكاد يذوب منه قلبه	مما يقاسى حسرة وتحرقا
حتى إذا زوَّج الرجاء أصابه	سكن الحريق إذا تعلل باللقا

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه «أسألك لذة النظر إلى وجهك،
 والشوق إلى لقائك».

و «الشوق» اثر من آثار المحبة، وحكم من احكامها. فانه تقر القلب الى المحبوب فى كل
 حال.

وقيل: هواهياج القلوب، إلى لقاء المحبوب.

و «المحبة» أعلى منه. لأن الشوق عنها يتولد، وعلى قدره يقوى و يضعف. قال يحي بن
 معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

• الشوق الى الجنة ... حق

و اول معانيه عند الهروي: «شوق العابد إلى الجنة، ليأمن الخائف. ويفرح الحزين. و يطمر
 الآمل».

أي ان : شوق العابد إلى الجنة فيه هذه الحكم الثلاث.

أحدها: حصول الأمل الساعى على الأمل. فإن الخوف المحرد عن الأمن من كل وجه، لا
 يسع صاحبه لعمل ألبته، إن لم يقاربه أمل. فإن تحرد عنه قُطع وصار قنوطاً.
 الثانى: فرح الحزين. فإن الحزن المجرد أيضاً إن لم يفترده الفرح قتل صاحبه. فلولا ربه

الفرح لتعطلت قوى الحزين. وقعد حزنه به، ولكن إذا قعد به الحزن: قام به روح الفرح.
الثالث: روح الظفر. فإن الآمل إن لم يصحبه روح الظفر. مات أمله. والله أعلم .

● ركضاً الى الله

ومنه: الشوق الى الله عز وجل، وتعلق القلب بصفاته المقدسة.
وهذا الشوق لا يتاني الشوق الى الجنة، فان أطيب ما في الجنة: قرب به تعالى، ورؤيته، وسماع كلامه، ورضاه.
نعم. الشوق الى مجرد الاكل والشرب والخور العين ناقص بالنسبة الى شوق المحين الى الله تعالى والى صفاته المختصة بالمتن والاحسان، كالتز والمتان، والمحسن، والجواد، والمعطي.
والغفور، والوهاب، واللطيف، ونحوها.

(٥١) مَنَازِلُ الْغِيَرَةِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الغيرة»

قال الله تعالى (٧: ٣٣ قل: إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) وفي الصحيح عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أخذ أغبر من الله، ومن غَيْرَتِهِ: حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وما أخذ أحب إليه المدح من الله. ومن أجل ذلك: أننى على نفسه. وما أخذ أحب إليه العذر من الله. من أجل ذلك: أرسل الرسل مبشرين ومنذرين».

وفي الصحيح أيضاً، من حديث أبي سلمة، عن أبي هريرة رضى الله عنه. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال «إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ: أَنْ يَأْتِيَ الْعَبْدَ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ».

وفي الصحيح أيضاً: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «أتمجبون من غيرة سعد؟ لأننا أغبر منه. والله أغبر منى».

وما يدخل في الغيرة قوله تعالى (١٧: ٤٥) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا).

قال السرى لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجاب؟ حجاب الغيرة. ولا أحد أغبر من الله. إن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلاً لفهم كلامه، ولا أهلاً لمعرفته وتوحيده ومحبتة. فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجاباً مستوراً عن العيون، غيرة عليه أن يناله من ليس أهلاً له.

«والغيرة» نوعان: غيرة من الشيء. وغيرة على الشيء.

والغيرة من الشيء: هي كراهة مزاحته ومشاركته لك في محبوبك.

والغيرة على الشيء: هي شدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك في

تعززه.

و«الغيرة» أيضاً نوعان: غيرة العبد من نفسه على نفسه، كغيرته من نفسه على قلبه، ومن إعراضه على إقباله، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة. وهذه الغيرة خاصية النفس اشريفة الزكية العلوية. وما للنفس الدنية المهينة فيها نصيب. وعلى قدر شرف النفس وعلو مهنتها تكون هذه الغيرة.

ثم «الغيرة» أيضاً نوعان: غيرة الحق تعالى على عبده، وغيرة العبد لربه لا عليه. فأما غيرة الرب على عبده: فهي أن لا يجعله للخلق عبداً. بل يتخذة لنفسه عبداً. فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين. بل يفردة لنفسه. ويضن به على غيره. وهذه أعلى الغيرتين.

وغيرة العبد لربه، نوعان أيضاً: غيرة من نفسه. وغيرة من غيره. فالتى من نفسه: أن لا يجعل شيئاً من أعماله وأقواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه؛ والتى من غيره: أن يعضب لحارمه إذا انتهكها المنتهكون. ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون.

والاسلام كله حث على تأجيج هذه الغيرة وانكار المكروه، وبهذا ارسلت الرسل وانزلت الكتب.

ومن تأمل أحوال الرسل مع أممهم: وحدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشد القيام. حتى لقوا الله تعالى، وأوصوا من آمن بهم بالإنكار على من خالفهم وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أن المستخلص من مقامات الإنكار الثلاثة ليس معه من الإيمان حبة خردل. وبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد المبالغة، حتى قال «إن الناس إذا تركوه: أوشك أن يعصمهم الله بعقاب من عنده».

وأخبر: أن تركه يمنع إجابة دعاء الأخير. ويوجب تسلط الأشرار.

وأخسر أن تركه: يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه. ويشل لعنة الله. كما لعن الله نبي إسرائيل على تركه.

● غيرة الاستدراك

وأول درجاتها: «غيرة العابد على ضائع يسترد صياغه. ويستدرك فواته، ويتدارك قواه».

و«العابد» هو العامل — بمقتضى العلم النافع — للعمل الصالح. فغيرته على ما ضاع عليه من عمل صالح. فهو يسترد صياغه بأتماله. ويحبر ما فاتته من الأوراد والنوافل وأنواع القرب. بفعل أمثالها، من جسها وغير حسها. فيقضى ما ينفع فيه القضاء ويعوض ما يقبل العوض.

ويحبر ما يمكن جبره.

والفرق بين استرداد صائغه، واستدراك فائته، أن الأول: يمكن أن يُستردَّ معيه، كما إذا فاتته الحج في عام تمكَّن منه. فأصاعه في ذلك العام: استدركه في العام المقبل. وكذلك إذا أحر الزكاة عن وقت وجوبها استدركها بعد تأخيرها، وبحود ذلك.

وأما الفائت: فإنما يستدرك سظيره. كمضاء الواجب المؤقت إذا فات وقته، أو توبة ودم.

وأما «تدارك قواه» فهو أن يتدارك قوته بدلها في الطاعة قبل أن تبدل بالصعف. فهو يغار

عليها: أن تذهب في غير طاعة الله. ويتدارك قوى العمل الذي لحقه الضرر، بأن يتكسوه قود وبشطا، عيرة له وعليه.
فهذه عيرة العباد على الأعمال. والله أعلم.

● فراع القلب ... يقتل الفراغ

ومها: «العيرة على وقت فاب، فان الوقت أبى الحجاب، بطيء الرجوع» والوقت امر تبيء على العباد، يغار عليه أن يفضى بدون ذلك. فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه ألتة. لأن الوقت الثاني قد استحق واجه الحاص، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه. كما في المسند مرفوعاً «من أفطر يوماً من رمضان، متعمداً من غير عذر: لم يقضه عنه صيام الدهر، وإن صامه».

فان الوقت مضمض بذاته، متصرف بنفسه. فمن غفل عن نفسه تصرف أوقته، وعظم فواته. واستند حسراته. فكيف حاله إذا علم عبد تحصن الفؤاد ما أصاع. وضرب الرخفى فحبل يسه و بين الاسترخاع. وطلب تناول الغائب. وكيف يرد الأمتى في اليه الجديد؟ «٣٤: ٥٢ وأنى لهم التساوش من مكان بعيد؟» ومنع مما يند و يرتضيه، وعاد أن ما اقتناه ليس مما يسعى للعاقل أن يفتنيه، وحيل يسه و بين ما يستهيه.

و يقال إن أصعب الأحوال المنقطعة: انقطاع الأنفاس. فإن رايه إذا صعد النفس الواحد صعدوه إلى نحو عوهم، صاعداً إليه، متلصصاً محته والسوق. فدا أرادوا دفعه دفعه معه بقاء آخر. فكن أنفاسهم ناله. وإلى الله، متلصصاً محته، و تنوق إليه والأنس به. فلا يتوتهم نفس من أنفاسهم مع الله إلا إذا عليها سوء. وكثير منهم يرى في نومه: أنه كذلك. لا أنفاس روجه وقله. فيحفظ عليه أوقات نومه و يقطعه. ولا تشكر هذه الحال. فإن المحنة إذا غلبت على القلب وملكته. أوجب له ذلك لا محالة

والمقصود. أن الواردات سريعة الزوال. عمر أسرع من السحاب، و يتنصى نوقت مما فيه. فلا يعمد غنيك من إلا أثره، وحكمه. فاحتر لنفسك ما يعود عليك من وقتك. فإنه عائد عليك لا محنة. لهذا يقال للسعداء (٦٨: ٢٤) كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) و يقال للأسفباء (٤٠: ٧٥) ذلكم ما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق، وما كنتم عمرحون).

(٥٢) مَنَزِلُ التَّوَجَّدِ

ومن منازل «إياك نعد وإياك نستعين» منزلة «الوجد»

نسب في الصحيحين من حديث أسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر — بعد إذ أنقذه الله منه — كما يكره أن يلقى في النار».

وقد استشهد صاحب المنازل بقوله تعالى في أهل الكهف (١٨ : ١٤) وربطنا على قلوبهم إذ قاموا، فقالوا: ربنا رب السموات والأرض. لن ندعو من دونه إلها، لقد قلنا إذا شططا) وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد. فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر. فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوحيب. وذاقوا حلاوته. وباشر قلوبهم. فناموا من بين قومهم، وقالوا: «ربنا رب السماوات والأرض — الآية».

والربط على قلوبهم. يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صرخوا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفص العيش. وفرو بدينهم إلى كهف.

والربط على القلب: عكس الخذلان. فالخذلان: حلة من رباط التوفيق. فيغفل عن ذكر ربه. ويتبع هواه، ويصير أمره فرطا.

والربط على القلب: شدة رباط التوفيق. فيتصل بذكر ربه. ويتبع مرضاته. ويجتمع عليه تسلمه. فهذا استشهد عليه بهذه الآية في مقام «الوجد».

● مراتب الوجد

ومراتبه أربعة. أضعفها «التواجد» وهو نوع تكلف وتعمل واستدعاء.

واحتلفوا فيه: هل يسلم لصاحبه أم لا؟ على قولين.

فطائفة قالت: لا يسلم لصاحبه. وينكر عليه، لما فيه من التكلف والتصنع المبين لطريق

الصادقين. وثناء هذا الأمر على الصدق المحض.

وطائفة قالت: يسلم لصاحبه إذا كان قصده استدعاء الحقيقة، لا التنبه بأهلها. واحتجوا بـقول عمر رضي الله عنه — وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا بكر يبيكي في شأن أسارى بدر، وما قبلوا منهم من الفداء — «أخبراني ما يبكيكما؟ فإن وجدت نكاه نكيت، وإلا تناكيت».

قالوا: والتكلف والتعمل في أوائل السير والسلوك لابد منه إذ لا يطالب صاحبه بما يطالب به صاحب الحال. ومن تأمله نية حصول الحقيقة لمن رصد الوجد لا يذم.

المرتبة الثانية: الوجد، وهي نتائج الأوراد وثمراتها. المرتبة الثالثة: «الوجد» وهو ثمرة أعمال القلوب، من الحب في الله والبعض فيه، كما جعله النسي صلى الله عليه وسلم ثمرة كون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواه. وثمره الحب فيه، وكرهه عوده في الكفر كما يكره أن يقذف في النار. فهذا «الوجد» ثمرة هذه الأعمال القلبية، التي هي الحب في الله والبعض في الله.

المرتبة الرابعة: «الوجد» وهي أعلى بدرة مقام الإحسان. فمن مقام الإحسان يرقى إليه. فإنه إذا غلب على قلبه مشاهدة معبوده، حتى كأنه يراه — وتمكن في ذلك — صار له ملكة أحمدت أحكام نفسه، وتبدل بها أحكاما أخرى، وطبيعة ثانية، حتى كأنه أنشأ بشأة أخرى غير نشأته الأولى، وولد ولادا جديدا.

● التدبر يقود الى الوجد

ويزيغ كوجد عارض متجدد، يستفيق له شاهد السمع، او شاهد البصر، او شاهد الفكر. وذلك يكون ناشيه السمع من سته، اذا كان المسه له خطاباً من خارج أو من نفسه، وما يراه ويعاينه من آيات الله، فيستقل منها الى ما نصت آية له وعليه. ويحتلظ ذلك بما يفتح له من المعاني التي اوقعه عليها فكره وتأمله.

وهذه الشواهد الثلاثة التي دعا الله سبحانه عباده إلى تسبيها والاستشهاد بها. وقول الحق الذي تسهد به. وترتيب حكم هذه الشهادة عليها، من التوحيد والإقرار بالإيمان. قال الله تعالى (٢٢: ٤٦) أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها؟ أو آذان يسمعون بها؟ فإنها لا تعمى الأبصار. ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وقال (٢٣: ٦٩) أفلم يَدَّعُوا القول؟ وقال (٤٧: ٢٤) أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها؟ وقال (١٠: ١٠١) اسظروا: ماذا في خلق السماوات والأرض؟ وقال (٣٠: ٨) أفلم يتفكروا في أنفسهم؟ ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) وقال

(١٦: ٤٤) وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم. ولعلهم يتفكرون) والقرآن مملوء من هذا

وإذا استمقنا شاهد السمع والبصر والعكر، ووجد القلب حلاوة المعرفة والإيمان، خرج من حلة الأيام الغافلين.

وهذا الوجد العارض قد يبقى واحده أترأ من أحكامه بعد مفارقتها. وقد لا يبقى. والظاهر: أنه لا بد أن يمتد أترأ، لكن قد يخفى، ويغمر بما يعقبه بعده، ويخلفه من أضداده.

● آفاق الروح أعلى من أفق الفكر

وهناك وجد آخر، متفرقة أعلى من الأول، محل اليمطة فيه هو الروح، يسما محلها في الأول: السمع والبصر والفكر. والروح هي الحاملة للسمع والبصر والفكر. وهذه الأوصاف من صفاتها.

وأيضاً فلعلو وجد الروح سبب آخر. وهو علو متعلفه، فإن متعلق وجد السمع والبصر والفكر: الآيات والبصائر. ومتعلق وجد الروح: تعلقها بالمحبوب لداته.

وقد جعل الله في قلب كل مؤمن واعظاً له يأمره ويهواه، ويأديه ويحدره، ويسره ويبدره. وهو الداعي الذي يدعوا فوق الصراط. والداعي على رأس الصراط: كتاب الله. كما في المستند والترمزي من حديث السواس من سمعان رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ضرب الله مثلاً: صراطاً مستقيماً. وعلى جنسى الصراط سوران. وفي السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعوا على رأس الصراط، وداع يدعوا فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام، والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد في حد من حدود الله حتى يكشف السترة. والداعي على رأس الصراط: كتاب الله. والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن) فما ثم خطاب قط إلا من جهة من هاتين: أما خطاب القرآن، وأما خطاب هذا الواعظ.

● كمال الحرية في وجد التجريد

ويزداد ويمض تسمى الوجد لمعاً حتى يحص العابد من دَرَن الخط، ويسله من رق الماء والطير، فيخلص عبوديته، والتي هي حقيقته، من وسخ حطوط نفسه وإرادتها، المراحة لمراد ربه منه. فإن تحقيق العبودية — التي هي معنى العبد — لا يكون إلا بتقدي النس الحاملة للحطوط.

فمتى فندب حظوظها بمحض عبوديتها. وكلما مات منها حظ حي منها عبودية ومعنى. وكلما
حي فيها حظ مات عبودية، حتى يعود الأمر على نفس وروحي وقلبي: قلب حي، وروح
حية محب نفسه وحظوظها، وقلب ميت، وروح ميتة بحية نفسه وحظوظه. وبين ذلك مراتب
متفاوتة في الصحة والمرص، وبين بين، لا يحصيها إلا الله عز وجل.

ثم يسلسه من رق الماء والطين، أى يعتقه ويحرره من رق الطبيعة والجسم المركب من الماء
والطين، إلى رق رب العالمين، فخادم الجسم الشقي بخدمته عبد الماء والطين، كما قيل:

يا خادم الجسم، كم تتقى بخدمته؟ فأنت دالروح لا بالجسم إنسان

والناس في هذا الممات ثلاثة: عبد محض، وحر محض، وبين بين.

فالعبد المحض: عبد الماء والطين. الذى قد استعذته نفسه وشهوته، وملكته وقهرته. فانقاد
لها.

والحر المحض: هو الذى قهر شهوته ونفسه وملكها. فانقاد معد، ودلت له ودخلت تحت
رقه وحكمه.

والتالت. من قد عُقد له سب الحرية. وهو يسعى فى كمالها. فهو حر من وجه، وعبد من
وجه، طالما بقي عليه حظ من حظوظ النفس.

فالحر من تخلص من رق الماء والطين. وفار عبودية رب العالمين، فاحتجعت له العبودية
والحرية. فعبوديته من كمال حريته، وحرية من كمال عبوديته، ويظل أبداً في ارتقاء، كلما
نظر إلى مواقع لطف ربه به — حيث أهله لما لم يزل له أهل البلاء، وهم أهل الغفلة
والاعراض عنه — أوترته ذلك النظر تبعاً بوقته في مريد وحد. قال بعض العارفين في الأثر
المروى «إذا رأيتم أهل البلاء فسلوا الله العافية» تدرون من أهل البلاء؟ هم أهل الغفلة عن
الله.

وتقوى هذه الحال إذا انضاف إليها شهود العبد خسة قدر نفسه. فاستصرها أن تكون أهلاً
لما أهلت له. وكذلك شهود انحطاط رتته، وتفاهة قيمته، وخستها وقتلتها.

وحاصل ذلك كله: احتفاره بنفسه، واستعظامه للطف ربه به، وتأهيله له، فيتولد من بين
هذين الشهودين: محبة وحد وسكر، وعزم وإخلاص، وصيحة في العبودية، وسرور وروح بره،
والأسى به.

(٥٣) منزل البرق

ومن أنوار «إياك عبد وإياك نستعين» نور «١١»
الذى يبدو للمبدعد دخوله في طريق اله
وهو لا يبع يلمع لقلبه. يشه لاعم برق.
قال صاحب المنازل «البرق: باكورة تلمع للعد. فتدعه إلى الدخول في هذه الطريق». واستشهد عليه بقوله تعالى (٢٠: ١٠، ١١) وهل أتاك حديث موسى، إذ رأى ناراً؟ فقال لأهله: امكنوا. إني آنست ناراً).
وجه الاستشهاد: أن النار التي رآها موسى كانت مدأ في طريق نبوته.
و«البرق» مدأ في طريق الولاية التي هي وراثة النبوة.
وقوله «ما كورة» الباكورة: هي أول الشيء، ومه ما كورة الثمار. وهو لما سبق نوعه في الضبح.
وهذا البرق ليس هو أول طريق أهل البدايات، بل بدايته «البقطة» التي ذكرت كأول منزل، وإنما البرق أول طريق أرباب التوسط والنهايات.
وهو نور يقذفه الله في قلب العد، ويديه له، فيدعه به إلى الدخول في الطريق الأعلى: طريق الصادقين.

● قلبه كثير، وكثيرنا قليل

ومضته الأولى: تلمع من جانب العدة في أفق الرجاء فيستكثر فيه العبد القليل من العطاء، ويستقل فيه الكثير من الاعاء ويستحلي فيه مراة القضاء.
والعدة: ما وعد الله أوليائه من أنواع الكرامة في هذه الدار وعند اللقاء، من ناحيتها يضيء البرق، فيوجب للعبد استكثار القليل، ولا قليل من الله من عطائه، والحامل له على هذا الاستكثار: أربعة أمور.
أحدها: نظره إلى حلالة معطيه وعظمته.

التاسي: احتقاره لنفسه. فإن ازدراءه لها: يوجب استكثار ما يناله.
 الثالث: محبته له. فإن المحبة إذا تمكنت من العبد استكثر قليل ما يناله من محبته.
 الرابع: أن هذا — قبل العطاء — لم يكن له إلف به، ولا اتصال بالعطية. فلما فاجأته: استكثرها.

وأما «استقلاله الكثير من الإعياء» — وهو التعب والصب — فلأنه لا بدا له برق الوعود من أفق الرجاء: حملة ذلك على الجِد والطلب. وحمل عنه متقة السير. فلم يجد لذلك من مرس الإعياء والنصب ما يجده من لم يشم ذلك.

وكذلك استحالته — في هذا البرق — مرارة القضاء، وهو البلاء الذي يحتسره الله عز وجل عساده، ليسلوههم أليم أصبر وأصدق، وأعظم إيماناً، ومحبة وتوكلاً وإجابة؟ فإذا لاح للسالك هذا البرق: استحل في مرارة القضاء.

• اشارة التأهب

ويسطح أخرى من جانب الوعيد في عين الحذر فيستقصر فيه العد الطويل من الأمل، ويزهد في الخلق على القرب.

فهذا الرق أفعه: غير أفق السرق الأول. فإن هذا يلعب من أنف الحذر، وذلك من أوق الرجاء. فإذا شام هذا السرق: استقصر فيه الطويل من الأمل وتخيل في كل وقت: أن المنيّة تعاصفه وتفاحشه. فاشتد حذره من هجومها، مخافة أن تحل به عمرة الله، ويحال بينه وبين الاستعنت والتأهب للقاء. فيلقى ربه قبل الطهر التام. فلا يؤذن له بالدخول عليه بغير طهارة. كما أنه لم يؤذن له في دار التكليف بالدخول عليه للصلاة بغير طهارة.

وهذا يُدْغِر العباد بالتطهر للموااة والقُدوم عليه، والدخول وقت اللقاء لمن عقل عن الله، وفهم أسرار العبادات. فإذا كان العبد لا يدخل عليه حتى يستقبل بيته المحرم بوجهه، ويستر عورته، ويظهر بدنه وثيابه، وموضع مقامه بين يديه. ثم يخلص له النيّة. فهكذا الدخول عليه وقت اللقاء، لا يحصل إلا بأن يستقبل ربه بقلبه كله. ويستر عورته الباطنة بلباس التقوى. ويظهر قلبه وروحه وحوارحه من أداسها الظاهرة والباطنة. ويتطهر لله طهراً كاملاً. ويتأهب للدخول أكمل تأهب. وأوقات الصلاة نظير وقت الموااة.

فإذا تأهب العبد قبل الوقت: جاءه الوقت وهو متأهب. فيدخل على الله. وإذا فرط في التأهب: خيف عليه من خروج الوقت قبل التأهب. إذ هجوم وقت الموااة مُضَيِّق لا يقبل

التوسعة. فلا يمتحن العبد من التطهر والتأهب عدد من الوقت. بل يقال له: هيبات، فأت مافات، وقد تعدد بينك وبين التطهر المسافات. فمن تدهى برق الوعيد بقصر الأمل: لم يزل على طهارة.

وأما «تزيده في الخلق على القرب» وإن كانوا أقارب أو مناسبيه، أو مجاوريه وملاصفيه، أو معاشره ومخالطيه: فلكمال حذر، واستعداده واشتغاله بما أمامه، وملاحظة الوعيد من أفق ذلك البارق الذي ليس يحل، بل هو أصدق بارق.

● الوان طيف اللطف

تم يتوهج من جانب اللطف في عين الافتقار وينشئ سحاب السرور. ويمطر مطر الطرب. ويعبر من بهر الافتخار.

فهو يلمع من أفق ملاطفة الرب تعالى لعبده بأنواع الملاطفات. ومطلع هذا البرق: في عين الافتقار، الذي هو باب السلوك إلى الله تعالى، والطريق الأعظم الذي لا يدخل عليه إلا منه. وكل طريق سواء فمستود. ومع هذا فلا يصل العبد منه إلا بالمتابعة فلا طريق إلى الله البتة أبداً — ولو تَعَسَّى المتعشون، وتمنى المتسبون — إلا الافتقار، ومتابعة الرسول فقط. فلا يتعب السالك نفسه في غير هذه الطريق. فإنه على غير شيء. وهو صيد الوحش والسباع.

وهذا السلوك، باستشعار الافتقار، من شأنه أن يتسبب للعبد سروراً خاصاً وفرحاً به لا يعهد له بمثله، ولا نظيره في الدنيا، حتى لكأنه في نعمة من نفحات الجنة. فإذا نشأ له ذلك: طرب باطنه وسرّه لما ورد عليه من عند وليّه، وإذا استند ذلك الطرب جرى به نهر الافتخار.

فمنه: افتحار على الشيطان. وهذه غيلة محزنة، طرباً وافتحاراً عليه. فإن الله لا يكره ذلك. ولهذا يجب المختال بين الصفيين عند الحرب، لما في ذلك من مراغمة أعدائه، وبحب الحياء عند الصدقة — كما جاء ذلك مصرحاً به في الحديث — لسرّ عجيب، يعرفه أولو الصدقات والبدل من نفوسهم عند ارتياحهم للعطاء، وابتهاجهم به، واحتياهم على النفس الشحيحة الأمانة بالخل. وعلى الشيطان المزين لها ذلك. فهذا الافتخار من تمام العبودية.

منه شعوره بأنه حرّياً بالافتخار بما تميّز به عن أساء جنسه بما خصه الله به وإن لم يفتخر به ولم يظهره، انقاء على عبوديته وافتقاره..

وسر ذلك: أن العبد إذا لاحظ ما هو فيه من الألفاف، وشهده من عين المنّة، والوجود: شهد مع ذلك فقره إليه في كل لحظة، وعدم استغنائه عنه طرفة عين. فكان ذلك من أعظم أبواب الشكر، وأسباب المزيد، وتوالي النعم عليه. وكلما توالى عليه النعم: أنشأت في قلبه سحاب

السرور. وإذا ابسطت هذه السحائب في سماء قلبه، وامتلاً بها أفقه: أمطرت عليه وابل الطرب بما هو فيه من لذيد السرور. فإن لم يصبه وابل فظلّ. وحيث يدجى على لسانه وظاهره نهر الافتخار من غير عجب ولا فخر، بل فرحاً بفضل الله ورحمته، كما قال تعالى (١٠: ٥٨ قل: بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا) والافتخار على طاهره، والافتخار والانكسار في باطنه، ولا يتأني أحدهما الآخر.

وتأمل قول السي صلى الله عليه وسلم «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» فكيف أخبر بمفضل الله ومنته عليه. وأحر أن ذلك لم يصدر منه افتخاراً به على من دونه، ولكن إظهاراً لنعمة الله عليه، وإعلاماً للأمة بقدر إمامهم ومتويعهم عند الله، وعلو منزلته لديه. لتعرف الأمة نعمة الله عليه وعليهم.

ويشبه هذا قول يوسف الصديق للعزير (١٢: ٥٥ اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) فأخبره عن نفسه بذلك، لما كان متصمناً لمصلحة تعود على العزيز وعلى الأمة، وعلى نفسه: كان حسناً، إذ لم يفصد به المخر عليهم، فمصدر الكلمة والحامل عليها يُحسَنها. ويُهَجَّجها. وصورته واحدة.

مَنْزِلَةُ الدُّوقِ (٥٤)

ومها مبرلة «الدُّوق»

و «الدُّوق» مباشرة الحاسة الطاهرة والباطية للملائم والمنافر. ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن، بل ولا في لغة العرب. قال الله تعالى (٣: ١٨١) وذوقوا عذاب الحريق) وقال (٣: ١٠٦) فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وقال تعالى (٣٨: ٥٧) هذا فليذوقوه حليم وَعَسَّاق) وقال (١٦: ١١٢) فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون). فتأمل كيف جمع بين الدوق واللباس، ليبدل على مباشرة المدوق وإحاطته وشموله. فأفاد إدِّحبار عن إذاقته: أنه واقع مياسر غير منظر. فإن الخوف قد يتوقع ولا يباشر، وأفاد الإخبار عن ليسه: أنه محيط شامل كاللباس للبدن.

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «ذاق طعمَ الإيمان: من رضى بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد — صلى الله عليه وسلم — رسلاً» وأحس. أن للإيمان طعماً، وأن اقرب يدوقه كما يدوق الفم طعم الطعام والتراب.

وقد عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن إدراك حقيقة الإيمان، والإحسان، وحصوله للقلب ومباشرته له: بالذوق تارة، وبالطعام والشراب تارة، ووجود الخلاوة تارة، كما قال «ذاق طعم الإيمان» وقال «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن كان يكره أن يرجع في الكفر — بعد إذ أنقذه الله منه — كما يكره أن يلقى في النار» .

ولما نهاهم عن الوصال قالوا «إنك تواصل، قال: إني لست كهيتكم، إني أطعمُ وُغَسَّقِي» وفي لفظ «إني أطلُّ عند ربي يطعمني و يسقي» وفي لفظ «إني لمُطْعِماً يطعمني، و ساقِياً يسقي»

وقد غلظ حجاب من طرأ أن هذا طعام وسراة جسِّي للفم. ولو كان كما ظنه هذا الطان: لكان صائماً، فضلاً عن أن يكون مواصلاً. ولما صح جوابه بقوله «إني لست كهيتكم» فحجاب بالمرق بينه وبينهم. ولو كان يأكل و يشرب فيه الكريم حساً، لكان الجواب أن يقول: وأنا لست أواصل أيضاً. فلما أقرهم على قولهم «إنك تواصل» علَّم أنه صلى الله عليه

وسلم كان ممسكاً عن الطعام والشراب، ويكتفى بذلك بضعاء والسراب العالى الروحاني، الذى يعنى عن الطعام والشراب المشترك الحسى.

وهذا الدوق هو الذى استدل به هرقل على صحة النبوة. حيث قال لأبى سفيان «فهل يرتد أحد منهم سحطة لدينه؟ فقال لا. قال: وكذلك الإيمان. إذا حاطت حلاوته بشاشة القلوب».

فاستدل بما يحصل لأتباعه من دوق الإيمان — الذى حاطت بشاشته القلوب: لم يسخطه ذلك القلب أبداً — على أنه دعوة سوية ورسالة، لا دعوى ملك ورياسة.

والمقصود: أن ذوق حلاوة الإيمان والإحسان، أمر يحده القلب. تكون نسبه إليه كنسبة دوق حلاوة الطعام إلى الفم.

فللإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد. ولا تزول التبه والتشكوك عن القلب إلا إذا وصل العد إلى هذه الحال. فبأسر الإيمان قلبه حقيقة المباسر. فيدوق طعمه ويجد حلاوته.

وليس المراد بوجد حلاوة الإيمان: الوجد الذى هو لحيب القلب. فإن ذلك مصدر وحد بالتيء وتحد، وإعما هو من الوجود الذى هو التوت. فمصدر هذا الفعل: الوجود والوجدان، موحدة التيء يحده وحدانا: إذا حصل له وت. كما يجد العاقد التيء الذى بعد منه. ومنه قوله تعالى «٢٤: ٣٩ — ٩ ألم يجدك يتيماً فآوى • ووجدك عائلاً فأعنى؟ وقوله (٣٨: ٤٤) إنا وحدناه صابراً) فهذا كله من الوجود والتبوت. وكذا قوله صلى الله عليه وسلم «وجد بهن حلاوة الإيمان»

• هي الأعمال لا الآمال

وأول ما يدوقه العابد: أن يدوق قلبه — بالتصديق — طعم العدة، فلا يعقله ظن، ولا يقطع له أمل، ولا تعوقه أمية.

فإن العبد المصدق إذا ذاق طعم الوعد من الله على إيمانه وتصديقه وطاعته: ثبت على حكم أنواعه واستقام.

ولا يعقله ظن، أى لم يحسه ظن، تقول: عقلت فلاناً عن كذا، أى منعت عنه وصددته، ومنه عقال البعير، لأنه يحسه عن الشرود. ومنه: العقل. لأنه يحس صاحبه عن فعل مالا يحس ولا يحسب. ومنه: عقلت الكلام، وعقلت معاء: إذا حبسته في صدرك، وحصلته في قلبك، بعد أن لم يكن حاصلاً عندك. ومنه: العقل للدية. لأنها تمنع أحدها من العدوان على الجاني وعصيته.

والمقصود: أن ذوق طعم الإيمان بوعده الله يتمتع الذائق أن يمتعه طعم من الجسد في الطلب، والسير إلى ربه. و«الطن» هو الوقوف عن الجزم بصحة الوعد والوعيد، بحيث لا يترجح عنده جانب التصديق.

فالذائق بالتصديق طعم الوعد، لا يعارضه ظن يعقله عن صدق الطلب، وبعبس عزيمته عن الجحد فيه. وفي حديث «سيد الاستغفار» قوله «وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت» أي مقيم على التصديق بوعده، وعلى القيام بمعهده، بحسب استطاعته.

والحامل على هذه الإقامة والثبات: ذوق طعم الإيمان، ومباشرة للقلب. ولو كان الإيمان مجازاً — لا حقيقة — لم يثبت القلب على حكم الوعد، والوفاء بالمعهد. ولا يفيد في هذا المقام إلا ذوق طعم الإيمان.

وكان بعض الصحابة يكثر التلبية في إحرامه، ثم يقول «لبيك. لو كان رياء لاضمحل» وقد نفى الله تعالى الإيمان عن ادعاء. وليس له فيه ذوق. فقد تعالى (١٤: ٤٩) قالت الأعراب: آمنا، قل: لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا. ولما يدخل الإيمان في قلوبكم هؤلاء مسلمون، وليسوا بمؤمنين. لأنهم ليسوا من أشر الإيمان قلبه، تذاق حلاوته وطعمه. وهذا حال أكثر المنتسبين إلى الإسلام. وليس هؤلاء كفاراً، فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله (ولكن قولوا أسلمنا) ولم يرد: قولوا بالأسنتكم، من غير مواطاة القلب. فإنه فرق بين قولهم «آمنا» وقولهم «أسلمنا» ولكن لما لم يذوقوا طعم الإيمان، قال «لم تؤمنوا» ووعدهم سبحانه وتعالى — مع ذلك — على طاعتهم أن لا ينقصهم من أحر أعمالهم شيئاً.

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه وهم الذين آمنوا به وبرسوله. ثم لم يرتابوا في إيمانهم. وإنما استمى عنهم الريب. لأن الإيمان قد باشر قلوبهم. وخالفها بشاشته. فلم يبق للريب فيه موضع. وصدق ذلك الذوق: بذلهم أحب شيء إليه في رضا ربهم تعالى. وهو أموالهم وأنفسهم. ومن الممتنع: حصول هذا النبل من غير ذوق طعم الإيمان، ووجود حلاوته. فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد. كما قال الحسن «ليس الإيمان بالتمنى، ولا بالتحلى، ولكن ما وقر في القلب، وصده العمل».

فالذوق والوجد: أمر ماطر، والعمل دليل عليه ومصدق له. كما أن الريب والشك والسماق: أمر ماطر. والعمل دليل عليه ومصدق له. فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد. فاليتقن: يشتر الجهاد، ومقامات الإحسان. فعلى حسب قوته تكون ثمرته وتبيحه. والريب والشك: يشمر الأعمال المناسبة له. وبالله التوفيق.

ومن علامات الذوق: أن لا يقطع صاحبه عن طلبه: أمل الدنيا، وضع في غرض من أغراضها. فإن الأمل والطعم يقطعان طريق القلب في سيره إلى مطلوبه.

ليس أن لا يكون له أمل، بل: «لا يقطعه أمل» فإن الأمل إذا قام به ولم يقطعه. لم يصره، عوق سيره بعض التعويق. وإنا اللاء في الأمل الفاطح للقلب عن سيره إلى الله. وعند فقهاء القلوب: أن كل ما سوى الله، وإرادته: أمل قاطع، كائن ما كان. فمن كان أملاً، ومنتهى طلبه: فليس من أهل ذوق الإيمان. فإنه من ذاق حلاوة معرفة الله والقرب بالأسس به: لم يكن له أمل في غيره. وإن تعلق أمله بسواه، فهو لإعاقته على مرصاته ومحابه. فهو يؤمله لأجله، لا يؤمله معه.

فإن قلت: فما الذي يقطع به العبد هذا الأمل؟

قلت: قوة رغبته في المطلب الأعلى، الذي ليس شيء أعلى منه. ومعرفة بحسبة ما يؤمل دونه، وسرعة ذهائه. فيؤسك انقطاعه. وأنه في الحقيقة كخيال طيف، أو سحابة صيف. فهو ظل زائل، ونجم قد تدلّى للغروب. فهو عن قريب آفل. قال النبي صلى الله عليه وسلم «ما لي وللدنيا؟ إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها» وقال «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يذخُلُ أحدكم إصبه في اليمِّ، فلينظر: بم ترجع؟» فتبه الدنيا في حنب الآخرة بما يعلق على الإصبع من البلبل حين تُفتمس في البحر.

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيتها رجل، ثم جاء الموت: لكان بمنزلة من رأى في سامه ما يسره. ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء». وقال مطرف بن عبد الله — أو غيره — «نعيم الدنيا بحدافيره في جنب نعيم الآخرة: أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا».

ومن حدّق عين بصيرته في الدنيا والآخرة: علم أن الأمر كذلك.

فكيف يليق بصحيح العقل والمعرفة: أن يقطعه أمل من هذا الجزء الحقير عن نعيم لا يزول، ولا يضمحل؟ فصلا عن أن يقطعه عن طلب من نسبة هذا النعيم الدائم إلى نعيم معرفته ومحبته، والأنس به، والفرح بقره، كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة؟ قال الله تعالى (٩: ٧٢) وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار. خالدون فيها ومساكن طيبة في جنات عدن، ورضوان من الله أكبر فيسبر من رضوانه — ولا يقال له يسير — أكبر من الجنات وما فيها.

وفي حديث الرؤية «فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه» وفي حديث آخر «إنهم إذا رأوه — سبحانه — لم يلتفتوا إلى شيء مما هم فيه من النعيم، حتى يتوارى عنهم».

فمن قطعه عن هذا أمل، فقد فار بالحرمان. ورضى لنفسه نغاية الخسران، والله المستعان. وعليه التكلان. وما شاء الله كان.

وكذلك لا تعوقه أمنيته، وهي: ما يتمناه العبد من الخطوط، وجمعها أمانى. والفرق بينها وبين «الأمل» أن الأمل يتعلق بما يرحى وجوده، والأمنية: قد تتعلق بما لا يرحى حصوله. كما يتمنى العاجز المراتب العالية.

والأمانى الباطلة: هي رؤوس أموال المغاليس، بها يقطعون أوقاتهم و يلتذون بها، كالتذاد من زال عقله بالمسكر، أو بالخيالات الباطلة.

وفي الحديث المرفوع «الكَيْس مَنْ ذَاكَ نَفْسِهِ، وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتَمَنَّى على الله الأمانى».

ولا يرضى بالأمانى عن الحقائق إلا دوو النفوس الدنيئة الساقطة. كما قيل:
واترك مئى النفس. لا تحسبه يشعها إن المئى رأس أموال المغاليس
وامنية الرجل تدل على علوهمته وحسنتها.

● القلب الموزع: يضرب ويفرع

ثم يدوق بالارادة طعم الأس. فلا يعلق به شاعل ولا يفسده عارض. ولا تكدره تفرقة و «الإرادة» وصف المريد والفرق بين هذه الرغبة والتي قبلها أن الأولى وصف حال العابد الذى داق تصديقه طعم وعد الرب عز وجل، فتحد في العادة. وأعمال البر، لتفتته بالوعد عليها. وصاحب هذه الدرجة: داق إرادته طعم الأس. فهي حال المريد.

والأسس به سبحانه أعلى من الأسس مما يرحوه العابد من عيم الحية. فإذا ذاق المريد طعم الأسس حد في إرادته، واحتهد في حفظ أسسه، وتحصيل لأساس المقوية له.

فيعود لا يعلق به شاعل، أى لا يتعلق به شىء يتعلمه عن سلوكه وسيره إلى الله، لشدة طلب الشاعل عليه أسسه، الذى قد داق طعمه، وتلذذ بحلاوته.

والأسس بالله. حالة وحدانية وهي من مقامات الإحسان، تموى ثلاثة أشتياء: دوام الذكر، وصدق المحبة، وإحسان العمل

وقوة الأسس وضعفه: على حسب قوة الغرب. فكما كان القلب من ربه أقرب، كان أسسه به أقوى. وكلما كان منه أبعد، كاتب الوحشة بينه وبين ربه أشد، ولذلك يفسده العارض.

والعارض المفسد هو الذى يعدل المحب، ويومه على الشطاط في رصا محبوه وطاعته، ويدعوه إلى الالتصاف إليه، والوقوف معه دون مطلبه العالى. فهو كالدنى يخفى عرَضاً جميع المار في ضريقه عن المرور، و يلمسه عن جهة مقصده إلى غيرها

وكل ما سوى الله فهو عارض. وإرادة السوى: توقف السالك، وتنكس الطالب، وتحجب الواصل. فأياك وإرادة السوى وإن علا. فإنك تحجب عن الله بقدر إرادتك لغيره. قال تعالى إخباراً عن عباده المقربين (٧٦: ٩) إنما نطعمكم لوجه الله. لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) وقال تعالى (٦: ٥٢) ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) وقال تعالى (٩٢: ١٩، ٢٠) وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى).

أما أنه لا تكدره تفرقة، فلأن التفرقة ضد الجمعية، والجمعية: هي جمع القلب والهمة على الله بالحضور معه بحال الأنس، حالياً من تفرقة الخواطر. و «التفرقة» من أعظم مكدرات القلب. وهي تزيل الصفاء الذي أثمره له الإسلام والإيمان والإحسان. فإن القلب يصفو بذلك. فتجنىء التفرقة. فتكدر عليه ذلك الصفاء، وتشتت القلب. فيجد الصادق ألم ذلك الشغل وأذاه. فيجتهد في له، ولا يُلْمُ شغلُ القلوب شيء غير الإقبال على الله والإعراض عما سواه. فهناك يلم شغله، ويزل كدره، ويصح سفره. ويعد روح الحياة، ويذوق طعم الحياة الملكية، وتذوق همته طعم الجمع.

وذلك إنما هو أثر تجلي معاني الاسماء الحسنى على قلب العبد، فترفع حجب الغفلة والشك والأعراض، ويتم استيلاء سلطان المعرفة على القلب.

فهو في هذه الدرجة مستغرق في شهود الاسماء والصفات، وقد استولى على قلبه نور الإيمان بها ومعرفتها، ودوام ذكرها، والنظر إلى الواحد الفرد، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء. سبق كل شيء بأوليته. وبقي بعد كل شيء بآخرته. وعلا فوق كل شيء بظهوره. وأحاط بكل شيء ببطونه.

وهذا موضع غلط فيه طائفتان من الناس:

أحدهما: غَلَّتْ فيه، حتى قدمت الجمعية عند حصولها على الفرائض والسنن، ورأت نزولها عنها إلى القيام بالأوامر اسطفاً من الأعلى إلى الأدنى. حتى قيل لبعض من زعم أنه ذاق ذلك: قم إلى الصلاة، فقال:

يُطالَبُ بالأوامر من كان عافلاً فكيف نقلب كل أوقاته ورد؟ وهؤلاء بين كافر وناقص.

فمن لم ير القيام بالفرائض — إذا حصلت له الجمعية — فهو كافر، منسلخ من الدين. ومن عطل لها مصلحة راجحة — كالسنن الرواتب، والعلم النافع، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنفع العظيم المتعدي — فهو ناقص.

والطائفة الثانية: لا تعسا بالجمعية، ولا تعمل عليها. ولعلها لا تدري ما مسمها ولا حقيقةها.

وطريقة الأنوياء، أهل الاستقامة: القيام بالجمعية في التفرقة ما أمكن. فيقوم أحدهم بالمعابدات، ونفع الخلق، والإحسان إليهم، مع جميته على الله. فإن ضعف عن اجتماع الأمرين، وضاق عن ذلك: قام بالفرائض. ونزل عن الجمعية. ولم يلتفت إليها، إذا كان لا يقدر على تحصيلها إلا بتعطيل الفرض. فإن ربه سبحانه يريد منه أداء فرائضه. ونفسه تريد الجمعية، لما فيها من الراحة واللذة، والتخلص من ألم التفرقة وشعثها. فالفرائض حق ربه. والجمعية حفظه هو.

بل الواقع: أن الصلاة صلة العبد بربه، ليرفع إليه فيها حاجاته في دنياه وآخرته وهي قرعة عين المؤمن. كما كانت قرعة عين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي العون على كل أمرهم. وكذلك الصيام: إنما هو حصن من أقوى أسباب الوقاية بما يريه ربه، حال كونه معه: بقوة العزيمة والإرادة الصادقة، والبصيرة البيرة، التي يكون بها المؤمن في وقاية من كل ما يخاف في أولاه وأخراه. وكل الطاعات المفروضة: إنما هي كذلك، أسباب لمعادته ووقايته من كل ما يخاف في أولاه قبل أخراه. وكل شأن الإنسان في أهله، أو مسجده، أو مزرعته، أو مئمنه، أو ميدان حربه: فإنما هو لحظيره في الأول قبل الأخرى. وبه يسهل شأنه ويستسلم به لربه خلقاً وشرعاً. فتكون كل حركاته وسكناته في مطعمه وملبسه ومشربه، ومنامه وبقلته: عبادة بتدليل وحسب صادقين. وحطوات يسمى بها حديثاً إلى لقاء الله والمصير إليه، راضياً مرضياً في قرره وما بعده. فيسمى بها حديثاً ليكون من عباد الرحمن. وهذا كان شأن الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به. واتبعوا السير الذي أرسل معه. ثم لما دخل الدخيل وأدخل أباطيله وبدعه الخرافية، ورخرف حشها شياطين الإيس والجن: تغير الساس. فتغيرت الأعمال والموجبات، وصاروا يعتقدون أن الذكر: أن يجلس في حلوة ليعذب مئنا لا إله إلا الله. أو ليصل ألف ركعة، أو ليقرا ألف ختمة في غفلة غافلة. وأشياء هذا مما يحمل المعابدات أشكالا وصورا وتمشيلاً. بخلاف ما كان سبه الصحابة رضي الله عنهم. كما قال ابن مسعود رضي الله عنه «ما كنا معاوذاً الآية حفظاً حتى نتقنها عملاً» أو كما قال.

فالمعبودية الصحيحة: توجب عليه تقديم أحد الأمرين على الآخر. فإذا جاء إلى النوافل، وتعارض عنده الأمران: فمنهم من يرجع الجمعية.

ومنهم من يرجع النوافل، ومنهم من يؤثر هذا في وقت وهذا في وقت. والتحقيق — إن شاء الله — أن تلك النوافل إن كانت مصلحتها أرجح من الجمعية، ولا تعوضه الجمعية عنها: اشتغل بها، ولو فانت الجمعية، كالدعوة إلى الله، وتعليم العلم النافع، وقيام وسط الليل، والذكر أول الليل وآخره، وقراءة القرآن بالتدبر. ونفل الجهاد، والإحسان إلى المضطر، وإغاثة الملهوف. ونحو ذلك. فهذا كله مصلحته أرجح من مصلحة الجمعية. وإن كانت مصلحته دون الجمعية — كصلاة الضحى، وزيارة الإخوان، والفصل لحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وإجابة الدعوات، وضيافة الإخوان ونحو ذلك — فهذا فيه تفصيل.

فإن قويت جمعيته فظهر تأثيرها فيه: فهي أولى له، وأنفع من ذلك. وإن ضعفت الجمعية، وقوى إخلاصه في هذه الأعمال: فهي أنفع له، وأفضل من الجمعية. والمعمل عليه في ذلك كله: إثارة أحب الأمورين إلى الرب تعالى. وذلك يعرف بنفع العمل وثمرته، من زيادة الإيمان به، وترتب الغايات الحميدة عليه، وكثرة مواظبة الرسول صلى الله عليه وسلم عليه، وشدة اعتناؤه به، وكثرة الوصية به، وإخباره: أن الله يحب فاعله. ويباهي به الملائكة. ونحو ذلك. ونكتة المسألة وحرفها: أن الصادق في طلبه يؤثر مرضاة ربه على حظه. فإن كان رضا الله في القيام بذلك العمل، وحظه في الجمعية: خَلَّى الجمعية تذهب. وقام بما فيه رضا الله. ومتى علم الله من قبله: أن تردده وتوقفه - ليعلم -: أني الأمرين أحب إلى الله وأرضى له - أنشأ له من ذلك التوقف والتردد حالة شريفة فاضلة، حتى لو قدم المفضل - لظنه أنه الأحب إلى الله -: ردت تلك النية والإرادة عليه ما ذهب عليه وفاته من زيادة العمل الآخر. وبالله التوفيق.

و «الجمع» شهود الفردانية التي تغنى فيها رسوم المشاهد، وهذا جمع في الربوبية. وأعلى منه: الجمع في الألوهية وهو جمع قلبه وهمه وسره على محبوه ومراضيه ومراده منه. فهو عكوف القلب بكنيته على الله عز وجل. لا يلتفت عنه بئمة ولا يسرة. فإذا ذاق المهمة طعم هذا الجمع: اتصل اشتياق صاحبه، وتأججت نيران المحبة والطلب في قلبه. ويحمد صبره عن محبوه من أعظم كبارهم. كما قيل:

والصبر يحمد في المواطن كلها إلا عليك. فإنه لا يحمد

فله همة نفس قطعت جميع الأكوان، وسارت فما ألقت عصي السير إلا بين يدي الرحمن. تبارك وتعالى، فسجدت بين يديه سجدة الشكر على الوصول إليه. فلم تزل ساجدة حتى قيل لها (٨٩: ٢٧، ٢٨) يا أيتهن النفس المظمنة، أرجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي).

فسبحان من فاوت بين الخلق في همهم، حتى ترى بين المهمتين أبعد مما بين المشرقين والمغربين. بل أبعد مما بين أسفل سافلين وأعلى عليين. وتلك مواهب العزيز الحكيم (٥٧: ٢١) و ٦٢: ٤ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم).

وهكذا يجد بهذين الجمعين له غامرة عند مناجاة ربه، وأسأ به، وقرباً منه، حتى يصير كأنه يخاطبه و يسامره، ويعتذر إليه تارة، ويتملقه تارة، ويشي عليه تارة، حتى يبقى القلب ناطقاً بقوله «أنت الله الذي لا إله إلا أنت» من غير تكلف له بذلك. بل يبقى هذا حالاً له ومقاماً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه». وهكذا

مخاطبته ومناجاته له، كأنه بين يدي ربه، فيسكن جأشه، ويطمئن قلبه، فيزداد لهجاً بالدعاء والسؤال، تذللُ للهِ الغشي سبحانه، وإظهاراً لفقر العبودية بين يدي عز الربوبية، فإن الرب سبحانه يحب من عبده أن يسأله ويرغب إليه. لأن وصول بره وإحسانه إليه موقوف على سؤاله. بل هو المتفضل به ابتداءً بلا سبب من العبد، ولا توسط سؤاله وطلبه. بل قدَّر له ذلك الفضل بلا سبب من العبد، ثم أمره بسؤاله والطلب منه، إظهاراً لمرتبة العبودية والفقر والحاجة، واعتزازاً بعز الربوبية. وكما لا غنى للهِ، وتفرد بالفضل والإحسان، وأن العبد لا غنى له عن فضله وطرفه عين، فيأتي بالطلب والسؤال إتياناً من يعلم: أنه لا يستحق بطلبه وسؤاله شيئاً. ولكن ربه تعالى يحب أن يسأل، ويرغب إليه، ويُطلب منه. كما قال تعالى (٤٠: ٦٠) وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) وقال تعالى (٢: ١٨٦) وإذا سألك عبادي عني فإني قريب. أجيب دعوة الداع إذا دعان. فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بعلميهم يتشددون) وقال (٤: ٣١) واسألوا الله من فضله) وقال (٢٥: ٧٧) قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم) وقال (٧: ٥٥) ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) وقال (٧: ٥٦) وادعوه خوفاً وطمعاً) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «ليسأل أحدكم ربه كل شيء، حتى يشع نعله إذا انقطع فإنه إن لم يسره لم يتسر» وقال «من لم يسأل الله يفضب عليه» وروى الترمذي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «سألوا الله من فضله. فإن الله يحب أن يسأل من فضله. » وقال «إن لربكم في أيام ذهركم تفحات. فتعرضوا لنفحاته. واسألوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم» وقال «ما من داع يدعو الله بدعوة إلا آتاه بها أحد ثلاث: إما أن يجعل له حاجته، وإما أن يعطيه من الخير مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها. قالوا: إذا نكثت يا رسول الله؟ قال: قاله أكثر» وقال «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء».

وقال تعالى — في الحديث القدسي فيما روى عن أبي ذر رضى الله عنه — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعته. فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته. فاستكسوني أكسبكم. يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته. فاستهدوني أهدكم. يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار. وأنا أغفر الذنوب جميعاً. ولا أباي. فاستغفروني. أغفر لكم» وقال صلى الله عليه وسلم «وأما السجود: فاجتهدوا فيه في الدعاء، فقمم أن يستجاب لكم» .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «إني لا أحل هم الإجابة. ولكن أحل هم الدعاء. فإذا ألهمت الدعاء علمت أن الإجابة معه» .

وفى هذا يقول القائل:

لولم تُرَدِّ بَذَلْ ما أَرْجُو وأُجَلِّبُه من جُودِ كُنْكَ ما عودتنى الطلبا
والله سبحانه وتعالى يحسب تذلل عبيده بين يديه ، وسؤالهم إياه ، وطلبهم حوائجهم منه ،
وشكواهم إليه ، وعيادهم به منه ، وفرارهم منه إليه . كما قيل:
قالوا: أتشكوا إليه مالم يسئ إليهم؟
فقلت: ربي يرضى . ذل العبيد لديه

• نفرح بالله تعالى، وندعوه بالتبitt

فإذا تم هذا الذل للعبد: تم له العلم بأن فضل ربه سبق له ابتداء قبل ان يخلقه، مع علم
الله سبحانه به وبتقصيره وان الله تعالى لم يمنعه علمه بتقصير عبده ان يقدر له الفضل
والاحسان.

فإذا شاهد العبد ذلك: اشتد سروره بربه، وواقع فضله وإحسانه. وهذا فرح محمود غير
مذموم. قال الله تعالى (١٠: ٥٨) قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا. هو خير مما
يجمعون) فضله: الإسلام والإيمان، ورحمته: العلم والقرآن. وهو يجب من عبده: أن يفرح بذلك
و يُسَرِّه. بل يجب من عبده: أن يفرح بالحسنة إذا عملها وأن يسرها. وهى الحقيقة فرح العبد
بفضل الله حيث وفقه الله لها، وأعانه عليها ويسرها له. ففى الحقيقة: إنما يفرح العبد بفضل
الله وبرحمته.

ومن أعظم مقامات الإيمان: الفرح بالله، والسروره. فيفرح به سبحانه رباً ، وإلهاً ،
ومنعماً ومربياً.

ولكن العاقل اللبيب يجمع الى هذا السرور حذراً من مكر الله تعالى، فان السرور يسط
النفس وينميها. وينميها عيوبها وآفاتنا ونقائصها. إذ لو شهدت وأبصرته لشغلها ذلك عن
الفرح.

وأيضاً فإن الفرح بالنعمة قد ينسبه للمنعم. فيشتغل بالخلعة التى خلعها عليه عنه. فيقطع
عليه السرور، حتى يغيب بنعمته عنه. وهنا يكون المكر إليه أقرب من اليد للقم.

ولله كم هاهنا من مُسْتَرَدٍّ منه ما هُوب له عزة وحكمة! وربما كان ذلك رحمة به. إذ لو
استمر على تلك الولاية لخيف عليه من الطغيان. كما قال تعالى (٩٦: ٦). كلا إن الإنسان
فَتِيْلَفِي: أن رآه استغنى) فإذا كان هذا يغنى بالحطام الفانى، فكيف بالفنى بما هو أعل من
ذلك وأكثر؟

و «المكر» الذى يخاف عليه منه: أن يُقَيَّب الله سبحانه عنه شهيد أوليته في ذلك ومنته
 وفضله، وأنه محض منه عليه، وأنه به وحده، ومنه وحده. فيغيث من شهيد حقيقة قوله تعالى
 (١٦: ٥٣ وما يكمن من نعمه فمن الله) وقوله (٣: ١٥٤ قل: إن الأمر كله لله) وقوله
 (١٠: ١٠٧ وإن يمسك الله بضرف فلا كاشف له إلا هو. وإن يردك بغير فلا راداً لفضله،
 يصيب به من يشاء من عباده. وهو الغفور الرحيم) وقوله (٢٨: ٨٦ وما كنت ترجو أن
 يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) وقوله (٢٤: ٢١ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما
 زكى منكم من أحد أبداً. ولكن الله يزكى من يشاء) وأمثال ذلك. فيغيث عن شهيد ذلك.
 ويحيله على معرفته في كسبه وطلبه. فيحيله على نفسه التى لها الفقر بالذات، ويحببه عن الجلالة
 على الملئ التوفى الذى له الفنى التام كله بالذات فهذا من أعظم أسباب المكر. والله المستعان.
 ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ، فلا يئنى له أن يفارقه هذا الحذر. وقد خافه خيار خلفه،
 وصفوته من عباده. قال شعيب صلى الله عليه وسلم، وقد قال له قيمه (٧: ٨٨، ٨٩
 لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لنعودن في ملتنا. قال: أو لو كنا
 كارهين؟ قد افترينا على الله كذباً إن عُذنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها — إلى قوله
 — على الله توكلنا) فرد الأمر إلى مشيئة الله تعالى وعلمه، أديا مع الله، ومعرفة بحق الربوبية،
 ووقوفاً مع حد العبودية. وكذلك قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم لقمه — وقد خوفوه بأمتهم —
 فقال (٦: ٨٠) ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً. وسع ربي كل شيء
 علماً) فرد الأمر إلى مشيئة الله وعلمه. وقد قال تعالى (٧: ٩٩ أفاضلوا مكر الله؟ فلا يأمن
 مكر الله إلا القوم الخاسرين).

وقد اختلف السلف: هل يكره أن يقول العبد في دعائه اللهم لا تؤمّنني مكره؟
 فكان بعض السلف يدعوا بذلك. ومراده: لا تخذلني، حتى آمن مكره ولا أخافه؛ وكرهه
 مطرف بن عبد الله بن الشخير.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب عن إسحاق عن مطرف: أنه كان يكره أن يقول:
 اللهم لا تؤمّنني ذكرك، ولا تؤمّنني مكره. ولكن أقول اللهم لا تؤمّنني ذكرك، وأعوذ بك أن آمن
 مكره، حتى تكون أنت تؤمّنني.
 وبالجملة: فمن أحيل على نفسه فقد مُكِر به.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد — مولى بنى هاشم — حدثنا الصلت بن طريف المعول
 حدثنا غيلان بن جرير عن مطرف قال: وجدت هذا الإنسان ملقى بين الله عز وجل وبين
 الشيطان. فإن يعلم الله تعالى في قلبه بخيراً: جَبَذَهُ إليه. وإن لم يعلم فيه خيراً: وكَلَهُ إلى نفسه.
 ومن وكَلَهُ إلى نفسه هلك.

وقال جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن مطرف قال: لو أخرج قلبي فجعل في يدي هذه في اليسار. وحيء بالخير فجعل في هذه اليمى. ثم قُرِبَت من الأخرى ما استطعت أن أولج في قلبي شيئاً حتى يكون الله عز وجل يضمه.

وَمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفَرْحَ مِنْ أَسْبَابِ الْمَكْرِ، مَا لَمْ يُقَارَنْهُ خَوْفٌ: قَوْلُهُ تَعَالَى (٦: ٤٤) فَلَمَّا لِمَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ. حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً. فِإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) وَقَالَ قَوْمٌ قَارُونَ لَهُ (٢٨: ٧٦) لَا تَفْرَحْ. إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) فَالْفَرْحُ مَتَى كَانَ بِاللَّهِ، وَمَا تَرَى اللَّهَ بِهِ، مَقَارِناً لِلْخَوْفِ وَالْحَزَنِ: لَمْ يَضُرْ صَاحِبَهُ، وَمَتَى خَلَا عَنْ ذَلِكَ: ضَرَّهُ وَلَا يَدُ.

والذي يساعده على تصفية سروره من شوائب الطغيان: أن يبالغ في الشكر، ويكثر منه، مع تيقنه أنه لن يوفي شكره حقه مهما شكر، فإن شُكِرَ العبد لربه: نعمة من الله أنعم بها عليه. فهي تستدعى شكراً آخرَ عليها. وذلك الشكر نعمة أيضاً. فيستدعى شكراً ثالثاً. وعَلَّامٌ جَوَّارٌ. فلا سبيل إلى القيام بشكر الرب على الحقيقة. ولا يشكره على الحقيقة سواء. فإنه هو المنعم بالنعمة وبشكرها. فهو الشكور لنفسه، وإن سمي عبده شكوراً. فمدحة الشكر في الحقيقة: راجعة إليه، وموقوفة عليه. فهو الشاكر لنفسه بما أنعم على عبده. فما شكره في الحقيقة سواء.

والشكر هو صفة الرب جل جلاله وفعله. فإنه سمي نفسه بالشكور، كما قال تعالى (٤: ١٤٦) وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً) وقال أهل الجنة (٣٥: ٣٤) إِنْ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ). فاذا لاحظ العبد سبق الفضل من الله: علم أنه سبحانه إنما فعل ذلك لمحبهته للشكر، فانه تعالى يحب أن يشكر، كما قال موسى صلى الله عليه وسلم «يارب، هلأ ساويت بين عبادك؟ قال: اني أحب أن أشكر».

وإذا كان يحب الشكر فهو أولى أن يتصف به، كما أنه سبحانه وتره، يحب الوتر، جميل يحب الجمال، محسن يحب المحسنين، صبور يحب الصابرين، عفو يحب العفو، قوى والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف. فكذاك هو شكور يحب الشاكرين. فملاحظة العبد سبق الفضل تُشْهده صفة الشكر. وتبعته على القيام بفعل الشكر.

• ذكريات الابتداء تعيدك إلى الشكر بعد الغفور

لماذا نسي السالك نفسه، وفرح فرحاً لا يقارنه خوف، فليرجع بذكريته الى بدايات سلوكه، وحدة طلبه، عسى أن يعود الى سابق ما كان منه من السير الخشيت الذي كانت تسوقه الخشية، فيترك الغفور الذي لابد أن ينتج عن السرور.

فَتَحَلَّلْ الفترات للسالكين: أمر لازم لا بد منه. فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تدخله في محرم: رجبى له أن يمود خيراً مما كان.
قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه «إن لهذه القلوب إقبالا وإدبارا. فإذا أقبلت فحتوها بالنوافل. وإن أدبرت فألزموها الفرائض».
وفى هذه الفترات والغيوم والحجب، التى تعرض للسالكين: من الحكم مالا يعلم تفصيله إلا الله. وبها يتبين الصادق من الكاذب.

قال الكاذب: ينقلب على عقبيه. ويعود إلى رسوم طبيعته وهواه.
والصادق: ينتظر الفرج ولا يئس من روح الله. و يلقى نفسه بالباب طريحا ذليلاً مسكيناً مستكيناً، كالإناء الفارغ الذى لا شئ فيه البتة، ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له، لا بسبب من العبد — وإن كان هذا الافتقار من أعظم الأسباب — لكن ليس هو منك. بل هو الذى مَنَّ عليك به. وحردك منك. وأحلاك عنك. وهو الذى (٨: ٢٤) يحول بين المرء وقلبه) :

فإذا رأيته قد أقامك في هذا المقام، فاعلم. أنه يريد أن يرحلك. وبلا إناءك فإن وضعت القلب في غير هذا الموضع فاعلم أنه قلب مصيب. فسل ربه وتمن هو بين أصابعه: أن يرده عليك. ويجمع شملك به.

وقد أحرأبى صلى الله عليه وسلم «إن لكل عامل شرة. ولكل شرة فترة». فالطالب الجاد: لا بد أن تعرض له فترة. فيشتاق في تلك الفترة إلى حاله وقت الطلب والاجتهاد.

وربما كانت للسالك بداية ذات نشاط، كان فيها عالي المهمة، فيفيدة عند فتوره ان يرجع الى ذكريات تلك البداية، فتتجدد له العزيمة، ويعود الى دأبه في الشكر.
وكان الجنيد رحمه الله كثير لبدية سيره، وكان اذا ذكرها يقول: واشوقه الى اوقات البداية!

يعني: لذة اوقات البداية، وجمع المهمة على الطلب، والسير الى الله، والاعراض عن الخلق.
وهكذا نكون للمؤمن الشاكر الصادق بدايات عديدة مباركة، لا بداية واحدة، ويكون وقته عامراً مليئاً كله، لكل حين ما يناسبه، حتى ان التوفيق لكل عمل ينوبه يأتيه في الوقت الذي هو أليق له، وعند اشتداد الحاجة اليه.

وذلك لأن الشئ إذا وقع في وقته الذى هو أليق الأوقات بوقعه فيه: كان أحسن وأنفع وأجدى. كما إذا وقع الغيث في أحوج الأوقات إليه. وكما إذا وقع الفرج في وقته الذى يليق به.

ومن تأمل أقدار الرب تعالى، وجريانها في الخلق: علم أنها واقعة في أليق الأوقات بها. وقد استشهد المروي لذلك بقول الله تعالى (٢٠: ٤٠) جثت على قدر يا موسى).
 ووجه واستشهاده بالآية: أن الله سبحانه قدير بجي موسى أحوج ما كان الوقت إليه. فإن العرب تقول: جاء فلان على قدر. إذا جاء وقت الحاجة إليه. قال جرير:
 نال الخلافة إذ كانت على قدر كما أتى ربه موسى على قدر
 قُبِثُ الله سبحانه موسى: أحوج ما كان الناس إلى بعثته. وبعث عيسى كذلك.
 وَبَعَثُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ: أحوج ما كان أهل الأرض إلى إرساله.
 فهكذا وقت العيد مع الله يعمره بأنفع الأشياء له: أحوج ما كان إلى عمارته.
 وإذا أراد الله لعبده حراً: أعانه بالوقت، وجعل وقته مساعداً له وإذا أراد به شراً: جعل وقته عليه، وناكده وقته، فكلما أراد التأهب للمسير: لم يساعده الوقت، والاول: كلما همت نفسه بالعمود: أقامه الوقت وساعده.

• الرجاء الصافي يريك ما تأنس به

فإذا اقترب الصفاء بالشكر: صار الوقت وقت وَجْدٍ صادق، غير متكلف له، ولا متمعل في تحصيله، ومنحه هذا الوجد: الأُنْس بما يرى من فضل الله تعالى عليه.
 قال الله تعالى (٢٨: ٢٩) فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا، قال لأهله: امكثوا، اني آنست نارا.
 فليس هو مجرد الرؤية، بل رؤية ما يأنس به القلب ويسكن اليه. ولا يقال لمن رأى عدوه أو غمواً: آنسه.
 والمقصود: أن هذا الوقت وقت وجْدٍ، صاحبه صادق فيه لرؤيته ضياء فضل الله ومته عليه. و«الفضل» هو العطاء الذي لا يستحقه المعطى، أو يعطى فوق استحقاقه. فإذا آنس هذا الفضل، وطالعه بقلبه: أثار ذلك فيه وجداً آخر، باعثاً على محبة صاحب الفضل، والشوق إلى لقاءه، فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.
 ودخلت على بعض أصحابنا، وقد حصل له وجد أبكاه. فسألته عنه؟ فقال: ذكرت ما من الله به علي من الشنة ومعرفتها، والتخلص من شبة القوم، أي أهل البدع، وقواعدهم الباطلة، وموافقة العقل الصريح، والفترة السليمة، لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. فسرني ذلك حتى أبكاني.
 فهذا الوجد أثاره إيناس فضل الله ومته.

وهذا الوجد، أو الایناس، أو الفضل، انما يجذبه رجاء صاف غير مكدر، مقترن بشكر، والرجاء الصافي هو الذي لا يشوبه كدر توهم معاوضة منك، بل يكون رجاء عضاً لمن هو مبتدئك بالنعم من غير استحقاقك، والفضل كله له ومنه، وفي يده اسبابه وغاياته ولا يستطيع العبد ان ينال شيئاً بدون توفيقه وإذنه ومشيئته سبحانه وتعالى .

وبالمقابل، فان هناك من الوجد ما يبعث عليه صدق السالك في الخوف من الله تعالى، فالاول سببه الرجاء، وهذا سببه الخشية.

او تجذبه المحبة ايضاً، فان المحبة متى قويت: اشتعلت نارها في القلب، فحدث عنها لهيب الاشتياق الى لقاء الحبيب.

وهذه الثلاثة: الحب، والخوف، والرجاء: هي التي تبعث على عمارة الوقت بما هو الأول لصاحبه والأنفع له، وهي أساس السلوك، والسير إلى الله. وقد جمع الله سبحانه الثلاثة في قوله (١٧: ٥٧) أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة، أيهم أقرب. ويرجون رحمته. وخافون عذابه. إن عذاب ربك كان محذوراً) وهذه الثلاثة هي قطب رعى العبدية. وعليها دارت رعى الأعمال. والله أعلم.

﴿٥٥﴾ مَنَزِلَةُ الصَّفَاءِ

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين: «منزلة الصفاء».

قال الله عز وجل (٤٧: ٣٨) وَإِنَّهُمْ غَدْنَا لَمِنَ الْمَصْطَفِينَ الْآخِيَانِ.

و «الصفا» اسم للبراءة من الكدر.

ووجه الاستشهاد بالآية: أن «المصطفى» مفتعل من الصفة. وهى خلاصة الشيء تصفيته مما يشوبه: ومنه: اصطفى الشيء لنفسه. أى خلصه من شوب شركة غيره له فيه. ومنه «الحُفِيُّ» وهو السهم الذى كان يصطفيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه من الفئيمة ومنه: الشيء الصافي. وهو الخالص من كدر غيره.

● رخصة مرور... شرطها التجريد

واساسه: صفاء علم يُهْدَب لسلوك الطريق، و يصحح همة القاصد.

وهذا العلم الصافي هو العلم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان الجنيذ يقول دائماً: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة. فمن لم يحفظ القرآن و يكتب

الحديث، ولم يتفقه: لا يقتدى به.

وكان يقول: علمنا هذا متشكك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال أبو سليمان الداراني: إنه لتمر بقلبي النكتة من نُكَّتِ القوم. فلا أقبلها إلا بشاهدى

عدل، من الكتاب والسنة. وقال النصر ابادى: أصل هذا المذهب: ملازمة الكتاب والسنة.

وترك الأهواء والبدع، والاقتداء بالسلف، وترك ما أحدثه الآخرون. والإقامة على ما سلكه

الأولون.

فهذا العلم الصافي، المتلقى من مشكاة الوحي والنبوة: يهذب صاحبه لسلوك طريق

المجسدية. وحقيقتها: التأدب بآداب رسول الله صلى الله عليه وسلم باطناً وظاهراً. وتحميحه

باطناً وظاهراً. والوقوف معه حيث وقف بك. والمسير معه حيث سار بك.

فلا تحالعه البتة، ولكن احمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لك إماماً وقُدوةً وحكماً،
فتحيبه إذا دعاك، وتقف معه إذا استوقفك، وتسير إذا سارك، وتقبل إذا قال، وتترل إذا برل.
وتغضب لنفسه، وترضى لرضاء. وإذا أخبرك عن شيء أنزله منزلة ما تراه بعينك. وإذا أخبرك
عن الله بخبر أنزله منزلة ما تسمعه من الله بأذنك.
وبالجملة: فتجعل الرسول معلمك ومُؤدبك. وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا في
التبليغ. كما تسقط الوسائل بينك وبين المرسل في العودية. ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره
ونهيهِ ورسالته إليك.

وهذان التحريدان: هما شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. والله وحده هو
المعبود المألوه، الذي لا يستحق العبادة سواه، ورسوله: المطاع المتبع، المهتدى به، انذى لا
يستحق الطاعة سواه. ومن سواه: فأبما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته. فيطاع تبعاً للأصل.
فالعلم الحاصل بالتواهد والأدلة: هو العلم الحقيقي. وأما ما يدعى حصوله بغير شاهد ولا
دليل: فلا وثوق به. وليس يعلم. نعم قد يقوى العلم الحاصل بالشواهد ويتزايد، بحيث يصير
المعلوم كالمتهود، والعائب كالمعائن، وعلم اليقين كعين اليقين. فيكون الأمر شعوراً أولاً. ثم
تجويزاً، ثم ظناً، ثم علماً. ثم معرفة. ثم علم يقين. ثم حق يقين. ثم عين يقين. ثم تصمحل
كل مرتبة في التي فوقها، بحيث يصير الحكم لها دويهاً. فهذا حق.

وأما دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال: فليس بصحيح. فإن الله سبحانه
ربط التعريفات بأسبابها، كما ربط الكائنات بأسبابها. ولا يحصل لبشر علم إلا بدليل يدلّه
عليه. وقد أيد الله سبحانه رسله بأنواع الأدلة والبراهين التي دلتهم على أن ما جاءهم من عند
الله. ودلت أنهم على ذلك. وكان معهم أعظم الأدلة والبراهين على أن ما جاءهم هو من عند
الله. وكانت براهينهم أدلة وشواهد لهم وللأسم. فالأدلة والشواهد التي كانت لهم، ومعهم
أعظم الشواهد والأدلة. والله تعالى شهد تصديقهم بما أقام عليه من الشواهد. فكل علم لا يستند
إلى دليل مدعوى لا دليل عليها، وحكم لا برهان عند قائله. وما كان كذلك لم يكن علماً.
وفائدة هذا التقدير تظهر في فهم حقيقة «العلم اللدني» الذي يدعي البعض أن الله يقذفه
في قلوبهم المأمراً بلا سبب منهم ولا استدلال، فنحن نقول إن العلم اللدني: ما قام الدليل
الصحيح عليه: أنه جاء من عند الله على لسان رسله. وما عداه فلدني من لدن نفس الإنسان.
مسه بدأ وإليه يعود. وقد انتق سد العلم اللدني، ورخص سره. حتى ادعت كل طائفة أن
علمهم لدني. وصار من تكلم في حقائق الإيمان والسلوك وادب الأسماء والصفات بما يستحق له،
و يلقبه شيطانه في قلبه: يزعم أن علمه لدني.

وقد صدق هؤلاء وكذبوا، فإن «اللذني» منسوب إلى «لذن» بمعنى «عدو» فكانهم قالوا: العلم العتدي؛ ولكن الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لذنه. وقد ذم الله تعالى بأبلغ الذم من ينسب إليه ما ليس من عنده، كما قال تعالى (٣: ٧٥) ويقولون: هو من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) وقال تعالى (٢: ٢٩) فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله) وقال تعالى (٦: ٩٣) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب، أو قال: أوحى إلي، ولم يوح إليه شيء) فكل من قال:

هذا العلم من عند الله — وهو كاذب في هذه النسبة — فله نصيب وأقر من هذا الذم. وهذا في انقتران كثير. يذم الله سبحانه من أضاف إليه ما لا علم له به، ومن قال عليه ما لا يعلم. ولهذا رتب سبحانه المحرمات أربع مراتب. وجعل أشدها: القول عليه بلا علم. فجعله آخر مراتب المحرمات التي لا تباح بحال. بل هي محرمة في كل ملة، وعلى لسان كل رسول. فالتائل «إن هذا علم لذني» لما لا يعلم أنه من عند الله، ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده: كاذب مفتر على نفسه. وهو من أظلم الظالمين، وأكذب الكاذبين.

فالطريق مسدودة إلا على من اقتفى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم، واعتدى به في ظاهره وباطنه.

فلا يتعنى السالك على غير هذا الطريق. فليس حظه من سلوكه إلا التعم، وأعماله (٢٤: ٣٩) كسراب بقية يحسبه الظمان ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده. قوفاه حابه. والله سريع الحساب).

ولا يتعنى السالك على هذا الطريق. فإنه واصل ولوزحف زحفاً. فأتباع الرسول صلى الله عليه وسلم: إذا تعدت بهم أعمالهم، قامت بهم عزائمهم وقسمهم ومتابعهم لتبهم. كما قيل:

من لى بمثل سيرك المدلل تمشى روياً ونحى في الأول
والمحرمون عن طريقه، إذا قامت بهم أعمالهم واجتهاداتهم: قد بهم عدولهم عن طريقه.

بل الأعمال والاجتهادات على غير هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما هي أعمال جاهلية، مهما سماها عاملوها بأسماء إسلامية. كما كان أهل الجاهلية يسمون أعمالهم الجاهلية: إبراهيمية، وحيفية. فلن تقوم الأعمال الجاهلية بعاملها إلا كوصاً على الأعقاب، وانكأ على الوحوش يسمى وبكم وصم وعداوة لله ورسوله، وموالة للشيطان قال الله (٢٥: ٢٣) وقد منا إلى ما عملوا من عمل، فجعلناه هباءً منثوراً).

• هم الفلك السامي

وهذا الصفاء العلمي يصحح همة القاصد، ومتى صحت الهمة علت وارتفعت. فإن سقوطها ودناءتها من علتها وسقمها، وإلا فهي كالتار تطلب الصمود والارتفاع مالم تمنع.

وأعلى المهيم: همة اتصلت بالحق سبحانه طلباً وقصداً. وأوصلت الخلق إليه دعوة ونصحاً. وهذه همة الرسل وأتباعهم. وصحتها: بتميزها من انقسام طلبها، وانقسام مطلوبها، وانقسام طريقها. بل توحد مطلوبها بالإخلاص، وطلبها بالصدق، وطريقها بالسلوك خلف الدليل الذي نصبه الله دليلاً. لآمن نصبه هو دليلاً لنفسه.

وإذا أردت أن تعرف مراتب المهيم، فانظر إلى همة ربيعة بن كعب الأسلمي رضى الله عنه — وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «سلنى» — فقال «أسألك مرافقتك في الجنة» وكان غيره يسأله ما يملأ بطنه، أو يوارى جلده.

وانظر إلى همة إبراهيم واسماعيل، فإن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما بلغ ما بلغ — هو وولده — في المبادرة إلى الامتثال، والعزم على إيقاع الذبح المأمور به: ألقاه الوالد على جبينه في الحال. وأخذ الشفرة. وأهوى إلى حلقه — أعرض في تلك الحال عن نفسه وولده، وفنى بأمر الله عنهما. فتوسط بحر جمع السر والقلب والهم على الله وجاوز حد التفرقة المانعة من امتثال هذا الأمر.

قوله «فلما أسلما» أى استسلما وانقادا لأمر الله. فلم يبق هناك منازعة. لآمن الوالد ولا من الولد، بل استسلام صرف، وتسليم محض. قوله «وتلّه للجبين» أى صترعه على جبينه، وهو جانب الجبهة الذى يلى الأرض عند النوم، وتلك هى هيئة ما يراود ذبحه.

وانظر إلى همة رسول الله صلى الله عليه وسلم — حين عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض — فأبأها. ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها في طاعة ربه تعالى. فأبت له تلك الهمة العالوية: أن يتعلق منها بشئ مما سوى الله ومحابه. وعرض عليه أن يتصرف بالملك، فأبأ. واختار التصرف بالعبودية المحضة. فلا إله إلا الله، خالق هذه الهمة، وخالق نفس تحملها، وخالق هم لا تعدو هم أخس الحيوانات.

● رخصة إقامة ... شرطها النقاء

ومن الصفاء: صفاء الحال.

والحال ثمرة العلم، ولا يصنفو حال إلا بصفاء العلم المشر له، وعلى حسب شُوب العلم يكون شوب الحال. وإذا صفا الحال: وجد العبد حلاوة المناجاة.

فهذه الدرجة تختص بصفاء الحال، كما اختصت الأولى بصفاء العلم.

فمتى صفا له حاله من الشوائب خلصت له حلاوته من مرارة الأكدار. فذاق تلك الحلاوة في حال ساجاته. فلو كان الحال مشوباً مكثراً لم يجد حلاوة المناجاة. والحال المستندة إلى وارد تذاق به حلاوة المناجاة: هو من حضرة الأسماء والصفات، بحسب ما يصادف القلب من ظهورها وكشف معانيها.

فمن ظهر له اسم «الودود» — مثلاً — وكشف له عن معاني الاسم، ولطفه، وتعلقه بظاهر العبد وباطنه: كان الحال الحاصل له من حضرة هذا الاسم مناسباً له. فكان حال اشتغال حب وشوق، ولذة مناجاة، لا أحلى منها ولا أطيب، بحسب استغراقه في شهود معنى هذا الاسم. وحظه من أثره.

فإن «الودود» — إن كان بمعنى المودود، كما قال البخاري في صحيحه «الودود» الحبيب — واستغرق العبد في مطالعة صفات الكمال. التي تدعو العبد إلى حب الموصوف بها: أثر له صفاء علمه بها، وصفاء حاله في تعبد بمقتضاها سروراً وبهجة.

وكذلك إن كان اسم فاعل بمعنى «الواد» وهو المحب: أثرت له مطالعة ذلك حالاً تناسبه.

فإنه إذا شاهد بقلبه غنى كرمها جواداً، عزيزاً قادراً، كل أحد محتاج إليه بالذات. وهو غنى بالذات عن كل ما سواه. وهو — مع ذلك — يتوّد عباده ومحبيه، ويتوّد إليهم بإحسانه إليهم وتمفضله عليهم —: كان له من هذا الشهود حالة صافية خالصة من الشوائب. وكذلك سائر الأسماء والصفات. فصفاء الحال بحسب صفاء المعرفة بها.

(٥٦) منزل الفرج

ومن منازل إياك نعبد: «السرور والفرح».

قال الله تعالى (١٠: ٥٨ قل: بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا. هو خير مما يجمعون).

وتصدير الباب بهذه الآية في غاية الحسن. فإن الله تعالى أمر عباده بالفرح بفضلته ورحمته. وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة. فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم، محسن: يكون فرحه بمن أوصل ذلك إليه: أولى وأحرى. ونفذ كرمها في هذه الآية من المعنى.

قال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والحسن، وغيرهم «فضل الله» الإسلام. و«رحمته» القرآن. فجعلوا «رحمته» أحص من «فضله» فإن فضله الخاص: عام على أهل الإسلام، ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعض فجعلهم مسلمين بفضلته وأنزل إليهم كتابه برحمته. قال تعالى (٢٨: ٨٦) وما كنت ترجون أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه «فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلنا من أهله».

قلت: يريد بذلك. أن ههنا أمرين.

أحدهما: الفضل في نفسه. والثاني: استعداد المحل لقبوله، كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات. فيتم المقصود بالفضل، وقبول المحل له. والله أعلم.

و«الفرح» لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتى. فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور. وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضلته وبرحمته عقيب قوله (١٠: ٥٧) يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين). ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته، التي تتضمن الموعظة — وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة. فأخير سبحانه: أن ما أتى عباده من الموعظة — التي هي الأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، وشفاء الصدور، المتضمن لعافيتها من داء الجهل، والظلمة، والغي، والسفه — وهو أشد ألماً لها من أدواء البدن، ولكنها لما ألقت هذه الأدواء لم تحس بأنفسها. وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدين. فهناك يحضرها كل مؤلم

محزون. وما آتاهما من ربها الهدى الذى يتضمن ثلج الصدور باليقين، وطمانينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به. و«الرحمة» التى تجلب لها كل خير ولذة. وتدفع عنها كل شر ومؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها. أى هذا هو الذى ينبغى أن يُفترج به. ومن فرج به فقد فرح بأجل مفروح به. لا ما يجمع أهل الدنيا منها. فإنه ليس بموضع للفرح. لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة. وهو طيف خيال زار الصب فى المنام. ثم انقضى المنام. وول الطيف. وأعقب مزاره الهجران.

وقد جاء «الفرح» فى القرآن على نوعين. مطلق ومقيد.
فالمطلق: جاء فى الذم. كقوله تعالى (٢٨: ٧٦) لا تفرح. إن الله لا يحب الفرحين) وقوله (١١: ١٠) إنه لفرح فخور).

والمقيد: نوعان أيضاً. مقيد بالدنيا. يُنسى صاحبه فضل الله ومته. فهو مذموم. كقوله (٦: ٤٤) حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبسورون).
والثانى: مقيد بفضل الله وبرحمته. وهو نوعان أيضاً. فضل ورحمة بالسبب. وفضل بالسبب. فالأول: كقوله «قل بفضل الله وبرحمته. فبذلك فليفرحوا. هو خير مما يجمعون»
والثانى: كقوله (٣: ١٧٠) فرحين بما آتاهم الله من فضله).

فالفرح بالله، وبرسله، وبالإيمان، وبالسنة، وبالعلم، وبالقرآن: من أعلى مقامات العارفين. قال الله تعالى (٩: ١٢٤) وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول: أئبكم زادته هذه إيماناً؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون).
وقال (١٣: ٣٦) والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك).

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة: دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبة له، وإيثاره له على غيره. فإن فرح العبد بالشئ عند حصوله له: على قدر محبته له، ورغبته فيه. فمن ليس له رغبة فى الشئ لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته.
فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبيب بعد حصوله، والاستبشار: يكون به قبل حصوله. إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى (٣: ١٧٠) فرحين بما آتاهم الله من فضله. ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم).

و«الفرح» صفة كمال. ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواحد لراحته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة بعد فقد ههنا، واليأس من حصولها.

والمقصود: أن «الفرح» أعل أنوار نعيم القلب، لذته و بهجته. والفرح والسرور نعيمه. والحلم والحزن عذابه. والفرح بالشئ فوق الرضى به. فإن الرضى طمأنينة وسكون وانسراح. والفرح لذة وبهجة و سرور. فكل فرح راض. وليس كل راض فرحاً. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط. والحزن يؤلم صاحبه. والسخط لا يؤلم، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام.

و «السرو» والمسة: مصدر شرو سرورا ومسة. وكان معنى شرو: أثر في أسارير وجهه فإنه تيرق منه أسارير الوجه. كما قال شاعر العرب:

وإذا نظرت إلى أيسره وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

وأما الاستبشار: فهو من البشرى. والبشارة: هي أول خبر صادق سار.

و «البشرى» يراد بها أمران أحدهما: بشارة المخبر. والثاني سرور المخبر. قال الله تعالى (١٠: ٦٤) هم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) نُشرت «البشرى» بهذا وهذا. ففي حديث عبادة بن الصامت وأبي الدرداء رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له» .

وقال ابن عباس «بشرى الحياة الدنيا: هي عند الموت تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرى من الله، وفي الآخرة: عند خروج نفس المؤمن إذا خرجت يعرجون بها إلى الله، تُزفُّ كما تزفُّ المروس، تبشر برضوان الله».

وقال الحسن: هي الجنة. واختاره الزجاج والفراء. وفسرت بشرى الدنيا بالثناء الحسن، يجري له على ألسنة الناس. وكل ذلك صحيح.

فالثناء: من البشرى. والرؤيا الصالحة من البشرى، وتبشير الملائكة له عند الموت من البشرى. والجنة من أعظم البشرى. قال الله تعالى (٢: ٢٥) وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) وقال تعالى (٤١: ٣٠) وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون).

قيل: وسيت بذلك لأنها تؤثر في بشرة الوجه. ولذلك كانت نوعين «بشرى سارة» تؤثر فيه نصارة وبهجة «وبشرى عذبة» تؤثر فيه سُورا وعُجوساً. ولكن إذا أطلقت كانت للسرور. وإذا قيدت كانت بحسب ما تقيد به.

والله تعالى نسب الفرح إلى أحوال الدنيا في قوله تعالى «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة» وفي قوله تعالى لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين» وقوله تعالى «إنه لفرح فخور» فإن الدنيا لا تتخلص أفراحها من أحزانها وأتراحها ألبتة. بل ما من فرحة إلا ومعها ترحة سابقة، أو مقارئة، أو لاحقة. ولا تتجرد الفرحة. بل لابد من ترحة تقارنها. ولكن قد تقوى الفرحة على الحزن فينغمر حكمه والله مع وجودها. وبالعكس.

ولقد نزل القرآن أيضاً بالفرح في أمور الآخرة في مواضع، كقوله تعالى «فرحين بما آتاهم الله من فضله» وقوله تعالى «فبذلك فليفرحوا».

وورد اسم السرور في موضعين من القرآن في أحوال الآخرة. وهما:

قوله تعالى (٨٤: ٧-٩) فأما من أوتى كتابه بيمينه. فسوف يحاسب حساباً يسيراً * وينقلب إلى أهله مسروراً) والموضع الثاني: قوله (٧٦: ١١) ولقأهم نضرة وسروراً). وورد السرور في أحوال الدنيا في مواضع على وجه الذم. كقوله تعالى (٨٤: ١٠-١٣) وأما من أوتى كتابه وراء ظهره. فسوف يدعو ثبوراً. ويصلى سعيراً. وإنه كان في أهله مسروراً).

فقد رأيت ورود كل واحد من «الفرح» و«السرور» في القرآن بالنسبة إلى أحوال الدنيا وأحوال الآخرة.

والترجيح للفرح لأن الرب تبارك وتعالى يوصف به. ويطلق عليه اسمه، دون «السرور» فدل على أن معناه أكمل من معنى السرور، وأمر الله به في قوله تعالى «فبذلك فليفرحوا» وأثنى على السعداء به في قوله «فرحين بما آتاهم الله من فضله».

● الاتصال المطرب

وسرور قلب المؤمن إنما تجلبه هزتان: الأولى: هزة سرور ذوق، يذهب بثلاثة أحزان: حزن اورثه خوف الانقطاع. وحزن حاجته ظلمة الجهل. وحزن بعثته وحشة التفرق.

إذ لما كان «السرور» ضد الحزن. والحزن لا يجامعه: كان مُذهِباً له. ولما كان سببه: ذوق الشيء السار. فإنه كلما كان الذوق أتم: كان السرور به أكمل.

وهذا السرور يذهب بثلاثة أحزان:

الحزن الأول: حزن اورثه خوف الانقطاع، وهذا حزن المتخلفين عن ركب المحبين، ووفد المحبة: فأهل الانقطاع هم المتخلفون عن صحبة هذا الركب، وهذا الوفد. وهم الذين (٩: ٤٧) كره الله أنيعانهم. فنبططهم. وقيل: أقعدوا مع القاعدين) فنبط عزائمهم ومهمهم: أن تسير

إليه وإني جشته. وأمر قلوبهم أمراً كونياً قديراً: أن تقعد مع القاعدين المتخلفين عن السعى إلى محابه. فلو عاينت قلوبهم — حين أمرت بالقيود عن مرافقة الوفد، وقد غمرتها المصوم، وعقدت عليها محائب اللاء. فأحصرت كل حزن وغم، وأمواج القلق والحسرات تتقاذف بها، وقد غابت عنها السررات. ونابت عنها الأحزان — علمت أن الإبرار في هذه الدار في نعيم. وأن المتخلفين عن رفقتهم في جحيم.

وهذا الحزن يذهب به ذوق طعم الإيمان. فيديق الصديق طعم الوعد الذي وعد به على لسان الرسول. فلا يعقله ظن. ولا يقطعه أمل. ولا تعوقه أمنية — كما تقدم — فيباشر قلبه حقيقة قوله تعالى (٢٨: ٦١) أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لافيه، كمن متعناه متاع الحياة الدنيا. ثم هو يوم القيامة من المحضرين؟ وقوله تعالى (٣٥: ٥) يا أيها الناس، إن وعد الله حق. فلا تغرنكم الحياة الدنيا. ولا يغرنكم بالله الغرور) وقوله تعالى (٢: ٢٢٣) وقد موا لأنفسكم. واتقوا الله. واعلموا أنكم ملاقوه، وبشر المؤمنين) وأمثال هذه الآيات.

● بشاشة العلم

والحزن الثانی، الذي يذهب سرور الدوق، هو حزن ظلمة الجهل. والجهل نوعان: جهل علم ومعرفة، وجهل عمل وقِي. وكلاهما له ظلمة ووحشة في القلب. وكما أن العلم يوجب نورا وأنسا. فضده يوجب ظلمة ويوقع وحشة. وقد سمي الله سبحانه وتعالى «العلم» الذي يمت به رسوله نوراً، ويهدي وحياة. وسمى ضده: ظلمة وموتاً وضلالاً. قال الله تعالى (٢: ٢٥٧) الله ولي الذين آمنوا، يخرجهم من الظلمات إلى النور. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت. يخرجونهم من النور إلى الظلمات) وقال تعالى (٦: ١٢٢) أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها؟) وقال تعالى (٥: ٦٥) قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام. ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه. ويهديهم إلى صراط مستقيم) وقال تعالى (٤: ١٧٤) يا أيها الناس، قد جاءكم برهان من ربكم. وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً) وقال تعالى (٧: ١٥٧) فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه. أولئك هم المفلحون) وقال تعالى (٢: ٥٢) وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا. ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان. ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) فجعله «روحاً» لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. و«نوراً» لما يحصل به من الهدى والرشاد.

وَتَشَلُّ هَذَا النُّورُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ (٢٤: ٣٥) كَمَشْكَاةٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ. المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري. يوقد من شجرة مباركة زيتونة، لا شرقية ولا غربية. يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء).
وَتَشَلُّ حَالُ مَنْ فَقَدَ هَذَا النُّورَ: بِنِ هَوْنٍ (ظلمات في بحر ألجى بشاه موج، من فوقه موج، من فوقه سحب. ظلمات بعضها فوق بعض. إذا أخرج يده لم يكد يراها. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور).

• سَكِينَةُ الْجَمَاعَةِ

الحزن الثالث: حزن بعثته وحشة التفرق. وهو تفرق المم والقلب عن الله عز وجل. ولهذا التفرق حزن مُبِغِضٌ عَلَى فَوَاتِ جَمِيعَةِ الْقُلُوبِ عَلَى اللَّهِ وَلِذَاتِهَا وَنَعِيمِهَا. فلو فرضت لذات أهل الدنيا بأجمعها حاصلة لرجل، لم يكن لها نسبة إلى لذة جمعة قلبه على الله، وفرحه به، وأنسه بقربه، وشوقه إلى لقائه. وهذا أمر لا يصدق به إلا من ذاقه. فإنما يصدقك من أشرق فيه ما أشرق فيك والله در القائل:

أيا صاحبي، أما ترى نارهم؟ فقال: تريني مالا أرى
سفاك الغرام، ولم يسقنى فأبصرت مالم أكن مبصرا

فلو لم يكن في التفرق المذكور إلا ألم الوحشة، ونكد التشمت، وغبار التبعث. لكفى به عقوبة، فكيف؟ وأقل عقوبته: أن يبتلى بصحبة المنقطعين ومعاشرتهم وخدمتهم. فتصير أوقاته — التي هي مادة حياته — ولا قيمة لها، مستغرقة في قضاء حوائجهم، ونيل أغراضهم. وهذه عقوبة قلب ذاق حلاوة الإقبال على الله، والجمعية عليه، والأنس به. ثم أثر على ذلك سواء. ورضى بطريقة بني جنسه، وماهم عليه. ومن له أدنى حياة في قلبه، ونور. فإنه يستغيث قلبه من وحشة هذا التفرق.
ففى القلب شعث، لا يُلَمُّه إلا الإقبال على الله. وفيه وحشة، لا يزيلها إلا الأس به في خلوته.

وفيه حزن: لا يذهب إلا السرور بمعرفة. وصدق معاملته.
وفيه قلق: لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه.
وفيه نيران حشرات: لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه، وقضائه ومعاينة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه جَلْب شديد: لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه.
 وفيه طاقة: لا يسدها إلا محبة، والإجابة إليه، ودولم ذكره، وصدق الإخلاص له. ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تُش تلك الطاقة منه أبداً.
 فالتفرق يوقع وحشة الحجاب. والله أشد من ألم العذاب، قال تعالى (٨٣: ١٥، ١٦) كلا. إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم) فاجتمع عليهم عذاب الحجاب. وعذاب الجحيم.
 فالحزن يتولد من مفارقة المحبوب. ليس له سبب سواه. وإن تولد من حصول مكروه، فذلك المكروه: إنما كان كذلك لما فات به من المحبوب. فلا حزن إذاً، ولا هم ولا غم، ولا أذى ولا كرب إلا في مفارقة المحبوب. ولهذا كان حزن الفقر والمرض، والألم والجهل، والخمول والضيق، وسوء الحال ونحو ذلك: على فراق المحبوب، من المال، والوَجْد والعافية، والعلم، والسمة، وحسن الحال. ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى مفارقة المشتتهات من أعظم العقوبات. فقال تعالى (٣٤: ٥٤) وحيل بينهم وبين ما يشتهون، كما قيل بأشياءهم من قبل. إنهم كانوا في شك مريب) فالفرح والسرور: بالظفر بالمحبوب. والهم والغم والحزن والأسف: بفوات المحبوب. فأطيب العيش: عيش المحب الواصل إلى محبوبه. وأمر العيش: عيش من حيل بينه وبين محبوبه.

● يا قومنا : اجيبوا داعي الله

اما هزة الطرب الشانية فهي هزة سرور سماع الاجابة، وهو سرور يحو آثار الوحشة. وهو مقيد بكونه «سماع إجابة» فإنه السماع المنتفع به، لا مجرد سماع الإدراك. فإنه مشترك بين المجيب والمعرض. وبه تقوم الحجة. وينقطع العذر. ولهذا قال الله عن أصحابه (٤: ٤٥) سمعنا وعصينا) وقال النبي صل الله عليه وسلم — لليهودي الذي سأله عن أمور من الغيب — (ينفعك إن حدثتكَ؟) قال: أشتع بأذني. وأما سماع الاجابة: ففي مثل قوله تعالى «٩: ٤٧) وفيكم سماعون لهم» أي مستجيبون لهم. وفي قوله (٥: ٤١) سماعون للكذب) أي: مستجيبون له. وهو المراد. وهذا المراد بقول المصلي «سمع الله لمن حمده» أي أجاب الله حمده من حمده. وهو السمع الذي نفاه الله عز وجل عن من لم يرد به خيراً. في قوله (٨: ٢٣) ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) أي لسمعهم يسمعون سماع إجابة وانقياد. وقيل: المعنى لأفهمهم. وعلى هذا يكون المعنى لأسمع قلوبهم فإن سماع القلب يتضمن الفهم.
 والتحقيق: أن كلا الأمرين مراد. فلو علم فيهم خيراً لأفهمهم، ولسمعهم يستجيبون لما سمعوه وفهموه.

والمقصود: أن «سماع الإجابة» هو سماع انقياد القلب، والروح، والجوارح، لما سمعت الأذان، وهو يزيل بقايا الوحشة التي سببها ترك الانقياد التام. فإنه على قدر فقد ذلك: تكون الوحشة. وزوالها إنما يكون بالانقياد التام.

وقد بين الله سبيل حصول هذه المرة فقال (٥١: ٣٧) إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد).

قاله سبحانه كلامه ذكرى، لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة. أحدها: أن يكون له قلب حي واع. فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى. الثاني: أن يصغي بسمعه. فيقبله كله نحو المخاطب. فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه. الثالث: أن يحضر قلبه وذهنه عند الكلام له. وهو «الشهيد» أي الحاضر غير الغائب. فإن غاب قلبه، وسافر في موضع آخر: لم ينتفع بالمخاطب.

وهذا كما أن البصر لا يدرك حقيقة المرئي إلا إذا كانت له قوة مبصرة، وحذق بها نحو المرئي. ولم يكن قلبه مشغولاً بغير ذلك. فإن فقد القوة المبصرة، أو لم يحذق نحو المرئي، أو حذق نحوه ولكن قلبه في موضع آخر: لم يدركه. فكثيراً ما يربك إنسان أو غيره، وقلبك مشغول بغيره. فلا تشعر بمروره. فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره، وكمال الإصغاء.

فإذا اجتمع إلى ذلك سماع إجابة من الرب عز وجل: تم السرور، فإن العبد إذا دعا ربه فسمع ربه دعاءه سماع إجابة، وأعطاه ما سأل، على حسب مراده ومطلبه، أو أعطاه خيراً منه: حصل له بذلك سرور يحو من قلبه آثار ما كان يجده من وحشة البعد. فإن للعطاء والإجابة سروراً وأنساً وحلاوة. وللمنع وحشة ومرارة. فإذا تكررت منه الدعاء، وتكرر من ربه سماع وإجابة لدعائه: محاه آثار الوحشة. وأبدلها بها أنساً وحلاوة.

(٥٧) مَنَزِلَةُ السِّرِّ

ومن منازل إياك نعبد: منزلة «السِّر».

قال صاحب المنازل:

«باب السر. قال الله تعالى (١١: ٣١) الله أعلم بما في أنفسهم» أصحاب السر: هم الأخفياء، الذين ورد فيهم الخبر».

أما استشهاده بالآية، فوجهه: أن أتباع الرسل، الذين صدقوهم، وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم: قد أودع الله قلوبهم سرّاً من أسرار معرفته ومحبه، والإيمان به، خفى على أعداء الرسل. فنظروا إلى ظواهرهم. وعموا عن مواطنهم. فازدروهم واحتقروهم. وقالوا للرسول «اطرد هؤلاء عنك. حتى نأتيك ونسمع منك» وقالوا (٦: ٥٣) هؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ فقال نوح عليه السلام لقومه (١١: ٣١) ولا أقول لكم عندى خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، ولا أقول للذين تردى أعينكم: لن يؤتيهم الله حيراً. الله أعلم بما في أنفسهم. إني إذا لمن الظالمين) قال الزجاج: المعنى إن كنتم تزعمون أنهم إماما اتبعوننى في بادية الرأي وظاهره، فليس على أن أطلع على ما في أنفسهم. فإذا رأيت من يوحد الله عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله. وهذا معنى حسن.

والذى يظهر من الآية: أن الله يعلم ما في أنفسهم، إذ أهلهم لقبول دينه وتوحيده، وتصديق رسوله. والله سبحانه وتعالى عليم حكيم. يضع العطاء في مواضعه. وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى (٦: ٥٣) وكذلك قَتَلْنَا بعضهم ببعض، ليقولوا: هؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين؟ فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهلهم للهدى والحق، وحرّمه رؤساء الكفار وأهل العزة والثروة منهم. كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة. فأخبر الله سبحانه: أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده: من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد بفضل المنعم، ومحبه وشكره عليها. وليس كل أحد عنده هذا السر. فلا يؤهل كل أحد لهذا لعطاء.

قوله «أصحاب السر: هم الأخفياء. الذين ورد فيهم الخبر».

قد يريد به: حديث سعد بن أبي وقاص - حيث قال له ابنه «أنت ههنا والناس يتنازعون في الإمارة؟ فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله يحب العبد التقي الغنى الحقي».

وقد يريد به: قوله صلى الله عليه وسلم «رُبَّ أَشَقَّتْ أَغْبَر، مَدْفُوعٌ بِالْأَبْوَابِ لَا يُؤْتَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَجْرِهِ»

وهم على طبعين: الطبقة الأولى: طائفة علت مهمهم، وصفت قصودهم، وصح سلوكهم، حتى سبقوا السائرين، فلم يوقف لهم على رسم، ولم يُنسبوا إلى اسم، ولم يُشر إليهم بالأصابع. أي إن لهم ثلاث صفات ثبوتية. وثلاثاً سلبية.

الأولى: «علو مهمهم» وعلو الهمة: أن لا تقف دون الله، ولا تتعوض عنه بشيء سواه. ولا ترضى بغيره بدلا منه. ولا تبغ حظها من الله، وقربه والأنس به، والفرح والسرور والابتهاج به، بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية. فالهمة العالية على المهم: كالطائر العالي على الطير. لا يرضى بمساقتهم. ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم. فإن «الهمة» كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها. وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان. فإن الآفات قواطع وجواذب، وهي لا تملأ إلى المكان العالي فتجذب منه. وإنما تجذب من المكان السافل. فلهمة المرء: عنوان فلاحه. وسفول همة: عنوان حرمانه.

العلامة الثانية: «صفاء القصد» وهو خلاصه من الشوائب التي تعوقه عن مقصوده. فصفاء القصد: تجريده لطلب المقصود له لا لغيره. فهاتان آفتان في القصد. إحداها: أن لا يتجرد المطلوبه. الثانية: أن يطلبه لغيره لا لذاته.

ويراد به: خلوص القصد من كل إرادة تراحم مراد الرب تعالى. بل يصير القصد مجرداً لمراده الديني الأمرى.

وعلامته: اندراج حظ العبد في حق الرب تعالى. بحيث يصير حظه هو - نفس حق ربه عليه. ولا ينفق على البصير الصادق علو هذه المنزلة.

العلامة الثالثة «صحة السلوك» وهو سلامته من الآفات والموانق والقواطع والخُجب. وهو إنما يصح بثلاثة أشياء.

أحدها أن يكون على الدرب الأعظم، الدرب النبوي المحمدي، لاعلى الجواذِ الوضعية، والرسوم الاصطلاحية. وإن زخرفوا لها القول، ودققوا لها الإشارة، وحسنوا لها العبارة. فثلك من بقايا النفوس عليهم وهم لا يشعرون.

الثاني: أن لا يجيب على الطريق داعي البطالة والوقوف والدعة.

الثالث: أن يكون في سلوكه ناظراً إلى المقصود. وقد تقدم بيان ذلك.

فهذه الثلاثة يصح السلوك. والعبارة الجامعة لها: أن يكون واحداً لواحد، في طريق واحد.

فلا ينتقسم طلبه ولا مطلوبه. ولا يتلون مطلوبه، بل يسعى إلى تخليص قصده من العلائق والعوائق، التماساً للحقائق، فيغيب عن عاداته، ليقطع بذلك العلائق. وهي ما يحقق بقلبه وقالبه وحسه من المألوفات. ويسبق العوائق، حتى لا تلحقه ولا تدركه.

وهذه الغيبة إما تكون لاتماس الحقائق. فإن «العوائق» و«العلائق» تحول بينه وبين طلبها وحصولها لمضادتها لها.

و«الحقائق» جمع حقيقة، ويراد بها: الحق تعالى وما نسب إليه. فهو الحق، وقوله الحق، ووعدته الحق، ولقاؤه حق، ورسوله حق، وعبوديته وحده حق، وعبودية ما سواه الباطل. فكل شيء ما خلا الله باطل.

والمقصود: أن المرید إن لم يتخلص قصده في مطلوبه عما يعوقه من الشواغل، أو ما يدركه من المحوقات: لم يبلغ مقصوده. ولم يصل إليه، وإن وصل إليه فبعد جهد شديد ومشقة، بسبب تلك الشواغل. ولم يصل القوم إلى مطلبهم إلا مقطع العلائق، ورفض الشواغل.

وصحة السلوك لاتميت الطبيعة والنفس بالكلية، ولولا ذلك لما قام سوق الامتحان والتكليف في هذا العالم. بل قهراً بسلطان العلم والمعرفة والإيمان والمحبة. والمقهور المغلوب لابد أن يتحرك أحياناً — وإن قلَّت — ولكن حركة أسير مقهور، بعد أن كانت حركته حركة أمير مملوك.

فمن تمام إحسان الرب إلى عبده، وتعريفه قدر نعمته: أن أراه النفس التي كانت حاكماً عليه، قاهراً له: مقهورة مغلوبة. فحينئذ يستغيث العبد بربه ووليه، ومالك أمره كله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك.

وأيضاً فإنه يزِيل من قلبه آفة الركون إلى نفسه، أو عمله أو حاله. كما قيل: إن ركنت إلى العلم: أسيناه. وإن ركنت إلى الحال: سلباك إياه. وإن ركنت إلى المعرفة: حجبناها عنك. وإن ركنت إلى قلبك: أفسدناه فلا يركن العبد إلى شيء سوى الله البتة. ومتى وجد من قلبه ركوناً إلى غيره: فليعلم أنه قد أحيل على مفلس، بل معدم. وأنه قد فتح له الباب مكرراً. فليحذر ولوحه.

واعلم أن كل مامتك حجاب على مطلوبك. فإن وقعت معه فأنت دون الحجاب. وإن قطعت إلى تجريد المطلوب صرت فوق الحجاب. فطلبك وإرادتك وتوكلك، وحالك وعملك: كله حجاب. إن وقفت معه. أوركنت إليه. وإن جاوزته إلى الذي انت به وله، وفي يديه، وتحت تصرفه ومشيته. وليس لك ذرة واحدة إلا به ومنه. ولم تقف مع طلبك في إرادتك: فقد صرت فوق حجاب الطلب.

ومن أعظم الضرر: حجاب القلب عن الرب. وهو أعظم عذاباً من الجحيم، قال تعالى (٨٣: ١٥ و١٦) كلا، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم). فالعارف قلبه غير محجوب، بل يعيش في نور ظفريه بإقبال قلبه على الله عز وجل، وجمع همه عليه، وفنائه بمراده عن مراد نفسه. فصار واحداً لما أكثر الخلق فاقد له. قد لس قلبه نور ذلك الوجود، حتى قاض على لسانه وجوارحه، وحركاته وسكناته. فإن نطق علاه النور وإن سكنت علاه النور. والحجب عشرة: حجاب التعطيل، ونمى حقائق الأسماء والصفات. وهو أعظمها. فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله، ولا يصل إليه ألبتة إلا كما يتهيأ للحجر أن يصعد إلى فوق.

الثاني: حجاب الشرك، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.

الثالث: حجاب البدعة القولية، كحجاب أهل الأهواء والمقالات الفاسدة على اختلافها.

الرابع: حجاب البدعة العملية. كحجاب أهل السلوك المتدعين في طريقتهم وسلوكهم.

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد، والفخر والخيلاء وسحوا.

السادس: حجاب أهل الكسائر الظاهرة، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة، مع كثرة عباداتهم، ورهاداتهم واجتهاداتهم. فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك. فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة. فأهل الكبائر الظاهرة: أدنى إلى السلامة منهم. وقلوبهم خير من قلوبهم.

السابع: حجاب أهل الصغائر.

الثامن: حجاب أهل الفصلات، والتوسع في المباحات.

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم، وما لله عليهم من دواء ذكره وشكره وعبوديته.

العاشر: حجاب المجتهدين السالكين، المشمرين في السير عن المقصود.

فهذه عشر حجب بين القلب وبين الله سبحانه وتعالى، تحول بينه وبين هذا الشأن، وهذا الحجب تنشأ من أربعة عناصر: عنصر النفس، وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوى فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب ألبتة.

وهذه الأربعة العناصر: تفسد القول، والعمل، والقصد، والطريق، بحسب غلبتها وقتلتها. فتقطع طريق القول والعمل والقصد: أن يصل إلى القلب. وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق: أن يصل إلى الرب. حين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عائب ما هنالك. وفي هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون. فإن حاربهم وتخلص العمل إلى قلبه دار فيه. وطلب النفوذ من هناك إلى الله. فإنه لا يستقر دون الوصول إليه (٥٤: ٢٢) وأن إلى ربك المنتهى) فإذا وصل إلى الله سبحانه أثابه عليه مزيداً في إيمانه و يقينه وعقله. وتَحَمَّلَ به طاهره و باطنه. فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال. وصرف عنه به سيئ الأخلاق والأعمال. وأقام الله سبحانه من ذلك العمل للقلب جنداً يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه. فيحارب الدنيا بالرهد فيها، وإخراجها من قلبه، ولا يصره أن تكون في يده وبيته، ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة. يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعي الهوى. فأن الشيطان مع الهوى لا يفارقه ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق، والوقوف معه، بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله و يتركه. ويحارب النفس بقوة الإخلاص.

هذا كله إذا وجد العمل منفذاً من القلب إلى الرب سبحانه وتعالى. وإن دار فيه ولم يجد منفذاً وتَنَبَّطَ عليه النفس، فأخذته وصيرته جنداً لها. فصالت به وغلَّت وطعت. فنراه أزهى ما يكون، وأعمد ما يكون، وأشدّه اجتهداً، وهو أعمد ما يكون عن الله. وأصحاب الكبار أقرب قلوباً إلى الله منه، وأدنى منه إلى الإخلاص والخلاص.

فانظر إلى السجادة العباد. الزاهد الذي بين عييه أثر السجود، ذي الخويرة التيممي الخنازحي، كيف أورثه طغيان عمله: أن أنكر على النبي صلى الله عليه وسلم، وأورث أصحابه احتقار المسلمين، حتى سلوا عليهم سيوفهم، واستباحوا دماءهم.

وانظر إلى الشريب السكر. الذي كان كثيراً ما يؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فيجحد على الشراب، كيف قامت به قوة إيمانه و يقينه، وعجته لله ورسوله، وتواضعه وانكساره لله. حتى بهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لعنته، وهو عياص بن جمار رضي الله عنه. فظهر بهذا: أن طغيان المعاصي أسلم عاقبة من طغيان الطاعات.

وأما الصمات الثلاث السلية للطبقة الأولى من اصحاب الير، فأولها: سقم الساترين، بحيث لم يوقف لهم على رسم، فانهم — لعلو مهمهم — قد سقوا الناس فلم يقفوا معهم، فهم المفردون السابقون. فلسبقهم لم يوقف لهم على أثر في الطريق. ولم يعلم المتأخر عنهم أين سلكوا؟ والمشمع بعدهم: قد يرى آثار نيرانهم على بعد عظيم كما يرى الكوكب، ويستخير عن رآهم: أين رآهم؟ فحاله كما قيل:

أسائل عنكم كل غاد ورائح وأومي إلى أوطانكم، وأسلم

العلامة الثانية: انهم لم ينسبوا إلى أسم، أى لم يشتهروا باسم يعرفون به عند الناس من الأسماء التى صارت أعلاماً لأهل الطريق.

وأيضاً، فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد، ويمرّ عليهم اسمه. فيعرفون به دون غيره من الأعمال. فإن هذا آفة في العبودية. وهى عبودية مقيدة. وأما العبودية المطلقة: فلا يعرف صاحبها باسم معين من معانى أسمائها. فإنه عجيب لداعيها على اختلاف أنواعها. فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم. فلا يتقيد برسم ولا إشارة، ولا اسم ولا بزي، ولا طريق وضعى اصطلاحى. بل إن سئل عن شيخه؟ قال: الرسول. وعن طريقه؟ قال: الأتباع. وعن غيرته؟ قال لباس التقوى. وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة. وعن مقصوده ومطلبه؟ قال (٦: ٥٢ يريدون وجهه) وعن رباطه؟ قال (٢٤: ٣٦ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه. يسبح له فيها بالقنود والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) وعن نسيه؟ قال:

أبى الإسلام. لا أب لى سواه إذا افتخروا بقبس أو تميم

والعلامة الثالثة: أنهم — لحقائهم عن الناس — لم يعرفوا بينهم، حتى يسيروا اليهم بالاصابع. أولئك ذخائر الله حيث كانوا، إذ انهم لما كانوا مستورين عن الناس بأسبابهم، غير مشار اليهم، ولا متميزين برسم دون الناس، ولا متنين إلى اسم طريق، أو مذهب، أو شيخ: كانوا بمنزلة الذخائر المخبوة. وهؤلاء أبعد الخلق عن الآفات. فإن الآفات كلها تحت الرسوم والتقيدها. ولزوم الطرق الاصطلاحية، والاضاع المتداولة الحادثة. هذه هى التى قطعت أكثر الخلق عن الله، وهم لا يشعرون. والعجب أن أهلها: هم المعروفون بالطلب والارادة، والسير إلى الله. وهم — إلا الواحد بعد الواحد — المقطوعون عن الله بتلك الرسوم والقيود.

وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ فقال: ما لا اسم له سوى «السنة».

يعنى: أن أهل السنة ليس لهم اسم ينسبون إليه سواها.

فمن الناس: من يتقيد بلباس لا يلبس غيره. أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره، أو مشية لا يمشى غيرها، أو بزي وهينة لا يخرج عنهما، أو عبادة معينة لا يتبع بغيرها. وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره. وإن كان أقرب إلى الله ورسوله منه. فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظفر بالمطلوب الأعلى، مصدودون عنه. قد قيدتهم العوائد والرسوم، والاضاع والاصلاحات عن تجريد المتابعة. فأضحوا عنها بمنزل، ومنزلتهم منها أبعد منزل. فترى أحدهم يتعبد بالرياضة والحلوة، وتفرغ القلب. ويعد العلم قاطعاً له عن الطريق. فإذا ذكر له الموالاة

فى الله؁ والمعاداة فففه؁ والأمر بالمعروف؁ والنهى عن المنكر: عَدَ ذلك فضولاً وشرأ. وإذا رأوا سففنفهم من فقوم بذلك: أخرجوه من بفنفهم. وعدوه ففرفأ عفلفهم. ففؤلاء أبعء الناس عن الله. وإن كانوا أكفر إشارة. والله أعلم.

• اصحاب السر الاعمق

الطبعة الثانية: طائفة أشاروا عن مرل؁ وهم فى ففرفه. وورؤوا بأمر؁ وهم لففرفه. ونادوا على شأن؁ وهم على ففرفه. فهم بفن عفرفة عفلفهم تسترفهم. وأءب فففهم ففصونفهم. وقزف ففءبفهم. أهل هذه الطبقة استسروا أفتارأ وإرادة لذلك؁ صبابة لأحوالهم؁ وكمالاً فى مكنفهم. فمقاماتفهم عالة. لا ترمقها العفون. ولا فحالطها الظنون. ففشفون إلى ما فعرفه المخابط من مقامات المرفدن السالكفن؁ وبءاباى السلوك. وفحفون ما مكنفهم فى الحق سبحانه وتعالى؁ من أحوال المحبة ومواجفءها؁ وآثار المعرفة وتوففءها. ففذه هى «التورفة»

فكانفهم فطفرون للمخابط: أنفهم من أهل الداباى. وهم فى أعل المقامات. فتكلمون معهم فى البءابة والارادة والسلوك؁ ومقامفهم فوق ذلك. وهم محقون فى الحالفن. لكنفهم فسترون أشرف أحوالهم ومقاماتفهم عن الباس.

وبالجملة: فهم مع الباس فظواهرهم. فحاطونفهم على قدر عقولهم؁ ولا فحاطونفهم بما لا فاصل إلىفهم عقولهم؁ ففنكرون عفلفهم. ففحبسبهم المخابط مثله. فالناس عنءهم. ولفسوا هم عنء أءء. ففشفون إلى منرل «التوفة» و«المحاسنة»؁ وهم فى منرل «المحبة» و«الوءء» و«الءوق». و التورفة: أن فذكر لفظأ ففهم به المخابط معى؁ وهورفء ففرفه. مثاله: أن فقول أءءهم: أنا فنى. فففهم المخابط له أنه فنى بالشفء. ومراءة: فنى بالله عنه. كما قفل:

ففىء بلا مال عن الناس كلهم وإن الفنى العالى عن الشفء. لابه

فهم بفن عفرفة عفلفهم تسترفهم؁ أى فعار الحق سبحانه عفلفهم؁ ففسترفهم عن الخلق. وففارون على أحوالهم ومقاماتفهم. ففسترون أحوالهم عن رؤفة الخلق لها. و بفن اءب فففهم ففصونفهم؁ وظرف ففءبفهم.

وهو أن فقوم بهم أءب ففصونفهم عن طس السوء بهم؁ و ففصونفهم عن ءناءة الأخلاق والأعمال. فأءبهم ففوان على أحوالهم؁ فهمته العلفة ترتفع به. وأءفه فرفسوه إلى التراب. كما قفل:

أفبلج سفلل الأخلاق؁ ممئع
إفءترقئت به عزائفه
ففرزه الءهر. وهو فحئب
إلى الشرفا. رسا به الءب

فأدب المريد والسالك: صوان له. وتاج على رأسه.

و «الظرف» في هذه الطائفة: أحلى من كل حلو. وأرين من كل زين. فما قرئ شيء إلى شيء أحسن من ظرف إلى صدق وإخلاص، وسير مع الله وجمية عليه. فإن أكثر من غنى بهذا الشأن تضيق نفسه وأخلاقه عن سوى ما هو بصدده. فتثقل وطأته على أهله وحليسه. ويتيسر عليه يبشيره، والتبسط إليه، ولين الجانب له. ولعمرك إنه لمحدور، وإن لم يكن في ذلك بمشكور. فإن الخلق كلهم أغيار. إلا من أعانك على شأنك، وساعدك على مطلوبك.

فإذا تمكن العبد في حاله. وصار له إقبال على الله، وجمية عليه — ملكة ومقاماً راسخاً — أسس بالخلق وأنسوا به. وانبط إليهم وحلمهم على صلهم وبطه سيرهم. فعمكت القلوب على محبته للطفه وظرفه. فإن الناس ينفرون من الكثيف ولوبلغ في الدين ما بلغ. والله ما يجلب اللطف والظرف من القلوب. ويدفع عن صاحبه من الشر. ويسهل له ما توغر على غيره. فليس الشقلاء بخواص الأولياء. وما ثقل أحد على قلوب الصادقين المخلصين إلا من آفة هناك. وإلا فهذه الطريق تكسو العبد حلاوة، ولطافة وظرفاً. فترى الصادق فيها: من أحلى الناس، وأنطفهم وأظرفهم. قد زالت عنه ثقالة النفس، وكدورة الطبع. وصار روحانياً سمائياً، بعد أن كان حيوانياً أرضياً. فتراه أكرم الناس عشرة، وألينهم عريكة، وأنطفهم قلباً وروحاً. وهذه خاصة المحبة. فإنها تلطف وتظرف وتنظف.

ومن ظرف أهل هذه الطبقة: أن لا يظهروا أحدهم على جلسيه بحال ولا مقام. ولا يواجهه إذا لقيه بالحال. بل يلين الجانب، وخفض الجناح، وطلاقة الوجه. فيفرش له بساط الأنس ويجلبه عليه. فهو أحب إليه من الفرش الوثيرة.

وبالجملة: فهذه الطريق لا تنافي اللطف والظرف.

لكن ههنا دقيقة قاطعة. وهي الاسترسال مع هذه الأمور. فإنها أقطع شيء للمريد والسالك. فمن استرسل معها قطعت. ومن عاداها بالكلية وثّرت عليه طريق سلوكه. ومن استعان بها أراحته في طريقه. أو أراحته غيره به. وبالله التوفيق.

(٥٨) فَنَزَّلْنَا الْغُرَبَاءَ

ومن منازل إياك نعبد منزلة «الغربة»

قال شيخ الإسلام: «(باب الغربة) قال الله تعالى (١١: ١١٦) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؟ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ».

استشهاده بهذه الآية في هذا الباب يدل على رسوخه في العلم والمعرفة، وفهم القرآن. فإن الغرباء في العالم. هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية. وهم الذين أشار إليهم النبي صلى الله عليه وسلم في قوله «بدأ الإسلام غربياً. وسيمود غربياً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يارسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس» وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن زهير عن عمرو بن أبي عمرو — مولى المطلب بن حنطب — عن المطلب بن حنطب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «طوبى للغرباء. قالوا: يارسول الله، ومن الغرباء؟ قال: الذين يزيدون إذا نقص الناس».

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظاً — لم ينقلب على الراوى لفظه وهو «الدين يقصون إذا زاد الناس» — فمعناه: الذين يزيدون حيراً وإيماناً وتقى إذا نقص الناس من ذلك. والله أعلم.

وفي حديث الأعمش عن أبي إسحاق — عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الإسلام بدأ غربياً. وسيمود غربياً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء، يارسول الله؟ قال: الشُّرَاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ» وفي حديث عبد الله بن عمرو قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم — ذات يوم، ونحن عنده — «طوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء، يارسول الله؟ قال: ناس صالحون قليل في ناس كثير. من بعضهم أكثر من بطيئهم».

وقال أحمد: حدثنا الميثم بن جيل حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عثمان بن عبد الله عن سليمان بن هرم عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن أحب شيء إلى الله الغرباء. قيل: فويل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم. يجتمعون إلى عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة».

وفي حديث آخر «بدأ الإسلام غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: الذين يحبون مستحيي. ويعلمونها للناس». وقال نافع عن مالك «دخل عمر بن الخطاب المسجد. فوجد معاذ بن جبل جالساً إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهويكي. فقال له عمر: ما ييكيك، يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا. ولكن حديثاً حدثني جيبى صلى الله عليه وسلم، وأنا في هذا المسجد. فقال: ما هو؟ قال: إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء. الذين إذا غابوا لم يفتقدوا. وإذا حضروا لم يعرفوا. قلوبهم مصابيح الهدى. يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة».

فهؤلاء هم الغرباء المدعوون المغبوطون. ولقبتهم في الناس جداً: سموا «غرباء» فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات. فأهل لإسلام في الناس غرباء. والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء. وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة — الذين يميزونها من الأهواء والبدع — فهم غرباء. والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين؛ هم أشد هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً. فلا غربة عليهم. وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال الله عز وجل فيهم (٦: ١١٦) وإن تطيع أكثرهم في الأرض يُضِلُّوك عن سبيل الله) فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه. وغربتهم هي الغربة الموحشة. وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم. كما قيل:

فليس غريباً من تناءت دياره — ولكن من تنأى عنه غريب

فالغربة: غربة أهل الله وأهل سته رسوله بين هذا الخلق. وهي الغربة التي مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلها. وأخبر عن الدين الذي جاء به: أنه «بدأ غريباً» وأنه «سيعود غريباً كما بدأ» وأن «أهله يصيرون غرباء».

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم. ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقاً. فإنهم لم يأووا إلى غير الله. ولم ينتسوا إلى غير رسوله صلى الله عليه وسلم. ولم يدعوا إلى غير ما جاء به. وهم الذين قارنوا الناس أحوج ما كانوا إليهم. فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع أمتهم بقوا في مكانهم. فيقال لهم «ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: قارننا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليوم. ولأننا نتنظر ربنا الذي كما نعبده».

فهذه «الغربة» لا وحشة على صاحبها. بل هو آتس ما يكون إذا استوحش الناس. وأشد ماتكون وحشته إذا استأنسوا. فويله الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوا.

ومن هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم «رُبَّ أشعث أغبر، ذي طمرين لا يؤته له. لو أقسم على الله لأبره».

وفي حديث أنس إدريس الخولاسي عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ألا أحببكم عن ملوك أهل الجنة؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: كل ضعيف أغتر، ذي طمرين لا يؤته له. لو أقسم على الله لأبره» وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب. لا يخرج من دله، ولا ينافس في عزها، للناس حال. وله حال. الناس منه في راحة. وهو من نفسه في تعب.

ومن صفات هؤلاء العرباء — الذين عبطهم النبي صلى الله عليه وسلم —: التمسك بالسنة، إذا رعب عنها الناس. وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم. وتوحيد التوحيد. وإن أسكر ذلك أكثر الناس. وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله نالاً تبعاً لما جاء به وحده. وهؤلاء هم الغائبون على الجمر حقاً. وأكثر الناس — بل كلهم — لا يلم لهم. فلغرتهم بين هذا الخلق: يعدونهم أهل شدة وهدية، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم «هم النزاع من القبائل» أن الله سبحانه بعث رسوله، وأهل الأرض على أديان مختلفة. فهم بين عَشَاد أوثان وفيران، وعباد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة. وكان الإسلام في أول ظهوره غربياً. وكان من أسلم منهم، واستجاب لله ولرسوله: غربياً في حَيِّه وقبيلته. وأهله وعشيرته.

فكان المستحيون لدعوة الإسلام بُرْاعاً من القبائل. بل آحاداً منهم. تعرفوا عن قبائلهم وعشائرتهم. ودخلوا في الإسلام. فكانوا هم العرباء حقاً. حتى طهر الإسلام، وانتشرت دعوته. ودخل الناس فيه أفواجا. فرأى تلك الغربة عنهم. ثم أحد في الاغتراب والترحال، حتى عاد غريباً كما بدأ. بل الإسلام الحق — الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه — هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره. وإن كاتب أعلامه ورسومه الظاهرة مسهورة معروفة فالإسلام الحقيقي غريب جداً. وأهله عرباء أسد العرب بين الناس.

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً، عربية بين اثنين وسعين فرقة ذات أُنَاع ورثاسات، ومناصب ولايات. ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فإن نفس ما جاء به: يصاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشهوات والذخ التي هي منتهى فصيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي آيات مصادهم وإرادتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غربياً بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم وأطاعوا شُحهم، وأعجب كل منهم برأيه؟

ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت - إذا تمسك بدينه -: أجر خسين من الصحابة.
نفى سنن أبي داود والترمذي - من حديث أبي ثعلبة الخشني - قال «سألت رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية (١٥:٥) يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم. لا
يضرركم من ضل إذا اهتديتم) فقال: بل ائتروا بالمعروف. وتناهوا عن المنكر. حتى إذا
رأيت شُحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودباً مؤثراً، وأعجاب كل ذي رأى برأيه. فعليك
بخاصة نفسك ودع عنك العوائق. فإن من وراءكم أيام الصبر. الصبر فيها مثل قبض
على الجمر. للعامل فيهن أجر خسين رجلاً يعملون مثل عمله. قلت يا رسول الله أجر
خسين منهم؟ قال أجر خسين رجلاً منكم» وهذا الأجر العظيم إنما هو نعمة بين الناس،
والتمسك بالنية بين ظلمات أهولتهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن، الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وقفها في سنة رسوله، وفيها في كتابه،
وأراه ما الناس فيه: من الأهواء والبدع والضلالات، وتنبههم عن الصراط المستقيم، الذي
كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط: فليوطن
نفسه على قدح الجهال، وأهل البدع فيه، وطعمهم عليه، وازرئهم به. وتنذر الناس عنه،
وتعذيرهم منه. كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه صلى الله عليه وسلم.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالنية، لتسكهم بالبدع. غريب في
اعتقاده، لفساد عقائدهم. غريب في صلاته، لسوء صلاتهم. غريب في طريقه، لضلال وفساد
طريقهم. غريب في نسته، لمخالفة نيتهم. غريب في معاشرته لهم. لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى
أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياء وآخرته. لا يجد من العامة مساعداً ولا معيناً. فهو عالم
بين جهال. صاحب سنة بين أهل بدع. داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع. آمر
بالمعروف، ناه عن المنكر بين قوم المعروف لنيتهم منكر والمنكر معروف.
ثم إن الناس كلهم في هذه البدار غرباء. فإلهلست لهم بدار مقام. ولا هي الدار التي
حلّقوا لها. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما «كن في
الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل» وهكذا هو في نفس الأمر. لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه.

و يعرف حق المعرفة. ول من أبيات في هذا المسمى:

وَحَيَّ عَلَى جَنَاحِ عَدْنٍ. فَإِنَّهَا	منارلك الأ ول. وفيها الحميم
ولكننا سئى العدو. فهل ترى	نعود إلى أوطاننا، ونسلم؟
وأى اعترلت فوق غريتنا النسي	لما أصحت الأعداء مينا نَحْكُم؟
وقد زعموا: أن العريب إذا نأى	وَنَقَلَتْ مَهْ أوطانه. ليس نَشْعَم
فمن أحل دالا يعمم العد ساعة	من العمر، إلا بعد ما يتألم

وكيف لا يكون البعد في هذه الدار عرياً، وهو حاح سفر. لا يجل عن راحته إلا بين أهر
القبور؟ فهو مسافر في صورة قاعد. وقد قيل:

وما هذه الأيام إلا مراحل	يَحْكُمُ بها داع إلى الموت قاصد
وأعجب شيء — لو تأملت — أنها	مازل تُظَوِّي. والماسر قاعد

(٥٩) مَنَزِلَةُ التَّمَكُّنِ

ومن منازل إياك بعد منزلة «التمكن»

قال صاحب المنازل:

«(باب التمكن) قال الله تعالى (٣٠: ٦٠) وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يَوْفُونَ».

وحه استدلاله بالآية: في غاية الظهور. وهو أن التمكن لا يبالى بكثرة الشواغل. ولا بمخالفة أصحاب الغفلات، ولا بجماعة أهل البطالات. بل قد يتمكن بصبره و يقينه عن استفزازهم إياه، واستخفافهم له. ولهذا قال تعالى (٣٠: ٦٠) فاصبر إن وعد الله حق فمن وفى الصبر حقه، وتيقن أن وعد الله حق: لم يستفزه المبطلون، ولم يستخفه الذين لا يوفون. ومتى ضعف صبره و يقينه — أو كلاهما — استفزه هؤلاء. واستخفه هؤلاء. فجدبوه إليهم بحسب ضعف قوة صبره و يقينه. فكلما ضعف ذلك منه: قوى جذبهم له. وكلما قوى صبره و يقينه: قوى انجذابه منهم وحذبه لهم.

و «التمكن» هو القدرة على التصرف في الفعل والترك. ويسمى «مكانة» أيضاً، قال الله تعالى (٦: ١٣٥ و ١١ و ٣٩ و ٣٩: ٣٩ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل — الآية).

وهو فوق «الطمأنينة» لأنها تكون مع نوع من المنازعة. فيطمئن القلب إلى ما يسكه. وقد يتمكن فيه وقد لا يتمكن. ولذلك كان «التمكن» هو غاية الاستقرار. وهو ثقُل من المكابح. مكانه قد صار مقامه مكاناً لقلبه قد تبوأه منزلاً ومستقراً، وصار معتصماً به، كما قال الله تعالى (٢٢: ٧٨) واعتصموا بالله هو مولاكم. فنعم المولى ونعم النصير وقال تعالى (٣: ١٠١) ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم وقال تعالى (٤: ١٤٦) إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله. وأخلصوا دينهم لله وقال (٣: ١٠٣) واعتصموا بحبل الله جميعاً).

فالاعتصام به نوعان: اعتصام توكل واستعانة وتفويض وعياذ ، وإسلام النفس إليه، والاستسلام له سبحانه.

والثاني: اعتصام بوجهه.. وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم، ومحقولا تهم، وأذواقهم وكشوفاتهم ومواجهتهم.. فمن ليم يكن كذلك فهو منسل من هذا الاعتصام. فالدين كله في الاعتصام به وبجبله، علماً وعلاء وإخلاصاً واستماتة، ومتابعة، واستمراراً على ذلك إلى يوم القيامة، وتلك هي حقيقة التمكن.

● إخلاص ... في الطريق الواسع

فمن التمكن: تمكن المريد، وهو ان يجتمع له صحة قصد يستبره، وسعة طريق تُروحه. فبصحة القصد: يصح سيره، وبصحة العلم: تتكشف له الطريق. وبسعة الطريق: يهون عليه السير. وكل طالب أمر من الأمور فلا بد له من تعين مطلوبه. وهو المقصود. ومعرفة الطريق الموصل إليه، والأخذ في السلوك. فمتى فاتته واحد من هذه الثلاث: لم يصح طلبه ولا سيره. فالأمر دائرين مطلوب يتعين إثارته على غيره، وطلب يقوم بقصد من يقصده، وطريق توصل إليه.

فإذا تحقق العبد بطلب ربه وحده: تعين مطلوبه. فإذا بذل جهده في طلبه: صح له طلبه. فإذا تحقق باتباع أوامره، واجتنب نواهيه: صح له طريقه. وصحة القصد والطريق مؤلفة على صحة المطلوب وتعيته.

فحكم القصد يُتَلَقَّى من حكم المقصود. فمتى كان المقصود أهلاً للاستمرار: كان القصد المطبق به كذلك. فالقصد والطريق تابعان للمقصود.

وتقام العبودية: أن يوافق الرسول صلى الله عليه وسلم في مقصوده وقصده وطريقه. فمقصوده: الله وحده. وقصده: تنفيذ أوامره في نفسه وفي خلقه. وطريقه: اتباع ما أوحى إليه. فصيحة الصحابة رضي الله عنهم على ذلك حتى لحقوا به. ثم جاء التابعون لهم بإحسان، فمضوا على آثارهم.

ثم تفرقت الطرق بالناس، فخير الناس: من وافقه في المقصود والطريق. وأبعدهم عن الله ورسوله: من خالفه في المقصود والطريق. وهم أهل الشرك بالمعبود والبدعة في العبادة. ومنهم من وافقه في المقصود، وخالفه في الطريق. ومنهم من وافقه في الطريق، وخالفه في المقصود.

فمن كان مراده الله، والدار الآخرة: فقد وافقه في المقصود. فإن عبد الله بما به أمر على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم: فقد وافقه في الطريق. وإن عبده بغير ذلك: فقد خالفه في الطريق.

ومن كان مقصوده - من أهل العلم، والعبادة، والرهـد في الدنيا - الرئاسة، فقد خالفه و المقصود. وإن تنقيد بالأمر.

فإن لم يتقيد به، فقد خالفه في المقصود والطريق.
أما سعة الطريق، فأمرين:

سعتها حتى لا تصيق عليه، فيعجز عن سلوكها. و ناستقامتها حتى لا يزيغ عنها إلى غيرها. فإن طريق الحق واسعة مستقيمة، وطريق الباطل صعبة معوجة.

● بارالة حجاب العلائق ندخل الانوار

ومنه: تمكن السالك. وهو أن مجتمع له صحة التقاطع و برقي كسف. وضياء حال.
وهذه الدرحة أتم مما قبلها. فإن تلك تمكن في تصحيح قصد الأعمال. وهذه تمكن في حال التمكن. والتمكن في الحال أبلغ من التمكن في القصد.

والمراد بصحة الانقطاع: انقطاع قلبه عن الأعيار. والشواغل الموجبة للأكدار.
ومع ذلك فحاله مع الله صاف من معارضات السوى، فلا يعارض هته إرادة، بل متمكن في انقطاعه، وحاله نور وضياء.

وسبب هذا الضياء: أنه قد فاض على قلبه نور اليقين بالأسماء والصفات. فصار لقلبه من معرفتها والأيمان بها، وذوق حلاوة ذلك: نور خاص، غير مجرد نور العبادة، والإرادة والسلوك.
وإذا بلغ العبد في مقام المعرفة إلى حد كأنه يطالع ما انتصف به الرب سبحانه من صفات الكمال، وسعوت الجلال. وأحست روحه بالقرب الخاص الذي ليس هو كقرب المحسوس من المحسوس، حتى يشاهد رفع الحجاب بين روحه وقلبه وبين ربه. فإنه سبحانه هو نفسه. وقد رفع الله سبحانه عنه ذلك الحجاب بحوله وقوته: أفصى القلب والروح حينئذ إلى الرب. فصار يعمده كأنه يراه.

والله سبحانه حمل شهود الاسماء والصفات طريقاً لهذه المعرفة، ومن شاهد الصفة فلا بد أن يشاهد متعلقاتها، فإن النظر في متعلقاتها يكسه التعظيم للمتصف بها.

فمن شاهد صفة الكلام مثلاً: زادته تعظيماً لله تعالى ولأد، إذ لو ان الحريته من بعده سمعة أبحر، واشتار العالم كلها أقلام يكتب بها كلام الرب جل جلاله، لميت البحار، ونفدت الاقلام، وكلام الله عز وجل لا يفد ولا يفنى.

فمن شاهد الصفات الاخرى بمثل هذه المشاهدة، من العلم، والقدرة، وبحوها، وحال قلبه في عظمتها: ازداد معرفة وتعظيماً، وزاد نور قلبه، وصياء روحه.

فكلما كان بصفات الله اعرف، ولها أثبت، ومعارض الإثبات متف عنه — كان أكمل شهوداً. ولهذا أكمل المخلوق شهوداً من قال «لا أحصى ثناء عليك. أنت كما أثنيت على نفسك» ولكمال معرفته بالأسماء والصفات: استدل بما عرفه منها على أن الأمر فوق ما أحصاه وعلمه.

فمشهد الصفات: مشهد الرسل والأنبياء وورثتهم، وكل من كان بها أعرف كان بالله أعلم. وكان مشهده بحسب ما عرف منها، فإن التائب الصادق في توبته إذا تاب إليه: وحده عفوياً رحيماً. والمتوكل إذا صدق في التوكل عليه: وحده حسيباً كامياً. والداعي إذا صدق في الرغبة إليه: وحده قريباً مجيباً. والمحب إذا صدق في محبته: وحده ودوداً حبيباً. والمنهوف إذا صدق في الاستغاثه به: وحده كاشفاً للكرب مخلصاً منه. والمضطر إذا صدق في الإصرار إليه: وحده رحيماً منيئاً. والحائف إذا صدق في اللجاء إليه: وحده مؤمناً من الخوف. والراحي إذا صدق في الرجاء: وحده عند ظنه به.

فمحبه وطالبه ومريده الذي لا يبغي به بدلاً. ولا يرضى بسواه عوضاً، إذا صدق في محبته وإرادته: وحده أيضاً وجوداً أحص من تلك الوجودات. فإنه إذا كان المرید منه يحده. فكيف بمریده وبمحبته؟ فيظفر هذا الواحد نفسه ويرببه.

أما ظفره بنعمته: فتصير متقادة له، مطيعة له، تابعة لمرصاته غير آتية، ولا أمارة. بل تصير خادمة له مملوكة، بعد أن كانت محدومة مالكة.

وأما ظفره بربه: فقرب به منه، وأنه به، وعمارة سره به. وفرحه وسروره به أعظم فرح وسرور.

فالوحيد يشاهد — بإيمانه وبقينه — ذاتاً جامعة للأسماء الحسنى، والصفات العلى، لها كل صفة كمال، وكل اسم حسن. وذلك يجده إلى نفس اجتماع همه على الله، وعلى القيام بفرائضه.

والطريق — بمجموعها — لا تخرج عن هدين السبين، وإن طولوا العمارات، ودققوا الإشارات. فالأمر كله دائر على جمع المهمة على الله، واستفراغ الوسع بعبادة الصبيحة في التقرب إليه بالتواضع، بعد تكميل الفرائض. فلا تطول ولا يظول عليك.

(٦٠) مَزَلَّةُ الْمَعْبَايَةِ

ومن منازل «إياك بعد وإياك ستعين» مرة «المعابة»

والمعابة نوعان. معابة نصر، ومعابة بصيرة. فمعابة البصر: وقوعه على نفس المرئي، أو مثاله الخارجي، كثرية مثال الصورة في المرآة والماء. ومعابة البصيرة: وقوع القوة العاقلة على المثال العلمي المطابق للخارجي. فيكون ادراكه له مرة ادراك العر للصورة الخارجية. وقد تقوى سلطان هذا الادراك الساطع، بحيث يصير الحكم له، و يقوى استحصار القوة العاقلة ندادركها، بحيث يستغرق فيه. فيعلب حكم القلب على حكم الحس والمشاهدة. فيستولى على سميع والبصر. بحيث يراه، و يسمع خطاه في الخارج. وهو في النسي والدنس. لكن لقلته التهود، وقوة الاستحصاء، وتمكن حكم القلب واستيلائه على القوى. صار كأنه مرئي بالعين، مسموع بالأذن. بحيث لا يشك المدرك ولا يرتاب في ذلك التة. ولا يقلب عدلا

وحقيقة الامر: ان ذلك كله شواهد وأمثلة علمية، تامة للمعتقد. فذلك الذي ادرك بعبر القلب والروح: انما هو شاهد دال على الحقيقة. وليس هو نفس الحقيقة. فإن شاهد بورجلال الدات في قلب العبد ليس هو نفس بور الدات الذي لا تقوم له السموات والارض. فإنه لو ظهر لهما لتدكدكت، ولأصابها ما أصاب الجبل. وكذلك شاهد نور العصاة في القلب: انما هو نور التعظيم والاحلال، لانور نفس المعظم دي الحلال والاكرام.

وليس مع القوم الا الشواهد، والامثلة العلمية، والرقائق التي هي ثمرة قرب القلب من الرب، وانسه به، واستمراقه في محته ودكره، واستيلاء سلطان معرفته عيه. والرب تبارك وتعالى وراء ذلك كله منزعة مقدس عن اطلاع الشر على داته، او انوار داته. او صفاته، او انوار صفاته. وانما هي الشواهد التي يقوم بقلب العبد، كما يقوم بقلبه شاهد من الجنة والنار، واما رؤيته سبحانه عيانا، او رؤيتهما، مستحيل في هذه الدار الدنيا

وهذا هو الذي وحده عد الله بن حرام الانصاري يوم احد، لما قال «واها لريح الحة! اني اجد والله ربها دون احد» ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم «اذا مررتن برياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: جلق الذكر». ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم «الجنة تحت ظلال السيوف»

فالعامل: انما هو على الشواهد. وعلى حسب شاهد العبد يكون عمله.
ونحن نشربون الله وتوقيقه الى الشواهد، اشارة يعلم بها حقيقته الامر.
فأول شواهد السائر الى الله والدار الآخرة: ان يقوم به شاهد من الدنيا وحقاتها، وقلة وفائتها، وكثرة جفائتها، ونخسة شركائها، وسرعة انقضائها. ويرى اهلها وعشاقها صرعى حولها، قد عذبتهم بأنواع العذاب، واذاقتهم امر الشراب. أضحكهم قليلا، وابكتهم طويلا. سقتهم كؤوس سماء، بمد كؤوس خرها. فسكروا بحبها. وماتوا بهجرها.

فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها: ترحل قلبه عنها. وسافر في طلب الدار الآخرة وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وانها هي الحيوان حقاً. فأهلها لا يرتحلون منها. ولا يظعنون عنها. بل هي دار القرار، وعط الرحال، ومتهى السير. وان الدنيا بالنسبة اليها — كما قال النبي صل الله عليه وسلم — «ما الدنيا في الآخرة الا كما يجعل احدكم إصبعه في اليم، فليتنظريم ترجع؟» وقال بعض التابعين: ما الدنيا في الآخرة الا أقل من ذرة واحدة في جبال الدنيا.

ثم يقوم بقلبه شاهد من النار، وتوقدها واضطرامها. ويؤذ قعرها، وشدة حرها، وعظيم عذاب أهلها. فيشاهدكم وقد سيقوا إليها سوة الوجوه، زُرق العيون، والسلاسل والاغلال في اعناقهم. فلما انتهرها اليها: فتحت في وجوههم ابوابها. فشاهدوا ذلك المنظر المطيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفاً (١٨: ٥٣) ورأى المجرمون النار فظنوا انهم مواقعوها. ولم يجدوا عنها مضيقاً).

ثم اتى النداء من قبل رب العالمين : (١٤: ٥٢ — ١٦ هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحروا هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ اضلّوها فاصبروا، أو لا تصبروا سواء عليكم. إنما تجزون ما كنتم تعملون) فيراهم وهم اليها يُدفعون و في الحميم، على وجوههم يُسحبون. وفي النار كالخطب يُشخرون (٧: ٤١ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) فسئس اللحاف وبش الراش. وان استعاثوا من شدة العطش (١٨: ٢٩ يغاثوا بماء كالمُهل يشوي الوجوه) فإذا شربوه قطع أمعاءهم في أجوافهم، وصهر ما في بطونهم. شربهم الحميم. وطعامهم الرقوم (٣٥: ٣٦، ٣٧ لا يُقصى عليهم فيموتوا. ولا يُحقق عنهم من عذابها. كذلك يجزي كل كفور * وهم يضطرّون فيها: ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل، أو لم نُعتركم ما يتذكر فيه من تذكر؟ وجاءكم النذير. فذوقوا فما للظالمين من نصير).

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد: انخلع من الذنوب والمعاصي، وأتباع الشهوات. وليس ثياب الخوف والحذر، وأخصب قلبه من مطر أجفانه. وهان عليه كل مصيبة تعصيه في غير دينه وقلبه.

وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بعده من المعاصي والمخالفات. فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات، والمواد الهلكة، وينضجها ثم يخرجها. فيجد القلب لذة العافية وسرورها. فيقوم به بعد ذلك: شاهد من الجنة، وما أعد الله لأهلها فيها، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فضلاً عما وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم المفضل، الكفيل بأعلى أنواع اللذة، من المطاعم المشارب، والملابس والصور، والبهجة والسرور. فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذايقه فيها. ترتبها المسك، وحضباؤها اللؤلؤ، وبنائوها آبن الذهب والفضة، وقصب اللؤلؤ. وشرابها أحلى من العسل، وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور، وألذ من الزنجبيل. ونساؤها لوبرز وجه احداهن في هذه الدنيا لقلب على ضوء الشمس. ولباسهم الحرير من المستحسن والاستبرق. وخدمهم أولاد كاللؤلؤ المنثور. وفاكهتهم دائمة، لامقطوعة ولا منوعة، وفروش مرفوعة. وغذاؤهم لحم طير بما يشتهون. وشرابهم عليه خرة لا فيها غزل ولا هم عنها يُثْزَفون. وتخضرتهم فاكهة مما يتخيرون. وازواجهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون. فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يُخْبِرُونَ. وفيها ماتشهي الأنفس وتلذ الأعين. وهم فيها خالدون.

فإذا انضم هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله: فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهايقها، فلا يلتفت في طريقه يمينا ولا شمالا. هذا. وفوق ذلك: شاهد آخر تضمحل فيه هذه الشواهد، ويفيب به العدد عنها كلها. وهو شاهد جلال الرب تعالى، وحاله وكماله، وعزه وسلطانه، وقبوميته وعلوه فوق عرشه، وخطابه لملائكته وأنبيائه.

فإذا شاهد شاهد بقلبه قيوماً قاهراً فوق عبادته، مستوياً على عرشه، منفرداً بتدبير مملكته، آمرأ ناهياً، مريلاً رسله، ومنزلاً كتبه. يرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع ويعز ويذل. ويغضب. ويرحم إذا استرحم، ويغفر إذا استغفر، ويعطي إذا سئل، ويحجب إذا دُعي، ويقتل إذا استقبل. أكبر من كل شيء. وأعظم من كل شيء. وأمر من كل شيء. وأقدر من كل شيء. وأعلم من كل شيء. يسمع صحيح الاصوات باختلاف اللغات، على تفتن الحاجات. فلا يشغله سمع عن سمع. ولا تَغْلُظُه المسائل. ولا يترحم بالخالح الملحين. وسومعه عند من أسر القبول ومن جهر به. فالسر عنده علانية. والغيب عنده شهادة. يرى ديب النملة

السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء. ويرى نياط عروقها، ويجارى القوت في أعضائها.

فإذا قام بقلب البعد هذا الشاهد: اضمحلت فيه الشواهد المتقدمة، من غير أن تعدم. بل تبصر الخلية والقهر لهذا الشاهد. وتندرج فيه الشواهد كلها. ومن هذا شاهده: فله سلوك وسير خاص. ليس لغيره من هوعن هذا في غفلة، أو معرفة مجملة.

فصاحب هذا الشاهد: سائر إلى الله في يقظته ومنامه، وحركته وسكونه، وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن. هو في واد والناس في واد.

والمقصود: أن العيان والكشف والمشاهدة في هذه الدار: إنما تقع على الشواهد والأمثلة العلمية. وهو المثل الأعلى الذي ذكره سبحانه في ثلاثة مواضع من كتابه: في سورة النحل. وسورة الروم. وسورة الشورى.

وذلك قوله تعالى في سورة النحل: ٦٠ (ولله المثل الأعلى، وهو العزيز الحكيم).

وقوله في سورة الروم: ٢٧ (وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم).

وقوله في سورة الشورى: ١١ (ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير).

وهذا المثل الأعلى هو ما يقوم بقلوب عابديه وبمعيه، والمئينين اليه من هذا الشاهد وهو السامع لهم على العبادة والمحبة والخشية والإنابة. وتتفاوتهم فيه لا ينحصر طرفاه. فكل منهم له مقام معلوم لا يتعده. وأعظم الناس خطأ في ذلك معترف بأنه لا يحصى ثناء عليه سبحانه، وأنه فوق ما يشئ عليه المتنون، وفوق ما يحمده الحامدون، كما قيل:

وما بلغ المهدون نحوك مدحة وإن أطنبوا إن الذي فيك أعظم
لك الحمد كل الحمد لا مبدل له ولا منتهى. والله بالحمد أعظم

وطهارة القلب، ونزاهته من الأوصاف الذمومة، والإرادات السفلية، وخلوه وتفرغه من التعلق بغير الله سبحانه: هو كرسى هذا الشاهد، الذي يجلس عليه. ومقعد الذي يتمكن فيه. فحرام على قلب متلوث بالخبائث والأخلاق الرديئة والصفات الذميمة، متعلق بالمرادات الساقطة: أن يقوم به هذا الشاهد، وأن يكون من أهله.

نزه فؤادك عن سوانا. واتينا فجنابنا حل لكل مُتَزَه
والصبر طُلُسم لكنز لقائنا من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

إذا طلعت شمس التوحيد، و باشرت جوانبها الأرواح، ونورها البصائر، تجلب بها ظلمات النفس والطبع. وتحركت بها الأرواح في طلب من ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير. فسافر القلب في بدياء الأمر. ونزل منازل العبودية، منزلاً منزلاً. فهو ينتقل من عادة إلى عبادة، مُقيم على معبود واحد. فلا تزال شواهد الصفات قائمة بقلبه، توقظه إذا رقد، وتذكره إذا غفل، وتحدو به إذا سار، وتقيمه إذا قعد. إن قام بقلبه شاهد من الربوبية والقيومية رأى أن الأمر كله لله. ليس لأحد معه من الأمور شيء. (٣٥: ٣، ٢) ما يفتح الله للناس من رحمة فلا مُصمك لها. وما يُنسيك فلا مُزِيل له من بعده. وهو العزيز الحكيم * يا أيها الناس، اذكروا نعمة الله عليكم. هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض؟ لا إله إلا هو. فأتى تُؤفكون؟ (١٠: ١٠٧) وإن يمستك الله بضراً فلا كاشف له إلا هو. وإن يردك بخير فلا رادّ لِفَضله. يصيب به من يشاء من عباده. وهو الغفور الرحيم (٣٩: ٣٨) ولئن سألتهم: من خلق السموات والأرض؟ ليقولنَّ: الله، قل أفرأيت ما تدعون من دون الله؟ إن أرادني الله بضراً هل هُنَّ كاشفاتُ ضره؟ أو أُرادني برحمة هل هنَّ مسكاتُ رحمته؟ قل: حسبى الله. عليه يتوكل المتوكلون (٢٣: ٨٤ - ٨٩) قل: لمن الأرض ومن فيها، إن كنتم تعلمون؟ * يقولون: لله. قل: أفلا تدكرون؟ * قل: من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ * يقولون: لله. قل: أفلا تتقون؟ * قل: من يده مَلَكُوت كُلِّ شيء، وهو يُجِير ولا يجار عليه، إن كنتم تعلمون؟ * يقولون: لله، قل: فأنى تُسْحرون؟. وإن قام بقلبه شاهد من الإلهية: رأى في ذلك الشاهد الأمر والهي، والنبوت، والكتب والشرائع، والمحبة والرضا والكراهة والبعض، والتب والعتاب. وشاهد الأمر ناراً من هو مستو على عرشه، واصماتُ العباد صاعدة إليه، ومعرصة عليه. يتخفى بالإحسان منها في هذه الدار وفي العقبى تُضرة وسروراً، ويُقدِّم إلى مالم يكن عن أمره وترعه منها فيجعله هباءً منثوراً. وإن قام بقلبه شاهد من الرحمة: رأى الوجود كله قائماً بهذه الصمة. قد وقَّعَ مَنْ هِيَ صمته كُلُّ شيء رحمةً وعِلماً. وانتهت رحمته إلى حيث انتهى علمه. فاستوى على عرشه برحمته. لتسع كل شيء. كما وسع عرشه كل شيء.

وإن قام بقلبه شاهد العبرة والكرباء، والعظمة والجبروت: فله شأن آخر وهكذا جميع شواهد الصفات. فما ذكرناه إنما هو أدنى تسيه عليها. فالكتف والعيان والملاحظة لا تتجاوز الشواهد ألبتة.

(٦١) مَنَازِلُ الْحَيَاةِ

قال صاحب المنازل:

«(باب الحياة) قال الله تعالى (٦: ١٢٢) أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتاً فَأَحْيَيْنَاهُ».

استشهاده بهذه الآية في هذا الباب ظاهر جداً. فإن المراد بها: من كان ميت القلب، بعدم روح العلم والهدى والإيمان. فأحياه الرب تعالى بروح أخرى، غير الروح التي أحيأ بها بطنه. وهي روح معرفته وتوحيده، وعبته وعبادته وحده لا شريك له. إذ لا حياة للروح إلا بذلك. وإلا فهي في جملة الأموات. ولهذا وصف الله تعالى من قديم ذلك بالموت، فقال (أومن كان ميتاً فأحييناه) وقال تعالى (٢٧: ٨٠) إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى. وَلَا تَسْمَعُ الضُّمُّ الدُّعَاءِ) وسمى وحيه روحاً. لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. فقال تعالى (٤٢: ٥٢) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا. مَا كَانَتْ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ. وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) فأخبر: أنه «روح» تحصل به الحياة، وأنه «نور» تحصل به الإضاءة. وقال تعالى (١٦: ٢) نَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) وقال تعالى (٤٠: ١٥) وَفِي الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ، يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن. ولهذا من فقد هذه الروح: فقد فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا: فحياته حياة البهائم. وله المعيشة الضنك. وأما في الآخرة: فله جهنم، لا جهنم فيها ولا يحيا.

وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته وعبته وعبادته. فقال تعالى (١٦: ٩٧) مَنْ عَمِلْ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَى، وَهُوَ مُؤْمِنٌ. فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وقد فسرت «الحياة الطيبة» بالقناعة والرصا والرزق الحس وغير ذلك. والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه، وبعثته وسروره بالإيمان ومعرفة الله، وعبته، والإنابة إليه، والتركض عليه. فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها. ولا نعيم فوق نعيمه، إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنه لتثمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب. وقال غيره. إنه ليمر بالقلب أوقات يرغص فيها ظرما

وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح. فإنه ملكها. ولهذا جعل الله المعيشة الضئلك لمن أعرض عن ذكره. وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث. أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ. ودار القرار. والمعيشة الضئلك أيضاً تكون في الدور الثلاث. فالأبرار في النعيم هنا وهناك. والفجار في الجحيم هنا وهناك، قال الله تعالى (١٦: ٣٠) للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير) وقال تعالى (١١: ٣) وأني استغفروا ربكم، ثم توبوا إليه، يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى. ويؤت كل ذي فضل فضله) فذكر الله سبحانه وتعالى، ومحبه وطاعته، والإقبال عليه: ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة. والإعراض عنه والغفلة ومعصيته: كفيل بالحياة للنقص، والمعيشة الضئلك في الدنيا والآخرة.

• ارتواء العلماء

والحياة مراتب:

منها: حياة العلم من موت الجهل، فإن الجهل موت لأصحابه، كما قيل:

وفي الجهل — قبل الموت — موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وشحة من جسامهم فليس لهم حتى النشور نشور

فإن الجاهل ميت القلب والروح، وإن كان حي البدن. فجسده قبر يمشي به على وجه الأرض. قال الله تعالى (٦: ١٢٢) أو من كان ميتاً فأحييناه. وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس. كمن مثله في الظلمات، ليس بخارج منها؟) وقال تعالى (٣٦: ٦٩، ٧٠) إن هو إلا ذكر وقرآن مبين. لينذر من كان حياً. وبحق القول على الكافرين) وقال تعالى (٣٠: ٥٢) إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء) وقال تعالى (٣٥: ٢٢) إن الله يسمع من يشاء. وما أنت بمسمع من في القبور) وشبههم — في موت قلوبهم — بأهل القبور. فإنهم قد ماتت أرواحهم. وصارت أجسامهم قبوراً لما. فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور، كذلك لا يسمع هؤلاء وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة، وملزومها. فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان، ولم تتحرك له: كانت ميتة حقيقة. وليس هذا تشبيهاً لموتها بموت البدن، بل ذلك موت القلب والروح.

وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد من كلام لقمان، أنه قال لابنه «يا بني، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتك. فإن الله يحبى القلوب بنور الحكمة، كما يحبى الأرض بوابل القطر» وقال معاذ بن جبل «تعلموا العلم. فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة. لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار حبل أهل الجنة. وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الفرية، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأعداء. يرفع الله به أقواماً، فيجعلهم في الخير قادة، وثمة تقتض آثارهم، ويقتضى بأفعالهم، ويقتضى إلى ربهم. ترغب الملازمة في خلقتهم، بأجنحتها تمسحهم. يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيثان البحر وقنواته، وسباع البر وأنعامه لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم. يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة. التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام. به توصل الأرحام. وبه يعرف الحلال من الحرام. وهو إمام العمل. والعمل تابع له. يُلْهِنُه السعادة. ويُخْرِثُه الأشقياء» رواه الطبراني وابن عبد البر وغيرهما. وقد روى مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم. والوقف أصح.

● المهم نابضات

ومنها: حياة الإرادة المهمة. وضعف الإرادة، والطلب: من ضعف حياة القلب. وكلما كان القلب أتم حياة، كانت همته أعلى، وإرادته ومحبته أقوى. فإن الإرادة والمحبة تتبع الشعور بالمراد المحبوب. وسلامة القلب من الآفة التي تحول بينه وبين طلبه وإرادته. فضعف الطلب، وفقدان المهمة: إما من نقصان الشعور والإحساس، وإما من وجود الآفة للضعفة للحياة. وقوة الشعور، وقوة الإرادة: دليل على قوة الحياة. وضعفها دليل على ضعفها. وكما أن علو المهمة، وصدق الإرادة، والطلب من كمال الحياة: فهو سبب إلى حصول أكمل الحياة وأطيبها. فإن الحياة الطيبة إنما تنال بالهمة العالية، والمحبة الصادقة، والإرادة الخالصة. فعلى قدر ذلك تكون الحياة الطيبة. وأغنى الناس حياة أحسنهم همة. وأضعفهم محبة وطلباً، وحياة البهائم خير من حياته. كما قيل:

نهارك، يامغرور سهو وغفلة
وتكدهج فيما سوف تنكر غيبه
تسرباً يفتنى. وتفرح بالمتى
وليس لك نومٌ والركى لك لازم
كذلك في الدنيا تعيش البهائم
كما عُرُّ بالذات — في النوم — حالم

والمقصود أن حياة القلب بالعلم والإرادة والممة. والناس إذا شاهدوا ذلك من الرجل.
الوا: هو حي القلب، وحياة القلب بدوام الذكر، وترك الذنوب، كما قال عبد الله بن المبارك.
حه الله:

وأيت الذنوب تمسحت بالقلوب	وقد يورث النذل إيمانها
وترك الذنوب حياة القلوب	وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا اللو	لك، وأحبار سوء وذهبانها؟
وباعوا النفوس، ولم يربحوا	ولم يخل في البيع أثمانها
فقد رتب القوم في جيفة	يبين لدى اللب خسراتها

وكما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب. فحياة القلب: بدوام الذكر
والإتابة إلى الله، وترك الذنوب، والغفلة الجائمة على القلب. والتعلق بالزائل والشهوات
المنقطعة عن قريب يضمف هذه الحياة، ولا يزال الضعف يتوالى عليه حتى يموت. وعلامة موته:
أنه لا يعرف معروفًا. ولا ينكر منكراً. كما قال عبد الله بن مسعود «أتدرون من ميت القلب،
الذي قيل فيه:

ليس من مات فاستراح ميت إنما الميت ميت الأحياء؟

قالوا: ومن هو؟ قال: الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً».

والرجل: هو الذي يخاف موت قلبه، لاموت بدنه. إذ أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت
أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم. ولا يعرفون من الحياة إلا الحياة الطبيعية. وذلك من موت
القلب والروح. فإن هذه الحياة الطبيعية شبيهة بالظل الزائل، والنبات السريع الجفاف، والمنام
الذي يخيل كأنه حقيقة. فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالاً. كما قال عمر بن الخطاب رضى
الله عنه «لو أن الحياة الدنيا — من أولها إلى آخرها — أوتيتها رجل واحد. ثم جاءه الموت: لكان
بمنزلة من رأى في منامه ما يشهده، ثم استيقظ. فإذا ليس في يده شيء» وقد قيل «إن الموت
موتان: موت إرادى، وموت طبيعى. فمن أمانت نفسه موتاً إرادياً كان موته الطبيعى حياة له»
ومعنى هذا: أن الموت الإرادى: هو قمع الشهوات المردية، وإخاد نيرانها للحرق، وتسكين
هوائجها المتلفة. فحينئذ يفرغ القلب والروح للتفكير فيما فيه كمال العبد، ومعرفة، والاشتغال
به. ويرى حينئذ أن إشار الظل الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم: أخسر الخسران.
فأما إذا كانت الشهوات وافدة، والذات مؤثرة، والعوائد غالبة، والطبيعة حاكمة. فالقلب
حينئذ: إما أن يكون أسيراً ذليلاً، أو مهزوماً مُخْرَجاً عن وطنه ومستقره الذى لا قرار له إلا فيه، أو

فتبيلا ميتاً وما لجرح به إيلام. وأحسن أحواله: أن يكون في حرب، يدال له فيها مرة، ويدال عليه مرة. فإذا مات العبد موته الطبيعي: كانت بعده حياة روحه بتلك العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والأحوال الفاضلة التي حصلت له بإماتة نفسه. فتكون حياته ههنا على حسب موته الإرادى في هذه الدار.

وهذا موضع لا يفهمه إلا ألتاه الناس وعقلاؤهم. ولا يعمل بمقتضاه إلا أهل المهمل العلمية، والنفوس الزكية الأبية.

● الحياء حركة

ومن مراتب الحياء:

حياة الأخلاق، والصفات المحمودة، التي هي حياة راسخة للموصوف بها. فهو لا يتكلف الترفي في درجات الكمال. ولا يشق عليه. لا تقتضاء أخلاقه وصفاته لذلك، بحيث لو فارق ذلك لعارق ما هو من طبيعته وسجيته. فحياة من قد طبع على الحياء والعفة والجلود والسخاء، والبروة والصديق والوفاء ونحوها. أتم من حياة من يقهر نفسه، ويغالب طبعه، حتى يكون كذلك. فإن هذا بمنزلة من تعارصه أسباب الداء وهو يعالجها ويقهرها بأنضادها. وذلك بمنزلة من قد عوفى من ذلك.

وكلما كانت هذه الأخلاق في صاحبها أكمل كانت حياته أقوى وأتم. ولهذا كان خلُق «الحياء» مشتقاً من «الحياة» اسماً وحقيقة. فأكمل الناس حياة: أكملهم حياء. ونقصان حياء المرء من نقصان حياته. فإن الروح إذا ماتت لم تحس بما يؤلمها من القبايح. فلا تستحي منها. فإذا كانت صحيحة الحياة أحست بذلك، فاستحييت منه. وكذلك سائر الأخلاق العاضلة، والصفات المدوحة تابعة لقوة الحياة، وصدها من نقصان الحياء. ولهذا كانت حياة الشجاع أكمل من حياة الجبان. وحياة السخي أكمل من حياة البخيل. وحياة الفطن الذكي أكمل من حياة القذم اللئيم. ولهذا لما كان الأنبياء — صلوات الله وسلامه عليهم — أكمل الناس حياة حتى إن قوة حياتهم تمنع الأرص أن تبلى أجسامهم — كانوا أكمل الناس في هذه الأخلاق. ثم الأمثل فالأمثل من أتباعهم.

فانظر الآن إلى حياة خلّاف مهين هُتار متشأ بهيم، مناع للخير معتد أثيم. عُثِّل بعد ذلك ريم. وحياة حواد شجاع، برّ عادل عميف عس — تجد الأول ميتاً بالنسبة إلى الثاني.

و«البسط» من أجل هذه الاخلاق. وأقواها في صفة الحياة، وهو ما كان عليه رسول الله صل الله عليه وسلم مع أصحابه وأهله. ومع العريب والقريب. وهي سعة الصدر، ودوام الشر،

وحسن الخلق، والسلام على من لقيه. والوقوف مع من استحقه، والزواج بالخلق مع الصغير والكبير أخياً. وإجابة الدعوة. ولين الجانب. حتى يظن كل واحد من أصحابه: أنه أحبههم إليه. وهذا الميدان لا تحديه إلا واجباً، أو مستحباً، أو مباحاً يمين عليهما.

ومن العباد من وفقه الله تعالى فنال حظاً من هذا البسط النبوي الكريم وجعل الله تبساطهم مع الخلق رحة لهم. كما قال تعالى (٣: ١٥٩) فجاء رحة من الله إئت لهم، ولو كنت فطناً غليظ القلب لا تقتضوا من حولك) فالرب سبحانه بسط هؤلاء مع خلقه. ليقتدى بهم السالك. ويهتدى بهم الحيران. ويشتفى بهم المليل. ويستضاء بنور هدايتهم ونصحهم ومعرفتهم في ظلمات دياجى الطبع والعدوى. فالسالكون يقتدون بهم إذا سكتوا. وينضمون بكلماتهم إذا نطقوا. فإن حركتهم وسكونهم لما كانت بالله ولله، وعمل أمر الله: جذبت قلوب الصادقين إليهم، فهتدي بهم الحائر، ويسير بهم الوقف، ويستقيم بهم الحائد، ويثقل بهم المعرض، ويكمل بهم الناقص، ويرجع بهم الناكس، ويتقوى بهم الضعيف.

وهؤلاء هم خلفاء الرسل حقاً، وهم لولو البصر واليقين، فجمعوا بين البصيرة والبصر. قال الله تعالى (٣٢: ٢٤) وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون)، فنالوا إمامة الدين، بالصبر واليقين.

والمعلماء ثلاثة: عالم استتار بنوره. واستتار به الناس. فهذا من خلفاء الرسل، وورثة الأنبياء. وعالم استتار بنوره، ولم يستتر به غيره. فهذا إن لم يفرط كان نفعه قاصراً على نفسه. فبينه وبين الأول ما بينهما. وعالم لم يستتر بنوره، ولا استتار به غيره. فهذا علمه وبال عليه. وبسطه للناس فتنه لهم. وبسطة الأول رحة لهم.

كل ذلك و«سرفهم مصونة» مستورة لم يكشفوها لمن اتبسطوا إليه. وإن كان البسط يقتضى الإفصاح، وإطلاع كل من للتبسطين على سر صاحبه. فإياك ثم إياك أن تطلع من باسطه على سره مع الله، ولكن اجذبه وشوقه. واحفظ وديعة الله عندك، لا تعرضها للاسترجاع.

● لذة الوصول تدعو إلى استئناف السير

ومن مراتب الحياة: حياة الفرح والسرور، وقرّة العين بالله. وهذه الحياة إنما تكون بعد الظفر بالمطلوب، الذى تقرّب به عين طالبه. فلا حياة نافعة له بدونه. وحول هذه الحياة يدندن الناس كلهم. وكلهم قد أنشأ طريقها. وسلك طرقاً لا تقضى إليها. بل يتعطل عنها، إلا أقلّ القليل. فدار طلب الكل حول هذه الحياة. وحرّقتها أكثرهم.

وسبب حرمانهم إياها: ضعف العقل والتمييز والبصيرة، وضعف الهمة والإرادة. فإن

سادتها بصيرة وقادة، وهمة نقادة. والبصيرة كالبحر تكون صمى وعموراً وقمّشاً ورمداً، وقامة النور والفضياء وهذه الآفات قد تكون لها بالخلفة في الأصل. وقد تحدث فيها بالأمراض الكسبية. والمقصود: أن هذه المرتبة من مراتب الحياة هي أعلى مراتبها، ولكن كيف يصل إليها من عقله تشبّهي في بلاد الشهوات، وأمله موقوف على اجتناء الذات، وسيرته جارية على أسوأ المعادات، ودينه مستهلك بالمعاصي والمخالفات، وهمته واقفة مع السفليات، وعقيدته غير مطلقة من مشكاة النبوات ١٩.

فهو في الشهوات منغمس، وفي الشبهات منتكس، وعن الناصح معرض، وعلى للرشد معترض، وعن السراء نائم، وقلبه في كل واد هائم. فلو أنه تجرد من نفسه. ورغب عن مشاركة أبناء جنسه. وخرج من ضيق الجهل إلى فضاء العلم. ومن سجن الموى إلى ساحة الهدى، ومن نجاسة النفس، إلى طهارة القدس: لرأى الإلف الذي نشأ بنشأته، وزاد بزيادته، وقوى بقوته، وشرف عند نفسه وأبناء جنسه بحصوله قلدى في عين بصيرته، وشجا في خلق إيمانه، ومرضاً مترامياً إلى هلاكه؟.

فإن قلت: قد أشرت إلى حياة غير معهودة بين أموات الأحياء. فهل يمكنك وصف طريقها، لأجسل إلى شيء من أدواقها. فقد بان لي أن ما نحن فيه من الحياة حياة بهيمية. ربما زادت علينا فيها البهائم بغلوها عن التكرات والمنقصات وسلامة العاقبة؟.

قلت: لعمر الله إن اشتياقك إلى هذه الحياة، وطلب علمها ومعرفتها: لدليل على حياتك. وأنت لست من جملة الأموات.

فأول طريقها: أن تعرف الله، وتهتدى إليه طريقاً يوصلك إليه، ويعرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة. فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة. فينجذب إليها بكلية. ويزهد في التعلقات الفانية. ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة. ثم يقوم حارساً على قلبه. فلا يسامحه بخطر يكرها الله، ولا بخطة فضول لا تنفعه. فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس ووسواسها. فيقتدى من أسرها. ويصير طليقاً. فحينئذ يخلو قلبه بذكر ربه، وعبته والإجابة إليه. ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه، إلى فضاء الخلوة بر به وذكره، كما قيل:

وأخرج من بين البيوت، لعلنى أحدث عنك النفس في السرخاليا
فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه، وطلبه والشوق إليه.
فإذا صدق في ذلك رزق هبة الرسول صلى الله عليه وسلم، واستولت روحانيته على قلبه.
فجعل له إمامه ومعلمه، وأستاذه وقودته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهادياً إليه. فيطالع سيرته

ومبادئ أمره، وكيفية نزول الوحي عليه و يعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: فتح عليه بفهم الوحي المنزل عليه من ربه، بحيث لو قرأ السورة شاهد قلبه ما أنزلت فيه، وما أريد بها. وحظه المختص به منها، من الصفات والأخلاق، والأفعال المضمومة. فيجتهد في التخلص منها كما يجتهد في الشفاء من المرض المخوف. وشاهد حظه من الصفات والأفعال المدوحة. فيجتهد في تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكن من ذلك: افتتح في قلبه عين أخرى يشاهد بها صفات الرب جل جلاله، حتى تصير لقلبه بمنزلة الرئي لعينه. فيشهد علو الرب سبحانه فوق خلقه، واستواءه على عرشه، ونزول الأمر من عنده بتدبير حكته، وتكليمه بالوحي، وتكليمه لعبد جبريل به، وإرساله إلى من يشاء بما يشاء، ومحمود الأمور إليه، وعرضها عليه.

فيشاهد قلبه رباً قاهراً فوق عبادته، آمراً ناهياً، باعثاً لرسله، منزلاً لكاتبه، معبوداً مطاعاً. لا شريك له. ولا مثل، ولا عدل له. ليس لأحد معه من الأمور شيء، بل الأمر كله له. فيشهد ربه سبحانه قائماً بالملك والتدبير. فلا حركة ولا سكون، ولا نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط إلا بقدرته وتدبيره. فيشهد قيام الكون كله به، وقيامه سبحانه بنفسه. فهو القائم بنفسه، اللقيم لكل ما سواه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: شهد الصفة المصححة لجميع صفات الكمال. وهي «الحياة» التي كمالها يستلزم كمال السمع والبصر، والقدرة والإرادة، والكلام، وسائر صفات الكمال. وصفة «القيومية» المصححة لجميع الأفعال. فالخلى القويم: من له كل صفة كمال. وهو الأفعال لما يريد.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: فتح له مشهد «القرب» و «للعية» فيشهد سبحانه معه، غير غائب عنه، قريباً غير بعيد، مع كونه فوق سماواته على عرشه، ياتينا من خلقه، قائماً بالصنع والتدبير، والخلق والأمر. فيحصل له — مع التنظيم والإجلال — الأنس بهذه الصفة. فيأنس به بعد أن يفرح به بعد أن كان حزيناً. ويحب بعد أن كان فاقداً. فيحسب يجد طعم قوله «ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به. وبصره الذي يبصر به. ويده التي يبطش بها. ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه. ولئن استأذني لأعيزنه».

فأطيب الحياة على الإطلاق: حياة هذا العبد. فإنه محب محبوب، مقرب إلى ربه، ورهب قريب منه. قد صار له حبيب لفرط استيلائه على قلبه، ولهمجه بذكره. وعكوف همه على

مرضاته، بمنزلة سمعه وبصره و يده ورجله. وهذه آلات إدراكه وعمله وسعيه. فإن سمع سمع بحبيبه، وإن أبصر أبصر به. وإن بطش بطش به. وإن مشى مشى به.

فإن صمب عليك فهم هذا المعنى، وكون الحب الكامل المحبة يسمع ويصير ويطش ويمشى بمحبوبه. وذاته عاتية عنه. فأضرب عنه صفحا. وتخل هذا الشأن لأهله.

خل الهوى لأناس يُغفون به قد كابدوا الحب حتى لأن أضعبه

فإن السالك إلى ربه لا تزال همته عاكفة على أمرين: استغراق القلب في صدق الحب، وبذل الجهد في امتثال الأمر. فلا يزال كذلك حتى يبدو على سيره شواهد معرفته، وآثار صفاته وأسمائه. ولكن يتوارى عنه ذلك أحيانا. ويبدو أحيانا. يبدو من عين الجود. ويتوارى بحكم الفترة. والفترات أمر لازم للعبد. فكل عامل له شرة، ولكل شرة فترة. فأعلاها فترة الرجى. وهى للأنبياء، وفترة الحال الخاص للعارفين، وفترة الهمة للمريدين. وفترة العمل للعابدين. وفي هذه الفترات أنواع من الحكمة والرحمة، والترغفات الإلهية، وتعريف قدر النعمة. وتجديد الشوق إليها، ومحض التواجد إليها وغير ذلك.

ولا تزال تلك الشواهد تتكرر وتزيد، حتى تستقر، وينصبغ بها قلبه، وتصير الفترة غير قاطعة له. بل تكون نعمة عليه، وراحة له، وترويحاً وتنفساً عنه.

فهمة الحب إذا تعلقت بروحه بحبيبه، عاكفاً على مزيد محبته، وأسباب قوتها. فهو يعمل على هذا. ثم يترقى منه إلى طلب محبة حبيبه له. فيعمل على حصول ذلك. ولا يعدم الطلب الأول، ولا يفارقه البتة. بل يندرج في هذا الطلب الثاني. فتتعلق همته بالأمرين جميعاً. فإنه إنما يحصل له منزلة «كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به» بهذا الأمر الثاني. وهو كونه محباً لحبيبه. كما قال في الحديث «فإذا أحببته كنت سمعه وبصره الخ» فهو يتقرب إلى ربه، حفظاً لمحبة له، واستدعاء لمحبة ربه له.

فحينئذ يشد يثر الجذ في طلب محبة حبيبه له بأنواع التقرب إليه. فقلبه: للمحبة والانابة والتوكل، والخوف والرجاء. ولسانه: للذكر وتلاوة كلام حبيبه. وجوارحه: للطاعات. فهو لا يفتر عن التقرب من حبيبه.

وهذا هو السير المفضى الى هذه الغاية التي لا تنال الا به. ولا يتوصل إليها إلا من هذا الساب، وهذه الطريق. وحينئذ تجمع له في سيره جميع متغرفات السلوك: من الحضور، والمحبة، والمراقبة، ونفى الخواطر، وتحلية الباطن.

فإن الحب يشرح — أولاً — في التقربات بالأعمال الظاهرة. وهى ظاهر التقرب. ثم يترقى من ذلك إلى حال التقرب. وهو الانجذاب إلى حبيبه بكلية بروحه وقلبه، وعقله وبنته. ثم يترقى من ذلك إلى حال الإحسان. فيعبد الله كأنه يراه. فيتقرب إليه حينئذ من باطنه بأعمال

القلوب: من اللجة والآنابة، والتعظيم والإجلال والخشية. فينبعث حيثذ من باطنه الجود ببذل الروح، والجود في محبة حبيبه بلا تكلف. فيجود بروحه ونفسه، وأفانسه وإرادته، وأعماله لحبيبه حالاً، لا تكلفاً. فإذا وجد المحب ذلك فقد ظفر بحال التقرب وسره وباطنه. وإن لم يجده فهو يتقرب بلسانه وبدينه وظاهره فقط. فليتم على ذلك. وليتكلف التقرب بالأذكار والأعمال على الدوام. فمساء أن يحظى بحال التقرب.

ووراء هذا «التقرب الباطن» أمر آخر أيضاً. وهو شيء لا يعبر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلق إلى الله صلى الله عليه وسلم من هذا المعنى. حيث يقول حاكياً عن ربه تبارك وتعالى «من تقرب منى شبراً تقرب منه ذراعاً. ومن تقرب منى ذراعاً تقرب منه باعاً. ومن أتانى بمشي آتيته هرولة» فيجد هذا الحب في باطنه ذوق معنى هذا الحديث ذوقاً حقيقياً.

فذكر من مراتب القرب ثلاثة. وثبه بها على ما دونها وما فوقها. فذكر تقرب العبد إليه بالشبر، وتقربه سبحانه إلى العبد ذراعاً. فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرب الذراع. فيجد ذوق تقرب الرب إليه باعاً. فإذا ذاق حلاوة هذا القرب الثاني: أسرع المشى حيثذ إلى ربه. فيلحق حلاوة إتيانه إليه هرولة. ولها منتهى الحديث، منها على أنه إذا هزّول عبده إليه كان قرب حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه. فأما أن يكون قد أمسك عن ذلك لتعظيم شاهد الجزاء، لولائه يدخل في الجزاء الذي لم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر، أو إحالة له على اللزائب للتعلمة. فكأنه قيل له: وقس على هذا. فعل قدراً ما تبذل منك مقرباً إلى ربك: يتقرب إليك بأكثر منه. وعلى هذا فلازم هذا التقرب المذكور في مراتبه. أى من تقرب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه، وإرادته وأقواله وأعماله: تقرب الرب منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرب عبده إليه.

وليس القرب في هذه المراتب كلها قرب مسافة حسية، ولا ممانعة. بل الرب تعالى فوق سماواته على عرشه، والعبد في الأرض.

وهذا للوضع هو سر السلوك، وحقيقة العبودية. وهو معنى الوصول الذي يندندن حوله القوم. وملاك هذا الأمر: هو قصد التقرب أولاً. ثم التقرب ثانياً. ثم حال القرب ثالثاً. وهو الانبعاث بالكلية إلى الحبيب.

وحقيقة هذا الانبعاث: أن تفتنى بمراده عن هواك، وبما منه عن حظك. بل يصير ذلك هو مجموع حظك ومرادك. وقد عرفت أن من تقرب إلى حبيبه بشيء من الأشياء جوزى على ذلك بتقرب هو أنعمائه. وعرفت أن أعلى أنواع التقرب: تقرب العبد بجملة نفسه بظواهره وباطنه، وبوجوده، إلى حبيبه. فمن فعل ذلك فقد تقرب بأكمله ولم تبق منه بقية لغير حبيبه. كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية يجد السبيل بها إليه الشذل

وإذا كان المتقرب إليه بالأعمال يعطى أضعاف مضاعف ما تقرب به. فما الظن بمن أعطى حال التقرب وذوقه ووجدته؟ فما الظن بمن تقرب إليه بروحه وجميع إرادته ومته، وأقواله وأعماله؟.

وعلى هذا فكما جاد لحبيبه بنفسه، فإنه أهل أن يُجَادَ عليه، بأن يكون ربه سبحانه هو حفظه ونصيبه، عوضاً عن كل شيء، جزاءً وفاً. فإن الجزاء من جنس العمل. وشاهد هذا كثيرة. منها: قوله تعالى (٦٥: ٣، ٤) ومن يتق الله يجعل له مخرجاً. ويرزقه من حيث لا يحتسب. ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ففرق بين الجزائين كما ترى. وجعل جزاء المتوكل عليه كونه سبحانه حسبه وكافيّه.

ومنها: أن الشهيد لما بذل حياته لله أعاضه الله سبحانه حياة أكمل منها عنده في محل قره وكرامته.

ومنها: أن من بذل لله شيئاً أعاضه الله خيراً منه.

ومنها: قوله تعالى (١٥٢: ٢) فاذكروني أذكركم، واشكروا لي ولا تكفرون).

ومنها: قوله في الحديث القدسي «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في قلبي ذكرته في قلبي خير منه».

ومنها: قوله «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً» الحديث.

فالمعبد لا يزال رابحاً على ربه أفضل مما قلّم له. وهذا المتقرب، بقلبه وروحه وعمله، يفتح عليه ربه بحياة لا تشبه ما الناس فيه من أنواع الحياة. بل حياة من ليس كذلك بالنسبة إلى حياته: كحياة الجنين في بطن أمه بالنسبة إلى حياة أهل الدنيا ولذتهم فيها. بل أعظم من ذلك. فهذا نموذج من بيان شرف هذه الحياة وفضلها. وإن كان علم هذا يوجب لصاحبه حياة طيبة. فكيف إن اتصّبغ القلب به، وصار حالاً ملازماً لذاته؟ فالله المستعان.

فهذه الحياة: هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة. فمن فقدتها فقدته لحياته الطبيعية أولى به.

هذه حياة الفنى. فإن فقدت فقدته للحياة البقى به

فلا عيش إلا عيش المحبين، الذين قرّت أعينهم بحبيبهم، وسكنت نفوسهم إليه، واطمأنت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه، وتنعموا بجه. ففى القلب فاقة لا يَسُدُّها إلا محبة الله، والإقبال عليه، والإنابة إليه، ولا يَلْمُ شَعَثُهُ بغير ذلك البتة. ومن لم يظفر بذلك: فحياته كلها هموم وغموم، وآلام وحسرات. فإنه إن كان ذا همة عالية تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. فإن همة لا ترضى فيها بالدون وإن كان مهيناً خسيساً فعيثه كميئس أخس الحيوانات. فلا تقر العيون إلا بمحبة الحبيب الأول.

تَقُلُّ فؤادك حيث يثبث من الهوى ما الحبي إلا للحبيب الأول
كس منزل في الأرض يالْقَبه الفتى وَحَسْبُه أبداً لأول منزل

بل ان المعرض الصاد يعاقبه الله تعالى بمثل هذه المصوم والحسرات، كما قال الله سبحانه (٣: ٢٨) وَيَحْذَرُكُمْ إِلَهُ نَفْسِهِ).

ووجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه المقرب المبعد، فليحذر القريب من الإبعاد والمتصل من الانفصال. فإن الحق جل جلاله غير لا يرضى من عرفه ووجد حلاوة معرفته، واتصل قلبه بحبيته والأنس به، وتعلقت روحه بإرادة وجهه الأعلى — أن يكون له التفات إلى غيره البتة.

ومن غيرته سبحانه: حَرَّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن. والله سبحانه يفاشد الغيرة على عبده: أن يلتفت إلى سواه. فإذا أذاقه حلاوة محبته، ولذة الشوق إليه، وأُس معرفته. ثم ساكن غيره: باعده من قر به. وقطعه من وصله. وأوجش سره. وشنت قلبه. ونقص عيشه. وألبسه رداء الذل والصغار والموان. فنادى عليه حاله، إن لم يصريح به قاله: هذا جزء من تموض عن وليه والله وناسطره، ومن لاحياة له إلا به: بغيره وأثر غيره عليه. فاتخذ سواه حبيباً، ورضى بغيره أنيساً، واتخذ سواه ولياً. قال الله تعالى (١٨: ٥) وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ. كان من الجن ففسى عن أمر ربه، أفتخذونه وذريته أولياء من دوني، وهم لكم عدو؟ يس للظالمين يدل).

فإذا ضرب هذا القلب بسوط البعد والحجاب، وشلط عليه من يسومه سوء العذاب، وملى من المصوم والغموم والأحزان، ويذل بالأنس وحشة، والمزلاً، وبالقناعة حرصاً، وبالقرب بعداً طرداً، وبالجمع شتاتاً وتفرقة — كان هذا بعض جزائه. فحينئذ تطرقه الطوارق والمؤلمات. وتعتريه وفود الأحزان والغموم بعد وفود المسرات.

وإذا اردت ان تعرف ما حل بك من بلاء الانفصال، فانظر أين بيت قلبك اذا احدث مضجك؟ وإلى أين يطير اذا استيقظت من منامك؟ لا إله إلا الله! ما أشد غبن من باع أطيب الحياة في هذه الدار المتصلة بالحياة الطيبة هناك، والنعيم المقيم بالحياة المنفضة للنعمة المتصلة بالعذاب الأليم. والمدة ساعة من نهار، أو عشية أو ضحاها، أو يوم أو بعض يوم. فيه ربح الأبد أو خسارة الأبد.

● الموت مرحلة وليس نهاية

ومن مراتب الحياة: حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السجن وصيقه. فإن من ورائه روحاً وربحاناً وراحة. نسة هذه الدار إليه: كسبة بطن الأم إلى هذه الدار، أو أدنى من ذلك. قال بعض العارفين: لَتَكُنْ مبادرتك إلى الخروج من الدنيا كمبادرتك إلى الخروج من السجن الضيق إلى أحبتك، والاجتماع بهم في البساتين الموقنة. قال الله تعالى في هذه الحياة (٥٦: ٨٨، ٨٩) فأما إن كان من المقربين: **فروح وربان وجنة نعيم**.

و يكفى في طيب هذه الحياة: مرافقة الرفيق الأعلى، ومفارقة الرفيق المؤذى المتكد، الذى تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة، فضلاً عن غلظته وعشرته، إلى الرفيق الأعلى الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، في جوار الرب الرحيم.

ولولم يكن في الموت من الخير إلا أنه باب الدخول إلى هذه الحياة، وجسر يُقترن منه إليها: لكفى به تحفة للمؤمن.

جزى الله عنا الموت خيراً، فإنه
يُتَجَلَّ تخلص النفوس من الأذى
أُبْرِّ بنا من كل برٍّ والطف
ويُذِنُ إلى الدار التى هى أشرف

فلا جتهاد في هذا العمر القصير، والمدة القليلة، والسعى والكدح، وتحمل الأثقال، والتمب والمثقة: إنما هو هذه الحياة. والعلوم والأعمال: وسيلة إليها. وهى يَقْظَة. وما قبلها من الحياة نوم. وهى عين، وما قبلها أثر. وهى حياة جامعة بين فقد المكروه، وحصول المحبوب في مقام الأنس، وحضرة القدس، حيث لا يتعذر مطلوب، ولا يفقد محبوب. حيث الطمأنينة والراحة، والبهجة والسرور. حيث لا عبارة للمبدع عن حقيقة كنهها. لأنها في بلد لا عهد لنا به. ولا ألف بيننا وبين ساكنه. فالفنفس — لأنها لهذا السجن الضيق التكد زماناً طويلاً — تكره الانتقال منه إلى ذلك البلد. وتستوحش إذا استشرت مفارقتها.

وحصول العلم بهذه الحياة: إنما وصل إلينا بغير إلهى، على يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهم صلى الله عليه وسلم. فقامت شواهدنا في قلوب أهل الإيمان. حتى صارت لهم عنزة العيان. ففرت نفوسهم من هذا الظل الرائل، والخيال المضمحل، والعيش الفانى المشوب بالتلفيف وأنواع النقص، رغبة في هذه الحياة، وشوقاً إلى ذلك الملكوت، ووجدوا بهذا السرو، وطرباً على هذا الحد، واشتياقاً لهذا النسيم، الوارد من حل النعيم المقيم.

ولعمرك الله إن من سافر إلى بلد العدل والخُصْب، والأمن والسرور: صَبَّر في طريقه على كل مشقة، وإعزاز وجذب. وفارق المتخلفين أحوج ما كان إليهم، وأجاب النادى إذا نادى به: حى على الفلاح. وتبدل تفتت في الوصول تبدل المحب بالرضى والسماح، وواصل السير بالمدؤ والرواح. فحمد عند الوصول مشراه، وإنما يحمد المسافر الشرى عند الصباح.

عند الصباح يحمد القوم الشرى وفى المساء يحمد القوم البقا وما هذا عند الله - بالصعب ولا بالشديد، مع هذا العمر القصير، الذى هو بالنسبة إلى تلك الدار كساعة من نهار (٤٦: ٣٥) كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار (١٠: ٤٥) ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم (٧٩: ٤٦) كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (٣٠: ٥٥) ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة (٢٣: ١١٢ - ١١٤) قال: كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ * قالوا: لبثنا يوما، أو بعض يوم. فأسألكم العادين * قال: إن لبثتم إلا قليلا. لو أنكم كنتم تعلمون).

فواحسرتاه على بصيرة شاهدة هاتين الحياتين على ما هما عليه، وعلى همة تؤثر الأدنى على الأعلى. وما ذاك إلا بتوفيق من أُرِثَة الأمور بيديه. ومنه ابتداء كل شيء وانتهائه إليه، أُمِّد نفوس من غلبت عليهم الشقاوة عن السفر إلى هذه الدار، وجذب قلوب من سَبَقَتْ لهم منه الحسن. وأقامهم فى الطريق، وسَهَّل عليهم ركوب الأخطار. فأضاع أولئك مراحل أعمارهم مع المتخلفين وقطع هؤلاء مراحل أعمارهم مع السائرين. وعقدت الغيرة وثار القجاج، فتوارى عنه السائرون والمتخلفون. وسبَّح عن قريب. فيفوز العاملون. ويحسر المبطون.

ومن طيب هذه الحياة ولذتها: قال النبى صلى الله عليه وسلم «ما من نفس تموت - لها عند الله خير - يسرها أن ترجع إلى الدنيا، وأن لها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد. فإنه يتمنى الرجوع إلى الدنيا. لما يرى من كرامة الله له» معنى ليقول فيه مرة أخرى. وسمع بعض العارفين منشدا ينشد:

إنما العيش فى بهيمية الله	دَّة، وهو ما يقوله الفلسفي
حكم كأس النون: أن يتساوى	فى حساها البليد والألنمي
و يصير الخبيث تحت قمرى الأُر	ض. كما صارت تحتها اللوذعى
قتل الأرض عنهما إن أزال الش	ك والشبهة السؤال الجلي

فقال: قاتله الله، ما أشد معاندته للدين والعقل! هذا نفس عدو الفطرة، والشرعة، والعقل والإيمان والحكمة. يا مسكين: أمن أجل أن الموت تساوى فيه الصالح والطالح، والعالم والجاهل، وصاروا جميعاً تحت أطباق الثرى: يجب أن يتساوا في العاقبة؟ أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد في الطريق؟ فلما بلغوا الفصد نزل كل واحد في مكان كان مُعدّاً له، وتلقّى به ما تلقّى به رفيقه في الطريق. أما لكل قوم دار فأجلس كل واحد منهم حيث يليق به؟ وقبول هذا بشيء، وهذا بصدقه؟ أما قدم على المنك من حاء بما يحبه. فأكرمه عليه، ومن جاءه بما يسخطه، فعاقه عليه؟ أما قدم ركب المدينة. فنزل بعضهم في قصورها وبساتينها وأماكنها الفاصلة. ونزل قوم على قوارع الطريق بين الكلاب؟ أما قدم اثنان من بطن الأم الواحدة. فصار هذا إلى المُلْك، وهذا إلى الأسر والعناء؟

وقولك «سل الأرض عنهما» أما إنا قد سألتها، فأحررتنا: أنها قد صمت أحسادهم وجنّتهم وأوصالهم، لا كفرهم وإيمانهم، ولا أنسابهم وأحسابهم، ولا حلمهم وسفهمهم، ولا طاعتهم ومعصيتهم، ولا يقينهم وشكهم، ولا توحيدهم وشركهم، ولا جورهم وعدلهم، ولا علمهم وجهلهم. فأخبرتنا عن هذه الحشبة البالية والأبدان المتلاشية، والأوصال المتزقة، وقالت: هذا خبر ما عدى.

وأما خبر تلك الأرواح، وما صارت إليه: فسلوا عنها كتب رب العالمين، ورسله الصادقين، وخلفاءهم الوارثين. سلوا القرآن، فعنده الحر اليقين. وسلوا من جاء به، فهو بذلك أعرف العارفين. وسلوا العلم والإيمان، فهما الشاهدان المقبولان. وسلوا العقول والفطر، فعندها حقيقة الخسر (٤٥: ٢١) أم حسب الدين احترقوا السيئات: أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات. سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون) تعالى الله — أحكم الحاكمين — عن هذا الظن والحسان. الذي لا يليق إلا بأجهل الجاهلين.

ثم قال: الشاطر في هذا الباب رحلان. رحل ينظر إلى الأشياء، ورحل ينظر في الأشياء. فالأول: يحار فيها. فإن صورها وأشكالها وتخطيطها تستفرغ ذهنه وحسه، وتبدد فكره وقلبه. فنشطره إليها عين حسّه، لا يعيده منها ثمرة الاعتبار. ولا رُبدة الاختبار. لأنه لما فقد الاعتبار أولاً، فإنه فقد الاختيار ثانياً.

وأما الناظر في الأشياء: فإن نظره يبعث على العبور من صورها إلى حقائقها والمراد بها. وما اقتضى وجودها من الحكمة البالغة، والعلم التام. فيفيد هذا النظر تمييز مراتبها، ومعرفة نافعها من ضارها، وصحيحها من سقيمها، وباقيا من فانيها، وقشرها من لبّها. ويميز بين الوسيلة والغاية، وبين وسيلة الشيء وسيلة ضده. فيعرف حينئذ أن الدنيا قشّر والآخرة لبّه وأن الدنيا محل الزرع، والآخرة وقت الحصاد. وأن الدنيا معر وممر، والآخرة دار مستقر.

وإذا عرف أن الدنيا طريق وممر: كان حَرِّيًا بتهيئة الراد لقراره، و يعلم حينئذ أنه لم ينشأ في هذه الهدار للاستيطان والخلود. ولكن للجواز إلى مكان آخر، هو المنزل، والمُتَبَيَّن. وأن الإنسان دُعِيَ إلى ذلك بكل شريعة، وعلى لسان كل نبي، وبكل إشارة ودليل. ونُصِبَ له على ذلك عَلمٌ، وضرب لأجله كل مثل. ونَبه عليه بنشأته الأولى ومبادئه، وسائر أحواله، طعامه وشرابه، وأرضه وسمائه. بحيث أُرِيَتْ عنه التسهة، وأُوضِحَتْ له المحجة، وأُقيمت عليه الحجة. وأَعْزِرَ إليه غاية الإحذار، وأَمْهَلَ أتم الإمهال. فاستبان لذى العقل الصحيح والفترة السليمة: أن الظن عن هذا المكان ضرورى، والانتقال عنه حق لا مِرْزِيَّة فيه. وأن له محلا آخر. له قد أُنْشِئ. ولأجله قد خلق. وله هُتْيَاء. فمُصِيره إليه. وقُدومه بلا ريب عليه. وأن داره هذه: منزل عبور، لا منزل قرار.

وبالجملة: من نظرى الموجودات، ولم يفتن بمجرد النظر إليها وحدها: وحدها دالة على أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أكمل منها. وأن هذه الحياة بالسنة إليها كالنام بالنسبة إلى البقطة. وكالظل بالنسبة إلى الشخص. وسمعها كلها تنادى بما نادى به ربها وخالقها وفاطرها (٣٥: ٤) بأبيها الناس، إن وعد الله حق. فلا تفرنكم الحياة الدنيا، ولا يعرّنكم بالله الغرور) وتنادى لسان الحال؛ بما نادى به ربها بصريح المقال (١٨: ٤٥) واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء. فاختلف به نبات الأرض. فأصبح شجيماً تذكروا الرياح. وكان الله على كل شيء مقتدرًا) وقال تعالى (١٠: ٢٤) إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلف به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام. حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازدانت، وطمأن أهلها أنهم قادرون عليها: أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً. فجعلناها خصيداً كأن لم تغن بالأمس. كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) وقال تعالى (٥٧: ٢٠) اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة، وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد. كمثل غيث أعجب الكفار نباته. ثم يهيج، فتراه مُضْفَرًا. ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد. ومغفرة من الله ورضوان. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ثم ندبهم إلى المسابقة إلى الدار الآخرة الباقية التي لا زوال لها. فقال (٥٧: ٢١) سابقوا إلى مغفرة من ربكم وخاتمة عرضها كمرض السماء والأرض. أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بالله ورسوله. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم).

وسمع بعض العارفين منشداً ينشد عن بعض الزنادقة عند موته — وهو محمد ابن زكريا الرازى المتطبب —:

لعمري ما أدرى — وقد أذن اليلَى
بعاجل يزحالى — إلى أين ترحالى؟
وأين محل الروح بعد خروجه
عن الهيكل المنحل والجسد البالى؟

مقال. وما علينا من جهله. إذا لم يدر أين ترحاله؟ ولكننا ندري إلى أين ترحالنا وترحاله. أما ترحاله: فالإ دار الأشرقاء، وعمل المنكرين لقدرة الله وحكمته، والمكدين بما اتفقت عليه كلمة المسلمين عن ربهم (١٣: ٥ أولئك الذين كفروا بربهم. وأولئك الاعلال في أعناقهم، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٣٢: ١٠ - ١٢ وقالوا: أنذا ضللتنا في الأرض أنثنا لفي خلق جديد؟ بل هم بلفاء ربهم كافرون. قل: يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم. ثم إلى ربكم ترجعون. ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم. ربنا أنصرتنا وسمعتنا. فارجعنا لعمل صالحو إنا موقنون).

وأما ترحالنا، أيها المسلمون، المصدقون بلفاء ربهم، وكتبه ورسله: فالإ نعيم دائم، وخلود متصل، ومعام كريم، وجنة عرضها السموات والأرض في جوار رب العالمين، وأرحم الراحمين، وأقدر الماديين، وأحكم الحاكمين، الذي له الخلق والأمر، وبه النفع والضرر، الأول بالحق، اللوحود بالضرورة، المعروف بالمطرة، الذي أقرت به العقول، ودلت عليه كل الموجودات، وشهدت بوجدانيته وروبيته جميع المخلوقات، وأقرت بها الفطر. الشهود وجوده وقيوميته بكل حركة وسكون، بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون. الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنتج به حدائق ذات بةجة من أنواع النباتات، وبث به في الأرض جميع الحيوانات (٢٧: ٦١ أمن جعل الأرض قراراً. وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً) الذي يجيب المصطر إذا دعاه، ويعيت الملهوف إذا ناداه. ويكشف السوء ويفرج الكربات. و يقيل العثرات. الذي يهدي حلقه في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بئراً بين يدي رحمته. فيحيى الأرض بوابل الفطر. الذي يبدأ الحلل ثم يعيده. ويرزق من في السماوات والأرض من خلقه وعيده. الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة. ويخرج الحي من الميت. ويخرج الميت من الحي، ويدبر الأمر (٢٣: ٨٨ الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه) (٢٥: ٢، ٣ الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك. وخلق كل شيء فقدره تقديراً) المستعان به على كل نائسة وفادحة، والمجهود منه كل بر وكرامة. الذي عنت له الوحو، وخشعت له الأصوات، وتبخت بجمده الأرض والسماوات، وجميع الموجودات. الذي لا تسكن الأرواح إلا سحبه، ولا تطمئن القلوب إلا بذكره، ولا تركو العقول إلا معرفته، ولا يُذكر النجاح إلا بتوقيفه، ولا تحيا القلوب إلا بنسيم لطفه وقربه، ولا يقع أمر إلا بإده، ولا يهتدى صال إلا بهديته، ولا يستقيم ذو أود إلا بتمويه، ولا يهيم أحد إلا بتفهمه. ولا ينخلص من مكروه إلا برحمته، ولا يخفط شيء إلا بكلاءته، ولا يفتتح أمر إلا باسمه، ولا يتم إلا بحمده، ولا يُذكر مأمول إلا

بتيسير، ولا تنال سعادة إلا بطاعته، ولا حياة إلا بذكره ومحبه ومعرفته، ولا طاب الخنة إلا سماع خطابه ورؤيته. الذى وسع كل شئ رحمة وعلماً، وأوسع كل مخلوق فصلاً وبراً فهو الإله الحق. والرب الحق.

والملك الحق. والمفرد بالكمال المطلق من كل الوجوه. المبرأ عن العيوب والعيوب من كل الوجوه. لا يبلغ المثون — وإن استوعوا جميع الأوقات بكل أنواع الشاء — ثناء عليه، بل ثناؤه أعظم من ذلك فهو كما أثنى على نفسه. هذا الحار.

وأما الدار: فلا تعلم نفس حستها وبهاءها، وسعتها وعميمها. وبهحتها وروحها وراحتها. فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر. فيها ما تنتهى الأنس وتلذذ الأعين. فهى الجامعة لجميع أنواع الأفراح والمسرار، الخالية من جميع المنكادات والمنغصات، رخانة تهتر، وقصر مشيد، وزوجة حسناء، وفاكهة نضيجة

فترحلتنا أيها — الصادقون المصدقون — إلى هذه الدار بإذن ربنا وتوقيفه وإحسانه وترحال الكاديين إلى الدار التى أعدت لمن كفر بالله ولقائه، وكتبه ورسله

ولن يجمع الله بين الموحدين له — الطالبين لمصاته، الساعين فى طاعته، الدائس فى خدمته، المحاهدين فى سبيله — وبين الملحددين، الساعين فى مساحطه، الدائنين فى معصيته، المستفرعين جهدهم فى أهوائهم وشهواتهم: فى دار واحدة، إلا على سبيل الجواز والعبور. كما جمع بينهما فى هذه الدنيا. ويجمع بينهم فى موقف القيامة. فحاشاه من هذا الظن السيئ الذى لا يليق بكماله وحكمته.

وفى هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء، وأهم عند ربهم يرزقون، وأنها أكمل من حياتهم فى هذه الدنيا، وأتم وأطيب. وإن كانت أحسادهم متلاشية، ولحومهم متفرقة. وأوصالهم متفرقة، وعظامهم تجرة. فليس العمل على القلل، بما الشأن الساكن. قال الله تعالى (٣: ١٦٨) ولا تحسن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً. بل أحياء عند ربهم يرزقون) وقال تعالى (٢: ١٥٤) ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء. ولكن لا تشعرون) وإد كان الشهداء إما نالوا هذه الحياة بمناعة الرسل وعلى أيديهم فما الظن بحياة الرسل فى البرزخ؟ ولقد أحسن القائل ما شاء:

فالعيش نوم. والمنة نقطة والمرء بينهما خيال سارى

قللرسل والشهداء والصديقين من هذه الحياة — التى هى يغطه من يوم الدنيا — أكملها وأتمها. وعلى قدر حياة المد فى هذا العالم يكون شوقه إلى هذه الحياة، وسعيه وحرصه على الطمر بها. والله المستعان.

• التمام هنالك، والرفاء ثم

ثم من مراتب الحياة:

الحياة الدائمة الساقية بعد طئي هذا العالم. وذهاب الدنيا وأهلها في دار الحيوان. وهى الحياة التى تتمر إليها المسمرون. وسابق إليها المتساقون. وبافس فيها المتناقصون. وهى التى احرينا الكلام إليها. ونادت الكتب السماوية ورسل الله جميعهم عليها. وهى التى يقول من فاتته الاستعداد لها (٨٩: ٢١ - ٢٦ إذا ذُكِّت الأرض دكا دكا * وجاء ربك والملك صفا صفا * وجيء يومئذ بجهنم، يومئذ يتذكر الإنسان. وأنى له الذكرى؟ * يقول: يا ليتنى قدمت لحياتى. فيومئذ لا يُعَذَّب عذابه أحد. ولا يُؤثِق وثاقه أحد) وهى التى قال الله عز وجل فيها (٢٩: ٦٤ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون).

والحياة المتقدمة كالوم بالنسبة إليها. وكل ما تعدم - من وصف السر ومنارله، وأحوال السائرين، وعوديتهم الظاهرة والباطنة - فوسيلة إلى هذه الحياة. وإنما الحياة الدنيا، بالنسبة إليها، كما قال السى صل الله عليه وسلم «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يُدْخِل أحدكم إصبعه فى التيمّ فليتنظروا ترجع؟».

وكما قيل: تنفت الآخرة. فكانت الدنيا نفساً من أنفاسها. فأصاب أهل السعادة نفس نعيمها. فهم على هذا النفس يعملون. وأصاب أهل التماوة نفس عذابها. فهم على ذلك النفس يعملون.

وإذا كانت حياة أهل الإيمان والعمل الصالح فى هذه الدار حياة طيبة. فما الطن بحياتهم فى السرج، وقد تخلصوا من سجن الدنيا وصيغها؟ فما الطن بحياتهم فى دار العيم الميم الذى لا يروى. وهم يرون وجه ربهم تبارك وتعالى بُكَرَةً وَغَيْثًا وَيَسْمعون خطاه؟.

فإن قلت ما سب تحلف النفس عن طلب هذه الحياة التى لا تحظر لها، وما الذى رَهدها فيها؟ وما سب رعبتها فى الحياة القافية المصحلة، التى هى كالحيال والمانم؟ افساد فى تصورها وشعورها؟ أم تكذيب بتلك الحياة؟ أم لآفة فى العقل، وعى هناك؟ أم إثثار للحاضر المشهود بالعيان على العائب المعلوم بالإيمان؟

قيل: بل ذلك لمجموع أمور مركبة من ذلك كله.

وأقوى الأسباب فى ذلك: ضعف الإيمان. فإن الإيمان هو روح الأعمال. وهو الباع عليها، والآمر بأحسنها، والناهى عن أفئحها. وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره وبهيه لصاحب، وائتمار صاحبه واستهازه. قال الله تعالى (٢: ٩٣ قل نُسما بأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين).

وبالجملة: فإذا قوى الإيمان قوى الشوق إلى هذه الحياة. واشتد طلب صاحبه لها.
السبب الثاني: جشوم الغفلة على القلب. فإن الغفلة نوم القلب. ولهذا تمجد كثيراً من
الأيقاظ في الحس نياماً في الواقع. فتحسبهم أيقاظاً وهم رقاد، ضد حال من يكون يقظان
القلب وهونائم إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن. وكما هذه الحياة كان لنبينا صلى
الله عليه وسلم. ولئن أحيا الله قلبه بحبته واتباع رسالته على بصيرة من ذلك بحسب نصيبه
منهما.

فالغفلة واليقظة يكونان في الحس والعقل والقلب، فمستيقظ القلب وغافله كمستيقظ البدن
ونائمه. وكما أن يقظة الحس على نوعين. فكذلك يقظة القلب على نوعين.
فالنوع الأول من يقظة الحس: أن صاحبها ينفذ في الأمور الحسية. ويتوغل فيها بكسبه
وفطنته، واحتياله وحسن تأنيه.

والنوع الثاني: أن يُقِيل على نفسه وقلبه وذاته. فيعتنى بتحصيل كماله. فيلحظ عوالم الأمور
وسفسافها. فيؤثر الأعلى على الأدنى. ويقدم خير الخيرين بضوئ أدناها. ويرتكب أحف
الشرين خشية حصول أفعالها. ويتحلل بمكارم الأخلاق ومعالي الشيم. فيكون ظاهره جيداً،
وباطنه أجل من ظاهره. وسريته خيراً من علانيته. فيراحم أصحاب المعالي عليها كما يتزاحم
أهل الدينار والدرهم عليها. فهذه اليقظة يستعد للنوعين الآخرين منها.
أحدهما: يقظته تمتع على اقتباس الحياة الدائمة الباقية، التي لا تخطر لها، من هذه الحياة
الزائلة الفانية، التي لا قيمة لها.

فإن قلت: مثل لي، كيف تقتبس الحياة الدائمة من الحياة الفانية؟ وكيف يكون هذا؟
فإنى لا أهمه.

قلت. وهذا أيضاً من نوم القلب، بل من موته. وهل تقتبس الحياة الدائمة إلا من هذا الحياة
الزائلة؟ وأنت قد تشعل سراجك من سراج آخر قد أضمئ على الانطفاء. فيتبدل الثاني ويصير
غاية الإضاءة، ويتصل ضوءه. وينطعم به الأول. والمقتبس حياته الدائمة من حياته المنقطعة:
إما ينتقل من دار منقطعة إلى دار باقية. وقد توسط الموت بين الدارين. فهو قطرة لا يعبث إلى تلك
الدار إلا عليها، وباب لا يدخل إليها إلا منه. فهما حياتان في دارين بينهما موت؛ وكما أن
نور تلك الدار مقتبس من نور هذه الدار، هياتها كذلك مقتبسة من حياتها. فعلى قدر نور الإيمان
في هذه الدار يكون نور العبد في تلك الدار. وعلى قدر حياته في هذه الدار تكون حياته هناك.

نعم هذه النور والحياة، المدي يقتبس منه ذلك النور والحياة، لا يقطع. بل يصير للمد في
السرخ، وفي موقف القيامة، وعلى الصراط. فلا يفارقة إلى دار الحيوان. يطفأ نور الشمس وهذا
النور لا يطفأ. وتبطل الحياة المحبوسة وهذه الحياة لا تبطل. هذا أحد نوعي يقظة القلب.

النوع الثاني: بقطة تبث على حياة. لا تدركها العبارة. ولا يخالها التوهم. ولا يطابق فيها اللفظ لمعناه البتة. والذي يشار به إليها: حياة المحب مع حبيه، الذي لا قوام لقلبه وروحه وحياته إلا به. ولا غنى له عنه طرفة عين. ولا قرّة لعينه، ولا طمأنينة لقلبه، ولا سكون لروحه، إلا به. فهو أوحى إليه من سمعه وبصره وقوته وعذاب حجاب عته: أعظم من العذاب الآخر. كما أن نعيم القلب والروح بإزالة ذلك الحجاب: أعظم من النعيم بالأكل والشرب، والتمتع بالخور العين. فهكذا عذاب الحجاب: أعظم من عذاب الجحيم. ولهذا جمع الله سبحانه لأوليائه بين النعيمين في قوله (١٠: ٢٦) للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فالحسنى الجنة. والزيادة: رؤية وجهه الكريم في جنات عدن. وجمع لأعدائه بين العذابين في قوله (٨٣: ١٥) كلاً. إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم).

وللتقصود: أن العقلة هي نوم القلب عن طلب هذه الحياة. وهي حجاب عليه. فإن كشف هذا الحجاب بالذكر وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب، واشتغال بما لا يفيد. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاص وذنوب صفار تبعده عن الله. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب كسائر توجب مقت الرب تعالى له، وغضبه ولعنته. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع عملية يعذب العامل فيها نفسه. ولا تجدى عليه شيئاً. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع قولية اعتقادية. تتضمن الكذب على الله ورسوله. والتكذيب بالحق الذي جاء به الرسول. فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب سك وتكذيب. يقدر في أصول الإيمان الخمس. وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، ولما ناه. فلغلظ حجاب وكثافته، وظلمته وسواده: لا يرى حقائق الإيمان. ويتمكن منه الشيطان، يبعده ويُمَتِّيه، والنفس الأمارة بالسوء تهوى وتنتهي. وسلطان الطبع قد ظفر بسلطان الإيمان. فأسرّه وسجنه، إن لم يهلكه. ونوى تدبير المملكة واستخدم جنود الشهوات، وأقطعها العوائد التي جرى عليها العمل. وأعلق باب اليقظة. وأقام عليه بواب العقلة. وقال: إياك أن تؤتى من قبلك. وأخذ حاجباً من الهوى، وقال: إياك أن تمسك أحداً يدخل عليّ إلا منك. فأمر هذه المملكة قد صار إليك وإلى البواب. فيا بواب العقلة، ويا حاجب الهوى ليحرم كل منكما ثمره، فإن أحليتما قسداً أمر مملكتنا، وعادت الدولة لغيرنا، وسامنا سلطان الإيمان شر الحزى والهوان. ولا نفرج بهذه المدينة أبداً.

فلا إله إلا الله! إذا اجتمعت على القلب هذه المساكن، مع رقة الإيمان، وقلة الأعوان، والاعراض عن ذكر الرحمن، والاضطراب في سلك أماء الزمان، وطول الأمل الفسد للإنسان -

أن أثر العاجل الحاضر على الخائب الموعود به بعد على هذه الاكوان. قاله المستعان وعليه التكلاان.

ولما كان كل حيوان متنفساً، فإن النفس موجب الحياة وعلامتها: كانت أنفاس الحياة خمسة أنفاس: نفس الخوف. ومصدره: مطالعة الوعيد، وما أعد الله لمن أثر الدنيا على الآخرة. والمخلوق على الخلق، والهوى على الهدى، والغي على الرشاد.

ونفس الرجاء، ومصدره: مطالعة الوعد، وحسن الظن بالرب تعالى. وما أعد الله لمن أثر الله ورسوله، والدار الآخرة، وحكم الهدى على الهوى، والوحي على الآراء، والسنة على البدعة، وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه على عوائد الخلق.

ونفس بالحبية. مصدره: مطالعة الأسماء والصفات، ومشاهدة النعماء والآلاء.

فإذا ذكر ذنوبه: تنفس بالخوف. وإذا ذكر رحمة ربه، وسعة مغفرته وعفوه: تنفس بالرجاء. وإذا ذكر جلاله وجلاله وكماله وإحسانه وإنعامه: تنفس بالحب. فالنفس الصادر عن هذه الملاحظة والمطالعة: أشرف أنفاس العبد على الإطلاق. فأين نفس المشتاق المحب الصادق إلى نفس الخائف الراجي؟ ولكن لا يحصل له هذا النفس إلا بتحصيل ذينك النفسين، فإن أحدهما ثمرة تركه للمخالفات. والثاني: ثمرة فعله للطاعات. فمن هذه النفسين يصل إلى النفس الثالث.

ثم نفس الاضطراب، وذلك لا تقطاع أمله مما سوى الله. فيضطر حيثن — بقلبه وروحه ونفسه وبدنه — إلى ربه ضرورة تامة. بحيث يجد في كل منبت شجرة منه قاعة تامة إلى ربه ومعبوده. فهذا النفس تنفس مضطرب إلى ما لا غنى له عنه طرفه عين. وضرورته إليه من جهة كونه ربه، ونخالقه وفطرته وناصره، وحافظه ومعينه ورازقه، وهاديه ومعافيه، والقائم بجميع مصالحه ومن جهة كونه: معبوده وإلهه، وحيبه الذي لا تكمل حياته ولا تنفع إلا بأن يكون هو وحده أحب شيء إليه، وأشوق شيء إليه.

فإذا علت هذه الانفاس: حصل له القرب من ربه والأنس به، والفرح به، وبالخلق التي خلصها ربه على قلبه وروحه، مما لا يقوم لبعضه ممالك الدنيا بحدافيرها، فحيث تنفس نفساً آخر يقال له: نفس الافتخار، يجد به من التفريخ والترويح والراحة والاشراح ما يشبه — من بعض الوجوه — بنفس من جعل في عنقه جبل ليحرق به حتى يموت. ثم كشف عنه وقد حبس نفسه. فتتنفس نفس من أعيدت عليه حياته. وتخلص من أسباب الموت.

فإن قلت: مالليد والافتخار؟ وأين العبودية من نفس الافتخار؟

قلنا: لا نريد بذلك: أن العبد يفتخر بذلك. ويغتال على بنى جنسه. بل هو فرح وسرور لا يمكن دفعه عن نفسه بما فتح عليه ربه. ومنحه إياه، وخصه به. وأول ما قرح به العبد: فضل ربه

عليه . فإنه تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . ويحب العرج بذلك . لأنه من الشكر . ومن لا يفرح بنعمة النعم لا يعد شكوراً . فهو افتخار بما هو محص منه الله ونعمته على عبده ، لا افتخار بما من العبد . فهذا هو الذى يتنافى العبودية لاذاك .

وهنا سر لطيف . وهو أن هذا النمس يفخر على أنفاسه التى ليست كذلك . كما تفخر الحياة على الموت ، والعلم على الجهل ، والسمع على الصمم ، والبصر على العمى . فيكون الافتخار للنفس على النفس ، لا للمتفمس على الناس . والله أعلم .

﴿٦٢﴾ مَنَزَلَةُ الْمَعْرِفَةِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «المعرفة»
 قال الله تعالى (٥: ٨٦) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق).
 وقد تكلموا على «المعرفة» بآثارها وشواهدا. فقال بعضهم: من إمارات المعرفة بالله: حصول الميية منه، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيته.
 وقال أيضاً: المعرفة توجب السكون. فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينة.
 وقال لى بعض أصحابنا: ما علامة المعرفة التى يشيرون إليها؟ قلت له: أس القلب بالله.
 قال لى: علامتها أن يحس بقرب قلبه من الله. فيجده قريباً منه.
 وقال أحمد بن عاصم: من كان بالله أعرف: كان له أخوف. و يدل على هذا قوله تعالى (٣٥: ٢٨) إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وقول النبى صلى الله عليه وسلم «أنا أعرفكم بالله. وأشدكم له خشية».
 وقال آخر: من عرف الله تعالى صاقت عليه الدنيا بسعتها.
 وقال غيره: من عرف الله تعالى اتسع عليه كل صيق.
 ولا تنافى بين هذين الأمرين. فإنه يضيق عليه كل مكان لا يساعد فيه على شأنه ومطلوبه.
 ويتسع عليه ما ضاق على غيره. لأنه ليس فيه، ولا هو مسكن له بقلبه. فقله غير محبوس فيه.
 والأول: فى بداية المعرفة. والثانى: فى نهايتها التى يصل إليها العبد.
 وقال آخر: من عرف الله تعالى صما له العيش. فطابت له الحياة. وهابه كل تىء وذهب عنه خوف المخلوقين. وأنس بالله.
 وقال غيره: من عرف الله قوت عينه بالله. وقوت عينه بالموب. وقوت نه كل عى. ومن لم يعرف الله تقطع قلبه على الدنيا حسرات. ومن عرف الله لم يبق له رعة فيما سواه. ومن ادعى معرفة الله — وهو راعب فى غيره — كذبت رغبته معرفته. ومن عرف الله أخيه على قدر معرفته به. وخافه ورجاه، وتوكل عليه، وأبأ إليه. ولهج بذكره. واشتاق إلى لقائه. واستحيا منه. وأتجله وعظمه على قدر معرفته به.

ومن علامات المعرفة: أن يبدو لك الشاهد، وتضى الشاهد. وتنحل الملاحق. وتنقطع الموائق. وتجلس بين يدي الرب تعالى، وتقوم وتضطجع على التأهب للقاء، كما يجلس الذي شئ أحواله وأزعم السر على التأهب له. ويقوم على ذلك ويضطجع عليه. كما ينزل المسافر في المنزل. فهو قائم وجالس ومضطجع على التأهب.

وقيل للجنيدي: إن أقواما يدعون المعرفة، يقولون: إنهم يصلون بترك الحركات من باب التبر والتقوى؟ فقال الجنيدي: هذا قول أقوام تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عند عظيم. والذي يسرق ويؤني أحسن حالا من الذي يقول هذا. إن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله. وإلى الله رجعوا فيها. ولو بقيت ألف جام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بيني وبينها. ومن علامات العارف: أنه لا يطالب ولا يخاف، ولا يمازج، ولا يرى له على أحد فضلا. ولا يرى له على أحد حقا.

ومن علاماته: أنه لا يأسف على فائت. ولا يفزع بآت: لأنه ينظر إلى الأشياء بين الفناء والزوال. لأنها في الحقيقة كالظلال والخيال. وقال الجنيدي: لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يظوها البر والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يسقي ما يحب ولا يبغ. وقال يحيى بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شين: بكاء على نفسه، وثناء على ربه. وهذا من أحسن الكلام. فإنه يدل على معرفته بنفسه، وعيوبه وأفاته، وعلى معرفته بربه وكماله وجلاله، فهو شديد الازراء على نفسه، لهج بالثناء على ربه.

وقال آخر: لا يكون العارف عارفاً حتى لو أعطى ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين. وهذا يحتاج إلى شرح. فإن ما هو دون ذلك يشغل القلب، لكن يكون اشتغاله بغير الله لله. فذلك اشتغال به سبحانه. لأنه اشتغل بغيره لأجله لم يشتغل عنه.

ومن علاماته: أنه مستأنس بربه، مستوحش ممن يقطعه عنه. ولهذا قيل: العارف من أنس بالله، فأوحشه من الخلق، وانفتر إلى الله فأغناه عنهم. ودل له فأغزه فيهم. وتواضع لله فرقه بينهم. واستغنى بالله فأحوجهم إليه.

قيل: والعارف يتلون أقسام المبودية. فيبينا تراه مصليا إذ رأيت ذاكرًا، أو قارئًا، أو معلماً، أو مجاهداً، أو حاجاً، أو مساعداً للضعيف، أو مقيماً للملوف. فيضرب في كل غنمة من الغنائم بسهم. فهو مع المعلمين متعلم، ومع الفزاة غاز، ومع المصلين مصل، ومع المتصدقين متصدق. فهو ينتقل في منازل المبودية من عبودية إلى عبودية. وهو مقيم على مبود واحد. لا ينتقل في منازل المبودية إلى غيره.

وقال يحيى بن معاذ: العارف كائن بائن. وهذا يفسر على وجه. منها: أنه كائن مع الخلق بظاهره. بائن عنهم بسرهم وقلبه.

ومنها: أنه كائن مع أبناء الآخرة، بائن عن أبناء الدنيا.
ومنها أنه كائن مع الله بموافقته. بائن عن الناس في مخالفته.
وقيل: إن من علامة العارف: «أن لا يعتقد باطناً من العلم ينقضه عليه ظاهر من الحكم.
ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أستار محارم الله».
وهذا من أحسن الكلام الذي قيل في المعرفة.

قوله «باطن العلم الذي ينقضه ظاهر الحكم» فإنه يشير به إلى ما عليه المنحرفون، ممن ينسب إلى السلوك. فإنهم يقع لهم أذواق ومواجيد، وواردات تخالف الحكم الشرعي. وتكون تلك معلومة لهم لا يمكنهم جحدها. فيمتدونها و يتركون بها ظاهر الحكم. وهذا كثير جداً. وهو الذي انتقد أئمة الطريق على هؤلاء. وصاحوا بهم من كل ناحية. و بدعوههم وضلوعهم به.
قوله «ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أستار محارم الله» كثرة النعم تغطي العبد، وتحمله على أن يصرفها في وجوهها وغير وجوهها. وهي تدعوا إلى أن يتناول العبد بها ماحل ومالا يحل. وأكثر المنتم عليهم لا يقصرون في صرف النعمة على القدر الحلال. بل يتعداه إلى غيره، وتُسَوِّك له نفسه أن معرفته بالله ترد عليه ما انتهته منهم أيدي الشهوات والمخالفات. ويقول: العارف لا تضره الذنوب، كما تضر الجاهل. وربما يُسَوِّك له أن ذنوبه خير من طاعات الجاهل. وهذا من أعظم المكر. والأمر بضد ذلك. فيحتمل من الجاهل مالا يحتمل من العارف وإذا عوقب الجاهل ضيقاً عوقب العارف ضعفين. وقد دل على هذا شرع الله قال تعالى في نساء النبي صلى الله عليه وسلم (٢٣: ٣٧) يَأْتِ النَّبِيَّ قَنَ يَأْتِ مَكْنً يَفَاحِشَةً مَبِينَةً. يُضَاهِقُ لَهَا الْعَذَابُ ضَعْفَيْنِ) فإذا أكملت النعمة على العبد، فقابلها بالإساءة والمعصيان: كانت عقوبته أعظم. فدرجته أعلى وعقوبته أشد.

وقيل: بمجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين. ومن الرياء إلى الإخلاص. ومن الغفلة إلى الذكر. ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة. ومن الكبر إلى التواضع. ومن سوء الطوية إلى النصيحة.

• نثبت صفات الله تعالى بلا تأويل ولا تشبيه

وقال شيخ الاسلام المروي:
«المعرفة: معرفة الصفات التي وردت أساميها بالرسالة، وظهرت شواهدا في الصنعة. وهي على أربعة أركان: إثبات الصفات باسمها من غير تشبيه، ونفي التشبيه عنها من غير تعطيل، والإيثار من ادراك كنهها وابتغاء تأويلها، مع اسقاط التفریق بين الصفات والذات».

وهذا من جيد الكلام، و يدل على علو كعب المهروي.

وذلك أنه لا يستقر للعبد قدم في المعرفة — بل ولا في الإيمان — حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله، ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه. فالإيمان بالصفات وتعرفها: هو أساس الإسلام، والإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان. وقد جعل الله سبحانه منكسر صفاته مسمى الظن به. وتوعده عما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكياثر. فقال تعالى (٤١: ٢٢، ٢٣) وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم، ولا أبصاركم، ولا جلودكم. ولكن ظننتم: أن الله لا يعلم. كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم. فأصبحتم من الخاسرين) فأخبر سبحانه: أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته: من سوء ظنهم به. وأنه هو الذي أهلكهم. وقد قال في الظانين به ظن سوء (٤٨: ٦) عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم. وأعد لهم جهنم. وساءت مصيراً) ولم يحمى مثل هذا الوعيد في غير من ظن سوء به سبحانه. وجحد صفاته وإنكار حقائق أسمائه: من أعظم ظن سوء به.

ولما كان أحب الأشياء إليه: حده ومدحه، والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله: كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به. وهو شر من الشرك. فالمعطل شر من المشرک. فإنه لا يستوى جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والظن في أوصافه هو، والتشريك بينه وبين غيره في الملك. فالمعطلون أعداء الرسل بالذات. بل كل شرك في العالم فأصله التعطيل. فإنه لولا تعطيل كماله — أو بعضه — وظن سوء به: لما أشرك به، كما قال إمام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه (٣٧: ٨٦ و ٨٧) أتفكراً آفة دون الله تريدون؟ * فما ظنكم برب العالمين؟) أى فما ظنكم به: أن يميز بينكم، وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذى ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟

أظننتم: أنه محتاج إلى شركاء يُعينونه كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاس. فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عبادته؟ أم ذليل، فيحتاج إلى ولي يشكرك به من القلة، ويتعززه من الدلة؟ أم يحتاج إلى الولد، فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومه؟ تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً.

والمتصود: أن التعطيل مبدأ الشرك وأساسه. فلا تجحد معطلاً إلا وشركه على حسب تعطيله. فمستقل ومستكثر.

● معرفة الصفات : روح السلوك

والرسل من أولهم إلى خاتمهم — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — أرسلوا بالدعوة إلى الله . وبيان الطريق الموصل إليه . وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه . فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل ملة على لسان كل رسول . فَعَزَّوْا رَبَّ الْمَدْعُوِّ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ تعريفاً مفصلاً ، حتى كان العباد يشاهدونه سبحانه . وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه ، يكلمهم ملائكته ، ويدبر أمر مملكته ، ويسمع أصوات حلقه ، ويرى أفعالهم وحركاتهم . ويشاهد بواطنهم ، كما يشاهد ظواهرهم ، يأمر وينهى . ويرضى ويغضب . ويحب ويبغض . ويفضح ويكسرهم . ويفنى قهريهم . ويميت ويحيي . ويمنع ويعطي . يؤتي الحكمة من يشاء . مالك الملك . يؤتى الملك من يشاء . وينزع الملك ممن يشاء . ويعز من يشاء ويدل من يشاء . بيده الخير . وهو على كل شيء قدير . كل يوم هوفى شأن . يخمر دنياً . ويفرج كرباً . ويفك عانياً . وينصر مظلوماً . ويقصم ظالماً . ويرحم مسكيناً . ويفيئ ملهوفاً . ويسوق الأقدار إلى مواعيدها . ويجريها على نظامها . ويقدم ما يشاء تقديمه . ويؤخر ما يشاء تأخيراً فأرقت الأُمُور كلها بيده . ومدار الممالك كلها عليه . وهذا مقصود الدعوة ، ورُبدة الرسالة .

القاعدة الثانية : تعريفهم بالطريق الموصل إليه . وهو صراطه المستقيم ، الذى نصبه لرسله وأتباعهم . وهو امتثال أمره ، واجتباب نهيه ، والإيمان بوعده ووعظه .
القاعدة الثالثة : تعريف الحال بعد الوصول . وهو ما تصنعه اليوم الآخر من الجنة والنار . وما قبل ذلك من الحساب ، والحوض والميزان والصراط .

فالإيمان بالصفات ومعرفتها ، وإثبات حقائقها ، وتعلق القلب بها ، وشهوده لها : هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته . وهو روح السالكين . وحاديهم إلى الوصول . وحرك عزماتهم إذا فتروا . ومُثْبِر همهم إذا قصرُوا . فإن سيرهم إنما هو على الشواهد . فمن كان لا شاهد له فلا سير له ، ولا طلب ولا سلوك له . وأعظم الشواهد : صفات محبوبهم ، ونهاية مطلوبهم . وذلك هو العَلَمُ الذى رُفِعَ لهم في السير فشمروا إليه ، كما قالت عائشة رضى الله عنها « من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً . لم يصع كِبَته على لنته ، ولكن نُفِعَ له عَلَمُ قَشْمَرِ إِلَيْهِ » ولا يزال العبد في التواني والفتور والكسل ، حتى يرفع الله عروحل له — يفصله رُفْعُهُ — بَعْلَمًا يشاهده بقلبه . فيشمر إليه . ويعمل عليه .

فإن عَطَلَّتْ شواهد الصفات ، ووضعت أعلامها عن القلوب ، وطست آثارها ، وضربت بسياط البعد ، وأنشبل دونها حجاب الطرد ، وتخالفت مع المتخلمين ، وأوحى إليها القَدَرُ أن

أقدمى مع القاعدين. فإن أوصاف المدعو إليه، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه: هي الجاذبة للقلوب إلى محبته، وطلب الوصول إليه، لأن القلوب إنما تحب من تعرفه، وتحافه وترجوه وتشتاق إليه. وتلتذ بقربه، وتطمئن إلى ذكره، بحسب معرفتها بصفاته. فإذا ضرب دونها حجاب معرفة الصفات والإقرار بها: امتنع منها — بعد ذلك — ما هو مشروط بالمعرفة، وملزم لها. إذ وجود الملزم بدون لازمه، والمشروط بدون شرطه: ممنوع.

فحقيقة المحبة، والإنابة والتوكل، ومقام الإحسان تمتنع على المعطل كل الامتناع، إذ كيف بألة القلوب من لا يسمع كلامها. ولا يرى مكانها. ولا يحب ولا يحب. ولا يقوم به فعل البتة، ولا يتكلم ولا يكلم. ولا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء. ولا يقوم به رافة ولا رحمة ولا حنان، ولا له حكمة، ولا غاية بفعل ويأمر لأجلها؟.

فكيف يتصور على ذلك، ومحبة والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ورؤية وجهه الكريم في جنات النعيم. وهو مستوعل عرشه فوق جميع خلقه؟ أم كيف تأله القلوب من لا يحب ولا يحب، ولا يرضى ولا يفض. ولا يفرح ولا يضحك؟.

فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته، والسرور والفرح به، والشوق إلى لقائه، وانتظار لذة النظر إلى وجهه الكريم، والتمتع بخطابه في محل كرامته ودار ثوابه! فلورأها أهلاً لذلك لمن عليها به. وأكرمها به. إذ ذاك أعظم كرامة يكرم بها عبده. والله أعلم حيث يجعل كرامته. ويضع نعمته (٥٣: ٦) وكذلك فتننا بعضهم ببعض، وليقولوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أليس الله أعلم بالشاكرين؟ (٦: ١٢٤) وإذا جاءتهم آية قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى زل الله. الله أعلم حيث يجعل رسالته (٤٣: ٣٢) أهم يقسمون رحمة ربك؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا. ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات. ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا. ورحمة ربك خير مما يجمعون) وليس جحودهم صفاته سبحانه، وحقائق أسمائه: في الحقيقة تنزيهاً. وإنما هو حجاب ضرب عليهم، فظنوه. تنزيهاً. كما ضرب حجاب الشرك والبدع المضلة والشهوات المردية على قلوب أصحابها. وزين لهم سوء أعمالهم. فأروها حسنة.

وهذه الصفات دل عليها الوحي الذي جاء من عند الله على لسان رسوله. والحس الذي شاهد به البصير آثار الصفة. فاستدل بها على صفات صانعها. والعقل الذي طابت حياته بزعم الفكر، والقلب الذي يحيا بحسن النظر بين التعظيم والاعتبار.

فأما الرسالة: فإنها جاءت بإثبات الصفات إثباتاً مفضلاً على وجه أنزال الشبهة. وكشف الغطاء. وحلّ العلم اليقيني. ورفع الشك «الريب فتلجث له الصدور. واطمأنت به القلوب. واستقر به الإيمان في نصابه. ففصلت الرسالة الصفات والأفعال اعظم من تفصيل الامر والنهي.

وقررت إثباتها أكمل تقرير في أبلغ لفظ، وأبعده من الإجمال والاحتمال، وأمنعه من قبول التأويل. وكذلك كان تأويل آيات الصفات وأحاديثها بما يخرجها عن حقائقها من جنس تأويل آيات المعاد وأخباره. بل أبعده منه لوجوه كثيرة. ذكرتها في كتاب «الصواعق المرسلة، على الجهمية والمطلة» بل تأويل آيات الصفات — بما يخرجها عن حقائقها — كتأويل آيات الأمر والنهي سواء. فالباب كله باب واحد. ومصدره واحد. ومقصوده واحد. وهو إثبات حقائقه والإيمان بها.

وكذلك سطا على تأويل آيات المعاد قوم، وقالوا: فعلنا فيها كفضل المتكلمين في آيات الصفات. بل نحن أعذر. فإن اشتغال الكتب الإلمية على الصفات والعلوقيات الأفعال: أعظم من نصوص المعاد للأبدان بكثير. فإذا ساغ لكم تأويلها، فكيف يحرم علينا نحن تأويل آيات المعاد؟

وكذلك سطا قوم آخرون على تأويل آيات الأمر والنهي، وقالوا: فعلنا فيها كفضل أولئك في آيات الصفات، مع كثرتها وتنوعها. وآيات الأحكام لا تبلغ زيادة على خمسمائة آية. قالوا: وما يظن أنه معارض من العقليات لنصوص الصفات. فعندنا معارض عقل لنصوص المعاد، من جنسه أو أقوى منه.

وقال متأولوا آيات الأحكام على خلاف حقائقها وظواهرها: الذي سوغ لنا هذا التأويل: القواعد التي اصطلاحتموها لنا. وجعلتموها أصلاً نرجع إليه. فلما طردناها كان طردها: أن الله ما تكلم بشيء قط، ولا يتكلم. ولا يأمر ولا ينهى ولا له صفة تقوم به. ولا يفعل شيئاً. وطرد هذا الأصل: لزوم تأويل آيات الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب.

وقد ذكرنا في كتاب «الصواعق» أن تأويل آيات الصفات وأخبارها — بما يخرجها عن حقائقها — هو أصل الفساد وزوال الممالك. وتسلط أعداء الإسلام عليه: إما كان بسبب التأويل، ويعرف هذا من له اطلاع وخبرة بما جرى في العالم. ولهذا يحرم عقلاء الفلاسفة التأويل مع اعتقادهم لصحته. لأنه سبب لفساد العالم، وتعطيل الشرائع.

ومن تأمل كيفية ورود آيات الصفات في القرآن والسنة: علم قطعاً بطلان تأويلها بما يخرجها عن حقائقها. فإنها وردت على وجه لا يحتمل معه التأويل بوجه.

فانظر إلى قوله تعالى (٩: ١٥٨) هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة، أو يأتي ربك، أو يأتي بعض آيات ربك) هل يحتمل هذا التفسير والتنويع: تأويل إتيان الرب جل جلاله بإتيان ملائكته أو آياته؟ وهل يبقى مع هذا السياق شبهة أصلاً: أنه إتيانه بنفسه؟ وكذلك قوله (٤: ١٦٣، ١٦٤) إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده — إلى أن قال — وكلم الله موسى تكليماً) ففرق بين الإيماء العام، والتكليم الخاص. وجعلهما نوعين. ثم أكد

فعل التكليم بالمصدر الرابع لتوهم ما يقوله المحرفون. وكذلك قوله (٤٣: ٥١) وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا) فنع تكليمه إلى تكليم بواسطة، وتكليم بغير واسطة. وكذلك قوله لموسى عليه السلام (٧: ١٤٤) إني اصطفتك على الناس برؤسائي وبكلامي) ففرق بين الرسالة والكلام. والرسالة إنما هي بكلامه. وكذلك قول النبي صل الله عليه وسلم «إنكم ترون ربكم عياناً. كما ترون القمر ليلة البدر في الصحو، ليس دونه سحاب، وكما ترون الشمس في الظهيرة صحوها ليس دونها سحاب». . ومعلوم أن هذا البيان والكشف والاحتراز: يناق إرادة التأويل قطعاً. ولا يرتاب في هذا من له عقل ودين.

أما الطريق الثاني من طرق إثبات الصفات، فهو دلالة الصنعة عليها. فإن المخلوق يدل على وجود خالقه، على حياته وعلى قدرته، وعلى علمه ومشيته. فإن الفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزماً ضرورياً. وما فيه من الإثقان والإحكام ووقوعه على أكمل الوجوه: يدل على حكمة فاعله وعنايته. وما فيه من الإحسان والنع، ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق: يدل على رحمة خالقه، وإحسانه وجوده.

وآثار الكمال: تدل على أن خالقه أكمل منه. فمغطى الكمال أحق بالكمال. وخالق الأسماع والأبصار والنطق: أحق بأن يكون سميعاً بصيراً متكلماً. وخالق الحياة والعلوم، والقُدَر والإرادات: أحق بأن يكون هو كذلك في نفسه. فما في المخلوقات من أنواع التخصيصات: هو من أدل شيء على إرادة الرب سبحانه، ومشيته وحكمته، التي اقتضت التخصيص.

وحصول الإجابة عقيب سؤال الطالب، على الوجه المطلوب: دليل على علم الرب تعالى بالجزئيات. وعلى سمعه لسؤال عبده. وعلى قدرته على قضاء حوائجهم. وعلى رأفته ورحمته بهم. والإحسان إلى المطيعين، والتقرب إليهم بالإكرام، وإعلاء درجاتهم: يدل على محبته ورضاه. وعقوبته للعصاة والظلمة، وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة: تدل على صفة «الغضب والسخط» والإبعاد. والطرد والإقصاء: يدل على المقت والبغض. فهذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل. ولهذا دعا سبحانه في كتابه عباده إلى الاستدلال بذلك على صفاته. فهويثبت العلم بربوبيته ووحدانيته، وصفات كماله بآثار صفته للشهودة. والقرآن مملوء بذلك.

فيظهر شاهد اسم «الخالق» من نفس المخلوق. وشاهد اسم «الرزاق» من وجود الرزق والمرزوق. وشاهد اسم «الرحيم» من شهود الرحمة الميثقة في العالم. واسم «المعطي» من وجود المعطاء الذي هو مدار لا ينقطع لحظة واحدة. واسم «العليم» من حلمه عن الجناة والمعصاة وعدم

معالجتهم. واسم «الغفور» و «التواب» من معرفة الذنوب، وقول التوبة. و يظهر شاهد اسمه «الحكيم» من العلم بما في خلقه وأمره من الحكيم والمصالح ووجوه المنافع. وهكذا كل اسم من أسمائه الحسنی له شاهد في خلقه وأمره. يعرفه من عرفه ويجهله من جهله. فالخالق والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته.

وكل سليم العقل والفطرة يعرف قدر الصانع وجذقه وتريزه على غيره، وتمرده بكمال لم يشاركه فيه غيره: من مشاهدة صمته، فكيف لا تعرف صفات من هذا العالم العلوى والسفلى وهذه المخلوقات : من بعض صمته؟

وإذا اعتسرت المخلوقات والأمورات. وحدتها بأسرها كلها دالة على الصمات، وحقائق الأسماء الحسنی. وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس غمی بمكانة. و يكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة. كما قال تعالى (٥١: ٢١ وفي أنفسكم أفلا تبصرون؟) فالحوادث بأسرها شواهد صفات الرب جل جلاله ونموته وأسمائه. فهي كلها تشير إلى الأسماء الحسنی وحقائقها. وتنادى عليها. وتدل عليها. وتخبر بها بلسان الطق والحال. كما قيل:

تأمل سطور الكائنات. فإنها	من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد حطّ فيها — لو تأملت خطها —	الآكلُ شيء ما خلا الله باطل
تشير بإثبات الصمات لربها	فصامتها تهدي، وتمنّ هوقائل

فلمست ترى شيئاً أدل على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها، ونموت كماله، وحقائق أسمائه. وقد تنوعت أدلها بحسب تنوعها. فهي تدل عقلاً وحساً، وفطرة ونظراً، واعتباراً.

وكلما قوى النور في قلب العبد: كان بصره أتم وأكمل، وكلما قلّ نصيبه من النور، وطفى مصباحه في قلبه: طفى نور التصديق بالصفات وإثباتها في قلبه. فإنه يشاهدها بذلك النور. فإذا فقدته لم يشاهدها. وجاءت الشبه الباطلة مع تلك الظلمة. فلم يكن له نصيب منها سوى الإبهكار.

والتفكير يساعد على هذا الإدراك. ولذلك كان من صفات المؤمنين أنهم يتفكرون في الآيات، فيستدلون بها على توحيده، وصفات كماله، وصدق رسله، والعلم ببقائه. ويتفكرون في الدنيا وانقضائها، واضمحلالها وأفاتها، والآخرة ودوامها وشرفها. وبذلك وصفهم الله تعالى إذ قال (٣٠: ٢١ ومن آياته: أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها. وجعل بينكم مودة ورحمة. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فالفكر الصحيح، المؤيد بحياة القلب،

ونور البصيرة: يدل على إثبات صفات الكمال ونموذج الجلال وأما فكّر مصحوب بموت القلب وعمى البصيرة: فإنما يعطى صاحبه نفيها وتعطيلها. و ينضاف إلى نور البصيرة وطيب حياة العقل: حياة القلب بحسن النظر الداهرين تعظيم الخالق — جل جلاله — وحسن الاعتبار بمصنوعاته الدالة عليه. فلا بد من الأمرين. فإنه إن غفل بالتعظيم عن حسن الاعتبار: لم يحصل له الاستدلال على الصفات. وإن حصل له الاعتبار من غير تعظيم الخالق سبحانه: لم يستند به إثبات الصفات. فإذا اجتمع له تعظيم وحسن النظر في صنعه: أثمر له إثبات صفات كماله ولا بد، مع أنه يستحيل أن يصح للقلب تعظيم لربه من خلال تدبر آثار اسمائه وصفاته وتدبر آياته القرآنية، ثم ينفل به عن حسن الاعتبار، ولا أن يحصل له اعتبار من غير تعظيم.

و «الاعتبار» هو أن يعبر نظره من الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع. ومن الدليل إلى المدلول. فينتقل إليه بسرعة لطافت إدراكه. فينتقل ذهنه من المزمع إلى لازمه. قال الله تعالى (٥٩: ٢ فاعتبروا يا أولي الأبصار) و «الاعتبار» افتعال من العبر. وهو عبور القلب من اللزوم إلى لازمه. ومن النظر إلى نظيره.

وهذا «الاعتبار» يضعف ويقوى، حتى يستدل صاحبه بصفات الله تعالى وكماله على ما يفعله، لحسن اعتباره وصحة نظره. وهو اعتبار الخواص واستدلالهم. فإنهم يستدلون بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وأنه يفعل كذا ولا يفعل كذا. فيفعل ما هو موجب حكمته وعلمه وغناه وحده، ولا يفعل ما يتناقض ذلك. قد ذكر سبحانه هذين الطريقين في كتابه. فقال تعالى في الطريق الأول (٤١: ٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم، حتى يتبين لهم: أنه الحق) ثم قال في الطريق الثانية (أولم يكف بربك: أنه على كل شيء شهيد؟) فمخلوقاته دالة على ذاته وأسمائه وصفاته، وأسماءه وصفاته دالة على ما يفعله ويأمر به، وما لا يفعله ولا يأمر به.

مثال ذلك: أن اسمه «الحميد» سبحانه يدل على أنه لا يأمر بالفحشاء والمنكر. واسمه «الحكيم» يدل على أنه لا يخلق شيئاً عبثاً. واسمه «الغنى» يدل على أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً. واسمه «المليك» يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه: من قدرته، وتدبيره، وعطائه ومنعه، وثوابه وعقابه، وبث رسله في أقطار مملكته، وإعلام عبيده بمراسيمه، وعهوده إليهم، واستوائه على سرير مملكته الذي هو عرشه المجيد. فمتى قام بالمبد تعظيم الحق — جل جلاله — وحسن النظر في الشواهد، والتبصر والاعتبار بها: صارت الصفات والنعمت مشهودة لقلبه قبلة له. وأما أركان هذه المعرفة:

فأحدها: إثبات تلك الصفة. فلا يعاملها بالنفي والإنكار.

الثاني: أنه لا يتحدى بها اسمها الخاص الذي سماها الله به. بل يحترم الاسم كما يحترم

الصفة. فلا يعطل الصفة. ولا يغير اسمها ويعيرها اسماً آخر. كما تسمى الجهمية والمطلة سمعه وبصره، وقدرته وحياته، وكلامه: أعراضاً. ويسمون وجهه ويديه وقدمه سبحانه: جوارح وأبعاضاً ويسمون حكمته وغاية فعله المطلوبة: عللاً وأعراضاً. ويسمون أفعاله القائمة به: حوادث. ويسمون علوه على خلقه، واستوائه على عرشه: تحيزاً. ويتواضعت بهذا المكر الكبار إلى نفى ما دل عليه الوحي، والعقل والفطرة، وآثار الصنعة من صفاته. فيسطلون — بهذه الأسماء التي سموها هم وآباؤهم — على نفى صفاته وحقائق أسمائه.

واعلم ان الله تعالى قد أطلق على نفسه أفعالا لم يتسم منها بأسماء الفاعل. كأراد، وشاء، وأحدث. ولم يسم «بالمريد» و«الشائي» و«المحدث»، كما لم يسم نفسه «بالصانع» و«الفاعل» و«المقتن» وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه. فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء.

وقد أخطأ — أقبح خطأ — من اشتق له من كل فعل اسماً. وبلغ بأسمائه زيادة على الألف. فسماه «الماكر»، والمخادع، والهاطن، والكائد» ونحو ذلك. وكذلك باب الاخبار عنه بالاسم اوسع من تسميته به. فانه يجبر عنه بأنه «شيء وموجود، ومذكور، ومعلوم، ومراد» ولا يسمى بذلك.

فأما «الواجد» فلم تجيء تسميته به إلا في حديث تعداد الأسماء الحسنى. والصحيح: أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم. ومعناه صحيح. فإنه ذو الوجد والغنى. فهو أول بأن يسمى به من «الموجود» ومن «الموجد» أما «الموجد» فإنه منقسم إلى كامل وناقص، وخير وشر. وما كان مسماه منقسماً لم يدخل اسمه في الأسماء الحسنى. كالتى والمعلوم. ولذلك لم يسم بالمريد، ولا بالتكلم. وإن كان له الإرادة والكلام، لانقسام مسمى «المريد» و«التكلم» وأما «الموجد» فقد سمي نفسه بأكمل أنواعه. وهو «الحالق، البارىء، المصور» فالوحد كالمحدث والفاعل والصانع.

وهذا من دقيق فقه الأسماء الحسنى. فتأمل.

الثالث: عدم تشبيهها بما للمخلوق. فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء، لأن ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. فالعارفون به، المصدقون لرسله، المقرون بكلامه: يشبّهون له الأسماء والصفات. وينفون عنه مشابهة المخلوقات. فيجمعون بين الإثبات ونفى التشبيه، وبين التنزيه وعدم التعطيل. فمذهبهم حسنة بين سيئتين، وهدى بين ضلالتين. فصراتهم صراط للنعم عليهم. وصراتهم غيرهم صراط المغضوب عليهم والضالين. قال الامام احمد رحمه الله «لا تمزج بين صفات من صفاته. لأجل شناعة المشنعين» وقال «التشبيه: أن تقول يد كيدى» تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فإن العقل قد يش من تعرف كنه الصفة وكيفيةها. فإنه لا

يعلم كيف الله إلا الله، وهذا معنى قول السلف «بلا كيف» أى بلا كيف يعقله البشر. فإن من لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته، كيف تعرف معونه وصفاته؟ ولا يتقدح ذلك في الإيمان بها، ومعرفة معانيها. فالكيفية وراء ذلك، كما أننا نعرف معانى ما أخبر الله به من حقائق ما في اليوم الآخر. ولا نعرف حقيقة كيفيته، مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق. فتصغرتنا عن معرفة كيفية الخالق وصفاته أعظم وأعظم.

فكيف يطمع العقل المخلوق المحصور المحدود في معرفة من له الكمال كله، والجمال كله، والعلم كله، والقدرة كلها، والعظمة كلها، والكبرياء كلها؟ من لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته السموات والأرض وما فيها وما بينهما.. وما وراء ذلك؟ الذى يقبض سمواته بيده. فتغيب كما تغيب الخردة في كف أحدنا. الذى نسبة علوم الخلائق كلها إلى علمه أقل من نسبة نثرة عصافير من بخار العالم الذى لو أن البحر — يُبْدئ من بعده سبعة أبحر — مداد وأشجار الأرض — من حين خلقت إلى قيام الساعة — أقلام: لقنى للداد وفنيت الأقلام، ولم تنفذ كلماته.

فقاتل الله الجهمية والمطلة! أين التشبيه ههنا؟ وأين التمثيل لقد انصمحل ههنا كل موجود سواء. فضلا عن أن يكون له ما يماثله في ذلك الكمال، و يشابهه فيه. فسيحان من حجب عقول هؤلاء عن معرفته، ولأما ما توكت من وقوفها مع الألفاظ التى لا حرمة لها، والمعانى التى لا حقائق لها.

ولما فهمت هذه الطائفة من الصفات الإلهية ما تفهمه من صفات المخلوقين، فزكت إلى انكار حقائقها وإبتغاء تحريفها، وسئمت تأويلها. فشبهت أولا. وعطلت ثانياً. وأسادت الفن بربها وبكتابه وبنبيه وأتباعه.

أما إساءة الفن بالرب: فأنها عطلت صفات كماله. ونسبت إلى أنه أنزل كتاباً مشتملاً على مظاهره كفر وباطل، وأن ظاهره وحقيقته غير مرادة.

وأما إساءة ظننها بالرسول: فلأنه تلكم بذلك وقرره وأكده. ولم يبين للأمة أن الحق في خلافه وتأويله.

وأما إساءة ظننها بأتباعه: فنسبتهم لهم إلى التشبيه والتمثيل، والجهل والحشر. الرابع: اسقاط التفريق بين الصفات والذات، إذ التفريق بين الصفات والذات في الوجود مستحيل. وهو يمكن في الشهود بأن يشهد الصفة وَيَذْهَلُ عن شهود الموصوف، أو يشهد الموصوف ويذهل عن شهود الصفة. فتجريد الذات أو الصفات: إما يمكن في الذهن. فالمعرفة في هذه الدرجة: تعلقت بالذات والصفات جميعاً. فلم يفرق العلم والشهود بينهما. ولا ريب أن ذلك أكمل من شهود مجرد الصفة، أو مجرد الذات

وليس المراد أنك تسقط التفريق بين الذات والصفات في الخارج والعلم، بحيث تكون الصفات هي نفس الذات. فهذا لا يقوله موحد، وإن كان كثير من أرباب الكلام يقولون: إنما الصفات هي الذات. فليس مرادهم: أن الذات نفسها صفة. فهذا لا يقوله عاقل. وإنما مرادهم: أن صفاتها شيئاً غيراً. فإن أراد هؤلاء أن مفهوم الصفة هو مفهوم الذات: فهذا مكافرة. وإن أرادوا أنه ليس ههنا أشياء غير الذات انضمت إليها وقامت بها: فهذا حق.

والتحقيق: أن صفات الرب — جل جلاله — داخلة في مسمى اسمه. فليس اسمه «الله. والرب، والإله» أسماء لذات مجردة، لا صفة لها البتة. فإن هذه الذات المجردة وجودها مستحيل. وإنما يفرضها الدهن فرض الممتنعات. ثم يحكم عليها. واسم «الله» سبحانه «والرب، والإله» اسم لذات لها جميع صفات الكمال ونعوت الجلال. كالعلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والكلام، والسمع والبصر، والبقاء، والقدم، وسائر الكمال الذي يستحقه الله لذاته. فصفاته داخلة في مسمى اسمه. فتجريد الصفات عن الذات، والذات عن الصفات: فرض وحيال ذهني لا حقيقة له. وهو أمر اعتباري لا فائدة فيه. ولا يترتب عليه معرفة. ولا إيمان، ولا هو علم في نفسه. وبهذا أجاب السلف الجهمية لما استدلوا على خلق القرآن. بقوله تعالى (٣٩: ٦٢) الله خالق كل شيء) قالوا: والقرآن شيء.

فأجابهم السلف بأن القرآن كلامه، وكلامه من صفاته. وصفاته داخلة في مسمى اسمه كعلمه وقدرته وحياته، وسمعه وبصره، ووجهه ويديه — فليس «الله» اسماً لذات لانت لها، ولا صفة، ولا فعل، ولا وجه، ولا يدين. ذلك إله معدوم مفروض في الأذهان. لا وجود له في الأعيان، كإله الجهمية. الذي فرضوه غير خارج عن العالم ولا داخل فيه، ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا محايث له ولا مباین. وكإله الفلاسفة الذي فرضوه وجوداً مطلقاً لا يتخصص بصفة ولا نعت، ولا له مشيئة ولا قدرة، ولا إرادة ولا كلام. وكإله الاتحادية الذي فرضوه وجوداً سارياً في الموجودات ظاهراً فيها. هو عين وجودها. وكإله الصارى الذي فرضوه قد اتخذ صاحبة وولداً. وتدرج سناسوت ولده. واتخذ منه حجاباً. فكل هذه الآلهة مما عملته أيدي أفكارها. وإله العالمين الحق: هو الذي دعيت إليه الرسل وعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه، موصوف بكل كمال، منزّه عن كل نقص. لا مثال له. ولا شريك. ولا ظهير. ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه (٥٧: ٣) هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) غنى بداته عن كل ما سواه. وكل ما سواه فقير إليه بذاته.

فاذا علم العبد انفراد الرب سبحانه بالأزل والبقاء والفعل، وغبّر قسّ سواه عن القدرة على إيجاد ذرة أو جزء من ذرة. وأنه لا وجود له من نفسه. فوجوده ليس له، ولا به ولا منه. وتوالت هذا العلم عن القلب: يسقط ذكر غيره سبحانه عن البال والذكر. كما سقط غناه وروبيته

وملكه وقدرته. فصار الرب سبحانه وحده: هو للمعبود والشهود والمذكور، كما كان وحده: هو الخالق للمالك، الثنى للوجود بنفسه أولاً وأبداً. ولما ما سواه: فوجوده — وتوابع وجوده — عارية ليست له. وكلما غنى العبد عن ذكر غيره وشهده: صفت هذه المعرفة في قلبه، وانجذبت روحه إلى الواحد القهار. فهي تحوّل في ميدان أوسع من السماوات والأرض، بعد أن كانت مسجونة في سجون الخلقوت. فإذا استمر له عكوف قلبه على الحق سبحانه، ونظر قلبه إليه كأنه يراه، ورؤية تضرده بالخلق والأمر، والنفع والضرر. كملت وقت معرفته، فإن الرب سبحانه إذا رقى عبده باليتدرج: نور باطنه وعقله بالعلم. فرأى أنه لخالق سواه، ولارب غيره. ولا يملك الضر والنفع والمطاء والنفع غيره. وأنه لا يستحق أن يعبد — بنهاية الخفض والحب — سواه. وكل معبود سوى وجهه الكريم فباطل. فهذا توحيد العلم.

ثم إذا رقا له الحق سبحانه درجة أخرى فوق هذه: أشهد عود المفعولات إلى أفعاله سبحانه. وعود أفعاله إلى أسمائه وصفاته. وقيام صفاته بذاته. فيضمحل شهود غيره من قلبه.

ثم إذا رقا له درجة أخرى: أشهد قيام الممالك كلها به وحده، أي باقامته لها وإمساكها لها، فانه سبحانه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك البحار أن تفيض أو تنضب على العالم. ويمسك السماء أن تقع على الأرض. ويمسك الطير في الهواء صافات ويقبضن. ويمسك القلوب للوقت أن تفرغ عن الإيمان. ويمسك حياة الكيوان أن تفارقه إلى الأجل المحدود. ويمسك على الموجودات وجودها. ولولا ذلك لاضمحلت وتلاشت. والكل قائم بأفعاله وصفاته التي هي من لوازم ذاته. فليس الوجود الحقيقي إلا له. أعنى الوجود الذي هو مستغن فيه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بالذات، لا قيام له بنفسه طرفة عين، وكلما أسرع العبد في إقباله على ربه: أسرع ربه به لارتقاء، لأن العبد إذا أقبل على ربه، وتفقد أحواله، وتكّن من شهود قيام ربه عليه، فإنه يكون في أول أمره: مكابداً وصابراً ومرابطاً. فإذا صبر وصابر وربط — صبر في نفسه وصابر عدوه. وربط على ثغر قلبه أن يدخل فيه خاطر لا يحبه وليه الحق — وقطع كلاليب الشهوات والشبهات، فحيث يصفوله إقباله على ربه، فيستولي نور المراقبة على أجزاء باطنه. فيمتلئ قلبه من نور التوجه، بحيث يشمر قلبه، ويستره عما سواه. ثم يسرى ذلك النور من باطنه فيم أجزائه ظاهره. فيتشابه الظاهر والباطن فيه. فيجد آثار الجلال والجمال المقدس في قلبه وروحه. ويجد المبودية والمحبة، والدعاء والافتقار، والتوكل والخوف والرجاء، وسائر الأعمال القلبية: قائمة بقلبه. لا تشغله عن مشهد الروح. ولا تستغرق مشهد الروح عنه. ويجد ملاحظته للأوامر والنواهي حاضراً في جذر قلبه حيث نزلت الأمانة. فلا يشغله مشهد الروح المستغرق، ولا مشهد القلب عن ملاحظة مراضى الرب تعالى وعما به، وحقه على عبده. ويجد ترك

التدبير والاختيار وصحة التوفيق موجوداً في محل نفسه. فيعامل الله سبحانه بذلك. بحيث لا تشغله مشاهدة الأولى عنه. و يقوم بملاحظة عقله لأسرار حكمة الله في خلقه وأمره. ولا يحجب ذلك كله عن ملاحظة عبوديته. فيبقى مضمور الروح بملاحظة الفردانية وجلالها وكمالها وجلالها. قد استغرقت محبته والشوق إليه. مغمور القلب بمبادات القلوب مغمور القلب بملاحظة الحكمة ومعاني الخطاب. طاهر القلب عن سفساف الأخلاق، مع الله تعالى ومع الخلق. قد صار عبداً محضاً لربه بروحه وقلبه وعقله، ونفسه وبيده وجوارحه. قد قام كلُّ ما عليه من العبودية. بحيث لا تحجبه عبودية بعضه عن عبودية البعض الآخر.

• نوحده تعالى رباً وإلهاً

فاهل التوحيد والاستقامة يرتقون الى هذه المنازل اذن بأمرين، احدهما ارفع من الآخر.
الأمر الأول: شهود الربوبية والقيومية. فيشهد تفرد الرب تعالى بالقيومية والتدبير، والخلق والرزق، والعطاء والمنع، والضر والنفع، وأن جميع الموجودات منفعة لا فاعلة. وماله منها فضل فهو منفعل في فعله، محل محض لجرىان أحكام الربوبية عليه. لا يملك شيئاً منها لنفسه ولا لغيره، فلا يملك ضرراً ولا نفعاً. فإذا تحقق العبد بهذا المشهد: خذت منه الخواطر والإرادات. نظراً إلى القيم الذي بيده تدبير الأمور، وشخصاً منه إلى مشيئته وحكمته فهو ناظر منه به إليه. فإن بشهوته عن شهود ما سواه. ومع هذا فهو ساع في طلب الوصول إليه. قائماً بالأواجبات والتوفيق.
الأمر الثاني: شهود الالهية، وحقيقته: إرادة الله ومحبته، والإجابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجائه، فيفنى بحبه عن حب ما سواه، وبخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه. فحقيقة هذا الشهود: الانسحاق بالمحطة، والخوف والرجاء، والتعظيم والإجلال. وتحن نشير إلى مبادئ ذلك وتوسطه وغايته. فنقول:

اعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال، أو رياسة أو مودة. وتعلق بالآخرة، والاهتمام بها من تحصيل الثقة، والتأهب للقُدوم على الله عز وجل: فذلك أول فتوحه، وتبشير فجره. فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة ما يرضى به ربه منه. فيفعله و يتحرب به إليه. وما يسخطه منه، فيجتنبه. وهذا عنوان صدق إرادته. فإن كل من أيقن بقاء الله، وأنه سائله عن كلمتين — يسأل عنهما الأولون والآخرون — ماذا كنتم تبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ لا بد أن يتنبه لطلب معرفة معبوده، والطريق الموصلة إليه. فإذا تمكن في ذلك: فتح له باب الأنس بالخلاوة والوحدة والأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات، فلا شيء أشوق إليه من ذلك. فإياها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته. وتسد عليه الأبواب التي تفرق عنه وتشت قلبه. فيأنس بها ويستوحش من الخلق.

• ارتقاء الذروة

ثم يفتح له باب جلالة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها. ويجد فيها من اللذة والراحة أضغاث ما كان يجده في لذة الله واللعب، ونيل الشهوات. بحيث إنه إذا دخل في الصلاة وذا أن لا يخرج منها. ثم يفتح له باب جلالة استماع كلام الله، فلا يشبع منه. وإذا سمعه هدأ قلبه به كما يهدأ الصبي إذا أعطى ما هو شديد المحبة له. ثم يفتح له باب شهود عظمة الله للتكلم به وجلاله، وكمال نعمته وصفاته وحكمته، ومعاني خطابه، بحيث يستغرق قلبه في ذلك حتى ينيب فيه. ويحس بقلبه وقد دخل في عالم آخر غير ما الناس فيه.

ثم يفتح له باب الحياة من الله. وهو أول شواهد المعرفة، وهو نور يقع في القلب، يُرى به ذلك النور: أنه واقف بين يدي ربه عز وجل. فيستحي منه في خلواته. وجلواته. ويرزق عند ذلك: دوام المراقبة للربيب. ودوام التطلع إلى حضرة العلي الأعلى، حتى كأنه يراه ويشاهده فوق سمواته، مستويا على عرشه، ناظراً إلى خلقه، سامعاً لأصواتهم، مشاهداً لبواطنهم. فإذا استولى عليه هذا الشاهد غطى عليه كثيراً من المومم بالدنيا وما فيها. فهو في وجود والناس في وجود آخر. هو في وجود بين يدي ربه ووليه، ناظراً إليه بقلبه والناس في حجاب عالم الشهادة في الدنيا. فهو يزاهم وهم لا يرونه. ولا يرون منه إلا ما يناسب عالمهم ووجودهم.

ثم يفتح له باب الشعور بشهد القيومية. فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده. فيشاهد مالك الضر والنفع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة. فيتحذه وحده وكبلاً. ويرضى به رباً ومدبراً وكافياً. وعند ذلك إذا وقع نظره على شيء من المخلوقات دله على خالقه وبارئه، وصفاته كماله ونعمته جلالة. فلا يحجبه خلقه عنه سبحانه. بل يناديه كل من للمخلوقات بلسان حاله: اسمع شهادتي لمن أحسن كل شيء خلقه. فأنا صنع الله الذي أتقن كل شيء.

فإذا استمر له ذلك: يُطوى الكون عن قلبه بحيث لا يبقى فيه إلا الله الواحد القهار. وتفيض أنوار المعرفة والمعاملة والصدق والإخلاص والمحبة من قلبه، كما يفيض نور الشمس عن جرمها. فيفرق حيثن في الأنوار كما يفرق راكب البحر في البحر. وذلك إنما يكون في الرياضة والمجاهدة، وزوال أحكام الطبيعة، وطول الوقوف في الباب.

فإن استمر على حاله وفقاً بباب مولاه. لا يلتفت عنه يميناً ولا شمالاً. ولا يجيب غير من يدعوه إليه. و يعلم أن الأمر وراء ذلك، وأنه لم يصل بعد. ومتى توهم أنه قد وصل: انقطع عنه المزيد — رجي أن يفتح له فتح آخر. هو فوق ما كان فيه. مستغرقاً قلبه في أنوار مشاهدة الجلال بعد ظهور أنوار الوجود الحق، فيبقى قلبه سابحاً في بحر من أنوار آثار الجلال، ويجد قلبه عالياً

على ذلك كله، صاعداً إلى من ليس فوقه شيء، ثم يرقى الله سبحانه. فيشهد أنوار الإكرام بعد ما يشهد أنوار الجلال. فيستغرق في نور من أنوار أشعة الجلال. وفي هذا المشهد يذوق المحبة الخاصة للمهبة للأرواح والقلوب. فيبقى القلب مأسوراً في يد حبيبه ووليّه، متمسكاً بحبه. فيأليه من قلب متمحن مغفور مستغرق بما ظهر له من أشعة أنوار الجلال الأحدى. والناس مفتونون متمحنون بما يغنى من المال والصور والرياسة. معذبون بذلك قبل حصوله، وحال حصوله، وبعد حصوله. وأهلهم مرتبة: من يكون مفتوناً بالخور العين، أو عاملاً على تمتعه في الجنة بالأكل والشرب واللباس والنكاح. وهذا الحب قد ترقى في درجات المحبة على أهل القبامات، ينظرون إليه في الجنة كما ينظرون إلى الكوكب الدرى الغابر في الأفق لملو درجته وقرب منزله من حبيبه، فإن المرء مع من أحب. ولكل عمل جزاء. وجزاء المحبة: «المحبة» والاصطناع والقرب. فهذه هو الذى يصلح. وكفى بذلك شرفاً وفخراً في عاجل الدنيا. فما ظنك بمقاماتهم العالية عند ملك مقتدر؟ فكيف إذا رأيتهم في موقف القيامة، وقد أسمعهم المنادى «انطلق كل قوم مع ما كانوا يعبدون» فيبقون في مكانهم ينتظرون معبودهم وحبيبه الذى هو أحب شيء إليهم. حتى يأتيهم، فينظرون إليه ويتجلى لهم ضاحكاً.

والمقصود: أن هذا العبد لا يزال اللاميرقى قلباً بعد طيق، ومنزلاً بعد منزل، إلى أن يوصله إليه. ويمكن له بين يديه، أو يموت في الطريق. فيقع أجره على الله. فالسيد كل السعيد، والموفق كل الموفق: من لم يلتفت عن ربه تبارك وتعالى يميناً ولا شمالاً. ولا اتخذ سواه رباً ولا وكيلاً. ولا حبيباً ولا مديراً. ولا حاكماً ولا ناصراً ولا رافقاً.

وجميع ما تقدم من مراتب الوصول: إنما هي شواهد وأمثلة إذا تجلبت له الحقائق في الغيب — بحسب استعدادة ولطفه ورقته من حيث لا يراها — ظهر من تجلبها شاهد في قلبه. وذلك الشاهد دال عليها ليس هو عينها. فإن نور الجلال في القلب ليس هو نور ذى الجلال في الخارج. فإن ذلك لا تقوم له السماوات والأرض. ولو ظهر للوجود لندك. لكنه شاهد دال على ذلك، كما أن المثل الأعلى شاهد على الذات. والحق وراء ذلك كله، منزّه عن حلول واتحاد، وممازجة لخلق. وإنما تلك رقائيق وشواهد تقوم بقلب العارف. تدل على قرب اللطاف منه في عالم الغيب حيث يراها.

فالوصول حق. يجد الواصل آثار تجل الصفات في قلبه. وآثار تجل الحق في قلبه. ويوقف القلب فوق الأكوان كلها بين يدي الرب تعالى. وهو على عرشه. ومن هناك يكشف بآثار الجلال والإكرام. فيجد العرش والكرسى تحت مشهد قلبه حكماً. وليس الذى يجده تحت قلبه حقيقة: العرش والكرسى. بل شاهد ومثال علمى، يدل على قرب قلبه من ربه، وقرب ربه من قلبه. وبين الذوقين تماوت. فإذا قرب الرب تعالى من قلب عبده بقيت الأكوان كلها تحت

مشهد قلبه. وحينئذ يطلع في أفقه شمس التوحيد، وينال التحقيق، بتخليص مصحوبه من الحق، بالحق وفي الحق، كما قال المروي، واستشهد بقوله تعالى (٢: ٢٦٠) أو لم تؤمن؟ قال: بل، ولكن ليطمئن قلبي).

ووجه إشارة الآية: أن إبراهيم — صلى الله عليه وسلم — طلب الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموقن إلى رؤية حقيقة عيانا. فطلب — بعد حصول العلم الذهني — تحقيق الوجود الخارجي. فإن ذلك أبلغ في طمأنينة القلب. ولا كان بين «العلم» و«العيان» منزلة أخرى. قال النبي صلى الله عليه وسلم «نحن أحق بالشك من إبراهيم» إذ قال (رب أرني كيف تحيي الموتى) وإبراهيم لم يشك صلى الله عليه. ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشك. ولكن أوقع اسم «الشك» على المرتبة العلمية باختيار التناوب الذي بينها وبين مرتبة العيان في الخارج، وباعتبار هذه المرتبة سنى العلم اليقيني — قبل مشاهدة معلومه — فلما قال تعالى (٢: ٢٦٠) الذين يظنون أنهم ملافونهم، وأنهم إليه راجعون) وقال تعالى (٢: ٢٤٩) الذين يظنون أنهم ملافون الله) وهذا الظن علم جازم. كما قال تعالى (٢: ٢٢٣) وأعلموا أنكم ملافوه) لكن بين الخبر والعيان فرق. وفي السند مرفوعا «ليس الخبر كالعيان» ولهذا لا أخبر الله موسى: أنه قد فن قومه، وأن السامري أضلهم: لم يحصل له من الغضب والكيفية والقاء الألواح ما حصل له عند مشاهدة ذلك.

● التحقيق ميزان الموحد

إذا عرفنا هذا: كان سهلاً أن شاء الله أن تعرف هذا التعريف للتحقيق. فللفظ «التحقيق» هو تفعيل. من حق الشيء تحقيقاً، فهو مصدر، فله: حق الشيء، أي أثبت وخلصه من غيره.

أما «المصحوب» فهو ما يصحب الإنسان في قصده ومعرفة من معلوم ومراد. و«الحق» هو الله سبحانه، وما كان موثقاً إليه، مُدنياً للبعد من رضاء. إذا عرف هذا، فمصحوب البعد من الحق: هو معرفته وعيته، وإرادة وجهه الكريم، وما يستعين به على الوصول إليه، وما هو محتاج إليه في سلوكه فـ «التحقيق» هو تخليصه من المفسدات القاطنة عنه، الحائلة بين القلب وبين الموصول إليه. وتخصيصه من المخالطات. وتخليصه من المشوشات. فإن تلك قواطع له عن مصحوبه الحق.

فصاحب مقام التحقيق: لا يقف مع العوارض، فإنها قواطع، ويتغافل عنها ما أمكنه، فإنها تمر — بالتغافل — تقرأ سريعاً، لا يوسع دوائرها، فإنه كلما وسعها اتسعت، ووجدت مجالاً

فسيحاً. فصالت فيه وجالت. ولو ضيقها - بالإعراض عنها والتغافل - لاضمحلت وتلاشت فصاحب مقام التحقيق ينساها ويطمس آثارها. و يعلم أنها جاءت بحكم المقادير في ذا المحن والآفات.

قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مرة: العوارض والمحن هي كالخمر والبرد. فإذا علم العبد أنه لا بد منهما لم يغضب لورودهما. ولم يغتم لذلك ولم يحزن.

فإذا صبر العبد على هذه العوارض ولم ينقطع بها: رجي له أن يصل إلى مقام التحقيق. فيبقى مع مصحوبه الحق وحده. فتهذب نفسه. وتطمئن مع الله وتنفطم عن عوائد السوء، حتى تخسر محبة الله قلبه وروحه. وتعود جوارحه متابعة للأوامر. فيحس قلبه حينئذ بأن محبة الله معه وتوليه له. فيبقى في حركاته وسكناته بالله لا بنفسه. وترد على قلبه التعريفات الإلهية، ويشهد الإلهية والقيومية والفردانية. فإن على هذه المشاهد الثلاثة مدار المعرفة والوصول.

والمقصود: أن صاحب مقام «التحقيق» يعرف الحق، ويميز بينه وبين الباطل. فيمسك بالحق. ويلقى الباطل. فهذه مرتبة. ثم يتبين له: أن ذلك ليس به، بل بالله وحده. فيبرأ حينئذ من حوله وقوته. ويعلم أن ذلك بالحق، ثم يتمكن في ذلك المقام. ويرسخ فيه قلبه. فيصير تحقيقه بالله وفي الله.

ففي الأول: يخلص له مطلوبه من غيره، ويتجرد له من سواء.

وفي الثاني: يخلص له إضافته إلى غيره، وأن يكون سواء سبحانه.

وفي الثالث: تجرد له شهوده وقصوره، بحيث صارت في مطلوبه.

فالأول: سفر إلى الله. والثاني: سمر بالله. والثالث: سفر في الله.

وإن أشكل عليك معنى «السفر فيه» والفرق بينه وبين «السفر إليه» ففرق بين حال المعارف الزاهد السائر إلى الله - الذي لم يفتح له في الأسماء والصفات والمعرفة الخاصة، وبين حال العارف الذي قد كشف له في معرفة الأسماء والصفات والفقه فيها ما حجب عن غيره.

وانك إن كنت تنسب العلم إلى نفسك قبل وصولك إلى مقام «التحقيق» ففي حالة «التحقيق» تعود نسبته إلى معلمه ومعطيه الحق. ولعل هذا معنى قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. إذ جمعهم الرب تبارك وتعالى وقال (٥: ١٠٩) ماذا أجبتهم؟ قالوا: لا علم لنا! قيل: قالوه تأدياً منه سبحانه. إذ ردوا العلم إليه. وقيل: معناه لا علم لنا بحقيقة الباطن. وإنما أجابنا من أجابنا ظاهراً والباطن غيب. وأنت علام الغيوب.

والتحقيق - إن شاء الله - أن علومهم تلاشت في علمه سبحانه وضمحلّت. فصارت بالنسبة إليه كلاً علم. فردوا العلم كله إلى وليه وأهله. ومن هو أولى به. فعلومهم وعلوم الخلائق جميعهم في جنب علمه تعالى كنقرة عصفور في بحر من بحار العالم.

(٦٣) مَنْزِلَةُ رَبِّكَ عَلَى النَّبِيِّ

ومن مآثر إياك نعد: منزلة رعاية الأسباب.
 ذلك ان التوحيد يقتضي القيام بالاسباب الطاهرة، كالحركات والاعمال، واعتبارها، وعدم اهمالها وتعطيلها، ولكن يقوم بها وقد عزلها عن ولاية النجاح والنجاة، كما قال صلى الله عليه وسلم «اعملوا، واعلموا ان احداً منكم لن ينجيه عمله».
 وكذلك يقتضي القيام بالاسباب الباطنة، كالإيمان والتصديق، وعبدة الله ورسوله، فان النجاة معلقة بها، بل التوحيد بمس من الاسباب، بل هو اعظم الاسباب الباطنة.
 فالقيام بالاسباب واعتبارها وانزالها مآثرها التي انزلها الله فيها: هو محض التوحيد والعبودية، بتصدق الوعد والوعيد، وتعظيم الأمر والنهي. كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة، ومقعده من النار. قالوا: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونكفل على الكتاب؟ فقال: لا. اعملوا. فكل من عمل ما يمسر له خلق له» وفي الصحيح عنه أيضاً أنه قيل له «يا رسول الله، أرايت ما يكتدح الناس فيه اليوم ويعملون: أمر قضى عليهم وقضى، أم فيما يستقبلون بما آتاهم فيه الحجة؟ فقال: بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم. قالوا: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونكفل على كتابنا؟ قال: لا. اعملوا. فكل ميسر لما خلق له» وفي السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قيل له «أرايت أدوية ننداوى بها، وزقنى نسترقى بها، وثقاة نتقى بها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: هي من قدر الله» وكذلك قول عمر لأبي عبيدة رضي الله عنهما، وقد قال أبو عبيدة لعمر «أتغير من قدر الله؟ — يعنى من الطاعون — قال: — أيزر من قدر الله إلى قدر الله.

ودلك في سعة عمر إلى الشام. فكان طاعون عمواس. فرجع عمر. فقال له أبو عبيدة «أتغير من قدر الله؟ فقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ أفر من قدر الله إلى قدر الله. ثم نادى في الجيش: هل فيهم من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطاعون شيئاً؟ فحاه عبد الرحمن بن عوف من أحراريات الجيش. فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن كان في بلد وأنتم بها فلا تحرقوها بها. وإن سمعتم به في بلد وأنتم خارجون عنها فلا تدخلوها» ومعنى قوله تعالى (١٥: ٢١) وإن من شيء إلا عندنا خزائنه. وما ينزل

إلا بقدر معلوم) مثل قوله في الآية قلها (١٥: ١٩) وأبنتنا فيها من كل شيء موزون) ومثل قوله (٥٤: ٤٩) إنا كل شيء خلقناه بقدر) وقوله (٣٦: ٣٩) والقمر قدرناه منازل) وقوله (٧٣: ٢٠) والله يقدر الليل والنهار) وقوله (٦٥: ٣) قد جعل الله لكل شيء قدرا) وقوله (٢٥: ٢) وخلق كل شيء بقدره تقديرًا) وقوله (٨٠: ١٨، ١٩) من أي شيء خلقه؟ من نقطة خلقه فقدره) وقوله (٢٣: ١٨) وأنزلنا من السماء ماء بقدر) وقوله (٤٢: ٧) ولو وسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض. ولكن ينزل بقدر ما يشاء) والمعنى في كل ذلك واضح: أنه خلقه بنظام وترتيب حملت فيه المسببات بقدر الأسباب. ولم يخلق شيئاً أنفياً بالمصادفة التي تشه العث سبحانه، وبعير تقدير سابق في العلم والحقمة. فالمرض بقدر أسبابه والشفاء بقدر أسبابه. ومهما الدواء وقوة المزاج، ولا شيء بالمصادفة ولا بالخلق الأنف، كما يزعم الجاهليون الذين لا يعرفون الله بأسامته وصفاته وبآثار علمه وحكمته ورحمته.

وقد قال الله تعالى في السحاب (٧: ٥٧) فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من الثمرات) وقال تعالى (٤٥: ٥) فأحيى به الأرض بعد موتها) وقال تعالى (٥: ١٦) يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام) وقال تعالى (٦١: ٨) وما كنتم تعملون) (وما كنتم تكبون) (٨: ٥١) ذلك بما قدمتم أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد) والقرآن مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة. فيأتي ببناء السببية تارة، وباللام تارة، وماأن تارة، وبكى تارة، ويذكر الوصف المتقضى تارة، ويذكر صريح التعليل تارة، كقوله: ذلك بأنهم فسخ كذا، وقالوا كذا. ويذكر الجزاء تارة. كقوله (٥: ٣٢ و ٥٩: ١٧) وذلك جزاء الظالمين) وقوله (٥: ٨٨ و ٣٩: ٣٤) وذلك جزاء المحسنين) وقوله (٣٤: ١٧) وهل نجازي إلا الكفور؟) ويذكر المقتضى للحكم والمانع منه، كقوله (١٧: ٥٩) وما معنا أن نرسل بالآيات، إلا أن كذب بها الأولون) وعند منكرى الأسباب واليكم: لم يمنعه إلا عجز مشيئته ليس إلا، وقال (١٠: ٥) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم) وقال (١٤: ١٥) كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم) وقال (٦٩: ٢٤) كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) وقال (٦٥: ٢، ٣) ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) وقال (٦٥: ٥) ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويكظم له أجراً) وقال (٨: ٢٩) إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) وقال (٢: ١٢٠) وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) وقال تعالى (٤: ١٦٠) فيظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، ويصدّهم عن سبيل الله كثيراً، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلمهم أموال الناس بالباطل).

● نلتفت الى الاسباب دون الركون اليها

والموحد المتوكل لا يطمئن الى الاسباب، ولا يرجوها ولا يخافها، فلا يركن اليها، ولكن يكون قائماً بها، ملتفتاً اليها، ناظراً الى مسببها سبحانه وبمجريها. فلا يصح التوكل — شرعاً وعقلاً — إلا عليه سبحانه وحده. فإنه ليس في الوجود سبب تام موجب إلا مشيئته وحده. فهو الذى سبب الاسباب. وجعل فيها القوى والاقضاء لآثارها، ولم يجعل منها سبباً يقتضى وحده أثره: بل لا بد معه من سبب آخر يشاركه. وجعل لها أسباباً تضادها وقائمتها، بخلاف مشيئته سبحانه. فإنها لا تحتاج إلى أمر آخر. ولا في الاسباب الحادثة ما يطلها ويضادها، وإن كان الله سبحانه قد يبطل حكم مشيئته بمشيئته. فيشاء الأمر ثم يشاء ما يضاده ومنع حصوله. والجميع بمشيئته واختياره. فلا يضع التوكل إلا عليه، والالتجاء إلا إليه، ولا الخوف إلا منه، ولا الرجاء إلا له، ولا الطمع إلا في رحمته، كما قال أعرف المخلق به صلى الله عليه وسلم «أعوذ برهيك من سخطك، وأعوذ بمفاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك» وقال «لا تنجى ولا ملجأ منك إلا إليك».

فإذا جمعت بين التوحيد وبين إثبات الاسباب: استقام قلبك على السبيل الى الله. ووضح لك الطريق الأعظم الذى مضى عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم. وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم. وبالله التوفيق.

وما سبق به علم الله وحكمه حق. وهو لا ينافي إثبات الاسباب. ولا يقتضى إسقاطها، فإنه سبحانه قد علم وحكم: أن كذا وكذا يحدث بسبب كذا وكذا، فسبق العلم والحكم بحصوله عن سببه. فإسقاط الاسباب خلاف موجب علمه وحكمه. فمن نظر إلى الحدوث بغير الاسباب: لم يكن نظره وشهوده مطابقاً للحق، بل كان شهوده غيبيةً، ونظره عمى. فإذا كان علم الله قد سبق بحدوث الأشياء بأسبابها. فكيف يشهد العبد الأمور بخلاف ما هي عليه في علمه وحكمه وخلقه وأمره؟

والعلل التى تتقى في الاسباب نوهان. أحدهما: الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها، ورجاؤها وخوفها. فهذا شرك يرق ويغفل. وبين ذلك.

الثانى: ترك ما أمر الله به من الاسباب. وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً. وبين ذلك. بل على العبد أن يفعل ما أمر الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله. سبق به علمه وحكمه. وأن السبب لا يضر ولا ينفع، ولا يعطى ولا يمنع، ولا يقضى ولا يحكم. ولا يحصل للعبد مالم تسبق له به المشيئة الإلهية. ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم. فيأتى بالاسباب إثبات من لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلا بها. ويتوكل على الله

توكل من يرى أنها لا تنجيه، ولا تُحْصِلُ له فلاحاً، ولا توصله إلى المقصود. فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً، وَيُقَرِّعُ قلبه من الاعتماد عليها، والركون إليها، تجريداً للتوكل، واعتماداً على الله وحده. وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح. حيث يقول «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله. ولا تمشي». فأمره بالحرص على الأسباب، والاستعانة بالسبب. ونهاه عن العجز. وهو نوعان: تقصير في الأسباب، وعدم الحرص عليها، وتقصير في الاستعانة بالله، وترك تجربتها. فالدين كله - ظاهره وباطنه، شرائعه وحفائقه - تحت هذه الكلمات النبوية.

فالأَسْبَابُ والوَسَائِلُ والعلل محل اعتبار الناظرين، ومعارف استدلين (١٥: ٧٥) إن في ذلك لآيات للمتشككين) وكم في القرآن من الحث على النظر والاعتبار بها، والتفكير فيها: وذم من أعرض عنها. والإنجاري أن النظر فيها والاستدلال: يوجب العلم والمعرفة بصدق رسله؟ فهو آيات كونية مشاهدة تصدق الآيات القرآنية؟!.

فما علق بها آثارها سُكَّى. ولا رتب عليها مقتضياتها وأحكامها باطلاً، بل ذلك موجب كماله وكمال نعوته وصفاته. وبها عرفت ربوبيته وإلهيته، وملكه وصفاته وأسامؤه. هذا ولم يخلقها سبحانه عن حاجة منه إليها، ولا توقفاً لكمالها المقدس عليها. فلم يتكبر بها من قلة. ولم يتعزز بها من ذلة. بل اقتضى كماله: أن يفعل ما يشاء. ويأمر ويتصرف ويذكر كما يشاء، وأن يمدح ويعرف، ويذكر ويعد. ويعرف الخلق خفقات كماله ونعوت جلاله. ولذلك لخلق خلقاً يعصونه ويخالفون أمره، لتعرف ملائكته وأنبيأؤه ورسله، وأوليأؤه: كمال مغفرته، وعفوه، وحلمه وإمهاله. ثم أقل بقلوب من شاء منهم إليه. فظهر كرمه في قبول توبته، وسره ولطفه في العود عليه بعد الإعراض عنه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «لولم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم» فلمن كانت تكون مغفرته لو لم يخلق الأسباب التي يعفوها ويغفرها؟ والمد الذي له يغفر؟ فخلق المد المغفور له، وتقدير الذنب الذي يغفر. والتوبة التي يغفر بها: هو نفس مقتضى العزة والحكمة. وموجب الأسماء الحسنى، والصفات العلاء.

فتعلق الكوثران بالأسباب كتعلق الثواب والعقاب بالأسباب، وهو محص الحكمة وموجب الكمال الإلهي. ومقتضى الحمد التام، ومظهر صفة العزة، والقدرة والملك، والشرائع كلها - من أولها إلى آخرها - مبنية على تعليق الأحكام بالعلل، والقضايا بالحجج، والثواب بالطاعة، والعقوبات بالجرائم.

(٦١) مَنَزِلُ التَّوْبَةِ

ومن منازل إياك نعبد: منزلة استئناف التوبة

وهو تمكن يؤدي الى استئناف التوبة من التقصير الذي رافق نزوله المنازل السابقة، وجمع القلب على المعبود وحده، وتحيض الهمة على تنفيذ أوامر الله في الخلق دعوة جهاداً، فإنه إن كان في باطنه مقبوضاً، لما هو فيه من جميته على الله، فانه في ظاهره مبسوط مع الخلق، مظهراً لقوته، قصداً لهدايتهم الى الحق سبحانه ودعوتهم اليه، فهو كائن بائن، داخل خارج، متصل منفصل.

وكما ان التوبة بداية منازل السائرين، وأول مدرج من مدارج السالكين، فانها نهاية ايضا.

ولعل سمعك ينفر من هذا غاية النفور، وتقول: هذا كلام من لم يعرف شيئاً من طريق القوم. ولا نزل في منازل الطريق. ولعمرك إن كثيراً من الناس ليوافقك على هذا، ويقول: أين كنا؟ وأين صرنا؟ نحن قد قطعنا منزلة «التوبة» وبيننا وبينها مائة مقام. فترجع من مائة مقام إليها. ونجعلها غاية مقام السالكين؟.

فاسمع الآن وعه، ولا تعجل بالإنكار. ولا تبادر بالرد. وافتح ذهنك لمعرفة نفسك، وحقوق ربك، وما ينبغي له منك، وماله من الحق عليك. ثم أنسب أعمالك وأحوالك وتلك المنازل التي نزلتها والمقامات التي قمت فيها — لله وبالله — إلى عظيم جلاله، وما يستحقه وما هو له أهل. فإن رأيتها وافية بذلك مكافئة له فلا حاجة حينئذ إلى التوبة. والرجوع إليها رجوع عن المقامات العلوية، وانحطاط من علو إلى سفلى، ورجوع من غاية إلى بداية. وما ذلك بجميد من كثير من المستحسنين إلى هذا الشأن، المفرورين بأحوالهم ومعارفهم وإشاراتهم. وإن رأيت أن أضعاف أضعاف ما قمت به — من صدق وإخلاص، وإنابة وتوكل، وزهد وعبادة — لا يفي بأيسر حق له عليك، ولا يكافيء نعمة من نعمه عندك. وأن ما يستحقه — لجلاله وعظمته — أعظم وأجل وأكبر مما يقوم به الخلق، رأيت ضرورة التوبة في النهاية.

فاعلم الآن: أن التوبة نهاية كل عارف. وغاية كل سالك، وكما أنها بداية فهمي نهاية. والحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية. بل هي في النهاية في محل الضرورة.

فاسمع الآن ما خاطب الله به رسوله في آخر الأمر عند النهاية، وكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر حياته أشد ما كان استقاراً وأكثره، قال الله تعالى (٩: ١١٧) لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم. ثم تاب الله عليهم. إنه بهم رؤوف رحيم) وهذا أنزله الله سبحانه بعد غزوة تبوك. وهي آخر الغزوات التي غزاها صلى الله عليه وسلم بنفسه. فجعل الله سبحانه «التوبة عليهم» شكرنا لما تقدم من تلك الأعمال. وذلك الجهاد. وقال تعالى في آخر ما أنزل على رسول الله (إذا جاء نصر الله والفتح) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) وفي الصحيح «أنه صلى الله عليه وسلم ما صلى صلاة — بعد ما نزلت عليه هذه السورة — إلا قال فيها: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي». وذلك في نهاية أمره صلوات الله وسلامه عليه. ولهذا فهم منها علماء الصحابة — كعمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، رضى الله عنهم —: أنه أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعلمه الله إياه. فأمره سبحانه بالاستغفار في نهاية أحواله، وآخر ما شمع من كلامه عند قدومه على ربه «اللهم اغفر لي. وأخفى بالرفيق الأعلى» وكان صلى الله عليه وسلم يختم كل عمل صالح بالاستغفار. كالصوم، والصلاة، والحج، والجهاد. فإنه كان إذا فرغ منه، وأشرف على المدينة، قال «آيبون، تائبون، لرئيسنا حاسدون» وشرع أن يختم المجلس بالاستغفار، وإن كان مجلس خير وطاعة، وشرع أن يختم العيد عمل يومه بالاستغفار. فيقول عند النعم «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه» وأن يتنام على سيد الاستغفار. والعارف بالله وأسمائه وصفاته وحقوقه يعلم أن العيد أخرج ما يكون إلى التوبة في نهايته. فبهذا الاستغفار يكون تحقيق العبودية، والقيام بعبادتها، واحتمال فرائضها وسننها وإدائها، والجهاد لاعداء الله، والدعوة إلى الله، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحمل الاذى في الله، ومعرفة الاسماء والصفات، ومعرفة ما يحبه الله تعالى ويكرهه، ومعرفة خير الخيرين وشر الشريرين، والعلم بمراتب العبودية ومنازلها. فالخلق أن نهاية السالكين: تكميل مرتبة العبودية صرفاً. وهذا مما لا سبيل إليه لبنى الطبيعة. وإنما خص بذلك الخليلان — عليهما الصلاة والسلام — من بين سائر الخلق. أما إبراهيم الخليل — صلوات الله وسلامه عليه — فإن الله عز وجل شهد له بأنه وثنى. وأما سيد ولد آدم — صلوات الله وسلامه عليه — فإنه كمل مرتبة العبودية. فاستحق التقديم على سائر الخلائق. فكان صاحب الوسيلة والشفاعة التي يتأخر عنها جميع الرسل، ويقول هو «أنا لها» ولهذا ذكره الله سبحانه وتعالى بالعبودية في أعلى مقاماته، وأشرف أحواله. كقوله تعالى (١٧: ١) سبحان الذى اسرى بعبده ليلاً) وقوله (٧٢: ١٩) وأنه لما قام عبد الله يدعوه) وقوله (٢: ٢٣) وإن كنتم

في ريب مما نزلنا على عبدنا) وقوله (٢٥: ١ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده) ولهذا يقول المسيح، حين يُرْعَب إليه في الشفاعة «اذهبوا إلى محمد، عبد عُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» فاستحق تلك الرتبة العليا بتكميل عبوديته لله، وبكمال مغفرة الله له. أما اتباع الرسل فالأمثل ثم الامل.

والحال الذي يحصل لمن قام بذلك: هو حال الرسل وخلفائهم. وهو جمع الهمة على الله سبحانه: محبة وإناية وتوكلا، وخوفاً ورجاء ومراقبة. وجمع الهمة على تنفيذ أوامر الله في الخلق دعوة وجهاداً. فهما حالان: جمع القلب على المعبود وحده. وجمع المثل له على محض عبوديته. فإن قلت: فأين شاهد هذين الجمعين؟ قلت: في القرآن كله، فحده من فاتحة الكتاب في قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) وتأمل في قوله «إياك» التخصيص لداته المقدسة بالعبادة والاستعانة، وما في قوله «نعبد» الذي هو للحال والاستقبال، وللعبادة الطاهرة والباطنة: من استيفاء أنواع العبادة، حالاً واستقبلاً قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً. والاستعانة على ذلك به لاغيره. ولهذا كانت الطريق كلها في هاتين الكلمتين. وهي معنى قولهم «الطريق في: إياك أريد بما تريد» فجمع المراد في واحد، والإرادة في مراده الذي يحبه ويرضاه. قال هذا دعت الرسل من أولهم إلى آخرهم. وإليه شتخ العاملون والمتوجهون. وكل الأحوال والمقامات — من أولها إلى آخرها — مندرجة في ضمن ذلك، ومن ثمراته وموجباته.

فالعبودية تجمع كمال الحب في كمال الذل، وكمال الانقياد لمرضى المحبوب وأوامره. فهي الغاية التي ليس فوقها غاية. وإذا لم يكن إلى القيام بحقيقتها — كما يجب — سبيل، فعل الشربة المعول، وقد عرفت — بهذا وبغيره — أن الحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية. ولولا تنسم روحها حال اليأس بين ابن الماء والطين وبين الوصول إلى رب العالمين، هذا لوقام بما ينبغي عليه أن يقوم به لسيدة من حقوقه. فكيف والفلة والتقصير والتفريط والتهاون، وإيثار حظوظه في كثير من الأوقات على حقوق ربه لا يكاد يتخلص منها ؟

٦٥) مَثَلُ الْمُسْتَكِينِ التَّوْحِيدِ

ومن المنازل: منزلة استئناف التوحيد

وهو ظفر السالك في النهاية بحقيقة التوحيد المحض، كما ظفر به في البداية.
ان «التوحيد» أول دعوة الرسل. وأول منازل الطريق. وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى. قال تعالى (٧: ٥٥) لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه. فقال: يا قوم اعبدوا الله. ما لكم من إله غيره) وقال هود لقومه (٧: ٦٥) اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وقال صالح لقومه (٧: ٥٣) اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وقال شعيب لقومه (٧: ٥٨) اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وقال تعالى (١٦: ٢٦) ولقد بعثنا في كل أمة رسولا: أن اعبدوا الله، واحسنوا الطاعات).

فالتوحيد: مفاح دعوة الرسل. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لرسوله معاذ بن جبل رضى الله عنه — وقد بعثه إلى اليمن — «إنك تأتي قوماً أهل كتاب. فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله وحده. فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله. وأن محمداً رسول الله. فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة — وذكر الحديث» وقال صلى الله عليه وسلم «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» ولهذا كان الصحيح: أن أول واجب يجب على المكلف: شهادة أن لا إله إلا الله.

ولكن كما أن التوحيد: أول ما يدخل به في الإسلام فإنه آخر ما يخرج به من الدنيا. كما قال النسي صلى الله عليه وسلم «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله: دخل الجنة» فهو أول واجب، وآخر واجب. فالتوحيد: أول الأمر وآخره.

ومجرد تنزيه الله عن الحدث لا يدل على التوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه. وينجوه به المد من النار. ويدخل به الجنة. ويخرج من الشرك، فإنه مشترك بين جميع الفرق. وكل من أقر بوجود الخالق سبحانه أقر به. فعباد الأصنام والمجوس، والنصارى، واليهود، والمشركون — على اختلاف نحلهم — كلهم ينزهون الله عن الحدث، ويثبتون قدمه، حتى أعظم الطوائف على الإطلاق شركاء، ويكفراً، وإلحاداً. وهم طائفة الاتحادية. فإنهم يقولون: هو

الوجود المطلق. وهو قديم لم يزل. وهو منزه عن الحدث. ولم تزل المحدثات تكتسب وجوده. تلبسه وتغلمه.

والفلاسفة — الذين هم أبعد الخلق عن الشرائع وما جاءت به الأنبياء — يثبون واجب الوجود قديماً منزهاً عن الحدث.

والمشركون — عباد الأصنام الذين يعبدون معه آلهة أخرى — يثبون قديماً منزهاً عن الحدث. فالتزيه عن الحدث حق. لكن لا يعطى إسلاماً ولا إيماناً. ولا يُدخل في شرائع الأنبياء. ولا يُخرج من نحل أهل الكفر وملهم البتة.

ومع هذا فقد سُئل سيد الطائفة الجنيـد عن التوحيد؟ فقال: هو أفراد القديم عن المحدث. والجنيد: أشار إلى أنه لا تصح دعوى التوحيد. ولا مقامه ولا حاله، ولا يكون العبد موحداً إلا إذا أفرد القديم عن المحدث. فإن كثيراً ممن ادعى التوحيد لم يفرد سبحانه من المحدثات. فإن من نفس ميادينه خلقه فوق سمواته على عرشه، وجعله في كل مكان بذاته. لم يفرد عن المحدث. بل جعله حالاً في المحدثات بخالفها. موجوداً فيها بذاته.

قال الأشعري في كتاب المقالات: هذه حكاية قوله قوم من النساك. وفي الأمة قوم ينتحلون النسك، يزعمون أنه جائز على الله تعالى الحلول في الأجسام. وإذا رأوا شيئاً يستحسنونه قالوا: لا ندري! لعله ربنا.

قلت: وهذه الفرق طائفتان. إحداهما: تزعم أنه سبحانه يحمل في الصورة الجميلة المستحسنة. والثانية: تزعم أنه سبحانه يحمل في الكُـمَل من الناس. وهم الذين تحمردت نفوسهم عن الشهوات. واتصفوا بالفضائل، وتنزهوا عن الرذائل. والنصارى تزعم أنه حل في بدن المسيح وتدبر به. والاتحادية تزعم أنه وجود مطلق اكتسبه الماهيات. فهو عين وجودها. فكل هؤلاء لم يفردوا القديم عن المحدث.

• هو الله الخالق ... له الاسماء الحسنى

وهذا الأفراد — الذى أشار إليه الجنيد — نوعان. أحدهما: أفراد في الاعتقاد والخبر. وذلك نوعان أيضاً. أحدهما: إثبات ميادينه الرب تعالى للمخلوقات، وعوله فوق سبع سماوات. كما نطقـت به الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها. وأخبرت به جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم. والثانى: إفراده سبحانه بصفات كماله، وإثباتها له على وجه التفصيل، كما أثبتنا لنفسه، وأثبتنا له رسله، منزّهة عن التعطيل والتحريف والتمثيل، والتكليف والتشبيه. بل تثبت له سبحانه حقائق الأسماء والصفات. وتنفى عنه فيها مماثلة للمخلوقات، إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تحريف ولا تعطيل (٤٢: ١١) ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وفي هذا النوع يكون إفراده سبحانه بعموم قصائده وقدره لجميع المخلوقات — أعيانها وصفاتها وأعمالها — وأنها كلها واقعة بمشيئته وقدرته، وعلمه وحكمته. فيبين صاحب هذا الإفراد سائر فرق أهل الساطن: من الاتحادية، والخلقية، والهممية الفرعونية — الذين يقولون: ليس فوق السماوات رب يعبد. ولا على العرش إله يصلى له ويسجد — والقديرية — الذين يقولون: إن الله لا يقدر على أفعال العباد، من الملائكة والإنس والجن، ولا على أفعال سائر الحيوانات — بل يقع في ملكه ما لا يريد. ويريد ما لا يكون. فيريد شيئاً لا يكون. ويكون شيء بغير إرادته ومشئته. والله سبحانه أعلم.

● وهو الله المعبود ... سبحانه

والنوع الشاسي من الأفراد: إفراد القديم عن المحدث بالعبادة — من التأله، والحب، والخوف، والرجاء والتعظيم، والإيماء والتوكل، والاستعانة وإبتغاء الوسيلة إليه — فهذا الإفراد، وذلك الإفراد: بهما بعثت الرسل، وأنزلت الكتب. وشرعت الشرائع. ولأجل ذلك خلقت السماوات والأرض. والجنة والنار. وقام سوق الثواب والعقاب. فتمريد القديم سبحانه عن المحدث: في ذاته وصفاته وأفعاله. وفي إرادته وحده وعيخته وحوفه ورحائه، والتوكل عليه، والاستعانة والخلف به، والذر له، والتوبة إليه، والسجود له، والتعظيم والإجلال، وتوابع ذلك. ولذلك كانت عبارة الجنيح عن التوحيد عبارة سادة مسددة.

و«التوحيد» هو الغاية المطلوبة من جميع المقامات والأعمال والأحوال. فغايتها كلها التوحيد. وإما كلام العلماء والمحققين من أهل السلوك كله لقصد تصحيحه. وهذا بين من أول المقامات إلى آخرها. فإنها تشير إلى تصحيحه وتحريره. فالتوكل مثلاً هو حقيقة التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به. وفي «باب التوكل» بيان ذلك، وإنه من مقامات الرسل.

● من ظن نفسه متوكلاً وهو وهم

للتوكل ثلاث علل تؤثر في كمال التوحيد، وتنشأ عن أوهام تجعل العبادة ناقصة: إحداهما: أن يترك ما أمر به من الأسباب استغناء بالتوكل عنها. فهذا توكل عجز وتفريط وإضاعة. لا توكل عبودية وتوحيد. كمن يترك الأعمال التي هي سبب النجاة. ويتوكل في حصولها. ويترك القيام بأسباب الرزق — من العمل والحراثة والتجارة ونحوها — ويتوكل في

حصوله. ويترك طلب العلم، ويتوكل في حصوله. فهذا توكله عجز وتضييع. كما قال بعض السلف: لا تكن ممن يجعل توكله عجزاً. وعجزه توكله.

الملة الثانية: أن يتوكل في حظوظه وشهواته دون حقوق ربه. كمن يتوكل في حصول مال أو زوجة أو رياسة. ولما التوكل في نصرة دين الله، وإعلاء كلمته وإظهار سنة رسوله، وجهاد أعدائه: فليس فيه علة. بل هو مزيل للعلل.

الملة الثالثة: أن يرى توكله منه. وينيب بذلك عن مطالعة المنة وشهود الفضل، وإقامة الله له في مقام التوكل. وليس مجرد رؤية التوكل علة، كما يظنه، بل عليه أن يرى أن توكله من عين الجود، ومحض المنة، وأنه توفيق الله تعالى.

فهذه العلل الثلاث هي التي تعرض في مقام التوكل وغيره من المقامات. وهي التي يعمل الممارفون بالله وأمره على قطعها. وهكذا الكلام في سائر علل المقامات. وإنما ذكرنا هذا مثالا لما يذكر من عللها. فعمل كل مقام هي هذه الثلاثة المذكورة: أن يترك بها ما هو أعلى منها، وأن يقطعها بقطعه، والاتقطاع بها من المقصود، وأن لا يراها توفيقاً ربانياً وجوداً وكرماً.

• كمال التوحيد شرط الإمامة

لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم — علماً ومعرفة وحالاً — تفاوتاً لا يحصى إلا الله. فأكمل الناس توحيداً: الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. والمرسلون منهم أكمل في ذلك. وأولو العزم من الرسل أكمل توحيداً. وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، ومحمد. صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وأكملهم توحيداً: الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم. فإنهما قاما من للتوحيد بما لم يقم به غيرهما — علماً ومعرفة وحالاً، ودعوة للخلق وجهاداً — فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه. ولهذا أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهم فيه. كما قال سبحانه — بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد، وذكر الأنبياء من ذرية — ثم قال (٦: ٨٩)، ٩٠ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة. فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين • أولئك الذين هدى الله، فيهداهم اقتدياً فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهم.

ولما قاموا بحقيقته — علماً وعملًا ودعوة وجهاداً — جعلهم الله أئمة للخلائق. يهتدون بأمره. ويدعون إليه. وجعل الخلائق تبعاً لهم. يأمنون بأمرهم. و ينتهون إلى ما وقفوا بهم عنده. ونخص

بالسعادة والفلاح والهدى أتباعهم. وبالشقاء والضلال عاصيهم. وقال لإمامهم وشيخهم إبراهيم خليله (٢: ١٢٤) إني جاءك للناس إماماً، قال: ومن ذريتي. قال: لا ينال عهدى الظالمين أى لا ينال عهدى بالإمامة مشرك. ولهذا أوصى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يتبع ملة إبراهيم. وكان يتعلم أصحابه، إذا أصبحوا: أن يقولوا «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وملة أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلماً. وما كان من المشركين» فملة إبراهيم: التوحيد، ودين محمد: ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً. وكلمة الإخلاص: هى شهادة أن لا إله إلا الله. وفطرة الإسلام: هى ما فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والاستسلام له عبودية ودلاً، وانقياداً وإتابة.

فهذا هو توحيد خاصة الخاصة الذى من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء. قال تعالى (٢: ١٣٠) ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفة نفسه؟ ولقد اصطفيناه فى الدنيا. وأنه فى الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه: أسلم. قال: أسلمت لرب العالمين).

فقسم سبحانه الخلائق قسمين: سفيهاً لا أسفه منه. ورشيداً. فالسفيه: من رغب عن ملته إلى الشرك. والرشد: من تبرأ من الشرك قولاً وعملاً وحالاً. فكان قوله توحيداً. وعمله توحيداً. وحاله توحيداً، ودعوته إلى التوحيد. وبهذا أمر الله سبحانه جميع المرسلين — من أولهم إلى آخرهم — قال تعالى (٢٣: ٥٢، ٥١) بأيتها الرسل، كلوا من الطيبات. واعملوا صالحاً. إني بما تعملون عليم. وإن هذه أمتكم أمة واحدة. وأنا ربكم فاتقون وقال تعالى (٢١: ٢٥) وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون وقال تعالى (٤٣: ٤٥) واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا: أجمعنا من دون الرحمن آتة يعبدون؟ وقال تعالى (٢١: ٢١) — ٢٤ أم اتخذوا آتة من الأرض هم ينشرون. لو كان فيهما آتة إلا الله لفسدنا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون. لا يسألك عما يفعل. وهم يُستفنون. أم اتخذوا من دونه آتة؟ قل هاتوا برهانكم. هذا ذكر من متى وذكر من قبل) أى هذا الكتاب الذى أنزل عليّ. وهذه كتب الأنبياء كلهم: هل وجدتم فى شئ منها اتخاذ آتة مع الله؟ أم كلها ناطقة بالتوحيد آتة به؟ وقال تعالى (١٦: ٣٦) ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا: أن اعبدوا الله. واجتنبوا الطاغوت) و «الطاغوت» أسم لكل ما عبده من دون الله. فكل مشرك إله طاغوته.

وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية على التوحيد الذى جاءت به الرسل من أولهم إلى آخرهم، ونزلت به الكتب كلها. وبه أمر الله الأولين والآخرين. وذكر الآيات الواردة بذلك.

ثم قال: وقد أخبر الله عن كل رسول من الرسل أنه قال لقومه (اعبدوا الله مالم يكن من إله غيره) وهذه أول دعوة الرسل وآخرها. قال النبي صلى الله عليه وسلم «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله. وأني رسول الله» وقال «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله، دخل الجنة» والقرآن مملوء من هذا التوحيد، والدعوة إليه. وتعليق النجاة والسعادة في الآخرة به. وحقيقته: إخلاص الدين كله لله. والقضاء في هذا التوحيد مقرون بالبقاء. وهو أن تثبت إلهية الحق تعالى في قلبك. وتنفي إلهية ما سواه. فتجمع بين النفي والإثبات. فالنفي هو الفناء. والإثبات هو البقاء. وحقيقته: أن تنفي عبادة الله عن عبادة ما سواه، ومحبتته عن محبة ما سواه، وبخشيتته عن خشية ما سواه. وبطاعته عن طاعة ما سواه. وكذلك بمولاته وسؤاله، والاستغناء به، والتوكل عليه. ورجائه ودعائه، والتفويض إليه. والتحاكم إليه، واللجأ إليه، والرغبة فيما عنده. قال تعالى (١٤:٦) أغفر الله أغفرى حكماً؟ وقال تعالى (١٦٤:٦) أغفر الله أغفرى رباً؟ وهو رب كل شيء؟ وقال تعالى (٦٤:٣٩) — ٦٦ قل: أغفر الله تأمرؤني أعبد. أيها الجاهلون؟ * ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك: لنن أشركت ليحبطن عملك، ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد. وكن من الشاكرين) وقال تعالى (١٦١:٦) — ١٦٣ قل: إني هداني ربي إلى صراط مستقيم * ديناً قيمياً ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين * قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له — الآية) وقال تعالى (٢١٣:٢٦) فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعبذين) وقال تعالى (٢٢:١٧) لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً) وقال تعالى (٨٨:٢٨) ولا تدع مع الله إلهاً آخر. لا إله إلا هو. كل شيء هالك إلا وجهه) وقال تعالى (٣٨:٣٩) قل: أفرأيتم ما تدعون من دون الله؟ إن أرادني الله بضر: هل هُنَّ كاشفاتُ ضره؟ أو أرادني برحمة: هل هُنَّ محسكاتُ رحمته؟ قل: حسبى الله. عليه يتوكل المتوكلون) وقال (١٠٧:١٠) وإن يستسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راداً لفضله) وقال تعالى (٣:٣٩) إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق. فاعبد الله مخلصاً له الدين) . وقال عن أصحاب الكهف (١٤:١٨) قالوا: ربنا رب السموات والأرض. لن ندعوك من دونه إلهاً. لقد قلنا إذا شططاً) وقال عن صاحب يس (٣٦:٢٢)، ٢٣ إن يردني الرحمن بضرٍ لا تنقن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون؟) وقال تعالى (أم اتخذوا من دونه أولياء؟ قاله هو الولي) .

وقال تعالى (٣٩:٤٣، ٤٤) أم اتخذوا من دون الله شفعاء؟ قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؟ * قل لله الشفاعة جميعاً. له ملك السموات والأرض ثم إليه

ترجعون) وقال تعالى (٢٢: ٧٣، ٧٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ضَرْبٌ مِثْلُ. فَاسْتَمِعُوا لَهُ. إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا، وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْأَلُكُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذْهُ مِنْهُ. ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ. مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ. إِنْ اللَّهَ لَقَوَىٰ عَزِيزٌ. وقال تعالى (٣٦: ٤) وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا).

وهذا في القرآن كثير. بل هو أكثر من أن يذكر. وهو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره، وذروة سنامه، وقطب رحاه، وأمرنا تعالى أن تناسي بإمام هذا التوحيد في نفيه وإثباته، كما قال تعالى (٦٠: ٤) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ. إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمَا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ. كَفَرْنَا بِكُمْ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) وقال تعالى (٤٣: ٢٧) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي، فَإِنَّهُ سَيُجِدُنِي) وقال تعالى (٢٦: ٦٩) — ٨٢ — وَإِنِّي عَلَيْهِمْ تُبَأٌّ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: مَا تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: نَعْبُدُ أَصْنَامًا، فَنُفِظُهَا عَاكِفِينَ. قَالَ: هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ؟ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ؟ قَالُوا: بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ: أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ؟ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) وإذا تدبرت القرآن — من أوله إلى آخره — رأيت يدور على هذا التوحيد، وتقديره وحقيقته.

قال تسيحا: والتحليل هم أكمل حاسة الخاصة توحيداً. ولا يجوز أن يكون في الأمة من هو أكمل توحيداً من سبي من الأنبياء. فضلاً عن الرسل، فضلاً عن أول العزم، فضلاً عن الخليلين. وكمال هذا التوحيد: هو أن لا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلاً. بل يبقى المد موالياً لربه في كل شيء. يحب من أحب وما أحب، ويفض من أبيض وما أبيض، ويوالي من يوالي، ويعادي من يعادي، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما نهى عنه.

ولعمرو الله: انه لظهوره وجلاته: ارسل الله به رسله، وارسل به كتبه، وأمر الله به الاولين والآخرين من عباده.

فظهر هذا التوحيد وإحلاؤه ووصوحي. وشهادة العطر والمقول به: من أعظم الأدلة أنه أعل مرتب التوحيد، وذروة سامه. ولذلك قوى على نفي الشرك الأعظم. فإن الشيء كلما عظم لا يدفعه إلا العظيم. فلو كان شيء أعظم من هذا التوحيد لدفع الله به الشرك الاعظم. ولعلته وشرفه: نصبت عليه القلة واستت عليه الملة، ووجبت به الدمة. وانفصلت به دار الكفر من دار الإسلام. وانقسم به الناس إلى سعيد وشقي، ومهتد وعوي. ونادت عليه الكتب والرسل.

● التوحيد فقه قلبي لا بلاغة لسان

وهذا التوحيد مستتر في قلوب أهله وإن كان أكثرهم لا يحسن الاستدلال عليه تقريراً وإيضاحاً، وجواباً عن المعارض، ودفاعاً لشبه المعاند. ولا ريب أن أكثر الناس لا يحسنون ذلك وهذا قدر زائد على وجود التوحيد في قلوبهم. فما كل من وجد شيئاً وعلمه وتيقنه: أحسن أن يستدل عليه. ويقرره، ويدفع الشبه القاذحة فيه. فهذا لون ووجوده لون.

فاستدلال كل أحد بحسبه، ولا يحصى أنواع الاستدلال ووجوهه ومراتبه إلا الله. فلكل قوم هاد، ولكل علم صحيح ويقين: دليل يوجب، وشاهد يصح به. وقد لا يمكن صاحبه التعبير عنه عجزاً وعياً. وإن عبر عنه فقد لا يمكنه التعبير عنه باصطلاح أهل العلم والفاظهم. بل من استقرأ أحوال الناس رأى أن كثيراً من أهل الإسلام — أو أكثرهم — أعظم توحيداً، وأكثر معرفة، وأرسخ إيماناً من أكثر المتكلمين، وأرباب النظر والجدال. ويجد عندهم من أنواع الأدلة والآيات التي يصح بها إيمانهم ما هو أظهر وأوضح وأصح مما عند المتكلمين. وهذه الآيات التي تدب الله عباده إلى النظر فيها، والاستدلال بها على توحيده، وثبوت صفاته وأفعاله، وصدق رسله: هي آيات مشهودة بالحس، معلومة بالعقل، مستقرة في الفطر. لا يحتاج الناظر فيها إلى أوضاع أهل الكلام والجدل، واصطلاحهم، وطرقهم أئمة. وكل من له حس سليم، وعقل يميز به: يعرفها ويُقِرُّ بها، وينتقل من العلم بها إلى العلم بالدلول. وفي القرآن ما يزيد على عشرات ألوف من هذه الآيات البينات. ومن لم يحفظ القرآن فإنه إذا سمعها وفهمها وعقلها انتقل ذهنه منها إلى الدلول أسرع انتقال وأقرب.

وبالجملة: فما كل من علم شيئاً أمكنه أن يستدل عليه. ولا كل من أمكنه الاستدلال عليه يحسن ترتيب الدليل وتقريره، والجواب عن المعارض.

● بذرة التوحيد قامية

قال شيخ الإسلام المروني:

«ويجب التوحيد بالعقل والسمع، ويوجد بتوفيق الله بعد تصديره، وينمو باجابة داعي الحق والتبصر في الشواهد».

هذه ثلاث مسائل. إحداها: ما يجب به. والثانية: ما يوجد به. والثالثة: ما ينمو به.

فأما المسألة الأولى: فاختلف فيها الناس. فقالت طائفة: يجب بالعقل. ويعاقب على تركه. والسمع مقرر لما وجب بالعقل مؤكداً له. فجعلوا وجوبه والعقاب على تركه ثابتين بالعقل.

والسمع مبین ومقرر للوجوب والعقاب. وهذا قول المعتزلة ومن وافقهم من أتباع الأئمة في مسألة التحسين والتقيح العقليين

وقالت طائفة: لا يثبت بالعقل. لا هذا ولا هذا. بل لا يجب بالعقل فيها شيء. وإنما الوجوب بالشرع. ولذلك لا يستحق العقاب على تركه. وهذا قول الأشعرية ومن وافقهم على نفي التحسين والتقيح.

والحق: أن وجوبه ثابت بالعقل والسمع، والقرآن على هذا يدل. فإنه يذكر الأدلة والبراهين العقلية على التوحيد. وبين حسه وقبح الشرك عقلاً وفضرة. ويأمر بالتوحيد وينهى عن الشرك. ولهذا ضرب الله سبحانه الأمثال. وهي الأدلة العقلية. وخاطب العباد بذلك خطاب من استقرى عقولهم وعظّمهم حسن التوحيد ووجوبه. وقبح الشرك ودمه. والقرآن مملوء بالبراهين العقلية الدالة على ذلك. كقوله (٢٩:٣٩) ضرب الله مثلاً. رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً مسلماً لرجل، هل يستويان مثلاً؟ الحمد لله. بل أكثرهم لا يعلمون) وقوله (١٦:٧٥، ٧٦) ضرب الله مثلاً: عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً، هل يستويان؟ الحمد لله. بل أكثرهم لا يعلمون * وضرب الله مثلاً رجلين: أحدهما أبكم لا يقدر على شيء. وهو كئ على مولاه. أينما يوجهه لا يأت بخبر، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم؟) وقوله (٢٢:٧٤) يا أيها الناس، ضرب مثلاً. فاستمعوا له: إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه. ضعف الطالب والمطلوب. ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) إلى أصعاف ذلك من براهين التوحيد العقلية التي أرشد إليها القرآن ونبه عليها.

ولكن ههنا أمر آخر. وهوان العقاب على ترك هذا الواجب يتأخر إلى حين ورود الشرع. كما دل عليه قوله تعالى (١٥:١٧) وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقوله (٨:٦٧) كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها: ألم يأتكم نذير؟ * قالوا: بلى! قد جاءنا نذير فكذبنا) وقوله (٢٨:٥٩) وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) وقوله (٦:١٣١) ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) فهذا يدل على أنهم طابوا قبل إرسال الرسل. وأنه لا يهلكهم بهذا الظلم قبل إقامة الحجة عليهم. فالآية رد على الطائفتين معاً، من يقول: إنه لا يثبت الظلم والتقيح إلا بالسمع، ومن يقول: إنهم معذبون على ظلمهم بدون السمع. فالقرآن يسطر قول هؤلاء وقول هؤلاء. كما قال تعالى (٢٨:٤٧) ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم، فيقولوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا؟ فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين؟) فأحسر.

أن ما قدمت أيديهم قبل إرسال الرسل سبب لإصابتهم بالمصيبة. ولكن لم يفعل سبحانه ذلك قبل إرسال الرسول الذي يقيم به حجته عليهم، كما قال تعالى (١٦٥:٤) رسلا مبشرين ومنذرين. لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال تعالى (١٥٥:٦) — ١٥٧ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحون * أوتقوا: لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم. فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) وقوله (٥٦:٣٩) — ٥٩ أن تقول نفس: يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله. وإن كنت لمن الساخرين * — إل قوله — بل قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) وهذا في القرآن كثير. يخبر أن الحجة إنما قامت عليهم بكتابه ورسوله، كما نبههم بما في عقولهم وفطرتهم: من حسن التوحيد والشكر، وقبح الشرك والكفر.

وقد ذكرنا هذه المسألة مستوفاة في كتاب «مفتاح دار السعادة» وذكرنا هناك نحواً من ستين وجهاً. تبطل قول من نفى القبح العقل، وزعم أنه ليس في الأفعال ما يقتضى حسنها ولا قبيحها. وأنه يجوز أن يأمر الله بعين ما نهى عنه. وينهى عن عين ما أمر به. وأن ذلك جائز عليه. وإنما الفرق بين المأمور والمنهى بمجرد الأمر والنهى، لا بحسن هذا وقبح هذا. وأنه لو نهى عن التوحيد والإيمان والشكر لكان قبيحاً. ولو أمر بالشرك والكفر والظلم والفواحش لكان حسناً. وبيننا أن هذا القول مخالف للعقول والفطر، والقرآن والسنة.

والمقصود: وجوبه بالسمع والعقل. وإن اختلفت جهة الإيجاب. فالعقل يوجبه: بمعنى اقتضائه لفعله، وذمه على تركه، وتقييحه لضده. والسمع يوجبه بهذا المعنى. ويزيد: إثبات العقاب على تركه، والإخبار عن مقت الرب تعالى لتاركه، وبتضه له. وهذا قد يعلم بالعقل. فإنه إذا تقرر قبح الشيء وفحشه بالعقل، وعلم ثبوت كمال الرب جل جلاله بالعقل أيضاً: اقتضى ثبوت هذين الأمرين: علم العقل بمقت الرب تعالى لمتركه. وأما تفاصيل العقاب، وما يوجبه مقت الرب منه: فإنما يعلم بالسمع.

واعلم أنه إن لم يكن حسن التوحيد وقبح الشرك معلوماً بالعقل، مستقراً في الفطر، فلا وثوق بشيء من قضايا العقل. فإن هذه القضية من أجل القضايا الالهيية، وأوضح ما ركب الله في العقول والفطر. ولهذا يقول سبحانه عقيب تقرير ذلك (أفلا تعقلون؟ أفلا تذكرون؟) وينفى العقل عن أهل الشرك، ويخبر عنهم بأنهم في النار: أنهم لم يكونوا يسمعون ولا يعقلون. وأنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل، وأخبر عنهم: أنهم (١٧١:٢) صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وأخبر عنهم (٢٦:٤٦) أن سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم لم تغن عنهم شيئاً. ولو لم يكن في صريح العقل ما يدل على ذلك لم يكن في قوله تعالى «انظروا» و«اعتبروا» و«سيروا» في الأرض، فانظروا» قائدة. فإنهم يقولون: عقولنا لا تدل على ذلك. وإنما هو مجرد إخبارك. فما

هذا النظر والتفكير والاعتبار والسير في الأرض؟ وما هذه الأمثال المضروبة، والأفيسة العقلية والشواهد العيانية؟ أفليس في ذلك أظهر دليل على حسن التوحيد والشكر؟

وقبح الشرك والكفر مستقر في العقول والفطر. معلوم لمن كان له قلب حي، وعقل سليم، وفطرة صحيحة؟ قال تعالى (٢٧:٣٩) ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون) وقال تعالى (٤٣:٢٩) وتلك الأمثال نضربها للناس. وما يعقلها إلا العالمون) وقال تعالى (٣٧:٥٠) إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) وقال تعالى (٦:٢٢) أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها. أو أذان يسمعون بها؟ فإنها لا تسمع الأبصار. ولكن تعنى القلوب التي في الصدور) وقال تعالى (٢٤٣:٢) كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) وقال تعالى (١٠:١٠) قل انظروا ماذا في السموات والأرض. وما تنفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون؟) وقال تعالى (٢٥:١٤) ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون).

ومن بعض الأدلة العقلية: ما أبقاه الله تعالى من آثار عقوبات أهل الشرك وآثار ديارهم، وما حل بهم، وما أبقاه من نصر أهل التوحيد وإعزازهم. وحمل العاقبة لهم. قال تعالى (٣٨:٢٩) وعاداً ونمود وقد تبين لكم من مساكنهم) وقال في ثمود (٢٧:٥٢، ٥٣) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا. إن في ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقال في قوم لوط (٢٩:٣٤، ٣٥) إنا منزلون على أهل هذه القرية رجباً من السماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) وقال تعالى (٧٥:١٥) — ٧١ إن في ذلك لآيات للمتوسمين. وانهما لبسيل مقيم * أن في ذلك لآية للمؤمنين * وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم. وانهما لباهام ميمن) وقال تعالى في قوم لوط (٢٧:١٣٧، ١٣٨) وإنكم لتنكرون عليهم مصبحين * وبالليل. أفلا تعقلون؟) وهو سبحانه يذكر في سورة الشعراء ما أوقع بالمشركين من أنواع العقوبات، ويذكر إنجاء لأهل التوحيد. ثم يقول (إن في ذلك لآية. وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم) فيذكر شرك هؤلاء الذين استحقوا به الهلاك، وتوحيد هؤلاء الذين استحقوا به النجاة. ثم يخبر أن في ذلك آية وبرهاناً للمؤمنين، ثم يذكر مصدر ذلك كله، وأنه عن أسمائه وصفاته. فصدور هذا الأهلاك عن عزته. وذلك الإنجاء عن رحمته. ثم يقرر في آخر السورة نوة رسوله بالأدلة العقلية أحسن تقرير. ويحیی عن شبه المكذبين له أحسن جواب. وكذلك تقريره للمعاد بالأدلة العقلية والحسية. فحضر الأمثال والأفيسة، فدلالة القرآن سمعية عقلية.

المسألة الثانية: قوله «و يوجد بتبصير الحق» وجوب الشيء شرعاً لا يستلزم وجوده حساً. فلذلك ذكر ما يوجد به بعد ذكر ما يجب به. وهو تبصير الحق تعالى. ومراذه: التبصير التام الذي

لا تختلف عنه الهداية، وإلا فقد يبصر العبد الحق ولا توحده منه الهداية. كما قال تعالى (١٧:٤١) وأما ثمود: فهديتناهم. فاستحبوا العمى على الهدى) فهو— سبحانه — بصّرهم. فأتّسروا الضلال على الهدى. وقال تعالى (١١٥:٩) وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) وقال تعالى عن قوم فرعون (١٤:٢٧) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) فهذا التصير لم يوجب وجود الهداية. لأنه سبحانه لم يرد وجودها وإنما أراد وجود مجرد البصيرة. مما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وأما التصير التام: فإنه يستلزم وجود الهداية. وهو الذي أمرنا أن نسأله إياه في كل صلاة. وقال فيه أهل الجنة (٤٣:٧) الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) وقال تعالى (٢٥:١٠) والله يدعونا إلى دار السلام. ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) فعمّ بدعوته البيان والدلالة. وخص بهديته التوفيق والإمام.

المسألة الثالثة: قوله: «و ينموا بآجابه داعي الحق» إذ لا يكفي مجرد مشاهدة الشواهد في موه (١٠٥:١٢) وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون؟) ير عليها العبد ولا ينمونها ولا يزيد بل ينقص إيمانه وتوحيده. فإذا أجاب الداعي وتبصر في الشواهد بما توحيده، وتوى إيمانه. وقال تعالى (١٧:٤٧) والذين اهتدوا زادهم هدى، وآتاهم تقواهم) وقال تعالى (٧٦:١٩) ويزيد الله الذين اهتدوا هدى). وقال تعالى (١٢٤:٩) فاما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً).

وقد تضمن كلام الشيخ ما دلّت عليه النصوص، واتفق عليه الصحابة والتابعون: أن الإيمان والتوحيد ينموان ويزيدان. وهذا من أعظم أصول أهل السنة الذي فارقوا به الجهمية والمرجئة.

• تعلق الهداية بالتوفيق الرباني لا ينفي وجوب الدعوة

وتعلق العبد بالشواهد، وهي الأدلة والآيات: من التوحيد. فإن الله سبحانه نصب الأدلة على التوحيد، وأقام البراهين وأظهر الآيات، وأمرنا أن نشهد الأدلة والآيات، وننظر فيها ونستدل بها، ولا يجمع هذا الاثبات وذلك النفي البتة. والمخلوقات كلها آيات للتوحيد، وكذلك الآيات المتلوة أدلة عليه.

فالتوحيد — كل التوحيد — أن يشهد كل شيء دليلاً عليه، مرشداً إليه، والرسول هم أدلة للتوحيد، وقد قال الله تعالى لرسوله (٥٢:٤٢) وإنك لتهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) وقال تعالى (٧:١٣) ولكل قوم هاد) والهادى: هو الدليل الذي يدل بهم في الطريق إلى الله، والدار الآخرة. ولا يناقض هذا قوله (٥٦:٢٨) إنك لا تهدي من أحببت) وقوله (٨:٣٥) فإن

الله يفضل من يشاء ويهدي من يشاء) فإن الله سبحانه تكلم بهذا وهذا. فرسله الهداة هداية الدلالة والبيان، وهو الهادى هداية التوفيق والالهام فالرسل هم الأدلة حقاً. والله سبحانه هو الموفق الملهم، الخالق للهدى في القلوب.

ومن محض التوحيد: أن تشهد المبودية وقيامك بها، وتشهد انها من عين الله والفضل، وتشهد فقرك وفاقتك، فقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوماً على حلقة من أصحابه، وهم يتذاكرون. فقال: «ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر ما من الله به علينا، وهذا بك إلى الإسلام. فقال: آله، ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آله ما أجلسنا إلا ذلك؟ فقال: أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم. ولكن الله يباهى بكم الملائكة».

فكان من أسباب مباهاة الله بهم الملائكة: شهودهم سبب التوحيد، ووسيلة النجاة. وأنهم من مَن الله عليهم، كما قال تعالى (٣: ١٥٥) لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم. ويعلمهم الكتاب والحكمة). ولا يصادم هذا الشعور بالفران يفتخر المؤمن بما كان من مَن الله تعالى عليه، إذا كان قصده ذكرها ونشرها تعليمياً وتربية للآخرين

فالافتخار نوعان: مذموم، ومحمود. فالمذموم: إظهار مرتبته على أناء جنسه ترفعا عليهم. وهذا غير مراد. والمحمود: إظهار الأحوال السية، والمقامات الشريفة، بؤحا بها. أى تصريحاً وإعلاناً، لا على وجه الفخر. بل على وجه تعظيم النعمة. والفرح بها، وذكرها ونشرها، والتحدث بها، والترغيب فيها وغير ذلك من المقاصد في إظهارها. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» و «أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر» و «أنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر» وقال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه «أنا أول من رمى بسهم في سبيل الله» وقال أنوذر رضى الله عنه «لقد أتى عليّ كذا وكذا واني لثالث الاسلام» وقال علي من ابى طالب رضى الله عنه «إنه لعهد النبي الأمى إليّ: أنه لا ينجى إلا مؤمن. ولا يغضنى إلا منافق» وقال عمر رضى الله عنه «وافقت ربي في ثلاث» وقال علي رضى الله عنه — وأشار إلى صدره — «إن ههنا علماً خماً. لو أصبت له حمة» وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه «أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة. وإن زيدا ليلعب مع الغلمان» وقال أيضا «ما من كتاب الله آية إلا وأنا أعلم أين نزلت؟ وماذا أريد بها؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لرحلت إليه» وقال بعض الصحابة «لأن تختلف في السنة أحب إليّ من أن أحدث نفسي في الصلاة بغير ما أنا فيه» وهذا أكثر من أن يذكر.

● الاسلام فرق

ومن تمام التوحيد: أن يكون العبد صاحب جمع وفرق.
«والجمع» في اللغة الضم. والاجتماع الانضمام، والتفريق: ضده. وفي اصطلاح الصوفية: هو شخصوس البصيرة إلى من صدرت عنه المتفرقات كلها.
وأما «الفرق» الإسلامى: فهو الفرق بين ما شرعه الله وأمره وأحبه ورضيه، وبين ما نهى عنه وكفره ومقت فاعله. وهذا الفرق من لم يكن من أهله لم يشم رائحة الاسلام البتة. وقد حكى الله سبحانه عن أهل الشهوات: أنهم أنكروا هذا الفرق. فشهدوا الجمع بين المأمور والمحظور إذ قالوا (٢: ١٧٥) إنما البيع مثل الربا لا فرق بينهما. وقالوا: الميتة مثل المذكاة. لا فرق بينهما، وقالوا: الحلال والحرام شيء واحد. فهذا جمعهم وذلك فرقهم.

● وعبادتنا جمع

أما الجمع فجمعان:
جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الإلهية. فيشهد صاحبه قيومية الرب تعالى فوق عرشه، يدبر أمر عباده وحده. فلا خالق ولا رازق، ولا معطى ولا مانع، ولا يسميت ولا محيى، ولا مدبر لأمر المملكة — ظاهراً وباطناً — غيره. فما شاء كان. وما لم يشأ لم يكن. لا تتحرك ذرة إلا بإذنه. ولا يجرى حادث إلا بمشيئته ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه. وأحاطت بها قدرته. ونفذت بها مشيئته. واقتضتها حكمته. فهذا جمع توحيد الربوبية.
وأما جمع توحيد الإلهية، فهو: أن يجمع قلبه وحمه وعزمه على الله. وإرادته، وحركاته على أدائه حقه تعالى، والقيام بعبوديته سبحانه. فتجتمع شؤون إرادته على مراده الديني الشرعي.
وهذان الجمعان: هما حقيقة «إياك نعبد وإياك نستعين» فإن العبد يشهد من قوله «إياك» الذات الجامعة لجميع صفات الكمال، التي لها كل الأسماء الحسنى. ثم يشهد من قوله «نعبد» جميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً. قصداً وقولاً وعملاً وحالاً واستقبالاً. ثم يشهد من قوله «وإياك نستعين» جميع أنواع الاستعانة، والتوكل والتفويض. فيشهد منه جميع الربوبية. ويشهد من «إياك نعبد» جمع الإلهية. ويشهد من «إياك» الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى.

ثم يشهد من «اهدنا» عشر مراتب. إذا اجتمعت حصلت له الهداية.
 المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان. فيجعله عالماً بالحق مدركاً له.
 الثانية: أن يُقَدِّره عليه. وإلا فهو غير قادر بنفسه.
 الثالثة: أن يجعله مريداً له.
 الرابعة: أن يجعله فاعلاً له.
 الخامسة: أن يشبته على ذلك. ويستمر به عليه.
 السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.
 السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة. أخص من الأولى. فإن الأولى هداية
 إلى الطريق إجمالاً. وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلاً.
 الثامنة: أن يُشْهده المقصود في الطريق، ويُنبهه عليه. فيكون مطالعاً له في سيره، ملتفتاً
 إليه، غير محجب بالوسيلة عنه.
 التاسعة: أن يُشْهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.
 العاشرة: أن يُشْهده الطريقين المنحرفين عن طريقها. وهما طريق أهل الغضب، الذين
 عدلوا عن اتناح الحق قصداً وعناداً. وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلاً وضلالاً. ثم
 يشهد جمع «الصرائط المستقيم» في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من
 الصديقين والشهداء والصالحين.
 فهذا هو الجمع الذي عليه رسل الله وأتباعهم. فمن حصل له هذا الجمع. فهو على الصراط
 المستقيم. والله أعلم.

(١٦) مَنَزِلُ الشَّاهِدَةِ

وَمِنْ سَنَهِائَةِ رَحْلَةِ هَجْرَةِ الْمُؤْمِنِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتَقْوَدُهُ إِلَى كَرَارِ السَّيْرِ وَالْإِنْعَافِ خَوَاتِمُ الْبَيِّنَاتِ

وآخر منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»: منزلة «الشهادة»
واعلم ان التوحيد الذي دعت اليه رسل الله، ونزلت به كتبه: نوعان: توحيد في المعرفة
والاثبات، وتوحيد في الطلب والمقصد.

قال أول: هو حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وعلوه فوق سمواته عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم فضائه، وقدره، وحكمه. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح. كما في أول سورة الحديد، وسورة طه وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكاملها. وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة (قل: يا أيها الكافرون) وقوله (٣: ٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم — الآية) وأول سورة «تنزيل الكتاب» وآخرها، وأول سورة «يونس» ووسطها وآخرها، وأول سورة «الأعراف» وآخرها، وجلة سورة «الأنعام» وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعى التوحيد.

بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه. فإن القرآن: إما خير عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله. فهو التوحيد العلمى الخبرى. وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه. فهو التوحيد الإرادى الطلبى. وإما أمر ونهى، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره. فهي حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خير عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة. فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب. فهو خبر عن خراج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم — (الحمد لله)
توحيد (رب العالمين) توحيد (الرحمن الرحيم) توحيد (مالك يوم الدين) توحيد (إياك نعبد)
توحيد (وإياك نستعين) توحيد (اهدنا الصراط المستقيم) توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، الذين أنعم الله عليهم (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) الذين فارقوا

التوحيد. ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد. وشهد له به ملائكته، وأنبياءه ورسله. قال (١٩: ١٨، ٣) **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ. قَاتِمًا بِالْقِاسِطِ. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ.**

فتمتنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم. وهذا إما يتبين بمد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية.

فتمتنت هذه الآية: أجل شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها، من أجل شاهد، بأجل مشهود به. وعبارات السلف في «شهادة» تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار. قال مجاهد: **حَكَّم، وقضى.** وقال الزجاج: **بَيَّنَّ.** وقالت طائفة: **أعلم وأخبر.** وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها فإن «الشهادة» تتضمن كلام الشاهد وخبره وقوله. وتضمن إعلامه، وإخباره وبيانه. فلها أربع مراتب. مراتبها: علم، ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به، وثبوته. وثانيها: تكلمه بذلك، ونطقه به، وإن لم يُعلم به غيره. بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها. وثالثها: أن يُعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، وبيته له. ورابعها: أن يلزمه بمضمونها وأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط: تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك. وتكلمه به، وإعلامه، وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به. أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به. قال الله تعالى (٤٣: ٨٦) **إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** وقال النبي صلى الله عليه وسلم **(علي مثلها فاشهد) وأشار إلى الشمس.**

وأما مرتبة التكلم والخبر: فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة. قال تعالى (٦: ١٥٠) **قُلْ: هَلَمْ شَهِدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَمَ هَذَا. فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ** وقال تعالى (٤٣: ١٩) **وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً. أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ؟** مستكتب شهادتهم ويُسألون. فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم. قال النبي صلى الله عليه وسلم **«عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ الْإِشْرَاقَ بِاللَّهِ»** وشهادة الزور هي قول الزور. كما قال تعالى (٢٢: ٣١) **وَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ. حَتَّى إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا** وعند نزول هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **«عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ الْإِشْرَاقَ بِاللَّهِ»** فسمى قول الزور شهادة. وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة. قال تعالى (٤: ١٣٥) **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ.**

ولو على أنفسكم) فشهادة المرء على نفسه: هي إقراره على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز الأسلمي «فلما شهد على نفسه أربع مرات. رجه رسول الله صلى الله عليه وسلم» وقال تعالى (٦: ١٣٠) قالوا: شهدنا على أنفسنا. وغرثهم الحياة الدنيا. وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين).

وهذا — وأضافه — يدل على أن الشاهد عد الحاكم وغيره: لا يشترط في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة. كما هو مذهب مالك، وأهل المدينة. وظاهر كلام أحمد. ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك. وقد قال ابن عباس «شهد عندي رجال مرضيون — وأرضاهم عندي عمر — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة بعد الصبح. حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس» ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة. والعشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة. لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة. بل قال «أبوي بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة» الحديث.

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال «لا إله إلا الله. محمد رسول الله» فقد دخل في الإسلام. وشهد شهادة الحق. ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة وأنه قد دخل في قوله «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» وفي لفظ آخر «حتى يقولوا لا إله إلا الله» فدل على أن مجرد قولهم «لا إله إلا الله» شهادة منهم. وهذا أكثر من أن تذكر شواهد من الكتاب والسنة. فليس مع من اشترط لفظ الشهادة. دليل يعتمد عليه. والله أعلم.

● آيات الله تعالى في الآفاق تشهد

وأما مرتبة الإعلام والإخبار فتوعان: إعلام بالقول. وإعلام بالفعل. وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر: تارة يعلمه بقوله. وتارة بفعله.

فشهادة الرب جل جلاله وبيانه وإعلامه. يكون بقوله تارة، وبفعله تارة أخرى. فالقول: هو ما أرسل به رسوله. وأنزل به كتيبه. وما قد علم بالاضطرار: أن جميع الرسل أحيروا عن الله: أنه شهد لنفسه «بأنه لا إله إلا هو» وأخبر بذلك. وأمر عباده أن يشهدوا به. وشهادته سبحانه «أن لا إله إلا هو» معلومة من جهة كل من بلغ عنه كلامه.

وأما بيانه وإعلامه بفعله: فهو ما تضمنته خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالحق والقطرة. وهذا أيضاً يستعمل فيه لفظ الشهادة، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة، والإرشاد والبيان. فإن الدليل بين المدلول عليه ويظهره، كما بينه الشاهد والمخبر. بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ. وقد يسمى شاهد الحال نطقاً وقولاً وكلاماً. لقيامه مقامه، وأدائه مؤداه. كما قيل:

وقالت له العَيْنَان: سمعاً وطاعة
وحَدَّثنا بالدرا ما يشقُب
وَقَالَ الْآخَرُ:
شكنا إلى جلي ظول السُّرى صبراً جلي. فكلنا مبتلى

ويسمى هذا شهادة أيضاً، كما في قوله تعالى (٩: ١٧) ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله، شاهدين على أنفسهم بالكفر، فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله. فهي شهادة بكفرهم. وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت به. والمقصود: أن الله سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه. فإن دلالتها إنما هي بخلقه وجعله. ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية. فتتطابق شهادة القول وشهادة الفعل. كما قال تعالى (٤١: ٥٣) سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أي أن القرآن حق. فأخبر أنه يدل بآياته الأفقية والفضية على صدق آياته القولية الكلامية. وهذه الشهادة الفعلية قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير. قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره المجيب وأموره المحكمة عند خلقه: أنه لا إله إلا هو.

• ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وأما المرتبة الرابعة — وهي الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه — فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر، وألزم عباده به. كما قال تعالى (١٧: ٢٣) وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) وقال تعالى (١٦: ٥١) وقال الله: لا تتخذوا إلهين اثنين. إنما هو إله واحد) وقال تعالى (٩٨: ٥) وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وقال تعالى (١٧: ٢٢، ٣٩) لا تجعل مع الله إلهاً آخر) وقال الله سبحانه وتعالى (٢٨: ٨٨) ولا تدع مع الله إلهاً آخر) والقرآن كله شاه بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر، وبيّن وأعلم، وحكم وقضى: أن ما سواه ليس بإله. ولأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم. فلا يستحق العبادة سواء. كما لا تصلح الإلهية لغيره وذلك يستلزم الأمر باتخاذ وحده إلهاً، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهاً. وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات. كما إذا رأيت رجلاً يستفتي أو يستشهد، أو يستطب من ليس أهلاً لذلك، ويدع من هو أهل له. فتقول: هذا ليس بجفت ولا شاهد ولا طبيب. المفتى فلان. والشاهد فلان. والطبيب فلان. فإن هذا أمر منك ونهي.

وأيضاً فإن الأدلة قد دلت على أنه سبحانه وحده المستحق للعبادة. فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة، تضمن هذا الإخبار: أمر العباد والزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم. وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم. فإذا شهد سبحانه أنه «لا إله إلا هو» تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده.

وأيضاً فلفظ «الحكم» و«القضاء» يستعمل في الجمل الخبرية. فيقال للجملة الخبرية «قضية» و«حكم». وقد حكم فيها بكيّ وكيّ، قال تعالى (٣٧: ١٥١ - ١٥٤) ألا إنهم من إفكهم ليقولون: وكّد الله، وإنهم لكاذبون * أصطفى البنا على البنين؟ مالكم؟ كيف تحكمون؟) فجعل هذا الإخبار المجرد منهم حكماً. وقال في موضع آخر (٦٨: ٣٥)، ٣٦ أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟ مالكم؟ كيف تحكمون؟) لكن هذا حكم لا إلزام معه، والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو: متضمن للإلزام. والله سبحانه أعلم.

• قيام الله بالقسط يقتضي الثواب والعقاب

وقوله تعالى «قائماً بالقسط» القسط: هو العدل. فشهد الله سبحانه: أنه قائم بالعدل في توحيده. وبالوحدانية في عدله. و«التوحيد» و«العدل» هما جامع صفات الكمال. فإن «التوحيد» يتضمن تفرد سبحانه بالكمال والجلال والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواء. و«العدل» يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب وموافقة الحكمة. فهذا توحيد الرسل وعلوهم: إثبات الصفات، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له. وإثبات البدر والحيكم. والغايات المطلوبة المحمودة بفعله وأمره. لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية، الذي هو إنكار الصفات وحقائق الأسماء الحسنى، وعلوهم، الذي هو: التكذيب بالقدس أو نفى الحيكم والغايات والعواقب الحميدة التي يفعل الله لأجلها ويأمر. وقيامه سبحانه بالقسط في شهادته يتضمن أموراً.

أحدها: أنه قائم بالقسط في هذه الشهادة التي هي أعدل شهادة على الإطلاق، وإبكاره وجحودها أعظم الظلم على الإطلاق. فلا أعدل من التوحيد ولا أفظم من الشرك. فهو سبحانه قائم بالعدل في هذه الشهادة قولاً وفعلًا، حيث شهد بها، وأخبر وأعلم عباده. وبين لهم تحقيقها وصحتها. وألزمهم بمقتضاها. وحكم به. وجعل الثواب والعقاب عليها. وجعل الأمر والنهي من حقوقها وواجباتها. قالين كله من حقوقها. والثواب كله عليها. والعقاب كله على تركها.

وهذا هو العدل الذي قام به الرب تعالى في هذه الشهادة. فأوامره كلها تكميل لها، وأمر بأداء حقوقها. ونواهيه كلها صيانة لها عما يهضمها ويضادها. وثوابه كله عليه. وعقابه كله على تركها، وترك حقوقها. وخلق السماوات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها. وهي الحق الذي خلقت به. وضدها هو الباطل والبعث الذي تزه نفسه عنه. وأخير: أنه لم يخلق به السماوات والأرض، قال تعالى — ردأ على المشركين المتكبرين هذه الشهادة — (٣٨: ٢٧) وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً. ذلك ظن الذين كفروا. فويل للذين كفروا من النار) وقال تعالى (٤٦: ١ — ٣ حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى. والذين كفروا عما أئذروا معرضون) وقال (١٠: ٥ وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا. وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب. ما خلق الله ذلك إلا بالحق) وقال (٣٠: ٨ أولم يتفكروا لي أنفسهم؟ ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى. وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون) وقال (٤٤: ٣٨ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا عيين * ما خلقناهما إلا بالحق) وهذا كثير في القرآن. والحق الذي خلقت به السماوات والأرض ولأجله: هو التوحيد. وحقوقه من الأمر والنهي، والثواب والعقاب. فالشرع والقدس والحلق والأمر، والثواب والعقاب قائم بالعدل. والتوحيد صادر عنها. وهذا هو الصراط المستقيم الذي عليه الرب سبحانه وتعالى. قال تعالى — حكاية عن نبيه هود — (١١: ٥٦) إني توكلت على الله ربي وربكم. ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها. إن ربي على صراط مستقيم) فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله. فهو يقول الحق. ويفعل العدل (٦: ١١٥) وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً. لا مبدل لكلماته. وهو السميع العليم) (٣٣: ٤) والله يقول الحق. ويهدي السبيل).

والمقصود: أن قوله تعالى «قائماً بالقسط» هو كقوله (إن ربي على صراط مستقيم) وقوله «قائماً بالقسط» نصب على الحال. وفيه وجهان. أحدهما: أنه حال من الفاعل في «شهد الله» والعامل فيها الفعل. والمعنى على هذا: شهد الله حال قيامه بالقسط: أنه لا إله إلا هو. والثاني: أنه حال من قوله «هو» والعامل فيها معنى النفي. أي لا إله إلا هو، والثاني: أنه حال

من قوله «هو» والعامل فيها معنى النفى. أى لا إله إلا هو، حال كونه قائماً بالقسط. وبين التقديرين فرق ظاهر. فإن التقدير الأول: يتضمن أن المعنى: شهد الله — متكلماً بالعدل، مخبراً به، أمراً به، فاعلاً له، مجازياً به — أنه لا إله إلا هو. فإن العدل يكون في القول والفعل. و «المقسط» هو العادل في قوله وفعله. فشهد الله قائماً بالعدل — قولاً وفعلًا — أنه لا إله إلا هو. وفي ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط. وهي أعدل شهادة، كما أن المشهود به أعدل شيء وأصح.

وإذا كان القيام بالقسط يكون في القول والفعل كان المعنى: أنه كان سبحانه يشهد وهو قائم بالعدل عالم به، لا بالظلم. فإن هذه الشهادة تصبغت قولاً وفعلًا، فإنها تضمنت: أنه هو الذى يستحق العبادة وحده دون غيره. وأن الذين عبدوه وحده: هم المفلحون السعداء. وأن الذين أشركوا به غيره هم الضالون الأشقياء. فإذا شهد قائماً بالعدل — المتضمن جزاء المخلصين بالجنة، وجزاء المشركين بالنار —: كان هذا من تمام موجب الشهادة وتحقيقها. وكان قوله «قائماً بالقسط» تنبيها على جزاء الشاهد بها والجاحد لها. والله أعلم.

● واحد ... وذو عدل ... سبحانه

وأما التقدير الثانى — وهو أن يكون قوله «قائماً» حالاً بما بعد «إلا» — فالمعنى: أنه لا إله إلا هو قائم بالعدل. فهو وحده المستحق الإلهية، مع كونه قائماً بالقسط. قال شيخنا ابن تيمية: وهذا التقدير أرجح. فإنه يتضمن: أن الملائكة وأولى العلم يشهدون له بأنه لا إله إلا هو، وأنه قائم بالقسط.

قلت: مراده أنه إذا كان قوله «قائماً بالقسط» حالاً من المشهود به. فهو كالصفة له. فإن الحال صفة في المعنى لصاحبها. فإذا وقعت الشهادة على ذى الحال وصاحبها كان كلاهما مشهوداً به. فيكون «الملائكة وأولو العلم» قد شهدوا بأنه قائم بالقسط. كما شهدوا بأنه لا إله إلا هو. والتقدير الأول لا يتضمن ذلك. فإنه إذا كان التقدير: شهد الله — قائماً بالقسط — أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو: كان القيام بالقسط حالاً من اسم «الله» وحده.

وأيضاً فكونه قائماً بالقسط فيما شهد به أبلغ من كونه حالاً من مجرد الشهادة. فإن قيل: فإذا كان حالاً من «هو» فهلا اقترن به؟ ولم فصل بين صاحب الحال وبينها بالعطف، فجاء متوسطاً بين صاحب الحال وبينها؟

قلت: فائدته ظاهرة. فإنه لو قال «شهد الله أنه لا إله إلا هو قائماً بالقط والملائكة وأولو العلم» لأوهم عطف الملائكة وأولو العلم على الضمير في قوله «قائماً بالقط» ولا يحسن العطف لأجل الفصل. وليس المعنى على ذلك قطعاً. وإنما المعنى على خلافه. وهوان قيامه بالقط يختص به، كما أنه يختص بالإلهية. فهو وحده الإله المعبود المستحق العبادة. وهو وحده المجازى المنيب المعاقب بالعدل.

قوله «لا إله إلا هو» ذكر محمد بن جعفر أنه قال: الأولى وصف وتوحيد، والثانية: رسم وتعليم، أى قولوا «لا إله إلا هو» ومعنى هذا: أن الأولى تضمنت أن الله سبحانه شهد بها وأخبر بها. والثاني للقرآن إنما يخبر عن شهادته هو. وليس في ذلك شهادة من التالى نفسه. فأعاد سبحانه ذكرها مجردة ليقولنا التالى. فيكون شاهداً هو أيضاً.

وأيضاً فالأولى: خبر عن شهادة بالتوحيد. والثانية: خبر عن نفس التوحيد. وختم بقوله «المعزى الحكيم» فتضمنت الآية توحيداً وعدله، وعزته وحكمته. فالتوحيد: يتضمن ثبوت صفات كماله، وتنوع جلالة، وعدم المائل له فيها وعبادته وحده لا شريك له. و«العدل» يتضمن وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها منازلها، وأنه لم يخص شيئاً منها إلا بمخصص اقتضى ذلك. وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة، ولا يمنح من يستحق العطاء، وإن كان هو الذى جعله مستحقاً. و«العزيز» يتضمن كمال قدرته وقوته وقهره. و«الحكيم» تتضمن كمال علمه وخبرته، وأنه أمر ونهى وخلق وقدر لا له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التى يستحق عليها كمال الحمد.

فاسمه «المعزى» يتضمن الملك. واسمه «الحكيم» يتضمن الحمد. وأول الآية يتضمن التمسك. وذلك حقيقة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير». وإذا نهى عن شيء كان قبيحاً في نفسه. وإذا إيا. وإذا أراد شيئاً كان أولى بالإرادة من غيره.

وهذا الوصف على الكمال لا يكون إلا لله وحده. فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة: الدلالة على وحدانيته المنافية للشرك. وعدله المنافى للظلم. وعزته المنافية للعجز. وحكمته المنافية للجهل والعيب. ففيها الشهادة له بالتوحيد، والعدل، والقدرة والعلم والحكمة. ولهذا كانت أعظم شهادة. ولا يقوم بهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف إلا أهل السنة. وسائر طوائف أهل البدع لا يقومون بها.

فهذه الشهادة العظيمة: متضمنة لإبطال ما هم عليه ورده. كما تضمنت إبطال ما عليه المشركون ورده. وهى مسطرة لقول طائفتى الشرك والتعطيل. ولا يقوم بهذه الشهادة إلا أهل الإثبات الذين يشيرون لله ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات. و ينفون عنه مماثلة المخلوقات. و يعبدونه وحده لا يشركون به شيئا.

● شهادته سبحانه لنفسه أتم من شهادة المستدع

وإذا كانت شهادته سبحانه تتضمن بيانه للعاد، ودلائلهم وتبريمهم بما شهد به، فلا هل شهد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها: لم ينتفعوا. ولم يقد عليهم بها الحجة. كما أن الشاهد من العاد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها، بل كتمها. لم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة. وإذا كان لا يُنتفع بها إلا ببيانها. فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

أما السمع: فسمع آياته المتلوة القولية المتضمنة لإثبات صفات كماله ونعوت جلاله، وعلوه على عرشه فوق سبع سمواته، وتكلمه بكنته، وتكليمه لمن شاء من عباده تكلمًا وتكليمًا. حقيقة لا مجازًا.

وقد هذا إبطال لقول من قال: إنه لم يرد من عباده ما دلت عليه آياته السمعية من إثبات معانيها وحقائقها التى وضعت لها ألفاظها. فإن هذا ضد البيان والإعلام. ويعود على مقصود الشهادة بالإبطال والكتمان. وقد ذم الله من كتم شهادة عنده من الله. وأخبر أنه من أظلم الظالمين. فإذا كانت هذه الشهادة من الله، لا شك أنها

الرسول، وأن إبراهيم وأهل بيته

الظالمين — كما فعله أعداء رسول الله ﷺ

يعرفون أبنائهم — فكيف يظن بالله سبحانه أنه سم شهادة الحق التى يشهد بها اجمعية والمعتزلة والمعتلة. ولا يشهد بها لنفسه. ثم يشهد لنفسه بما يصادها و يناقضها، ولا يجامعها بوجه ما؟ سبحانه هذا بهتان عظيم! فإن الله سبحانه شهد لنفسه بأنه استوى على العرش، وبأنه القاهر فوق عباده، وبأن ملائكته يخافونه من فوقهم، وأن الملائكة تعرج إليه بالأمر. وتنزل من عنده به. وأن العمل الصالح يصعد إليه، وأنه يأتى ونجى، ويتكلم، ويرى ويغضب، ويحب ويكره، ويعرج ويضحك، وأنه يسمع ويصر، وأنه يراه المؤمنون بأبصارهم يوم لقائه. إلى غير ذلك مما شهد به لنفسه، وشهد له به رسله. وشهدت له اجمعية ضد ذلك، وقالوا: شهادتنا اصح، وأعدل من شهادة النصوص. فإن النصوص تصنت كتمان الحق وإظهار خلافه.

فشهادة الرب تعالى: تكذب هؤلاء أشد التكذيب. وتتضمن أن الذى شهد به قد بينه وأوضحه وأظهره، حتى جعله فى أعلى مراتب الظهور والبيان. وأنه لو كان الحق فيما يقوله المعطلة والجهمية لم يكن العباد قد انتفعوا بما شهد به سبحانه. فإن الحق فى نفس الأمر — عندهم — لم يشهد به لنفسه. والذى شهد به لنفسه، وأظهره وأوضحه: فليس بحق. ولا يميز أن يستفاد منه الحق واليقين.

وأما آياته العينية الخلقية، والنظر فيها والاستدلال بها: فإنها تدل على ما تدل عليه آياته القولية السمية. وآيات الرب: هى دلائله وبراهينه التى بها يعرفه العباد، وبها يعرفون أسماء وصفاته. وتوحيده، وأمره ونهيه. فالرسل تخبر عنه بكلامه الذى تكلم به. وهو آياته القولية. ويستدلون على ذلك بمفعولاته التى تشهد على صحة ذلك. وهى آياته العينية. والعقل يجمع بين هذه وهذه: فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل. فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفترة. وهو سبحانه — لكمال عدله ورحمته، وإحسانه وحكمته، وعجبه للمنى وإقامته للحجة — لم يبعث نبيا من الأنبياء إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به. قال تعالى (٥٧: ٢٥) لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وقال تعالى (١٦: ٤٤، ٤٣) وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نحى إليهم. فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * بالبينات والزبر) وقال تعالى (٣: ١٨٣: ١٨٤) قد جاءكم رسل من قبل: بالبينات وبالذي قلتم. فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين؟ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) وقال تعالى (٣٥: ٤) وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) وقال تعالى (٣٥: ٢٥) وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير).

حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود عليه السلام. حتى قال له قومه (١١: ٥٣) يا هود ما جئنا ببينة) ومع هذا فيبته من أظهر البينات. وقد أشار إليها بقوله (١١: ٥٤) — ٥٦) إني أشهد الله. وأشهدوا: أنى برىء مما تشركون من دونه. فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم. ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها. إن ربي على صراط مستقيم) فهذا من أعظم الآيات: أن رجلا واحدا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب. غير تجزء ولا قزع، ولا خوار بل واثق بما قاله جازم به، قد أشهد الله أولاً على برأته من دينهم، ومما هم عليه إظهار واثق به، معتمد عليه، معلم لقومه: أنه وليه وقاصره، وأنه غير مسلطهم عليه.

ثم أشهدهم — إظهار مجاهر لهم بالمخالفة: — أنه برىء من دينهم وأهلتهم، التى يوالون عليها ويعادون. ويذلون دماءهم وأموالهم فى نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم، واحتقارهم وارذائهم، وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيدهم، وشقاء غيظهم منه، ثم يعاقلونه ولا يُمهّلونه: لا يستطيعون، فإنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك .

ثم قرر دعوته أحسن تقرير. وبين أن ربه تعالى وربهم، الذى بواصيهم بيده: هو وليه ووكيله، القائم بنصره وتأنيده، وأنه على صراط مستقيم. فلا يخذل من توكل عليه وآمن به. ولا يُشمت به أعدائه. ولا يكون معهم عليه. فإن صراطه المستقيم الذى هو عليه — فى قوله وفعله — يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب: أن من صراطه المستقيم: أن يستقم من خرج عنه وعمل بخلافه. وينزل به بأسه. فإن الصراط المستقيم: هو العدل الذى عليه الرب تعالى. ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام. ونصره أوليائه ورسله على أعدائهم. وأنه يذهب بهم، ويستحلف قوماً غيرهم. ولا يصره ذلك شيئاً. وأنه القائم سبحانه على كل شيء حفظاً ورعاية وتدبيراً وإحصاءً. فأى آية وبرهان أحسن من آيات الأنبياء وبراہينهم وأدلتهم؟ وهى شهادة من الله سبحانه لهم. يبينها لعباده غاية البيان. وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله. وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

ومن أسمائه تعالى «المؤمن» وهو — فى أحد التفسيرين — المصدق الذى يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم. فهو الذى صدّق رسله وأنبياؤه فيما بلغوا عنه. وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التى دل بها على صدقهم قصاء وحلقا. فإنه سبحانه أحر — وحبره الصدق. وقوله الحق — أنه لا بد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والفضائية ما يبرهن لهم: أن الوحى الذى بلغته رسله حق. فقال تعالى (٤١: ٥٣) سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم. حتى يتبين لهم أنه الحق) أى القرآن. فإنه هو المتقدم فى قوله (٤١: ٥٢) قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به؟ ثم قال (أو لم يكف بربك: أنه على كل شيء شهيد؟) فشهد سبحانه لرسوله بقوله: أن ما جاء به حق. ووعده أن يرى العباد من آياته العملية الخلقية: ما يشهد بذلك أيضا. ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل، وهو شهادته سبحانه على كل شيء. فإن من أسمائه «الشهيد» الذى لا يغيب عنه شيء. ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليهم بتفاصيله. وهذا استدلال بأسمائه وصفاته. والأول استدلال بقوله وكلماته. والاستدلال بالآيات الأفقية والعمية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته. فينبى لي كيفية الاستدلال بأسائه وصفاته. فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا وكتبنا.
قلت: أجل! هو لعمر الله كما ذكرت. وشأنه أجل وأعلى. فإن الرب تعالى هو المدلول عليه، وآياته هي الدليل والبرهان.

فاعلم أن الله سبحانه في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته. فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات. وقد أودع في الفطر التي لم تنتجس بالتعطيل والوجود: أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص. فالكمال كله، والجمال والجلال والبهاء، والعزة والعظمة والكبرياء: كله من لوازم ذاته. يستحيل أن يكون على غير ذلك. فالحياة كلها له. والعلم كله له، والقدرة كلها له. والسمع والبصر والإرادة. والمشية والرحمة والغنى، والجد والإحسان والبر، كله خاص له قائم به. وما خفى على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه. بل لانسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه.

ومن كماله المقدس: اطلاعه على كل شيء. وشهادته عليه. بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفصيله، ولا ذرة من ذراته، باطنا وظاهراً. ومثل هذا شأنه: كيف يليق بالعباد أن يشركوا به. وأن يعبدوا معه غيره؟ وأن يعملوا معه إلهاً آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يُقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه. ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعل كلمته. ويرفع شأنه. ويحب دعوته، ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قهرى البشر. وهو — مع ذلك — كاذب عليه مفتر، ساع في الأرض بالفساد؟؟
ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء وقدرته على كل شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الأباء ومن ظن ذلك به، وجوّزه عليه: فهو من أبعد الخلق من معرفته، وإن عرف منه بعض صفاته، كصفة القدرة، وصفة المشية.

والقرآن مملو من هذه الطريق. وهي طريق الخاصة، بل خاصة الخاصة هم الذين يستدلون بالله على أقواله. وما يليق به أن يفعل وما لا يفعله.

وإذا تدبرت القرآن رأيت ينادى على ذلك. فيديه ويديه لمن له فهم وقلب واع عن الله. قال الله تعالى (٦٩: ٤٤ — ٤٧) ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين) أفلا تراه كيف يخبر سبحانه: أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يُقر من تقول عليه بعض الأقاويل؟ بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه. وقال تعالى (٤٢: ٢٤) أم يقولون افتري على الله كذباً؟ فإن يشأ الله يختم على قلبك) ههنا انتهى جواب الشرط. ثم أخبر جازماً غير

معلق: أنه (بحواله الباطل. ويحق الحق) وقال تعالى (٦: ٩١ وما قدروا الله حق قدره، إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء) فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يتذره حق قدره. ولا عرفه كما ينبغي، ولا عظمه كما يستحق. فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفتري عليه ويؤيده؟ ويظهر على يديه الآيات والأدلة؟ وهذا في القرآن كثير جداً. يستدل بكماله المقدس، وأوصافه وجلاله على صدق رسله، وعلى وعده ووعيدته. ويدعوا عباده إلى ذلك. كما يستدل بأسمائه وصفاته على وحدانيته، وعلى بطلان الشرك. كما في قوله (٥٩: ٢٢، ٢٣ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو. الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون) وأنصاف أنصاف ذلك في القرآن.

ويستدل سبحانه بأسمائه وصفاته على بطلان ما نسب إليه من الأحكام والشرائع الباطلة، وأن كماله المقدس يمنع من شرعا، كقوله (٧: ٢٨ وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا. والله أمرنا بها. قل: إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون؟) وقوله عقيب ما نهى عنه وحرمه من الشرك والظلم والفواحش والقول عليه بلا علم (١٧: ٣٩ كلُّ ذلك كان سَيِّئَةً عند ربك مكروهاً) فأعلمك أن ما كان سيئة في نفسه فهو يكرهه. وكماله يأبى أن يجعله شرعاً له ودينياً. فهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعلوه ويأمر به، وما يحبه ويبغضه، ويثيب عليه ويعاقب عليه. ولكن هذه الطريق لا يصل إليها إلا خاصة الخاصة. فلذلك كانت طريقة الجمهور الدلالات بالآيات المشاهدة فإنها أوسع وأسهل تناولا. والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض. ويرفع درجات من يشاء. وهو العليم الحكيم.

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره. فإنه هو الدعوة والحجة. وهو الدليل والمدلول عليه. وهو الشاهد والمشهد له. وهو الحكم والدليل. وهو الدعوى والبينة. قال الله تعالى (١١: ١٧ أقمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه؟) أى من ربه. وهو القرآن. وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله (٢٩: ٥١، ٥٢ أولم يكنهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم؟ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل: كفى بالله بيني وبينكم شهيداً. يعلم ما في السموات والأرض. والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) فأخبر سبحانه أن الكتاب الذي أنزله على رسوله يكنى عن كل آية. ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله. وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة، وينجي من العذاب. ثم قال (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السموات والأرض) فإذا كان الله سبحانه عالماً بجميع الأشياء: كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلاً. فإنها شهادة بعلم تام، محيط بالمشهد به. فيكون الشاهد به أعدل الشهداء وأصدقهم.

وهو سبحانه يذكّر علمه عند شهادته، وقدرته وملكوته عند مجازاته، وحكمته عند خلقه وأمره، ورحمته عند ذكر إرسال رسوله. وحلمه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم. وسمعه عند ذكر دعائهم ومسألتهم. وعزته وعلمه عند قضائه وقدره. فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه، ولزبائها بالخلق والأمر، والثواب والعقاب.

● يظهر الله رسوله بشهادته لنفسه

ومن هذا قوله تعالى (١٣: ٤٣) ويقول الذين كفروا: لست مرسلًا. قل: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم. ومن عنده علم الكتاب) فاستشهد على رسالته بشهادة الله له. ولا بد أن تعلم هذه الشهادة، وتقوم بها الحجة على المكذبين له. وكذلك قوله (٦: ١٩) أي شيء أكبر شهادة؟ قل: الله شهيد بيني وبينكم) وكذلك قوله (٤٠: ١٦٦) لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنه لم يعلمه. والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً) وكذلك قوله (٢: ٢٥٢) تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق. وإنك لمن المرسلين) وقوله (٦٣: ١) والله يعلم أنك لرسوله) وقوله (٤٨: ٢٨) محمد رسول الله) فهذا كله شهادة منه لرسوله. قد أظهرها وبينها. وبَيَّن صحتها غاية البيان. بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم. فكانه سبحانه شاهداً لرسوله: معلوم بسائر أنواع الدالة: عقليها ونقلها وفطريها وضروريها ونظريها.

ومن نظر في ذلك وتأمله: علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة. وأعدّها وأظهرها. وصدقه بسائر أنواع التصديق: بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبعمله وإقراره، وبما فطر عليه عباده: من الإقرار بكماله، وتنزيهه عن القبايح، وعما لا يليق به. وفي كل وقت ويُحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم له الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد. على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به: من الحزنى والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة (٤٨: ٢٨) هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. وكفى بالله شهيداً) فيظهره ظهورين: ظهوراً بالحجة، والبيان، والدلالة. وظهوراً بالنصر والظفر والغلبة، والتأييد. حتى يظهره على مخالفيه. ويكون منصوراً.

وقوله (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنه لم يعلمه، والملائكة يشهدون) فما فيه من الخبر عن علم الله الذى لا يعلمه غيره: من أعظم الشهادة بأنه هو الذى أنزل. كما قال في الآية الأخرى (١١: ١٣) أم يقولون افتراه. قل: فأنشؤا عשר سور مثله مفتريات. وادعوا من

استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله. وأن لا إله إلا هو. فهل أنتم مسلمون؟) وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله — وهو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء. فإن كل شيء معلوم له من حق وباطل — وإنما المعنى: أنزله مشتملاً على علمه. فنزوله مشتملاً على علمه: هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق ونظير هذا قوله (٢٥: ٦ قل: أنزله الذي يعلم السرفى السموات والأرضى) ذكر ذلك سبحانه تكديماً ورداً على من قال (٢٥: ٤ افتراه):

● الفطر السليمة شهادة ربانية

ومن شهادته أيضاً: ما أودعه في قلوب عباده: من التصديق الجازم واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه. فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب، والافتراء على رب العالمين، والإحبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته. بل ذلك يقع أعظم الريب والشك. وتدفعه الفطر والعقول السليمة، كما تدفع الفطر — التي فطر عليها الحيوان — الأغذية الخبيثة الضارة التي لا تغذى. كالأبوال والأنثان. فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والاعتقاد له، والطمأنينة به، والسكون إليه وعبته. وفطرها على بعض الكذب والباطل، والتفور عنه، والريبة به، وعدم السكون إليه.

ولويقيت العطر على حالها لما آثرت على الحق سواء. ولما سكنت إلا انبياءه، ولا اطمأت إلا به، ولا أحس غيره. ولهذا سبب الله عروجن عباده — تدبر القرآن. فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علماً ضرورياً و يقيناً جازماً: أنه حق وصدق. بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق. وأن الذي جاء به أصدق خلق الله، وأمره، وأكملهم علماً وعملاً، ومعرفة. كما قال تعالى (٤: ٨٢ أفلا يتدبرون القرآن؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وقال تعالى (٤٧: ٢٤ أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفاها؟) فلورفعت الأفعال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان. وعلمت علماً ضرورياً يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية — من الفرح والألم، والحب، والخوف — أنه من عند الله. يكلم به حقاً. وتلقه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد. فهذا الشاهد في قلب من أعظم الشواهد. وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له «يهل يترد أحد منهم سخطه لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد» وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله (٢٩: ٤٩ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) وقوله (٢٢: ٥٤ ويرى الذين أوتوا العلم أنه

الحق من ربك فيؤمنوا به) وقوله (٣٤: ٦ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك: هو الحق) وقوله (١٣: ٢١٩ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى؟) وقوله (١٣: ٢٧ ويقول الذين كفروا: لولا أنزل عليه آية من ربه، قل إن الله يضل من يشاء ويهدي من أتاب) يعنى: أن الآية التى يقترحونها لا توجب هداية. بل الله هو الذى يهدى ويضل. ثم نبههم على أعظم آية وأجلها، وهى: طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذى أنزله. فقال (١٣: ٢٨ الذين آمنوا وتعلمن قلوبهم بذكر الله) أى بكتابه وكلامه (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) طمأنينة القلوب الصحيحة، والفطر السليمة به؛ وسكونها إليه: من أعظم الآيات. إذ يستحيل فى العادة: أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل.

● ذكر شهادة العلماء تغني عن ذكر شهادة الرسل

فإن قيل: فلم لم يذكر الله سبحانه شهادة رسله مع الملائكة، فيقول: شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة والرسل، وهم أعظم شهادة من أولى العلم؟
قيل: فى ذلك عدة فوائد.

إحداها: أن أولى العلم أعم من الرسل والأنبياء فيدخلون هم وأتباعهم.

وثانيها: أن فى ذكر «أولى العلم» فى هذه الشهادة، وتعليقها بهم: ما يدل على أنها من موجبات العلم ومقتضياته. وأن من كان من أولى العلم: فإنه يشهد بهذه الشهادة. كما يقال إذا طلع الهلال واتضح. فإن كل من كان من أهل النظر يراه. وإذا فاحت رائحة ظاهرة. فكل من كان من أهل الشم يشم هذه الرائحة قال تعالى (٣٩: ٣٦) وبُورُت الجحيم لمن يرى) أى كل من له رؤية يراها حينئذ عيانا. ففى هذا بيان أن من لم يشهد له الله سبحانه بهذه الشهادة: فهو من أعظم الجهال. وإن علم من أمور الدنيا ما لم يعلمه غيره. فهو من أولى الجهل، لا من أولى العلم. وقد بينا أنه لم يقم بهذه الشهادة، ويؤيدها على وجهها: إلا أتباع الرسل أهل الإثبات. فهم أولو العلم. وسائر من عداهم: أولو الجهل. وإن وسعوا القول وأكثروا الجدل.

ومنها: الشهادة من الله سبحانه لأهل هذه الشهادة: أنهم «أولو العلم» فشهادته لهم أعدل وأصدق من شهادة الجهمية والمعتلة والفرعونية لهم بأنهم جهال. وأنهم حشوية، وأنهم مشبهة، وأنهم مجسمة ونوابت ونواصب. فكفاهم أصدق المصدقين لهم بأنهم من «أولى العلم» إذ شهدوا له بحقيقة ما شهد به لنفسه، من غير تحريف ولا تعطيل. وأثبتوا له حقيقة هذه الشهادة ومضمونها. وتصورهم نفوا عنه حقانيتها. وأثبتوا له ألماطها ومجازاتها.

وفي ضمن هذه الشهادة الإلهية: الشاء على أهل العلم التهادين بها وتعديلهم. فإنه سبحانه
قرن شهادتهم بشهادته وشهادته ملائكته. واستشهد بهم — جل وعلا — على أجل مشهود به.
وجعلهم حجة على من أنكر هذه الشهادة. كما يحتج بالبينه على من أنكر الحق. فالحجة على من
أنكر هذه الشهادة. كما يحتج بالبينه على من أنكر الحق. فالحجة قامت بالرسول على الخلق.
وهؤلاء نواب الرسل وخلفاؤهم حجج الله على العباد.

وكد فسر «شهادة أولى العلم» بالإقرار. وفسر بالتبيين والإظهار، والصحيح: أنها
تتضمن الأمرين. فشهادتهم إقرار، وإظهار وإعلام. وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة. قال
الله تعالى (٢: ١٤٣) وكذلك جعلناكم أمة وسطا. لتكونوا شهداء على الناس. ويكون
الرسول عليكم شهيدا) وقال تعالى (٢٢: ٧٨) هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا
ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس).

أي: سماكم المسلمين فيما أنزل على الرسل من قبل وفي هذا القرآن الذي أنزله على
رسولكم.

فأخسر: أنه جعلهم عدولا خياراً. وبوه بذكرهم قبل أن يوحدهم، لما سبق في علمه من اتخاذ
لهم شهداء يشهدون على الأمم يوم القيامة. فمن لم يقم بهذه الشهادة — علماً وعملاً، ومعرفة
واقراً، ودعوة وتعلماً، وإرشاداً — فليس من شهداء الله. والله المستعان.

● لا دين سوى الإسلام

وأما قوله تعالى (٣: ١٩) إن الدين عند الله الإسلام) اختلف المفسرون: هل هو كلام
مستأنف، أو داخل في مضمون هذه الشهادة؟ فهو بعض المتهود به.

وهذا الاختلاف مبني على القراءتين في كسر «إن» وفتحها. فالأكثرون على كسرها على
الاستئناف. وفتحها الكسائي وحده. والوجه: هو الكسر. لأن الكلام الذي قبله قد تم. فالجملة
التاسية مقررة مؤكدة لمضمون ما قبلها وهذا أبلغ في التعرير، وأذهب في المدح والتناء. ولهذا
كان كسر (٥٢: ٢٨) إنا كنا من قبل بدعوه، إنه هو البر الرحيم) أحسن من الفتح. وكان
الكسر في قول الملبى «ليكن. إن الحمد والنعمة لك» أحسن من الفتح.

وارجح ما ذكر في توجيه قراءة الكسائي بالفتح: أن تكون الشهادة واقعة على الحملتين معاً،
كلاهما مشهود به على تقدير حذف الواو وإرادتها. والتقدير: وأن الدين عده الإسلام. فتكون
جملة استعنى فيها عن حرف العطف بما تصمت من ذكر المعطوف عليه. كما وقع الاستثناء

عنها في قوله (٢٢:١٨) ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون: خمسة سادسهم-كلهم) فيحسن ذكر الواو وحذفها، كما حذف هنا. وذكرت في قوله (٢٢:١٨) ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) .

وقد دل قوله «إن الدين عند الله الاسلام» على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواء. قال أول الرسل نوح (١٠:٧٢) فإن توليتم فما سألتكم من أجر. إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) وقال إبراهيم وإسماعيل (٢:١٢٨) ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك (٢:١٣٢) ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب: يا بني، إن الله اصطفى لكم الدين. فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون) وقال يعقوب: لبيته عند الموت (٢:١٣٢) ما تعبدون من بعدى؟ قالوا: نعبد إلهك — إلى قوله — ونحن له مسلمون) وقال موسى لقومه (١٠:٨٤) إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) (٣:٥٢) فلما أحس عيسى منهم الكفر، قال: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله. آمنا بالله. واشهد بأنا مسلمون) وقالت ملكة سبأ (٢٦:٤٤) رب إني ظلمت نفسي. وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين).

فالإسلام دين أهل السماوات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض. لا يقبل الله من أحد ديناً سواء. فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن، وخسة للشيطان. فدين الرحمن: هو الاسلام. والى للشيطان: اليهودية. والنصرانية، والمجوسية. والصابئة. ودين المشركين. فهذا بعض ما تضمنته هذه الآية العظيمة من أسرار التوحيد والمعارف.

وبدخول السالك ضمن اولى العلم المذكورين خلاها، وشهادته معهم بقيومية الله سبحانه، وعزته وحكمته: يبلغ مقصده، ويعتلي الذروة، فيقف على القمة، شاعراً، إذ يرى بين يديه منظراً شاملاً للمنازل التي مرَّ بها، متناثرة في وديان الانخبات والمحبة، ومجموعة على سفوح التوكل والصبر، فيخر ساجداً، حامداً إذ وصل سالماً ثابتاً، شاكراً خاشعاً.

خاتمة

(سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين)
فتختتم الكتاب بهذه الآية، حامدين لله، مشييين عليه بما هو أهله. وبما أثنى به على نفسه.
والحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه. كما يحب بنا ويرضى. وكما ينهني لكرم
وجهه، وعزّ حلاله. غير متكبر ولا مكبور، ولا مُتَوَكِّع. ولا مستعسى عنه رباً.
ونسأله أن يورعنا شكر نعمته، وأن يوفقنا لأداء حقه. وأن يعيضا على ذكره وشكره وحسن
عبادته. وأن يجعل ما قصدنا له — في هذا الكتاب وفي غيره — حالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة
لعاده.

فيا أيها القارئ له:

ما وجدت فيه من صواب وحق فاقله. ولا تنته إلى قائله. بل انظر إلى ما قل لا إلى من
قال. وقد ذم الله تعالى من يرد الحق إذا جاء به من يعصه. و يعبله إذا قاله من يحبه. فهذا خلق
الأمّة الغضبية. قال بعض الصحابة «أقل الحق من قاله، وإن كان نقيصاً. ورد الناطل على من
قاله، وإن كان حياً» وما وجدت فيه من خطأ: فإن قائله لم يأل جهد الإصانة. ويأبى الله
إلا أن يتهمد بالكمال. كما قيل: *

والمقص في أصل الطبيعة كامس ففسد الطبيعة نقصهم لا يحدد

وكيف يُعصم من الخطأ من حُلّ ظلوماً جهولاً؟ ولكن من غُذّب غلطاته أقرب إلى الصواب
من عدت إصاناته.

وعلى المتكلم في هذا الباب وعيره: أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق. وعابته:
النصيحة لله، ولكثاته ورسوله، وإخوانه 'المسلمين'. وإن جعل الحق تعالاً للهوى: فسد القلب
والعمل والحال والطريق. قال الله تعالى (٢٣: ٧٩) ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت الأرض
ومن فيهن) وقال السبي صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما
جئت به» فالعلم والعدل: أصل كل خير. والظلم والجهل: أصل كل سر. والله تعالى أرسل
رسوله بالهدى ودين الحق وأمره أن يعدل بين 'طوائف'. ولا يتبع هوى أحد منهم. فقال تعالى
(٤٢: ١٥) فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم. وقل: آمنت بما أنزل الله
من كتاب. وأمرت لأعدل بينكم. الله ربنا وربكم. لنا أعمالنا، ولكم أعمالكم. لا
حجة بيننا وبينكم. الله يجمع بينا والمصين).

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم وادّ على حاتم المرسل محمد وعلى آله أجمعين.

الفهرست

صفحة هذا التهذيب

صفحة المدارج الاصل

١٩	٢/١	• مقدمة ابن القيم
٢٣	٧/١	• فاتحة المطالب العالية
٣٥	٢٤/١	• فاتحة التوحيد
٤٥	٣٧/١	• مراتب الهداية
٥٣	٥٢/١	• الفاتحة الشافية
٥٧	٥٨/١	• فاتحة التفنيد
٦٣	٧٤/١	• عبادة واستعانة
٩٣	١٣٥ ، ١٢٢/١	• مصطلحات واساليب

•

١٠١	١٢٣/١	(١) منزلة اليقظة
١٠٥	١٤٦/١	(٢) منزلة الفكرة
١٠٦	١٢٣/١	(٣) منزلة البصيرة
١١١	١٣٢/١	(٤) منزلة العزم
١١٥	١٦٩/١	(٥) منزلة المحاسبة
١٢١	١٧٨/١	(٦) منزلة التوبة
١٥٧	٢٧٢/١	• من احكام التوبة
١٦٧	٢٩٤/١	• مفاضلة
١٧٥	٣٠٥/١	• الركيزة الجامعة

صفحة المذارج الاصل

١٨١	٣١٥/١	• صفائر دون الكبائر
١٩١	٣٣٥/١	• أجناس المحرمات
٢١١	٣٩٩/١	• مشاهد المعصية
٢٣١	٤٣٣/١	(٧) منزلة الانابة
٢٣٧	٤٤١/١	(٨) منزلة التذكّر
٢٥١	٤٦٠/١	(٩) منزلة الاعتصام
٢٥٥	٤٦٩/١	(١٠) منزلة الفرار
٢٥٩	٤٨١/١	(١١) منزلة السماع
٢٦٩	٥١١/١	(١٢) منزلة الخوف
٢٧٣	٥١٧/١	(١٣) منزلة الاشفاق
٢٧٥	٥٢٠/١	(١٤) منزلة الحشوي
٢٧٩	٤/٢	(١٥) منزلة الاخبات
٢٨٣	٨/٢	(١٦) منزلة الزهد
٢٨٩	٢٠/٢	(١٧) منزلة الورع
٢٩٥	٢٩/٢	(١٨) منزلة التبتل
٢٩٧	٣٥/٢	(١٩) منزلة الرجاء
٣٠٧	٥٥/٢	(٢٠) منزلة الرغبة
٣١١	٦٥/٢	(٢١) منزلة المراقبة
٣١٥	٧٤/٢	(٢٢) منزلة تعظيم الحرمات
٣٢١	٨٩/٢	(٢٣) منزلة الاخلاص
٣٢٧	٩٧/٢	(٢٤) منزلة التهذيب
٣٣١	١٠٣/٢	(٢٥) منزلة الاستقامة

صفحة هذا

صفحة المذارج الاصل

٣٣٥	١١٢/٢	(٢٦) منزلة التوكل
٣٤٧	١٤٣/٢	(٢٧) منزلة الثقة
٣٥١	١٥٢/٢	(٢٨) منزلة الصبر
٣٦٣	١٧١/٢	(٢٩) منزلة الرضا
٣٨٣	٢٤٢/٢	(٣٠) منزلة الشكر
٣٨٩	٢٥٨/٢	(٣١) منزلة الحياء
٣٩٥	٢٦٨/٢	(٣٢) منزلة الصدق
٤٠٥	٢٩١/٢	(٣٣) منزلة الايثار
٤١٣	٣٠٤/٢	(٣٤) منزلة الخلق
٤٢٧	٣٢٧/٢	(٣٥) منزلة التواضع
٤٣٥	٣٤٠/٢	(٣٦) منزلة الفتوة
٤٤١	٣٦٤/٢	(٣٧) منزلة الارادة
٤٤٥	٣٧٥/٢	(٣٨) منزلة الادب
٤٥٧	٣٩٧/٢	(٣٩) منزلة الفقر
٤٦٣	٤٢٣/٢	(٤٠) منزلة الذكر
٤٦٩	٤٣٨/٢	(٤١) منزلة اليقين
٤٧٧	٤٥٣/٢	(٤٢) منزلة الاجتناء
٤٨١	٤٥٩/٢	(٤٣) منزلة الاحسان
٤٨٣	٤٦٤/٢	(٤٤) منزلة العلم
٤٩١	٤٨٢/٢	(٤٥) منزلة القراءة
٤٩٥	٤٩٥/٢	(٤٦) منزلة التعظيم
٤٩٧	٥٠٢/٢	(٤٧) منزلة السكينة

صفحة هذا التهذيب

صفحة المدايرج الاصل

٥٠٣	٥١٢/٢	(٤٨) منزلة الطمأنينة
٥٠٧	٣/٣	(٤٩) منزلة الهمة
٥٠٩	٦/٣	(٥٠) منزلة المحبة
٥٢٧	٤٢/٣	(٥١) منزلة الغيرة
٥٣١	٦٧/٣	(٥٢) منزلة الوجد
٥٣٥	٨٢/٣	(٥٣) منزلة البرق
٥٣٩	٨٧/٣	(٥٤) منزلة الذوق
٥٥٥	١٤١/٣	(٥٥) منزلة الصفاء
٥٦١	١٥٦/٣	(٥٦) منزلة الفرح
٥٦٩	١٧٠/٣	(٥٧) منزلة السير
٥٧٧	١٩٤/٣	(٥٨) منزلة الغربة
٥٨٣	٢١٥/٣	(٥٩) منزلة التمكين
٥٨٧	٢٤٥/٣	(٦٠) منزلة المعاناة
٥٩٣	٢٥٨/٣	(٦١) منزلة الحياة
٦١٧	٣٣٤/٣	(٦٢) منزلة المعرفة
٦٣٧	٣٩٧/٣	(٦٣) منزلة رعاية الاسباب
٦٤١	٤٣١/٣	(٦٤) منزلة استئناف التوبة
٦٤٥	٤٤٣/٣	(٦٥) منزلة استئناف التوحيد
٦٦١	٤٤٩/٣	(٦٦) منزلة الشهادة

● حاتمة

